

محمد قطب

والله اعلم  
بالمعاصر

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

الطبعة الأولى  
١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

## الناشر

### مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر

جميع حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة وغير مسموح  
بطبوع أي جزء من هذا الكتاب أو خزنه في أي نظام لحزن  
المعلومات أو استرجاعها، أو نقله على أي هيئة أو بآية وسيلة،  
سواء أكانت الكترونية أو شرائط ممغنطة أو ميكانيكية، أو  
استنساخاً، أو تسجيلاً، أو غير ذلك، إلا بإذن كتابي صريح من  
صاحب حق النشر:

### مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر

ص ب : ٨٠٧ جدة ٢١٤١٢

المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

صدق الله العظيم

## مقدمة

يجتاز العالم الإسلامي اليوم مرحلة من أسوأ مراحلها . . يمكن أن نطلق عليها مرحلة «التيه» . .

ولقد مرت بالعالم الإسلامي أزمات كثيرة من قبل، بل نكبات كثيرة، كان المسلمون يفقدون فيها تمكثهم في الأرض، أو يفقدون أمنهم وطمأنينتهم، أو يفقدون ديارهم وأموالهم . . ولكنهم مع ذلك لم يخوضوا تجربة أفسى ولا أمر من تجربتهم المعاصرة في تاريخهم كله .

لقد كانت أزمة الردة - مثلاً - أزمة حادة ولا شك، توشك أن تهدد الدولة الناشئة وتعوق حركتها وهي في مهدها . ولكن الناظر إلى السنن الربانية لم يكن ليخالجه الشك في أن النصر سيكون للدولة المسلمة وليس للمرتدين هنا أو هناك في أرجاء الجزيرة العربية . فقد كان إيمان المسلمين بالحق الذي اعتنقوه، وعمق صلتهم بربهم، وإخلاصهم لدينه، أضعاف إيمان المرتدين بباطلهم المزيف الذي يقاتلون من ورائه، مع خلو موقفهم من أية قيم حقيقية إلا الهوى والشهوات! وما كان من جزع الصحابة رضوان الله عليهم، ومشورتهم على أبي بكر رضى الله عنه بالترث في قتالهم، فلم يكن ذلك لشك في نفوسهم أن الله سينصر دينه، إنما كانت مشورتهم من أجل إتاحة الفرصة لتجميع الجيش الكافي للمعركة . ولكن إيمان أبي بكر الراسخ، وثقته العميقة بوعد الله بالتمكين لهذا الدين في الأرض، وحساسيته المرهفة أن يترك الخارجين على أمر الله دون أن يسارع في توقيع العقوبة التي أمر الله بإنزالها بهم . . كل ذلك قد فعل فعله في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، فوقفوا صفاً واحداً وراء أبي بكر رضى الله عنه . . ونصر الله دينه كما وعد . ولقد كانت فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه وما تلاها من الحروب بين على ومعاوية، أزمة حادة ابتلى بها المسلمون والدولة ما تزال في نشأتها، وعداوات

الأرض قائمة من حولها. ولكن الناظر إلى مجريات الأمور يومئذ لم يكن ليشك في نهاية الأزمة. فقد كان الخلاف - على كل عمقه، وكل ما أثاره من فرقة في صفوف المسلمين - خلافاً على من يتولى الأمر ليتمكن للإسلام في الأرض، وليس خلافاً على الإسلام ذاته، هل يكون هو قاعدة الحياة للمسلمين أم يكون شيء آخر خلفه! ولم تكن هناك في الوقت ذاته قوة خارجية تملك شيئاً من الحق، أو هي أكثر إيماناً بمنهجها الذي تعيش به، من إيمان المؤمنين بالحق الذي اعتنقوه وأقاموا حياتهم على أساسه. وتلك حسب السنن الربانية هي المقومات الأساسية التي يتقرر بها النصر من عند الله أو الهزيمة، قبل العدد والعدة وخطط الحرب، وإن كانت هذه كلها عوامل لها حسابها في الميزان الأخير، لأنها من «الأسباب» التي أمر الله باتخاذها، وجعلها جزءاً من سنته الجارية. ولكن الأسباب المادية وحدها ليست هي التي تحسم الأمر، ولا هي التي تقرر المصير.

كذلك كانت أزمة الحروب الصليبية وحروب التتار أزمة حادة في حياة المسلمين. وبدا - لفترة من الوقت - أنها يمكن أن تطيح بالكيان الإسلامي كله وتجتث المسلمين من الأرض. ولكن النتيجة الواقعية كانت غير ذلك، وجاء النصر من عند الله في النهاية. وكانت الهزيمة في البدء والنصر في النهاية كلاهما مطابقاً للسنن الربانية التي لا يجحد عنها شيء في الوجود كله. فقد كان واقع المسلمين سيئاً، مليئاً بالمعاصي والبدع والانحرافات والشتات والفرقة، والانشغال بذلك كله عن نصره دين الله والتمكين له في الأرض. ولذلك اجتاحت جيوش الأعداء أرض المسلمين وأزلت سلطانهم إلى حين. ولكن جذوة العقيدة كانت ما تزال حية في النفوس، وإن غشيتها غاشية من التواكل والسلبية أو الانشغال بشهوات الأرض. فما إن جاء القادة الذين يردون الناس إلى الجادة بدعوتهم للرجوع إلى حقيقة الإسلام، حتى صحت الجذوة واشتعلت. . فجاء على أثرها النصر. فحين قام صلاح الدين يقول للناس: لقد هُزمتم لبعدمكم عن طريق الله، ولن تُنصروا حتى تعودوا إلى الطريق. . وحين قام ابن تيمية يدعو لتصحيح العقيدة بما طرأ عليها من غش المتكلمين وضلالاتهم. . وحين صاح قطز بصيحته الشهيرة: وإسلاماه! . . وتبعتهم جماهير الأمة المسلمة فصدقت الله في عقيدتها وسلوكها، جاء النصر، وتغلب المسلمون على أضعافهم من المشركين والكفار.

وجاءت نكبة الأندلس عقابا ربانيا للمسلمين على تفرقهم وتشتتهم وحرب بعضهم لبعض، وتعاونهم مع أعدائهم من الصليبيين ضد بعضهم البعض، واتخاذ أولئك الأعداء بطانة من دون المؤمنين - مخالفة لأمر الله - وهم لا يألونهم خبالا . . بالإضافة الى الفتنة بشهوات الأرض، المباح منها وغير المباح . . ولم تعد الأندلس إلى الإسلام . . ولكن طاقة الأمة الإسلامية في مجموعها لم تكن قد استنفدت . ففي ذات الوقت الذي انحسر فيه ظل الإسلام عن الأندلس كانت هناك دولة فنية في سبيلها إلى التمكن في الأرض، واستطاعت أن تحفظ كيان المسلمين أربعة قرون كاملة، وامتدت في داخل العالم الصليبي حتى «فيينا» و«بطرسبرج»، ودخل في الإسلام على يديها ملايين من البشر في أوروبا وآسيا على السواء .

ولكن الأزمة التي يعانها المسلمون اليوم هي أقسى من سابقتها وأمر . وما يخالجنى شك في أنها هي الأخرى ستمر، ويمكن الله لدينه مرة أخرى في الأرض .

ولكن علينا أن نعرف الطبيعة الخاصة لهذه الأزمة، لنعلم لم طالت عن كل سابقتها، ولنعلم من جهة أخرى كيف يكون المخرج منها حين يأذن الله، فتتخذ الأسباب المؤدية بإذن الله إلى النجاة .

حين وقعت الحروب الصليبية الأولى التي استغرقت حوالي مائتي عام (١٠٩٦ - ١٢٩١م) والتي وقعت في أثنائها وبعدها كذلك غارات التتار، كان المسلمون قد شغلوا عن الإسلام الصحيح ببدع وخرافات ومعاصي، وتواكل وتقاعس وعود عن الأخذ بالأسباب، ولكن الإسلام ذاته لم يكن في نفوسهم موضع نقاش، لا بوصفه عقيدة ولا بوصفه نظام الحكم ونظام الحياة . وحتى حين هُزموا أمام الصليبيين وأمام التتار فلم يكن صدى الهزيمة في نفوسهم هو الشك في الإسلام ذاته عقيدة أو نظام حياة، ولم يكن هو التطلع إلى ما عند أعدائهم من عقائد أو أفكار أو مشاعر أو نظم أو أنماط سلوك، أو الظن - للحظة واحدة - أن أعداءهم يملكون شيئاً من «الحق» تقوم حياتهم عليه، أو أن هناك شيئاً - غير الإسلام - يمكن أن يكون هو الحق في العقيدة وفي نظام الحياة سواء . ولم تكن قضية الحكم بما أنزل الله موضع شك منهم ولا موضع نقاش، لأنها كانت جزءاً

لا يتجزأ من إسلامهم، بل كانت في حسهم - كما هي في الحقيقة - هي المقتضى المباشر لكونهم مسلمين .

لذلك لم يهنوا - حتى وهم مهزومون أمام أعدائهم فترة غير قصيرة - ولم يشعروا أنهم أدنى من أعدائهم، بل كان يتمثل فيهم قوله تعالى: «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» (١) .  
وكانوا مؤمنين !

بل كانوا يشعرون - حتى وهم مهزومون - بازدياد شديد لأعدائهم، لأن عقيدتهم وتصوراتهم لا تتفق مع العقيدة الصحيحة والتصوير الحق، ولأن أخلاقهم وأنهاط سلوكهم لا تتفق مع أخلاقيات الإسلام وأنهاط سلوكه . كان التثار - في حسهم - همجا لا دين لهم ولا حضارة، وكان الصليبيون هم المشركين عباد الصليب، وكانوا فوق ذلك منحلّي الأخلاق، لا غيرة لهم على عرض ولا حفاظ .

أما في الحروب الصليبية الأخيرة فقد كان الموقف قد تغير كثيراً عن ذي قبل . كان المسلمون قد انحرفوا انحرفاً شديداً عن حقيقة الإسلام، لا في السلوك وحده ولكن في التصور كذلك .

مفهوم لا إله إلا الله - أساس الإسلام كله وأكبر أركانه - كان قد تحول إلى كلمة تقال باللسان، لا علاقة لها بالواقع، ولا مقتضى لها في حياة المسلمين أكثر من أن ينطق بها بضع مرات في كل نهار! فضلاً عما أحاط بالعقيدة من خرافة، وعبادة للأضرحة والأولياء والمشايخ، بدلا من العبادة الصافية الخالصة لله دون وسيط . مفهوم العبادة - الشامل الواسع - كان قد انحصر في شعائر التعبد، من أداها فقد أدى كل ما عليه من العبادة، ولم يعد مطالباً بشيء من التكليف أمام الله! فضلاً عما أصاب الشعائر التبعيدية ذاتها من عزلة كاملة عن واقع الحياة، كأنها شيء ليس له مقتضى في الحياة الدنيا ولا تأثير!

مفهوم القضاء والقدر - الذي كان في صورته الصحيحة قوة دافعة رافعة - صار في صورته السلبية قوة مخذلة مبطئة عن العمل والنشاط والحركة والأخذ

---

(١) سورة آل عمران [ ١٣٩ ] .



بالأسباب! فضلا عما صاحب ذلك من استخدام القوى الخفية من السحر والجن . . الخ، جريا وراء سنة الله الخارقة بدلا من التعامل مع السنة الجارية التي أمر المسلمون بالتعامل معها، واتخاذ الأسباب المؤدية إلى جريانها في صالحهم إذا توكلوا على الله حق التوكل، كقوله تعالى: «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم»<sup>(١)</sup> وقول الرسول صلى الله عليه وسلم «تداووا عباد الله فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء»<sup>(٢)</sup> . . الخ . . الخ

مفهوم الدنيا والآخرة - الذى يربط الدنيا بالآخرة، ويجعل الدنيا مزرعة الآخرة كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم - تحول إلى فصل كامل بين الدنيا والآخرة، يجعلها موضع التقابل الكامل وموضع التضاد، فمن أراد الدنيا ترك الآخرة، ومن أراد الآخرة ترك الدنيا واكتفى فيها بالكفاف .

وأما عمارة الأرض فقد أهملت حين أهملت الدنيا من أجل الآخرة، فخيم على الناس الفقر والجهل والمرض والتخلف الحضارى والمادى والعلمى والعقلى . . وزاد على ذلك كله أنه - في حَسَمهم - قدر مقدور من عند الله، لا حيلة لهم فيه إلا الرضاء والتسليم!<sup>(٣)</sup> .

وفضلا عن ذلك كله فقد خلت حياة الناس من الروح، وأصبحت الحياة كلها تقاليد موروثه، يحافظ عليها من أجل أنها تقاليد، لا من أجل أنها جزء من منهج حيّ يحكم الحياة. فالعبادة تقاليد، والسلوك تقاليد، وحجاب المرأة تقاليد، وقضية العرض تقاليد . . أكثر مما هى عبادة واعية لله، أو منهج مترابط يحكم الحياة .

وحين جاءت الحروب الصليبية الجديدة والمسلمون على هذا الوضع، كان الاحتمال الأكبر أن ينهاروا، ويسلموا أنفسهم للضياع!

\* \* \*

يحفظ التاريخ للمسلمين كثيراً من أدوار البطولة في جهاد الصليبيين الذين أغاروا على بلاد الإسلام ما بين القرن السابع عشر الميلادى إلى القرن التاسع

(١) سورة القتال [٧]

(٢) أخرجه البخارى في الأدب المفرد .

(٣) تحدثت عن هذه المفاهيم في كتاب مستقل بعنوان: «مفاهيم ينبغي أن تصحح» .

عشر، سواء في الشمال الأفريقي، أو وسط أفريقيا، أو في وادي النيل (مصر والسودان) أو في الهند والملايو وأندونيسيا والفلبين، أو في وسط آسيا الذي اغتالته روسيا القيصرية الصليبية . .

ولكنها كانت بطولات المهزم المتقهقر، يضرب آخر ضرباته قبل الاستسلام. كانت العقيدة قد توارت وراء الركام، فكان حقا على الناس أن ينتهوا إلى الهزيمة والاستسلام.

\* \* \*

ويقال كلام كثير عن الحضارة الأوربية الفارهة التي التقى بها المسلمون في تخلفهم الحضارى الذى كانوا عليه، فأدى بهم ذلك اللقاء إلى الهزيمة الروحية، والانبهار بما عند الغرب من أفكار ونظم وانفلات من الدين والأخلاق والتقاليد . .

وما يقال عن الفارق الحضارى صحيح في ذاته . . أما الظن بأنه هو السبب في الهزيمة الروحية، والانبهار الذى أصاب المسلمين تجاه الغرب، فضلا عن كونه مجانيا للحقيقة، فهو مضلل لنا أشد التضليل، لأنه يغطى على الأسباب الحقيقية للهزيمة، كما يغطى كذلك على الوسائل الحقيقية للعلاج.

لقد كان المسلمون في نشأتهم الأولى في طور من البداوة لا يملكون شيئا مما يملكه «المتحضرون» من حولهم من أسباب الحضارة المادية أو من العلوم. وكان لزاماً عليهم إذا أرادوا الحضارة المادية والعلم أن يأخذوا أسبابها من الدولتين «العريقتين» عن يمين وشمال: فارس والروم.

وقد صنعوا ذلك بالفعل . . ولكنهم لم يحنوا رءوسهم أبداً، ولم يشعروا بالانبهار.

كانوا هم الأعلين، لأنهم كانوا هم المؤمنين! كانوا في حاجة شديدة لتعلم علوم الكفار الوثنيين من حولهم، ولكن هذه الحاجة الشديدة لم تشعرهم بالصغار تجاههم، ولا بأنهم دونهم، بل كانوا يعرفون - ويشعرون - أن العزة لهم، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وليس للكفار والوثنيين شيء من العزة ولو ملكوا كل علوم الأرض، وكل خزائن الأرض! وحين أخذوا ممن حولهم فقد كان سلوكهم المستعلى بالإيمان واضحاً في طريقة

الأخذ، وكان أوضح ما يكون في خصلتين رئيسيتين:  
الأولى أن أرواحهم لم تهزم قط أمام أعدائهم تحت ضغط الحاجة إلى الأخذ  
منهم، والثانية أنهم لم ينقلوا كل شيء وجدوه عند أعدائهم، بل كانوا ينقلون على  
بصيرة، فينقلون فقط ما يظنون أنهم في حاجة إليه، مما لا يتعارض مع عقيدتهم  
وإسلامهم، ويعرضون عن كل ما يرونه غير نافع لهم، أو يرونه مخالفاً لعقيدتهم  
وتصوراتهم، وأوضح مثال على ذلك أنهم نقلوا علوم الإغريق ولم ينقلوا ما كان  
مشهوراً عندهم من الأساطير، لأنهم رأوا فيها أمراً من أمور الجاهلية الوثنية  
الغارقة في الضلال، لا يستحق أن يلتفت إليه، بل يستحق الزرابة والإهمال!  
أما في حركة النقل الأخيرة فقد كان الأمر جد مختلف!

وليس الاختلاف ناشئاً من حجم الفارق الحضارى بين الأخذين والمعطين كما  
يبدو للنظرة السطحية للوهلة الأولى، إنما هو ناشئ بصفة أساسية من اختلاف  
«الموقف» ما بين حركة الأخذ الأولى وحركة الأخذ الثانية.

في الأولى كان المسلمون هم الأعلى وإن كانوا آخذين، لأن الاستعلاء  
بالإيمان هو الذي يكيف حياتهم ويحدد موقفهم. وفي الثانية كانت العقيدة قد  
تخلفت وتوارت تحت الركام، فلا عزة ولا استعلاء، إنما هي الهزيمة والانبهار،  
والنقل - بلا بصيرة - لكل ما هو موجود في الغرب، بغير تمييز بين ما ينفع وما  
يضر، ولا بين ما يتفق مع الإسلام وما يتعارض معه، لأن الإسلام لم يعد محور  
ارتكاز «المسلم المعاصر!» ولم يعد له كيانه المتميز، المستمد من العقيدة  
الصحيحة، ومن تطبيق منهج الله.

\* \* \*

واليوم يدور الزمن دورته، ويبدأ الوجه الكالح للقرون الأخيرة في حياة  
المسلمين ينحسر، ويزغ فجر جديد للإسلام في ربوع الإسلام.  
بدأ الناس - والشباب المثقف خاصة - يعودون إلى الإسلام، يريدونه رائقاً  
صافياً كما نزل أول مرة بلا غش ولا ركام.

وفي كل مكان في الأرض التي حكمها الإسلام ذات يوم حركات بعث  
إسلامي، ودعاة يدعون إلى الإسلام، وشباب يتطلعون إلى اليوم الذي يجدون فيه  
الإسلام مطبقاً بالفعل، واليوم الذي يعود فيه المسلمون إلى الاستخلاف والتمكين

في الأرض - في صورتهم الإسلامية الحقيقية المتميزة - تحقيقاً لوعد الله : «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً» (١).

وفي الطريق عقبات كثيرة تعوق المسيرة ولكنها لا تمنع المسير .  
فهناك من ناحية جهل الناس بحقيقة الإسلام، وبعدهم الشديد عن هذه الحقيقة سواء في التصور أو السلوك . .

وهناك من ناحية أخرى الغزو الفكري يزين للناس - والشباب خاصة - الانسلاخ من الإسلام جملة واتباع الغرب بشطريه، الشرقى أو الغربى، ويزين لهم الانقلابات من كل قيد من قيود الأخلاق .

وذلك فضلاً عن العداوات المرصودة للإسلام، تبتش بالذعة في كل الأرض، وتضع في طريق الدعوة ما وسعها من العراقيل .

ولكن هناك إلى جانب ذلك مبشرات . .

والمبشرات في حَسَى أكبر من المعوقات . .

فالصحوه الإسلامية القائمة اليوم في كل مكان في العالم الإسلامي، حدث تاريخي له دلالاته . . فهي نجىء - من جهة - بعد الجهد الجاهد الذي بذلته الصليبية الصهيونية على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان لزحزحة الأمة الإسلامية من إسلامها وسلخها منه . . ونجىء - من جهة أخرى - والبشرية في أحد منعطفاتها التاريخية، وقد بدأت تياس من حضارتها المادية الجافية، وبدأت تتطلع إلى مخلص جديد . .

ولن يُخْرِجَ المسلمين من أزمته، ويرفع عنهم إصرهم والأغلال التي صارت عليهم، ويردهم إلى عزتهم إلا العودة الصحيحة الصادقة إلى الدين الذي أنعم الله به عليهم وحباهم إياه . .

ولن يخلص البشرية من أزمته، ويحل لها ما عقدته من مشكلاتها في جاهليتها

---

(١) سورة النور [٥٥]

المعاصرة، إلا المنهج الرباني، الذي أنزله الله ليقوم الناس بالقسط، وليكون شفاء ورحمة للمؤمنين.

«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»<sup>(١)</sup>.

«ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين»<sup>(٢)</sup>.

ولكن الأمر لن يكون نزهة سهلة في طريق معبد مفروش بالورود. .  
إنها هي رحلة شاقة في طريق مملوء بالأشواك والدموع والدماء والعذاب. .  
يخوضها المؤمنون بهذا الدين مع كل العداوات المحيطة بالإسلام، وكل العقبات المرصودة في الطريق. . حتى يتم التمكين للإسلام من جديد، وتزول الغربة الثانية التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء»<sup>(٣)</sup> وفي رواية الترمذي «فطوبى للغرباء، يصلحون ما أفسد الناس من سنتي».

وفي هذا الكتاب محاولة لتشخيص ما أصاب الأمة الإسلامية منذ كانت في موقع الذروة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن أصبحت ذلك الغناء الذي أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل»<sup>(٤)</sup>. ومحاولة لدراسة الواقع المعاصر لهذه الأمة بعد أن أصابها ما أصابها في مسيرتها الطويلة خلال القرون. . ثم محاولة لدراسة الصحوة الإسلامية وما تحمله من دلالة تاريخية، وماذا أنجزت، وماذا ينبغي أن تنجز حتى تجتاز أزمتها الحالية، وتصل بإذن الله إلى التمكين الذي وعد الله به المؤمنين:

وقد أردت بمحاولتي تلك الرد على تساؤلات الشباب المتطلع إلى تحقيق الإسلام في عالم الواقع: لماذا طالت المسيرة؟ لماذا تأخر التمكين؟ ما منهج الدعوة؟ ما الطريق الصحيح. . ؟

(١) سورة الحديد [٢٥]

(٢) سورة الإسراء [٨٢]

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود بسند صحيح.

(٣) أخرجه مسلم

«إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله»<sup>(١)</sup>.  
فما كان في هذه المحاولة من التوفيق فهو من الله. وما كان فيها من القصور  
فبحسبى أنى بذلت فيها ما وسعنى من الجهد، وعلى الله قصد السبيل.  
أدعو الله أن يوفق العاملين في الحقل الإسلامي إلى الرؤية الصحيحة، والعمل  
الجاد لتحقيق الأمانة التي ناطها الله بالمؤمنين..

\* \* \*

وأخيراً فهناك ملاحظة خاصة بهذه الطبعة الأولى من الكتاب..  
فقد كنت أحتفظ دائماً بقصاصات من الصحف، وبيعض النصوص،  
والتصريحات ذات الدلالة التي تلقى بين الحين والحين، لأعود إليها كلما احتجت  
إلى الاستشهاد بها في مناسبة من المناسبات.. وقد أخذت مني هذه القصاصات  
عند دخولى السجن الحربى عام ١٩٦٥م ثم لم تردّ إليّ.  
وقد احتجت للاستشهاد ببعض هذه النصوص والتصريحات في ثنايا الكتاب.  
ولكنى بالنسبة لهذه الطبعة لا أجد الوقت ولا الإمكانيات اللازمة للبحث عنها في  
مظانها. لذلك أثبت - من الذاكرة - ما استطعت أن أثبته منها، ولكنى أرجو في  
أى طبعة قادمة بإذن الله أن أكون قد استطعت العثور على نصوصها الكاملة، مع  
إثبات مراجعها.

والله ولى التوفيق

محمد قطب

## نظرة إلى الجيل الفريد

ذلك الجيل الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خيركم قرني»<sup>(١)</sup>.  
والذي استحق استحقاقاً كاملاً وصف الله سبحانه: «كتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»<sup>(٢)</sup>.  
إنه الجيل الذي تم فيه اللقاء بين المثال والواقع، فترجم مثاليات الإسلام إلى واقع، وارتفع بالواقع البشري إلى درجة المثال.

والمثالية الواقعية، أو الواقعية المثالية من أبرز خصائص هذا الدين.  
فلا هو يضع مثلاً روحانية عسيرة التطبيق، تهمل ضرورات الإنسان وواقعه المادى، وتشد الناس إلى أعلا شدا بلا هوادة فتعلقهم في الفضاء، كما تصنع الهندوكية والبوذية والرهبانية، ولا هو إذ يلتفت إلى مطالب الجسد وعالم المادة يجبس الإنسان في نطاق ضروراته، ويقعد به عن التحليق في الآفاق العليا التي يتحقق فيها المثال، بل يأخذ بهذه وتلك في آن واحد على توازن واتساق، ومن ثم تلتقى فيه المثالية التي لا تهمل الواقع، بالواقعية التي لا تهمل المثال، ويكون من نتائجها - في أعلا حالاتها - ذلك الجيل المتفرد في التاريخ.

ونحن في حاجة ملحة لأن نتعرف على هذا الجيل، لنعرف مكان الأسوة لنا فيه في واقعا المعاصر، ولنقيس على ضوئه مدى قربنا أو بعدنا عن حقيقة الإسلام.  
ونريد - قبل أن نرسم السمات الفريدة لذلك الجيل المتفرد - أن نتعرف على العوامل التي أثرت فيه، فرفعته إلى تلك القمم السامقة التي وعها التاريخ.

لقد كان العرب شتيماً متنازلاً لا يتجمع على شيء رغم وجود مقومات التجمع الأرضية كلها من وحدة الأرض ووحدة اللغة ووحدة الثقافة ووحدة التاريخ ووحدة المصالح. . تلك التي يقول علم الاجتماع الجاهلي إنها هي التي تنشئ «الأمّة».

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) سورة آل عمران [١١٠].

ولكن الأمة مع ذلك لم تنشأ رغم مرور الزمن المديد على هذا الشتيت المتناثر وهو يحمل تلك المقومات . بل كانوا قبائل متناحرة تأكلها الحروب والثارات ، وتأكلها قبل كل شيء جاهليتها التي تعيش فيها مجافية للهدى الرباني .  
ومن هناك رفعها الإسلام ، لا أفرادا ولا قبائل ، ولكن «أمة» هي أعظم أمة في التاريخ بشهادة الله مخرجها إلى الوجود:  
«كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»<sup>(١)</sup> .

فمن أي شيء تكونت هذه الأمة الفضة ، وما العوامل التي أثرت في تكوينها ونشأتها؟

لا شك أن خامتها هي ذات الخامة التي كانت تعيش في ذات الأرض قبل هذا الحدث العظيم لعدة قرون . . ولكن شيئا ما - فعله كفعل السحر - قد أنشأ من هذه الخامة في سنوات قليلة نسيجا غير مسبوق ولا ملحق . . فما هو يا ترى ذلك الشيء العجيب التأثير ، الذي أخرج ذلك النسيج الفذ من تلك الخامة التي ظلت لقيء مهملًا عدة قرون؟!

لا شك - بادئ ذي بدء - أنه القرآن . . ذلك الكتاب العظيم الذي نزل ليعيد بناء البشرية على هدى الوحي الرباني :

«إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم»<sup>(٢)</sup> .

«وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم»<sup>(٣)</sup> .

ماذا يفعل القرآن في النفوس؟ هل يغير خامتها فيخرجها من بشريتها لتكون خلقا آخر؟ كلا! فقد نزل للبشر ، لا ليبدل فطرتهم ، بل ليعيدهم إلى فطرتهم التي فطرهم الله عليها يوم خلق الإنسان «في أحسن تقويم» .

«فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»<sup>(٤)</sup> .

أرأيت حين تمرر المغنطيس على قطعة من الحديد ، أتراه يغير طبيعتها؟ كلا!

(٢) سورة الإسراء [٩] .

(١) سورة آل عمران [١١٠] .

(٤) سورة الروم [٣٠] .

(٣) سورة الزخرف [٤] .



ولكنه يعيد ترتيب ذراتها فتصبح شيئاً آخر غير قطعة الحديد المبعثرة الذرات! تصبح كيانا جديدا له طاقة مغناطيسية كهربائية لم تكن له من قبل! وكذلك يفعل في نفوس البشر هذا الدين المنزل في كتاب الله . إنه يتخلل النفوس البشرية فيعيد ترتيب ذراتها، فتصبح قوى كونية وطاقات، بعد أن كانت مبعثرة من قبل، ضائعة في التيه .

فأى شيء في هذا الكتاب العظيم هو مصدر ذلك السر الذى يحول الخامات المبعثرة الضائعة إلى طاقات؟ أهو نسقه اللغوى المعجز؟ أهو قوة بيانه؟ أهو وضوح معانيه؟ أهو حديثه عن اليوم الآخر وما فيه من مشاهد تهتز لها أوتار القلوب؟ أهو تشريعاته وتوجيهاته وتنظيحاته؟ أهو قصصه وأمثاله وعبره؟ أهو تذكيره الدائم بعظمة الله جل جلاله وقدرته المعجزة التى لا تحدها حدود؟! .

إنه ولا شك كل ذلك . . فكل حرف في هذا القرآن له دلالة في مكانه، وله جانبه من التأثير.

ولكننا لا نكون مخطئين إن قلنا إن أوسع موضوعات القرآن جميعا هو موضوع الألوهية . . هو قضية لا إله إلا الله .

ولقد قلت في غير هذا المكان، <sup>(١)</sup> إنه يخطر لنا لأول وهلة أن تركيز القرآن - وخاصة في السور المكية - على هذه القضية سببه أن القرآن كان يخاطب بادئ ذى بدء قوماً مشركين، يشركون مع الله آلهة أخرى، فكان من المناسب التركيز على قضية «لا إله إلا الله» لتصحيح عقائد أولئك المشركين . . ولكن استمرار القرآن في الحديث عن هذه القضية في السور المدنية، وفي الكلام الموجه للمؤمنين خاصة، الذين آمنوا واستقر الإيمان في نفوسهم حتى أنشأوا أمة مسلمة ودولة مسلمة وجيشا مسلما يقاتل في سبيل الله . . قاطع الدلالة على أن القضية لها أهميتها الذاتية، حتى لو كان المخاطبون مؤمنين! فالتركيز عليها ليس ناشئا من إنكار المخاطبين بهذا القرآن أول مرة، إنما هو ناشئ من أنها هى المفتاح الذى يفتح القلوب البشرية للخير، وينشئ فيها الخير، ويرببها على الخير، وينتج منها الخير! وأنه لا يوجد مفتاح آخر لهذه القلوب، يهيئها لما تهيبه لها لا إله إلا الله!

(١) في كتاب «دراسات قرآنية» .

وحيث تكون القلوب منكراً تخاطب بهذه القضية لتتفتح للحق والخير . وحيث تكون مؤمنة تخاطب بها كذلك ليتعمق الإيمان فيها ويتجدد، لأنه الزاد الذي لا زاد سواه . انظر إلى هذا التوجيه للمؤمنين :

«يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله . .» (١)  
إنه يقول للذين آمنوا آمنوا! وهم مؤمنون بذات الأمر الذي يراد منهم الإيمان به! وذلك لكي يزدادوا إيماناً ومحرموا على ما في قلوبهم من الإيمان!  
ولقد فعل الإيمان بـ «لا إله إلا الله» فعله في نفوس أولئك المشركين فأنشأهم نشأة جديدة كأنها ميلاد جديد . . ثم فعل فعله في نفوسهم بعد أن آمنوا فأصبحوا ذلك الجيل الفريد الذي نزل في وصفه هذا التقرير الرباني :  
«كنتم خير أمة أخرجت للناس» . .

نعم . . إنها «لا إله إلا الله» مفتاح القلوب، ومفتاح الطريق لهذه القلوب حين تتجه الوجهة الصحيحة وتتهدى بنور الله .

ذلك أن الإنسان - كما قلنا في أكثر من موضع - عابد بفطرته . . وإنها يختلف المعبود الذي يتوجه إليه بالعبادة .

وعلى حسب المعبود يكون منهج الحياة . .

فحين يكون المعبود هو الله يكون منهج الحياة هو المنهج الرباني المبين فيه الحلال والحرام والحسن والقيبح والمباح وغير المباح . وحين يكون المعبود شيئاً آخر، يكون منهج الحياة هو الذي يمليه ذلك الشيء المعبود، سواء كان هو الهوى صراحة دون موارد أم كان هو الهوى من وراء أستار وشعارات وعناوين! ومن ثم تتعدد الصور في الجاهليات المختلفة وتلتقي في أنها كلها هوى . . إن يكن هوى فرد بعينه أو مجموعة أفراد أو هوى كل الناس مجتمعين . . فكلها في النهاية أهواء .

والمنهج الرباني هو الذي يصلح الحياة البشرية والنفس البشرية لأنه منزل من عند اللطيف الخبير الذي يعلم من خلق ويعلم ما يصلحه وما يصلح له، ومنزل من عند العليم الحكيم الذي يحيط علمه بكل شيء فلا تخفى عليه خافية، ولا يغفل عن أثر تصرف قد يقع اليوم ولكن أثره لا يظهر إلا بعد فترة من الزمن لا

(١) سورة النساء [١٣٦] .

يستوعبها عمر الفرد؛ ومنزل من عند الحكم العدل الذي لا تميل بعدله الأهواء،  
الغنى الذي لا تؤثر في حكمه المصالح الذاتية والحاجات. . وذلك كله فضلا عن  
أنه هو الله الذي يحق له وحده أن يقرر منهج الحياة للإنسان لأنه هو خالقه وخالق  
هذا الكون كله، فبما أنه صاحب الخلق فهو صاحب الأمر:  
«ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين»<sup>(١)</sup>.

ولن يستقيم الإنسان للمنهج الرباني حتى يعلم صدقا و يقينا أنه لا إله إلا  
الله. عندئذ يسلم نفسه لله الواحد الأحد؛ حين يستيقن أنه هو الرزاق ذو القوة  
المتين، وأنه هو الضار النافع، وأنه هو المحيي المميت، وأنه هو مدبر أمر هذا  
الكون كله، وهو صاحب المشيئة النافذة فيه، وأن كل ما عداه لا يملكون شيئا  
على الحقيقة، وكل ما يملكونه في الظاهر يملكونه بمشيئة من الله وبقدر من الله.  
عندئذ «يسلم» الإنسان! أي يسلم قياده لله، فيتقبل قدره ومشيئته، ويتقبل  
أوامره ونواهيه، ويتقبل منهجه في الحياة.

ثم إن إقامة هذا المنهج في الأرض لا تتم بمجرد رغبة الناس في إقامته، أو  
إسلام أنفسهم له. فقد سبق في مشيئة الله وقدره ألا يكون الناس أمة واحدة:  
«ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم  
ربك، ولذلك خلقهم. .»<sup>(٢)</sup>.

فهناك إذن من لا يؤمن بلا إله إلا الله، ومن يكرهها ويحاربها ويحارب أهلها  
ويقاوم منهجها. . ومن ثم تحتاج إقامة هذا المنهج في الأرض إلى مجاهدة أولئك  
الكافرين بلا إله إلا الله، الكارهين لمنهج الله.

والجهاد من أجل إقامة المنهج الرباني في الأرض يعرض الإنسان للأذى،  
ويعرضه للموت، ويعرضه للحرمان من متاع الأرض.

ويحتاج القلب البشري لكي يدخل معمعة الجهاد بشتى أنواعه وشتى مخاطره  
أن يؤمن مرة أخرى أنه لا إله إلا الله! وأن الله هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي  
يضر وينفع، وهو الذي يقبض الرزق ويبسط. . وإلا تزلزلت قدماه على الطريق  
عند أول اهتزازة تحدث في هذا الإيمان!

(٢) سورة هود [١١٨ - ١١٩].

(١) سورة الأعراف [٥٤].

لحظة واحدة يهتز فيها الإيمان القلبي الداخلى بأن الله - وحده - هو الذى يحرك الأقدار بمشيئته، وهو الذى يقدر النفع أو الضر أو الحياة أو الموت أو بسط الرزق أو قبضه. . تحتل الخطى على الطريق، وينكص صاحبها على عقبيه، إلا أن يتولاه الله برحمته، فيثبت إيمانه، فتثبت خطاه من جديد!

ومن أجل ذلك كانت لا إله إلا الله هى الإعداد للجهد كما كانت من قبل هى مفتاح الإسلام. إسلام القلب لله .

وحتى فى السلم. . فى البجوحة والراحة. . فهناك هذه الثقلة التى تقعد بالقلب البشرى عن «الاستقامة» على الطريق. . ثقلة الشهوات المزينة المحببة للناس: «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا. .» (١).

ولن يصمد القلب البشرى لهذه الثقلة، بكل ما تحمله من إغراء وجذب، إلا أن يؤمن إيمان اليقين أنه لا إله إلا الله، وأن هذه الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف. الإيمان بالله - حين يعمر القلب البشرى - يبعث فيه الخشية والتقوى التى تؤهله لطاعة الله فيما يأمره به وينهاه عنه. والإيمان بأن الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف، وأن هناك بعثاً ونشوراً، وحساباً وجزاء، ونعيماً وعذاباً، هو الذى يغير موازين الحياة كلها، وقيمها ومستوياتها، فلا يعود المتاع الحسى هو غاية الحياة، ولا يعود الاستغراق فيه هو الشغل الشاغل ولا الهم المقعد المقيم، كما يكون الحال فى الجاهليات، حين يؤمن الإنسان أن الحياة فرصة واحدة محدودة بحدود العمر القصير، وكل يوم ينقضى لا يعود. . فتكون الحكمة «الواقعية» حينئذ أن ينتهب أكبر قدر من اللذات فى هذا العمر المحدود قبل أن تفوت إلى غير رجعة! ولا يكون للحلال والحرام عنده يومئذ معنى، إنما يكون اهتبال الفرص المتاحة هو الغاية التى تسوق الناس سوقاً فيتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام!

«والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم» (٢).  
أما حين يؤمن بالبعث والجزاء، والنعيم المقيم والعذاب الفظيع المتجدد:

(١) سورة آل عمران [١٤]

(٢) سورة محمد [١٢]

«إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب، إن الله كان عزيزا حكيما. والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا»<sup>(١)</sup>.

عندئذ يسهل عليه أن ينضبط في الحدود التي رسمها الله دون أن يشعر بالحرمان، لأنه يعلم أن كل متاع زائد يشتهي في الأرض ثم يمتنع عنه طاعة لله، لن «يضيع» ولن يذهب بغير عودة، إنما هو «طاعة» تحسب له في الميزان، فينال عليها نعيما خالدا في الجنان. فتكون الحسبة بذلك رابحة، ولا تذهب نفسه حسرات على المتاع الفائت الذي تركه طاعة لله. ومن جهة أخرى فإن تصور العذاب الفظيع جزاء على المخالفة التي يهيم بها انسياقا وراء شهواته، يجعله يرى أن الامتناع عنها هو الصفقة الرابحة، وليس الانغماس فيها بلا انضباط على طريقة الحيوان. ومن هنا تتأكد التقوى والخشية التي يبعثها الإيمان بالله.

من أجل ذلك كان الكتاب الذي يرسم منهج الحياة للناس في الأرض مرتكزا كله على الإيمان بالله واليوم الآخر، وكانت التوجيهات والتشريعات والتنظيمات الواردة في الكتاب، كلها موصولة بالإيمان بالله واليوم الآخر، أعظم محورين يدور حولهما الكتاب.

وليس هنا مجال تفصيل الموضوعات الواردة في كتاب الله وأثرها في بناء النفس البشرية، فقد تحدثت عن ذلك في غير هذا الكتاب.<sup>(٢)</sup> ولكنني أذكر هذه النبذة السريعة فقط في مجال بيان العوامل التي أنشأت ذلك الجليل المتفرد على غير مثال، لأقرر أن القرآن بما يحويه من إشارات وتوجيهات، وتنظيمات وتشريعات، كان العامل الأكبر والأعظم في بناء تلك النفوس المتفردة في التاريخ.

وحين نذكر القرآن نذكر السنة بلا شك، فهي المكمل والشارحة للكتاب المنزل، هي بيان ما أنزل الله وتفصيله:

(١) سورة النساء [٥٦ - ٥٧]

(٢) انظر إن شئت كتاب «دراسات قرآنية» الفصول الأولى بعنوان «الإيمان بالله» و«الإيمان باليوم الآخر» و«الإيمان بالملائكة والكتاب والنبين»، و«قصص الأنبياء»، و«آدم والشيطان» و«أخلاقيات لا إله إلا الله». وكذلك فصل «كيف تربت الجماعة الأولى» من كتاب «منهج التربية الإسلامية» الجزء الثاني.

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم »<sup>(١)</sup>.

وموضوعات السنة هي موضوعات القرآن مع اختلاف النسبة بينهما. فلئن كان القرآن قد توسع في شرح قضية الألوهية من جميع أبعادها وأقطارها، ودخل بها إلى النفس البشرية من جميع مداخلها، من الحب والكره والخوف والرجاء والحسى والمعنوى والإيمان بالمحسوس والإيمان بالغيب..<sup>(٢)</sup> وخاطب النفس في جميع أحوالها، في الإقبال والإدبار، في الرغبة والرغبة، في الارتفاع والهبوط، في السكون والحركة، في الطمأنينة والفرع، في الرخاء والشدة، في الوحدة وفي التجمع..

لئن كان القرآن قد توسع في هذه القضية ذلك التوسع فقد أجملت السنة، وإن كانت قد جاءت بما لا غناء عنه في تحديد المفاهيم الإيانية، وتمييز الناس على أساسها في الحياة الدنيا، والأحكام المتعلقة بذلك في المجتمع الإسلامي. ولئن كان القرآن قد أجهل في كثير من مواضع التشريع فقد توسعت السنة وفصلت حتى أتت بالدقائق التي توضح للناس حلالهم وحرامهم في شتى تعاملاتهم.

ولئن كان القرآن قد توسع في ذكر اليوم الآخر بمشاهدة الأخذة فقد توسعت السنة مقابل ذلك فيما يعرف بالترغيب والترهيب، أى الترغيب في الأعمال التي تقرب الإنسان من الجنة، والترهيب من الأعمال التي تعرض الإنسان للنار.

وهكذا حين نتحدث عن أثر القرآن في إنشاء ذلك الجيل المتفرد نتحدث عن السنة في ذات الوقت. ولكننا نريد أن نضيف عنصراً آخر شديد التأثير في رفع نفوس الناس في ذلك الجيل إلى أقصى طاقاتها، والاستواء بها على تلك القمم السامقة التي وصلت إليها، ذلك هو وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بشخصه الكريم بين ظهرانيهم. فلا شك أن كان لهذا الوجود أثره الكبير في الوفرة الملحوظة في النماذج السامقة من بين أولئك المحيطين بالرسول صلى الله عليه وسلم، مع ارتفاع القمم التي وصلوا إليها، ذلك الارتفاع الشاهق الذى عجزت عنه البشرية في شتى أجيالها.

لقد كان التأثير المباشر لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ذا أثر بالغ في بناء

---

(١) سورة النحل [٤٤].

(٢) انظر إن شئت فصل «خطوط متقابلة» في كتاب «منهج التربية الإسلامية» الجزء الأول.

تلك النفوس التي أحاطت به ، وأحبتة ، وتربت على عينه صلى الله عليه وسلم ، ونهلت من معينه ، واتخذته الأسوة والقدوة من طريق الصحبة والرؤية والسماع . إن كل مرءٍ في التاريخ يؤثر في تلاميذه المحيطين به نوعاً من التأثير . ولكن الأثر الذي تركته شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس أتباعه ومحبيه أثر غير مكرر في التاريخ ، ولا عجب في ذلك فإنها شخصية غير مكررة في التاريخ ! إنها أكمل شخصية وأعظم شخصية في الوجود البشرى كله من بدنه إلى منتهاه .

وليس هنا مجال التفصيل في شرح هذا العظمة الفائقة . فهي شخصية تحوى داخلها شخصيات ، وعظمة تحوى داخلها عظمت ، لو أصاب أى إنسان واحدة منها لعدّ من عظماء التاريخ ، فكيف بها مجتمعة في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم على سموق متفرد في كل واحدة منها؟ شخصية المربي ، شخصية القائد السياسى ، شخصية القائد العسكرى ، شخصية العابد الروحانى ، شخصية الزوج ، شخصية الأب ، شخصية الصاحب ، شخصية الداعية . . ثم كيف بها مجتمعة على توازن بينها لا يجعل واحدة منها تطفئ على الأخرى ، وعلى شمول وترباط لا يجعل واحدة منها تنفصل وتستقل عن الأخريات؟ عظمة فذة في التاريخ ، وتأثيرها كذلك فذ في التاريخ .

وصف أبوسفيان - قبل إسلامه - جانباً من جوانب هذه العظمة وجانباً من عمق تأثيرها فقال : « ما رأيت أحداً يحبه الناس كحب أصحاب محمد محمداً » . وهو وصف صادق دقيق . فهي شخصية أخاذة من أحبها تعمق في حبها إلى أقصى الغاية ، (وكذلك من انطمست بصيرته فأبغضها لم يستطع أن يقف في بغضها عند حد!)

والذين أحبوه والتصقوا به وعایشوه عن قرب ، قد تأثروا به ولا شك أعمق التأثير ، فاستطاعوا أن ينهلوا من معين القرآن أكثر ، وأن يكون استوائهم على القمة السامقة أيسر . ذلك أن القرآن معين لا ينضب ، ولكنه يعطى كل إنسان على قدر سعة الإناء الذى يغترف به . فحين تتسع القلوب وتشف الأرواح بمصاحبة ذلك الروح العظيم ، تكون قدرتها على تشرب روح القرآن أكبر ، وقدرتها على صحبة القرآن والعمل به أوسع وأعمق .

قال أحد الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم حين يكونون معه يكونون على حال غير الذى يكونون به حين يعودون إلى شواغلهم ومعهود حياتهم ، فقال له صلى الله عليه وسلم «والذى نفسى بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم . ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»<sup>(١)</sup>.

وليس معنى هذا أن تأثير صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينتهى حين يخرجون من عنده ، فمثل هذا التأثير لا يمكن أن يزول . إنها يدل تصريح الصحابة رضوان الله عليهم على عمق أثر الصحبة المباشرة في نفوسهم ، حتى ليحسون أنهم يصبحون خلقا آخر غير ما يعهدون من أنفسهم . . . وفي الحق إن الإشعاع الذى يتلقونه من الروح العظيم المشع يجعل أرواحهم شفافة رفاة محلقة ، كما يشعر السابح بخفة جسمه وهو محمول على الماء . . . فإذا خرجوا إلى واقع الحياة اليومية خف ذلك الإشعاع الذى امتلأت به أرواحهم ، فأحسوا بالفرق بين حالتهم في صحبته صلى الله عليه وسلم وحالتهم في معتاد حياتهم . ولكن واقع التاريخ يقول إن الشحنة لم تذهب أبداً من أرواحهم ، وإن إحساسهم بالتغير بعد الخروج من عنده صلى الله عليه وسلم إن هو إلا شوق إلى مزيد من القدرة على التحليق ، ولكنه ليس فقداناً لتلك القدرة على الإطلاق ، فقد ظلوا يخلقون ويخلقون ويخلقون ، على آفاق لا عهد للبشرية بها من قبل .

ولسنا نقول مع ذلك إن وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بشخصه شرط لإقامة هذا الدين في الأرض ! فلو علم الله أن هذا شرط لا يقوم الإسلام في الأرض إلا به ما كلف سبحانه وتعالى الناس أن يقيموا الدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو لا يكلف نفساً إلا وسعها .

إنما نقول إن شخص الرسول صلى الله عليه وسلم حاضر بسيرته وحاضر بسنته إلى الدرجة التى يقوم بها الإسلام في الأرض كاملاً غير منقوص . ولكننا نحاول فقط أن نفرس واقعا حدث بالفعل ، هو الوفرة الملحوظة في النماذج الفائقة من بين المحيطين بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وفرة لم تتكرر في التاريخ من بعد ، وإن

---

(١) أخرجه مسلم .



كانت لم تنقطع في صورة أفراد متناثرين من كل جيل يزخر بهم تاريخ الإسلام في الماضي وما زال يزخر إلى هذه اللحظة .

عنصر ثالث لا يمكن إغفال أثره في نشأة ذلك الجيل المتفرد، هو أثر النشأة الجديدة .

إن كل نشأة جديدة تكون أنشط وأكثر حيوية وأكثر فاعلية من الأجيال التالية . وهذا أمر له ما يفسره من طبيعة النفس البشرية ، بل من طبيعة الكون المادى نفسه ! فغاز الأوكسجين المحضر حديثا في المعمل تكون له فاعلية (في المساعدة على الاشتعال) أكبر من الأوكسجين الموجود في الجو، مع أنه يماثله ماثلة تامة في التركيب ! كذلك النفوس التي تبدأ عهدا جديدا أو تشهد إنشاء جديدا تكون أكثر حيوية وأكثر فاعلية من غيرها من النفوس . ويمكن تفسير ذلك من ناحيتين . الأولى أن النشأة الجديدة - وخاصة على النحو الذى صنعه الإسلام - تعيد تركيب النفوس على صورة جديدة فتصبح نفوسا جديدة بالفعل ، مذكورة الطاقة حادة الفاعلية كذلك الأوكسجين المحضر لتوه في المعمل . والثانية أن التحديات التى يتلقاها جيل النشأة الجديدة هى أعنف التحديات وأشقها وأقساها . ومن شأن التحديات دائما أن تشحذ النفوس الحية وتستخلص منها أقصى طاقاتها . فإذا اجتمع الأمران معا : جدة النفوس وعنف التحديات فنستطيع أن نتصور الفاعلية الهائلة التى تكون لتلك النفوس وهى تعمل في واقع الحياة .

يضاف إلى ذلك أن أصحاب النشأة الجديدة هم من ناحية أقدر الناس على تقدير النعمة الجديدة حق قدرها، فقد عايشوا الجاهلية من قبل ثم انتقلوا إلى الإسلام، فأدركوا - بالممارسة الواقعة - عظم النقلة التى انتقلوها من الجاهلية إلى الإسلام، كما قال عمر رضى الله عنه : «لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية» ! أى لا يقدره حق قدره إلا من أدرك الفارق بينه وبين الجاهلية . . وهم من ناحية أخرى أحرص الناس على المحافظة على البناء الجديد سليما من كل نقص يعتوره، فقد بنوه لبنة لبنة، وتعبوا في بنائه وعانوا المشقات، وظلوا يرقبون ارتفاعه يوما بعد يوم حتى استوى على أكمل صورة، فهم لا يطيقون أن يعبث به عابث أو ينقص من رونقه منقوص، فقد اختلط بأعماق مشاعرهم فأصبح منهم وأصبحوا منه، وأصبحوا يحسون وجودهم في وجوده .

وكذلك كان ذلك الجيل الفريد حريصا على الإسلام ، حريصا على أن يظل البناء الذى شيده تحت قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم وإشرافه سليما من كل نقص .

ولسنا نقول مع ذلك إن هذا شرط لازم لإقامة دين الله فى الأرض . . فلو علم الله أنه شرط لازم ما كلف الناس فيما بعد جيل النشأة أن يقيموا هذا الدين ! ولكننا نحاول فقط أن نفسر ذلك الواقع التاريخى الذى تفرد فى التاريخ . وهذا يجربنا إلى سؤال نرى من الضرورى تحديد الإجابة عليه ، لأنه يجيبك فى صدور بعض الناس حين ينظرون إلى ذلك الجيل المتفرد ثم ينظرون إلى ما بعده من الأجيال فيقول قائل منهم : إن الإسلام لم يعش إلا فترة قصيرة هى فترة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ثم انتهى بعد ذلك ! ويجيبه خبيثاء المستشرقين وحواريوهم فيؤكدون على هذا المعنى ليحدثوا فى نفوس الناس بأسا من عودة الإسلام إلى حكم الحياة الواقعة كما حكمها من قبل .

إذا كان هذا الجيل المتفرد غير قابل للتكرار - أو هو على الأقل لم يتكرر حتى اللحظة الحاضرة - فما قيمته؟ ما دوره بالنسبة للإسلام والمسلمين؟ أليكون مجرد ذكرى لشيء لا يمكن أن يعود؟

وإذا كانت هناك ظروف خاصة أحاطت بنشأة ذلك الجيل غير قابلة للتكرار، وكان لها أثر عميق فى نشأته ، كوجود الرسول صلى الله عليه وسلم بشخصه الكريم بين ظهرانيهم، وتأثير النشأة الجديدة فى نفوس الجيل الذى عاصر تلك النشأة، فأنتى يرجى أن تقوم للإسلام صورة فى الواقع على نسق تلك الصورة الأخاذة التى قامت ذات يوم؟!

وتحتاج الإجابة إلى تحديد واضح .

أى شيء فى ذلك الجيل المتفرد هو غير قابل للتكرار، أو على الأقل لم يتكرر حتى هذه اللحظة؟ أهو الخصائص الرئيسية التى تحقق الوجود الإسلامى فى عالم الواقع، أم هى الدرجة العالية الفذة التى وصل إليها ذلك الجيل فى تحقيق تلك الخصائص فى عالم الواقع؟!

وتلك الظروف الخاصة التى أحاطت بنشأة ذلك الجيل ونقول إنها غير قابلة للتكرار . . ما دورها بالضبط؟ هل كان مجال تأثيرها هو إنشاء تلك الخصائص

الرئيسية التي تحقق الوجود الإسلامي في عالم الواقع ، أم هو في تلك الدرجة العالية الفذة التي وصل إليها ذلك الجليل في تحقيق تلك الخصائص في عالم الواقع؟! أحسب أن القضية الآن أصبحت واضحة .

إن الخصائص الرئيسية التي تحقق الوجود الإسلامي في عالم الواقع مستمدة بكاملها من القرآن والسنة ، أى من العنصرين الدائمين في حياة المسلمين ، المحفوظين بقدر الله ومشيئته .

فقد تكفل الله بحفظ كتابه المنزل ، بينما ضاعت الكتب السابقة وحرفت :  
«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»<sup>(١)</sup> .

كما تكفل بحفظ سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، بينما لم يبق من سنن الأنبياء السابقين إلا ما حفظه القرآن وحفظته سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
وفي هذين المصدرين كل «المواد» اللازمة لبناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة والدولة المسلمة في أى عصر من عصور التاريخ يرغب المسلمون في البناء ، ويعزمون على بذل الجهد اللازم له .

أما الذى صنعته الظروف الخاصة فهو تلك الدرجة الفذة في تحقيق الخصائص الرئيسية للوجود الإسلامي ، المستمدة كلها من الكتاب والسنة . . . وتلك الدرجة - لا الخصائص الرئيسية - هى التى لم تتكرر فى التاريخ .

وتبقى الإجابة على الشق الآخر من السؤال : إذا كانت تلك الدرجة التى تحققت بالفعل ذات يوم غير قابلة للتحقيق مرة أخرى ، لأنها نشأت من ظروف خاصة غير قابلة للتكرار ، فما قيمتها فى حياة الإسلام والمسلمين؟ أهى قد وجدت فقط لتظل حلماً مهوِّماً يعرّج الناس عليه من أجل حلاوة الذكرى ليس غير؟! كلا!

كلا! إنها وجدت - بقدر من الله - لتظل نموذجاً يشد المسلمين إليه ليحاولوا تحقيقه فى عالم الواقع . . . وحين يحاولون فإنهم يرتفعون بالفعل ، حتى وإن لم يصلوا - فى مجموعهم - إلى ذات الدرجة التى وصل إليها هؤلاء؛ وإن كان التاريخ المشهود يقول إن أفراداً من كل جيل يصلون بالفعل إلى ذلك المستوى السامق الرفيع ، أولئك الذين تنهض قلوبهم بنور الإسلام فيستطيعون أن يقبسوا من شخصية

(١) سورة الحجر [٩]

الرسول صلى الله عليه وسلم وأحداث حياته مثل ما كان يقبس الصحابة رضوان الله عليهم بالمعايشة المباشرة، وأن يحسوا - في أعماق نفوسهم - بالنشأة الجديدة على نحو ما أحس الذين عاشوها أول مرة . . فينهلوا من الكتاب والسنة بمثل العمق الذي كان ينهل به الصحابة الكرام، ويحققوا في ذوات أنفسهم ما كانوا يحققون .

هؤلاء قلة في كل جيل - نعم - بينما كانوا كثرة ملحوظة في المحيطين برسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكن مجموع المسلمين - حين يحاولون - يرتفعون درجات من الارتفاع، حتى ولو لم يصلوا لذلك المستوى الرفيع، لأن المحاولة ذاتها توجه الناس إلى أعلى، بينما القعود يهبط بهم إلى أسفل، بحكم الثقل التي تجذب الناس أبدا إلى أسفل ما لم يحاولوا الارتفاع :

«والعصر، إن الانسان لفى خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»<sup>(١)</sup>.

من هنا يظل لذلك الجيل المتفرد دوره في حياة الإسلام والمسلمين . فوجود هذا النموذج الفذ في عالم الواقع، حقيقة واقعة، لا حلما ولا خيالا ولا شعارات، يظل يحفز الراغبين في تحقيق الإسلام لتحويل الرغبة إلى واقع، وبذل أقصى الجهد في هذا السبيل . . وحين يحققون الخصائص الرئيسية للوجود الإسلامي في عالم الواقع، فلا عليهم بعد ذلك إن لم يصلوا إلى الدرجة الفذة التي وصل إليها الجيل الأول، فإن مجرد تحقيق الخصائص الرئيسية للوجود الإسلامي - ولو في حدها الأدنى - هو قفزة هائلة إلى أعلى بالنسبة لكل جاهليات التاريخ، بما فيها الجاهلية المعاصرة، بل في مقدمتها الجاهلية المعاصرة! وتبقى الدرجات العليا مجالا للتفاضل، ومجالا للتطوع النبيل، لا تكلف نفس إلا وسعها، يبلغ منها كل إنسان بقدر ما يطيق، فتصل قلة قليلة إلى المستوى، ويقترّب الباقون خطوات .

نعم، إن وجود هذا الجيل المتفرد واقعاً في التاريخ، لم يكن - في قدر الله - لمجرد أن يكون ذكرى حلوة تشع نسماتها على القلوب ساعة ثم تتبدد . . بل ليكون واقعا يتجدد . .

فقد طلب الله من المسلمين في كتابه الباقي إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها

(١) سورة العصر

أن يتأسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يقتفوا أثر ذلك الجليل الفريد ويصلوا أنفسهم به :

«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا»<sup>(١)</sup>.

«والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم»<sup>(٢)</sup>.

بل نقول أكثر من ذلك . .

نقول إن حركة البعث الإسلامي المعاصرة هي أقرب الحركات أن تتمثل فيها خصائص ذلك الجليل المتفرد إن لم يكن على ذات الدرجة من الوفرة وذات الدرجة من التمكن، فعلى درجات قريبة منها على أى حال.

ذلك أن الإسلام اليوم يعيش غربته الثانية التي تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء»<sup>(٣)</sup>.

فإن لم تكن الغربية الثانية مطابقة تمام المطابقة للغربة الأولى في جميع حياتها فإنها ولا شك تشبهها في أمور كثيرة جوهرية، أهمها أن منهج الله ليس هو الذى يحكم حياة الناس، وأن الأمر يحتاج إلى دعوة الناس من جديد إلى الإسلام، لا لأنهم - في هذه المرة - يرفضون أن ينطقوا بأفواههم لا إله إلا الله محمد رسول الله كما كان الناس يرفضون نطقها في الغربية الأولى، ولكن لأنهم في هذه المرة يرفضون المقتضى الرئيسى لـ «لا إله إلا الله»، وهو تحكيم شريعة الله والامتثال لمنهج الله، وإن كان ألف مليون من البشر من المحيط إلى المحيط ينطقون بأفواههم كل يوم: لا إله إلا الله محمد رسول الله! وهذه هي حقيقة «الغربة» التي يعانها الإسلام اليوم في الأرض، رغم ملايين المصاحف التي تطبع، ومئات المحطات الإذاعية والتلفزيونية التي تترتل القرآن وتذيعه على الناس، وتشرحه - في الأحاديث

---

(١) سورة الاحزاب [٢١] (٢) سورة الحشر [٩ - ١٠] (٣) أخرجه مسلم

والدروس الدينية - لمن شاء من الناس الاستماع!  
وفي الغربية تكون الحركة إنشاءً جديداً أكثر مما تكون مجرد إصلاح لما هو قائم  
بالفعل في نفوس الناس .

إن هذا الغناء الذي يعيش بالملايين اليوم، والذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل إنكم يومئذ كثير ولكنكم غناء كغناء السيل...»<sup>(١)</sup>.

هذا الغناء لا يحتاج إلى مجرد وعظه وإرشاده، وتقديم حقائق الإسلام إليه في الدروس الدينية سواء في المسجد أو الإذاعة أو الكتاب أو المحاضرة، إنما يحتاج إلى انتشاله من الجاهلية التي تحيطه وتضغط على حسه بثقل «الأمر الواقع» وتنشئته نشأة جديدة على حقائق الإسلام، ليعيشه بالفعل، لا «ليتحدث» عنه أو «يفكر» فيه أو «يعجب» به أو «يتمناه» وهو قاعد عن العمل لتحقيقه .

والذي تقوم به حركات البعث الإسلامي اليوم هو هذا في حقيقته . هو نشأة جديدة في وسط الغربية . ومن ثم يتحقق لهذه الحركات عنصر من العنصرين الخاصين اللذين أسهما في صنع الجيل الأول، ولم يتكررا خلال ثلاثة عشر قرناً من قبل، ويكون لهذا العنصر فاعليته الكاملة في نفوس الذين يعيشون هذه الحركات، ويجهدون لإزالة الغربية الثانية كما جاهدت الجماعة الأولى من قبل لإزالة الغربية الأولى للإسلام .

أما العنصر الآخر وهو حضور الرسول صلى الله عليه وسلم بشخصه الكريم بين ظهرائي الناس فهو بطبيعته لا يتكرر أبداً إلى قيام الساعة . ولكننا نستطيع أن نزعم أن الذين يعيشون «النشأة الجديدة» بالعمق الحقيقي الذي تحدته في النفوس، ولا تفتنهم جزئيات من حقائق الإسلام فتشغلهم عن جوهره، ولا عن حقيقة المعركة التي يخوضها «الغرباء» في الأرض، لإعادة هذا الدين إلى التمكن وحكم حياة الناس الواقعة من جديد . هؤلاء يتوهج الحق في قلوبهم إلى الحد

(١) أخرجه أحمد وأبو داود .

الذى يعيشون فيه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - فى سيرته وسنته - كأهم يعايشونه ويتلقون عنه من قرب كذلك الجيل الأول المتفرد، وتكون هذه المعاشة - من خلال السيرة والسنة - كفيلة برفعهم إلى تلك الآفاق السامقة التى ارتادها الجيل الأول بجهد أيسر، وهم يتلقون الرفعة من الأثر المباشر لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم .

وخلاصة القول - كما أسلفنا - أن حركة البعث الإسلامى المعاصرة هى أقرب الحركات أن تتمثل فيها خصائص ذلك الجيل المتفرد، إن لم تكن بنفس الوفرة وبنفس الدرجة من الرفعة، فعلى درجات قريبة منها على أى حال . وإنما لتقدم بالفعل نماذج ترتفع إلى ذلك المستوى، وتذكر الناس به من جديد، سواء فى التجرد لله، أو صدق الجهاد فى سبيل الله، أو التقدم للشهادة بنفس راضية مستعلية على كل متاع الأرض، متطلعة إلى ما عند الله، أو الثبات على العذاب الذى لا تطيقه الأبدان ولا النفوس .

والخلاصة مرة أخرى أن ذلك الجيل المتفرد، الذى تمثلت فيه واقعية الإسلام ومثاليته، لم يوجد ليكون مجرد ذكرى، وإنما وجد ليحاول المسلمون فى كل الأجيال أن يصعدوا لمستواه، فإن حاولوا فقد ارتفعوا ونجوا من الهبوط، سواء وصلوا - فى مجموعهم - إلى ذلك المستوى الرفيع أم لم يستطيعوا الوصول .

والخلاصة مرة ثالثة أن الذى تفرد به ذلك الجيل لم يكن هو الخصائص الأساسية للوجود الإسلامى، فهذه مطلوبة من كل جيل، وممكنة فى كل جيل، ولازمة لإقامة الوجود الإسلامى الصحيح فى الأرض، والناس محاسبون إن قصروا فى أدائها، ويعتبرون آثمين فى حق الله وحق أنفسهم إن قصروا فيها، ويتوقف وجودهم وثقلهم فى الأرض على القيام بها فى صورتها الصحيحة .

إنما الذى تفرد به ذلك الجيل هو الدرجة العجيبة التى قاموا فيها بتحقيق هذه الخصائص فى عالم الواقع، بعد قيامهم بتحقيقها فى ذوات أنفسهم . وهذه درجة لم يفرضها الله فرضاً على الناس، إنما فرض عليهم الحد الأدنى الذى لا تستقيم الحياة بدونها، وترك الدرجات العلا للتطوع النبيل، الذى تقدر عليه النفوس حين تترى

التربية الصحيحة على الإسلام، وتستضيئ بنور الحق، وتعبد الله كأنها تراه، (١) وتقتدى بالرسول صلى الله عليه وسلم كأنها تعاشه.

وحين يتحقق للناس الحد الأدنى من هذا الدين، تستقيم الحياة على صورة تعجز عنها أى جاهلية من جاهليات التاريخ، وفي مقدمتها الجاهلية المعاصرة. . أما حين يتحقق ما فوق ذلك فهذا هو الفردوس الأرضى الذى تحقق ذات مرة على يد ذلك الجيل المتفرد، والذى سيظل أملاً جميلاً يحاول المسلمون تحقيقه فى أى قرن من القرون!

\* \* \*

وفىما يلى نحاول أن نبرز السمات الرئيسية للأمة الإسلامية فى عهد ذروتها الذى تحقق فيه بالكامل وصف الله لها فى كتابه المنزل: «كنتم خير أمة أخرجت للناس» ولنجعل فى بالنا أن الذى نبرزه فى هذا العرض السريع هو الخصائص الرئيسية للوجود الإسلامى - اللازمة فى ذاتها لكل جيل - ولكن فى صورتها الفذة التى حققها ذلك الجيل المتفرد، وأن الأمرين معا مهمان فى هذا العرض، ولكن الأمر الجوهري هو تلك الخصائص الرئيسية، لأنها هى التى يتوقف عليها الوجود الإسلامى الصحيح؛ وجين انحرف المسلمون عنها تدريجياً، أصابهم - على المدى - ما هم واقعون فيه اليوم، مما نعرض له فى مكانه من الكتاب.

ولا يتسع المقام بطبيعة الحال للحديث المستفيض عن كل السمات الرئيسية للأمة الإسلامية، فليس هذا تاريخاً لها ولا بحثاً متخصصاً فى خصائصها، إنما نختار أبرز هذه السمات، ونعرضه فى أوجز صورة تتناسب مع موضوع الكتاب. ونختار من هذه السمات:

أولاً: صدق الإيوان، وجدية الأخذ من الكتاب والسنة، وصدق الجهاد فى سبيل الله.

ثانياً: تحقيق معنى «الأمة» فى صورته الحقيقية.

ثالثاً: تحقيق العدل الربانى فى واقع الأرض.

---

(١) جاء فى حديث «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم»: «قال وما الإحسان؟» قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» رواه الشيخان.



رابعاً: أخلاقيات لا إله إلا الله.

خامساً: الوفاء بالمواثيق.

ثم نتحدث عن أمرين آخرين هما من الخصائص الرئيسية للأمة الإسلامية، وإن كان تحقّقهما - بطبيعتها - لم يتم في حياة الجيل الأول، إنما تم في الأجيال التالية. لأنهما - بحكم طبيعتهما - يحتاجان إلى فترة زمنية بعد التمكن في الأرض، ذاك هما الحركة العلمية الإسلامية، والحركة الحضارية الإسلامية، وقد تمتا كلتاها متأخرتين في الزمن، ولكن قواعدهما الأولى كانت قد أرسيت ولا شك في حياة ذلك الجيل الذي كتب في الحقيقة تاريخ الإسلام، فقد كانت الأجيال التالية متأثرة كلها بالدفعة الهائلة التي أحدثها الجيل الأول في حركة الحياة، لا في داخل العالم الإسلامي وحده، ولكن في الأرض كلها على الاتساع!

\* \* \*

## أولاً: صدق الإيمان، وجدية الأخذ من الكتاب والسنة، وصدق الجهاد في سبيل الله

كلها من الخصائص الأصيلة لهذه الأمة، وهي هي التي قامت عليها خيريتها التي وصفها الله بها في قوله تعالى:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»<sup>(١)</sup>.

وليس الذي يبهرنا من الجيل الأول هو اتصافه بهذه الصفات، فهي من لوازم الأمة التي يخرجها القرآن إلى الوجود، وتحدد لها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم دقائق حياتها. وإنما الذي يبهرنا في ذلك الجيل الأول هو الدرجة العجيبة التي وصلوا إليها في ترسيخ هذه الصفات في نفوسهم وفي واقع حياتهم.

إن دعوة القرآن كلها هي إخلاص الدين لله:

«ألا لله الدين الخالص»<sup>(٢)</sup>

«قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين»<sup>(٣)</sup>

[٣] سورة الزمر [١١]

[٢] سورة الزمر [٣]

[١] سورة آل عمران [١١٠]

«وادعوه مخلصين له الدين» (١)

«وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء» (٢).

والإخلاص الذى يأمر الله به ليس مجرد مشاعر تستكنّ في ضمير الإنسان، وليس مجرد إقرار يعلن فيه الإنسان أن الله واحد لا شريك له، عن اعتقاد قلبى بصدق ما يقرب به من وحدانية الله. فهذا - وحده - لا يفى بما يطلبه الله من عباده بلفظ الأمر، لا على سبيل الندب أو التحبيب أو التحضيض: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء» إنما المتتبع لكل الآيات التى جاء فيها الأمر بالإخلاص يجد أنها متعلقة بتوجيه العبادة لله وحده دون شريك. فهى إذن ليست متعلقة بالاعتقاد وحده، إنما هى متعلقة كذلك بسلوك معين مرتبط بالاعتقاد. فالعبادة - كما هو واضح بالبداية - سلوك واقعى، وليست مجرد مشاعر أو اعتقادات. سلوك مبنى على المشاعر، ومنبثق عن الاعتقاد.

والإخلاص المطلوب فى العبادة هو براءة هذه العبادة من الشرك، وتلك هى حقيقة التوحيد. وهو أمر لازم لا للارتقاء فى مراتب الكمالات، بل لحصول الإيمان بادئى ذى بدء؛ أما الارتقاء فى مراتب الكمالات بعد ذلك فله مجالات أخرى نتحدث عن بعضها فى حياة ذلك الجيل الأول، وهى التى ورد فيها الندب والتحبيب، لا الأمر والإلزام.

فما العبادة المطلوبة من العباد، وما كيفية البراءة من الشرك؟

العبادة كما بينها الله فى كتابه المنزل تشمل أموراً ثلاثة:

- الاعتقاد الجازم بأن الله واحد فى ذاته وفى أسماؤه وصفاته.
- والتوجه إليه وحده بالشعائر التعبدية التى افترضها على عباده.
- والالتزام بما أنزل الله من التحليل والتحريم والتحسين والتقبيح والإباحة والمنع.

وأياً أمر اختل من هذه الثلاثة فهو ناقض للتوحيد ومُدخل فى الشرك الذى يخرج الناس من الإسلام، مع اعتبار معين فى هذا الشأن هو أن المعصية - بغير استحلال

[٢] سورة البينة [٥]

[١] سورة الأعراف [٢٩]

- لا تنقض أصل الالتزام، ولا تخرج الناس من الإسلام، ما داموا يقرون بالأمر المنزل من عند الله، ولا يجعلون مخالفتهم له تشريعاً مضاهياً لشرع الله، أو قانئاً بذاته مناقضاً لشرع الله. بعبارة أخرى ليست المعصية لما أنزل الله هي التي تخرج من الملة، إنما هو التشريع بغير ما أنزل الله، وهو المعنى في قوله تعالى: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»<sup>(١)</sup> «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون»<sup>(٢)</sup> «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون»<sup>(٣)</sup>. وكون ذلك هو الشرك المخرج من الملة واضح في قوله تعالى:

«أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله»<sup>(٤)</sup>.

«اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء»<sup>(٥)</sup>.

و«الدين» في آية الشورى، واتباع ما أنزل الله في آية الأعراف، كلاهما لا يتعلق بالاعتقاد وحده ولا بالشعائر التعبدية وحدها، إنما يشمل قضية التحليل والتحريم، ويعتبر اتخاذ أي من هذه الأمور الثلاثة: الاعتقاد والشعائر والشرائع، من مصدر غير الله شركاً واتباعاً للأولياء، بدليل قوله تعالى في سورة النحل حكاية عن المشركين، وتحديداً لأعمال الشرك التي يقومون بها:

«وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء»<sup>(٦)</sup>.

وبدليل قوله تعالى عن المنافقين في سورة النساء موضحاً المحك الذي يصدق دعوى الإيهان أو يكذبها:

«ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً. . . إلى قوله تعالى «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً»<sup>(٧)</sup>.

(٢) سورة المائدة [٤٥]

(١) سورة المائدة [٤٤]

(٤) سورة الشورى [٢١]

(٣) سورة المائدة [٤٧]

(٦) سورة النحل [٣٥]

(٥) سورة الأعراف [٣].

(٧) سورة النساء، [٦٠ إلى ٦٥]

من هذه الآيات - وأمثالها في القرآن كثير - يتضح لنا أن العبادة المطلوبة من العباد هي إفراد الله بالألوهية والربوبية، الذى يشمل توحيد الله فى ذاته وأسمائه وصفاته، والتوجه إليه وحده بالشعائر التعبديّة، والالتزام بما أنزل الله، وعدم اتخاذ شرعٍ من مصدرٍ سواه، سواء على سبيل المضاهاة لشرع الله كما كان يفعل التتار قبل إسلامهم من اتخاذ «الياسق» الذى يجمع أحكاما من القرآن وأحكاما من مصادر أخرى، أو على سبيل التشريع المطلق، أى تنحية شرع الله جملة واتخاذ شرع غيره.

هذه العبادة - على هذه الصورة - هى التى تخرج الناس من الشرك وتجعلهم مسلمين. وهذا هو الإخلاص فى حده الأدنى، الذى لا يقبل الله من الناس أقل منه، ولا تقوم بغيره حقيقة الإسلام فى داخل النفوس ولا فى واقع الحياة (أما الدرجات العليا فمرهونة بمقدار الطاعات التى يتقدم بها العباد إلى الله، ومقدار الحرص على الالتزام بما أقر به القلب واللسان).

أما الاعتقاد بأن هناك شركاء لله فى الخلق أو التدبير أو الرزق أو الإحياء أو الإمامة أو النفع أو الضرر. الخ، أو التوجه لغير الله بالشعائر التعبديّة، أو التشريع بغير ما أنزل الله، أو الرضى بغير ما أنزل الله، فهو الشرك الذى يخرج الناس من الإسلام.

\* \* \*

وإذا كان أمر الإخلاص كذلك، فى شموله لهذه الأمور الثلاثة، فإن جدية الأخذ من الكتاب والسنة تصبح بديهية من بديهيات الأمة المسلمة لا يقوم بغيرها لهذه الأمة وجود. فما دام الالتزام بما أنزل الله ركنا من أركان العقيدة، لا تقوم فى الحقيقة بدونه (بصرف النظر عن المعصية التى لا تتحول إلى تشريع بالنسبة لصاحبها ولا بالنسبة لغيره من الناس)<sup>(١)</sup> فقد أصبحت جدية الأخذ من الكتاب والسنة هى المقتضى المباشر للإسلام. ففى كل لحظة من حياة الناس «تشجر» أشياء تحتاج إلى «حكم» يتخذ فيها. فمن أين يستمد الحكم؟ إنه ليس هناك إلا مصدران اثنان: إما حكم الله وإما حكم الجاهلية:

(١) انظر فصل «مفهوم لا إله إلا الله» من كتاب «مفاهيم ينبغي أن تصحح»

«أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟!» (١).

فإن لم يتخذ الناس أحكامهم من عند الله - أى من القرآن والسنة، ومن اجتهاد الفقهاء الملتزم بالكتاب والسنة لا يشذ عنها ولا يخرج على أحكامهما - فإنهم عندئذ يتخذون أحكامهم من الجاهلية، ويخرجون بذلك من الإسلام.

فجدية الأخذ من الكتاب والسنة هى لازم من لوازم الوجود الإسلامى، وسمة من سمات الأمة الإسلامية لا تنفك عنها؛ وليس وجودها هو الذى يبهرننا من ذلك الجيل الأول. إنما الذى يبهرننا منه هو الدرجة العالية من الالتزام فى التنفيذ، التى تجعل المعصية شيئاً نادراً فى حياة الناس، مما نتحدث عن نماذج منه بعد قليل.

كذلك أمر الجهاد فى سبيل الله. . . إنه سمة أصيلة من سمات هذه الأمة.

«يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» (٢)

فما دامت الأمة قد حملت راية لا إله إلا الله، وحملت معها مسئولياتها، فقد أصبح الجهاد من لوازم وجودها، ذلك أن البشر لا يستقيمون كلهم على منهج الله، ولا يرضون كلهم أن يكون الدين كله لله، ولا يدعون المسلمين وشأنهم يقيمون دينهم بمأمن من العدوان:

«وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» (٣).

«ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا» (٤).

«وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» (٥).

«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» (٦).

«قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» (٧)

(٢) سورة الصف [١٠ - ١١]

(٤) سورة البقرة [٢١٧]

(٦) سورة البقرة [١٢٠]

(١) سورة المائدة [٥٠].

(٣) سورة التوبة [٣٦].

(٥) سورة الأنفال [٣٩]

(٧) سورة التوبة [٢٩]

وبصرف النظر عن الجدل الذى يقوم به المستضعفون من المسلمين فى جيلنا الحاضر، حين يقولون إن الجهاد فى الإسلام دفاعى فقط، أى أن المسلمين لا يقاتلون إلا إذا هوجموا من قبل أعدائهم، مستندين إلى أحكام القتال المرحلية التى جاء فيها قوله تعالى: «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين»<sup>(١)</sup> مغفلين الآيات الصريحة التى أوردناها آنفاً، أو مؤولين لها على ضوء الأحكام المرحلية.

بصرف النظر عن هذا الجدل فسيظل الواقع الذى تعيشه الأمة الإسلامية اليوم بعد أن تركت الجهاد تحت راية الإسلام خير دليل على وجوب الجهاد إلى قيام الساعة.

دفاعياً أو هجومياً.. لا غنى للأمة الإسلامية عن الجهاد: «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله».

ومرة ثالثة نقول إن الذى يبهرنا من حياة الجيل الأول ليس هو صدق الجهاد فى سبيل الله - الذى هو عنصر لازم للوجود الإسلامى فى كل جيل - إنما هو الدرجة الرائعة من هذا الصدق فى حياة ذلك الجيل.

والآن نعود إلى ذلك الجيل المتفرد لنرى الصورة المثالية التى تحققت بها هذه الصفات فى عالم الواقع.

لقد عاش ذلك الجيل مع القرآن حياة كاملة إن صح التعبير. كل جملة فى القرآن وكل عبارة، كل توجيه وكل أمر أو نهى.. يصل إلى نفوسهم بشحنته الكاملة، ويحركها الحركة التامة المطلوبة من الجملة أو العبارة، أو التوجيه أو الأمر أو النهى.

لم تكن هناك قراءة لمجرد التأمل الفكرى، ولا قراءة للاستمتاع الفنى ببلاغة القرآن، ولا قراءة لاستخراج نظريات فلسفية أو عقلية أو تجريدية.. أو حتى للتأثر الوجدانى الذى يأخذ بمجامع النفس ثم ينتهى بتهويمه روحية لا تحرك صاحبها من مكانه!

إنما كانت هناك معرفة للتنفيذ الفورى.

---

(١) سورة البقرة [١٩٠]

يروى الصحابة عن أنفسهم يقولون: لم يكن أحدنا يستكثر من القرآن، إنما كنا نتعلم عشر آيات لا نزيد عليهن حتى نعمل بما فيهن، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً. (١)

لقد أنزل الله هذا القرآن لينشئ شيئاً ضخماً في واقع الأرض:  
«ولو أن قرأنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى! بل لله الأمر جميعاً» (٢)

لقد كان المشركون يطالبون الرسول صلى الله عليه وسلم بمعجزات حسية كتسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، ويعلقون إيمانهم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم على تحقيق هذه المعجزات الحسية. ولكن الله لم يشأ أن ينزل عليهم تلك الآيات الحسية وأنزل بدلاً منها ذلك الكتاب المعجز العظيم: الآية الباقية أبد الدهر. والآية التي أوردناها آنفا تشير إلى أنه ليس من شأن القرآن أن يسير الجبال أو يقطع الأرض أو يكلم الموتى، لأن له شأناً آخر. . وتوحى بأن ما يقوم به القرآن أعظم من ذلك كله! أعظم من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، الذي تنتهى إليه أحلام الجاهليين وتصوراتهم. . إن مهمته هى إنشاء «الإنسان» فى أحسن تقويم. . وذلك أعظم عند الله من كل ما يتصورون.

ولقد عمل القرآن عمله بالفعل فى نفوس المسلمين الأوائل، فأنشأها إنشاء من جديد، فكان منهم ذلك الواقع العجيب الذى سجله التاريخ، والذى يلتقى فيه الواقع بالمثال.

كان القرآن يحدثهم عن قضية الألوهية فدخل بها إلى نفوسهم من كل مداخلها، ويوقع بها على أوتار قلوبهم، فإذا اهتزت وجهم إلى حقيقة التوحيد. كان يحدثهم عن آيات الله فى الكون، وعن قدرة الله المعجزة فى الخلق، وعن الإحياء والإماتة، وعن الرزق والتدبير، وعن علم الله للغيب. . الخ. . الخ. .  
«إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى. ذلكم الله فأنى تؤفكون. فائق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً، ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر

(١) انظر تفسير ابن جرير (١/٨٠)

(٢) سورة الرعد [٣١].

والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه. انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون» (١).

«وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين. ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا وورزقا حسنا. إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون. وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبيل ربك ذللا تخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس. إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون» (٢).

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» (٣).

«الله يعلم ما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شىء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار. له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال. هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقيل. ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال» (٤).

.....  
.....

وكانت هذه الآيات كلها تصل إلى نفوسهم بكل شحنتها، فتدخل إلى أعماقها، فتتهزها هزا. . فتستجيب:

(١) سورة الأنعام [٩٥-٩٩] (٢) سورة النحل [٦٦-٦٩]

(٣) سورة المؤمنون [١٢-١٤] (٤) سورة الرعد [٨-١٣]



«الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء. .» (١)

وكانت استجابتهم فذة من كل جوانبها. .

امتلت قلوبهم بعظمة الله فقدره حق قدره، فأخبتوا له، وتعلقت قلوبهم به في الخوف والرجاء، في الحب والكره، في السعة والشدة، في الضيق والفرج، في كل لحظة وفي كل حال:

«إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبواب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه، فقنا عذاب النار. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيت، وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا. ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، فاستجاب لهم ربهم. .» (٢)

ولم يكن هذا الذكر تسيحا باللسان، ولا بالأذكار والأوراد، ولا على حبات المسابح.

إنما كان الله حاضرا في قلوبهم في كل لحظة: «قياما وقعودا وعلى جنوبهم» (٣) لأن القرآن كان يخاطبهم بقضية الألوهية في كل حال من أحوالهم. إن كانوا يريدون شيئا فالله هو الذى يعطى ويدبر. وإن كانوا يخشون شيئا فالله هو الذى يقدر الأقدار. إن كانوا يطلبون بسطة في الرزق فالله هو الذى يقبض ويبسط. إن كانوا يريدون الذرية فالله هو الذى يهب الذرية لمن يشاء. إن كانوا يخشون أعداءهم فالله هو الذى يسلط من يشاء على من يشاء لحكمة يريد بها، ولن يخرجوا من قبضة أعدائهم إلا في اللحظة التى يقدرها الله، ويقدر يقدره الله. . والله هو مالك الملك الذى يوتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء، ويذل من يشاء بيده الأمر وهو على كل شيء قدير:

(٢) سورة ال عمران [٩٠-٩٥]

(١) سورة الزمر [٢٣]

(٣) سورة آل عمران [١٩١]

«قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب»<sup>(١)</sup>.

وهكذا حيثما وجّه الإنسان بصره، أو توجهت به مشاعره وجد الله تجاهه . . .  
والمسلمون الأوائل هم الذين امتلأت قلوبهم بهذه الحقيقة حتى أعماقها . . .  
فأتت ثمارها . . . وهل ثمارها إلا طاعة الله؟!  
إذا كانت الألوهية على هذا النحو الهائل المحيط . . . فكيف يكون موقف العبد  
تجاه مولاه؟

هذا . . . هو الذى جعل ذلك الجليل على النحو الذى كان عليه . . . إحساسهم  
الحق بالعبودية الكاملة للإله الحق، العظيم القادر، المحيط بكل شيء علما وتديرا  
وقدرة ومشئئة وحفظاً وهيمنة وملكا وجبروتا ورحمة ومغفرة . . .  
هو الله . . . وهم العبيد . . . والعبيد يسلمون أنفسهم وقلوبهم وأرواحهم للذى  
يملكها حقاً وصدقاً . . . فيتصرفون تجاه المالك كما يتصرف العبيد من الإذعان  
والطاعة والتسليم والخضوع . . .  
وعندئذ يصلون إلى القمة التى لا يحسن الصعود إليها إلا من يحسن العبودية  
لله!

إن هذا الأمر عجيب . . . ولكنه هو حقيقة النفوس! إنها لا تكون على تمامها،  
وفي أحسن حالاتها وأعلىها، إلا حين تكون مستقيمة على وضعها الصحيح تجاه  
خالقها. كالألة لا تدور دورانها الطبيعى السهل السلس حتى يكون كل «ترس»  
من «تروسها» فى وضعه الصحيح، ولا يكون شيء منها ناتئا عن موضعه فتقف  
عن الحركة أو تضطرب فى دورتها.

فما الوضع الصحيح للإنسان تجاه خالقه؟  
«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم  
عدو مبين»<sup>(٢)</sup>.

(٢) سورة البقرة [٢٠٨]

(١) سورة آل عمران [٢٥ - ٢٦]

استسلموا لله بكافة أنفسكم . . بكافة كل نفس منكم . . بحيث يكون كل جزء من نفوسكم مستسلما لله . . وهذا هو الإسلام!  
وعندئذ؟ تكونون في أعلى عليين! تكونون في أصفى حالاتكم، وفي أفضل حالاتكم، وفي أعلى صورة مستطاعة للإنسان على الأرض . . الإنسان الذي توشك أن تصافحه الملائكة!

هل من عجب إذن أن يكون أعظم بشر في تاريخ البشرية هو أعبد الناس لله؟ هو الذي يمن الله عليه بأنه قرّبه إليه أشد القرب بأن ألصق عبوديته به سبحانه وتعالى:

«سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير»<sup>(١)</sup>.  
ففي أعظم لحظات التقريب أبرز الصفة التي كانت هي أداة القرب وأداة الرفعة وأداة التكريم .

إنه رب كريم، يكرم عباده بمقدار ما يتعبدهونه، فيكون أكرمهم عنده هو أشدهم عبودية له:  
«إن أكرمكم عند الله أتقاكم»<sup>(٢)</sup>.

والكريم عند الله هو الكريم حقا في السماوات وفي الأرض، وفي كل وضع من أوضاعه وكل حالة من حالاته .

وهذا هو الذي وعته قلوب الصحابة الكرام رضى الله عنهم . . فكانوا خير قرن من القرون، بمقدار ما أخلصوا دينهم لله . . بمقدار ما صدقوا في عبوديتهم لله .

\* \* \*

وكان القرآن يحدثهم عن اليوم الآخر حديثا يهز القلوب بدقة الوصف والبلاغة المعجزة في التعبير، فيعيشون مشاهد القيامة كأنهم يرونها اللحظة تجاه أعينهم . . كأنها هي الحاضر المشهود لا المستقبل المنظور.

تلك خاصية القرآن . . يظل يصف لك مشاهد القيامة حتى يخيل إليك من روعة الوصف أن الحياة التي تحياها الآن قد مضت وانقضت وأصبحت ماضيا يُتذكّر، وأن الحاضر هو هذه المشاهد الحية الموصوفة بكل دقائقها:

(٢) سورة الحجرات [١٣].

(١) سورة الإسراء [١].

«إن المتقين في جنات ونعيم، فكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء. كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون، يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه، إنه هو البر الرحيم»<sup>(١)</sup>

«وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال؟ في سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم. إنهم كانوا قبل ذلك مترفين، وكانوا يصرّون على الخنث العظيم، وكانوا يقولون: أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون؟ أو أبأؤنا الأولون؟! قل: إن الأولين والآخرين، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم. ثم إنكم أيها الضالون المكذبون، لآكلون من شجر من زقوم، فمالئون منها البطون، فشاربون عليه من الحميم، فشاربون شرب الهيم، هذا نزلهم يوم الدين»<sup>(٢)</sup>.

نعم.. تلك خاصية القرآن.. ولكن القلوب المفتحة تحس بوقع الكلمات على نحو يختلف عن غيرها من القلوب. إنها تتلقى الشحنة كاملة، فتأثر بها كاملة، ويسرى الأثر إلى الأعماق.

لقد كان من صدق استسلام هذه القلوب لله، أن كان تأثرها بكلام الله أشد، فهي تتلقى كل كلمة من كلام الله على أنها موجهة إليها شخصيا، لا أنها موجهة لآخرين وهي تتفرج من بعيد، كما يحدث للقلوب الغافية التي تتلقى الكلام وهي وسنانة، فيكون في حسها كرجع الصدى، مبهما غير واضح النبرات!

عاشوا والآخرة في حسهم كأنها حاضر. يعايشون مشاهدا تجاه أعينهم، فتشدهم الجنة بنعيمها الشفيف الخالد فيشتاقون إليها، فيغذون السير إليها متخفين مما يثقلهم في الطريق من متاع الحياة الدنيا، متزودين بالزاد الذي يصلح للطريق «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى»<sup>(٣)</sup> وترهبهم النار بعدائها المروّع

(١) سورة الطور [ ١٧ - ٢٨ ] (٢) سورة الواقعة [ ٤١ - ٥٦ ]

(٣) سورة البقرة [ ١٩٧ ]

فيحذرون أن يقعوا فيها، فيحاولون الابتعاد إلى أقصى المدى لينجوا من اللهب :  
«كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام» .

وكذلك كان وقع اليوم الآخر في حسهم . . لم يكن مجرد تأثر وجداني مؤقت،  
تمر به رياح الشهوات فتعصف به وتذروه، إنما هو شيء ثابت تجاه أعينهم، في كل  
لحظة يرونه، وفي كل لحظة يتأثرون برؤيته، فيعملون ما يقربهم من الجنة،  
ويتحاشون ما يقربهم من النار. لذلك كان دعاؤهم - وهم يذكرون الله قياما وقعودا  
وعلى جنوبهم - على هذا النحو الذي تصفه الآيات :

«يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات  
والأرض: ربنا ما خلقت هذا باطلا، سبحانه، فقنا عذاب النار. ربنا إنك من  
تدخل النار فقد أحرزته، وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي  
للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع  
الأبرار، وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف  
الميعاد» (١) .

في كل لحظة يمس أحدهم بعمل يسأل نفسه: هل هذا العمل مما يرضى الله عنه  
فيدخله به الجنة؟ أم مما يسخط الله فيدخله به النار؟

وفي كل لحظة يسأل نفسه: ما الذي يريده الله مني في موقفى هذا في لحظتى  
هذه؟ فإذا عرف الجواب أسرع إلى القيام بما يطلبه الله منه، شوقا إلى الجنة وفرارا  
من النار. وكان هذا هو الذكر الذى يذكرون به الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم . .  
الذكر الحافظ إلى المسارعة في الخيرات، لا ذكر الأوراد والأذكار والمسابع، الذى يبدأ  
هناك وينتهى هناك!

\* \* \*

وكان القرآن يحذتهم عن قصة الشيطان مع آدم، ويحذهم من الوقوع في فتنته:  
«يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنها لباسها  
ليربما سواتها. إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم. إنا جعلنا الشياطين  
أولياء للذين لا يؤمنون» (٢) .

«قال أنظرنى إلى يوم يبعثون، قال إنك من المنظرين، قال فيما أغويتنى لأقعدن

(٢) سورة الأعراف [٢٧]

(١) سورة آل عمران [١٩١-١٩٤] .

لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين»<sup>(١)</sup>.

«وإن يدعون إلا شيطانا مريدا، لعنه الله، وقال: لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا، ولأضلنهم، ولأمنينهم، ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله، ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا. يعدهم ويمنهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا»<sup>(٢)</sup>.

وكان الشيطان يتجسم في حسهم مرتبا مشهودا يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيانهم وعن شمائلهم، يوسوس لهم بالمعصية ويستثير كوامن الشهوات. . فكانوا يحاولون أن يكونوا دائما على يقظة، لأنه لا يدخل إلا على الغفلان. كانوا يتقربون إلى الله بالطاعات ليضيقوا طريق الشيطان إليهم أو يسدوه، فلا يجد له طريقا إليهم إلا فيما هو أخفى من ديبب النمل، ومع ذلك يحاولون أيضا أن يسدوا ذلك الطريق!

«فاستعد بالله من الشيطان الرجيم. إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون»<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

وكان القرآن يحدثهم عن أخلاقيات لا إله إلا الله:

«قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون»<sup>(٤)</sup>.

«وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما<sup>١</sup>. والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما. إنها ساءت مستقرا ومقاما. والذين إذا أنفقوا

(٢) سورة النساء [١١٧ - ١٢٠]

(١) سورة الأعراف [١٤ - ١٧]

(٤) سورة المؤمنون [١ - ١١]

(٣) سورة النحل [٩٨ - ١٠٠]

لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً. والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيماً. ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً. والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً. والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماماً، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحيةً وسلاماً، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً»<sup>(١)</sup>.

ويحدثهم كذلك عن أخلاقيات الجاهلية:

«ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون»<sup>(٢)</sup>.

«كلا بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضون على طعام المسكين، وتاكلون التراث أكلاً لما وتحبون المال حبا جما»<sup>(٣)</sup>.

«كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى!»<sup>(٤)</sup>.

«ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعدده، يحسب أن ماله أخذه!»<sup>(٥)</sup>  
«ولا تطع كل حلاف مهين، همام مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم، أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين»<sup>(٦)</sup>.

فيأخذون التوجيه على أنه أمر ملزم ونهى ملزم. أمر بأخلاقيات لا إله إلا الله، ونهى عن أخلاق الجاهلية.

لذلك لم تكن لا إله إلا الله منفصلة في حسهم عن الأخلاق الفاضلة التي

(٢) سورة المطففين [١ - ٣]

(١) سورة الفرقان [٦٣ - ٧٦]

(٤) سورة العلق [٦ - ٧]

(٣) سورة الفجر [١٧ - ٢٠]

(٦) سورة القلم [١٠ - ١٥].

(٥) سورة الهمزة [١ - ٣]

دعاهم إليها باسم الإيمان، لأنها كانت في حسبهم - كما هي في الواقع - من مقتضيات لا إله إلا الله .

\* \* \*

هل نعجب إذن - حين نعرف الطريقة التي كانوا يتلقون بها توجيهات القرآن وتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم - إذا رأينا تلك النماذج الفذة التي تحدثنا عنها كتب السيرة، بتلك الوفرة التي وعها التاريخ؟

هل نعجب من الذين باتوا على الطوى ليقدموا اللقمة الضئيلة التي يملكونها إلى ضيفهم، وأطفأوا السراج حتى لا يرى الضيف أنهم لا يملكون إلا ما قدموه له . . فأنزل الله فيهم: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة»<sup>(١)</sup>.

هل نعجب من الذى خرج من بيته ويده تمرات فلما رأى القتال قال: لئن عشت حتى أنتهى من هذه إنه لأمر يطول! فألقى التمرات واقتحم المعركة شوقاً إلى الجنة فاستشهد؟!!

هل نعجب ممن كان في ليلة عرسه فسمع الهيبة فقام يطلب الجنة فلما استشهد غسلته الملائكة؟!!

هل نعجب ممن يقدم له رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمه من الفىء فيرده يقول ما على هذا بايعتك! لأنه يبحث عن متاعٍ من نوع آخر، ويصدق الله فيصدقه . . فيدخله الجنة شهيداً في سبيل الله؟!!

هل نعجب من عمر يبكى حين رأى العجوز تلهى أبناءها ليناموا فيذهب بنفسه فيحمل الدقيق على ظهره ويعود يصنع للأطفال الطعام بيده ولا ينصرف حتى يعلم أنهم قد شبعوا وناموا؟!!

هل نعجب من ماعز تؤرقه نفسه، يلح على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقيم عليه الحد، لا يطيق أن يلقي الله بلا كفارة؟ ومن الغامدية تلح في إقامة الحد عليها، وتظل على عزيمتها لا تفارقها حتى تفتطم ولدها . . تريد أن تلقى الله خالية من الذنوب؟!!

هل نعجب من ربيعى بن عامر يدخل على رستم كما دخل، مستعلياً على كل ما تملكه الجاهلية من السلطان والجاه، معتزاً بلا إله إلا الله، يصدع بكلمة الحق

(١) سورة الحشر [٩]



في وجه الجاهلية العاتية، لا يرهبها ولا يحس لها وزنا في حسه، لأنه يزنها بميزان الله فإذا هي خاوية، تستحق أن يدوسها بأقدام حماره، ويمزقها بطرف رحمة، ويملى على صاحبها أمر الله!

هل نعجب من عمرو بن العاص يطلب المدد من الخليفة لأن الروم يشدون على جيشه، فلا يرسل له عمر رضى الله عنه عشرة آلاف يمدده بهم ولا خمسة آلاف، ولا ألفا ولا خمسمائة، إنما يرسل إليه أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن رباهم صلى الله عليه وسلم على عينه، فينتصر الجيش بالأربعة الكرام العظام كأنهم مدد يبلغ الألف؟!!

هل نعجب من انتشار الإسلام في تلك الرقعة الفسيحة من الأرض في تلك البرهة القصيرة من الزمن، فيبلغ من المحيط غربا إلى الهند شرقا في نصف قرن من الزمان على أيدي أولئك الأفذاذ من الرجال؟!!

هل نعجب من مئات ومئات من الخوارق في كل اتجاه، تجتمع كلها وتحشد في تلك الفترة المحدودة من الزمن، حتى ليمر بها المؤرخ وكاتب السيرة مروراً عابراً كأنها يتحدث عن شيء عادي، ذلك أنه ينظر يمناً ويسرة فيرى القمم الشاهقة من حوله فلا يعود يصف قمة بأنها قمة!! لأن هذا لا يميزها عن غيرها من القمم!!

\* \* \*

هل خرج هؤلاء البشر عن بشريتهم؟

هل أصبحوا ملائكة؟

هل خرجوا من عموم قوله صلى الله عليه وسلم: «كل بنى آدم خطاء»؟<sup>(١)</sup>

هل أصبحوا صفحات بيضاء لا أثر فيها لسوأة ولا نقیصة؟!

كلا: ما كانوا كذلك!

كانوا بشرا تعتمل في نفوسهم دوافع البشر، ويتحركون في الأرض بدوافع البشر. ولكنها دوافع البشر في أقصى حالاتها وأعلاها؛ دوافع البشر حين يتخففون إلى أقصى حد من ثقل الأرض، فيصعدون أقصى ما يتاح للبشر من الصعود. ولكنهم مع ذلك كله بشر فيهم من سرق وأقيم عليه الحد، وفيهم من

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارمي .

زنى وأقيم عليه الحد، وفيهم من شرب الخمر وأقيم عليه الحد، وفيهم من تولى يوم التقى الجمعان فغفر الله له، وفيهم من تباطأ وتناقل، وفيهم من تخلف . . .  
فيهم من نزل فيه قوله تعالى: «منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة» (١).

وقوله تعالى: «مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اناقلتم إلى الأرض». (٢).

وقوله تعالى: «هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل» (٣).

وقوله تعالى: «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضائق عليهم أنفسهم، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم» (٤).

ولكنهم كانوا كما وصفهم الله: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله - ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعم أجر العاملين» (٥).

كانوا يعملون . . فإذا هبطت بهم ثقله عن المستوى السامق لم يستكينوا للهبوط، إنما عبادوا يعملون للصدود من جديد . . فيصدون . . ويصدون!

## ثانياً: تحقيق معنى الأمة في صورته الحقيقية

كان العرب كما قلنا قبائل متناثرة متنافرة لا تجتمع على شيء على الرغم من وجود كل مقومات التجمع من وحدة الأرض ووحدة اللغة ووحدة الثقافة ووحدة التاريخ ووحدة التصورات ووحدة التطلعات .

(١) سورة آل عمران [١٥٢] (٢) سورة التوبة [٣٨]

(٣) سورة محمد [٣٨] (٤) سورة التوبة [١١٧-١١٨]

(٥) سورة آل عمران [١٣٥-١٣٦].

وقد كان يمكن على أقل تقدير أن يجتمعوا على قضية من القضايا التي يتجمع لها الناس في جاهلياتهم؛ قضية قومية مثلا لطرد الاحتلال الفارسي والاحتلال الروماني من أطراف الجزيرة العربية، أو قضية اجتماعية لتقريب الفوارق بين الغنى الفاحش في أيدي فئة قليلة من الناس والفقر المدقع الذي يتسربل به أغلبية الناس. . . أو غير هذه وتلك مما يمكن أن يجتمع له الناس في أطوار معينة من أطوار الحضارات الجاهلية. . . ولكن العصبية القبلية والثارات الدائمة وغارات السلب والنهب واشتغال كل قبيلة بشئونها الخاصة، وحرصها على حيازة ما تفاخر به غيرها، وسعيها إلى انتفاص غيرها، جعل التجمع حتى على هذه القضايا الأرضية البحتة أمرا لا يخطر في بال قبيلة من القبائل، حتى في فرصة التجمع السنوي في موسم الحج.

ومن هناك انتشلهم الإسلام. . .

انتشلهم لا ليكونوا تجمعا قوميا كما يمكن أن يحدث في أية جاهلية من جاهليات التاريخ، ولا ليكونوا تجمعا وطنيا تحت قيادة زعيم منهم ينشئ منهم دولة موحدة ذات كيان وحدود. . . ولكن لينشئ منهم تجمعا فريدا في التاريخ. . . لينشئ منهم أمة العقيدة التي استحقت من الله وصفها بهذا الوصف العظيم: «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله».

والذي يلحظ النقلة الهائلة التي انتقلها العرب من شتاتهم المتناثر ليكونوا خير أمة أخرجت للناس، لا بد أن يأخذه العجب من هذا التحول الهائل في فترة من عمر الزمن كأنها لحظات!

وقد يتمحل المتمحلون من دعاة القومية العربية أو دعاة التفسير المادى للتاريخ ليقولوا إن العرب كانوا وشيكين من ذوات أنفسهم على التجمع القومى لطرد الروم والفرس من أطراف الجزيرة، أو لقيام ثورة «اشتراكية» من الفقراء على الأغنياء تنقل السيادة من الأخيرين إلى الأولين.

وهو تمحل فارغ لا يستحق الوقوف عنده لبضع لحظات!

فلا التجمع القومى المزعوم كانت له أى بوادر منظورة بين القبائل العربية المتناثرة، ولا تكلم به أى متكلم على الإطلاق، ولا «الثورة الاشتراكية» كانت لها أى بوادر منظورة أو كامنة في الجزيرة العربية ولا في غيرها من بقاع الأرض لعدة

قرون تلت، ولا كان «الفقراء» في أى قبيلة تجمعا مترابطا متضامنا ليقوم بالثورة على الأغنياء فيها، فضلا عن أن يكونوا تجمعا عريضا يشمل فقراء الجزيرة العربية كلهم بوصفهم «طبقة» ثور على طبقة الأغنياء.

وفضلا عن ذلك كله فإن التجمع الذى تمثل فى تلك «الامة الفريدة» أمة العقيدة، هو تجمع فريد لا مثيل له فى كل التجمعات «القومية» السابقة أو اللاحقة، ولا فى التجمعات التى قامت على أساس المذاهب الاجتماعية فى العصر الحديث، فالقول بأن العرب كانوا وشيكن من عند أنفسهم على إقامة هذا التجمع أو ذاك، لا يفسر - حتى إن صح - قيام ذلك التجمع الفريد، الذى لم يتكرر - بهذه الصورة - فى كل التاريخ.

\* \* \*

كيف تكوّن ذلك التجمع الفريد، الذى أنشأ خير أمة أخرجت للناس؟ لقد بدأ ولا شك بأولئك الأفراد القلائل الذين تجمعوا حول الرسول صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم بن الأرقم فى خفة عن عيون الناس. كلّ قد هجر الجاهلية كلها من حوله وأدار لها ظهره، وقطع صلته بقرابة الدم وصدقات القوم، وتوجه الوجهة الجديدة التى تدعو إليها لا إله إلا الله، محمد رسول الله، التى شهد بها قلبه ولسانه وكل جوارحه، وأصبحت له - منذ شهد بها - هى المولى والملاذ، وهى مفرق الطريق بينه وبين الجاهلية.

وحين التقوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد التقوا بكيانهم كله، والتحمت قلوبهم بنوع جديد من الرباط لم يألفوه من قبل، ولا وجود له فى الحقيقة خارج نطاق العقيدة. إنه اللقاء فى الله، واللقاء فى رسول الله.

إن الناس فى الجاهلية تلتقى، وتقوم بينها صحبة وصدقات. ولكن على أى شىء تلتقى الناس؟

إنها إما قرابة الدم، وإما «المصالح المشتركة»، وإما لقاء الشهوات..

ومن ثم فإنها - مهما تقاربت وتلاصقت - لا تصل إلى حد الالتحام!

فى كل صلة من هذه الصلات لا تدوب «الأنا» التى تقيم حاجزا بين القلب والقلب، وإن تلاقت الأجساد أو تلاقت العقول والأفكار. فكل إنسان يقيم سياجا معينا لنفسه، يتسع للحجم الذى يحس فيه «بالأنا» المشتملة عليها ذاته،

ومن ثم تلتقى الذوات المختلفة وتتقارب ولكن في حدود ذلك السياج المنسوب من كل منهم حول «الأنا» التي يحسها بين جنبيه . ومن ثم تتنافر تلك الذوات إذا اقتربت أكثر من اللازم، ويبدأ بينها الاحتكاك!

نوع واحد من الرباط لا يحدث فيه ذلك التنافر، لأنه يذيب ذلك السياج الزائف الذى ينصبه الإنسان حول نفسه، ومن ثم تظل القلوب تقترب وتقترب حتى يحدث الالتحام . . ذلك هو رباط العقيدة! ذلك أنه ليس رباطا بين إنسان وإنسان في محيط الأرض، وعلى علاقات الأرض، ولكنه رباط في الله، بين عبد لله وعبد لله، خلا قلباهما من ذلك الكبر الظاهر أو الخفى الذى يحجز القلوب عن التقارب والالتحام، وامتلا قلباهما بشيء آخر غير مشاغل الحس القريبة ومشاغل الأرض المنقطعة عن السماء .

ذلك الرباط هو الذى وحد تلك القلوب حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حدث اللقاء بينها في الله، فتحابت، فالتحمت، ثم زادها التحاما لقاءها في حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتآخت ذلك الإخاء العجيب الذى يتحدث عنه التاريخ !

كان الصحابة رضوان الله عليهم يسير الاثنان منهم في الطريق، فتفصل بينهما أثناء المسير شجرة، فيعودان فيسلم أحدهما على الآخر شوقا إليه من تلك اللحظة التى فصلت بينهما في الطريق!

وبكى أحد الصحابة حزنا لأنه فكر في فراق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدار الآخرة، وهو لا يطيق فراقه في الدنيا، فأنزل الله قوله فيه: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا»<sup>(١)</sup>.

ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة آخى بين الأوس والخزرج، فذاب ما بينهما من نزاع وصراع استمر ذلك المدى من الزمن الذى لا يعلمه إلا الله، وصار بينهما ذلك التآلف والإخاء الذى من الله به عليهم: «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا»<sup>(٢)</sup>.  
ثم آخى بين المهاجرين والأنصار تلك المؤاخاة العجيبة الفريدة في التاريخ،

(١) سورة النساء [٦٩] (٢) سورة آل عمران [١٠٣].

حيث كان الأنصار يتنازلون عن شطر ما يملكون للمهاجرين عن طيب خاطر، وعن غير إلزام ألزمهم به الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم، ويؤثرونهم أحيانا على أنفسهم حتى أنزل الله فيهم: «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»<sup>(١)</sup>

إنه ذلك الحب الذى ينشئه رباط العقيدة، ولا يملك رباط آخر أن ينشئه على هذا النحو الوثيق العميق الشفيف الذى يصل إلى درجة الالتحام، لأنه لا يصطدم بالسياج الزائف الذى تقيمه «الأنبا» حول ذاتها في جاهليات البشرية.

ولم تكن تلك المؤاخاة مؤاخاةً طبقيةً تقوم بين «شريف» و «شريف» ولا مؤاخاةً قومية أو عرقية تقوم بالضرورة بين عربى وعربى . . . إنها كانت مؤاخاةً بين «مسلم» و «مسلم» بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو اللغة أو الوضع الاقتصادى أو الوضع الاجتماعى، لأنها الأخوة التى قال الله عنها: «إنما المؤمنون إخوة»<sup>(٢)</sup> تربط القلوب برباط الإيمان بصرف النظر عن كل رباط آخر.

فقد أخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين عمه حمزة ومولاه زيد، وبين أبى بكر وخارجة بن زيد، وبين ابن رواحة الخثعمى وبلال بن رباح . . . والتقى في بوتقة العقيدة التى صهرت كل فوارق الجنس واللون واللغة بلال الحبشى وصهيب الرومى وسلمان الفارسى، مع أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضوان الله عليهم. بل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سلمان منا آل البيت»<sup>(٣)</sup> وقال عمر رضى الله عنه عن أبى بكر وبلال رضى الله عنهما: «أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا!»

إنها هى «الأمة» التى قال عنها خالقها سبحانه: «كتمم خير أمة أخرجت للناس».

إنها الأمة فى معناها الحقيقى الذى لم يتحقق فى أى تجمع آخر من تجمعات التاريخ.

إنها أمة العقيدة . . . ذات الرباط الحقيقى الذى ينشئ الأمة فى صورتها الحقيقية.

(١) سورة الحشر [٩].

(٢) سورة الحجرات [١٠].

(٣) رواه الحاكم فى المستدرک (٣/٥٩٨).

ليست الأمة كما يعرفها علم الاجتماع الجاهلي مجموعة من البشر تجمعهم أرض مشتركة ولغة مشتركة وجنس مشترك ومصالح مشتركة . . فهذه كلها هي العناصر التي لا اختيار للإنسان فيها، والتي يجتمع على مثلها الحيوان كذلك !

فالميلاد في أرض معينة أمر لا يتخيره الإنسان لنفسه، ومن حماقة أن يكون بذاته محلا للتفاضل بين بشر وبشر! واتخاذ لغة البقعة من الأرض التي ولد فيها الإنسان هو أمر كذلك لا يختاره الإنسان لنفسه، ومن ثم فلا مجال لأن يكون بذاته موضعا للتفاضل بين بشر وبشر! والانتفاء - بالمولد - إلى جنس معين هو أمر كسابقيه لا اختيار للإنسان فيه، فضلا عن حماقة التفاضل بالجنس (أو باللون) التي لم تخل منها جاهلية من جاهليات التاريخ حتى جاهلية القرن العشرين . وأما «المصالح المشتركة» فهي وشيعة تلتقى البهائم على مثلها حين تلتقى على العشب والكأ والماء فتكون قطعانا متألفة بعضها مع بعض، متعادية مع من يهدد «مصالحها المشتركة» من القطعان الأخرى! إنما يكون التفاضل بين الأدميين على «القيم» التي يلتقون عليها ويتجمعون من أجلها ويحرصون عليها ويجاهدون في سبيلها . . وهذه . . قبل كل شيء آخر هي الوشيعة التي يمكن أن تكون «الأمة»، لأنها القيم التي تستحق أن تقوم عليها حياة الإنسان، بصرف النظر عن الأرض واللغة والجنس وأي شيء آخر مشترك أو غير مشترك . . ومن ثم تكون العقيدة، وهي أعلى ما يمكن أن تقوم عليه حياة الإنسان، هي الوشيعة الحقيقية التي تقوم عليها الأمة الحقيقية . . الأمة الخيرة . . ثم تنضوي تحتها كل العلاقات الأخرى . . علاقات الأرض واللغة والجنس وقربة الدم، فتكون هذه روافد إضافية إذا وجدت، ولكنها لا تكون هي التي تكون الأمة - ولو اجتمعت كلها - في غياب العقيدة، بينما تكون العقيدة وحدها - ولو غابت الروابط الأخرى كلها - هي الرباط الذي تتكون حوله أمة تتأخى بأخوة العقيدة وتترابط برباط الإيثار فتكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، (١) وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر. (٢) .

(١) يقول تعالى في سورة الصف [آية ٤]: «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص» .  
(٢) يقول صل الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» متفق عليه .

تلك هي الوشيحة التي نبه القرآن في أكثر من موضع أنها هي المعتبرة وهي المعول عليها، والتي تفصم الروابط الأخرى كلها وتبقى هي لا تفصم .  
ففي قصة نوح جاء قوله تعالى :

«ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إنني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين»<sup>(١)</sup> .

فقد وعد نوح من قبل أن ينجو أهله من الطوفان إلا من سبق عليه القول :  
«حتى إذا فار التنور قلنا حمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل»<sup>(٢)</sup> .

ولقد دعا نوح ابنه - وكان في معزل - ليركب في السفينة الناجية فأبى ، فأدركه الطوفان :

«وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سأوى إلى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين»<sup>(٣)</sup> .  
فلما قضى الأمر واستوت السفينة على الأرض وقد نجا من نجا، وهلك من هلك، ملأت الحسرة قلب نوح على ولده الهالك، وراح يسأل ربه كيف غرق وهو من أهله، وقد وعده الله أن ينجو أهله، ووعد الله حق لا ريب فيه؟! !

هنا ينبهه الله سبحانه وتعالى أن الوشيحة الحقيقية ليست وشيحة الدم . . إنما هي وشيحة العقيدة : «يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح» . وقد انفصمت وشيحة العقيدة حين أبى الابن أن يؤمن، فانفصمت لها كل وشيحة أخرى، ولم يعد ابن نوح من أهله، مع أنه ابنه كما يؤكد القرآن باللفظ الصريح «ونادى نوح ابنه» .

وفي قصة إبراهيم جاء قوله تعالى :

«قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء

(١) سورة هود [٤٥-٤٧] (٢) سورة هود [٤٠] (٣) سورة هود [٤٢-٤٣]



منكم وما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده»<sup>(١)</sup>.

وجاء قوله تعالى يحذر الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون. قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومسكن ترضونها، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين»<sup>(٢)</sup>.

فيضع روابط الدم كلها في كفة، بل يضع كل مقومات التجمع الجاهلي في كفة، وحب الله ورسوله، والجهاد في سبيل الله في الكفة الأخرى، ثم يرجح هذه على تلك، وينذر الذين يخلون بالموازن الربانية بالعذاب الأليم.

وإذا كان الإسلام من فيض رحمته وإنسانيته قد حرص على بر الوالدين - وإن كانا مشركين<sup>(٣)</sup> - فالبر شيء والولاء الذي تقوم على أساسه الأمة شيء آخر. والولاء هو الذي ينقسم انفصاما كاملا حين تنقسم رابطة العقيدة، وهو العنصر الحي الذي تقوم به الأمة في ظل العقيدة، وقد تأتي الروابط الأخرى فتكون أواصر إضافية: «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله»<sup>(٤)</sup> ولكن بشرط الالتقاء في العقيدة، الذي لا تقوم الأمة الحقيقية إلا عليه.

وتلك الأمة - التي قامت على رباط العقيدة - هي التي وصفها خالقها بقوله سبحانه: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»<sup>(٥)</sup> وهي التي لم تتكرر - بصورتها تلك - في كل التاريخ.

نعم، وجدت أمم مؤمنة من قبل، ارتبطت بذلك الرباط فكانت أما خيرة، ولكنها كانت محدودة الحجم محدودة الدور في التاريخ، بحكم أن الرسل السابقين أرسلوا إلى قومهم خاصة. أما محمد صلى الله عليه وسلم، الذي أرسل إلى البشر

[٢] سورة التوبة [٢٣-٢٤]

[١] سورة الممتحنة [٤]

[٣] سألت أساءة رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تصل أمها المشركة فقال لها: نعم صلى أمك. رواه الشيخان.

[٥] سورة آل عمران [١١٠]

[٤] سورة الأنفال [٧٥]

كافة، فقد كانت أمته «خير أمة أخرجت للناس» في التاريخ كله بشهادة خالقها ومخرجها على هذا النحو الفريد.

ومن كان في شك من تلك الحقيقة فليوازن بينها وبين التجمعات الكبرى في التاريخ، التي جمعت أكثر من جنس أو لون أو لغة أو ثقافة، وعلى رأسها التجمع الروماني في القديم، ورابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث Common Wealth) والتجمع الأمريكي (الولايات المتحدة الأمريكية) والتجمع الروسي (الاتحاد السوفيتي) في الحديث.

فأما التجمع الروماني القديم فقد كانت فيه «الدولة الأم» في مركز السيادة الكاملة والأمم الأخرى في موضع التبعية الكاملة كما هو مشهور في التاريخ. ولم تقم فيه تلك «الأخوة» التي تجمع تلك الأمم والشعوب في رباط واحد على قدم المساواة. وحتى حين دخل قسطنطين المسيحية وفرضها على الإمبراطورية عام ٣٢٥م، فلم تكن الأخوة المسيحية هي التي تحكم كل مظاهر الحياة في الإمبراطورية الرومانية، إنما كانت جانبا واحدا من الصورة، وبقية الجوانب مبنية على شيء آخر بعيد كل البعد عن الأخوة والمساواة، هو التبعية للدولة الأم، وهامشية الدور الذي تقوم به في حياة الإمبراطورية، إذ هو عبارة عن إمدادها بالمال والرجال. . المال لتكتنز الدولة الأم ويترف حكامها وكبرائها، والرجال ليقاتلوا - وليموتوا - في سبيل مطامع الإمبراطورية وشهواتها، أو بالأحرى مطامع الإمبراطور المقدس وشهواته! ولكن ليس لها رأى ولا موقف تجاه الدولة الأم سوى التبعية والبذل، مقابل «شرف» الانتهاء إلى الإمبراطورية!!

وأما تجمع «الكومنولث» فلعل حادثا واحدا معيننا يغنيننا على كل شرح وإفاضة لأنه واضح الدلالة في بيان حقيقة الرابطة فيه بين «الدولة الأم» و«المستعمرات» التي أطلق عليها من باب الترمويه «رابطة الشعوب البريطانية»!

ذلك الحادث وقع في أثناء الحرب الكبرى الثانية حيث كانت مواقع الصحراء الكبرى تتوالى عليها قوات «الحلفاء» وقوات «المحور» ذهابا وأية، إلى أن استقر الأمر لقوات الحلفاء بعد اندحار «روميل» قائد قوات المحور. وكانت مدينة «طبرق» بالذات أكثر هذه المواقع تداولا بين القوتين. وفي إحدى المرات انسحبت القوات الألمانية تحت ضغط القوات البريطانية، وكان من المعتاد أن الدولة المنسحبة

تزرع الأرض بالألغام قبل انسحابها لتحدث أكبر قدر ممكن من الخسائر في القوات الغازية، كما كان من المعتاد أيضا - بالنسبة للحلفاء على الأقل - أن يطلقوا قطيعا من الحمر المستنفرة أو الجمال الهائجة على حقول الألغام فداء للبشر، فتموت الحمر والجمال وتقل خسائر الجنود إلى أقل قدر ممكن. أما في تلك المعركة - التاريخية - فقد أطلق قائد القوات البريطانية الفيلق الهندي في جيشه ليفجر حقول الألغام أمام الجنود البيض، بدلا من الحمر والجمال المعتادة - لأمر لا أعلمه حتى هذه اللحظة - وانتصر «الحلفاء» انتصارا باهرا وصدر البلاغ الحربى يسجل الانتصار: انتصرنا على قوات العدو. استولينا على طبرق. خسائرنا قليلة. فنى الفيلق الهندي عن آخره!!

وأما التجمع الأمريكى فيكفينا من سواته ومخازيه موقف البيض هناك من السود، وهم إخوان في «مواطنة» الولايات المتحدة الأمريكية وإخوان كذلك في المسيحية!.. ومع ذلك توجد لافتات في المطاعم ودور السينما مكتوب عليها في وقاحة «ممنوع دخول السود والكلاب!» ويتكرر حدوث هذا المشهد: مجموعة من البيض قد تجمهروا حول واحد من الزنوج يضربونه ويطرحونه أرضا ويركلونه بأقدامهم حتى تزهق روحه، والشرطى الأبيض قد أدار لهم ظهره حتى ينتهوا من «جهادهم المقدس» ثم يفروا، فيقيد الحادث ضد «مجهول»!

وأما التجمع الروسى - الذى يزعم أنه تجمع عقيدة! - فالدولة الأم ذات السلطان الحقيقى هى روسيا، وبقية «السوفييتات» إن هى إلا توابع ذات وجود وهمى، لا تشارك في سياسة عامة ولا في أمر من الأمور إلا بالطاعة والتنفيذ، وكيل المديح للزعيم المقدس القائم بالسلطة، حتى إذا هلك وأمرت الدولة الأم بنبش قبره كما فعلت بستالين، سارعت السوفييتات كذلك بإضفاء أقبج النعوت عليه تنفيذاً لأوامر السلطان الجديد!! ووصل الأمر إلى حد اقتلاع المصانع من السوفييتات التى كانت مصنعة قبل أن تدهمها «العقيدة» الجديدة، ووضعها في روسيا لتكون هى الأقوى وهى الأضخم وهى صاحبة السلطان!!

في التجمع القائم على العقيدة، أو المنبثق في الحقيقة من العقيدة، يكون الرباط الأكبر هو رباط الأخوة في الله، أقوى الروابط في حياة البشر على الإطلاق. وبقدرا يتحقق من هذه الأخوة في عالم الواقع، يكون مدى تحقق المعنى

الحقيقى للأمة، ويكون ثقلها في ميزان الله يوم القيامة، كما يكون ثقلها التاريخى في واقع الأرض.

ولا شك أن ذلك الجيل المتفرد هو الذى حقق أكبر قدر من هذه الأخوة، ولذلك كان أثقل الأجيال وزنا عند الله: خيركم قرنى.. (١) كما كان أكثرها وزنا وفاعلية في تاريخ البشرية.

لقد حقق ذلك الجيل تلك الأخوة في كل مجال من مجالات الحياة. حققها بين المهاجرين في ذوات أنفسهم، كما حققها بين الأنصار كذلك، ثم حققها بين المهاجرين والأنصار في تلك الصورة الرائعة التى وعها التاريخ، والتى استحقت أن يمن الله بها عليهم:

«وألف بين قلوبهم. لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم. ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم» (٢).

وحققها في التكافل الذى اتسمت به تلك الأمة في تاريخها الحى كله، والذى كان في أبرز صوره في ذلك الجيل المتفرد، الذى كفل فيه الأنصار المهاجرين كفالة غير معهودة في التاريخ..

تكافل لا يقتصر على حدود الأسرة وروابط الدم، إنما يتسع حتى يسع المجتمع الإسلامى كله. ولا يقتصر على حدود الزكاة المفروضة التى ينفقها بيت المال على المحتاجين، إنما يتسع حتى يصبح إنفاقا عاما في سبيل الله.

تكافل لا يقتصر على إعانة المحتاجين في المجتمع الإسلامى، وإنما يشمل معانى أخرى وآفاقا أخرى غير المعونة المالية الحسية. إنه تكافل على صيانة الأموال والدماء والأعراض، للجميع على حد سواء، يستوى فيهم الغنى والفقير والقوى والضعيف:

«يا أيها الناس، إن دماءكم وأعراضكم وأموالكم حرام كحرمة بلدكم هذا في شهركم هذا في يومكم هذا» (٣)

«المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسمى بذمتهم أدناهم» (٤).

(١) رواه الشيخان (٢) سورة الأنفال [٦٣].

(٣) من خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع.

(٤) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند صحيح.

تكافل على الخير. . على نشر الخير في الأرض. . ورفع البشر إلى المكانة اللائقة  
«بالإنسان» :

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن  
المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله. .» (١)  
وهذا المستوى الرفيع من التكافل - الذى اهتدت البشرية إلى «التحدث» عن  
بعض آفاقه النظرية في قرونها الأخيرة - لا يقدر عليه بالفعل، ولا يمارسه بالفعل، إلا  
أمة العقيدة، لأن كيانها الأساسى قائم عليه، ولأنه جزء من بنائها النفسى وبنائها  
السلوكى على السواء.

ولقد حقق الجيل الأول من هذا التكافل أكبر قدر يمكن للبشر في أى جيل أن  
يحققوه، سواء في التكافل المالى الذى خرج فيه الأنصار عن شطر أموالهم  
للمهاجرين، أو في التكافل على صيانة القيم والمبادئ التى جاء بها الإسلام، الذى  
تستشفه في قول الأخ المسلم لأخيه في الله: «تعال يا أخى نؤمن ساعة!» أى نتذاكر  
معانى الإيمان لنمارسها في عالم الواقع. . وتراه بارزا في كون هذا الجيل أقل أجيال  
الأرض كلها جرائم وعدوانا، وأكثرها صيانة للدماء والأموال والأعراض، وأكثرها  
حرصا من كل أخ على كرامة أخيه ومشاعر أخيه، والذى يقع فيه أن يقول أبو ذر  
لرجل أسود: يا ابن السوداء! فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: غيرته  
بأمه؟! أنت أمرؤ فيك جاهلية! فيذهب أبو ذر للرجل، ويضع خده على الأرض،  
ويقول للرجل: طأ خدى بقدمك! والذى يقول فيه عمر العربى القرشى عن بلال  
العبد الحبشى «سيدنا بلال»!

لا عجب إذن أن يكون ذلك الجيل أثقل الأجيال وزنا عند الله بشهادة رسول  
الله صلى الله عليه وسلم. . ولا عجب كذلك أن يكون أبعدها أثراً وأكثرها فاعلية  
في التاريخ. . بدليل ذلك الانسياح الواسع في الأرض، الذى لا مثيل له من قبل  
ولا من بعد، والذى لم يكن مصدره التفوق في العدد أو العدة أو الخبرة العسكرية  
- فقد كان ذلك كله من نصيب الأعداء! - إنها كان مصدره ضخامة الحق الذى  
أمنت به تلك الأمة والتقت عليه، وضخامة المنطلق الذى تنطلق منه، فتحطم كل

(١) سورة التوبة [٧١]

ما تجد في طريقها من صور الباطل وأشكاله . فقد استطاعت تلك العصابة المؤمنة أن تسحق الجاهلية سحقاً وتمحوها من الوجود في قطاع واسع من الأرض، لا في صورة دول وحكومات وجيوش زالت من الوجود فحسب، بل في صورة عقائد كذلك وأنظمة وتقاليد.

ولم يقتصر عملها على إزالة تلك الدول والحكومات والجيوش بما تحمله من عقائد وأنظمة وتقاليد، فهذا عمل قد تقدر عليه القوى البشرية العادية - بشرط وجود التفوق العسكري - كما أتيج لهانيبال وجنكيزخان ونبليون وهتلر لفترات من الزمان . . إنها الذي تفردت به أمة العقيدة أنها نشرت في ربوع تلك الأرض عقيدة الحق بغير إكراه! ونشرت كذلك لغة هذه العقيدة بغير إكراه!

لقد أزال المسلمون دولة فارس كلها، على كل ما كان لها من الهيئان والقوة، وأزالوا قطاعاً كبيراً من دولة الروم أعظم دول ذلك التاريخ، ولكنهم لم يكرهوا أحداً على اعتناق الإسلام، تنفيذاً لأمر الله، الذي يأمر بإزالة الطواغيت من الأرض ولكنه يأمر كذلك بعدم إكراه الناس على العقيدة الصحيحة بعد إزالة القوى التي تصد الناس عن الحق، ممثلة في نظم وحكومات وجيوش:

«وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله»<sup>(١)</sup>.

«لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم»<sup>(٢)</sup>.

ولكن المعجزة الكبرى التي تحققت على يد ذلك الجيل، أن الذين لم يُكرهوا على اعتناق العقيدة الإسلامية قد دخلوا في الإسلام من ذوات أنفسهم، وأقبلوا عليه إقبالاً، وفرحوا بمجيء المسلمين إليهم، وأحبوهم، وصاروا بدورهم جزءاً من هذه الأمة، وجندا من جنود الإسلام . . كما أصبحوا كذلك يتكلمون بلغة العقيدة الجديدة، ونسى كثير منهم ما كان لهم من لغات!<sup>(٣)</sup>

ولا شك أن ذلك الأمر لم يكن ليتحقق لو كانت الأمة الفاتحة أمة غلبة حربية

---

(١) سورة الأنفال [٣٩]. (٢) سورة البقرة [٢٥٦]

(٣) بل إن الذين بقوا على دينهم من النصارى في مصر والشام وغيرها نسوا لغاتهم الأصلية تماماً، ولم يعد لهم لسان إلا العربية على الرغم من أنهم لم يعتنقوا هذا الدين!

فحسب، أو أمة ذات نزعة توسعية فحسب، أو كانت تبغى العلو والفساد في الأرض ككل التجمعات الكبرى في جاهليات التاريخ!  
 إنما اعتنقت البلاد المفتوحة عقيدة الأمة الفاتحة وتكلمت لغتها، لأنها رأت فيها نموذجاً غير مكرر في التاريخ من قبل، نموذج «أمة العقيدة» التي تفتح الأرض لا لشهوة التوسع والغلبة، ولكن لتنشر النور وتنشر العدل وتنشر الأمن. . وتنشر القيم الرفيعة التي تحيي بها القلوب وتفتح بها الأبصار.

### ثالثاً: تحقيق العدل الرباني في واقع الأرض

من أوامر الله لهذه الأمة تحقيق العدل الرباني في واقع الأرض، وربط هذا الأمر بحقيقة الإيمان:

«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله، ولو على أنفسكم، أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً. يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل، ومن يكفر بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً»<sup>(١)</sup>.

«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خير بما تعملون»<sup>(٢)</sup>. وربط هذا الأمر بالعقيدة في الله، وجعله خالصاً لله، يجعله سمة من سمات هذه الأمة، أو لازماً من لوازم وجودها، ليهيئ لها القيام بدورها في قيادة البشرية وريادتها. ولكن التغلب على أهواء النفوس، والحد من نزواتها وشهواتها التي ينشأ عنها العدوان والظلم في واقع الحياة، أمر يحتاج إلى تربية وتدريب، حتى تتعود النفوس أن تخضع للحق ولا تزيع عنه، ويتعود الناس أن يمسكوا بميزان العدل من منتصفه لا يميلونه ذات الشمال وذات اليمين.

ولقد كان الجيل الأول من هذه الأمة هو القمة العليا في تحقيق العدل الرباني في واقع الأرض، بصورة لم تكن معهودة من قبل حتى في الأمم التي يوصف

(٢) سورة المائدة [٨]

(١) سورة النساء [١٣٥ - ١٣٦]

حكamها بالعدل، وما زالت هذه الصورة بارزة باهرة حتى بعدما وصلت البشرية - في النظم الديمقراطية - إلى ألوان من العدل السياسي تتوهم أنه من القمم في عالم القيم والمبادئ. (١)

لقد كان الله يعدّ هذه الأمة لتكون رائدة البشرية كلها إلى الخير، والشاهدة عليها يوم القيامة، وكفلها رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بتربيتها لهذا الهدف العظيم:

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» (٢).

وكانت تربية الله لهذه الأمة - من أجل القيام بدورها في الأرض - تربية عجيبة! لقد ربي الله رسوله صلى الله عليه وسلم بادئ ذي بدء على أنه ليس له من الأمر شيء... إلا طاعة الله وابتغاء مرضاته.

«ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم...» (٣).

«وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية...» (٤).

«إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين» (٥). بل إنه على الرغم من يقين الرسول صلى الله عليه وسلم - المستمد من الوحي - بأن الله سيمكن لهذا الدين حتى يسير المسافر إلى صنعاء لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه... فإن الله سبحانه وتعالى لم يعد رسوله صلى الله عليه وسلم مرة واحدة في فترة التربية بمكة أنه سيشهد النصر والتمكين بشخصه! إنما كان يتنزل عليه الوحي:

«وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنا على البلاغ وعلينا الحساب» (٦).

وكان ذلك توجيها ربانيا لرسوله صلى الله عليه وسلم حتى يستقر في نفسه أنه

---

(١) راجع ان شئت فصل «الديمقراطية» في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٢) سورة البقرة [١٤٣]. (٣) سورة آل عمران [١٢٨].

(٤) سورة الأنعام [٣٥] (٥) سورة القصص [٥٦] (٦) سورة الرعد [٤٠]



ليس له من الأمر شيء إلا تبليغ الدعوة، ولا تبقى في نفسه حتى رغبته في أن يهتدى فلان أو فلان، بمن كان عليه السلام يكاد يقتل نفسه من الحزن عليهم لإعراضهم عن الهدى:

«فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا»<sup>(١)</sup>.

ووعى رسول الله صلى الله عليه وسلم التوجيه الرباني، فكان قمة التجرد البشري لله، ثم ربي على هذا التجرد أصحابه رضوان الله عليهم، حتى «خلت نفوسهم من حظ أنفسهم»<sup>(٢)</sup>. وكان ذلك جزءاً من الإعداد العظيم للدور العظيم الذي يناط بهذه الأمة حين يمكن لها في الأرض. ذلك أن إقامة العدل في الأرض - التي هي الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب<sup>(٣)</sup> - لا يمكن أن تتم حتى تتجرد النفوس لله، وتتخلى حتى عن رغباتها المشروعة، ويكون هدفها الأسمى هو ابتغاء مرضاة الله، ونعيمها النفسي هو العمل لإرضاء الله.

ثم كانت دروس قرآنية، ودروس من الرسول صلى الله عليه وسلم لرفع هذه الأمة إلى المستوى الذي يؤهلها - عن جدارة - لا للتمكين في الأرض فحسب، بل لقيادة البشرية؛ ولا لإقامة العدل الرباني داخل ذاتها فحسب، بل مع غيرها كذلك.

لقد وجه الله المؤمنين في أول ما نزل من القرآن في المدينة توجيهها معينا له دلالة خاصة:

«ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون»<sup>(٤)</sup>.

وتكرر هذا التوجيه في أكثر من آية مدنية بعد ذلك:

«آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله، لا نفرق بين أحد من رسله. .»<sup>(٥)</sup>.

(١) سورة الكهف [٧] (٢) راجع وصف أحوالهم في كتب السيرة.

(٣) قال تعالى: «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» [سورة الحديد ٢٥].

(٥) سورة البقرة [٢٨٥]

(٤) سورة البقرة [٤-١]

«يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله، والكتاب الذى نزل على رسوله، والكتاب الذى أنزل من قبل..» (١).

وهذا أمر يتعلق بالعقيدة كما هو ظاهر.

«قال: وما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره» (٢).

ولكن له - إلى جانب الأمر الاعتقادى - صلة بأمر إعداد هذه الأمة لقيادة البشرية.

إن كل أمة آمنت برسولها ثم رفضت أن تؤمن بغيره من الرسل، قد أحست - نتيجة لذلك - ببغض هائل للأمة التى بعث إليها الرسول الذى لم تؤمن به! وانحصرت - من ثم - فى حدود عصبيتها لذاتها، وامتلأ قلبها حقدا على غيرها، ثم أوقعت أبشع الاضطهاد على أتباع من لم يؤمن به من رسل الله، كما صنع اليهود أصحاب الأخدود مع المؤمنين بعيسى عليه السلام، وكما يصنع اليهود والنصارى بالمسلمين الذين يقعون تحت سلطانهم فى كل الأرض.

هذا الخلق البغيض لا يؤهل أصحابه لقيادة البشرية.. ومن ثم لم يؤهل الله اليهود ولا النصارى لتلك القيادة، فإن تولوها - بقدر من الله له حكمته عنده - (٣) كما تولتها النصرانية خلال القرون الثلاثة الأخيرة، وكما تتولاها اليهودية اليوم سافرة أو من وراء ستار، لم يقع العدل فى الأرض، وإنما وقع الاضطهاد والظلم.

أما الأمة التى أخرجها الله لقيادة البشرية وريادتها فهى الأمة التى تؤمن بالرسول جميعاً والرسالات جميعاً، فلا يكون فى قلبها حقد مبدئى، ولا حقد تاريخى، على غيرها من الناس.

وهذا - والله أعلم - جانب من دلالة هذا التوجيه القرآنى العظيم.

ثم انظر كذلك إلى هذا الدرس القرآنى..

كان اليهود فى المدينة يكيدون للإسلام وللنبي صلى الله عليه وسلم وأتباع دينه

(١) سورة النساء [١٣٦]

(٢) من حديث «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم» رواه الشيخان.

(٣) لم تتسلم النصرانية ولا اليهودية القيادة إلا حين تقاعست الأمة الإسلامية عن رسالتها كما سيحى، فيما يل من فصول الكتاب.

بكل ما في جبلتهم من الرغبة في الشر وكراهية الخير للناس ، بالإضافة إلى ما أثاره في نفوسهم مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم من ولد إسماعيل لا من ولد إسحاق من حقد أسود غليظ كربه .

كانوا يشككون في الوحي . ويشككون في أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم . ويشيرون النزاعات والخصومات بين المسلمين بعد أن أذهبها عنهم الإسلام . ويتآمرون مع المنافقين وعلى رأسهم عبدالله بن أبي ليوقعوا الفتنة في صفوف المسلمين . ويؤلبون القبائل المشركة لحرب المؤمنين . ويؤذون الرسول صلى الله عليه وسلم . ويؤذون المؤمنين والمؤمنات . . مما سجله الوحي وحفلت به كتب السيرة وكتب التاريخ .

وفي وسط هذا الجو الملبد المتوتر سرق أحد المنافقين ممن دخلوا في الإسلام ظاهرا ، وتفنن هو وقومه في إخفاء السرقة بحيث يتهم فيها أحد اليهود من أهل المدينة .

وحيث يقع مثل هذا الحادث في أي شعب في الأرض ، في أي حقبة من التاريخ ، فليس له نتيجة متوقعة إلا الأخذ بتلابيب ذلك الشخص الذي ينتمى إلى «مثيري الشغب» والإسراع بتطبيق العقوبة المقررة عليه ، إن لم يكن التنكيل به شر تنكيل ، لأنه - فوق انتمائته إلى فئة عدوة للشعب - قد ارتكب جريمة محددة ضد واحد من أفراد ذلك الشعب .

وحيث فحص الرسول - القاضي - صلى الله عليه وسلم ظروف القضية فقد همّ - حسب القرائن الظاهرة - أن يحكم على اليهودى . ولكن الوحي تنزل من السماء لتبرئة ذلك اليهودى من الجريمة التي لم يرتكبها - وإن كان قبيله واقعين في كل جريمة ظاهرة وخفية ضد المسلمين - وإدانة «المسلمين» الذين أرادوا أن يفلت جانبيهم من العقوبة ، ويقع فيها اليهودى البريء ، فنزلت هذه الآيات من سورة النساء :

«إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيمًا . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون من الناس ولا

يستخفون من الله وهو معهم إذ يببتون مالا يرضى من القول، وكان الله بما يعملون محيطا. هأنتم هؤلاء جادلتهم عنهم في الحياة الدنيا، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيفا. ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما. ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه، وكان الله عليا حكيما. ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبينا. ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك. وما يضلون إلا أنفسهم، وما يضرونك من شيء وأُنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً» (١).

وكان درسا هائلا للأمة المسلمة. . إن ميزان العدل لا يميله حب ولا بغض. . ولا تميله عصبية ولا قرابة ولا مصلحة أرضية. . بل لا يميل حتى إلى جانب المشاركين في العقيدة على حساب المخالفين لها ولو كانوا - في مجموعهم - ظالمين! وخذ هذا التوجيه العملي. . مرت جنازة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله إنه يهودى! فقال عليه الصلاة والسلام: «أوليست نفسا؟» (٢).

وخذ كذلك هذا الدرس التربوي. . استدان رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهودى فتأخر في السداد لعسر ألم به صلى الله عليه وسلم، فجاء اليهودى يطالبه ويغلظ في الطلب، وأمسك بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشدته حول رقبة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى جحظت عيناه فهمم عمر رضى الله عنه أن يهوى عليه بالسيف. فمنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: لقد كنت يا عمر جديرا بغير هذا. كنت جديرا أن تأمرنى بحسن السداد وتأمره بحسن الطلب. كذلك كانت التربية التى رباها الله ورسوله لهذه الأمة ممثلة فى جيلها الأول المتفرد. لكى تكتسب هذه السمة التى تجعلها جديرة بالتمكين فى الأرض: «الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور» (٣).

(١) سورة النساء [١٠٥-١١٢] (٢) أخرجه البخارى

(٣) سورة الحج [٤١]

وتجعلها جديرة بقيادة البشرية والشهادة عليها يوم القيامة :  
«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول  
عليكم شهيدا»<sup>(١)</sup>.

هل نعجب إذن حين نرى تلك النماذج الرفيعة لتطبيق العدل الرباني على يدى  
الصحابه رضوان الله عليهم وهم ممتنون فى الأرض ، أصحاب سلطان لا يدانيه  
فى ذلك الوقت سلطان؟!!

تسابق ابن عمرو بن العاص والى مصر مع شاب قبطى فسبقه القبطى ، فضربه  
ابن عمرو بن العاص ضربة بالعصا وقال : خذها وأنا ابن الأكرمين! فما كان من  
والد الشاب القبطى إلا أن رحل إلى المدينة ليشكو ضرب العصا إلى عمر رضى  
الله عنه .

وإلى هنا فهناك ما يستوقف النظر.

لقد كان الأقباط يعيشون تحت الحكم الرومانى فى ذل مرير رغم اشتراكهم مع  
الرومان فى العقيدة المسيحية ، وذلك بسبب اختلاف المذهب ، فالأقباط على  
المذهب الأرثوذكسى والرومان على المذهب الكاثوليكي . ومن أجل هذا الاختلاف  
فى المذاهب - وإن كان داخل العقيدة المسيحية - فقد كان الرومان يعذبون الأقباط  
وينكلون بهم حتى قتل منهم من قتل ، فكانوا عندهم شهداء ، كما يبدو من اسم  
الكنيسة المعروفة اليوم باسم كنيسة مارى جرجس جنوب القاهرة ، واسمها  
الصحيح كنيسة مار جرجس (أى الشهيد جرجس). وفى هذه الكنيسة بالذات  
كانت العبادة تمارس على نطاقين : نطاق علنى على مذهب الدولة ، ونطاق سبرى  
فى سراديب الكنيسة الخفية على مذهب الأقباط ، فى خفية عن عيون الرومان ،  
الذين ينكلون بهم إذا رأوهم يمارسون عبادتهم على خلاف مذهب الدولة .

وكان الضرب بالسياط أمراً مألوفاً من تلك الدولة «العظيمة!» لرعاياها الأقباط  
فى مصر! ولم يكن الأقباط يشكون! فلمن يشكون إذا أرادوا؟! إنما ذلت نفوسهم  
وتحملوا ضرب السياط صاغرين .

واليوم يسافر الرجل ألوف الأميال ليشكو ضربة عصا على ظهر ولده الشاب!

فما دلالة ذلك؟

---

(١) سورة البقرة [١٤٣].

إنها دلالة مزدوجة . دلالة الكرامة التي استيقظت في نفس الرجل فراح يشكو ضربة العصا وهو الذي كان يذل لضربة السوط . ودلالة الملجأ الذي يُشْتَكى إليه بعد أن لم يكن هناك ملجأ للشكوى . .

كلتاها شاهد على العدل الرباني الذي وجده الناس مطبقا على يد عمر رضى الله عنه ، فصحت كراماتهم . . وهل يوقظ الكرامات شىء مثلما يوقظها ممارسة العدل في الأرض؟ ووجدوا الملجأ فراحوا يشتكون إليه .  
ولكن الحادثة أروع آفاقا وأبعد مدى وأعمق دلالة . .

لقد أمر عمر بالقصاص! وأعطى الرجل عصاه وقال له : اضرب ابن الأكرمين! والتفت إلى واليه عمرو بن العاص فقال له كلمته المشهورة الخالدة : يا عمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا!  
ولم يكن ذلك القصاص من مسلم لمسلم ، ولا من عربى لعربى فيقول الناس : عدل . . نعم . . ولكنه غير مستغرب!

إنه العدل الرباني ، في الذروة من التطبيق!  
وسرقت من على كرم الله وجهه درع فوجدها عند يهودى فقاضاه إلى قاضيه شريح . . وعلى يومئذ هو الخليفة أمير المؤمنين .  
وإلى هنا فهناك ما يستوقف النظر .

إن عليا كرم الله وجهه - وهو على يقين من درعه ومن حقه - لم يلجأ إلى سلطان الخلافة فيأخذ درعه بالقوة من اليهودى ، فضلا عن أن يأمر باعتقال السارق الأثيم «رهن التحقيق»! إنما يلجأ إلى القضاء ، يطلب حقه عن طريقه ، وذلك - في ذاته - مستوى رفيع من تطبيق العدل الرباني نادر المثال .

ولكن الحادثة - كسابقتها - أروع آفاقا وأبعد مدى وأعمق دلالة . .  
لقد نادى شريح أمير المؤمنين بكنيته : يا أبا الحسن! ولم يكن الرجل اليهودى ، فغضب على كرم الله وجهه! غضب لخصمه اليهودى! غضب للحق . . للعدل الربانى! وقال للقاضى : إما أن تكنى الخصمين معا أو تدع تكنيتهما معا!  
ثم سأل شريح أمير المؤمنين عن قضيته فقال على كرم الله وجهه : الدرع درعى ، ولم أبع ولم أهب .

فسأل شريح اليهودى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فردّ هذا متلعبا:

الدرع درعى! وما أمير المؤمنين عندى بكاذب! (يريد أن يمسك العصا من منتصفها نفاقاً على طريقتهم!).

فيلتفت شريح إلى أمير المؤمنين فيقول: يا أمير المؤمنين، هل من بينة؟! إنه هكذا العدل الربانى! البينة على من ادعى. . وهذه دعوى مرفوعة إلى القضاء فلا بد فيها من البينة، وإن تكن مرفوعة من أمير المؤمنين. وإن تكن من على كرم الله وجهه، الذى لم يعرف عنه كذب قط، والذى لا يعقل أن يكذب على الله من أجل درع وهو المستعلى على كل متاع الأرض، يراه الناس يرتجف من شدة البرد فى الشتاء وتحت يده بيت المال، يحق له منه كسوة شرعية تقيه البرد، فيقول: والله ما أرزؤكم شيئاً! إن هى إلا قطيفتى خرجت بها من المدينة!

ولكن جواب على كرم الله وجهه كان أروع!

قال: صدق شريح! مالى بينة!

هكذا فى بساطة المؤمن المتجرد. . مالى بينة!

لم يغضب! لم يقل للقاضى: منى تطلب البينة وأنا أمير المؤمنين؟! وكان موقف شريح رائعا كموقف أمير المؤمنين. . لقد حكم بالدرع لليهودى لعدم وجود البينة عند المدعى أمير المؤمنين!

وأخذ الرجل الدرع ومضى وهو لا يكاد يصدق نفسه! ثم عاد بعد خطوات ليقول: أمير المؤمنين يقاضينى إلى قاضيه فيقضى عليه؟! إن هذه أخلاق أنبياء! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله! الدرع درعك يا أمير المؤمنين، خرجت من بعيرك الأورق فاتبعتها فأخذتها. .

فيقول على كرم الله وجهه: أما إذ أسلمت فهى لك!!

ونعود مرة أخرى إلى عمر رضى عنه فى مجال آخر. .

وقف عمر رضى الله عنه يوماً يخطب الناس فقال: أيها الناس، اسمعوا وأطيعوا. . فانتدب له سلمان الفارسى فقال: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة! ولعل بعض الناس يومئذ قد دهشوا أو ذعروا! فمنذا الذى يكلم عمر على هذا النحو، وإن كان سلمان!

لقد وهب الله لعمر رضى الله عنه مهابة ذات أثر ملحوظ فى قلوب الناس، إن يكن سببها ضخامة جسمه، أو ضخامة صوته، أو شدته المعروفة عنه، أو غير ذلك

من الأسباب، فالناس ترهب عمر رهبة تلقائية، حتى إن عليا كرم الله وجهه، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته الأثير عنده، يقول: كنا نسير ذات يوم خلف عمر فعنّ له أمر فالتفت وراءه، فسقطت قلوبنا إلى كعوبنا! ولكنه في مهابته تلك يقول للناس: اسمعوا وأطيعوا فيقول له سلمان: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة.

ولا يغضب عمر.. وأى شخص في مكانه كان قمينا أن يغضب.. فهو لا يطالب الناس إلا بأمر قد فرضه الله ورسوله، فإذا ردّ طلبه هذا الرد بغير موجب فلا تريب عليه إن غضب. ولكن عمر الذى رباه الإسلام لا يغضب.. إنها يسأل سلمان عن السبب لعل عنده سببا وجيها يبرر هذا الرد! قال عمر: وله؟

قال سلمان: حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائترت به، وأنت رجل طوال لا يكفيك البرد الذى نالك كبقية المسلمين! والآن تحددت القضية! فكأن سلمان يلقي اتهاما، أو على الأقل شبهة.. أن عمر رضى الله عنه قد استأثر بمر من القماش زيادة عما ناله كفرد من عامة المسلمين!

ولو غضب عمر فى هذا الموقف لحق له أن يغضب.. ولكنه مرة أخرى لا يغضب، إنها ينادى ولده عبدالله بن عمر فيقول له: نشدتك الله، هذا البرد الذى ائترت به أهو بردك؟! فيقول عبدالله بن عمر: نعم هو بردى أعطيته لأمير المؤمنين حتى يأتز به، لأن البرد الذى ناله كعامة المسلمين لا يكفيه لأنه رجل طوال. عندئذ يقول سلمان: الآن مر! نسمع ونطع!

إنها القمة الرائعة فى جانبها، جانب عمر بن الخطاب وجانب سلمان على السواء.

إن أحدا منها لا يغضب لشخصه، ولا ينطلق من منطلق شخصى! وما سلمان بالذى يشك فى نزاهة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو المعروف بالزهادة التى تفوق كل تصور! ولكنه الحرص على شريعة الله أن تنفذ على أعلى مستوياتها. الحرص على العدل الربانى أن يطبق أبيض ناصع البياض لا تشوبه شائبة حتى من ظن. وعمر من جانبه لا يضع شخصه فى الميزان، ولا يلتفت إلى الأذى الذى



ينال شخصه من كون رجل من رعيته يردّ عليه السمع والطاعة على هذا النحو أمام الرعية. إنها يريد أن يأخذ العدل الرباني مجراه في أعلى مستوياته، فيستنطق الرجل خشية أن يكون قد وقع في خطأ وهو لا يدري، خطأ يبرر للرعية أو أحد أفرادها أن يرد السمع والطاعة، لأنه لا طاعة إلا في المعروف.

كلاهما حريص على دين الله ألا تشوبه شائبة. وكلاهما قمة تتضاءل أمامها أحلام الرجال!

وصورة من تطبيق العدل الرباني في الأرض، لا يرتقى البشر إلى مثلها على مدار القرون!

هل نحن في حاجة إلى مزيد؟! من كان في حاجة إلى مزيد فليراجع كتب التاريخ!

### رابعا: أخلاقيات لا إله إلا الله

من أبرز سمات هذا الدين قاعدته الأخلاقية العريضة الشاملة لكل تصرفات الإنسان، وارتباط هذه القاعدة الأخلاقية بحقيقة الإيمان. ولقد سبق أن أشرنا ونحن نتحدث عن جدية الأخذ من الكتاب والسنة إلى هذا الارتباط بين الأخلاق وبين لا إله إلا الله، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من البيان، خاصة في وقتنا هذا الذي كادت تنفصل فيه الأخلاق انفصالا كاملا عن مفهوم لا إله إلا الله! انظر إلى هذه الآيات من سورة الرعد:

«أفمن يعلم أنها أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى؟ إنها يتذكر أولو الألباب، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويذرءون بالحسنة السيئة، أولئك لهم عقبى الدار: جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار. والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار»<sup>(١)</sup>.

(١) سورة الرعد [١٩-٢٥]

إن الإشارة الأخلاقية واضحة في الآيات، سواء الإشارة المجملة في قوله تعالى: «والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل» أو فيما جاء تفصيلا من الصبر ابتغاء وجه الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ودرء السيئة بالحسنة مع خشية الله والخوف من سوء الحساب.

ومعرض الحديث هو الإيمان بأن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق. ومن ثم يبدو واضحا أن الالتزام بتلك الأخلاقيات المعروضة سواء منها ما أجمل وما فصل، هو مقتضى ذلك الإيمان بأن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق، أى مقتضى الإيمان بأنه لا إله إلا الله وأنه محمدا رسول الله.

كما أن هناك لفظة في الآيات تعطى دلالة خاصة في هذا المجال. إن أول صفة لأولئك الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق هي أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. وفي هذا إشارة إلى أمرين اثنين على الأقل: الأمر الأول أن الإيمان هو مقتضى ميثاق الفطرة، الذى قال الله عنه: «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى! شهدنا!»<sup>(١)</sup>.

والأمر الثانى أن هذه الأخلاقيات المعروضة، سواء منها ما أجمل وما فصل، هي فى حقيقتها ميثاق مع الله، يوفى به المؤمنون وينقضه غير المؤمنين. وتلك هي الحقيقة فى أمر الأخلاق.

إن الإنسان كائن أخلاقى بطبعه، أى أن أعماله تحمل معها «قيمة» خلقية، بصرف النظر عن كون هذه القيمة فى اعتبار إنسان بعينه صحيحة أم خاطئة. إنها تستمد أعمال الإنسان قيمة خلقية من كون أن له طريقين اثنين لا طريقا واحدا - غريزيا - كالحیوان، وله القدرة على معرفة الطريقين واختيار أحدهما: «وهديناه النجدين»<sup>(٢)</sup>.

«إنا هديناه السبيل، إما شاكرا وإما كفورا»<sup>(٣)</sup>

(٢) سورة البلد [١٠]

(١) سورة الأعراف [١٧٢]

(٣) سورة الإنسان [٣]

«ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها»<sup>(١)</sup>

في جميع أحواله هو «يختار» . . إما طريق الخير وإما طريق الشر .  
وقد يختار طريق الشر يحسبه طريق الخير، فيخسر . .

«قل: هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» . .<sup>(٢)</sup>

ولكن هذا لا ينفى الاختيار من جهة، ولا ينفى لصوق القيمة الخلقية بعمل الإنسان من جهة أخرى .

ليست القضية في الحقيقة هي وجود قيمة خلقية لأعمال الإنسان أم عدم وجودها، فذلك أمر لا يشك فيه أحد حتى الماديون وحتى الملحدون وحتى الشكاكون، إنها القضية هي «المعايير» التي نقيس بها الأخلاق . . من يضعها؟! فأما الوضعيون، وأما التطوريون، وأما الماديون وأشباههم فقد ذهبوا بها مذاهب شتى توافق أهواءهم<sup>(٣)</sup> .

وأما الله سبحانه وتعالى فيقول إن الذي يخلق هو وحده صاحب الأمر . . هو الله سبحانه وتعالى :

«ألا له الخلق والأمر»<sup>(٤)</sup> .

ويقول سبحانه إن هناك ميثاقاً مأخوذاً على الفطرة البشرية، أشهدنا الله فيه على أنفسنا: أن الله هو ربها لا شريك له . ثم أرسل رسلاً يأخذون العهد على البشرية بتنفيذ الميثاق .

وأن مقتضى هذا الميثاق أن تعبد الله وتطيعه، وأن تتلقى منه وحده المعايير وتلتزم بها .

وأن المؤمنين هم الذين يوفون بعهد الله ولا ينتقضون الميثاق، وأن غير المؤمنين هم الذين ينتقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض .

---

(١) سورة الشمس [٧-١٠] (٢) سورة الكهف [١٠٣-١٠٤]

(٣) في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» تفصيل لهذه القضايا .

(٤) سورة الأعراف [٥٤]

وخلاصة ذلك كله أن الله هو الذى يحدد المعايير الخلقية، فيقول وقوله الفصل :  
 هذا حلال وهذا حرام، هذا حسن وهذا قبيح، هذا مباح وهذا غير مباح. وأن  
 المؤمنين هم الذين يلتزمون بهذا كله، بمقتضى أنهم مؤمنون..  
 أمر آخر يتعلق بالأخلاق تبدو أهميته بالنسبة للجاهلية المعاصرة بصفة خاصة،  
 إنها ليست مجرد أعراف يصطلح عليها الناس - أو العقل الجمعى - أو انعكاس  
 أوضاع مادية متقلبة، أو قيم نفعية لتيسير التعامل كما هى فى الغرب اليوم، فذلك  
 كله لا يجعل لها دواما ولا ثباتا ولا فاعلية حقيقية فى الحياة البشرية. إنها هى ميثاق  
 مع الله بادئ ذى بدء، يُعمل فيه الخير - الذى وصفه الله بأنه خير - ويعمل ابتغاء  
 وجه الله، لا ابتغاء النفع القريب، وإن كان النفع يتحقق بالتزام أوامر الله :  
 «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء  
 والأرض»<sup>(١)</sup>.

«ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم، ولأدخلناهم جنات  
 النعيم، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من  
 فوقهم ومن تحت أرجلهم...»<sup>(٢)</sup>.  
 إنها فى حس المؤمن «أمانة» تؤدى إلى أهلها:  
 «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن  
 تحكموا بالعدل...»<sup>(٣)</sup>

والأمانة الأولى هى الالتزام بما جاء من عند الله، فذلك مقتضى الإقرار  
 بألوهيته. وتحت هذه الأمانة الكبرى تندرج الأمانات الأخرى كلها فيما يتصل  
 بعلاقة الإنسان بنفسه وعلاقته بالناس... وتلك هى الأخلاق!  
 أمر ثالث يتعلق بالأخلاق كذلك، وله كذلك أهميته الخاصة بالنسبة للجاهلية  
 المعاصرة، هى أن هذه «الأمانات» التى هى الفحوى الحقيقية للأخلاق، ليست  
 خاصة ببعض أنواع التعامل دون بعض، بل شاملة لكل أنواع التعامل؛ ومن ثم  
 لا يخرج عن نطاقها شىء البتة من أعمال الإنسان الإرادية الاختيارية، ولا يقال  
 عن شىء من هذه الأعمال كلها إنه خارج عن نطاق الأخلاق، لا السياسة ولا

[٢] سورة المائدة [٦٥-٦٦]

[١] سورة الأعراف [٩٦]

[٣] سورة النساء [٥٨]

الاقتصاد، ولا الاجتماع، ولا الفن، ولا الفكر، ولا ساعة الجذ، ولا ساعة الترويح! كلها داخلة في نطاق الأخلاق، وكلها داخلة في «الميثاق» المعقود مع الله، وكلها يقوم به المؤمن بمقتضى عقد الإيمان.

«وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما. والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما. إنها ساءت مستقرا ومقاما. والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما. والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا، والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما. أولئك يجزون الغرفة بما صبروا، ويلقون فيها تحية وسلاما. خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما»<sup>(١)</sup>.

صحيح أن الناس في ممارساتهم الواقعية للحياة يعصون أمر ربهم، وأن تلك المعاصي تتعلق - أشد ما تتعلق - بأخلاقيات لا إله إلا الله، وأن المعاصي مع ذلك لا تخرجهم من الإيمان ما لم يستحلوها ويجعلوها أصلا معتمدا بدلا من أوامر الله. ولكن المعصية لا تنفي ارتباط هذه الأخلاقيات بلا إله إلا الله، ولا تنفي أصل الالتزام المبني على الإقرار بلا إله إلا الله. فمن أقر فقد التزم - وإن عصى - وإلا فلا إقرار بغير التزم.

قضية المعصية هي أن الله - برحمته - لا يخرج من عصاه من دائرة الإيمان، ويغفر له إن شاء، ويعذبه إن شاء ولكنه لا يخلده في النار ما دام غير مستحل لمعصيته، وما دام لم يجعلها تشريعا يضاهى به تشريع الله.

ولكن هذا ليس معناه أن المعصية هيئة عند الله، أو أن وجودها وعدم وجودها سيات بالنسبة للإيمان.

(١) سورة الفرقان [٦٣-٧٦]

إنما الإيمان يزيد وينقص . ينقص بالمعاصي ويزيد بالطاعات .  
 ويكفى هذا التقرير من رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى  
 حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » (١) .  
 يكفى لبيان أن ميزان الإيمان ليس ثابتا ، وإنما هو يعلو ويهبط كلما قام الإنسان  
 بعمل من الأعمال ، حسب التزامه أو عدم التزامه في ذلك العمل بأوامر الله . كما  
 يكفى لبيان ذلك الارتباط الذي لا ينفصم بين لا إله إلا الله وأخلاقيات لا إله إلا  
 الله ؛ وأن هذه الأمة - بحكم أنها أمة ربانية ، أمة عقيدة - فهي أمة أخلاق ، وأن  
 التزامها بأخلاقيات لا إله إلا الله هو معيار من معايير صدق إيمانها لا يمكن إغفاله ،  
 وأنها لا تستطيع أن تتفلسف من أخلاقها ثم تزعم أنها صادقة الإيمان !

\* \* \*

فأما الجيل الأول فقد وعى هذه الحقيقة بكل عمقها وكل فعاليتها .  
 سئلت عائشة رضی الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
 فقالت : كان خلقه القرآن .

ما أوجزها عبارة وما أبلغها كذلك !  
 كان خلقه القرآن . أى أن كل أمر أمر الله به في كتابه المنزل ، وكل نهى نهى  
 عنه ، كان مترجما ترجمة واقعية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن ثم  
 كان خلقه القرآن .  
 وعلى هذا الخلق ربى أصحابه رضوان الله عليهم ، وكان هو القدوة أمامهم في  
 التخلق بأخلاق الله .  
 لا عجب إذن أن نرى تلك القيم الأخلاقية الرفيعة في كل مجال من مجالات  
 الحياة .

أبو بكر رضی الله عنه يتولى الخلافة فيقول للناس : إني وليت هذا الأمر ولست  
 بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . ويقول قريبا من ذلك  
 عمر بن الخطاب رضی الله عنه حين تولى الأمر .  
 وما من حاكم في التاريخ يدعو الناس إلى تقويمه إن أساء !

(١) أخرجه مسلم .

إنما يأتي التقويم من ضغط الناس على حكامهم وهم كارهون! وأقصى ما يمدح به حاكم في القديم أو الحديث أن يستجيب لضغط الناس ويقبل أن يلتزم حين يُلزم! أما أن يدعوهم إلى تقويمه فتلك من أخلاقيات لا إله إلا الله في عالم السياسة لا يقدر عليها إلا ذلك الجيل الفريد.

ولقد قال عمر رضی الله عنه لرعيته ذات يوم: إن وجدتم في أعوجاجا فقوموني! فقال له سلمان: والله لو وجدنا فيك أعوجاجا لقومناه بحد السيف! فلم يغضب رضی الله عنه، وإنما قال: الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقومه بحد سيفه! وتلك كذلك من أخلاقيات لا إله إلا الله في عالم السياسة لا يقدر عليها إلا ذلك الجيل الفريد!

وقال أبو بكر الصديق رضی الله عنه في بيان سياسته: الضعيف فيكم قوى عندي حتى أخذ له الحق، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه. ولم تكن تلك شعارات تلقى على «الجاهير» لتلهيتها أو اللعب بمشاعرها. إنما كانت نبراساً حقيقياً يلتزم به، وكانت تلك هي أخلاقيات السياسة الملتزمة بلا إله إلا الله، لا تحابي أحداً لأنه قوى، ولا تظلم أحداً لأنه ضعيف.

وسافر عمر إلى بيت المقدس ليتسلم مفتاحها من البطريق الذي أصر على أن يسلم المفتاح لعمر بنفسه.

ولم تكن هناك وفرة في الدواب تسمح لعمر وخادمه أن يركبا كلاهما، فقرر عمر أن يتنابوا الركوب والمشى دواليك، يركب عمر مرة ويسير خلفه خادمه، ويركب الخادم مرة ويسير خلفه عمر. حتى إذا دخلا بيت المقدس كان الدور للخادم في الركوب فأصر عمر على أن يأخذ الخادم دوره وأن يسير عمر خلفه، ودخلا المدينة على هذا النحو والناس يظنون بحكم جميع الأعراف الأرضية أن الخليفة هو الراكب وأن تابعه هو الذي يسير على قدميه! حتى عرفوا الحقيقة فأذهلتهم!

\* \* \*

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لجنوده وهم ذاهبون إلى محاربة الكفار الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولاذمة: «اغزوا باسم الله في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا. ولا تقتلوا وليداً ولا شيخاً ولا امرأة...» (١).

(١) أخرجه مسلم

فيضع بذلك الدستور الأخلاقي للحرب، التي يظن الناس - في الجاهلية المعاصرة خاصة - أنه لا علاقة لها بالأخلاق!

وبلى الأمر أبوبكر رضى الله عنه، فيوصى جنده ذات الوصاية وهم يحاربون المرتدين الذين نكلوا عن أمر الله .

ويقع القتال بين على كرم الله وجهه وبين مناوئيه، ويقع قتلى من هنا ومن هناك، فإذا حل الظلام ووقفت الحرب قام على كرم الله وجهه يصلى على قتلى الفريقين! ويسلم أعداءه قتلاهم ليدفونهم!

ويخرج الخوارج عليه، فيقول قوم من أصحابه إنهم كفار . . فيأبى على كرم الله وجهه ويقول: إنما هم إخواننا بغوا علينا!

تلك أخلاقيات - في الحرب - لا يقدر عليها إلا أهل لا إله إلا الله .

في معركة أحد، حين وقعت الهزيمة بعد النصر، ووقع من المسلمين سبعون شهيدا فيهم سيد الشهداء حمزة، مر أحد المسلمين على جريح ينزع، فناوله كأس ماء لعله يسترد أنفاسه، فقال الجريح بل أعطها لأخى فلان هناك، فذهب إلى الثانى يعرض عليه الماء فقال أعطها لأخى فلان هناك فتركه إلى الثالث والرابع والخامس كل يقول ذات القولة، ويؤثر أخاه على نفسه في نزع الموت، فلما كان الخامس رده إلى الأول فلما عاد إليه إذا هو قد لفظ أنفاسه، فعاد إلى الثانى فإذا هو قد لفظ أنفاسه، فعاد إلى الثالث، فالرابع فالخامس، فإذا كلهم قد ذهبوا شهداء، لم يرض واحد منهم حتى لحظة الموت أن يؤثر نفسه على أخيه!

أى أخلاقيات هذه؟ كيف نجد لها وصفا في مصطلحات اللغات ؟

\* \* \*

وليس هدفنا أن نسود الصفحات بذكر المستويات الأخلاقية الرفيعة لذلك الجليل الفريد، فكتب السير وكتب التاريخ عامرة بناذج عجيبة في كل اتجاه .

وإنما هدفنا أن نسجل ذلك الارتباط الوثيق في حس ذلك الجليل بين حقيقة الإيثار وبين القيم الخلقية التي يشتمل عليها هذا الدين .

ولم يكن ذلك اجتهادا خاصا بهم، فتجد الأجيال التالية نفسها معفاة منه، ولا كان ذلك - من حيث المبدأ - امتيازا خاصا بهم تنسلخ منه الأجيال التالية بلا تخرج! إنما كان ذلك - في حسهم وفي حقيقة الواقع - هو الدين، لأن الله قال لهم إن



المؤمنين هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكذلك علمهم الرسول صلى الله عليه وسلم فتعلموا منه أن «الدين المعاملة». فلم يكن في حسهم - ولا في حقيقة الواقع - أن الإنسان يمكن أن يكون مؤمنا دون أن يعمل بأعمال هذا الدين. إنما كان في حسهم - كما هو في الواقع - أن الناس يتفاوتون في حقيقة إيمانهم بمقدار ما يتفاوتون في العمل بمقتضى هذا الدين. وكان امتيازهم الذى اختصوا به أنهم أرادوا أن يعملوا من أعمال هذا الدين ما وسعهم العمل، وأن يطبقوا من أخلاقيات هذا الدين ما وسعهم التطبيق، تنفيذا لأمر الله «فاتقوا الله ما استطعتم»<sup>(١)</sup>، فلم يكتفوا بالحد الأدنى المفروض، إنما تطوعوا فعملوا بالنوافل والمندوبات، وألزموا بها أنفسهم كأنها واجبات أو مفروضات. أما المبدأ، مبدأ اقتران الإيمان بالعمل، ومبدأ التعامل بأخلاقيات لا إله إلا الله في عالم الواقع، فقد كان في حسهم بديية مسلمة، لأنه بالفعل من بدييات هذا الدين.

### خامساً: الوفاء بالمواثيق

قال تعالى: «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا، إن الله يعلم ما تفعلون». ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم، أن تكون أمة هي أربى من أمة. إنما ييلوكم الله به، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون. ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها، وتدوقوا السوء بما صدقتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم. ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا، إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون»<sup>(٢)</sup>.

وقد أراد الله أن تكون هذه سمة من سمات هذه الأمة، راسخة في كيائها، بعد أن أخبر عن أهل الكتاب أنهم يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا، وبعد أن أخرج هذه الأمة لتكون هي القائدة والرائدة، والشاهدة على كل الأمم يوم القيامة. ولقد وفّت هذه الأمة بعهدا بالفعل، وصار الوفاء بالمواثيق خلقا لها تتميز به في وسط الجاهلية المحيطة بشعوب الأرض.

(١) سورة التغابن [١٦]. (٢) سورة النحل [٩١-٩٥].

وكان الجيل الأول كما عهدناه أشد الأجيال تمسكا بكتاب الله وسنة رسوله ، بعد أن رباه الرسول صلى الله عليه وسلم على هدى القرآن الكريم .

حينما عقد الرسول صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية مع مشركى قريش ، كان من بنود الصلح أنه من جاء محمدا «صلى الله عليه وسلم» من المسلمين رده إليهم ، ومن جاء قريشا من المسلمين لم يردوه!

ولقد أحس المسلمون يومئذ بالغبن الواقع عليهم من هذه الاتفاقية ، وبلغ الضيق بعمر رضى الله عنه مبلغه فراح يسائل الرسول صلى الله عليه وسلم : أولسنا بالمؤمنين؟ قال : بلى ! قال : أوليسوا بالكافرين؟ قال : بلى ! قال : فلم نعطى الدنية من ديننا . ورد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول الفصل : «إنى رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصرى»<sup>(١)</sup> .

كان الله يعلم الخير الذى ينطوى عليه صلح الحديبية بالنسبة للمسلمين ، ولكنهم ببصرهم البشرى المحدود ، المحجوب عن الغيب ، لم يكونوا يرون فيه إلا الغبن الظاهر ، وفي ذلك أنزل الله سبحانه وتعالى :

«لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا»<sup>(٢)</sup> .

وبينما الاتفاقية غضة ما تزال خرج أبو جندل من صفوف المشركين مغللا بالأغلال يريد اللحاق بالرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، فزادات رؤيته على هذه الحال من حزن المسلمين وشعورهم بالغبن ، وتقدم عمر يريد أن يلقي السيف إليه ليقاتل به ويفك نفسه من الأسر والرسول صلى الله عليه وسلم يأبى ، ويتمسك بالعهد المبرم بينه وبين المشركين ، وقلوب المسلمين تتقطع أسى وهم يرون هذا المنظر البئيس .

ولكنه كان درسا عمليا فى التربية على الوفاء بالعهد . .

إن العهد الذى يبرمه المسلم هو عهد معقود باسم الله . إنه جزء من «الميثاق» الذى يلتزم به المؤمن تجاه ربه . إنه ليس أمراً تتدخل فيه «المصلحة» القرية أو

[٢٧] سورة الفتح (٢)

(١) رواه البيهقى

البعيدة، الظاهرة أو الخفية، فيلتزم إذا بدت المصلحة في التزامه، وينقض إذا بدت المصلحة في غيره! إن هذا هو ديدن الجاهليات فيما تبرمه من الموائيق. تبرمه وهى لا تعتزم الوفاء به إلا ريثما تجد الوسيلة لنقضه. وفي اللحظة التى تبدو لها المصلحة فى نقضه فإنه حبر على ورق ولا أكثر! (وجاهلية القرن العشرين أبرز مثال على ذلك فى موائيقها الدولية. ما أسهل ما تبرم الميثاق وما أسهل ما تنقضه فى لحظات!) أما المؤمنون، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، فهم وحدهم الذين لا تحركهم المصلحة، إنما يحركهم الحرص على مرضاة الله..

يقول الله وهو يوجه رسوله صلى الله عليه وسلم والأمة المسلمة من ورائه: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين»<sup>(١)</sup>. وهذه من أخلاقيات لا إله إلا الله فى الموائيق، حتى مع الكافرين الذين لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، والذين تتوقع منهم الخيانة فى أى لحظة من اللحظات. ينبذ إليهم عهدهم أولاً ثم يقاتلون بعد ذلك، ولكن لا يغدر بهم والميثاق قائم.. ووعت الأمة الإسلامية التوجيه الربانى وطبقته فى عالم الواقع، فكانت منه فى حياتها أعاجيب.

فحين فتح أبو عبيدة بن الجراح الشام وأخذ الجزية من أهلها الذين كانوا يومئذ ما يزالون على دينهم، اشتراطوا عليه أن يحميهم من الروم الذين كانوا يسومونهم الخسف والاضطهاد، وقبل أبو عبيدة الشرط. ولكن هرقل أعد جيشاً عظيماً لاسترداد الشام من المسلمين، وبلغت الأنباء بأبوعبيدة، فرد الجزية إلى الناس، وقال لهم: لقد سمعتم بتجهيز هرقل لنا، وقد اشتراطتم علينا أن نحميكم وإننا لا نقدر على ذلك، ونحن لكم على الشرط إن نصرنا الله عليهم!

هل سمع أحد بمثل ذلك فى التاريخ؟! قائد جيش فاتح منتصر يأخذ جزية من أهل البلاد المفتوحة، ثم يردها إليهم بأى حالٍ من الأحوال؟! هذا هو التاريخ مفتوحة صفحاته لمن يريد أن يتقّب. إنه حادث فريد فى التاريخ.

(١) سورة الأنفال [٥٨]

ولم يكن أبو عبيدة يصنع ذلك رجاء «مصلحة» بعيدة يقدرها، ويضحى في سبيلها بالمصلحة القريبة! كلا! فما كان عنده يقين بأن ينتصر على جيش هرقل الجرار، وتعبيره واضح: وإنا لا نقدر على ذلك!  
إنما ينطلق من المبدأ الذي رباهم عليه الإسلام على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم: الوفاء بالمواثيق، سواء أكانت الصفقة رابحة في النظرة القريبة أم خاسرة:

«ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة . . .»<sup>(١)</sup>.

ولقد كان لهذا الخلق الإسلامي الذى التزم به أبو عبيدة أثره الذى قدره الله له، فقد نصره الله على جيش هرقل، فراح الناس يعيدون الجزية راضية قلوبهم، ثم - من بعد - صاروا يدخلون في دين الله أفواجا، إعجابا بهذا الدين الذى يخرج من هو على هذا الخلق العظيم!

وعمر رضى الله عنه يقول لقائده في حرب فارس: وإذا لاعب أحدكم أحد العلوج فظن هذا أن المسلم يعطيه عهد أمان فأنفذه له!  
يا لله! ويا لروعة المرتقى!

إنه لا عهد في الحقيقة! ولكنه مجرد توهم من جانب الفارسي أن الجندي المسلم قد أعطاه عهد أمان! فيقول عمر لقائده فأنفذه له!

إنه ليس فقط إنفاذ العهد الذى لم يصدر في الواقع من الجندي، ولكنه كذلك إلزام القائد بعهد توهم العدو أن واحدا من جنود المسلمين قد أعطاه!  
هل سمع أحد بمثل ذلك في التاريخ؟!

ومعاوية في هدنة مع الروم، ولكن تأتيه عيونُه بأنباء تفيد أن القوم يستغلون الهدنة للاستعداد لهجوم مفاجئ على المسلمين. فيهمّ معاوية أن يفاجئهم قبل أن يكملوا عدتهم. ولكن مستشاريه يأبون عليه، يقولون: إما أن تنبذ إليهم على سواء كما أمر الله، وإما أن تنتظر حتى نهاية العهد ثم تاجزهم.

وينتظر معاوية . . وينصر الله جيشه!  
ضع مقابل ذلك ما فعله الصليبيون أيام صلاح الدين.

(١) سورة النحل [٩٢]

كان المسلمون معهم في هدنة، ولكنهم غدروا وأخذوا المسلمين على غرة، فانحاز المسلمون إلى المسجد، فاقتحموه عليهم وأعملوا فيهم السيف حتى غاصت الخيل في الدم إلى ركبها، كما تروى مراجع الصليبيين أنفسهم! وصدق الله وهو يقول عن الكفار، والكفر كله ملة واحدة: «لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، وأولئك هم المعتدون»<sup>(١)</sup>. ومع ذلك فلم يشأ صلاح الدين - حين عادت الكفرة له عليهم - أن يعاقبهم بمثل ما عاقبوا به . . وإنما عاملهم بسماحة الإسلام!

### سادساً: الحركة العلمية الإسلامية

إلى هنا كنا نتحدث عن أبرز سمات الأمة الإسلامية مع تركيز خاص على الجيل الفريد الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه، وشهد له عليه الصلاة والسلام حين قال: «خير القرون قرنى . . .». ولقد أكدنا فيما سبق من الحديث أن هذه السمات ليست خاصة بالجيل الأول، إنما هي سمات «الأمة المسلمة» التي ينبغى أن تزاوها في جميع أجيالها وأعصارها، والتي تعتبر مقصرة أو أئمة إذا تخلت عنها في أى جيل من الأجيال. وأن مزية الجيل المتفرد لم تكن أنه اتسم بتلك السمات وحافظ عليها، فذلك مطلوب من كل جيل لتحقيق له صفة الإيمان الحق. إنما كانت المزية التي تفرد بها ذلك الجيل أنه بلغ الذروة في ممارستها، ولم يكتف فيها بالحد الأدنى المفروض، إنما بذل جهده ليصل إلى الحد الأعلى المرغوب، فوصل إلى آفاق لا تخاطر على بال الناس، خاصة حين يهبطون مع «واقعيته» الهابطة، فينزلون دركات تحت الحد الأدنى المفروض! ونتحدث هنا عن سمتين أخريين من سمات هذه الأمة، اللزمة لها بوصفها «الأمة المسلمة» وإن كانتا كما أشرنا من قبل قد جاءتا - بطبيعتهما - متأخرتين عن الجيل الأول الذى كتب التاريخ.

إن الحركة العلمية والحركة الحضارية - بطبيعتهما - لا تبرزان في مرحلة الإنشاء والتكوين، لأنها تحتاجان إلى استقرار لا يتوفر في مرحلة الإنشاء، وإلى جهد فائض عن الضرورات، بينما الجهد كله في مرحلة الإنشاء يبذل في التأسيس والتمكين.

(١) سورة التوبة [١٠].

كما تحتاجان إلى زمن يمضى بعد استكمال التكوين، تتم فيه عملية «التمثيل» للقيم والمبادئ والأفكار، لتتجه بعد ذلك إلى «الإنتاج» في مجالات العلم والحضارة المادية. ولكن «البذرة» التي تتولد عنها كل من الحركتين تنشأ في الحقيقة من نقطة الابتداء، وتظل كامنة حتى تستوفي نضجها الطبيعي، فتولد كما يولد الجنين المكتمل الأعضاء بعد أن يستكمل أطواره في خفية عن العيون.

فالجيل الأول - وإن لم يشارك في هاتين السمتين بنفسه - كان في الحقيقة هو «الأب الروحي» لهما إن صح التعبير، من حيث إنه هو الذي قام بالانطلاقة الهائلة التي كتبت سطور التاريخ الظافر فيما بعد، ومن حيث إنه هو الذي حقق في ذات نفسه صحة المنطلق، ولكل من هذين الأمرين أثره في إبراز الحركة العلمية الإسلامية والحركة الحضارية الإسلامية.

فأما الانطلاقة فهي قميئة - في حياة أى أمة - أن تحدث فيها حركة علمية وحركة حضارية، لأن ذلك مركز في فطرة البشر، ولأن ذلك - من جهة أخرى - من العطاء الرباني المبذول للبشر جميعا بقدر ما يبذلون فيه من جهد: «كلأ نمد، هؤلاء وهؤلاء، من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا»<sup>(١)</sup>. «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون»<sup>(٢)</sup>.

أما تصحيح المنطلق فمن شأنه أن ينشئ الحركة العلمية الصحيحة، والحركة الحضارية الصحيحة، التي تتميز تميزا واضحا عن غيرها من الحركات. وهذا ما نعينه هنا، ونبدأ فيه بالحديث عن الحركة العلمية الإسلامية.

\* \* \*

لم يكن العرب في جاهليتهم أمة علمية. . . وذلك ثابت من التاريخ. لقد كان لهم رحلات يصلون فيها إلى مراكز حضارية في الشمال والجنوب، كما كانت لهم احتكاكات بدولتي فارس والروم، ولكل منهما في ذلك الحين علوم ومعارف، ولكن العرب لم يشغلوا أنفسهم بتحصيل شيء من تلك المعارف العلمية، لأنهم كانوا يعيشون على هامش الدنيا وهامش التاريخ، مشغولين

---

(١) سورة الإسراء [٢٠] (٢) سورة هود [١٥].

بثاراتهم ونزاعاتهم، وفخرهم وهجائهم، وعلى الأكثر بتجاراتهم ولهوهم وشراهم .  
كان أشد ما يشغل العرب في حياتهم القبلية التي يعيشونها هو قول الشعر  
وحفظ الأنساب . فالشعر يتفننون في قوله ويتباهون بفصاحته، وحفظ الأنساب  
تستخدمه كل قبيلة في التفاخر مع القبائل الأخرى، وفي محاولة النيل من القبائل  
الأخرى وقت الخصام والنزاع بما قد يكون من ملامز في أنسابها!

ورغم بلاغة الشعر العربي الجاهلي، ودلالته على النضج الفكري والنفسى  
والتعبيري، فإن البداوة التي كان يعيش فيها العرب، ومشغلتهم الدائمة بالعصبية  
القبلية وما يتبعها من خصومات ونزاعات وتفاخر بالأنساب، لم تدع مجالاً  
«للتجمع» لتكوين أمة، وهو شرط أساسي لأي حركة علمية أو حضارية .  
لذلك عاش العرب قروناً لا يتجهون أى اتجاه لطلب العلم، وكانوا - كما ثبت  
عنهم - أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب .

ثم جاء الإسلام . جاء ليمنحهم كل العناصر المطلوبة لا لإنشاء حركة علمية  
فحسب، بل لإنشاء الحركة العلمية الصحيحة كما ينبغي أن تكون .

الرغبة في «المعرفة» رغبة فطرية أودعها الله لتكون إحدى أدوات الإنسان للقيام  
بعمارة الأرض . والرغبة في معرفة خواص المادة بصفة خاصة ركيزة رئيسية في  
الفطرة، وركيزة رئيسية في «العلم» بمعناه الاصطلاحي . ولكنها - كما قلنا - تحتاج  
إلى تجمع وإلى استقرار وأمن وطمأنينة لكي تزاوّل نشاطها الطبيعي الفطري . وكل  
هذه العناصر كان مفقوداً في البيئة العربية القبلية الجاهلية، فلم يكن هناك - من  
ثم - علم بالمعنى المعروف .

فلما جاء الإسلام وجدت هذه العناصر جميعاً، فوجدت - بادئ ذي بدء - البيئة  
التي يمكن أن يظهر فيها العلم . ولكنها، في أمة كانت مشغولة تماماً عن هذا  
الأمر، كانت في حاجة - إلى جانب التجمع والاستقرار والأمن - إلى دفعة حيوية  
هائلة تنشط ما كان غافلاً من جوانب الفطرة، وتدفعه إلى العمل والإنتاج .

ولقد أعطى الإسلام تلك الدفعة الحيوية بصورة فذة غير مسبوقه في التاريخ،  
فكان أمراً طبيعياً أن تتحرك الفطرة لطلب العلم حين سرت الشحنة الضخمة في  
جسم ذلك التجمع الجديد فحركت كل جزئية فيه .

ولكن الإسلام لم ينجو تلك الشحنة الدافعة فحسب، التي يمكن أن تؤدي من

ذات نفسها إلى إيقاظ الجوانب الغافية - أو الضامرة - من الفطرة فتعطيها دفعتها السوية وحركتها السوية ، إنما حوى إلى جانب ذلك توجيهات محددة لطلب العلم ، كشأنه مع كل أمر لازم للحياة البشرية .

وشأن الوحي مع متطلبات الحياة البشرية إما أن تكون مما لا يستطيع الإنسان الوصول فيه إلى المعرفة الصحيحة بنفسه ، فيتكفل الوحي بأمر «التعليم» كله كشأن العقيدة ، وأمور الحلال والحرام . . وإما أن تكون مما يستطيع الإنسان الوصول فيه إلى المعرفة الصحيحة بما أودع الله الفطرة من الأدوات ، فيكتفى الوحي بالتوجيه ، ووضع المنهج الصحيح للعمل والتفكير .

والتعرف على الكون المادى ، وعلى خواص المادة ، هو من تلك الأمور التى أودع الله الفطرة الطاقات اللازمة لها ، والقيمة بأن يصل الإنسان بها إلى المعرفة الصحيحة بجهد عقلى وعضلى يبذله ، لذلك لم يكن شأن الوحي فيه أن يعطى «نظريات» علمية ، ولا دروسا توصل إلى معلومات معينة فى شتى العلوم . إنما كان شأنه التوجيه ، وإعطاء المنهج الصحيح .

فأما التوجيهات فقد حفل بها كتاب الله المنزل ، كما حفلت بها سنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

فأما كتاب الله فقد بدأ الوحي منه بالإقراء : «اقرأ» ولذلك دلالتة الواضحة خاصة بالنسبة للأمة الأمية التى لا تقرأ ولا تكتب .

ثم ثنى بذكر العلم : «اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم» (١) .

ثم لفت الأنظار إلى آيات الله فى الكون ، وأورد فى خلال ذلك آيات كونية داخلية فى صميم «العلم» وخاصة فى مجال السماوات والأرض ومراحل تكوين الجنين .

«قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض» (٢) .

«وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون» (٣) .

«وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل

(٢) سورة يونس [١٠١]

(١) سورة العلق [٥-١]

(٣) سورة الذاريات [٢٠-٢١]



فيها زوجين اثنين، يغشى الليل النهار، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»<sup>(١)</sup>.  
«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين»<sup>(٢)</sup>.

ومع أن هذه الإشارات إلى آيات الله في الكون - وهي كثيرة في القرآن - قد قصد بها ابتداء إيقاظ القلب البشري لعظمة الخالق، وقدرته المعجزة، وعلمه المحيط، وهيمته سبحانه وتعالى على أمر الكون كله وتديره له، لكي تخشع القلوب للخالق العظيم وتعبده وحده بلا شريك - أي لتصحيح العقيدة - إلا أن التوجيه «العلمي» واضح فيها بلا شك، لأن التفكير، والتبصر، والتدبر الذي تختم به معظم الآيات التي تتعرض لهذه المجالات كقوله تعالى: «إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» أو «يعقلون» أو «إن في ذلك لآيات للعالمين». الخ، هذا التفكير والتبصر والتدبر، يسرى بطبيعته حتى يشمل محاولة التعرف على «سر» هذه الآيات، وسر الصنعة الربانية الكامنة فيها. وتلك هي النقطة التي يبدأ منها «العلم». وبدأ منها المسلمون بالفعل توجههم لطلب العلم.

ولما لم يكن عند العرب رصيد علمي سابق، لانشغالهم - كما أسلفنا - بأمور أخرى، فقد أحس المسلمون بالحاجة إلى الاطلاع على ما كان عند غيرهم من الأمم من العلوم، وهو إحساس لم يشعروا به من قبل أيام جاهليتهم ولم يتجهوا إليه. ولما كانت لغة العلم الغالبة يومئذ هي الإغريقية واللاتينية، فقد اتجه المسلمون إلى تعلم هاتين اللغتين حتى يستطيعوا نقل العلم إلى اللسان العربي، ومن هذه النقطة بدأوا حركتهم العلمية.

ترجموا كل ما كان معروفا من العلم يومئذ، وعكفوا على دراسته متتلمذين عليه كما هو الأمر الطبيعي في مثل هذه الأحوال، وإن كانوا سرعان ما اكتسبوا الحاسة العلمية لأنفسهم، وأخذوا يصححون بعض الأخطاء التي كان العلم الإغريقي يحتوي عليها.

ولكن التوجهات القرآنية لم تحو فقط تلك الإشارات الكونية، وذلك التوجيه

(٢) سورة المؤمنون [١٢-١٤]

(١) سورة الرعد [٣]

للنظر في هذه الآيات والتفكر فيها، إنها حوت أهم من ذلك: منهج البحث .  
لقد كان العلم لدى الإغريق نظريا فلسفيا تجريديا . يبحث عن النظرية  
وفلسفها، ويكتفى بعرضها على «العقل» فإن أقرها - بصورة من الصور - فهي  
صحيحة، بصرف النظر عن وجودها الواقعي أو صحتها الواقعية .  
ولكن توجيهات القرآن كانت في اتجاه آخر .  
إنها توجه إلى الجانب العملي والجانب النافع من العلم، لا إلى الجانب النظرى  
التجريدى :

«يسألونك عن الأهله، قل هى مواقيت للناس والحج»<sup>(١)</sup> .  
«وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا  
فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكل شىء فصلناه  
تفصيلا»<sup>(٢)</sup> .

«وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا، ومن الشجر وما  
يعرشون، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها  
شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون»<sup>(٣)</sup> .  
ومن هنا بدأ المسلمون يحولون اتجاه البحث العلمى من المجال النظرى  
الفلسفى التجريدى إلى المجال العلمى التجريبي، وكانت هذه نقلة هائلة فى منهج  
البحث، هى التى أهلت البحث العلمى للآفاق الواسعة التى وصل إليها فى  
القرون الأخيرة .

والمسلمون هم الذين أسسوا المنهج التجريبي فى البحث العلمى .  
تلك حقيقة يقرّ بها الذين أخذوا عن المسلمين هذا المنهج، فقفزوا به قفزات  
واسعة فى العصر الحديث .

يقول بريفولت فى كتابه «بناء الإنسانية» « Making of Humanity » :  
«إن ما يدين به علمنا للعرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات  
مبتكرة . بل يدين لهم بوجوده نفسه . فالعالم القديم - كما رأينا - لم يكن للعلم فيه

(١) سورة البقرة [١٨٩] (٢) سورة الإسراء [١٢]

(٣) سورة النحل [٦٨ - ٦٩]

وجود . . . وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث في دأب وأناة، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني . . . أما ما ندعوه «العلم» فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة . . . وهذه الروح وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوربي»<sup>(١)</sup> .

ولكن الذى صنعه المسلمون فى حركتهم العلمية لا يقف عند حد تصحيح الأخطاء التى وجدوها عند الإغريق، ولا ابتداء علوم جديدة كعلم الجبر، ولا اكتشاف كثير من خواص المادة مما أدى إلى تقدم كبير فى علم الفيزياء وعلم الكيمياء، ولا اكتشاف الدورة الدموية، ولا ما ابتدئته عبقرية الحسن بن الهيثم فى علم الضوء . . . ولا يقف كذلك عند منح البشرية سبيل التقدم العلمى الصحيح، وهو المنهج التجريبي الذى ما كان للعلم أن يتقدم تقدما حقيقيا بدونهُ . . . إنما كان هناك ما هو أهم من ذلك .

لقد حوى القرآن منهجاً كاملاً للحياة، يشمل جزئيات الحياة جميعاً، بما فيها «العلم»، ثم يضع كل جزئية فى مكانها الصحيح . وهذا الأمر بالذات هو أهم ما قدمته الحركة العلمية الإسلامية، وتبدو قيمته خاصة إذا نظرنا إلى الحركة العلمية التى تقدمها الجاهلية المعاصرة فى الوقت الحاضر .

إن الإنسان فى حقيقته كُلى متكامل لا يمكن فصل جزء منه عن بقية أجزائه . وحين ينفصل منه جزء عن بقية الأجزاء، أو حين يحاول الناس فصل جزء منه عن بقية الأجزاء يحدث الخلل فى الكل المتكامل، لأن الارتباط لا يفصم فى الحقيقة وإنما يعتلّ، وإذا اعتل حدث الخلل لا محالة .

والمنهج الربانى يأخذ الإنسان على حقيقته، كلاً متكاملًا لا أجزاء ولا تفاريق . ولا عجب فى ذلك فهو منزل من عند فاطر هذه الفطرة العليم بها وبكل منسرباتها: «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير»<sup>(٢)</sup> .

(١) عن كتاب «تجديد التفكير الدينى فى الإسلام» لمحمد إقبال ترجمة الأستاذ عباس محمود ص ١٥٠

(٢) سورة الملك [١٤]

وحين يعالج المنهج الرباني أمر «العلم» فهو أولاً: لا يفصله عن بقية حياة الإنسان، ولا يجعله شيئاً قائماً بذاته، ولا يرفع شعار «العلم للعلم» كما تصنع الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة. وهو ثانياً: لا يجعل نشاطه مضاداً ولا معاكساً لبقية اتجاهات الفطرة وبقية الحاجات النفسية والحيوية، كما تصنع الجاهلية المعاصرة حين تفصل العلم عن الدين، ثم تضعها موضع التقابل والتضاد، فمن أراد العلم فليترك الدين، ومن أراد الدين فليترك العلم!

الإنسان في عرف الإسلام هو الخليفة في الأرض:

«وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة»<sup>(١)</sup>

خلق ليعبد الله:

«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»<sup>(٢)</sup>:

والعبادة تشمل كل نشاط الإنسان في الأرض:<sup>(٣)</sup>

«قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له»<sup>(٤)</sup>.

ومن بين العبادة المطلوبة عمارة الأرض:

«هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها»<sup>(٥)</sup>.

ومن بينها السعى في الأرض وابتغاء فضل الله:

«هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه، وإليه

النشور»<sup>(٦)</sup>.

والعلم أداة - ضرورية - من أدوات عمارة الأرض، والسعى وراء الرزق، والقيام بدور الخلافة في الأرض. لذلك فهو مسخر لهذه الأهداف، وليس هو هدفاً في حد ذاته.

ثم إن الإنسان كله - كما أسلفنا - مخلوق للعبادة، التي تشمل الاعتقاد في وحدانية الله، وتشمل الشعائر التعبديّة، وتشمل عمارة الأرض وإقامة الحق والعدل فيها باتباع ما أنزل الله:

(٢) سورة الذاريات [٥٦]

(١) سورة البقرة [٣٠]

(٣) انظر - إن شئت - فصل «مفهوم العبادة» في كتاب «مفاهيم ينبغي أن تصحح»

(٥) سورة هود [٦١]

(٤) سورة الأنعام [١٦٢-١٦٣]

(٦) سورة الملك [١٥]

«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»<sup>(١)</sup>.

والعلم - من ثم - بوصفه نشاطا إنسانيا، هو جزء من هذا المنهج المتكامل - منهج العبادة بمعناها الواسع - يأخذ مكانه في ذلك المنهج، ويأخذ ارتباطه ببقية الأجزاء.

لذلك لا نعجب حين نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»<sup>(٢)</sup>.  
وإحياء اللفظ ظاهر..

فليست الفريضة مجرد شيء واجب الأداء فحسب، بل إنها - في المصطلح الإسلامي - عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله، ويتبغى بها رضاه.  
وهذا هو وضع العلم في الإسلام.. عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله، ويتبغى بها رضاه!

ولا يحسبن أحد أن هذا القول يتعلق فقط بما يسمى «العلم الشرعي»، وإن كان العلم الشرعي فريضة بديهية على كل مسلم، ليعرف كيف يعبد الله العبادة الصحيحة، ويعرف الحلال والحرام، وما ينبغى عمله وما ينبغى الانتهاء عنه.  
إنها ينطبق هذا الوصف على كل العلم، ما دام لا يخرج عن الحدود التي رسمها الله. وإلا فانظر معي كيف ينفذ المسلمون هذا الأمر الرباني:

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم»<sup>(٣)</sup>.

هل يستطيعون ذلك بغير علم، يشمل اليوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والميكانيكا، وعشرات غيرها من العلوم؟  
وكيف ينفذون أمره تعالى:

«هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه..»<sup>(٤)</sup>.  
هل يمشون بغير علم؟ وهل يأكلون من رزقه بغير علم؟  
وانظر إلى قوله تعالى:

(٢) رواه ابن ماجه عن أنس

(٤) سورة الملك [١٥].

(١) سورة الحديد [٢٥]

(٣) سورة الأنفال [٦٠]

«وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه»<sup>(١)</sup>. هل يتحقق التسخير بغير علم؟ هل يقول الإنسان للشئء كن فيكون؟! أم يحتاج تحقيق التسخير إلى جهد علمي؟! وعشرات من الأمور تقطع بأن العلم الذى هو «فريضة» ليس هو العلم الشرعي وحده، إنما هو كل علم نافع. إنما يختلف الأمر بين علم وعلم فيكون أحدهما فرض عين والآخر فرض كفاية، ولكنه في جميع الأحوال «فريضة» كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بحق. وحين يكون العلم في الإسلام على هذا النحو، تنتج عن ذلك نتائج مهمة في حياة البشرية.

ينتج أولاً: أن العلم لا يمكن أن يكون عدواً للعقيدة، ولا عدواً للدين. إن العلم والدين كلاهما نزعة فطرية في كيان الإنسان. والنزعتان - في الفطرة السليمة - أصيلتان ومتكاملتان، ومتعاونتان في تحقيق الوجود الصحيح للإنسان. فتوجه الفطرة لخالقها بالعبادة فطرة:<sup>(٢)</sup> «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا!»<sup>(٣)</sup>.

والرغبة في «المعرفة» والرغبة في التفاعل مع الكون المادى، واستخدام ثمار المعرفة في تيسير الحياة وتحسينها وتجميلها فطرة كذلك. فالإنسان مفطور على حب «المتاع» وعلى السعى إلى تحسين وسائل المتاع حتى ترتفع من الضرورات إلى الحاجيات إلى الزينة.

فما الذى يجعل إحدى النزعتين في موقف الحرب والتضاد مع النزعة الأخرى؟ إنما فعلت الجاهلية الحديثة ذلك في أوروبا، لأن الدين المسوخ الذى قدمته الكنيسة كان يحارب العلم ويضطهد العلماء ويحرقهم أحياء في الأفران، لأنهم نادوا بحقائق علمية على غير هوى الكنيسة. فكان رد الفعل الجاهلى هو نبذ الدين جملة - بدلاً من تصحيحه - وجعل العلم منابذاً للدين. ولكن ذلك لم يكن هو السبب الأوحده في الحقيقة.

(١) سورة الجاثية [١٣]

(٢) انظر - إن شئت - فصل «الإلهاد» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة»

(٣) سورة الأعراف [١٧٢]

فإن أوروبا حين نزعت عنها لباس الدين - علماؤها ومفكروها أولا ثم جماهيرها ودهمائها بعد ذلك - رجعت إلى التراث الإغريقي الرومانى تستمد منه مناهج حياتها الجديدة . فانبعث فيها من الجاهلية الإغريقية ذلك العداء القديم بين «الإنسان» وبين «الله» .

إن الأساطير الإغريقية تصور العلاقة بين البشر والآلهة علاقة خصام وعناد وشر: الآلهة تريد أن تسحق الإنسان لكى لا ينافسها وضعها «الإلهي»! والإنسان متمرد على الآلهة، يحاول عصيانها ليثبت وجوده وفاعليته!  
وأسطورة بروميثيوس بصفة خاصة تصور هذه العلاقة أدق تصوير.

تقول الأسطورة إن كبير الآلهة «زيوس» خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض،<sup>(١)</sup> ثم سواه على النار المقدسة التى ترمز إلى المعرفة، ثم أطلقه فى الأرض وحيدا تحيط به الظلمات . فأشفق عليه كائن أسطورى يسمى «بروميثيوس» فسرق له النار المقدسة من الإله زيوس، لتتير له ما حوله . وهنا غضب الإله غضبة عظيمة (وإن كان قد عجز عن استرداد النار المقدسة مرة أخرى!) فوكل بروميثيوس نسرا يأكل كبده طول النهار ثم تنبت له كبدة جديدة فى الليل فيأكلها النسرة بالنهار، وهكذا فى عذاب أبدى . أما الإنسان - الذى استضاء بنور المعرفة فأصبح يحمل بعض خصائص الآلهة - فقد أرسل زيوس إليه بامرأة (ترمز إلى حواء) وأرسل معها صندوقاً هدية . فلما فتح الصندوق إذا هو مملوء بالشرور، فقفزت من الصندوق وتناثرت على وجه الأرض . . وكان هذا هو انتقام «الإله» من «الإنسان»!

على هذا النحو تقوم العلاقة بين الإنسان وبين الله . علاقة خصام وعناد لا تعمرها مودة ولا يظللها حب .

وفى ظل هذه العلاقة تكون «المعرفة» التى يحصل عليها الإنسان غضبا مغتصبا من الآلهة ، لا كسبا مرضيا عنه منهم .

وتظل الجاهلية تؤجج البغض فى هذه العلاقة، وتباعد بين الدين والعلم ، حتى يصبح الأمر فى حسنها كما يقول الكاتب الملحد «جوليان هكسلى» فى كتابه «الإنسان فى العالم الحديث»: إن الإنسان كان يخضع لله فى عصر الجهل والعجز، أما الآن

(١) انظر كيف تأخذ الأسطورة جانبا من الحقيقة ثم تشوهها!

وقد تعلم وسيطر على البيئة، فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان من قبل في عصر الجهل والعجز يلقيه على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله! وأياً كانت أعدار الجاهلية أو مبرراتها فقد ارتكبت جريمة ضخمة في حق الإنسان - على الرغم من كل تقدمها العلمي - حيث فصلت بين نزعتين فطريتين أصيلتين متعاونتين، نزعة العبادة ونزعة المعرفة، ووضعتهما في موقف التقابل والتضاد، ومزقت الإنسان - من ثم - بين نزعتيه الفطريتين، وبين حاجتيه الفطريتين، فحرمت عليه إحداهما إذا أراد الأخرى، وأشقت وأضلته بالتقدم العلمي رغم كل التيسيرات التي قدمها العلم للإنسان في عصره الحديث، واستخدمت العلم - متعمدة - في محاربة العقيدة، بترويج أذاليل ليس لها وجود حقيقي ولا مدلول علمي، كالطبيعة الخالقة التي قال عنها دارون إنها «تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق»! وكالمادة الأزلية الأبدية التي زعمها الماديون بغير برهان علمي<sup>(١)</sup>، وكالأنبياء التي تنشر بين الحين والحين في المجالات العلمية الرصينة عن خلق الخلية الحية في المعمل، ثم تنشر الصحف الرصينة ذاتها بعد فترة من الزمن أن الخبر كان عارياً عن الصحة!

ويظل للحركة العلمية الإسلامية تميزها بصحة المنهج واستقامته، وأخذها الإنسان على حقيقته الشاملة، كلاً مترابط الأجزاء متناسق النشاط، يعمل بجميع نزعاته ومجالات نشاطه في اتجاه موحد، لا تصطدم فيه نزعة بنزعة، ولا يتعارض مجال للنشاط مع مجال آخر، لأنها كلها متجهة إلى عبادة الله بالمعنى الشامل الواسع، الذي يشمل الخلافة في الأرض، وتعمير الأرض بمقتضى المنهج الرباني، ويشمل كذلك رفع الإنسان إلى مكانه اللائق به ودوره المنوط به، وهو حمل «الأمانة» التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال، وحملها الإنسان..

\* \* \*

وينتج من ذلك ثانياً: أن العلم لا يكون وسيلة لإفساد الأخلاق.  
فإذ كان العلم نشاطاً بشرياً، والنشاط البشري كله في المنهج الرباني محكوم

(١) ثبت لدى العلماء الآن أن الكون حادث، وأنه وجد بعد عدم، فليس أزلياً. كما يقول العلماء إنه صائر إلى الزوال فليس أبدياً.



بالميثاق الأخلاقي المعقود بين الإنسان وبين الله، فإنه لا يمكن - بدهاءة - أن يستخدم لإفساد الأخلاق.

والجاهلية المعاصرة نموذج فذ للتقدم العلمي، ولاستخدام العلم كذلك في إفساد الأخلاق كما استخدمته في محاربة العقيدة سواء بسواء.

ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك تيسير استخدام موانع الحمل، وإنتاجها على نطاق واسع أكبر بكثير جدا من حاجة البشرية الراشدة، وتخفيض أسعارها حتى تصبح في متناول أى فتاة تريد أن تحصل عليها، وإخراجها من دائرة المراقبة الصحية التي يمكن للأطباء أن يمارسوها، وذلك ببيعها دون حاجة إلى تذكرة الطبيب، على الرغم مما يقوله الأطباء أنفسهم من خطورة استخدامها بغير رقابة صحية!

والهدف من ذلك واضح.

فحين تأمن الفتاة نتائج اتصالاتها غير المشروعة، فما الذى يمنعها - في الفوضى الخلقية الضاربة أطنابها في الجاهلية المعاصرة - أن تغرق في هذه العلاقات إلى آخر المدى، ويتحقق للشياطين ما يريدون من إشاعة الفاحشة على أوسع نطاق. (٢) وليست موانع الحمل وحدها هي التي استخدم فيها العلم لإفساد الأخلاق. فالسينما والإذاعة والتلفزيون والفيديو، وما يمكن أن يجذ من هذه الأشياء، كلها أدوات كان يمكن أن تستخدم في ترشيد البشرية وتوجيهها الوجهة الصالحة، ولكنها تستخدم اليوم للإفساد المتعمد، الذى تجاوز في كثير من الأحيان دائرة الإفساد الخلقى بمعناه الاصطلاحي، إلى إفساد الفطرة الإنسانية ذاتها، بإشاعة التفاهة والضحالة والسطحية والجزئية، وشغل النفس عن معالى الأمور وتوجيهها إلى سفاسفها.

\* \* \*

وينتج من ذلك ثالثا: أن العلم لا يكون وسيلة للشر.

فما دام الإنسان كله في المنهج الإسلامى موجها إلى عمل الخير، ومراقبة الله في كل أعماله، والتوجه بكل ذرة من نشاطه إلى الله:

(١) وخاصة في صورة حبوب.

(٢) راجع إن شئت فصل «دور اليهود في إفساد أوربا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

«قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له» (١).  
ما دام الأمر كذلك، والعلم جزء من نشاط الإنسان، فهناك حاجز عقيدى وأخلاقى يمنع من استخدام ثمار العلم فى الشر.  
والجاهلية المعاصرة، التى بلغت أبعد مدى وصل إليه الإنسان فى التقدم العلمى، هى التى تستخدم الطاقة النووية فى إحداث ألوان من الشر يعجز الإنسان عن تصورها.

إن قبلى هيروشيما ونجازاكي اللتين ألقيتا من أربعين سنة فى اليابان (هذا العام ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) قد محت كل منها آثار الحياة كلها من نبات وحيوان وإنسان فى دائرة واسعة حول المكان الذى ألقيت فيه، وإلى مدى فى الزمن القادم لا يعلمه إلا الله، ثم إن الإشعاع الذرى الناتج عنها ما يزال إلى هذه اللحظة ينتج أجنة مشوهة فى دائرة أوسع، بينما تعتبر هذه القبلة بالقياس إلى قوى التدمير الحديثة كمسدس الأطفال بالنسبة للمدفع الثقيل!

وذلك كله بغير ضرورة حقيقية! فما زال فى مكنة الأسلحة التى يسمونها «تقليدية» أن تفتك بعشرات الألوف بل بالملايين، وفى مكنتها أن تقرر النصر لمن يملكها ويحسن استخدامها، وذلك بصرف النظر عن الأهداف التى تدور حولها الحروب فى الجاهلية المعاصرة!

وقد أدى سباق التسليح فى الميدان النووى إلى إنفاق مقادير من الأموال كانت كفيلة برفع الفاقة والعوز عن البشرية كلها، وتوفير وسائل الحياة الكريمة لمجموعات ضخمة من البشر تعيش أدنى من درجة الأدمية بكثير! ومع ذلك لا يتوقف السباق المسعور ولا يشبع! ولا يصل إلى نتيجة حاسمة كذلك!

\* \* \*

كلا! إن المزية الكبرى للحركة العلمية الإسلامية - التى تجعلها فى الوقت ذاته سمة من سمات هذه الأمة - أنها جزء من هذا الدين، بشموله وتوازنه وترابطه، لا يشذ عنه ولا ينفصل منه.

لقد نمت الحركة العلمية الإسلامية فى ظل العقيدة الصحيحة، فلم يحدث قط بينها وبينه صراع، لا على المستوى النظرى ولا على الصعيد العملى.

---

(١) سورة الأنعام [١٦٢-١٦٣]

ليس في حقائق الدين ما يعارض العلم الصحيح ، وليس في العلم الصحيح ما يعارض ما جاء في هذا الدين . ولا يحتاج المسلم أن ينحى عقيدته جانبا أو ينسلخ منها لكي يتعلم ، كما لا يحتاج أن ينبذ العلم ولا ثمار المعرفة العلمية لكي يحافظ على دينه . إنما يتعلم ويعبد الله حق عبادته في ذات الوقت ، بل يجد دينه هو الذى يدفعه دفعا إلى العلم : «طلب العلم فريضة»<sup>(١)</sup> ، ويجد دينه يطريه حين يصبح «عالما» بالمعنى الصحيح للعلم ، الذى يربط علم الدنيا بعلم الآخرة ، فيقول الله سبحانه وتعالى :

«إنما يخشى الله من عباده العلماء»<sup>(٢)</sup> .

فيصبح بذلك من «أولى الألباب» لأنهم هم الذين يتصفون بخشية الله :  
«إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب»<sup>(٣)</sup> .  
كذلك لم يحدث في التاريخ الإسلامي ذلك الصراع البغيض الذى حدث في ظل الكنيسة الأوروبية بين الدين والعلم ، لأنه لا حاجة ولا مبرر لذلك الصراع . بل كان الرجل يكون عالما بالشريعة وعالما بالطب أو الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء ، لا يجد من ذلك صراعا في نفسه ، ولا يجد اضطهادا من الدولة ولا من أحد من الناس .

ومما يستوقف النظر ولا شك أن يجد الإنسان الحسن بن الهيثم يكتب في موضوع علمى يعتبر جافا أشد الجفاف ، وهو علم «البصريات» ، فيبدأ حديثه باسم الله ويحمده ويشنى عليه بما هو أهله ، ويستمد منه التوفيق<sup>(٤)</sup> ، بينما نجد دارون يكتب في موضوع من طبيعته أن يثير الوجدان البشرى ، ويبعث القلب البشرى خاشعا لله ، وهو علم الحياة ، وخروج الحى من الميت ، وتنوع الكائنات الحية . . فلا يذكر اسم الله مرة واحدة ، بل يقول إن الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق ، ثم يقول بعد ذلك إن الطبيعة تخبط خبط عشواء!!  
إنه الفارق بين حركتين علميتين متميزتين ، حركة مهتدية وحركة ضالة . وقد

(١) سبقت الإشارة إليه (٢) سورة فاطر [٢٨]

(٣) سورة الرعد [١٩-٢١]

(٤) ظلت نظريات ابن الهيثم تدرس في أوروبا حتى القرن التاسع عشر لبراعته العلمية وأصالة نظرياته .

كانت الحركة المهتدية نورا يشع للعالم أجمع ، فأيقظ أوروبا من سباتها ، وأخرجها من ظلمات القرون الوسطى لتعرف العلم والحضارة (وإن تكن أبت أن تأخذ مصدر النور، فخرجت بحضارتها العرجاء الشائثة ) والحركة الضالة تمد ظلالها اليوم على العالم كله فتحقق له كثيرا من النفع ولكنها تشيع في كيانه الخبال!

كذلك لم تتجه الحركة العلمية الإسلامية إلى إفساد الأخلاق ولا إلى بذر الشر في الأرض كما اتجهت الحركة القائمة في ظل الجاهلية المعاصرة، لا لأنها كانت عاجزة عن ذلك ، فأى قدر من العلم يمكن أن يستخدم في إفساد الأخلاق وبذر الشر إذا تولته الشياطين . وقد كان كهنة الفراعنة - وهم علماء تلك الأمة - يستخدمون ما لديهم من العلم في نشر الأضاليل الاعتقادية وتعميد الناس للفرعون بدلا من الله ، وكانوا هم واليهود يستخدمون العلم في السحر بدلا مما ينفع الناس ! إنما اتجهت الحركة الإسلامية إلى البحث عن الحقيقة، وتسخير العلم وثاره لما ينفع الناس، وحافظت على عقائد الناس وأخلاقهم ، لأنها جزء من هذا الدين ، محكوم بالمنهج المنزل من عند الله .

### سابعاً : الحركة الحضارية الإسلامية

المقصود هنا بالحركة الحضارية هو الجانب المادى والتنظيمى منها، وهو هو الذى تأخر بروزه عن الجيل الأول. أما الجانب المعنوى، جانب القيم، فقد برز منذ اللحظة الأولى لوجود المجتمع المسلم بالمدينة، بل قبل ذلك منذ قيام الجماعة المسلمة بمكة .

وقد تكون هذه القضية في حاجة إلى شيء من البيان .

لقد غلب على استعمال كلمة الحضارة أن تطلق على الجانب المادى والتنظيمى من الحياة، وليس ذلك بعيدا عن المعنى اللغوى على أى حال، فالحضارة هى فعل أهل الحضر، مقابل البداوة التى هى شأن أهل البادية .

ولكن الإسلام قد أنشأ مفاهيم خاصة ومصطلحات خاصة، يخصص بها المصطلح اللغوى ويحدده . فالصلاة فى اللغة الدعاء، ولكنها فى المصطلح الإسلامى هى تلك الأعمال الخاصة المعروفة، التى تشمل الدعاء فيما تشمل ولكنه دعاء ذو نسق خاص محدد . والزكاة فى اللغة الطهر والنماء . ولكنها فى المصطلح

الإسلامى هى ذلك المقدار من المال الذى ينفق بصورته المعينة المعروفة. والدين فى اللغة هو كل ما يدين به الإنسان أو يعتقد أو يتحاكم به أو يتحاكم إليه، ولكنه فى المصطلح الإسلامى ذلك الدين المحدد المنزل من عند الله.

والحضارة كذلك. هى فى اللغة فعل أهل الحضرة. ولكنها فى المصطلح الإسلامى هى عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى، فيدخل فى ذلك الجوانب المادية والتنظيمية، وتدخل فيه القيم التى يحملها هذا الدين، غير منفصلة هذه عن تلك. أى أنها تشمل الأمرين اللذين فرقتهما الجاهلية المعاصرة فسمت أحدهما ثقافة Culture وخصته بالقيم والأفكار والمعتقدات، وسمت الآخر حضارة Civilization وخصته بالجانب المادى والتنظيمى.

والجاهلية المعاصرة إذ تفعل ذلك تحدث تفرقة لا وجود لها فى عالم الواقع. فليست هناك عمارة مادية أو تنظيمية غير مرتبطة بقيم معينة فى حياة الناس، متأثرة بها ومؤثرة فيها. كذلك فإن القيم لا تعيش فى فراغ، إنما تعيش وتبرز فى كيان مادى وتنظيمى. فالتفرقة بين الأمرين تفرقة نظرية أكثر منها واقعية. إنما تستسيغها تلك الجاهلية لأنها درجت على التفرقة بين النظرية والتطبيق، فوضعت الصورة المثالية فى النظرية، وتركت التطبيق يمثل الواقع، ولم تر حرجا فى أن يخالف التطبيق النظرية ويتعد عنه!

ولسنا ملزمين بمجارة الجاهلية الأوربية فى مصطلحاتها.

إنما نقول إن «الحضارة» هى الجانب المعنوى الذى يحمل القيم، والجانب المادى والتنظيمى على حد سواء. ونقول إن هناك «حضارة إسلامية» ذات قيم ثابتة وأشكال مادية وتنظيمية نامية ومتغيرة على الدوام. والمفروض فى الحالة السوية أن يظل الارتباط قائما بين تلك القيم وهذه الأشكال المتغيرة، ليصح تسميتها «حضارة إسلامية». فإذا تغيرت القيم وابتعدت عن روح الإسلام لم تعد تصلح أن تسمى بهذا الاسم، إنما هى حضارة جاهلية إذا قبلنا الاصطلاح، بمعنى عمارة مادية وتنظيمية غير قائمة على المنهج الربانى. وفى جميع الأحوال لا تنفصل الأشكال المادية والتنظيمية عن القيم المصاحبة لها، ويكون تقويم الحضارة بالأمرين معا، لا بالجانب المادى والتنظيمى وحده. بل يكون تقويمها بمقياس القيم هو المقدم وهو المعتبر، لسبب واقعى بسيط، هو أن الإنسان يستطيع أن يعيش، وأن يمارس

كيانه «الإنسانى» على المستوى الأعلى بأقل قدر من الأشكال المادية والتنظيمية، ولكنه لا يستطيع أن يعيش ولا أن يمارس كيانه الإنسانى على أى مستوى كان بغير قيم ومبادئ، مهما يكن عنده من أدوات التقدم المادى والتنظيمى .

ومقارنة سريعة بين جيل الصحابة رضوان الله عليهم والأجيال التى تعيش اليوم فى الجاهلية الأوروبية المعاصرة تحسم الكلام فى هذه النقطة . فأيهما هو «الإنسان» فى أعلى صورة؟ أيهما الذى يعيش بمشاعر «الإنسان» وأفكار «الإنسان» وأخلاقيات «الإنسان» وسعة أفق «الإنسان» والعمل والكدر اللائق «بالإنسان»؟  
الإجابة واضحة دون شك . وحاسمة كذلك . .

إن ذلك الجيل الذى لم يكن يملك من أشكال الحضارة المادية والتنظيمية إلا القدر الأدنى هو أعظم أجيال البشرية قاطبة غير منازع . والأجيال التى تعيش اليوم فى الجاهلية المعاصرة هى من أسوأ أجيالها إن لم تكن أسوأها، وإن كانت تملك أعلى قدر من الحضارة المادية والتنظيمية فى تاريخ البشرية، وذلك لأنها تعرت من القيم وتنكرت لها إلا القيم النفعية البحتة، لذلك نسمى حضارتها حضارة هابطة، فى مقابل الحضارة الرفيعة المتمثلة فى ذلك الجيل الفريد، حضارة القيم العليا والمبادئ السامية .

من هنا نقول باطمئنان إن الإسلام هو الحضارة . وإن المجتمع المسلم هو المجتمع المتحضر، أياً كان القدر الذى يشتمل عليه من الأشكال المادية والتنظيمية .

ولكن الأمر الطبيعى فى الفطرة السوية أنها تسعى لإشباع الجوانب الحسية والجوانب المعنوية معاً فى ذات الوقت بلا تعارض ولا تناقض، بل على توازن واتساق .

وهذا التكامل فى الفطرة وفى الحياة الواقعية علامة صحية بالنسبة للإنسان، الذى خلقه الله من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله :  
«إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» (١) .

---

(١) سورة ص [٧١-٧٢]

والإسلام - دين الفطرة - يدعو إلى إشباع الجانبين معاً، سواء فيما يتعلق بالروح والجسد أو بالدنيا والآخرة.

«وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . .» (١)

«وكلوا واشربوا . . .» (٢)

«وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» (٣)

ولئن كان الإسلام قد وضع القيم المعنوية في المقدمة - كما ينبغي لها أن تكون - فإنه لم يهمل الجوانب الأخرى ولا دعا إلى مصادرتها، بل أعطى كل ذي حق حقه : «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب. قل : أؤنبكم بخير من ذلكم؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله، والله بصير بالعباد، الذين يقولون ربنا إننا آمننا فأغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار. الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار» (٤).

فأما إذا جنح الإنسان بأحد جانبيه على حساب الآخر فهنا يحدث الخلل في حياته، سواء جنح إلى الجانب الروحي وأهمل المادى كما تصنع الرهبانية والهندوكية والبوذية، أو جنح إلى الجانب المادى وأهمل الروح كما تصنع الجاهلية المعاصرة.

إنما يسعى الإسلام لإشباع الجوانب كلها، فينتج من ذلك الإنسان السوى الذى يحقق التوازن على المستوى الرفيع.

لذلك كان قيام الجانب المادى والتنظيمى من الحضارة - بعد استكمال الجانب المعنوى القائم على القيم العليا والمبادئ السامية - أمراً طبيعياً في حياة المجتمع المسلم، وعلامة صحية كذلك.

ولئن كان هذا الأمر قد استغرق فترة من الوقت، فقد كان ذلك بالنسبة لخلو الحياة العربية السابقة من كثير من أشكال الحضارة المادية والتنظيمية، وعدم شعورها بالحاجة إلى تغيير واقعها الذى تعيشه بكل تفصيلاته.

(٢) سورة الأعراف [٣١]

(١) سورة البقرة [١١٠]

(٤) سورة آل عمران [١٤-١٧].

(٣) سورة القصص [٧٧]

فلما جاء الإسلام تغيرت النفوس من داخلها، وانبعثت الفطرة تعمل بكيانها المتكامل في كل اتجاه. وكان الجانب المادى والتنظيمى من الجوانب التى نشطت بتأثير الميلاد الجديد، والدفعة الحيوية الهائلة التى أطلقها الإسلام فى الكيان الجديد.

وكما قلنا من قبل فى شأن الحركة العلمية نقول الآن بشأن الجانب المادى والتنظيمى من الحضارة، فلقد كان هذا فى حاجة إلى ذات العوامل التى كانت مطلوبة لنشأة الحركة العلمية، والتى كانت مفقودة أو ناقصة فى الحياة العربية قبل الإسلام.

كان فى حاجة إلى تجمع واستقرار وأمن وطمأنينة. وكان فى حاجة إلى دفعة حيوية هائلة تعوض الانصراف السابق عن هذا المجال. وقد أعطى الإسلام ذلك كله، فقامت الحضارة بجانبها المادى والتنظيمى بعد أن كانت قد قامت بقيمتها ومبادئها من قبل.

وكما تتلمذ المسلمون على الإغريق لبدء الحركة العلمية، فقد تتلمذوا على فارس وبيزنطة لبدء الجانب المادى والتنظيمى من الحضارة ريثما يكتسبون حاستهم الخاصة كما اكتسبوا حاستهم الخاصة فى المجال العلمى.

لما كثر الجند قيل لعمر رضى الله عنه: لولا دونت دواوين! فاشتهدى عمر ذلك! كان هذا عملاً تنظيمياً أحست الدولة الناشئة إليه فأخذته من جيرانها بلا تردد (وكلمة ديوان فارسية كما هو معروف) كما أخذت غيره مما كانت محتاجة إليه.

ورويدا رويدا اكتسب المجتمع الجديد حاسته الخاصة فاستغنى عن الاقتباس، وكان له مشاركته الخاصة - والهائلة - فى هذا المجال، وفى غيره من المجالات كعمارة المدن والبيوت ومد الطرق وتنظيم «الخدمات» العامة.

وهناك شىء تجدر الإشارة إليه بصدد أخذ الأجيال الأولى من هذه الأمة عن الإغريق والرومان والفرس ما لزمهم سواء فى المجال العلمى أو المجال المادى والتنظيمى، حتى صارت لهم حاستهم الخاصة التى استغنوا بها عن النقل، ثم أصبحوا فيما بعد أساتذة فى جميع تلك الميادين، وصارت أوربا تتلمذ عليهم فى جميع الميادين.



لقد كانوا يأخذون ما يأخذون وهم في موقف العزة والاستعلاء :  
«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»<sup>(١)</sup>  
«ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين»<sup>(٢)</sup>

كان ملء نفوسهم الاستعلاء بالإيمان والاعتزاز به ، فلم يشعروا - وهم ينقلون عن الإغريق والرومان والفرس - أنهم أقل منهم ، ولم يشعروا بالضالة أمامهم أو بالذلة لهم لأنهم في حاجة إليهم ، بل شعروا أنهم هم الأعلون وإن كانوا في حاجة إلى غيرهم ، لأنهم مؤمنون وغيرهم ليسوا مؤمنين . ومن أجل ذلك لم يفتنوا ولم ينبهروا بما عند الجاهليات من حولهم ، فأخذوا ما أخذوا في عزة ، وأخذوا ما رأوه نافعاً لهم ولم يأخذوا ما رأوه مخالفاً لدينهم وعقيدتهم ،<sup>(٣)</sup> لأن موقف الاستعلاء يتيح لهم أن يتخيروا ويتنقوا ، بينما موقف الضعف والاستخذاء والانبهار لا يتيح لصاحبه الفرصة للاختيار ، ولا القدرة على الاختيار ، فيأخذ الغث والثمين ، ويأخذ من الغث أكثر مما يأخذ من الثمين ، لأنه أيسر أخذاً وأقل تكاليف!

لذلك لا نعجب إذا رأينا المسلمين الأوائل رغم تمكنهم من الإغريقية إلى الحد الذي ترجموا به كثيرا من مؤلفاتهم ، لم يترجموا الأساطير الإغريقية ولم يعنوا بها أى عناية ، بل رأوها شركا وخرافة لا تستحق النقل ولا تستحق الاعتبار!<sup>(٤)</sup>

كذلك كان شأنهم في الجانب المادى والتنظيمى . . أخذوا ما وجدوا أنفسهم في حاجة إليه ، دون أن يأخذوا ما كان مشتبكا به عند أصحابه من شرك وخرافة ووثنية وانحراف في الأفكار أو انحراف في السلوك . ثم إن الذى أخذوه - وكله في مجال الأدوات لا في مجال الأسس والمناهج - طوعوه سريعا لمنهجهم الخاص في الحياة ، فأصبحوا أصلاء فيه لا مقلدين .<sup>(٥)</sup>

إن الأصالة أمر له أهميته البالغة في وقت النقل عن الغير بصفة خاصة . فالأصالة لا تمنع الاستفادة من ثمار العلم وثمار الحضارة المادية - التى هى فى النهاية جهد بشرى مشترك تتداوله الأمم وتتداوله الأجيال - ولكنها تمنع الذوبان وفقدان الشخصية بتأثير النقل .

(١) سورة آل عمران [١٣٩] (٢) سورة المنافقون [٨]

(٣) انخدع المسلمون فى الفلسفة فظنوها نافعة لهم فنقلوها وكان ذلك خطأ غير مقصود كما سيجى .

(٤) انظر فى المقابل قول طه حسين فى عصر الانبهار: من لم يقرأ الأساطير الإغريقية فلن يستطيع أن يكون أدبياً .

(٥) انظر فى المقابل كيف تميع المسلمون وذابت شخصيتهم فى حركة النقل الأخيرة ، حين فقدوا أصالتهم .

وأوثق أسباب الأصالة أن يكون الإنسان صاحب عقيدة وصاحب منهج خاص في الحياة . وقمة ذلك أن يكون الإنسان مسلماً لأنه يكون عندئذ صاحب العقيدة الصحيحة ومنهج الحياة الصحيح . فإذا كان مسلماً على النحو الذي كانت عليه الأجيال الأولى فقد تحققت له الأصالة في أعلى قممها، لا التي تمنع الذوبان وفقدان الشخصية بتأثير النقل فحسب، بل التي سرعان ما تكتسب الحاسة الخاصة، وتنتقل في فترات وجيزة من الزمن من التلمذ إلى التمكن إلى الأستاذية .

وذلك ما كان من شأن الأمة الإسلامية - في أجيالها الأولى - في جميع الميادين التي احتاجت فيها إلى الاقتباس من غيرها، كالمجال العلمي والمجال المادى والتنظيمي، فما مر ما بين تلمذها على أوروبا وأستاذيتها على أوروبا إلا أجيال قليلة كأنها برهات في عمر الزمان .

على أن الذي يهمننا أكثر في هذا البحث ليس هو ما بلغته الحضارة الإسلامية في جانبها المادى والتنظيمي من روعة - مع الأصالة والتمكن - إنما هو ما تفردت به بين الحضارات، مما يدخلها في سماء الأمة المسلمة .

إن هناك ارتباطاً وثيقاً في كل حضارة من حضارات التاريخ ما بين إنتاجها المادى والعمرانى والتنظيمي وبين مفهومها للحياة الإنسانية وأهدافها .

وهناك بالطبع أشياء كثيرة مشتركة بين الحضارات جميعاً، سببها اشتراك بنى الإنسان جميعاً في نزعات معينة أو حاجات معينة، كالملبس والسكن والمطعم وأدوات القتال . . إلى غير ذلك .

ولكن العبرة ليست بتلك الجوانب التي تكاد تدخل في باب الضرورات، إنما العبرة بالجانب الاختيارى من الحياة، المتأثر بمفهوم الإنسان لنفسه ولأهداف حياته، والذي يؤثر بدوره حتى في أداء تلك الضرورات فيعطئها سمتها الخاص . فالبيت مثلاً هو البيت من حيث المبدأ . . هو «المأوى» الذى يأوى إليه الإنسان ويسكن فيه وإليه .

ولكن نظرة سريعة إلى البيت في العمارة الإسلامية والبيت في الجاهلية المعاصرة مثلاً، تكشف عن الفارق الهائل في المفاهيم، وما يترتب عليها من أنماط السلوك .

فالبيت في العمارة الإسلامية «صيانة» للأداب وللأخلاق وللأعراض، بقدر ما هو في الجاهلية المعاصرة «استعراض» و«كشف» لكل ما ينبغى أن يصاب!

في البيت الإسلامي لا يطلع الزائر على ربة البيت لأنها «حرم» مصون. من أجل ذلك يخصص له مكان في البيت، يستقبل فيه، ويرحب به، وتقدم له «التحية» الواجبة، ويتناول الطعام إذا دعى إليه، دون أن يظهر لأهل البيت أو يظهروا له، كما يخصص للأسرة مجال حياتها الكامل بغير تضيق، دون أن تكون مكشوفة للزائر من الرجال. ومن بدييات ذلك البيت أن تكون غرف النوم في أعماقه لا في ظاهره، لأنها الأماكن التي يضع فيها الناس ثيابهم، وينبغي الاستئذان قبل الدخول إليها حتى من الأطفال وملك اليمين:

«يا أيها الذين آمنوا ليستذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات: من قبل صلاة الفجر، وحين تضعون ثيابكم من الظهر، ومن بعد صلاة العشاء. ثلاث عورات لكم، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن، طوافون عليكم بعضكم على بعض. كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم»<sup>(١)</sup>.

انظر في مقابل ذلك إلى البيت في العمارة الجاهلية المعاصرة، حيث حجر النوم هي المكشوفة على الطريق، بحجة الحصول على أكبر قدر من الشمس والهواء! وهي حجة مفتعلة لا تستر الرغبة الداخلية في التعري والانكشاف، ومن البديهي ألا يكون فيها «حرم مصون» لأنه لا صيانة في هذه الجاهلية لشئ من المقدسات! والمثال الذي ضربناه بالبيت هو مجرد توضيح للمعنى الذي نريد أن نشير إليه.

إن الأشكال المادية والتنظيمية من الحضارة ليست غاية في ذاتها، إنها هي وسائل للتعبير عن مفاهيم تلك الحضارة. والمفاهيم هي المعيار الحقيقي لتلك الحضارة، ويأتي بعد ذلك الإبداع الفني في التنفيذ. ولالإبداع الفني معايير الخاصة، كما أن له وزنه في قياس «رقى» الإنسان. ولكنه لا يكون أبدا هو المعيار! لأنه مجرد «براعة» في الأداء لا تختص بقوم دون قوم، إنها هي من العطاء الرباني المبذول للناس جميعا، مؤمنهم وكافرهم:

«كُلًّا نمد، هؤلاء وهؤلاء، من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا»<sup>(٢)</sup>.

[٢] سورة الإسراء [٢٠]

[١] سورة النور [٥٨]

فإذا رجعنا إلى «المفاهيم» فهنا نلمس تفرد الحركة الحضارية الإسلامية كما لمسنا من قبل تفرد الحركة العلمية الإسلامية .  
إن «عمارة الأرض» أمر يقوم به «الإنسان» عامة ، تحقيقاً لمعنى من معانى الخلافة فى الأرض :

«وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة» . (١)  
«هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها» . (٢)

ولكن عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، هو الذى تتميز به الأمة المؤمنة عن سائر الأمم الجاهلية ، وإن اشتركا فى «العمارة» من حيث هى جهد مبذول ، وفن ، وبراعة فى الإخراج .

وحين ننظر من هذه الزاوية يطالعنا فى تلك الحضارة لأول وهلة أنها تأخذ الإنسان بمجموعه المتكامل : جسده وروحه ، دنياه وآخرته ، قيمه وأخلاقه ، فى توازن ملحوظ .

فالمسجد فى المدينة هو مبناها الرئيسى ، ومؤسستها الرئيسية كذلك . فهو مكان العبادة ، ومكان الاجتماع ، وفيه المدرسة التى يتعلم فيها الكبار والصغار . باختصار: تلتقى فيه الدنيا بالآخرة . يذكر فيه الناس بالله واليوم الآخر لا لينقطعوا للآخرة وينصرفوا عن عمارة الأرض . بل لينطلقوا إلى الدنيا وقلوبهم مرتبطة بالآخرة ، فىكون عملهم كله فى الحياة الدنيا «عبادة» على المعنى الواسع الشامل ، ويكون المسجد هو المكان الذى يتلقى فيه الإنسان «الزاد» الذى يتزود به ، ليقوم ببقية أعماله مطمئن القلب مستريح الأعصاب :

«الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب» (٣) .

كما أنه المكان الذى يتعارف فيه أهل الحى وتقوم بينهم صلة الأخوة والمودة التى يحض عليها الإسلام .

ضع فى المقابل فى الجاهلية المعاصرة «علب الليل» والمراقص والملاهى باعتبارها فى حسبهم هى مكان الترويح ، وهى الزاد الذى يتزود به الإنسان ليعود إلى عمله نشيطاً فى الصباح !

وانظر الفارق بين الحضارتين!

[٢] سورة هود [٦١]

[١] سورة البقرة [٣٠]

[٣] سورة الرعد [٢٨]

إن الحضارة الإسلامية تمارس كل ألوان النشاط البشرى التى تؤدى إلى عمارة الأرض، من تجارة وصناعة وعلم. الخ، وتسعى إلى الإنتاج الوفير فى كل أبواب الإنتاج، ولكنها فى سعيها كله تلتزم بالحلال والحرام، وبالقيم الأخلاقية، وبما يقتضيه الإيمان بالله واليوم الآخر من تشكيل للسلوك :

«هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور»<sup>(١)</sup>.

«وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا»<sup>(٢)</sup>.

وكان المسلمون فى أجيالهم الأولى أمة نشطة فى كل اتجاه. كانت تجارة العالم فى أيديهم، من الصين إلى أوروبا، مع ما يستتبع ذلك من معرفة بطرق الملاحة البحرية وطرق اليابسة فى آسيا وأفريقيا إلى مداخل أوروبا. وكانت الصناعة - المتاحة للناس فى ذلك الوقت - مزدهرة فى مراكز العالم الإسلامى المختلفة.

وكانت دور العلم عامرة بالأساتذة والطلاب فى كل فرع من فروع المعرفة من علوم الشريعة إلى الطب إلى الفلك إلى الفيزياء إلى الكيمياء إلى الرياضيات. وكانت هذه كلها مظاهر «حضارية» تقوم بها الأمة المسلمة. ولكن هذا كله يمكن أن تقوم به أى أمة ممكنة فى الأرض بوسيلة من وسائل التمكين، ويصير التفاضل بين أمة وأمة تفاضلا فى «المقدار» أكثر مما هو فى القيمة الإنسانية.

ولكن الذى تفردت به الحضارة الإسلامية - مع قيامها بالجانب الذى يمكن أن تقوم به كل أمة ممكنة فى الأرض - أنها تقوم به بمقتضى المنهج الربانى. تقوم بنشاطها التجارى الواسع الذى يمتد من المحيط إلى المحيط، ولكن ذلك لا يؤدى بها إلى استعمار الأمم الأخرى لنهب خيراتها للحصول على أكبر قدر من الربح، كما أدى بالجاهلية المعاصرة تحت أى ذريعة من الذرائع. بل يذهب التجار فى كل مكان يحملون معهم سم الإسلام ونظافة الإسلام وأخلاق الإسلام، فيتشر الإسلام معهم كما حدث فى أندونيسيا وكثير من بلدان أفريقيا.

[٢] سورة القصص [٧٧]

[١] سورة الملك [١٥]

تقوم بنشاطها الصناعي ، فتفرغ طاقتها فيما ينفع الناس في الأرض ، وما يجعل الحياة ميسرة وجميلة كذلك في الحدود المباحة ، والحدود المباحة تسمح بقدر من الزينة وقدر من الجمال :

«قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة»<sup>(١)</sup> .  
«والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون»<sup>(٢)</sup> .

ولكنها لا تجنح إلى شغل الناس بالسفاسف ، واستنفاد أموالهم فيما لا طائل تحته ، من أجل أن يربح أصحاب الصناعات الربح الحرام كما تجنح الرأسمالية في الجاهلية المعاصرة ، ولا تجنح إلى تلهية الناس بالحياة الدنيا حتى ينسوا الآخرة ، وينسوا القيم العليا التي ينبغي لهم أن يحققوها في الأرض ، من نشر العقيدة الصحيحة ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وإقامة العدل الرباني في واقع الأرض ، والجهاد في سبيل ذلك كله بما يقتضيه الجهاد<sup>(٣)</sup> .

تقوم بنشاطها العلمي ، دون أن يؤدي العلم - كما سبق أن بينا - إلى فساد العقيدة أو فساد الأخلاق أو نشر الشر في الأرض .

تقوم بنشاطها الفكري والفني ، ملتزمة في ذلك كله بالمنهج الرباني ، فلا يؤدي الفكر إلى الإلحاد ، ولا يؤدي الفن إلى التبذل والفساد الخلقى وإتلاف الفطرة كما هو حادث في الجاهلية المعاصرة .

وإلى جانب ذلك تقوم مؤسسات ونظم خاصة بالأمة المسلمة لم نجد لها مثيلا عند الأمم الأخرى ، كبيت المال ، ونظام الحسبة ، وجماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأوقاف الخيرية التي يوقفها أصحابها على أعمال البر ، وفي مقدمتها نشر العلم ،<sup>(٤)</sup> وتأمين الصحة ،<sup>(٥)</sup> ورعاية المعوزين والعاجزين .

(١) سورة الأعراف [٣٢]

(٢) سورة النحل [٥ - ٦]

(٣) حين أدت الحضارة المادية إلى شغل المسلمين عن هذه المعاني كلها انهارت الدولة الإسلامية وجاء التنازل والصليبيون من كل حذب كما سيأتي بيانه في خط الانحراف .

(٤) في كل المساجد الكبرى في العالم الإسلامي وجدت مدارس لنشر العلم ، رصدت لها الأوقاف للإتفاق على المعلمين والتعلمين ، بحيث يتفرغ الجميع للمعلم غير منشغلين بأمور المعاش .

(٥) راجع تاريخ البيهارستانات التي كانت تقام لعلاج المرضى بالمجان .

وفي كلمة مختصرة: هي حضارة لا تهدف إلى مجرد عمارة الأرض، إنما مزيتها الكبرى هي عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى . .

\* \* \*

في الصفحات السابقة تكلمنا عن أبرز سمات الأمة المسلمة، مع تأكيد الدرجة العليا التى حقق بها الجيل المتفرد هذه السمات. وقد أكدنا مع كل سمة أنها - من حيث هي - ليست خصيصة تفرد بها ذلك الجيل، إنما هي سمة دائمة - أو ينبغى أن تكون دائمة - فى حياة هذه الأمة. وأن الذى تفرد به ذلك الجيل لم يكن وجود هذه السمات فى حياته، إنما كان الدرجة الفذة التى حقق بها هذه السمات، والتى حققت مثالية الإسلام وواقعته فى آن.

ولأمر ما - أو أمور كثيرة فى الواقع - لم تحافظ الأمة على هذا المستوى الفذ الذى مارسته طيلة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده، إنما هبطت عن ذلك المستوى الرفيع فى كثير من الاتجاهات.

ولكن هذا ليس معناه أن الإسلام قد انتهى، كما يخيل لبعض الطيبين الذين يهولهم هذا الهبوط بعد أن يعاشوا فترة الذروة بكل أمجادها وكل عظمتها، وكما يخيل الخبثاء من أعداء هذا الدين للناس، لغاية خبيثة فى نفوسهم، هى تئيس الناس من عودة هذا الدين ليحكم الحياة من جديد. كأنها يقولون: أين هو الإسلام الذى تتطلعون إلى عودته من جديد، وهو قد انتهى بعد مبدئه بجيل أو جيلين، وانتهى إلى غير رجعة!

على أن هذا الهبوط عن ذلك المستوى المثالى لم يكن ليكرثنا لو بقيت الأمة فى حدود المستوى العادى للإسلام. فإن تلك المثالية الفذة لا يمكن أن تفرض فرضاً على جميع الأجيال، والله سبحانه وتعالى لم يفرضها على أحد، إنما كانت تطوعاً نبيلاً من أولئك الأفاضل الذين رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه.

ولو بقيت الأمة على الحد الأدنى الذى فرضه الله، لبقى الخير فى الأرض، ولكان التاريخ قد سار فى غير خطه الذى سار فيه، لا بالنسبة للأمة المسلمة فحسب، بل لكل البشرية. فقد شاء الله منذ أخرج هذه الأمة إلى الوجود أن يرتبط بها مصير البشرية كله، فإن كانت قائمة برسالتها على النحو المطلوب تحقق الخير لها وللبشرية من ورائها، وإن تقاعست عن رسالتها برزت الجاهلية فى الأرض وسيطرت عليها.

والذى سجله التاريخ على أى حال، أن هذه الأمة لم تهبط فقط عن المستوى  
المثالى الذى حققته فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، إنما  
هبطت - فى كثير من المجالات - حتى عن الحد الأدنى المفروض، فأصابها -  
وأصاب البشرية من ورائها - كثير من الشر . .  
وفى الفصل التالى نتحدث عن خط الانحراف فى تاريخ هذه الأمة الطويل . .



## خط الانحراف

من القمة الشاخحة إلى الحضيض الذي تعانیه الأمة اليوم . . مسافة هائلة تبعث على الدهول .

كيف تأتيّ للأمة التي ارتفعت إلى تلك القمم السامقة التي لم تسبقها إليها أمة في التاريخ ، ولا أدركتها بعدها أمة في التاريخ ، أن تتدنى إلى هذا الدرك من الضياع والذل والهوان والهبوط المسف الذي وصلت إليه اليوم ، والذي لا تكاد تدانیه أمة في الواقع المعاصر؟!!

هل هو أمر طبيعي لهذه الأمة؟!!

إن هناك أمة «تاريخية» وصلت - بمقياس الأرض - إلى أعجاب ضخمة ، وتمكنت في الأرض قرونا عدة ، وسيطرت على مساحات شاسعة من الأرض ، وملكت من وسائل القوة الأرضية ما يفوق الحصر . . ثم اندثرت تماما كأن لم تكن قط ، كما حدث للإمبراطورية الرومانية العتيدة أكبر إمبراطوريات التاريخ ، والإمبراطورية الفارسية التي كانت تنازعها السيادة في الأرض . . وجرى ذلك كله - سواء في التمكين والقوة أو الدمار والاندثار - حسب سنن ربانية لا تتبدل ، وحسب مشيئة ربانية هي التي أجرت هذه السنن في الحياة البشرية :

«أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها؟ والله يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب»<sup>(١)</sup> .

«فهل ينظرون إلا سنة الأولين؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا»<sup>(٢)</sup> .

ولكن . . أمة العقيدة . . هل تجرى عليها ذات السنن التي تجرى على الجاهليات؟!!

\* \* \*

(٢) سورة فاطر [٤٣]

(١) سورة الرعد [٤١]

يرى ابن خلدون - من دراسته للتاريخ - أن هناك «سنة» تدول الدول بمقتضاها . هي سنة «الشيخوخة» . فالدول في رأيه تولد ضعيفة ثم تقوى ويشد عودها وتعظم سطوتها، ثم تهرم كما يهرم الفرد، فتذبل ملكاتها وتتلشى طاقاتها، فتصير إلى الزوال . . ويردد المؤرخ الإنجليزي المعاصر «توينبي» ذات الفكرة ناقلا عن ابن خلدون .

وقد يكون ما يقوله ابن خلدون ويردده من بعده توينبي صحيحا بالنسبة للجاهليات . . فالجاهليات تقوم على «شعوب» بعينها . . فإذا كان من سنة الله أن تهرم الشعوب كما يهرم الأفراد،<sup>(١)</sup> فمن الممكن أن تدول الدول التي تنشأ تلك الشعوب بداء الشيخوخة بعد فترة معينة من عمرها، مهما يكن لها - في فترة شبابها وفتوتها - من عوامل القوة التي تبدولعين الناظر غير قابلة للفناء .

ولكن أمة العقيدة لا تقوم على «شعب» بعينه، إنما تقوم على «العقيدة»، وهي عنصر له صفة الدوام . وهذا فارق رئيسي بينها وبين الأمم الأخرى التي تنشأ في الجاهليات . فارق يجعل هذه الأمة خاضعة لسنة أخرى غير السنن التي تجري على الأمم الجاهلية، ويجعل مصيرها غير مصير هؤلاء .

فالواقع التاريخي لأمة العقيدة - أي الأمة الإسلامية - يختلف تماما عن «السنة» التي افترض ابن خلدون أنها تجري على الأمم فتزيلها من الوجود . فتاريخها - وإن كان يمثل حتى الآن ميلا مستمرا إلى الهبوط - إلا أنه خط متذبذب، يحمل صحوات كثيرة صاعدة، كذلك التي شهدتها الأمة أيام صلاح الدين قاهر الصليبيين، وأيام قطز قاهر التتار، وكحركة المد الضخمة التي قادها محمد الفاتح إلى داخل أوروبا .

ومن جهة أخرى فإن هذه الأمة - على الرغم من كل ما أصابها من عوامل المرض والانحلال، والكوارث الداخلية والخارجية - لم تزل من الوجود بعد أربعة عشر قرنا من مولدها، وهي فترة لم تعشها أمة أخرى من أمم التاريخ . وليس هذا فقط، بل إنها تشهد اليوم ما يشبه أن يكون مولدا جديدا تعاني مخاضه - بكل آلامه - في لحظة الراهنة .

---

(١) لا نجزم بأن هذه سنة . . وإن كان هناك من الظواهر التاريخية ما يساعد على هذا الافتراض . وفي هذه الحالة قد يكون الترف الذي يصيب الأمم القوية هو «الداء» الذي يؤدي إلى الفناء .

ومجرد بقائها إلى هذه اللحظة على الرغم مما أصابها، هو ذاته دليل على أنها لا تخضع لتلك السنة التي افترضها ابن خلدون . . سنة الفناء بسبب الشيخوخة . فإذا أضفنا إلى ذلك تلك الحقيقة الأخرى، وهي قيام حركات البعث الإسلامي في كل مكان من العالم الإسلامي . . إلى جانب حقيقة ثالثة، هي بدء انتشار الإسلام في بقاع من الأرض لم يكن قد دخلها من قبل، كاليابان وكوريا وفنلندا، ودخول أوريبيين وأمريكيين في هذا الدين بالئات والألوف . . لم يعد هناك مجال على الإطلاق لتطبيق سنة الفناء بالشيخوخة - بفرض صحتها - على الأمة التي قامت على العقيدة، لا على شعب بعينه من الشعوب .

\* \* \*

ومع ذلك كله تظل تلك الحقيقة المذهلة تدير الرؤوس . . حقيقة هبوط هذه الأمة من الذروة العليا إلى الحضيض السحيق الذي تعيشه اليوم . نعم، إنها لم تَفَنَّ كما فنيت أمم أخرى ودول ونظم وإمبراطوريات ذات سلطان وهيلمان . ولكن يبقى السؤال: كيف هبطت؟ لماذا هبطت؟ لماذا لم تحافظ على ألقها السامي، بل لم تحافظ حتى على المستوى الأدنى الذي لا ينبغي لها أن تهبط دونه، والذي يحقق لها وجوداً راسخاً وممكناً لو حافظت عليه؟! ولقد يخطر على البال سؤال: أين الإسلام إذن؟ ما دوره في حياة هذه الأمة؟ لماذا لم يحفظها من الهبوط؟ ما الفرق بين أمة العقيدة والأمم الجاهلية، إذا كانت تلك الأمة يمكن أن تتفقت وتتفقت حتى تصبح كالأمم الجاهلية، بل أسوأ منها في بعض المجالات؟

ما قيمة الدين إذن؟ وما دوره في واقع الحياة؟!

فأما هذا السؤال فله إجابته . .

إن الدين ليس «جهازاً» يعمل من تلقاء نفسه، بصرف النظر عن نفوس الناس الذين يحملونه . .

ولو شاء الله لقهَر الناس على الهدى فلا يستطيعون المخالفة ولا الهبوط ولا الانحراف، كما يجرى قدره في السموات والأرض، فيمضي كل شيء في فلكه المقدر له لا يخرج عنه قيد شعرة . . حتى يغير الله نظام الكون كله في الموعد المقدر. ولكن الله كَرَمَ الإنسان فلم يجعله «شيئاً» يقهر على غير إرادة منه، بل

جعله كائنا فعلا مريدا قادرا على اختيار أحد الطريقتين: إما طريق الهدى وإما طريق الضلال. وفي مقابل ذلك صار يحمل تبعه عمله، وصار ما يحدث له - في الدنيا والآخرة سواء - يجرى نتيجة لأعماله، حسب سنن مقررة كشفها الله له لكي يهتدى على ضوئها، ويضبط مساره بمقتضاها:

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»<sup>(١)</sup>.

«ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»<sup>(٢)</sup>.

«ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون»<sup>(٣)</sup>.

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض...»<sup>(٤)</sup>.

«فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون»<sup>(٥)</sup> الخ.

وهكذا يعمل الدين - ككل شيء في حياة البشر - من خلال النفوس التي تحمله، بقدر إقبالها عليه أو إدبارها عنه. بقدر التزامها بمقتضياته أو عدم التزامها بها. ولكن يبقى الفرق بينه وبين أى «منهج» آخر للحياة: أنه هو في ذاته هو المنهج الصحيح، وأن الثمرة التي تنشأ عنه تتفوق على أى ثمرة أخرى تنشأ عن أى منهج سواه. فيظل هو المنهج الذى ينبغى أن يتبع، وتظل المناهج الأخرى هى المناهج التى لا ينبغى أن تتبع، لأنها أردأ ثمرة وأسوأ مآلا في الدنيا والآخرة. كما يظل الفرق من ناحية أخرى أن النفوس التى تتشبع به - سواء كانت نفوس أفراد أو نفوس أمة - مظنة أن تكون أبطأ فسادا - حين تصيبتها عوامل الفساد - من النفوس التى لا تقوم أصلا على العقيدة، لأنها أمتن منها بنيانا وأكثر منها ترابطا. ويظل الفرق من ناحية ثالثة أنه - حين تفسد النفوس - يظل الدين هو أنجع العلاج، لأنه هو العلاج الصحيح... وفي جميع الأحوال يظل المعول عليه هو «النفوس» البشرية: هل تقبل أم تدبر؟ هل تعمل بمقتضى التكاليف أم تتخلى عن التكاليف.

(٢) سورة الأنفال [٥٣]

(٤) سورة الأعراف [٩٦]

(١) سورة الرعد [١١]

(٣) سورة الروم [٤١]

(٥) سورة الأنعام [٤٤]

وإنه لما تسأل عنه هذه الأمة يوم القيامة: كيف ضيعت دينها، وهي التي أخرجها الله لتكون شاهدة لهذا الدين، وشاهدة به على كل البشرية يوم القيامة؟ وكيف تخلت عن التكاليف التي فرضها الله عليها لتحقيق المنهج الرباني في واقع الحياة:

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا»<sup>(١)</sup>

«وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

بدأ الانحراف مبكراً جداً في حياة هذه الأمة. . منذ العهد الأموي. وليس هنا مجال التأريخ لهذه الأمة، ولا مجال التأريخ لخط الانحراف. إنما نكتفى برسم الخطوط العريضة التي تبين لنا معالم الطريق. وكما أوجزنا الحديث من قبل عن الجيل المتفرد، فاكتفينا بتسجيل أبرز السمات، بالقدر الذي يعطينا فكرة مجملية عن الصورة الصحيحة لتطبيق هذا الدين، فكذلك نوجز الحديث عن خط الانحراف، بالقدر الذي يعيننا على معرفة الأسباب التي أدت بنا إلى الواقع الذي نعيشه اليوم. . ذلك أن هدفنا الرئيسي ليس الدراسة المفصلة للتاريخ الإسلامي، إنما هدفنا أن نرسم صورة واضحة المعالم لواقعنا المعاصر، بأبعاده الرئيسية، وانحرافات الرئيسية، لنحدد على ضوءها طريق الخلاص.

\* \* \*

بدأ الانحراف - كما قلنا - منذ العهد الأموي. ولكنه كان - في معظمه - هبوطاً عن الذروة العليا أكثر مما كان انحرافاً عن الجادة. وإن كان الذي يعيش في جو الذروة، ويستنشق أريج العذب، يحس في صدره ضيقاً وحرماً من ذلك الهبوط. كانت هناك مفارقة واضحة ولا شك عن خط الخلافة الراشدة، واتجاهاً بالحياة في مجموعها - والجانب السياسي منها خاصة - إلى وجهة جديدة غير ما اعتاده الناس في عهد النبوة وخلافة الراشدين. ولكن الأمر في النهاية كان في داخل الدائرة، مع شيء من الشذوذ عنها في هذا الموضوع أو ذاك. أول تغير فاجأ الناس هو الانتقال من الخلافة إلى الملك.

[٢] سورة الزخرف [٤٤]

[١] سورة البقرة [١٤٣]

وحقيقة إنه لا يوجد نص يلزم الناس بصورة معينة من الحكم - خلافة أو ملكاً<sup>(١)</sup> إنما يلتزم الحاكم - خليفة أو ملكاً أو سلطاناً - بتنفيذ شريعة الله، ويصبح من ثم حاكماً شرعياً له على الناس حق السمع والطاعة كما بينت آيات الله، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم، وكما بينت الخليفة الأول رضى الله عنه: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»

ولكن النظام الذى اهتدى إليه المسلمون فى عهد الذروة كان بلا شك أعدل وأقوم، لأنه لا يحد من المسلمين فى بيت معين، إنما يتيح لهم فرصة أوسع لاختيار من يرونه أصح للناس لإمامتهم .

ولكن الناس على أى حال قد ارتضوا هذا التغيير وإن كان قد فاجأهم أول الأمر، على أساس أن الاستقرار الذى يتيح النظام الجديد أقرب إلى تحقيق

---

(١) عند هذه النقطة يزيغ كثير من الزائفين فيقولون إنه ليس فى الإسلام نظام للحكم! ويبررون بذلك تغلثهم من إقامة «الحكم الإسلامى» الذى أمر به الله، والذى يعرفون جيداً فى دخيلة أنفسهم أنه غير النظم المستوردة التى يسمعون إلى تطبيقها! ثم يلتبس الأمر على كثير من المخدوعين، بسبب الغزو الفكرى من ناحية، والبعد الطويل عن النظام الذى تحكمه شريعة الإسلام من جهة أخرى، فيصدقون هذه الفرية عن دين الله، ويتصورونه عقيدة وشعائر تعبدية فحسب، أو مجموعة مواعظ خلقية لتهديب الضمير، لا علاقة لها بالهيمنة على واقع الحياة السياسى والاقتصادى والاجتماعى . . تماماً كما كان الدين الكنسى الأوربى المحرف!

والذى ينبغى أن نجعل بالنسبة إليه أن شكل الحكم فى النظم البشرية له أهمية بالغة لأن «مصدر السلطة» يختلف فى كل شكل منها عن الآخر، ويختلف بالتالى أسلوب التشريع ووجهته. فتختلف الملكية المستبدة عن الملكية المقيدة، وتختلف الجمهورية عن الملكية، والدكتاتورية عن الديمقراطية . . وهكذا. أما فى الإسلام فمصدر السلطة واحد لا يتغير مهما تنوعت صورة الحكم. ذلك أن الحاكمية فى الإسلام ليست للبشر، إنما هى لله. وحيث لا يوجد نص فالفقهاء يجتهدون، ولكن اجتهادهم مقيد فى النهاية بمقاصد الشريعة، وبنصوصها العامة، ومن ثم فالتشريع محكوم فى النهاية بكتاب الله وسنة رسوله: «فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» [سورة النساء: ٥٩].

وصحيح أن الأمة الإسلامية - فى وضعها الصحيح - هى التى تختار ولى الأمر ببيعة حرة. ولكن هذا الاختيار الحر - وحده - لا يعطى الحاكم الشرعية. إنما الذى يعطيه الشرعية هو الحكم بما أنزل الله. فإن توفر له الاختيار الحر من جانب الأمة ولم يتحقق منه الحكم بما أنزل الله لم يكن حكمه حكماً إسلامياً. ومن ثم فإنه إذا ركز علم السياسة الغربى تركيزاً كبيراً على شكل الحكم، للاختلاف بين الذى يترتب عليه فى تحديد «مصدر السلطة» فإن علم السياسة الإسلامى يركز بشدة على «الحكم بما أنزل الله» لأنه هو الذى يعطى الشرعية للسلطة. وكل حكومة تحكم بما أنزل الله فهى حكومة شرعية بصرف النظر عن «الشكل» الذى تقوم عليه. وإن كانت التجريبية التاريخية تقرر أن الخلافة الراشدة هى النظام الأمثل، لأنها هى الأكمل تطبيقاً لشريعة الله.

المصلحة من النظام الذى جرّ إلى الخلاف والفرقة وإن كان فى ذاته أعدل وأقوم .  
 وليس هنا مجال وقفة طويلة أمام هذه النقطة ، لأن تصرف الأمويين كما قلنا لم  
 يكن يخالف نصا صريحا من نصوص الإسلام . ولكننا نقول إن هناك منعطفًا تاريخيا  
 هنا كان له سببه فى حياة المجتمع الإسلامى فى ذلك الحين . فقد انتشر الإسلام  
 فى سنوات قليلة فى رقعة واسعة من الأرض ، ولم تكن تلك الجموع الغفيرة التى  
 دخلت فى دين الله أفواجا قد أتيج لها من التربية الإسلامية ما أتيج للجبل الذى  
 رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه ، ومن ثم لم يكن يتوقع أن تسير  
 الحياة على ذات المستوى الرفيع الذى سارت عليه فى العهد الأول ، فى أى مجال من  
 مجالاته ، وفى السياسة بصفة خاصة ، لأن انتظام السياسة على المستوى الأعلى ليس  
 مسألة الحاكم وحده إنها هو مسألة المجتمع كله ، ومدى رقابته على أعمال الحاكم ،  
 وورده إياه إلى الحق الربانى ، وعدم الرضا منه بمخالفة ما أنزل الله . وذلك يحتاج إلى  
 مثل تلك التربية العالية التى كان عليها الجبل الأول رضوان الله عليه ، ويحتاج  
 كذلك إلى ترسيخ القواعد السياسية حتى تصيح عرفا ملزما يهتزم ضمير الناس إذا  
 خولف . وقد كان امتداد الخلافة الراشدة فترة أطول كفيلا بترسيخ تلك القواعد  
 وترسية ذلك العرف ، ولكن قدّر الله أن تعاجل الأمة بفتنة مقتل عثمان رضى الله عنه ،  
 بتدبير الأعداء الكائدين من الداخل من اليهود وغيرهم ، وما تلاها من فتنة الخلاف  
 الذى أدّى إلى القتال بين على ومعاوية ، وامتناع كثير من الصحابة رضى الله عنهم  
 من الخوض فى الفتنة خوفا من توسيع شقة الخلاف ، ثم رضاهم - بعد مقتل على  
 كرم الله وجهه - بالتغيير الذى أحدثه الأمويون ، رجاء استقرار حال المسلمين ودرء  
 الفتنة عن حياتهم ، ما دام لا يخالف نصا صريحا من نصوص الإسلام .  
 وأيا كان الأمر فقد انجلت الغاشية عن أمرين اثنين ، أثرا فى حياة الأمة تأثيرا  
 بالغا على امتداد الزمن ، وإن كانا فى أول العهد ظهرا طبيعيين جدا بإزاء الظروف  
 السياسية القائمة يومئذ :

الأمر الأول هو استقرار الملك الوراثى بدلا من الخلافة .  
 والثانى هو التخلّى التدريجى من مجموع الأمة عن مراقبة أعمال الحكام ،  
 وانصرافها التدريجى إلى أمورها الخاصة !  
 فأما الأمر الأول فليست فيه - كما قلنا - مخالفة لنص صريح من نصوص

الإسلام . ولم يكن ليحدث ضررا في الحياة السياسية الإسلامية ولا في الحياة العامة لو حافظت الأمة على مراقبتها لأعمال الحاكم ، وقيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أمرها الله ورسوله ، فإن العبرة - كما بينا - بتنفيذ شريعة الله ، لا بشكل الحكم الذي ينفذ شريعة الله :

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله . . .» (١).

«والذي نفسى بيده لتأطرنهم على الحق أطرا ولتقصرنهم عليه قصرا» (٢).  
ولكن الخطر كل الخطر جاء من اقتران الأمرين معاً في حياة المسلمين منذ العهد الأموي . الملك العضوض كما سماه الرسول صلى الله عليه وسلم من جهة ، (٣) وقعود الأمة عن مراقبة حكامها من جهة أخرى .

وأما قعود الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجال السياسي ، فربما كان بعضه اقتداءً خاطئاً بموقف الصحابة رضوان الله عليهم من الفتنة ، وهو موقف طبيعي بالنسبة لهم ولكنه ليس قدوة يقتدى به في أمور مخالفة تماماً للأمر الذي واجههم ووقفوا منه هذا الموقف . فقد كان سبب موقفهم هو الخوف من توسيع شقة الخلاف ، أي الخوف من إحداث مفسدة . أما في موقف الأمة من حكامها الذين استتب لهم الأمر ، فالمفسدة كانت هي السكوت عن نصحهم ومراقبتهم ومحاوله ردهم إلى الحق!

ولكن السبب الأكبر في هذا القعود ، والذي تقع المسئولية فيه على الأمويين أنفسهم ، هو عنف معاملة الأمويين لخصومهم السياسيين ، مما أربح الناس من معارضة أي أمر يهيمون به ، وقضى على القواعد السياسية التي كانت جارية في عهد الخلافة الراشدة قبل أن تتأصل وترسخ ، وتصبح عرفاً ملزماً للحاكم والمحكوم على السواء .

وأياً كانت المعاذير التي احتج بها الأمويون لتبرير ذلك العنف الذي سلكوا طريقه ، فقد كان هذا من البدايات الخطيرة لخط الانحراف الذي زاد اتساعاً على

(١) سورة التوبة [٧١] رواه أبو داود الترمذى .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم : «الخلافة بعدى ثلاثون عاماً ثم يأتي الملك العضوض» أورده الهيثمي في مجموع

الزوائد (٢٦٩/٧) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .



الزمن، وزاد بعداً عن الطريق السوى الذى سلكه الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم .

أمر ثالث بدأ فيه الأمويون انحرافاً آخر في خط سير الأمة المسلمة، هو البجحة في أموال بيت المال على غير النسق الذى سار عليه الخلفاء الراشدون .

لما تولى عمر رضى الله عنه فرض له المسلمون دارهم من بيت المال يقوت بها عياله . فلما استطاعت زوجته رضى الله عنها أن توفر له من القوت اليومي الضئيل ما تصنع له به فطيرة في نهاية الأسبوع، قال لها: ما دمت استطعت توفيرها فهى زيادة! رديها إلى بيت المال!

وقد كان هذا ناشئاً عن حساسية في ضمير عمر رضى الله عنه رباها فيه الإسلام، خشية أن يكون قد مس درهما واحداً من أموال المسلمين بغير حقه، وكانت هذه الحساسية نموذجاً من الأعاجيب التى صنعها الإسلام في ضمير ذلك الجيل الفريد . وكانت تطوعاً نبيلاً لم يفرضه الله على الناس فرضاً، إنما حببهم في الصعود فصعدوا إلى أعلى الآفاق .

والهبوط عن هذا المستوى الشاهق الذى لا يقدر عليه إلا الصفوة، إلى المستوى العادى الذى فرضه الله فرضاً على عباده أمر لا يستغرب، ولا يستنكر، بل يُحمد الناس إذا التزموه ولم يهبطوا عنه، لأنه هو الحد الذى علم الله أنه تستقيم به الحياة البشرية في عمومها، ومن شاء بعد ذلك أن يرتفع فله عند الله أجر المحسنين .

ولكن الذى حدث على يد الأمويين لم يكن مجرد الهبوط عن المستوى الشاهق إلى المستوى العادى، بل وقعت منهم مخالفات لما أمر الله به في توزيع الصدقات :

«إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله . والله عليم حكيم»<sup>(١)</sup> .

لقد تبجح الأمويون فأخرجوا من بيت المال عطايا وهدايا يؤفون بها القلوب لهم ولحكمتهم ولدولتهم . .

وأقصى ما يمكن أن يقال في محاولة تبرير هذا الأمر أنهم تأولوا فأخطأوا، فاعتبروا تأليف القلوب لهم داخلاً في مصارف بيت المال لأنهم هم دولة الإسلام، وتثبيتهم تثبيتاً للإسلام في النهاية .

(١) سورة التوبة [٦٠]

وهو تأول بعيد حتى لو صح أنهم قصدوه على هذا النحو، لأن المؤلفة قلوبهم يُعْطَوْنَ ليدخلوا في دين الله لا ليدخلوا في الولاء لحاكم من الحكام .

ولو جاز للأمويين أن يتألفوا القلوب لدولتهم ولحكمهم، ويرضوا نفوس المعارضين لهم، فمن أموالهم الخاصة، وكان لديهم مال وفير يملكون به شراء من أرادوا شراؤه من المعارضين . أما أن يتحيبوا إلى الناس على حساب أصحاب الحقوق، فأمر لا يجوز في عرف الإسلام . فضلا عن كونه سنة سيئة اتبعها من بعدهم، وزاد حجمها وأهداف استخدامها سوءاً مع مرور الأيام .

وأمر رابع، ربما لم يكن في نظر الأمويين انحرافاً، وربما لم يثر اعتراض أحد من المسلمين يومئذ، هو الحرص على «عروبة» الدولة إزاء الفرس بصفة خاصة، بمعنى إبعاد الفرس - المسلمين - عن تقلد مناصب الدولة، والضغط المستمر عليهم لإشعارهم أنهم دون العرب .

وربما رأى الأمويون المبرر لهذا التصرف واضحاً أمام أعينهم . فقد كان الفرس من قبل ينظرون إلى العرب نظرة احتقار وازدراء، مبعثها أنهم دولة ذات عراقية تاريخية وهيلمان، بينما العرب هم أولئك الحفاة الجفاة المتخلفون بكل مقياس من مقاييس «الحضارة» المادية التي وصل فيها الفرس إلى درجة الإفراط .

فلما جاء الإسلام تغيرت المعايير والمقاييس كلها، وذهب ربيعى بن عامر مستعلياً بالإيمان، يدوس أبسطتهم بأقدام حماره، وينظر إليهم نظرة المؤمن إلى الجاهلية، ويدعوهم إلى الدخول في الإسلام دعوة المستيقن أنه هو الأعلى وهم الأدنى .

ثم دار القتال العنيف الرهيب بين أولئك الحفاة الجفاة الذين تغيروا بين عشية وضحاها فصاروا «خير أمة أخرجت للناس» وبين الفرس أصحاب القدرة الحربية الهائلة والجيوش الضخمة والتقاليد العريقة والسلطان التليد . فلم تثبت هذه كلها أمام قوة الحق وقوة الإيمان التي انطلقت بها العصبة المؤمنة، تلك حصون الجاهلية دكا وتسويها بتراب الأرض، وتشيد في مكانها صرحاً من نوع آخر، أساسه لا إله إلا الله، محمد رسول الله .

ودخل الفرس في دين الله بعد هزيمتهم الحربية التي ما كانوا يتوقعونها على يد العرب بالذات، وبعد زوال الملك الممتد الجذور في التاريخ، الذي لم تغنه جذوره العميقة في معركة الحق، فانهار كأنها في لحظات . .

ولكن الجيل الأول ولا شك كان ينطوى على ضغينة هائلة للعرب الفاتحين، حتى وإن كان قد دخل في الإسلام. فلو أن الفرس غلبوا أمام الروم، فهنا ندان يتصارعان، ولا بأس على أحدهما أن يتلقى من الآخر لطمة قوية، فإنه يمني نفسه أنه سيعود فيتغلب عليه في الجولة القادمة! أما العرب...! وأما هذا الاكتساح الذي أزال كل شيء كأن لم يكن له وجود من قبل! فهذه لم يكن هينا على الفرس أن يتلعوها في الجيل الأول، الذي شهد أمجاد العز وذل الانكسار..

ومن هنا قال الأمويون لأنفسهم حين تولوا الحكم إنه لا بد من كبت هؤلاء حتى لا يرفعوا رءوسهم من جديد! ومن هنا كان حرصهم على «عروبة الدولة» بمعنى عدم السماح للفرس أن يتسللوا إليها من أى سبيل.

وما نستطيع أن نحكم الآن وقد انطوت تلك الصفحات العديدة من التاريخ هل كان دافع الأمويين خالصا لحفظ دين الله من أن يتسلل الحاقدون إليه فيفسدوه، أم كان هذا الأمر في أنفسهم مختلطا «بالعروبة».. لا بمعناها الشائه الذي وجد في العصر الحديث بطبيعة الحال في صورة «القومية العربية» الكافرة المنسلخة من الدين، لكن بمعنى أن العرب هم حملة هذه الرسالة، وهم الذين ينبغي أن تكون لهم الهيمنة على شئوننا لتُحفظ على صورتها الحقة بغير تحريف. وأياً ما كان الأمر فإن الفرس على يد الأمويين لم يحسوا بالتطبيق الحق لقوله تعالى :

«فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين»<sup>(١)</sup>.

ولئن كان الجيل الأول كان ينطوى على الحقد والضغينة، فإني أحسب أن الأجيال التالية لو وجدت الروح الإسلامية الحقة، روح الأخوة المبذولة من المؤمنين لإخوانهم، لزال ما كان في قلوب آبائهم من ضغن، ولأخلصوا دينهم لله، ولم يرثوا هذا الضغن ويحافظوا عليه، ويسعوا إلى الإفساد من الداخل، كما فعل الذين نطلق عليهم اسم «الشعوبيين» الذين قاموا «بالانقلاب» العباسي ضد الدولة الأموية، وهو انقلاب فارسى في الحقيقة وإن كان الحكم قد ظل للعرب فترة من الوقت - في الظاهر على الأقل - ثم نشروا سمومهم الشعبوية من داخل الدولة كما

---

(١) سورة التوبة [١١].

فعل ابن المقفع ، أو نشروا الفسق والفجور في المجتمع كما فعل بشار وأبو نواس . .  
لقد كانت «الشعوبية» الفارسية هي رد الفعل للكبت الذي زاوله الأمويون على  
الفرس ، حتى وإن يكن بحسن نية ، وحرصا خالصا على الإسلام!

\* \* \*

ثم جاء العباسيون . .

لم يجئوا بطبيعة الحال ليعيدوا عهد الخلفاء الراشدين!  
إنما جاءوا ليركبوا الخط المنحرف الذي بدأه الأمويون ثم يزيدوا في الانحراف ،  
كما هي السنة الربانية حين تقعد الأمة في مجموعها عن الأمر بالمعروف والنهي عن  
المنكر ، وأطر الحكام على الحق أطرا وأصرهم عليه أصرا . .  
لقد كان حجم الانحراف على عهد الأمويين محدودا على أى حال ، وإن بدا  
مجسما غليظا حين يقاس بعهد الذروة الذي يبدو بجانبه كل شيء قزما حين يقاس  
إليه!

لقد بقى لمجموع الأمة - ودع عنك الحكام - صدق إيمانها ، وجدية الأخذ من  
الكتاب والسنة ، وصدق الجهاد في سبيل الله . وبقى لها تحقق معنى الأمة ، وبقيت  
- في مجموعها - تتعامل بأخلاقيات لا إله إلا الله ، وبقى لها وفاؤها بالمواثيق . . وفي  
العموم بقيت روح الإسلام هي السارية في الأمة ، السائدة فيها ، وإن كان قد  
غشيها من انحراف الحكام غاشية في بعض معاني الإسلام ، فلم تعد ترى العدل  
الرباني يتحقق كما كان يتحقق أيام الجيل المتفرد ، بسبب ظلم الحكام ، ولم تعد من  
جانبها حريصة على مراقبة حكامها كما كان يفعل ذلك الجيل ، على الرغم من أن  
حكامه كانوا يقومون بمراقبة أنفسهم قبل أن تراقبهم رعيته!

واتسعت الفتوح الإسلامية حتى دق المسلمون أبواب القسطنطينية ، وامتد  
الإسلام إلى الهند شرقا وإلى الشمال الإفريقي غربا ، وقويت دولة الإسلام حتى  
أصبحت قوة يرهبها أعداؤها ويعملون لها ألف حساب . . وغلب الخير على الشر  
في ذلك المجتمع ، وبقيت مظالم الحكام ومخالفاتهم محصورة في دائرتهم ، بينما ينعم  
المجتمع في مجموعه بنعمة الإسلام ، وبالأمن والطمأنينة والاستقرار ، الذي تولدت  
عنه الحركة العلمية والحركة الحضارية كما أسلفنا من قبل .

فأما على عهد العباسيين فقد بقيت الانحرافات الأموية كلها، وزادت حدتها، ثم أضيف إليها انحرافات من نوع جديد.

فأما الملك الوراثي العضوض فقد بقى، مع إضافة مزيد من الخروج على الخط السوى. فلئن كان الأمويون قد حرصوا - من أجل تثبيت دولتهم وتمكينها - أن يختاروا من بينهم أصلحهم وأقدرهم، فإن العباسيين جعلوه وراثيا بحتا، يتولونه بالدور، ولو جاء الدور على صبي في العاشرة أو الثانية عشرة! مما أثر على قوة الدولة ذاتها - بصرف النظر عن المعانى الإسلامية في مجال السياسة - فضلا عما جرى من المؤامرات الرهيبة من أجل ولاية العهد أو من أجل تولى الملك، مما تقشعر له الأبدان! وفضلا عن اضطراب الحكام - بعد ضعف سلطانهم - إلى الاعتماد على غيرهم، والترك بصفة خاصة، مما أدى إلى تسلط هؤلاء، وإفساد كل القيم السياسية الإسلامية على الإطلاق!

وأما العنف في معاملة الخصوم السياسيين، الذى بدأه الأمويون، فقد تزايدت حدته، وتحول إلى مذابح بشعة لا يتصور صدورها عن مسلمين!

وأما البحبحة في بيت المال، التى بدأها الأمويون كذلك، فقد وصلت بعد زيادة الأموال في العهد العباسى من الزكاة والخراج والموارد الأخرى إلى صورة لا تحظر على البال. فلئن كان الأمويون قد أعطوا المعارضين ليسكتوهم ويستميلوهم إليهم، ويشترؤا ود من يجدون فى كسبه إلى صفهم تأييدا لسلطانهم. . فقد كان «الخليفة» العباسى لا يجد حرجا فى صدره أن يجيئه شاعر من «المداحين» الذين قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيتهم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب»<sup>(١)</sup> فيأمر له - لقاء أبيات فى مدحه - بائة ألف من بيت مال المسلمين!

أما «الجماهير» التى ثارت ذات يوم على عثمان رضى الله عنه من أجل مخالقات ضئيلة تأول فيها عثمان بغير منهج الشيخين من قبله، فقد صارت ترى هذا العبت الماجن بيت مال المسلمين ولا تحرك ساكناله، كأن الأمر لا يخصها على الإطلاق! فإذا كانت هذه هى الانحرافات التى بدأت أيام الأمويين، وبقيت وزادت

---

(١) أخرجه مسلم

حدثها على يد العباسيين، فقد أضيفت إليها - بحكم عوامل جديدة - انحرافات أخرى خطيرة، أودت بالحكم العباسي في النهاية، وما زالت آثارها - أو آثار منها - سارية في جسم الأمة حتى هذه اللحظة، تنتظر من يرثها منها حتى تستطيع أن تنبعث من جديد.

\* \* \*

ظهرت فتنه «الفرق» . .

ولئن كان الخوارج قد ظهوروا من قبل في العهد الأموي، وظهر المرجئة رد فعل لظهور الخوارج، وكان أمر هؤلاء وهؤلاء منبعثا من فتنه مقتل عثمان والقتال الذي دار بين علي ومعاوية، فقد تفتت الفرق تفشيا ذريعا في العصر العباسي، وكانت لها منابع خارجية في هذه المرة إلى جانب منابع الداخلية.

لقد نشطت الحركة العلمية في العصر العباسي، ونشطت معها حركة الترجمة من الإغريقية واللاتينية، وكان فيها الكثير النافع الذي تحتاج إليه الأمة بالفعل؛ ولكن المسلمين انخدعوا في لون من الفكر حسبه نافعاً لهم فنقلوه إلى العربية فكان منه شر كثير، ألا وهو الفلسفة الإغريقية.

لقد كانت تلك الفلسفة فكراً جاهلياً رغم كل إشراقاته وكل تجلياته. وما كان ينبغي لهذا الفكر الجاهلي بحال من الأحوال أن يمتزج بالإسلام، ذلك النور الرباني الخالص الذي يشرق بذاته، من مصدريه الأصليين الصافيين، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والذي عاش على إشراقته ذلك الجيل المتفرد فكان كما كان.

وأسوأ ما في ذلك الفكر هو عقلانيته التجريدية التي تحول كل شيء إلى فكرة مجردة باردة لا حياة فيها ولا حركة، فضلاً عن تضخيم دور العقل حتى يصبح هو الحكم الأخير في كل أمر من الأمور. (١)

وقد أصاب هذا الفكر المسيحية فأنشأ فيها ما يسمى «اللاهوت» وهو محاولة عقيمة للتوفيق بين خزعبلات الكنيسة العقيدية من التثليث، والبنوة المزعومة لله سبحانه وتعالى، وفكرة الخطيئة الأبدية، والصلب والفداء. . الخ وبين الفلسفة الإغريقية.

---

(١) انظر إن شئت فصل «العقلانية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة»

ولئن كان النصارى - في محاولتهم لإضفاء العقلانية على تلك الخزعبلات التي لا يستسيغها العقل - قد لجأوا إلى الفلسفة الإغريقية لعلها تعينهم، فتخطوا، وفشلوا، وظل لا هوتهم يحمل ذات الخلط الذي تحمله مقررات الجامع «المقدسة»، فما كان المسلمون في حاجة إلى مثل هذا السلوك، وهم الذين يحملون النور الصافي من منابعه الصافية المستغنية بذاتها عن كل مدد من خارجها ليس من طبيعتها.

ولكن الفتنة بالفلسفة من جهة، وفتح الخلفاء العباسيين المجال من جهة أخرى للمناظرة بين علماء المسلمين وبين اليهود والنصارى في أمر الإسلام، جعل «المثقفين» في ذلك العصر يتجهون إلى الفلسفة الإغريقية لتعينهم في هذا الجدل، حتى أصبحت هي «المودة» الفكرية للعصر كله. ومن لوثة الفلسفة الإغريقية والعقلانية الإغريقية نشأت فرق كثيرة وتخطبات كثيرة في فكر المسلمين.

ويذكر الناس المعتزلة نموذجاً للغزو الفكرى الإغريقى في فكر المسلمين، حيث جعلوا العقل هو المحكم في الوحي، وجعلوه هو المرجع الأخير في كل أمر من الأمور حتى العقيدة.

ولكن المعتزلة لم يكونوا وحدهم الذين تأثروا بالعقلانية الإغريقية وانحرفوا بها عن عقيدة الإسلام الصحيحة؛ فكل الذين خاضوا في قضايا الصفات من «المتكلمة» وفي قضايا القضاء والقدر والجبر والاختيار. . كان اعتمادهم في «الكلام» الذى قالوه، على تلك العقلانية التى تعطى العقل أكبر من حجمه الحقيقى، وتجعله هو المرجع وهو الحكم في كل قضايا الوجود، فانزلقوا إلى تصورات لا هى إسلامية صافية، ولا كانت العقيدة الإسلامية الواضحة البسيطة السمحة في حاجة إلى شىء منها، ولا هى قدمت أى خدمة لتلك العقيدة، بل حولتها من تصور صافٍ ووجدان حى وسلوك عملى يقصد به مرضاة الله، إلى قضايا ذهنية تجريدية باردة، لا تزيد الإيمان إن لم تبعث على إثارة الشكوك والشبهات المناقضة للإيمان، ولا تحرك الوجدان، ولا تؤدى إلى سلوك واقعى، لأن من شأن العقلانيات أن تبدأ في الذهن وتنتهى في الذهن، وتجيد تحقيق غايتها في ذلك الجهد الذى يبذله الذهن، دون أن تخرج من هذه الدائرة المغلقة إلى الواقع

الحق عن طريق الوجدان والسلوك . وورث العالم الإسلامي - مع الأسف - ذلك التراث الإغريقي - وإن لبس ثوباً إسلامياً - على أنه «العقيدة الإسلامية» أو على أنه «الدراسة العلمية للعقيدة الإسلامية» كأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا «هم» أصحاب هذه العقيدة وأكثر الناس فهماً لها وقرباً من حقيقتها . . دونها حاجة إلى هذه المعاملات الذهنية الباردة السخيفة . وما زال هذا التراث الإغريقي - في ثوبه الإسلامي المزيف - هو الذى نقدم من خلاله العقيدة الإسلامية للدارسين في كل معاهدنا الإسلامية من المحيط إلى المحيط !

وهذا كله فضلاً عن «الفرق الباطنية» التى انتشرت في العصر العباسى بصفة خاصة ، ومدت لها جذورها في الأرض الإسلامية ، وكونت دولاً أو دويلات ، وشغلت المسلمين بمحاربتهم ومطاردتهم بضعة قرون ، وكانت - في جملتها - ذات صلة خفية باليهود المندسين في العالم الإسلامى . . تتظاهر بالإسلام وهى تعمل في واقع الأمر لتقويض الإسلام ، وتترك شيئاً من معتقداتها في كل مرة في أذهان العوام !

\* \* \*

ولم تكن هذه وحدها جناية الفرق . .

فلئن كانت القضايا الذهنية التجريدية هى مشغلة «المثقفين» الذين أغوتهم الفلسفة الإغريقية فصنعوا بها «لاهوتاً» إسلامياً كما صنع النصراني من قبل في لاهوتهم المسيحى . . فإن الفكر الإرجائى - بجميع شعبه وألوانه - كان - على امتداد الزمن - أشد خطراً على العقيدة الإسلامية والحياة الإسلامية من كل معاملات الفلسفة التى دخلت في دراسة العقيدة .

القول بأن الإيمان هو التصديق ، أو هو التصديق والإقرار - على أحسن الفروض - وإخراج العمل من مسمى الإيمان ، كان من أخطر المزالق التى أدخلتها الفرق على تلك العقيدة الصافية ومفهومها الصحيح .

وإذا كان هذا الانحراف الخطير في فهم عقيدة التوحيد لم يؤثر لتوه في الحياة الإسلامية ، لأن الدفعة الحيوية الهائلة التى أطلقها الإسلام في واقع الحياة كانت ما تزال تتدفق في صورة «عمل» واقعى بمقتضى هذه العقيدة ، فإنه - تدريجياً - مع الميل البشرى الطبيعى إلى التفلت من التكليف ، حدث تقاعس مستمر عن العمل بمقتضى هذا الدين ، اكتفاء بأن حقيقة الإيمان مستقرة في القلب ، ما دام



الإنسان قد صدق وأقر بأنه لا إله إلا الله! وأنه ما دامت هذه الحقيقة مستقرة في القلب فقد «تم» الإيمان المطلوب، ولم يعد يضر مع الإيمان شيء! إن إخراج العمل من مسمى الإيمان في هذا الدين الذي نزل لينشئ «واقعا» معيناً تحكمه شريعة الله ومنهجه للحياة، أمر مذهل في مجرد تصوره، فضلا عن أن يصدر عن «علماء» معتبرين في تاريخ هذه الأمة!

كيف يتصور أمر هذا الدين حين يكون تصديقا بالقلب وإقراراً باللسان، دون عمل بمقتضى هذا التصديق والإقرار في واقع الحياة؟! أهذا أنزل الله دينه وأرسل رسوله صلى الله عليه وسلم؟! لمجرد أن يصدق الناس بقلوبهم ويقروا بالستهم، ثم يتركوا واقع الحياة تحكمه الجاهلية التي لا تصدق بقلبها ولا تقر بلسانها؟! وكيف يغيرون ذلك الواقع الجاهلي بغير «عمل» واقعي إيجابى ملموس مشهود، تكون نتيجته إزالة الباطل بعقائده الفاسدة، ونظمه الهابطة التي تعبد الناس لغير الله، وأنماط سلوكه المختلة التي تبتدعها شياطين الإنس والجن في كل جاهلية؛ وإنشاء النظام الربانى بدلا منه، بعقائده الصحيحة، ونظامه القويم المؤسس على شريعة الله، وأنماط سلوكه المستمدة من أخلاقيات لا إله إلا الله، المحكومة بميزان الله؟! وكيف يحافظون على النظام الربانى - بعد إنشائه - من عدوان الجاهلية الدائم، ومحاولتها الدائبة لنقض النظام الربانى، وإقامة حكم الطواغيت بدلا منه، بوسائلها الدائمة التي تستخدمها، من عدوان بالجيش، وعدوان بالأفكار الباطلة والمعتقدات، وعدوان بالأنظمة التي لا تحكم بها أنزل الله، وعدوان بالأنماط المبتدعة من السلوك؟! المبتدعة من السلوك؟! المبتدعة من السلوك؟! المبتدعة من السلوك! كل ذلك يتم بمجرد التصديق بالقلب والإقرار باللسان؟! يا لها من مهزلة مذهلة حين تلتصق بالإسلام!! وكيف يستقيم هذا مع قوله تعالى:

«ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب. من يعمل سوءا يجز به، ولا يجدر له من دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا»<sup>(١)</sup>.

(١) سورة النساء [١٢٣-١٢٤]

بل كيف يستقيم مع تعاليم القرآن كلها من مبدئها إلى منتهاها، التي توجه الناس للاعتقاد الصحيح، والعمل بمقتضى ذلك الاعتقاد الصحيح؟! ومن أين إذن جاء الصحابة رضوان الله عليهم - ومن تبعهم بإحسان - بهذه «الممارسة» الهائلة لهذا الدين في عالم الواقع، وهي - على ما يقول الفكر الإرجائي - خارجة من مسمى الإيمان، لأنها كلها «عمل» بالجوارح وبالجنان؟! هل قاموا بها تطوعاً زائداً من عند أنفسهم لم يكلفهم به الله؟! أم قاموا بها لأنها هي حقيقة هذا الدين، الذي لا تقوم له غيرها حقيقة في واقع الأرض ولا عند الله؟! ثم خذ الواقع البشرى نفسه، وظواهر النفس الإنسانية كما خلقها الله . . .

أيمكن أن يكون في النفس السوية إيمان بشيء، ثم لا يكون في واقع حياتها شيء يدل على هذا الإيمان؟ إلا أن يكون إنسان قد أصيب «بانفصام الشخصية» وهي حالة غير سوية، تسقط عن صاحبها التكليف!

حقيقة إنه يمكن أن يكون هناك إيمان، ويصاحبه عمل مناقض لمقتضى ذلك الإيمان، نتيجة ضغط الدوافع النفسية التي قال عنها الله سبحانه وتعالى إنها شهوات مزينة للناس:

«زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب»<sup>(١)</sup>.

ولكن هذا الأمر لا يتم بلا سبب وبلا دلالة! فأما سببه - كما بينا - فهو هذا الضغط الواقع على نفس الإنسان من دوافعه المركبة فيه.

وأما دلالته فهو أن الإيمان لم يكن من القوة بحيث يقف لهذه الدوافع ويتغلب على دفعتها الحادة.

وهنا تحدث المعصية التي لا تنفى أصل الإيمان، ولكنها تحدث في غيبة مؤقتة عن تأثير هذا الإيمان كما وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا يزننى الزانى

---

(١) سورة آل عمران [١٤].

حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن...»<sup>(١)</sup>.  
ومن هنا يكون هناك ارتباط وثيق بين قوة الإيمان وضعفه، وبين العمل الذى يقوم به الإنسان فى أى لحظة من لحظاته: أهو طاعة أم معصية؟ وأى درجة من درجات الطاعة، وأى درجة من درجات المعصية؟

وخلص لنا من هذا كله حقيقتان:

أن العمل مرتبط بالإيمان.

وأن الإيمان يزيد وينقص. يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى (ويتنقى تماما إذا خالطه الشرك الأكبر).

وتلك هى الحقيقة - النفسية والدينية - التى عبث بها الفكر الإرجائى حين أخرج العمل من مسمى الإيمان، واعتبر الإيمان هو مجرد التصديق، أو هو التصديق والإقرار فى أحسن الأحوال!<sup>(٢)</sup>.

وما من شك أن هذا الفكر كان فى مبدئه عدوى من الفلسفة والمنطق البعيدين عن روح هذا الدين. وأنه كان عند «علماء» المرجئة الأوائل مجرد «أفكار» تجريدية تدور فى «الأبراج العادية» ولا تتصل بالواقع! فقد كانوا هم أنفسهم من الأتقياء الفضلاء العاملين بمقتضى هذا الدين فى واقع حياتهم، فلا هم تقاعسوا عن العمل ولا دعوا إلى التقاعس عنه. بل إنهم حين كانوا يكتبون فى الفقه، كانوا يكتبون بوعى كامل أن هذا الدين اعتقاد وعمل لا ينفصلان. ولكنها لوثة الفلسفة والمنطق والأبراج العاجية التى يحدث فيها ما يحدث من الخلل والانحراف والاضطراب.

ولكن خطورة هذا الفكر تزايدت مع امتداد الزمن، وبدء التفلت من التكليف..

إن التفلت من التكليف - كما أشرنا من قبل - أمر بشرى طبيعى:

«ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما»<sup>(٣)</sup>.

وهذا المرض البشرى له علاج ربانى مذكور فى كتاب الله:

«وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين»<sup>(٤)</sup>.

(١) سبقت الإشارة إليه (٢) انظر إن شئت فصل «مفهوم لا إله إلا الله» من كتاب «مفاهيم ينبغي أن تصحح».

(٣) سورة طه [١١٥]. (٤) سورة الذاريات [٥٥].

والتذكير المشار إليه في الآية ليس هو التذكير بأصل الإيمان - فالآية صريحة في وصف المطلوب تذكيرهم بأنهم مؤمنون - إنما يكون التذكير للعمل بمقتضى الإيمان، لأنه هو الذى يغفل الناس عنه بفعل ثقله الشهوات المركبة في النفوس، فإذا تم التذكير استقام الأمر، وعاد الإيمان إلى وضعه السوى: اعتقاد في القلب وعمل في واقع الحياة.

ولكن بدلا من أن يحدث التذكير، جاء الفكر الإرجائى ليرت على لحظة الغفلة، ويطمئن الغافلين أنهم مؤمنون، ما دامت قلوبهم مستقرا فيها الإيمان! وعلى امتداد الزمن زادت المساحة التى يغطيها الفكر الإرجائى! فحين كان العمل - مثلا - يغطى تسعين في المائة من الساحة، كان الفكر الإرجائى يغطى العشرة في المائة التى انحسر عنها العمل! فلما انحسر العمل خمسين في المائة غطى الفكر الإرجائى الخمسين! فلما انحسر العمل كلية غطى الفكر الإرجائى الساحة كلها، وجاء في العصر الأخير من يقول: «من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن، ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام»!!

وكان هذا - في العصر الأخير خاصة - من أشد البلايا التى ابتلى بها الإسلام!

\* \* \*

من أشد انحرافات العصر العباسى كذلك، الترف الذى أصاب الحياة بتأثير المال المتدفق من كل اتجاه . . .

كان الترف قد بدأ يظهر في أواخر العصر الأموى، ولكنه كان ما يزال محدود الصورة محدود النطاق. وكان سببه بدء تدفق المال في أيدي الناس مع الهبوط التدريجى عن مستوى الذروة الذى كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم . . . لقد جاء مال على عهد عمر رضى الله عنه كان يعتبر بالقياس إلى ذلك الوقت شيئا خياليا لا يتصور!

جاء عامل عمر على البحرين يسلم مال الخراج والناس في صلاة المغرب، فقال له عمر: كم معك؟ قال خمسمائة ألف! قال: تدرى كم خمسمائة ألف؟! قال: نعم! مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف ومائة ألف! قال: اذهب فأنت ناعس! وائتنى في الصباح! فلما جاءه في الصباح وعلم منه أنها خمسمائة ألف حقيقة

صعد المنبر فقال: أيها الناس! لقد كثرت المال! فإن شئتم وزننا لكم وزنا، وإن شئتم كلنا لكم كيلا!

ولكن هذا المال ذا المقدار «الخرافي» بالقياس إلى وقته لم يفسد المسلمين وهم على مقربة من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وولى أمرهم وقائدهم عمر رضى الله عنه، الذى يرد إلى بيت المال ثمن الفطيرة التى أفضلتها زوجته رضى الله عنها من القوت الضئيل الذى يعيش عليه هو وعياله. كما أن عمر رضى الله عنه حبس رءوس الصحابة رضوان الله عليهم عن الخروج إلى البلدان للتجارة، وأبقاهم إلى جواره ليعاونوه فى المهمة التى انتدب لها، وهى إقامة حكم الله فى الناس.

أما فى أواخر العهد الأموى، وأما فى العصر العباسى بصورة خاصة، فقد كان المال مفسدا إلى حد الإتلاف (١)

فأما الأسرة الحاكمة فقد كان لها «مخصصات» من بيت المال ينفقون منها ما ينفقون على مستوى البذخ المبالغ فيه، ومع ذلك يفضل منها ما يدعو إلى إنشاء «بيت المال الخاص»! تتراكم فيه الأموال عاما بعد عام!

وكان الوزراء - من أموالهم الخاصة ومما يهب لهم الخلفاء والأمراء - يعيشون فى ذات الجو الباذخ الذى تعيش فيه الأسرة الحاكمة. وكانت ثروات التجار خرافية حقا بالقياس إلى ثراء العالم كله فى ذلك الحين، إذ كانت التجارة العالمية فى وقتها فى أيديهم من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وتكفى رحلات السندباد - وإن تكن أسطورية - لإعطاء صورة عن عالم التجار فى ذلك الحين. (٢)

وهكذا امتلأت الجيوب وفاضت بالنقود، بينما القلوب تغفو، والأيدى ترخى قبضتها من حبل الله المتين، لذلك انتشر الترف المفسد الذى تروى عنه كتب الأدب وكتب التاريخ.

خذ هذا النموذج من الترف فى المشرق الإسلامى:

«كان العباسيون يعنون عناية فائقة بحفلات الزواج. ويتجلى إسراف خلفاء العصر العباسى الأول وبذخه مما فعله المهدي عند زواج ابنه هارون (الرشيد)

(١) وشبيه به ما حدث فى الأندلس كذلك.

(٢) شخصية السندباد أسطورية وكذلك رحلاته، ولكنها ترمز إلى واقع كان قائما بالفعل.

بالسيدة زبيدة . فقد أقام يوم زفافها وليمة لم يسبقه إليها أحد في الإسلام ، وهب للناس في هذا اليوم أواني الذهب مملوءة بالفضة وأواني الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر، وزينها بكثير من الحلى والجواهر، حتى إنها لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من هذه الحلى والجواهر» .

«ويقول الشابشتي إن المأمون أمهر بوران ١٠٠,٠٠٠ (مائة ألف) دينار و٥٠,٠٠٠,٠٠٠ (خمسين ألف ألف) درهم أى أكثر من نصف مليون دينار، وأنه أوقد بين يديه في تلك الليلة ثلاث شمعات عنبر، وكثر دخانها فقالت زبيدة: إن فيما ظهر من السرف الكفاية، ارفعوا هذا الشمع العنبر وهاتوا الشمع . ولما جلست بوران على المأمون نثر عليها حباراً كان في كفه، فوقع على حصير منسوج من الذهب، فقال: لله در الحسن ابن هاني، حيث يقول:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء درعلى أرض من الذهب  
«وامتنع من كان حاضراً أن يلتقط شيئاً، فقال المأمون، أكرمها، فمدت زبيدة يدها فأخذت حبة، فالتقط الباقي من كان حاضراً . كما ذكر الشابشتي أن نفقات الزواج بلغت من مال الخليفة المهدي ١,٣٨٨,٠٠٠ ديناراً عدا مبلغ كبير أنفقه الرشيد نفسه .

«وقد أكدت السيدة زبيدة لأبي عبدالله المأمون، وكان أخا الأمين ابن السيدة زبيدة من أبيه الرشيد كما نعلم، أن نفقات هذا الزواج كانت تتراوح بين خمسة وثلاثين مليون درهم وسبعة وثلاثين مليون درهم .

«وقد فاق المأمون أباه الرشيد في كرمه وإسرافه، يدلنا على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل . ويقول الطبرى إن المأمون أمر للحسن بن سهل وهو في طريقه إلى بوران بعشرة ملايين من الدراهم، ومنحه خراج إقليم فم الصلح . ويقول ابن خلكان إنه أعطاه خراج إقليم فارس والأهواز سنة واحدة .

«وقد وصف المسعودى إسراف الحسن بن سهل وبذخه في هذا الزواج فقال: ونثر الحسن في ذلك من الأموال ما لم يثره ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا في إسلام . وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوارٍ وصفات دواب وغير ذلك . فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها، فيمضى إلى الوكيل

الذى نصب لذلك، فيقول له ضيعة يقال لها فلانة الفلانية، من طسوح كذا، من رستاق كذا، وجارية يقال لها فلانة الفلانية، ودابة صفاتها كذا. ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافح المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده، وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده، وعلى المكارين والحمالين والملاحين، وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق وغيره...»<sup>(١)</sup>.

وخذ هذا النموذج أيضاً من أيام العباسيين، عند زواج قطر الندى بنت خمارويه من الخليفة المعتضد:

«وقد استطاع خمارويه بها هياها له بيت مال مصر أن يبذل الأموال الضخمة بذل من لا يخشى فقرا ولا يهاب عوزا. فقد ذكر ابن دقماق أنه «حمل معها ما لم ير مثله ولا سمع به إلا في وقته» وذكر المقرئى (خطط ج ١ ص ٣١٩): «أنه لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس إلا حمله معها». فمن هذا الجهاز ذكة من أربع قطع من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك، في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجواهر لا يعرف لها قيمة، ومائة هون من الذهب لدق الطيب، وألف تكة ثمن الواحدة منها عشرة دنانير. وقد أمر خمارويه بعد أن فرغ من الجهاز بأن يبني على رأس كل مرحلة قصر أشبه بالمنزل أو مكان الاستراحة تنزل فيه وهى فى طريقها إلى بغداد. وأعدت هذه القصور بكل ما تحتاج إليه، فكانت فى سفرها تتمتع بجميع وسائل الراحة وأسباب الرفاهية كما لو كانت فى قصر أبيها. أما مبلغ نفقات هذا العرس فلم تقف عليه فى مصدر من المصادر التى رجعنا إليها. وقد ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ١٧٤) أن صداقها كان مليون درهم. وليس هذا بالشىء الكثير بجانب ما أنفق على تجهيزها، إذا علمنا أن ابن الجصاص الجوهري الذى عهد إليه بإعداد الجهاز نال جائزته وهى أربعمائة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ما تحتاج إليه العروس».

وهذا النموذج من الأندلس:

«ومن قصور الأمويين فى الأندلس القصر الذى بناه المأمون بن ذى النون

---

(١) عن كتاب «تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٢ ص ٤٤٢-٤٤٣، الطبعة السابعة ١٩٦٤.

بظليطة، وقد أنفق على بنائه أموالاً ضخمة، وجعل في وسطه بحيرة في وسطها قبة من زجاج ملون منقوش، وجلب الماء إلى القبة بحيث كان ينزل من أعلاها ويحيط بها من كل جوانبها، فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله، وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب..»<sup>(١)</sup>.

تلك مجرد نماذج سريعة من الترف والسرف في حياة العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس، وغيرها كثير كثير. مما أصاب الناس بالترهل والاستغراق في متاع الأرض.

\* \* \*

وبدأت «الحضارة» تنحرف عن مفاهيمها الإسلامية..

حقاً لقد أبدعت هذه الحضارة في المشرق العباسي والمغرب الأموي (في الأندلس) بدائع في العمارة ما تزال آثار منها باقية حتى اليوم، تشهد بالبراعة الفائقة، والتقدم في الهندسة والتكنولوجيا وغيرها من العلوم، ولكن جنوحها إلى الترف، وشغلها الناس بالحياة الدنيا عن الآخرة، وبالمتاع الحسى عن مقتضيات الجهاد في سبيل الله.. لم يكن يسير مع روح الإسلام، إنما كان انحرافاً أدى إلى نتائجه الحتمية بعد فترة من الزمان.<sup>(٢)</sup>

ولقد صاحب هذا الترف - وكان جزءاً منه - فنتتان أخريان، إحداهما هي كثرة الجوارى، والثانية هي «الجوارى المغنيات» اللواتي ملأن قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والأغنياء من التجار..

لقد تدفقت الجوارى على العالم الإسلامي بحكم الحروب القائمة بينه وبين أعدائه، وأصبحن تجارة رائجة في الأسواق. ومع سلامة الأصل في وجودهن، فإن روح الترف التي سادت المجتمع جعلت وجودهن يضيف إلى الترف ترفاً وإلى الفساد فساداً. وأصبحت فنتهن كفتنة المال..

(١) المرجع السابق، ج ٣ ص ٤٥٧ - ٤٥٨.

(٢) ليس معنى هذا بطبيعة الحال أن كل مجالات الحضارة قد انحرفت أو أنها انحرفت دفعة واحدة. فقد بقي خير كثير - كما سيبيء - لأنه ظل محتفظاً بالقيم الإسلامية. ولكن - في النهاية - حين غلب الانحراف على الأصل وقع الانهيار الحتمي حسب سنة الله.



وأخطر ما كان من أمرهن على أى حال هو الدور الخبيث الذى لعبته فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء . فضلا عن روح «اللهو» التى سادت هذه القصور من وجودهن ، وشغلت أصحابها عن جديات الأمور ومعاليها ، فقد كان بينهن يهوديات ونصرانيات ينطوين على حقد خبيث على الإسلام ، وينطلقن من هذا الحقد - وهن فى داخل القصور - إلى إثارة الفتن والمؤامرات والدسائس التى تشغل الحكام بمشكلاتهم الخاصة عن سياسة الرعية ومسئوليات الحكم الكبرى التى ينبغى أن يشغل نفسه بها كل قائم بالحكم ، فضلا عن الحاكم المسلم الذى يطبق شريعة الله !

وفى جو الترف العام ، وفى وجود الجوارى بأعداد وفيرة ، وجدت الظاهرة الأكثر إفسادا وأكثر تلهية وهى التى أطلق عليها فى تاريخ الأدب ظاهرة «الجواري المغنيات» ، وكانت فتنة منطقية فى وجودها وفى آثارها مع الجو العام السائد فى ذلك الحين . . فما دام «الطرب» مباحا فى القصور ، والغناء جزء من الطرب ، وإذا كان من أنثى فهو أكثر إطرابا ، فقد أصبحت هناك «صناعة» يتعيش منها ناس فى ذلك المجتمع ، هى البحث عن الجوارى ذوات الصوت الصالح للغناء ، وتدريبهن عليه ، وتحفيظهن ما يطربن به الرجال ، ثم بيعهن ، أو الاحتفاظ بهن عند مدربهن لإدارة حفلات الطرب فى بيته أو فى قصر من قصور المترفين واللاهين . .

ويمتد الطرب من العشاء إلى ما بعد منتصف الليل ، مع الشراب أو بدونه ، وغالبا ما يكون معه ، ويتلهى الناس عن ذكر ربهم وعن ذكر الجهاد فى سبيل الله ، ويقومون فى الصباح - إن قاموا - يحلمون بالمزيد من الطرب والمزيد من الحفلات ! وكان حتما بعد ذلك أن يحدث الانهيار!

حقيقة إنه لم يحدث دفعة واحدة ، فقد استغرق أكثر من قرنين من الزمان ، وحتى حين انهارت الدولة فإن الإسلام لم يزل من الأرض ، وذلك لعدة عوامل ينبغى أن توضع فى الحساب .

لقد بدأ الفساد فى العاصمة - بغداد - فى قصور الخلفاء والأمراء أولا ، ثم فى قصور الأغنياء عامة ، حتى أصبح «عملة سارية» فى العاصمة لا ينكره أغلب الناس سواء شاركوا فيه أم لم يكن لهم فيه نصيب . ولكن بقية الأرض الإسلامية لم تكن متأثرة بهذا الفساد المحلى فى بادئ الأمر ، لأنها كانت ما تزال تمارس الإسلام بالجدية التى يقتضيها الإيمان بدين الله .

ثم أخذ الفساد يمتد من عاصمة الخلافة إلى عواصم الأقاليم بالعدوى . . .  
وتلك سنة ربانية تجعل الفساد « يظهر » في الأرض حين يتقاعس الناس عن الأمر  
بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما كان حادثاً في المجتمع العباسي .  
« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا  
لعلهم يرجعون » (١) .

وحين لا يرجعون يظل الفساد ينتشر ويتأصل حتى يحدث الانهيار . .  
وقد ظل الفساد - في أكثر من ميدان - ينتشر ويتأصل ، ويأكل كل حين قطاعاً  
جديداً من المجتمع ، حتى انهارت الدولة العباسية على يد التتار ، كما انهارت  
الأندلس في الغرب على يد الصليبيين .  
ولكن « الإسلام » كان باقياً ما يزال . .

كانت جذوة العقيدة حية في النفوس . . علاها الرماد نعم بتأثير المعاصي والبدع  
والمنكرات ، والانصراف عن الجذ الواجب في أخذ الدين ، ولكنها حية . . تنتظر  
من ينفخ الرماد عنها لتشتعل من جديد . . فما إن جاء صلاح الدين يقول للناس  
إنكم هزمتم أمام الصليبيين لأنكم ابتعدتم عن الله ، ولن تنصروا حتى تعودوا  
إليه . . وما إن جاء قطز يصيح صيحته المشهورة : وإسلاماه ! حتى اشتعلت الجذوة  
من جديد ، وانتصر المسلمون على الصليبيين في مصر والشام ، وكانت القمة  
« حطين » ، وانتصروا على التتار في « عين جالوت » التي كانت بدء تحول ضخم في  
التاريخ ، هو دخول التتار أنفسهم في الإسلام ، وتحولهم فيما بعد إلى جنود من  
أصلب المدافعين عن الإسلام !

انهارت « الدولة » العباسية لأنها كانت أفسد من أن يقومها الإصلاح . ولكن  
« الأمة الإسلامية » كانت ما تزال تزخر بخير كثير على الرغم من كل عناصر الفساد  
التي تسربت خلال الحكم العباسي ، فكانت قميئة بأن تعيش عدة قرون أخرى  
وتمثل جولة جديدة في التاريخ .

وانهارت « الدولة » الإسلامية في الأندلس ، وطرده المسلمون بوحشية بالغة ،  
وانمحى الإسلام من الوجود في تلك البقعة من الأرض بعد تعذيب وحشي قامت

---

(١) سورة الروم [٤١] .

به محاكم التفتيش زهاء قرنين كاملين من الزمان . . ولكن برزت إلى الوجود في مكان آخر دولة إسلامية جديدة فتيّة قوية بقيت ممكنة في الأرض زهاء خمسة قرون .

\* \* \*

ولكن قبل أن نتحدث عن دولة الخلافة الثالثة بما لها وما عليها، ينبغي أن نذكر انحرافاً آخر حدث في المجتمع العباسي، وظل باقياً بعد انهيار الدولة العباسية، بل إنه تغلغل في الدولة الجديدة منذ مولدها، وكانت له آثاره الخطيرة في حياة الأمة الإسلامية حتى انهارت تلك الأمة ذاتها في العصر الأخير . . ذلك هو الصوفية . .

نشأت الصوفية ردّاً فعلٍ للترف الذي غشى المجتمع العباسي . . فإن «المتطهرين» من ذلك المجتمع، الذين هالهم الفساد الذي يسرى في المجتمع من الترف والمجون، والانصراف عن ذكر الله وعن الآخرة، أرادوا أن ينجوا بأنفسهم، فجمعوا أطراف ثيابهم وتسللوا من هذا المجتمع الفاسد، ليعيشوا حياة نقيّة طاهرة . . مع الله .

وبصرف النظر عما دخل في الصوفية من أفكار - ودفعات - يهودية ونصرانية ومجوسية وهندوكية . . فما بنا أن ننكر أن دافعها الأصلي كان هو اعتزال الفساد السارى في المجتمع، والخلوص إلى حيث الطهارة والنقاء .

ولكن الصوفية ذاتها نزعة منحرفة عن المنهج الإسلامي الصحيح .

فلئن كان فيها نزوع إلى تزكية الروح - وهو من الإسلام - ونزوع إلى الترفع عن متاع الأرض - وهو من الإسلام - ونزوع إلى ذكر الآخرة - وهو من الإسلام - فإن فيها سلبية وانعزالية ليست من الإسلام، وإهمالا للحياة الدنيا ليس من الإسلام .

إن الصوفية في حقيقتها عملية «هروب» من مواجهة الواقع ومجالدته . . هروب إلى «عالم خاص» من صنع الوجدان، ينعم فيه الإنسان «بمشاعر» القرب من الله - وهماً أو حقاً - فيقعد عن «العمل» اكتفاء بتلك المشاعر التي تختصر له الطريق!

إن «الأعمال» وسيلة للقرب من الله . . ولكن ما حاجة «الواصل» إلى الوسيلة وقد وصل بالفعل؟!!

كذلك يقعد الصوفية عن العمل والكدح في واقع الحياة الدنيا، كما يقعدون عن مجالدة الواقع المنحرف لرده إلى سواء السبيل، ويكتفون بتلك المشاعر التي تخيل

إليهم أنهم قرييون من الله، واصلون إليه، عائشون في حضرته، سابعون في نوره. . فلا يبتغون وراء ذلك شيئاً لأنه ليس وراء ذلك شيء!!

إنها مشاعر يمكن بالفعل أن تستغرق حس الإنسان فيغرق فيها ولا يفيق . ثم إن التدريب الروحي يفتح للإنسان عالماً من الأعاجيب . فكما أن التدريب الجسدي يعطى الإنسان قوة وقدرة، واستمئاعاً بتلك القوة والقدرة، وكما أن التدريب العقلي ينشط الذهن ويكسبه قدرة على الاستيعاب والفهم، واستمئاعاً بتلك القدرة كذلك، فكذلك التدريب الروحي يعطى الإنسان شفافية وإشراقاً، وانسياحاً وراء السدود والحواجز الحسية إلى عالم فسيح لا تحدّه حدود، واستمئاعاً بذلك كله يغرى بالمزيد!

ولكن الإسلام لا يقبل تلك «الغيبوبة»!  
لقد جاء الإسلام «لمهمة» معينة في الأرض .  
«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» . (١)

وقيام الناس بالقسط لا يتأتى بمجرد الرغبة في ذلك ولا بمجرد التمني، كما أنه لا يتم شيء في حياة الإنسان كلها بمجرد الرغبة ولا بمجرد التمني، إنما لابد من جهد يبذل لتحقيق الرغبة، وتحويل الأمنية إلى واقع محسوس .  
والمسلمون بالذات هم الذين حملهم الله مسئولية «العمل» لإخراج البشرية كلها من الظلمات إلى النور بمقتضى الكتاب المنزل إليهم :  
«ألر، كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور . .» (٢) .  
«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» (٣) .

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» (٤) .

«كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» (٥) .

---

(١) سورة الحديد [٢٥] (٢) سورة إبراهيم [١]  
(٣) سورة البقرة [١٤٣] (٤) سورة آل عمران [١٠٤]  
(٥) سورة آل عمران [١١٠]

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - الذى هو خلاصة حركة الدين فى واقع الأرض - جهد محسوس يبذل فى واقع الحياة، وموقف إيجابى من كل شئون الحياة .

وهنا مفرق الطريق بين الصوفية وبين الإسلام!  
الصوفية انعزال سلبى، والإسلام مواجهة إيجابية.  
فى الإسلام دعوة صريحة إلى الترفع عن متاع الأرض:

«زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم : للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إنا آمانا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار»<sup>(١)</sup> .

وفى الصوفية كذلك دعوة إلى الترفع عن متاع الأرض والاكتفاء منه بأقل القليل .

ولكن فىم تنفق الطاقة الهائلة المتجمعة فى النفس من ممارسة هذا الترفع عن متاع الأرض؟

فى الإسلام تنفق الطاقة فى تحقيق «القيم العليا» فى دنيا الواقع، وفى الصوفية تنفق فى تحقيق تلك القيم فى سبحات الروح وإشراقات الوجدان!  
إحداهما تصلح الواقع بالفعل . تصلح الفرد والمجتمع، وترفعهما من الواقع الأدنى المتمثل فى المجال الحسى الغليظ، إلى الواقع الأعلى الذى تنطلق فيه كل طاقات الإنسان: جسده وعقله وروحه، للقيام بمهمة الخلافة، وعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى، التى هى حقيقة «العبادة» بمعناها الشامل الواسع، التى يتحقق بتحقيقها الكيان الأعلى للإنسان .

والأخرى تترك الواقع بكل ما فيه من سوء، لا تتعرض لإصلاحه، وتنعزل عنه فى محاولة لإصلاح الذات، محاولة قد تنجح فى جانب من الجوانب - هو الجانب الروحى - ولكنها تفقد الإنسان توازنه الذى خلقه الله عليه وخلق له، وتفقد واقعيته وإيجابيته، فضلا عن صرفه عن القيام بالتكاليف التى فرضها الله «ليقوم الناس بالقسط» وليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

(١) سورة آل عمران [١٤-١٦] .

أرأيت لو أن طاقة كامنة يمكن بها استثمار قطعة واسعة من الأرض، تنزع منها حشائشها الضارة، وتحراثها وتسقيها، وتستنبت فيها البقول والأشجار، والورود والأزهار، ليعيش من حصيلتها مجموعة من الناس ويستمتعوا بطبيعتها، أنفقت في حرث ركن منعزل من الأرض، وترك سائرها لتنتشر فيه الحشائش والحشرات ويأوى إليه شذاذ الآفاق . .

أى تبيد للطاقة . . وأى صرف للجهد عن الإصلاح؟!

ذلك مثل الصوفية في تبيد الطاقة البشرية وإن ظنت أنها تجمعها وتركزها! وذلك مثلها في صرف الجهد عن إصلاح الحياة البشرية وإن ظنت أنها تقوم بالإصلاح!

إن الإنسان - مهما فعل - لن يستطيع أن يعبد الله على طريقة الملائكة: «يسبحون الليل والنهار لا يفترون»<sup>(١)</sup>.

والله من حكمته ورحمته لم يكلف الإنسان أن يعبد على طريقة الملائكة، وإلا لخلق ملكا منذ البدء، نورا شفافا بلا جسد طينى يتزع، ولا فكر ينشغل بأمر الحياة.

ولكنه، من حكمته ورحمته، وقد خلقه من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله. وجعل له جسدا يتحرك بالرغبة، وعقلا ينشغل بالتفكير، وروحا طليقة ترفرف، كلفه عبادة من نوع خاص غير الملائكة من ناحية، والعجماءات والجمادات من ناحية أخرى. عبادة يجتمع فيها كيانه كله: جسده وعقله وروحه. وجعل كل نشاط جسده عبادة، وكل نشاط عقله عبادة، وكل نشاط روحه عبادة، إذا توجه بذلك كله إلى الله، والتزم فيه بما أنزل الله:

«قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له . . .»<sup>(٢)</sup>.

وحين يفعل ذلك فهو في أعلى حالاته، وأقربها إلى الله، وأجدرها برضاء الله. ودليلنا هو أعبد عبد لله، أعظم بشر خلقه الله، محمد صلى الله عليه وسلم.

[١٦٣-١٦٢] سورة الأنعام (٢)

[٢٠] سورة الأنبياء (١)

«ألا إني أعبدكم لله، ولكنى أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(١)</sup>.

هل يستطيع بشر - بعد هذا النص - أن يزعم أنه أعبد الله من محمد رسول الله؟! فكيف كانت عبادته صلى الله عليه وسلم؟!  
فأما خلوته مع ربه، فقد كان يتعبد حتى تتورم قدماه الشريفتان، فتقول له عائشة رضی الله عنها: هون عليك يا رسول الله فقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فيقول صلى الله عليه وسلم قولة العابد الواصل في العبادة إلى الأعماق: أفلا أكون عبداً شكوراً؟!<sup>(٢)</sup>.

ومع ذلك.. فكيف كان صلى الله عليه وسلم؟  
كان أكبر طاقة إيجابية عرفتها الأرض..

في الجهاد في مجال الدعوة. في القتال في سبيل الله. في تربية أصحابه رضوان الله عليهم ليكونوا مثلاً علياً في كل اتجاه، وطاقات إيجابية في كل اتجاه. في إنشاء «الأمّة» التي شهد لها خالقها ومخرجها إلى الوجود سبحانه بقوله: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»<sup>(٣)</sup>. في إقامة العدل الرباني في الأرض. في تنظيم شؤون «الدولة» السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحربية والخلقية والروحية والفكرية.. إلى جانب قيامه بأمور حياته الخاصة صلى الله عليه وسلم ورعاية زوجاته وبناته وكفالتهم وتوجيههم وتعليمهم.. الخ.

والرسول صلى الله عليه وسلم هو أسوة المسلمين إلى قيام الساعة، وهو الترجمة الواقعية لهذا الدين في أعلى صورة:

«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً»<sup>(٤)</sup>.

والصوفية تقول إنها ترجو الله واليوم الآخر وتذكر الله كثيراً.. فلماذا لا تتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم في إيجابيته وفاعليته وواقعيته، ومجاهته للواقع

(١) متفق عليه

(٢) متفق عليه

(٣) سورة آل عمران [١١٠].

(٤) سورة الاحزاب [٢١].

السيء لهدمه والقضاء عليه، وإنشاء الواقع الصحيح بدلا منه؟! (١)

هذا هو الفارق بين الإسلام والصوفية .

هنا إيجابية وهناك سلبية . هنا مواجهة وهناك عزلة . هنا «زهد» في متاع الأرض مع إباحته وممارسته، وهناك انزواء عن المتاع يقتل الرغبة ويصيب النفس كلها بالذبول .

ومع الصوفية ينشأ التواكل بدلا من التوكل .

التوكل على الله من صميم الإيمان، وقد تردد ذكره في القرآن مربوطا بالإيمان :  
«وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (٢) .

«إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون» (٣) .

ولكن التوكل - ككل شيء في دين الله - طاقة إيجابية دافعة، يقوم به المؤمن مع اتخاذ الأسباب :

«فإذا عزمتم فتوكل على الله» (٤) .

والعزيمة - في شأن القتال خاصة، وهو الذي وردت بمناسبة الآية الكريمة - تقتضى إعداد العدة واتخاذ الأسباب .

أما التواكل الذى تمارسه الصوفية وتقول عنه إنه توكل، فهو - ككل شيء في الصوفية - صورة سلبية معطلة، تتعاس عن اتخاذ الأسباب متذرة بالتوكل على الله .

لقد أفسد التواكل كثيرا من عقيدة القضاء والقدر، وحولها من عقيدة إيجابية دافعة إلى عقيدة سلبية مخذلة، وإلى الرضاء السلبي بالواقع وعدم محاولة التغيير .  
كان الله يعلم الجليل الأول رضوان الله عليهم «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (٥) .

---

(١) ينبغى أن نذكر هنا أن كثيرا من ينتمون إلى الصوفية كانوا مجاهدين في سبيل الله، ونشروا الإسلام في بقاع من الأرض في أفريقيا وآسيا لم يصل إليها غيرهم، وهؤلاء زهاد في الحقيقة وإن انتموا إلى الصوفية من حيث الشكل . وهؤلاء لا ينطبق عليهم كل ما نقوله هنا عن الصوفية .

(٢) سورة الأنفال [٢] .

(٣) سورة آل عمران [١٦٠] .

(٤) سورة التوبة [٥١] .

(٥) سورة آل عمران [١٥٩] .



فيعلمون أنه ليس ذهابهم إلى القتال هو الذي يقتلهم، إنها هو القدر المقدر عند الله هو الذي يصيبهم أينما كانوا، فيندفعون بكل قوتهم للقتال .

وكان يعلمهم: «ولا يحسن الذين كفروا سبقوا، إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . . . .» (١)  
فيعلمون علماً يقينياً مؤكداً أن الله لن يحقق للكفار مسعاهم في هدم هذا الدين والقضاء عليه، بل سيمكن لدينه في الأرض، ومع ذلك يعدون ما استطاعوا من قوة، أى يبذلون الجهد ويتخذون الأسباب، ولا يقولون لأنفسهم: مادام الله سيمكّن لدينه فذلك حسبنا، ونتوكل عليه فلا نعمل!

وكان يعلمهم: «أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟! قل: هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله . . . .» (٢) .

فيعلمون أن وقوع الأمر بقدر من الله لا يخليهم من مسئوليتهم عن أعمالهم حين يخطئون أو يسيئون التقدير .

وكان يعلمهم: «الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل . . . .» (٣) .

فيعلمون أن وقوع قدر الله بالهزيمة ليس معناه الاستسلام للهزيمة والعودة فيها بحجة أنها قدر من عند الله، إنما معناها السعى الإيجابي لتغيير هذا الواقع مع التوكل على الله، رجاء تغيير القدر الأول بقدر جديد . . . (٤)

وبذلك كله كانت عقيدة القدر في حياة المسلمين الأوائل قوة دافعة محرّكة إلى الأمام .

ولكن توارى الصوفية حوّها إلى غير ذلك . . . قعوداً عن الأخذ بالأسباب بحجة أن «مالك سوف يأتيك»! وتخلياً عن مسئولية الإنسان عن عمله بحجة أن ما وقع منه قد وقع بقدر من الله! وقعوداً عن تغيير الواقع السيء من مرض أو عجز أو فقر

(١) سورة الأنفال [٥٩-٦٠] (٢) سورة آل عمران [١٦٥-١٦٦]

(٣) سورة آل عمران [١٧٢-١٧٣]

(٤) انظر إن شئت فصل «مفهوم القضاء والقدر» من كتاب «مفاهيم ينبغي أن تصحح» .

أوذل أو ضيم بحجة أنه ما حدث إلا بقدر من الله ولو شاء الله غير ذلك لكان!!  
 ومع الصوفية كذلك ينشأ القعود عن تعمير الأرض، بحجة أن الدنيا ملعونة،  
 والمعول عليه هو الآخرة! وأن الإنسان حسبه في هذه الدنيا عيشة الكفاف، لكي  
 ينجو بروحه من التعلق بالدنيا، ولكي يفرغ لتزكية روحه استعداداً للآخرة!  
 ولا شك أن الدعوة إلى التقلل من متاع الأرض، وعدم «التعلق» بالدنيا هي  
 دعوة إسلامية أصيلة، وهذا هو «الزهد» الذي أشرنا إليه من قبل. ولكن  
 الانصراف عن عمارة الأرض قضية منفصلة ومختلفة عن عدم التعلق بالحياة الدنيا.  
 لقد ركّب الله في النفس البشرية دوافع إلى العمل والنشاط في صورة رغبات  
 وشهوات أبرزت الآية الكريمة أهمها أو أشدها سيطرة على الإنسان:  
 «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب  
 والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث»<sup>(١)</sup>.

ولم يخلق الله هذه الدوافع عبثاً، تعالى الله عن العبث..  
 ولم يخلقها ليقتلها الإنسان من جانبه بحجة تزكية الروح..  
 إنها خلقها لتعينه - أو لتدفعه - لعمارة الأرض، التي هي جزء من الخلافة التي  
 خلق الله الإنسان من أجلها:

«وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة»<sup>(٢)</sup>.

«هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها»<sup>(٣)</sup>

صحيح أن هذه الشهوات مهلكة للإنسان إذا مضى معها إلى آخر الشوط ولم  
 يلتزم «بالحدود» التي رسمها الله، وقال عنها: «تلك حدود الله فلا تعتدوها»<sup>(٤)</sup> «تلك  
 حدود الله فلا تقربوها»<sup>(٥)</sup>.

لذلك خلق الله في النفس البشرية ضوابط تضبط اندفاع تلك الدوافع، منها  
 العقل والإرادة الضابطة، ومعرفة الطريقتين والقدرة على اختيار أحدهما:  
 «ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب  
 من دساها»<sup>(٦)</sup>

«وهديناه النجدين»<sup>(٧)</sup>

---

(١) سورة آل عمران [١٤] (٢) سورة البقرة [٣٠] (٣) سورة هود [٦١]  
 (٤) سورة البقرة [٢٢٩] (٥) سورة البقرة [١٨٧] (٦) سورة الشمس [٧-١٠]  
 (٧) سورة البلد [١٠]

«إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا»<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر الإنسان بالآخرة، والبعث والحساب والجزاء، ليكون ذلك معينا له في ضبط شهواته والالتزام فيها بالحدود التي رسمها الله، والتي يعلم سبحانه أن في داخلها الأمن والأمان والفلاح، ويعلم سبحانه كذلك أن الالتزام بها هو الذي يرفع النفس البشرية ويطهرها، ويعينها على عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني..

وعلى الرغم من وضوح المنهج الرباني في هذه النقطة، فإن الصوفية تسعى إلى «قتل» الدوافع البشرية بدلا من تهذيبها وضبطها، وتدعو إلى «إهمال» الحياة الدنيا بحجة التقرب إلى الله وابتغاء مرضاته.

ولو كان هذا هو الإسلام لهدانا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. يستدلون بقوله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله أو عالم أو متعلم»<sup>(٢)</sup>

وبأن الله ذم الدنيا في كتابه المنزل وقال عنها إنها «متاع الغرور»<sup>(٣)</sup> ولاشك أنه ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ذم للدنيا أولعن لها.. ولكن مراجعة السياق الذي ورد فيه مثل هذا الذم تكشف لنا بوضوح أن الدنيا تدم - أو تلعن - في مجالين اثنين، حين تصد الإنسان عن الإيمان بالله وتدفعه إلى الكفر به، أو تصده عن الجهاد في سبيل الله:

«من كفر بالله بعد إيمانه - إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم. ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، والله لا يهدي القوم الكافرين»<sup>(٤)</sup>.

«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين»<sup>(٥)</sup>.

أما في غير هذين المجالين فليست الدنيا مذمومة ولا ملعونة، ما دامت لا تصد عن الإيمان بالله أو الجهاد في سبيل الله.

(١) سورة الإنسان [٣] (٢) رواه الترمذي وابن ماجه

(٣) سورة آل عمران [١٨٥] (٤) سورة النحل [١٠٦-١٠٧] (٥) سورة التوبة [٢٤].

«قل: من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» (١)

«وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» (٢)

صحيح أن التعلق بالدنيا يؤدي إلى معصية الله . وهذا هو المعنى الذي ركز عليه الصوفيون أشد التركيز، وجعلوا الدنيا ملعونة من أجله . ولكن قتل النفس من جهة أخرى مخافة الوقوع في المعصية يوقع في معصية من نوع آخر، هي القعود عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعن مجالدة الباطل والعمل على إزهاقه، وعن عمارة الأرض بمقتضى منهج الله .

وحين يعمل الإنسان في هذا الحقل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، وعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني، ثم تقع منه الأخطاء والمعاصي غير متعمد لها ولا متبجح بها، ثم يستغفر الله عنها ويجاهد لكي لا يقع فيها، فذلك هو الذي قال الله فيه :

«والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله - ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين» (٣) .

وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«والذي نفسى بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر الله لهم!» (٤) .

وحين تجلس ساكنا وتحمل فوق رأسك سلة مملوءة بالأشياء فلا يقع منها شيء ، فقد حافظت على ما في السلة بالفعل ، ولكنك - في سبيل المحافظة عليها - تعطلت عن الحركة المطلوبة منك ! وليست هذه هي البراعة ! إنما البراعة أن تتحرك وأنت تحمل السلة على رأسك وتحاول جاهدا ألا يسقط منها شيء . فإن تساقط منها شيء أسرع إلى إعادته في السلة وعاددت المسير .

ولمثل هذا خلق الله الإنسان . حمّله الأمانة ثم أمره بالسير في مناكب الأرض

(٢) سورة القصص [٧٧]

(١) سورة الأعراف [٣٢]

(٤) أخرجه مسلم .

(٣) سورة آل عمران [١٣٥-١٣٦]

وهو يحمل الأمانة، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويجاهد لكي يقوم الناس بالقسط، ولكي تكون كلمة الله هي العليا، ويعمر الأرض بمقتضى المنهج الربانى . . ثم كان من رحمته سبحانه وتعالى وهو يعلم ضعف الإنسان أنه يغفر ما يقع في أثناء ذلك من الذنوب ما دام العبد لا يصر عليها، وما دام يستغفر ويتوب، فيتم «الإنتاج» المطلوب والإنسان في أرفع حالاته، وأقربها إلى رضوان الله . أما القعود عن الإنتاج، أو حصره في أضيق نطاق ممكن بحجة تجنب المزالق، فليس هو الذى أمر به الله . .

ومن جهة أخرى فإن حصر الإنتاج في أضيق نطاق ممكن - وهو نطاق الكفاف - يجعل الدولة كلها تعيش في حالة الكفاف، ولا يجعل لديها «الفائض» الذى تنفقه في متطلبات «التمكين فى الأرض» .

إن التمكين فى الأرض هبة الله للمؤمنين :

«وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً» (١) .  
ولكن له تكاليف . .

فإلى جانب عبادة الله وحده بلا شريك، وتحكيم شريعته وحده، وهما المقتضى العملى للإيمان الصحيح، فهناك تكاليف حسية ومادية :

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» (٢) .

فإذا عاش مجموع الناس عيشة الكفاف، ولم ينتجوا إلا فى حدود الكفاف، فكيف للدولة المسلمة أن تعد ما استطاعت من قوة لإرهاب أعداء الله، تلك القوة التى لا يستمر التمكين فى الأرض إلا بها؟!!

إنما يحتاج الأمر إلى الإنتاج الوفير والاستهلاك القليل . . وهذه هى المعادلة التى يتم بها التمكين فى الأرض والمحافظة عليه . أما الإنتاج القليل على قدر الاستهلاك

(٢) سورة الأنفال [٦٠] .

(١) سورة النور [٥٥]

القليل فلا يؤدي إلا إلى فقر مجموع الأمة، الفقر الذى يؤدي الى الضعف، والضعف يحرك شهوة الأعداء الذين ينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض .  
وإلى جانب ذلك كله، فحين يعتزل المتطهرون المجتمع وينعزلون عنه - ليزكوا أرواحهم بعيدا عن الدنس - فمن يبقى فى المجتمع؟ ومن يدير شئونه؟ ومن يتحرك فيه؟!

أليست هذه العزلة مشجعا للفاسدين أن ينفردوا بالعمل دون تدخل ولا اعتراض؟! بينما كان الواجب الأول لأولئك المتطهرين أن يأمرؤا بالمعروف وينهؤا عن المنكر، ويأطروا الحاكم على الحق أطرا ويأصروه عليه أصرا كما أمرهم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؟!!

فإذا أضيف إلى هذه الأمور كلها تضخم الشيخ فى حس المريد إلى حد أن يصبح فى حقيقة الأمر واسطة بينه وبين الله، فى الوقت الذى جاء فيه الإسلام ليلغى كل واسطة بين العبد والرب، ويحرر القلب البشرى من كل قيد يعوقه عن الاتصال المباشر بالله، وعبادة الله وحده بلا شريك، ويكون من تعليمه للناس: «وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون»<sup>(١)</sup>.

إذا أضيف هذا إلى كل ما سبق فقد بدا لنا كم تنحرف الصوفية عن أصل الإسلام، وكم تضيف إليه ما ليس منه، فى سبيل تحقيق غاية هى ذاتها من الإسلام، ولكن طريقها الربانى غير هذا الطريق . .  
وهذا كله مع الصوفية «النظيفة» الصادقة المخلصة، فكيف إذا صارت دجلا وتهريجا وخرافات؟!!

ولا شك أن هناك فى تاريخ الصوفية - سواء تاريخ الشيوخ أو المردين - من كان عاملا بتعاليم الإسلام، مجاهدا فى سبيل الله بهاله ودمه، أمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر، ناشراً لدين الله فى الأرض . . فهؤلاء - كما أشرنا من قبل - لا ينطبق عليهم حكم الصوفية المنحرفة، وإنما هم فى الحقيقة زهاد وإن الحقوا بالصوفية .  
ولكن الذى لا شك فيه كذلك أن هؤلاء قلة فى تاريخ التصوف، وأن الأغلبية

---

(١) سورة البقرة [١٨٦]

كانت من أولئك السليبين المنعزلين، الذين يسعون إلى تزكية أنفسهم في عزلة عن ركب الحياة.

إذا عدنا إلى الفترة العباسية لنقوم مدى ما حدث فيها من انحراف فسنجده انحرافا ضخما ولا شك. . في كثير من مجالات هذا الدين .  
وكان طبيعيا كما قلنا أن تنهار الدولة العباسية من وطأة هذه الانحرافات مجتمعة، ومن بينها ما يكفي وحده لتقويض أركانها، كالترف الذي غرقت فيه القصور، ولعب الدخلاء بالسلطان، والدسائس والمؤامرات، وضعف القوة السياسية والعسكرية. . فإذا اجتمع إلى ذلك ما سردناه من الانحرافات الأخرى فلم يكن انهيار الدولة عجبا، إنما كان العجب أن تستمر أكثر من ذلك بكل ما تحمله من أمراض.

وجاء الانهيار تحقيقا لسنن الله في الحياة البشرية. . السنن التي لا تحابي أحدا ولو قال بلسانه (لا إله إلا الله محمد رسول الله)!

وبصرف النظر عن كون التتار الذين أطاحوا بالدولة العباسية قد جاءوا بدعوة خفية متآمرة من وزير شيعي في الدولة العباسية ذاتها، ومن اليهود القاطنين في بغداد، الذين لم يمسوا بسوء طيلة وجود التتار فيها، بينما جرى النهر أربعين يوما أحر من دماء المسلمين الذين ذبحهم التتار.

بصرف النظر عن هذه الحقيقة، فما كان لمثل هذا الأمر أن يقضى على الدولة لو أنها واعية لنفسها كما ينبغي للدولة المسلمة، ملتزمة بأوامر الله التي تأمر بإعداد القوة لإرهاب أعداء الله، وتأمر بعدم اتخاذ بطانة ممن يكيدون للإسلام:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا، ودوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر. قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون»<sup>(١)</sup>

«وما ربك بظلام للعبيد»<sup>(٢)</sup>

ولكن انهيار الدولة بما تحمل من أضرار لم يكن هو نهاية «الأمة الإسلامية» رغم

(٢) سورة فصلت [٤٦].

(١) سورة آل عمران [١١٨]

اشتراكها - ولو بقدر - في هذه الأضرار، أولاً: لأن الدفعة الحيوية الهائلة التي أطلقها الإسلام في هذه الأمة لم تكن قد استنفدت، وثانياً: لأن العقيدة كانت ما تزال حية وإن علاها الرماد، فكانت تنتظر فقط من ينفخ عنها الرماد لتشتعل الجذوة من جديد.

وقد تبدت حيوية الإسلام وحيوية الأمة الإسلامية في ظهور الدولة العثمانية بكل قوتها وكل حيويتها كأنها بعث جديد للأمة أو مولد جديد. ولكن... هل كان بعثاً صافياً، أو مولداً من نوع المولد الأول في عهد الذروة؟ أم حل معه من أضرار «الأمة» ما كان كامناً فيها من الأضرار؟! \*

فأما من حيث صدق الرغبة في خدمة هذا الدين، وبذل الدماء والأموال في سبيل ذلك، فإننا نجد فيهم من لا يقل عن مرتبة التابعين رضوان الله عليهم، وكان جهودهم في الحقيقة امتداداً لجهد الصحابة والتابعين الذين حاولوا فتح القسطنطينية أول مرة على عهد الأمويين.

ويكفيهم - في ميزان الله - أنهم توغلوا في أوروبا الصليبية ما توغلوا، وفتحوا للإسلام ما فتحوا من أراضٍ وقلوب، فدخل الناس في الإسلام بعشرات الملايين.

ويكفيهم - في ميزان الله - أنهم حموا العالم الإسلامي من غارات الصليبيين خمسة قرون متوالية، فلم يجزؤوا أن يتجهوا مرة أخرى نحو الشرق للاستيلاء على بيت المقدس كما فعلوا أول مرة حتى زالت الدولة العثمانية من الوجود.

ويكفيهم - في ميزان الله - أنهم حتى وهم في النزاع قد منعوا قيام الدولة اليهودية على أرض الإسلام، ولم يتمكن شذاذ الآفاق من التجمع لإقامة دولتهم إلا بعد أن زالت دولة الخلافة من الوجود.

كما أن احترامهم للعلم، وللعلماء من حملة هذا الدين، مما يحسب لهم كذلك في ميزان الله.

ولكن هذا كله - على ضخامته في ميزان الله - لا ينفي وجود انحرافات خطيرة سواء في الدولة، أو في حياة الأمة في ظل الدولة... آتت ثمارها السيئة على مرور الأيام.

لقد كانت هذه أول دولة للخلافة لم تستعرب.



ولم يكن ذلك يؤثر في مبدأ الأمر، مع الإخلاص وصدق العزيمة، والعمل الجاد لتوحيد العالم الإسلامي، ووضعه تحت قيادة قوية موحدة تحميه من التمزق الذي كان يعانيه في أواخر الدولة العباسية.

ولكنه على مر الأيام صار يؤثر، إذ أحس الشعب العربي، الذي ظل طيلة تسعة قرون على الأقل هو قلب الإسلام النابض، بلون من العزلة، وحكامه يخاطبونه بغير لغته، وبغير اللغة التي نزل بها الإسلام. . . وظلت هذه العزلة تتزايد مع توالي الظروف السياسية التي أحاطت بالدولة العثمانية، حتى تمكن الأعداء الماكرون من تمزيق جسم الأمة، وكانت قضية «الترك» و«العرب» من الأدوات التي استخدموها - بخبث - في التمزيق.

ولو تصورنا أن دولة الخلافة قد استعربت، وتكلمت باللغة التي نزل بها هذا الدين، فلا شك أن عوامل الوحدة داخل الدولة كانت تصبح أقوى وأقدر على مقاومة عبث العابثين. فضلا عما يتيح تعلم العربية من المعرفة الصحيحة بحقائق هذا الدين من مصادره المباشرة، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، مما كان الحكام والعامّة كلاهما في حاجة إليه، على الرغم من كل ما ترجم إلى التركية، وما ألف أصلا بالتركية حول هذا الدين.

ثم كان - كما هو الشأن في الدول العسكرية - نوع من «الحزم» الزائد الذي يصل أحيانا إلى حد الاستبداد.

ولا شك أن الاستبداد السياسي قد وقع من قبل، بدأ به الأمويون وتلاههم العباسيون، وكان من الانحرافات التي ارتكبتها «الملك العضوض»، وحاد بها عن خط الخلافة الراشدة التي نعم الناس في ظلها بتطبيق العدل الرباني في أروع صورته.

ولكنني أحسب أن الاستبداد السياسي في الدولة العثمانية لم يكن مجرد امتداد لما كان من الأمويين والعباسيين (وإن كان هذا جائزا) ولكن كان له سببه «المحلي» في الدولة العثمانية ذاتها من «الحزم» الزائد الذي يمارسه العسكريون في المعتاد حين يتولون شؤون السياسة.

ولقد كانت مواجهة الدولة لأعداء أقوياء، لا بد من القضاء عليهم أو إخضاعهم بالقوة لئتم التمكين للدولة، من أسباب هذا «الحزم» الزائد الذي اتسم

به الحكم العثماني . ولكن روح الإسلام على أي حال لا تبيح الاستبداد أيا كانت ذرائعه ، وتوجب تطبيق العدل الرباني فيما بين الحاكم ورعيته في جميع الأحوال .  
وزاد الأمر سوءاً نظام الولاية في الدولة العثمانية ، حيث كان الوالي على أي قطر من أقطار الدولة ، يتولى لفترة محدودة ، غالباً ما تكون سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر ، ثم يعزل بعدها من ولايته .

وقد كان للدولة هدفها من هذا النظام دون شك ، وهو تركيز السلطة في يد الخليفة ، وعدم إتاحة الفرصة للولاة أن يستقلوا بولاياتهم كما حدث في أواخر العصر العباسي وانتهى بتفكيك الدولة العباسية وانهارها في النهاية . وقد ساعد هذا النظام بالفعل على دوام سيطرة الدولة العثمانية على ولاياتها فترة غير قصيرة من الزمان ، واستقرار الدولة وهيبتها في نفوس الأتباع والأعداء على حد سواء .

ولكن كان للنظام معاييه من جانب آخر ، فإن الوالي الذي يعلم سلفاً أنه لن يبقى في منصبه إلا تلك الفترة المحدودة ، لا يمكن أن يلتفت إلى الرعية بالحق والعدل ، إلا أن تكون له أخلاق العلماء أو طباع الملائكة ! إنما يكون همه في الغالب جمع أكبر قدر من المال يستطيع جمعه ليعيش منعماً بقية حياته ، فيجمع للسلطان ما أمر السلطان بجمعه ، ويجمع أضعاف ذلك لنفسه بالعسف والظلم اللذين يقعان لا محالة على عباد الله !

فإذا أضيف إلى ذلك نظام الإقطاع ، الذي كان معمولاً به عند الأتراك في جاهليتهم قبل أن يدخلوا في الإسلام ، وحملوه معهم في إسلامهم ، فقد أضيف إلى طابع الاستبداد السياسي نوع من الظلم الاجتماعي الذي يسببه الإقطاع ، يعيش فيه ألوف من البشر في حالة التبعية الكاملة للباشوات أصحاب الإقطاعيات .  
فإذا كان هذا من جانب الحكام . . فالأمر من جانب المحكومين لم يكن يخلو كذلك من الانحراف .

فأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أمرت به الأمة ، فقد كانت قد تخلت عنه بالنسبة لحكامها من زمن بعيد ، ولم يكن من المتوقع أن تعود إليه في الجو العسكري الذي قامت فيه الدولة العثمانية ، بل كان الأحرى أن تزداد تخلياً عنه !  
وأما « العمل » بمقتضى الإيمان في الدائرة الفردية والاجتماعية - أي فيما لا يتعلق بالسياسة - فقد كان الحال خيراً بكثير ولا شك منه في أواخر الدولة العباسية حيث

كان التحلل قد ساد المجتمع وفسدت أخلاقه . فإن المولد الجديد على يد الدولة الفتية ، والعزيمه القوية التي يحتاج إليها بناء دولة جديدة تقاوم أعداء أشداء ، وتريد أن تتمكن لنفسها في الارض ، فضلا عن الجد الصارم الذي تتصف به الدولة العسكرية ، كل ذلك قد أحدث تماسكا خلقيا واجتماعيا قرب الناس من روح الإسلام بقدر ما كان الترف العباسي واللهو والمجون قد أبعدهم عنه .

ولكن من شأن القبضة القوية أن تتراخى ، ومن شأن التمكين في الأرض أن يجعل الأعصاب تسترخى ، مالم يحدث التذكير الدائم الذي يوقظ القلوب . .

وبدلا من أن يحدث التذكير على الصورة الإسلامية الصحيحة فقد حدث على الطريقة الصوفية!

لقد كانت الصوفية قد أخذت تنتشر في المجتمع العباسي ، ولكنها كانت ركنا منعزلا عن المجتمع ، أما في ظل الدولة العثمانية ، وفي تركيا بالذات ، فقد صارت هي المجتمع ! وصارت هي الدين !

وانتشرت - في القرنين الأخيرين بصفة خاصة - تلك القولة العجيبة : من لا شيخ له فسيخه الشيطان!

وأصبحت الصوفية - بالنسبة للعامة بصورة خاصة - هي مدخلهم إلى الدين ، وهي مجال ممارستهم للدين !

وحين أصبحت هكذا فقد أصبحت مجموعة من الخرافات والأوهام تتعلق «بالمشايخ» ، الأحياء منهم والأموات . وصار «التدين» هو الإيمان بالشيخ ، وبكراماته ، وبأحواله ، وقدرته على استشفاف الغيب ، وقدرته على شفاء المرضى بغير دواء ، وقدرته على «فك السحر» واستخراج الشياطين من أرواح من تسلط عليهم . . كما أصبح هو التعلق بالأضرحة والأولياء ، ونذر النذور لهم والتقرب بالقرابين ، دون عمل حقيقي بمقتضى الدين . . فقد أصبح هذا في حس العامة هو الدين ، وليس الدين هو ما أنزله الله في كتابه المنزل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم !

وأما الفراغ الهائل الذي خلفته الصوفية في مجال العمل . . فقد «ستره» الفكر الإرجائي !! المهم هو الايمان! والإيمان هو التصديق . . أو على الأكثر هو الإقرار والتصديق . وهذا متوفر داخل القلب ، فلا على الإنسان إذن أن تكون حياته خلوا من العمل بمقتضى الإيمان ، فإنه لا يضر مع الإيمان شئ . .

وتدريجياً فرغت الحياة من المحتوى الحقيقي للدين ، ولم يبق منه سوى وجدانات  
مهومة . . مختلطة بالأضاليل ، وتقاليد!  
وللتقاليد مع هذه الدولة دور تجدر الإشارة إليه .  
إن الشعب التركي من أكثر الشعوب محافظة على التقاليد . ونضرب مثلاً واحداً  
يؤكد لنا هذه الحقيقة .

البيت التركي - في الغالب - مفروش بالسجاجيد ، فإن لم يكن كله فهناك على  
أي حال شيء ما يغطي أرضه ويصل ما بين حجرة وحجرة . وكان من تقاليد البيت  
التركي المسلم أن تخلع نعليك خارج عتبة الدار أو داخلها مباشرة ، وتستبدل  
بنعليك اللذين كنت بهما في الخارج نعلين نظيفين تدوس بهما فوق السجاجيد ،  
حتى إذا وصلت إلى دورة المياه خلعت هذين النعلين ودخلت لتجد شيئاً آخر  
يناسب استخدام الماء . فإذا خرجت من الحمام فلا بد أن تجفف قدميك أولاً ثم  
تلبس النعلين النظيفين الجافين اللذين كنت قد تركتهما قبل دخولك إلى هناك . .  
وواضح بكل تأكيد أن هذا «تقليد إسلامي» مقصود به طهارة البيت للصلاة ،  
وجوده في البيت المسلم منطقي تماماً مع الطهارة التي فرضها هذا الدين في كل  
شيء . . .

ولكنك تجد اليوم في تركيا «كالمين» قد انسلخوا من دينهم تماماً فلم يعودوا  
يصلون ولا يصومون ولا يؤمنون بدين ، ومع ذلك تجد ذات «التقليد» في بيوتهم . .  
لأنه «تقليد»!

إذا فهمنا هذه الروح المتأصلة في هذا الشعب ، فهمنا كيف حافظ هذا الشعب  
على «التقاليد الإسلامية» فترة طويلة جداً ، ما كان لشعب آخر - ولا الشعب العربي  
- أن يحافظ عليها مثله . . ومن خلاله - بوصفه الشعب الحاكم ، أو شعب الدولة  
الحاكمة - بقيت التقاليد مرعية في العالم الإسلامي فترة من الزمن غير قصيرة .

ولكنها في الفترة الأخيرة كانت مجرد تقاليد . . خاوية من الروح .  
إن تحول الأخلاق الإسلامية وأنماط السلوك الإسلامي إلى تقاليد هو في ذاته  
أمر طيب ، لأنه يطبع بها المجتمع والأجيال الناشئة جيلاً بعد جيل ، فتقبلها في  
يسر ، وتمارسها ممارسة تلقائية لا يشعر فيها صاحبها بالجهد .

ولكن ذلك طيب مع وجود الوعي بالأصل الإيماني، الذي انبثقت منه هذه التقاليد وصارت تعبيراً عملياً عنه. فأما إذا ذهب هذا الوعي، وغاب الأصل الإيماني الذي انبثقت منه التقاليد أول مرة، وصار الأمر هو المحافظة على التقاليد من أجل أنها تقاليد. فقد آذنت تلك التقاليد بالزوال إذا اصطدمت بمؤثر قوي يدهمها ويحاربها. ذلك أن الذي يصمد في المعركة ليس هو التقليد، إنما هي الروح الكامنة وراء التقليد. فإذا خبت الروح فلا صمود.

لذلك لا نعجب - كما سنرى في الفصل القادم - إذا رأينا هذه التقاليد تتهاوى واحداً إثر الآخر لما دهمها الغزو الفكري المنظم الذي وجه لتحطيمها، ولا تحتل المعركة كلها أكثر من نصف قرن من الزمان في معظم بلدان العالم الإسلامي! ونضرب مثلاً واحداً للتوضيح: «الحجاب التركي» الشهير.

لقد كان هذا حجاباً إسلامياً لا شك في نسبه إلى الإسلام. (١) والترك لم يعرفه إلا من خلال إسلامهم، أي أنهم أخذوه عن الشعوب التي تعلموا منها الإسلام. وكان هذا الحجاب - بصورة من الصور - أصلاً مرعياً في العالم الإسلامي كله خلال قرون متطاولة من الزمان.

ولكن لما خفت الروح الإسلامية الحقيقية في العالم الإسلامي بسبب مجموعة الانحرافات التي تحدثنا عنها من قبل، بقى الحجاب تقليداً يراعى بشدة ولا تخرج عليه - ولا تجرؤ أن تخرج عليه - امرأه واحدة في العالم الإسلامي وإلا عدت ساقطة عديمة الأخلاق.

ومع شدة المحافظة عليه بوصفه تقليداً مرعياً في المجتمع، فإنه أمام الغزو الفكري الذي نادى «بتحرير المرأة» وطالب بالسفور، وخروج المرأة حاسرة في الطريق، لم يصمد أكثر من نصف قرن، وخرجت نساء العالم الإسلامي سافرات كاسيات عاريات مائلات مميلات كما وصفهن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) يتصايح الفارغون والفارغات بأن الحجاب ليس «إسلامياً» إنما هو تقليد عربي بدوي أبقاه المسلمون بعد إسلامهم محافظة على التقاليد الموروثة ليس غيراً ويتبحون بإنكار وقائع التاريخ. تقول عائشة رضي الله عنها: رحم الله نساء الأنصار. لما نزلت آية الحجاب عمدت كل واحدة منهن إلى ثوبها فاعتجرت به (أي لفته فوق رأسها ووجهها) فهو لم يكن تقليداً معمولاً به قبل الإسلام، إنما هو أمر به الله تعالى فنفته المسلمون.

قبل أن يبرزن إلى الوجود بثلاثة عشر قرناً أو تزيد .  
وكان ذلك لأن الحجاب كان مجرد تقليد، يرمى بهذه الصفة، لا عن إيمان حي  
واع بالأصل الاعتقادي الذي انبثق عنه الحجاب .  
وازن بين ذلك وبين الفتيات المحجبات اليوم عن عقيدة ووعي . . إن الجاهلية  
- بكل ثقلها - تندد بهن، وتسخر منهن، بل تتعرض لهن أحياناً بالسجن  
والتعذيب . . فهل خلعن الحجاب؟ أو استمعن للأصوات الناشئة التي تدعوهن  
لخلعه؟!

هذا هو الفارق بين السلوك النابع من العقيدة والسلوك النابع من التقليد . .  
وقس على ذلك كل أمور الإسلام . .  
فإذا علمت أن الأمر انتهى إلى أن يصبح الإسلام كله، حتى عباداته وسلوكه،  
تقاليد، ترعى لأنها تقاليد ولكنها حاوية من الروح . . استطعت أن تدرك كيف جاء  
الانهيار.

\* \* \*

أمر أخير لا بد من الإشارة إليه في ظل الحكم العثماني، لأنه كان ذا أثر بعيد في  
المجتمع الإسلامي . .  
لقد ظلت الأمور في العالم الإسلامي - وفي العالم أجمع في الحقيقة - عشرة قرون  
كاملة تقريبا لا تكاد تتغير إلا في نطاق محدود . .  
وكان الفقهاء المسلمون الكبار قد اجتهدوا في كل ما واجههم من الأمور فأنشأوا  
فقها متكاملا عميقا شاملا يغطي احتياجات المسلمين في العبادات والمعاملات .  
ثم جاء تلاميذهم وشراحهم فزادوا في قضايا الفروع حلولا لمشكلات تصوروا  
حدوثها في أي ظرف من الظروف القادمة، فكانوا يفترضون الفرض ويقولون:  
أرأيت لو حدث كذا! ويستنبطون لهذا الأمر المتخيل حكما مستمدا من شريعة الله .  
فلما مضى الزمن وحدثت تلك الافتراضات بالفعل، لم يحس المسلمون أنهم في  
حاجة إلى اجتهادات جديدة، فقد غطى الفقهاء وتلاميذهم وشراحهم من قبل كل  
ما جد في حياتهم . . لذلك أعلنوا - منذ القرن الخامس - إغلاق باب الاجتهاد  
لعدم الحاجة إليه!

ومرت خمسة قرون أخرى أو ستة على وجه التقريب والمسلمون لا يحسون بحاجة لمراجعة هذا القرار، لأن ما بين أيديهم من الفقه يكفيهم ويفيض عن حاجتهم، فاکتفوا بالتلمذ عليه، وإخراج المختصرات التي تفي بحاجة طالب العلم المبتدئ لتعينه على الدخول في عالم الفقه العويص!

ولكن الأمور منذ القرن الثاني عشر الهجري على الأقل بدأت تتغير تغيرا سريعا بعد اختراع الآلة وتقدم الأبحاث العلمية والمكتشفات والمخترعات، مما أحدث أوضاعا جديدة وعلاقات جديدة لم يكن الفقهاء القدامى وتلاميذهم وشراحهم قد تخيلوا حدوثها، فلم يستنطوا لها الأحكام الملائمة من الشريعة الإسلامية.

وهنا كان المفروض أن يعاد فتح باب الاجتهاد لمواجهة هذه التغيرات وبيان حكم الله فيها ليلتزم به المسلمون. إذ مهمة الفقه الدائمة التي لا تتوقف هي مواجهة كل ما يلم بالمسلم في حياته وبيان حكم الله فيه من حلال أو حرام أو مندوب أو مكروه أو مباح، ليكون المسلم على بينة من أمر ربه في كل أمر يأتيه.

ولكن الدولة العثمانية رفضت إعادة فتح باب الاجتهاد!<sup>(١)</sup>

رفضته بحسن نية كاملة، وبغيرة حقيقية على دين الله.. على أساس أنه لا يوجد في الوقت الحاضر من تتوفر فيه شروط الاجتهاد!  
ولكن النتائج كانت خطيرة..

فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته.. فإذا يحدث؟!!

يحدث أحد أمرين: إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها. وإما أن تخرج على القوالب المصنوبة وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة، لأن هذا الظل لم يمد - بالاجتهاد - حتى يغطيها.

وقد حدث الأمران معا، الواحد تلو الآخر.. الجمود أولا ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة!

---

(١) يعتقد كثيرون أن الدولة العثمانية هي التي أغلقت باب الاجتهاد، وهذا غير صحيح. فقد أقفل باب الاجتهاد منذ القرن الخامس الهجري. إنما المأخوذ على الدولة العثمانية أنها لم توافق على إعادة فتحه حين اقتضت الظروف ذلك.

وقد يظن القارئ العابر للتاريخ أن الخروج على الشريعة قد حدث في أول القرن الرابع عشر الهجري (نهاية القرن التاسع عشر الميلادي) ولكن الحقيقة غير ذلك. فالذي حدث في تلك الفترة - كما سيجيء بيانه في الفصل القادم - هو تنحية الشريعة الإسلامية جملة والحكم بغير ما أنزل الله جهرة. . . ولكن بدء تسلل «الأنظمة» الأجنبية إلى الدولة الإسلامية قد بدأ مبكرا جدا عن هذا العصر، منذ عهد السلطان سليمان الذي اشتهر باسم «سليمان القانوني»<sup>(١)</sup> لأنه بدأ عملية إدخال «القوانين» الأوروبية لتحكم بها المحاكم في الدولة الإسلامية فيما جد من الأمور التي لم يتناولها الفقهاء القدامى. وكان الذي أغراه بهذا هم اليهود والنصارى في بلاط الخلافة<sup>(٢)</sup>! (لأمر يريدونه بلا شك!) وكانت هذه ثغرة بدأت تتسع حتى أدت في النهاية إلى أفطع ما حدث في تاريخ الأمة من انحرافات!

لقد كانت تلك «القوانين» في مبدئها مما يمكن أن يتمشى مع روح الإسلام ولا يناقض نصوصه، لذلك لم يجد علماء ذلك الوقت حرجا في استخدامها، خاصة مع عدم الإذن بإعادة فتح باب الاجتهاد.

لكن الانحراف كان خطيرا من وجهين.

الوجه الأول أنه أحدث «مبدأ» خطيرا في ذاته، وأثبتت الأيام خطورته، هو مبدأ الاستمداد من فكر غير إسلامي، وحياة غير إسلامية، ومنهج غير إسلامي، وتركيب الرقعة المستعارة في الثوب الإسلامي بحجة أنها «لا تتنافى» معه.

والوجه الثاني وهو لا يقل خطورة، أنه أحدث وهما في نفوس الناس - بوعي منهم أو بغير وعي - مؤداه أن الشريعة الإسلامية صالحة للتطبيق فيما بقى على حاله من أمور الحياة لم يتغير منذ نزول هذه الشريعة، أما ما جد من الأمور - وخاصة في القرنين الأخيرين - فإن الشريعة لا تصلح لمواجهة وتوجيهه، إنما الحل فيه هو استيراد «القوانين» الصالحة له من الأمم «المتقدمة» التي عانت المشكلة أصلا واستنبطت لها الحل!

---

(١) تولى الحكم من سنة ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م.

(٢) تلك من المخالفات التي وقعت فيها الدولة العباسية ثم العثمانية رغم التحذير الرباني بعدم اتخاذ بطانة من غير المسلمين!



وكلا الوجهين كان له في حياة الأمة الإسلامية في أجيالها الأخيرة أسوأ تأثير.

\* \* \*

في الصفحات الماضية من هذا الفصل عبرنا - في سرعة خاطفة - أربعة عشر قرناً من تاريخ هذه الأمة على وجه التقريب! والعبور بهذه السرعة الخاطفة على النحو الذي صنعناه لا يمكن في الحقيقة أن يعطى صورة صحيحة عن خط سير الأحداث.

فالأحداث لا تقع مفردة، ولا تسير في قنوات مفردة كما نتكلم عنها هنا، إنما تتفاعل الأحداث خلال الحياة البشرية وتعطي آثارها من خلال تجمعها وتفاعلها، بحيث يصعب أن ترد النتائج إلى سبب واحد بعينه مهما تكن قوته في ذاته، ولا إلى مجموعة الأحداث كل على حدته.. كما أن الواقع التاريخي في سيره البطيء، المتداخل المتغير الصورة على الدوام، لا تجري فيه الأحداث في خطوط مستقيمة مباشرة كالتى نرسمها نحن في أثناء الحديث، إنما تتعرج الخطوط وتتداخل، يسرع بعضها أحياناً ويبطئ أحياناً أخرى، ويبدو كالموقوف فترة ثم يعود فيتحرك مرة أخرى.. وفي النهاية تظهر لنا نتيجة كأنها حاسمة ونهائية.. وهي لا تعدو أن تكون مرحلة في خط السير، يجد بعدها جديد!

كلا! ليست الصورة في حقيقتها كما رسمناها في تلك الصفحات الماضية بتلك السرعة الخاطفة.. ولكنها ضرورة البحث من ناحية، وضرورة الإيجاز.

ضرورة البحث تفرد خطوط التاريخ، وتتحدث عن كل واحد على حدته كأنه كان كذلك في الحقيقة. وضرورة الإيجاز تجعلنا نكتفي برسم الخطوط العريضة، فنسى أنها لم تكن وحدها هي العاملة في رسم الصورة النهائية، إنما كان إلى جوارها عشرات من الخطوط الأخرى، وعشرات من القنوات الخفية التي تصل بينها، وتحكم ارتباطها دون أن تظهر على السطح!

فلنذكر على أي حال أننا لم نكن في خلال تلك الصفحات نكتب تاريخ الأمة الإسلامية، ولا حتى تاريخ خط الانحراف! إنما كنا نلتقط خطوطاً بعينها، ومواقف بعينها، نحسبها أظهر ما في الصورة، فننتزعها من سياقها المتداخل المترابطة المترابط لنسلط عليها الضوء.. ونسميها على سبيل المجاز «خط» الانحراف!

ومهما يكن من أمر، فقد تجمعت الانحرافات وتفاعلت بعضها مع بعض، فأدت في النهاية إلى الانهيار . .

من الذروة السامقة إلى الهوة السحيقة . . مسافة تدير الرؤوس . . هل يصدق أحد حين يعايش الجيل المتفرد بكل قممه السامقة أن ذراريه يمكن أن تهبط إلى هذه الهوة السحيقة؟! وهل يصدق أحد حين يعايش الأجيال الحاضرة في هوتها السحيقة التي تردت إليها، أنها من ذراري ذلك الجيل المتفرد في التاريخ؟! كأنها أمتان منفصلتان لا يجمع بينهما شيء! ولكن هذا واقع التاريخ!

ومن العسير كما قلنا أن نرجع النتائج النهائية إلى سبب واحد بعينه، ولا إلى مجموعة من الأسباب كل على حدته. ولكن هذا لا ينفي أن تكون هناك أسباب أقوى في تأثيرها من أسباب .

ولعلنا نستطيع أن نلخص الموقف في أربع نقاط رئيسية، أو أربعة أسباب رئيسية، ترد إليها بقية النقاط وبقية الأسباب . .

فهنالك أولاً التفلت البشري الطبيعي من التكاليف كلما امتد الزمان. والعلاج الرباني لهذا التفلت - كما قلنا - هو التذكير. فنستطيع أن نقول إذن إن التذكير لم يكن بالقدر اللازم الذي يمنع مجموع الأمة من التفلت، أو لم يكن - من حيث الكيف - بالكفاءة المطلوبة لمنع الأمة من الانحراف عن الجادة، وخاصة إذا وضعنا في الاعتبار تزايد الرقعة المستمر، ودخول أقوام جدد في الإسلام باستمرار.

وفي الوقت ذاته، حين كان التذكير أقل من المطلوب في الكم وفي الكيف، وكان في حاجة إلى المزيد، جاء تياران مضادان لعملية التذكير، يزيدان من درجة العجز فيها، أحدهما هو الفكر الإرجائي الذي يطمع العبد في رضا مولاه بغير عمل حقيقي بمقتضى الإيمان، اتكالا على ما في القلب من وجدانات ومشاعر؛ والآخر هو الصوفية التي تطمع العبد في رضا مولاه عن طريق آخر غير أداء التكاليف الشرعية، بالأوراد والأذكار، والتبرك بالأولياء والمشايخ، ووضع المرید نفسه بالكلية بين يدي شيخه ينفث فيها ما يشاء وهو مستسلم له تماما كأنها يتلقى منه وحي السماء! وكان تأثير هذه العوامل الثلاثة منصبا كله على «العمل» بمقتضى الإيمان،

أي إبرازة في الصورة السلوكية الواقعية الصحيحة، وبصفة خاصة على «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهو الخلاصة الحية لحركة هذا الدين الواقعية الإيجابية في الأرض، التي تؤدي إلى تطبيق المنهج الرباني في واقع الحياة، لكيلا يضمر وينحسر في داخل الوجدان، فيكون من ثم عرضة لمزيد من الانحسار.

فإذا أضفنا إلى هذه العوامل الثلاثة الاستبداد السياسي الذي أدى إلى ضمور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في المجال السياسي خاصة، وتحول الإسلام في حس الناس إلى ممارسة فردية بعد ضمور الممارسة الجماعية لهذا الدين - وهي ركن أساسي فيه - والتركيز التدريجي على الشعائر التعبدية على أنها هي «الدين» . . . إذا أضفنا هذا إلى العوامل الثلاثة الماضية، فقد تجمعت لدينا في النهاية تيارات أربعة، تلتقي آخر الأمر في تيار واحد كبير، مضاد في اتجاهه لمجرى هذا الدين، سواء في واقع المجتمع أو في داخل النفوس.

نستطيع باختصار أن نقول: إن كل المفاهيم الإسلامية قد فسدت وانحرفت في حس الأجيال المتأخرة، بدءاً بمفهوم لا إله إلا الله، التي أصبحت مجرد كلمة تقال باللسان، والقلب عنها غافل، والسلوك عنها بعيد، إلى مفهوم العبادة الذي انحصر في الشعائر التعبدية - تؤدي أو لا تؤدي! - إلى مفهوم القضاء والقدر الذي تحول إلى قوة مثبتة مخدلة، إلى مفهوم الدنيا والآخرة اللتين انفصلتا وتحولتا إلى معسكرين متقابلين متعاديين، العمل في أحدهما يؤدي إلى إهمال العمل في الآخر، إلى مفهوم عمارة الأرض، الذي تحول من عمارة الأرض بمقتضى منهج الله إلى توقف العمارة، إلى عودة العمارة ولكن بغير منهج الله!<sup>(١)</sup>

وأصبح الدين في النهاية صورة باهتة خاوية من الروح، لا تستطيع أن تصمد للهجوم الوحشي الذي تدافع من كل صوب للقضاء على الإسلام . . . ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن كل النفوس قد تحربت؛ ولا أن التذكير لم يعد له أي أثر على الإطلاق؛ ولا أن الفكر الإرجائي قد صرف كل الناس عن العمل، بل عن العزائم العالية ذاتها؛ ولا أن سلبية الصوفية قد أحاطت بكل النفوس

---

(١) راجع إن شئت كتاب «مفاهيم ينبغي أن تصحح»

فصرفتھا عن الإيجابية اللازمة؛ ولا أن الساحة قد خلت تماما من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سواء في ميدان السياسة أو في الأمور الاجتماعية. . فإننا إن قلنا ذلك نكون مجافين للحقائق التاريخية، ومفتئين على النماذج البارزة الرائعة التي لم يخل منها قط جيل من أجيال الإسلام، والتي تحمل دائما قبسا من ذلك الجيل الفريد. .

ولكننا حين نطلق ما نطلق من تعميمات، نقصد بذلك الصورة الغالبة. . والصورة الغالبة هي التي تقرر الموقف العملي في الحقيقة، وليست القلة المتميزة مهما يكن لها من التميز، إلا أن يكون في أيديها هي مقاليد الأمور. . وفي الفصل القادم نحاول أن نشرح بشيء من التفصيل آثار الانحراف في واقعنا المعاصر، بعد أن أدت الأسباب إلى نتائجها الحتمية حسب سنة الله. «ولن تجد لسنة الله تبديلا»<sup>(١)</sup>.

---

(١) سورة الفتح [٢٣].

## آثار الانحراف

أشرنا في نهاية الفصل السابق إشارة عابرة إلى آثار خط الانحراف الطويل في واقع الأمة في الفترة الأخيرة. ونريد هنا أن نركز القول على القرنين الأخيرين في حياة الأمة - والقرن الأخير خاصة - بشيء من التفصيل، يبين لنا من ناحية كيف وصلنا إلى واقعنا المعاصر الذي نعيشه في هذه اللحظة، ويبين لنا من ناحية أخرى ماهية هذا الواقع المعاصر وسماته البارزة، ليتيسر لنا فيما بعد أن نتعرف على طريق الخلاص.

### (1) التخلف العقيدي

إن أول ما يبدونها حين ننظر إلى القرنين الأخيرين - والقرن الأخير خاصة - هو الغضب الشديد المحيط بحقيقة الإسلام في نفوس المسلمين، والبعد المتزايد عن هذه الحقيقة في الحياة الواقعية. أي أنه فساد في التصور وفساد في السلوك. لقد كان الفساد في السلوك قائما في عصور سابقة، وجر على الأمة الوبال إذ أدى إلى اجتياح جحافل التتار دولة الخلافة وتدفع الصليبيين من الغرب يريدون إطفاء نور الإسلام.. ولكن التصورات كانت ما تزال أقرب إلى الصحة، لأن الانحرافات المتعلقة بالتصور كانت محصورة في نطاق محدود. فالفرق الزائغة قد زاغت ولكن حجمها بالنسبة لمجموع الأمة ضئيل، والفكر الإرجائي قد وجد ولكنه كان ما يزال أفكارا في الأبراج العاجية أكثر منه واقعا ملموسا في حياة الأمة، لأن دفعة العمل كانت ما تزال قوية دفاقة في كل اتجاه، بحيث لا تعطلها تلك الأفكار عن الانطلاق. بل كان أصحاب الفكر الإرجائي هم أنفسهم - كما سبق القول - من العابدين العاملين الفقهاء، ولم يكونوا يتأثرون بفكرهم الخاص فيتركوا

العمل أو ينادوا بتركه! وكانت الصوفية موجودة، ولكنها ليست السمة الغالبة على المجتمع، بل هي قائمة في ركن منعزل منه تتعبد لنفسها بعيدا عن الضوضاء! لذلك فإن الجذوة كما قلنا كانت حية وإن غشاها الرماد. فإذا نفخ الرماد اشتعلت وتوهجت، وأنت - كعهدها - بالمعجزات!

أما حين بدأ الفساد في التصور يتسع حتى يصبح هو الأصل، فقد تغير الأمر. ولم يعد فساد السلوك وحده هو العلة فتنبهه خطبة حماسية أو موعظة مؤثرة. . إنما أصبح الأمر يحتاج إلى جهد ضخم يبذل لتصحيح المفاهيم أولا ثم تصحيح السلوك بعد ذلك، أو تصحيحهما معاً في ذات الوقت، وهو على أي حال جهد غير يسير. .

فسدت المفاهيم كلها كما أشرنا في نهاية الفصل السابق، فلم يعد شيء منها يشابه أصله الذي كان عليه يوم نزل هذا الدين من عند الله. كانت لا إله إلا الله عند الجيل الذي تلقاها وآمن بها أول مرة شيئاً يبلغ من الضخامة أن يزيل واقعا بشريا بأكمله، وينشئ بدلا منه واقعا جديدا مختلفا عنه كل الاختلاف.

كانت منهج حياة متكامل يشمل الحياة بجميع جوانبها وجميع حذافيرها، فلا يند شيء من هذه الحياة صغر أو كبر عن لا إله إلا الله ومقتضياتها؛ ومقتضياتها هي التسليم بما جاء من عند الله، والعمل - قدر الطاقة - بمقتضى ما أنزل الله: «فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا. . .» (١)

وكانت ضخامتها في حسهم متمثلة في التغيير الهائل الذي حدث في داخل نفوسهم، حتى لكأنها نفوس جديدة لا عهد لهم بها من قبل، والتغيير المكافئ الذي حدث في واقع حياتهم، حتى لكأنها حياة جديدة ليس فيها شيء من الماضي، حتى حركة الأنفاس وحركة الجوارح، فقد اكتسب كل شيء معاني جديدة لم تكن له من قبل، فأصبح شيئاً جديداً غير المؤلف من قبل.

وحتى الأشياء القليلة التي بقيت من حياة الجاهلية وارتضاها الإسلام، لم تكن هي بحال تلك التي كانت في الجاهلية، إنما هي شيء مختلف تماماً في جوهره وإن تشابهت الصورة؛ شيء ولد ميلادا جديداً مع الإسلام.

(١) سورة التغابن [١٦]

فالشجاعة صفة كانت في الجاهلية وارتضاها بل حض عليها الإسلام . ولكن هل كانت هي هي ؟ كلا! فشجاعة الجاهلية هي تلك «الحمية» التي ندد بها الإسلام تنديدا:

«إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية . .»<sup>(١)</sup>  
أما ما دعا إليه الإسلام فهو الجوهر الحقيقي للشجاعة . . الشجاعة في الحق، لا الحمية في الباطل، والجهاد الخالص لله لا للسمعة والرياء .  
والكرم صفة كانت في الجاهلية، وارتضاها الإسلام بل حض عليها . ولكنها في الإسلام شيء مختلف في جوهره وإن تشابهت الصورة . إنها في الجاهلية رثاء الناس، الذي ندد به الإسلام تنديدا:

«كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلته كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين»<sup>(٢)</sup> .

أما في الإسلام فهو الإنفاق النقي الخالص، الذي يراد به وجه الله، وليس للذكر الذي تتحدث به الركبان:

«ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا»<sup>(٣)</sup>

كذلك . . لقد غيرت لا إله إلا الله كل شيء في حياة الجيل الأول، وأنشأت في مكانه واقعا جديدا كل الجدة، وارتبط هذا الواقع الجديد في حسهم بلا إله إلا الله، لأنها هي التي أحدثته بالفعل في داخل النفوس وفي واقع الحياة .  
حين كانت الآلهة في حسهم متعددة كان الضياع والتهيه، وكان الارتكاس في الحمأة الجاهلية، وكان فساد الأخلاق، وكان ضيق الأفق، وسطحية الاهتمامات وقرمها وأنانيتها، وكان الظلم المتبادل:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يظلم الناس يظلم!<sup>(٤)</sup>

(١) سورة الفتح [٢٦].

(٢) سورة البقرة [٢٦٤].

(٣) سورة الإنسان [٨-٩].

(٤) من معلقة الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى

وحين آمنوا بالله الواحد، وأقروا أنه لا إله إلا الله، تغير هذا كله، فوجدوا بعد ضياع، وورشدوا بعد تيه، وارتفعوا بعد ارتكاس، وسمت أخلاقهم بعد فساد، واتسعت آفاقهم بعد ضيق، وعمقت اهتماماتهم وبعدت آماها وذهبت عنها أنانيتها، وصارت الأخوة مكان التظالم . .

لذلك كان الإيمان بـ «لا إله إلا الله» موازيا في حسهم لهذا التغير العظيم كله، بل مؤديا إليه في الحقيقة، فلم تكن في حسهم هي الكلمة، إنما كانت موجودة في حسهم بمدلولها، بمقتضياتها، بترجمتها الواقعية . وكانت ترجمتها الواقعية هي ما تشتمل عليه حياتهم من كل شيء؛ من اعتقاد بوحدانية الله، إلى صلاة وصيام وزكاة وحج تؤدي كلها لله الواحد بلا شريك، إلى إقامة الحياة بكل دقائقها على مقتضى ما جاء من عند الله .

وهل لـ «لا إله إلا الله» معنى غير ذلك؟ أو ترجمة غير ذلك؟!

صحيح أن لتحقيق لا إله إلا الله في عالم الواقع درجات مختلفة<sup>(١)</sup>، كلها درجات لها، أدناها هو الحد الأدنى المفروض، وأعلىها هو تلك النماذج المتفردة التي أتى بها الجيل المتفرد. ولكنها في كل درجاتها الصحيحة، لا تهبط عن الحد الأدنى المفروض، لا تهبط عن الاعتقاد بوحدانية الله، وإقامة الشعائر التعبدية له وحده بلا شريك، وإقامة الحياة بمقتضى ما جاء من عند الله . . ثم ترتفع ما شاءت بعد ذلك في دقة الأداء وعمق الأداء . .

ولكنها ظلت خلال القرون المتوالية تضممر تدريجيا في حس الناس، وظل مفعولها يضممر في داخل النفوس وواقع الحياة، حتى أصبحت في النهاية لا تعمل . . وإنما تقال فقط، ثم تجري الحياة بعد قولها في مجراها الذي تسوقها إليه الظروف، كمن يضع في طريق التيار حاجزا يريد به ضبط التيار أو تحويله، ولكن الحاجز مملوء بالثقوب، فهو قائم ولكنه لا يصنع شيئا، والماء يجري من خلاله كأنه غير موجود! أو كورقة العملة المزيفة، تحمل ذات الألفاظ والرسوم التي تحملها الورقة الحقيقية، ولكنها لا تعني صاحبها، ولا تشتري له شيئا من السوق إن لم تعرضه للعقاب وللخزي . . لأنها ورقة بلا رصيد!

(٢) تقابلها درجات مختلفة من الجنة .



وكانت العبادة عند الذين تلقوا هذا الدين أول مرة أمرا شاملا للحياة كلها كما علمهم الله :

«قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له»<sup>(١)</sup>  
فلم تكن قط محصورة في الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج، ثم يعيش الإنسان فيما بين الشعيرة والشعيرة بلا عبادة! إنما الحياة كلها عبادة، وذكر الله - بما يقتضيه الذكر من عمل بمقتضى ما أنزل الله - عملية دائمة لا تتوقف:  
«الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم . . .»<sup>(٢)</sup>  
لذلك كانت قلوبهم مشغولة أبدا بذكر الله، وكانت كل لحظة من لحظات حياتهم عبادة.

لم يكن في حسهم في لحظة التجارة والبيع والشراء أنهم الآن في خارج العبادة، فلا عليهم أن يغفلوا عن ذكر الله، ولا عليهم أن يغشوا أو يخذعوا أو يسعوا إلى الربح الفاحش على حساب الناس!

لم يكن في حسهم في لحظة الترويح عن أنفسهم أنهم الآن في خارج العبادة، فلا عليهم أن يفحشوا ويمجنوا ويعصوا الله وينسوا أو امره حتى يعودوا إلى ذكره من جديد حين تحين «اللحظة» العبادة!

بعبارة أخرى لم تكن الحياة تنقسم في حسهم إلى «عبادات» و«معاملات» إنما هي عبادات مختلفة، بعضها شعائر مفروضة ذات أوقات محددة، وبعضها معاملات مفتوحة تشمل كل نشاط الإنسان السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي والعلمي والحضاري . . . ولكنها كلها داخلية في دائرة العبادة التي يذكر فيها اسم الله، ويلتزم فيها بما أنزل الله .

كذلك لم تكن الحياة تنقسم في حسهم إلى «ساعة لقلبك وساعة لربك» فالساعتان كلاهما لله، لأنها من ساعات الحياة، والحياة كلها لله . . .

وهل يمكن أن تكون العبادة شيئا غير هذا الذي فهمه الجيل المنفرد؟! هل التزامهم بما أنزل الله في «المعاملات» كان شيئا من عند أنفسهم تزيدوا به على هذا الدين؟ وهل التزامهم بأداب الإسلام وأخلاقياته حتى في ساعة

(١) سورة الأنعام [١٦٢-١٦٣]

(٢) سورة آل عمران [١٩١].

«الترويح» كان شيئاً من عند أنفسهم تزيّدوا به على هذا الدين؟

أم إن هذا هو «الدين» كما علمهم إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هل الصدق والأمانة في البيع والشراء والتجارة، والوفاء بالوعد، والإخلاص في العمل وإتقانه، والانضباط في السلوك، والالتزام بالأداب والأخلاق. . هل هذه كلها أشياء جاءوا بها عن أنفسهم، وتطوعوا بها تطوعاً غير مأمورين؟ نعم لقد كانت لهم مجالات تطوعهم التي تفردوا بها. . حين ألزموا أنفسهم بالمندوبيات كأنها فرائض، وهذا هو الذي ارتفع بهم إلى القمم السامقة التي وصلوا إليها. . أما تناول الحياة كلها على أنها عبادة يلتزم فيها الإنسان بما أنزل الله، ويتوجه بها إلى الله، فهل كان من عند أنفسهم؟ أم إنه هو التحقيق العملي لقوله تعالى: «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له»؟ وقوله تعالى: «يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم»؟!!

وإذا كان الصدق تكليفاً ربانياً، والأمانة تكليفاً ربانياً، والوفاء بالوعد تكليفاً ربانياً. . فهل هذه التكاليف داخله في العبادة أم خارجة عنها، زائده عليها؟ وكيف تكون خارجة عنها أو زائدة عليها والله سبحانه وتعالى يقرر بأقوى صيغ التوكيد (النفي والاستثناء) أنه لم يكلف البشر إلا أن يعبدوه:

«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»<sup>(١)</sup>.

فإذا كان أقصى الغاية التي خلق البشر ليقوموا بها هي العبادة، فهل يمكن أن يكون تكليف واحد من التكاليف خارجاً عن دائرة العبادة؟ وأين يكون إذن من قول الله المؤكد بأنه خلق البشر لعبادته وحدها لا ليقوموا بأي شيء آخر؟! لقد كان فهم الصحابة رضوان الله عليهم هو الفهم الحق، وكان سلوكهم بمقتضى هذا الفهم هو السلوك الحق.

ولكن خلفت من بعدهم أجيال أخذت تتخفف من التكاليف، فنخرجها رويداً رويداً من دائرة العبادة، وتضيّق دائرة العبادة تدريجياً حتى تحصرها نهائياً في الشعائر التعبدية ولا زيادة!

وحين خرج الصدق من دائرة العبادة لم يعد الصدق في حس الناس لازماً. . إنها أصبح شيئاً جميلاً إن وجد، فإن لم يوجد فلا بأس!

(١) سورة الذاريات [٥٦].

وحين خرجت الأمانة من دائرة العبادة لم تعد لازمة في التعامل! إنها هي جميلة  
إن وجدت في شخص بعينه، فإن لم توجد فلا بأس!  
وحين خرج الوفاء بالوعد من دائرة العبادة لم يعد لازما! إنها هو موعظة جميلة  
يلقى بها الخطيب في خطبة الجمعة، فإن لم يمارسه أحد فلا بأس!  
وهكذا صار عند الناس إسلام بلا أخلاق.. إسلام لم ينزله الله تعالى ولم يأمر  
به، إنها أمر بضده تماما.. ومع ذلك يمارسه الناس على أنه «غاية المراد من رب  
العباد»!!

ويجيء الفكر الإرجائي فيواكب هذا التخلف العقيدي المهلك، ويتسع تدريجيا  
مع كل تخلف جديد على أساس قاعدته «العظمى» أنه لا يضر مع الإيمان شيء.  
وأن الإيمان هو التصديق، أو هو الإقرار والتصديق، وأن العمل خارج من مسمى  
الإيمان!!

حقيقة أن الناس وهم يصنعون ذلك لم يكونوا قد خرجوا من دائرة الإيمان..  
وأنهم عصاة بين يدي الرحمن إن يشأ يعذبهم وإن يشأ يرحمهم. ولكن الزعم بأن  
«أمة محمد بخير» وهي تصنع ذلك كله، وأنه لا يضر مع الإيمان شيء، هو زعم  
باطل يكذبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويكذبه واقع التاريخ!  
فأما الله سبحانه وتعالى فيقول:

«ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من  
دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن  
فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا» (١)

وأما رسوله صلى الله عليه وسلم فقد سأل أحد صحابته رضوان الله عليهم:  
«كيف أصبحت؟» قال: «أصبحت مؤمنا حقا» قال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم «إن لكل حق حقيقة. فما حقيقة ما تقول؟» قال الصحابي: عزفت عن  
الدنيا وأظمأت نهاري وأسهرت ليلي وكأني أنظر إلى عرش ربي، وأني أنظر إلى أهل  
الجنة فيها يتجاوبون وإلى أهل النار يتعاونون. فقال له النبي صلى الله عليه  
وسلم: أنت أمرؤ نور الله قلبك. عرفت فالزم» (٢)

(١) سورة النساء [١٢٣ - ١٢٤]

(٢) أخرجه ابن عساکر عن أنس رضي الله عنه.

وأما التاريخ فقد قال كلمته، وكلمته هي سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول . .  
أن هذه الأمة تمكّن بقدر التزامها بمقتضيات الإيمان، لا بمجرد التصديق  
والإقرار، وأنها تزلزل ويزول عنها التمكين بمقدار ما تنتقص في عملها من  
مقتضيات الإيمان . . مقتضيات لا إله إلا الله .

وانظر إلى الجيل المتفرد - رضوان الله عليهم - يبطن عليهم النصر ذات مرة  
فيقولون لأنفسهم: لينظر كل ما قصر فيه من أوامره وأوامر ربه وأوامر رسوله صلى الله عليه  
وسلم، فيجد بعضهم أنه قد أهمل السواك، فيقولون: هو ذاك!! وانظر إلى  
الأجيال التي تنقض أوامر ربها، وتعيش إسلاما بلا عمل وإسلاما بلا أخلاق، ثم  
تقول: لا يضر مع الإيمان شيء!!

ثم انظر مكان هؤلاء وهؤلاء من التاريخ!

\* \* \*

وما بنا من حاجة أن نعيد الإشارة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من قبل، من فساد  
شامل عند الأجيال المتأخرة في كل مفاهيم الإسلام، سواء مفهوم القضاء والقدر،  
أو مفهوم الدنيا والآخرة، أو مفهوم عمارة الأرض، بالإضافة إلى مفهوم العبادة  
ومفهوم لا إله إلا الله . . إنما نخلص من هذه الإشارات كلها إلى حقيقة واقعة  
يمكن أن نطلق عليها حقيقة «التخلف العقيدي» في حياة الأمة، وما يصاحبها من  
«التخلف السلوكي» عن حقيقة الإسلام.

وكلا الأمرين خطير غاية الخطورة، ولكن الخطورة القصوى تكمن بلا شك في  
«التخلف العقيدي»، لأنه هو الذي يمد للتخلف السلوكي من ناحية، ويؤخر  
علاجه من ناحية أخرى. فحين تكون العقيدة صحيحة، ويكون التخلف  
السلوكي ناشئا فقط من التفلت البشري الطبيعي من التكليف، فإن التذكير  
يكفي لعلاجه، لأنه هو العلاج الرباني للغفلة التي تؤدي إلى نسيان التكليف. أما  
حين يكون التخلف العقيدي هو الداء، فالتذكير وحده - بالصور المعتادة - لا  
يكفي، لأنه لا يجد استجابته الطبيعية في القلب، ويحتاج الأمر إلى إبراء القلب ذاته  
مما ألم به من أمراض!

\* \* \*

هذا التخلف العقيدي - الذي هو عقدة العقد في حياة الأمة في الفترة الأخيرة

- قد وصل إلى أقصى درجاته في القرن الأخير خاصة، حين نحتت الشريعة الربانية عن الحكم على يد الغزو الصليبي الجائح . ولكننا لا نريد أن نتعجل خطوات التاريخ، بل نريد أن نتبعها خطوة خطوة حتى مرحلتها الأخيرة . إنها نريد هنا أن نحدد المعيار الذي نقيس به مدى ذلك التخلف في حياة الأمة . والمعيار ولا شك هو الكتاب والسنة، مرجع المسلمين في كل أمر من أمور حياتهم .

والمعيار كذلك هو حياة الأجيال الأولى من المسلمين، التي طبقت هذا الدين في عالم الواقع، التزاماً منها بمقتضيات الإيمان سواء في مجال التصور أو مجال السلوك .

فكلما اقتربنا من الكتاب والسنة، ومن حياة السلف الصالح رضوان الله عليهم، فنحن «متقدمون» عقدياً (وسلوياً كذلك بلا شك) وكلما تأخرنا عن الكتاب والسنة وعن حياة السلف الصالح فنحن متخلفون في مجال العقيدة (وبالتالي في مجال السلوك) .

وتلك أولى الحقائق المهمة التي ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا، سواء ونحن ندرس خط الانحراف وآثاره، أو ونحن نبحث عن طريق الخلاص؛ والتي ينبغي كذلك أن نستصحبها معنا دائماً لكي لا نضل الطريق .

## (٢) التخلف العلمي والحضاري والاقتصادي والحربي والفكري والثقافي

من التخلف العقيدي نشأت كل ألوان التخلف التي أصابت العالم الإسلامي . . التخلف العلمي والحضاري والاقتصادي والحربي والفكري والثقافي . .

وقد تختلف النسبة بين العوامل المختلفة التي أدت إلى التخلف العقيدي في تأثيرها في كل نوع من أنواع التخلف التي ذكرناها آنفاً، فتكون نسبة تأثير الفكر الإرجائي في بعضها أوضح، ونسبة تأثير الصوفية في بعضها أظهر، ونسبة تأثير

التفلت من التكاليف في بعضها أكثر، ونسبة تأثير الاستبداد السياسي في بعضها أشد . . ولكنها موجودة في مجموعها، وعاملة في كل مجال من مجالات التخلف التي ترتبت أصلا على التخلف العقيدي واستمدت منه .

فتحت تأثير الخدر الذي أنشأه الفكر الإرجائي، والذي مقتضاه أن الإنسان مؤمن كامل الإيمان بالتصديق والإقرار ولو لم يعمل بمقتضيات الإسلام . والخدر الذي أنشأته الصوفية سواء في تهويمات «الذكر» أو في إطماع العبد في مغفرة ربه بدون أن يعمل بمقتضيات الإسلام . وتحت تأثير الاستبداد السياسي الذي يجعل كل إنسان ينشغل بخاصة نفسه، ولا يلتفت إلى مصالح الجماعة ولا حاجات الأمة . . مصحوبا ذلك كله بالتفلت من التكاليف . . تحت تأثير ذلك كله غفت الأمة الإسلامية غفوة طويلة امتدت فترة قرنين من الزمن على الأقل إن لم يكن أكثر، تقابل من تاريخ أوربا قرنيها الثامن عشر والتاسع عشر، قرني الصعود الأوربي نحو السيطرة والتمكن، والتقدم العلمي والحضاري والمادي .

كانت أوربا قد برئت من آثار قرونها الوسطى المظلمة، وأقامت - عن طريق ما استمدت من العالم الإسلامي من علم وحضارة - حركة قوية في جميع الاتجاهات، وإن كانت فقيرة كل الفقر في الناحية الروحية والأخلاقية .

أما العالم الإسلامي فقد كان في نفس الفترة قد غفا غفوة الطويلة بتأثير ذلك الخدر المزدوج الذي أشرنا إليه، وبتأثير الاستبداد السياسي والتفلت من التكاليف، فكان على المنزلق الهابط في نفس الوقت الذي تبذل أوربا كل جهدها للصعود .

في المجال العلمي حدث تقلص ضخم، أبعده - بالتدرج - كل العلوم «الدنيوية» من معاهد العلم! في ذات الوقت الذي اقتصر فيه العلوم الشرعية على فكر القرن الخامس على أكثر تقدير، مع الفارق الكبير بين الأصالة التي كان عليها فكر القرن الخامس والتقليد الذي تلا ذلك من القرون، وظل «يتحجر» قرنا بعد قرن!

لقد كان من مفاخر الحركة العلمية الإسلامية كما أشرنا في الفصل الأول أنها تفتحت «للعلم» كله، وأبدعت في العلم كله، وكان العالم يكون عالما في العلوم الشرعية وعالما في ذات الوقت في الطب أو الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء بغير تعارض ولا تناقض بين هذا وذاك . وكانت المعاهد العلمية في الأندلس وغيرها -

تلك التي تعلمت فيها أوربا حين بدأت تخرج من قرونها المظلمة - تعلم طلابها كل فروع العلم وألوانه بغير تفریق، وكانت العلوم «الدينية» من المعالم البارزة في تلك المعاهد إلى جانب العلوم الشرعية، ومن هناك تعلمت أوربا المنهج التجريبي في البحث العلمي، وترجمت ما كتبه المسلمون في الطب والفلك والفيزياء والكيمياء والرياضيات والبصريات لتتلمذ عليه في بدء نهضتها الحديثة.

ولكن المسلمين «الغافلين» طردوا تلك العلوم تدريجيا من معاهدهم ليقصروا على العلوم الشرعية، مع ما في دراستهم للعلوم الشرعية ذاتها من «تخلف» عن الصورة التي ينبغي أن تكون الدراسة عليها. وهنا قد يكون تأثير الصوفية أوضح . .

فالصوفية هي التي فرقت بين الدنيا والآخرة، واتجهت إلى إهمال الدنيا بحجة تزكية الأرواح من أجل الآخرة، وأهملت بالتالي عمارة الأرض، على أساس أن الاشتغال بها يثقل الروح ويذهب عنها شفافيتها وطلاقتها، ومن ثم أهملت كل العلوم المتصلة بتلك العمارة، واعتبرتها نافلة تستطيع الأمة أن تستغنى عن أدائها بلا ضير<sup>(١)</sup>!

نعم قد يكون تأثير الصوفية هنا أوضح، ولكنها لا تستقل بالتأثير، فلو أن المسلمين قاموا بالتكاليف التي كلفهم بها ربهم، ومن بينها إعداد القوة لإرهاب أعداء الله، لوجدوا أنه لزام عليهم أن يتعلموا كثيرا من تلك العلوم الدينية ويتقنوها ويتفوقوا فيها على أعدائهم، لأنهم بغير هذه العلوم يعجزون عن الوفاء بأمر ربهم وتكليفه. ولكن التفلت من التكاليف كان يؤثر - إلى جانب الصوفية - في إهمال تلك العلوم وعدم الإحساس بالحاجة إليها، كما أن الفكر الإرجائي موجود دائما في الساحة يغطي كل نقص أو تقصير!

ورويدا رويدا فقدت الأمة حاستها العلمية بتاتا، وخرجت من الدائرة التي كانت هي مركزها في يوم من الأيام، يوم كانت هي الأمة العالمة في الأرض، وأوربا تهرع إليها لتتلمذ على مالديها من العلم.

---

(١) كان الغزالي - في القرن الخامس - على الرغم من اتجاهه الصوفي المعروف يتحدث عن فروض العين وفروض الكفاية من العلوم والمعارف، ويضع العلوم الدينية في فروض الكفاية التي تأثم الأمة في مجموعها إن لم يقم بها القادرون من أبنائها . . ولكن جاء عصر بعد ذلك سقطت فيه هذه العلوم نهائيا من حساب الأمة.

أما العلوم الشرعية فقد تأثرت هي الأخرى بروح «التقلص» العامة التي غشت العالم الإسلامي من أكثر من وجه .

فمن ناحية قل الإقبال على العلم عند الناس فتنفشت الأمية والجهل في الأمة، بنفس المقدار الذي كانت أوربا تزيل به أميتها وتفتح المدارس لنشر العلم! ومن ناحية أخرى جمدت العلوم الشرعية على صورتها التي كانت تدرس بها قبل خمسة قرون على الأقل بما كان قد دخل فيها من غزو فكري إغريقي، ومن «علم كلام» لا يغني ولا ينفع، فوق تحويله دراسة العقيدة إلى معاذلات ذهنية باردة معقدة تفرغ العقيدة من محتواها الحي وتحيلها إلى «قضايا» فلسفية مثيرة للجدل بغير نتيجة ولا غاية! وفوق ذلك كله فقد تحول الطلاب إلى حفظة لا مفكرين . يتعلم الواحد منهم بمقدار ما يحفظ من المتون والشروح والحواشي، ولكنه لا يفكر لنفسه ولا يفكر بنفسه، ففقد «العلماء» أصالة العلم وأصبحوا مجرد نقلة مقلدين، بل أضيف إلى ذلك شر ثالث، هو التعصب المذهبي الذي عم الدارسين، كل يتعصب لمذهبه الذي نشأ عليه، ويجعل قصارى «جهاده» من أجل دينه أن يثبت تفوق مذهبه وشيوخه على المذاهب الأخرى وشيوخها، وأن يدخل في معارك من أجل المذهب تتجاوز في كثير من الأحيان حد الجدل باللسان، إلى التدافع بالأيدى والأبدان! وفشت الفرقة والتنازع بين أصحاب المذاهب المختلفة حتى إن أحدهم قد يرفض أن يصلى خلف إمام من غير مذهبه، بل قد يقاتل أخاه في الصلاة لأنه رآه إلى جواره يرفع يديه أو يضعهما على صدره بما يخالف مذهبه، ويحس أن مقاتلته لأخيه في الإسلام على هذا النحو هي «الخدمة» التي يؤديها للإسلام!!

وحين يكون هذا حال الدارسين من الأمة في المعاهد الدينية - بعد أن تحولت بقية الأمة إلى أميين «لا يعلمون الكتاب إلا أمانى» - فأى فراغ من حقيقة الدين يملأ النفوس، وأي تهاة في اهتمامات الناس، بعد أن كان الدين هو محور الحياة ومحركها، وباعث الاهتمامات الجادة وموجهها!

وحقيقة إنه لم يخل عصر من عصور الإسلام - حتى أحلكها - من «عالم» بالمعنى الحق للعلم، ولكن قلتهم التدريجية لها دلالتها وفشو الجمود والتقليد له دلالته، فكل شيء متفق مع التقلص والضمور الذي غشى بطابعه كل شيء . . .  
والخلاصة أن التخلف العلمي بشقيه الدنيوي والشرعي - الناشئ أصلا من



التخلف العقيدي - أصبح هو الطابع السائد للمجتمع الإسلامي قبيل الغزوة الصليبية الهائلة التي اجتاحت بلاد الإسلام في العصر الحديث.

\* \* \*

أما التخلف الحضاري - بشقيه المعنوي والمادي - فهو صنو التخلف العلمي وزميله على الطريق! كما أنه نابع من نفس المنبع، ومتأثر بذات المؤثر، وهو التخلف العقيدي.

أما الجانب المعنوي - جانب الأخلاق والقيم - فقد أسقطه الفكر الإرجائي حين قدم للناس إسلاما بلا أخلاق! ذلك أن الأخلاق - وإن كانت قيما معنوية - فإنها من جانب آخر سلوك، وإلا فهي شعارات معلقة في الفضاء لا واقع لها في عالم الحقيقة.

وحين كان الدين على حقيقته، كان من مزاياه الكبرى أنه قيم أخلاقية مطبقة في عالم الواقع في صورة سلوك واقعي، وكانت هذه - في حس الأجيال الأولى - هي الترجمة الحقيقية لـ «لا إله إلا الله». . أي أنها كانت مرتبطة في حسهم بالعقيدة. أو بعبارة أخرى كان في حسهم أن من يعتقد هذه العقيدة ينبغي أن يكون سلوكه ملتزما بتلك القيم الأخلاقية كما علمهم رسولهم صلى الله عليه وسلم حين قال لهم: «الدين المعاملة» وكما قالت لهم عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: «كان خلقه القرآن».

وهذا الارتباط بين العقيدة ومقتضياتها الأخلاقية هو القيمة الحضارية الجوهرية في هذا الدين، التي تجعل المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر، مهما يكن نصيبه ضئيلا من العمارة المادية للأرض، وتجعل العقيدة في هذا الدين هي جوهر الحضارة، بما يشع منها ويرتبط بها من قيم وأخلاق.

وهذا المعيار كان الجيل المتفرد أعلى جيل حضاري في تاريخ البشرية كله، على الرغم من البساطة المتناهية في الأشكال المادية والتنظيمية التي كانت في متناول يديه، لأنه كان يارس - في عالم الواقع - أعلى قيم إنسانية وأخلاقية عرفتها البشرية.

ثم جاء العمران المادي في موعده كما بينا في الفصل الأول، امتداداً للدفة الحيوية الهائلة التي أطلقها الإسلام في الأمة الإسلامية في جميع الاتجاهات،

فاكتمل «الشكل» الحضاري الذي يغلف «المضمون» الذي كان قائما من لحظة الميلاد.

ولكن الفساد الذي طرأ على مفهوم «العبادة» فحصرها في الشعائر التعبدية فحسب، وأخرج منها ألوانا كثيرة من «المعاملات» كانت في حس الأجيال الأولى داخلية في مفهوم العبادة الواسع الشامل، باعتبارها «سلوكا» إسلاميا مرتبطا بلا إله إلا الله . . ثم الفكر الإرجائي الذي أعطى لهذا الفساد شرعية حين أخرج «العمل» من مسمى الإيمان ومن مقتضياته . . هذا وذاك قد دمرا الجوهر الحضاري المتضمن في هذا الدين، الذي كان قوامه السلوك الأخلاقي المرتبط بالعقيدة، المترجم لها في دنيا الواقع .

بعبارة أخرى حين صار «المسلم» لا يجد حرجا في قلبه أن يكذب، وأن يغش، وأن يخون الأمانة، وأن يتهاون في العمل، وأن يخلف الوعد، وأن يحقد على أخيه ويتمنى زوال نعمته، وأن ينافق، وأن يغمز ويلمز ويغتتاب، وأن يبخل ويحجن، وأن يبيت شبعا وجاره جوعان وهو يعلم . . فَقَدْ فَقَدَ جوهره الحضاري الإسلامي، لأنه تجرد من أخلاقيات لا إله إلا الله، وتجرد من قيمها الإنسانية العليا، التي هي جوهر الحضارة وعماد المجتمع المتحضر.

ومن الجانب الآخر فإن الاتجاه الصوفي الذي أهمل عمارة الأرض وتنميتها وتنظيم شئونها على أساس أن الدنيا جيفة وطلابها كلاب، وأنها لا تستحق عند الله جناح بعوضة، فينبغي أن تكون في حس المؤمن التقي أضال وأحقر من أن يلقي إليها التفاتة عابرة<sup>(١)</sup> . . هذا الاتجاه الصوفي قد أتى كذلك على «الشكل» الحضاري، وقعد بالناس عن الإنشاء والتشييد، وقعد بهم عن التنظيم كذلك، لأنهم - ونقص الغالبية بطبيعة الحال - قد أصبحوا فقراء، ثم رضوا بالفقر، وفلسفوا رضاهم بأنه من القناعة المحبوبة، ومن الرضا بقدر الله! فلم تعد التنمية لازمة لهم، ولم يعد التنظيم لازما كذلك، فإنها سنوات عابرة تمضي على أي وضع وفي أية صورة، ثم يذهب الناس إلى ربهم فينعمون بالخلد في جنات النعيم .

---

(١) بينا من قبل في الكلام عن «خط الانحراف» أن الدنيا تدم في القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم حين تصد الإنسان عن الإيمان بالله أو عن الجهاد في سبيله . ولكن توجهات الإسلام صريحة في وجوب المشي في مناكب الأرض وابتغاء فضل الله، وعمارة الأرض بمقتضى منهج الله .

فإذا أضيف إلى ذلك ما تحمله الصوفية في طياتها من تواكل، وتقاعس عن الأخذ بالأسباب، واعتقاد أو إحساس بأن الواقع الموجود مهما يكن من سونه فلا ينبغي أن يسعى المرء إلى تغييره، بل لا ينبغي أن تساوره الرغبة في ذلك لأن ذلك يعتبر تمردا على قدر الله . . فقد انعدمت الرغبة تماما في أي إبداع حضاري مادي وتنظيمي . ثم يجيء الفقر العلمي المدقع فينشئ عجزا كاملا عن الأداء حتى لو وجدت الرغبة في النفوس!

وهكذا . . من نقطة التخلف العقيدي، المتمثل في فساد مفهوم العبادة، والفكر الإرجائي الذي يعطي ذلك الفساد شرعية، والاتجاه الصوفي المنحرف عن التوازن الإسلامي، وعن الممارسة الإسلامية الواقعية للحياة وتعميرها بمقتضى المنهج الرباني تكليفا لا تطوعا . .

من نقطة التخلف العقيدي نشأ تخلف حضاري هائل، أخرج هذه الأمة من زمرة المتحضرين، كما أخرجها التخلف العقيدي من قبل من زمرة المتعلمين . .

\* \* \*

لا يحتاج التخلف الاقتصادي الذي أحاط بالعالم الإسلامي إلى جهد في بيان أسبابه الحقيقية في حياة الأمة . نعم لقد كانت هناك أسباب خارجية قوية أسهمت في هذا التخلف . . ولكنها - وحدها - لا تبرره ولا تفسره .

لقد كانت أوروبا الصليبية تسعى - منذ القضاء على الدولة الإسلامية في الأندلس - إلى تطويق العالم الإسلامي، وإضعافه بكل الوسائل<sup>(١)</sup>. وكان من بين الوسائل التي اتخذوها السعي الدائب لتحويل التجارة العالمية إلى أيديهم، وانتزاعها من يد الممالك، الذين كانوا يمسكون بزمامها عن طريق سيطرتهم على البحر الأحمر والبحر الأبيض، فتدر عليهم أموالا طائلة، وعلى العالم الإسلامي كله كذلك .

ومنذ اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح، الذي كشفه على هدى الخرائط الإسلامية وبمعاونة بحارة مسلمين (!) بدأوا يتجهون إلى الشرق الأقصى

---

(١) سنتحدث عن الغزو الصليبي فيما بعد .

ليستولوا على أرضه وخيراته، وينقلوها على سفنهم عن طريق رأس الرجاء الصالح فيحرموا منها دولة الممالك، ويحرموا منها العالم الإسلامي كله.. حدث ذلك بالفعل، وتأثرت اقتصاديات العالم الإسلامي تأثرا بالغا بما حدث.

ولكن.. هل هذا هو التفسير؟ أو هذا هو التبرير؟! أين كانت مراكز القوة يوم قامت الدولة الإسلامية أول مرة، سواء القوة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية؟ ألم تكن كلها في يد فارس والروم؟ فما الذي حدث في التاريخ؟!

لقد انساحت الأمانة المؤمنة في الأرض، فأزالت قوى الباطل ودكتها دكا، وأقامت في مكانها دولة الإسلام، واستولت هي على مراكز القوة فأصبحت أكبر قوة في الأرض، وشملت قوتها كل جانب، فصارت في يدها القوة الحربية والسياسية والاقتصادية، وكان ذلك كله تحقيقا لوعده الله للمؤمنين من هذه الأمة:

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئا»<sup>(١)</sup>.

فما الذي غير الحال بعد ذلك، وسلب مراكز القوة من يد المسلمين؟ سنقول: ضعفت قوتهم الحربية بينما ازدادت قوة أعدائهم فتغلبوا عليهم..<sup>(٢)</sup> نعم، تلك هي الأسباب الظاهرة، ولا شك. ولكن قراءة التاريخ بالأسباب الظاهرة وحدها لا تؤدي إلى الحقيقة، بل قد تضلل عن الحقيقة..

يقول أصدق القائلين: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»<sup>(٣)</sup> ويقول: «ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»<sup>(٤)</sup>.

والذي يشغل النفوس المؤمنة هو الإيمان.. والذي يتغير في النفوس هو حقيقة الإيمان.

فحين تكون الأمة «متقدمة» في الإيمان، يتحقق لها وعد الله بالاستخلاف

(٢) نتحدث عن التخلف الحربي في الفقرة التالية.

(٤) سورة الأنفال [٥٣].

(١) سورة النور [٥٥].

(٣) سورة الرعد [١١].

والتمكنين والتأمين. وحين تكون «متخلفة» يحدث تغيير النعمة (أى سلبها)،  
ويذهب عن الأمة الاستخلاف والتمكنين والتأمين.

فسلب التجارة من يد المسلمين، واستيلاء أوربا الصليبية عليها، له أسبابه  
الكامنة في التخلف العقيدى الذي أصاب الأمة في مجموعها، والتقلص والضمور  
الذي ترتب عليه في كل اتجاه.

فتضاؤل القوة الحربية الذي مكن الأعداء من أجزاء متزايدة من العالم  
الإسلامي هو ذاته - كما سنبين في الفقرة التالية - أثر من آثار التخلف العقيدى .  
ولكن آثار التخلف العقيدى في الميدان الاقتصادي الخاص لا تحتاج إلى توكيد .  
فلنفرض أن التجارة العالمية قد سلبت من أيدي المسلمين لسبب قاهر لا  
يقدرون على درئته، فهل تتوقف ثروة العالم الاسلامي على التجارة وحدها في ذلك  
الحين أو في أي حين؟!!

إن الأرض الإسلامية من المحيط إلى المحيط هي - بقدر من الله - أغنى بقعة  
في الأرض وأكثرها خيرات، وقد كانت - وما تزال حتى هذه اللحظة - لم تستثمر  
الاستثمار الكامل، الذي يستغل كل مواردها وكل طاقاتها .

فإذا ضاع جزء من الثروة لأسباب قاهرة، فلماذا لم تسع الأمة - في مجموعها - إلى  
استغلال الثروات الأخرى القابلة للاستغلال، من زراعة وصناعة ومعادن مذكورة  
في باطن الأرض؟!!

السبب هو التقاعس، والتواكل، والضعف العلمى، ووهن العزائم،  
والانصراف عن عمارة الأرض، والرضى بالفقر على أنه قدر من الله لا ينبغى  
السعى إلى تغييره خوفا من الوقوع في خطيئة التمرد على قدر الله!

ومن أين نشأت هذه العوامل كلها إلا من التخلف العقيدى؟!  
لو تخيلنا هذا العارض - وهو ضياع التجارة من يد المسلمين - قد حدث للأجيال  
الأولى من هذه الأمة، فهل كان رد الفعل عندها سيكون مماثلا لما حدث للأجيال  
المتأخرة؟

وهل يكمن الفارق في الظروف الخارجية التى أحاطت بالمسلمين؟ أم إنه راجع  
في حقيقة الأمر إلى الفارق النفسى الهائل بين أول هذه الأمة وآخرها . . بين الإيمان  
الصحيح والإيمان المخلخل المنحرف . . أى راجع إلى التخلف العقيدى الذى  
أصاب الأمة في أجيالها المتأخرة؟

وكذلك ينبغي أن يكون فهمنا لأحداث التاريخ الإسلامي .  
 إن أما أخرى - غير الأمة الإسلامية - يمكن أن تنال القوة والتمكين في الأرض  
 بالبعد عن الله! بل كلما زادت بعدا عن الله زادت في القوة والتمكين . . كما هو  
 حال أوروبا الكافرة الجاحدة اليوم، لأن هذا من السنن الربانية في معاملة الكفار:  
 «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء . .» (١).

لفترة من الزمن يقدرها الله . . ثم يأتي التدمير:  
 « . . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم  
 الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» (٢).

أما أمة الإسلام فإنها تعامل بسنة خاصة . . لا يمكنون إلا على الإيثار، فإذا  
 انحرفوا زال عنهم التمكين؛ ذلك لأن الله لا يريد لهم أن يفتنوا بالتمكين وهم  
 منحرفون عن طريقه، فيزيدوا انحرافا حتى يصلوا إلى الكفر فتأخذهم سنة  
 الكافرين:

«من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا  
 يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها،  
 وباطل ما كانوا يعملون» (٣).

فمن رحمته سبحانه بهذه الأمة أنه لا يمكنها أبداً وهي منحرفة عن السبيل! لكي  
 تعود إليه، فيمكنها وهو راض عنها، ويدخر لها في الآخرة ما يدخره لعباده  
 الصالحين.

\* \* \*

وأما التخلف الحربي فصلته بالتخلف العميدى واضحة بكل تأكيد!  
 فكل عوامل التخلف العميدى قد أثرت في القوة الحربية لهذه الأمة، سواء  
 الاتجاه الصوفي الذي يصرف الناس عن جهاد الأعداء بحجة توفير الطاقة لجهاد  
 النفس! أو الفكر الإرجائي الذي يغطي كل تخلف عن حقيقة الإسلام ويربت  
 عليه ويمنحه شرعية الوجود، أو التفلت من التكاليف التي أمرت بإعداد القوة  
 لإرهاب الأعداء، أو انشغال الحكام بفرض سلطانهم على شعوبهم عن الجهاد  
 لإعلاء كلمة الله .

(٢) سورة الأنعام [٤٤-٤٥]

(١) سورة الأنعام [٤٤]

(٣) سورة هود [١٥-١٦].

فإذا أضيف إلى ذلك التخلف العلمي والتكنولوجي ، النابع أصلا من التخلف العقيدى، فقد اكتملت أسباب التخلف الحربى، وأصبح هو النتيجة المنطقية لكل الظروف التى أحاطت بالناس فى القرون الأخيرة.

لقد حملت الدولة العثمانية عبء حماية العالم الإسلامى من الغزو الصليبي عدة قرون؛ وإن جهادها فى هذا السبيل، وإخلاص نيتها، وبذلها جهد الطاقة، لما يحسب لها فى ميزانها عند الله يوم القيامة.

ولكن عوامل التخلف التى كانت تحيط العالم الإسلامى كله، ولا تنجو منها الدولة الحاكمة، ظلت تؤتى ثمارها التدريجية فى الميدان الحربى كغيره من الميادين.

فبعد أن وصلت الجيوش الإسلامية إلى فينا غربا وبطرسبرج (لنتجراد حاليا) شرقا، وحاصرت كلاً منهما فترة من الوقت، أخذت تتراجع لا عن تلك الأهداف القصوى وحدها، بل عن الأهداف الدنيا، حتى أكلت روسيا الصليبية بقاعا واسعة من الأرض كل سكانها مسلمون! كما أكلت أوروبا الصليبية بقاعا من الأرض كانت خاضعة للحكم الإسلامى، يعيش فيها نصارى ومسلمون تتراوح نسبتهم من مكان إلى مكان، وكان التخلف الحربى سبباً من الأسباب الرئيسية فى هذا التقلص المستمر.

نعم، لقد كانت أوروبا تتقوى باستمرار، حتى صارت قوتها مكافئة لقوة الدولة العثمانية، ثم بدأت تتفوق عليها، فتغير ميزان القوى، وبدأت الصليبية تأكل من جسم العالم الإسلامى.

ولكن هذا - وحده - لا يفسر ولا يبرر!

إنما الذى يفسر - وإن كان لا يبرر! -<sup>(١)</sup> هو الجمود والقفود، والرضى بالموجود، والتواكل بدلا من التوكل الحق مع الأخذ بالأسباب، والتخلف العلمى والصناعى، وفقدان روح الابتكار. . وكلها كما بينا من قبل راجعة إلى ذلك التخلف الأساسى الخطير عن حقيقة الإيمان كما بينها الله ورسوله للمؤمنين.

وإذا كان هذا حال الدولة الحاكمة، التى أخذت على عاتقها حماية العالم

---

(١) لا شئ، يبرر الانحراف عن سبيل الله، والتفاس عن الجهاد وإعداد العدة له!

الإسلامى من الغزو الصليبي فإن حال بقية العالم الإسلامى كان أسوأ بكثير. إن الشعب التركى شعب عسكري بطبعه، كما أنه بطبعه كذلك شديد المحافظة على التقاليد، يضاف إلى ذلك صرامته فى التربية، لصب أبنائه وبناته منذ نعومة أظفارهم فى القوالب المضبوطة التى يراد تنشئتهم عليها. وكان لهذا كله أثره فى إطالة عمر الدولة رغم كل عوامل الهدم فى داخلها، وفى صلابة شعبها وتماسكه رغم الهزائم المتوالية التى حلت بالدولة فى القرنين الأخيرين.

أما بقية العالم الإسلامى - على اختلاف فى الدرجة بين شعب وشعب - فكان نصيبه من هذه الصفات أقل، مع وجود التخلف العقيدى بكل آثاره المدمرة فى العالم الإسلامى كله بلا استثناء. . فضلا عن تعرض تلك الأقطار للغزو الصليبي فى وقت باكر منذ القرن السابع عشر الميلادى إلى القرن التاسع عشر. . لذلك كان الانهيار فيها أسرع، لأن عوامل التخلف كانت فيها أشد!

لقد قاتل المماليك ببسالة نادرة أمام الحملة الصليبية الفرنسية بقيادة نابليون. . ولكن ماذا تجدى البنادق إزاء المدفع الذى سلح به نابليون جيشه؟! لقد كانت الهزيمة حاسمة. . هزيمة التخلف الحربى أمام التقدم والابتكار! وحدث مثل ذلك تباعا فى العالم الإسلامى. . وانتهت المعارك بانتصار القوة الجديدة على التخلف والجمود.

\* \* \*

من نافلة القول أن نتحدث عن التخلف الفكرى والثقافى فى الجو الذى وصفناه. . بعد كل الذى ذكرناه! فكلها ألوان من التخلف ممسك بعضها برقاب بعض، ومؤد فى النهاية إلى الانهيار.

ولكن الصلة بين التخلف الفكرى والثقافى وبين التخلف العقيدى قد تحتاج إلى إشارة خاصة بمناسبة ما تبدئ الجاهلية المعاصرة وتعيد فى هذا الشأن بالذات.

لقد أوحى الغزو الصليبي للمسلمين - كما سيأتى الحديث - بأن كل ما أصاب المسلمين من تخلف كان بسبب أنهم مسلمون! أى بسبب الإسلام! وركز بصفة خاصة على الجانب الفكرى والثقافى مستدلا بتاريخ الكنيسة فى أوروبا، وبأن أوروبا كانت متخلفة فى جميع الميادين - وميدان الفكر والثقافة خاصة - وقت أن كانت



حياتها محكومة بالدين ، وأنها لم تتقدم وتتخضر وتنطلق في جميع الميادين إلا بعد أن «تحررت» من ربة الدين .

وسوف نتناول هذه القضية بتفصيل أكثر في موضع آخر حين نعرض للغزو الفكرى وآثاره في حياة المسلمين . ولكننا نحب هنا أن نرجع إلى حقيقة تاريخية حاسمة الدلالة .

إن الدعوة إلى «التفكر» وإلى استخدام «العقل» على أساس منهجى صحيح ، هى فى صميمها دعوة هذا الدين . والدعوة إلى السياحة فى الأرض ودراسة التاريخ على أساس منهجى كذلك ، هى فى صميمها دعوة هذا الدين . والدعوة إلى تدبر آيات الله فى الكون ، والتعرف على السنن الربانية فى الكون المادى وفى الحياة البشرية ، هى فى صميمها دعوة هذا الدين .<sup>(١)</sup>

ومن توجيهات القرآن الكريم وتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم انطلق «الفكر» الإسلامى فى جميع ميادين الفكر والثقافة التى كانت متاحة يومئذ ، وأبدع فيها إبداعات تدل على الأصالة والتمكن والثقة بالذات . . . وكان هذا كله صدقاً للحركة العقيدية الضخمة التى تحركت بها الأمة الإسلامية فى جميع الميادين ، وصدقاً لإيمانها بأن «طلب العلم فريضة» كما علمها رسولها الكريم صلى الله عليه وسلم ، وصدقاً لتلك الكلمة العظيمة الكريمة التى بدأ بها تنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اقرأ»

ولما حدث التخلف العقيدى التدريجى ، الذى حصر العبادة فى الشعائر التعبدية وحدها ، وأخرج منها بقية التكليف ، حدث ضمور تدريجى فى جميع التكليف التى كانت من قبل مرتبطة بالعقيدة ، ومرتبطة بالمعنى الشامل للعبادة ، وأصبحت أموراً «كسالية» إن شاء الإنسان قام بها وإن شاء تركها بلا ضمير! وكان طلب العلم ، والقراءة ، والتفكير ، من بين هذه التكليف التى خرجت من حيز العبادة فأصابتها الضمور . ثم جاء الفكر الإرجائى فرتب على هذا التخلف ومنحه الشرعية القائمة على أنه لا يضر مع الإيمان شئ! وجاءت الصوفية فحصرت عمل العقل كله فى

(١) راجع - إن شئت - فصل «العقلانية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .

أضيق نطاق ممكن، لتفسح المجال - في وهما - لعمل الروح! وساعد الاستبداد السياسي على إحداث جمود شامل في جميع المجالات. . ومن هذا التخلف العقيدى نشأ التخلف الفكرى والثقافى وأخذ مكانه في موعده المقدور!

\* \* \*

حين حدث هذا القدر الهائل من التخلف، العقيدى أولاً، ثم العلمى والحضارى والاقتصادى والحربى والثقافى والفكرى. . فماذا بقى؟!  
إسلام بلا أخلاق. إسلام بلا حضارة. إسلام بلا علم. إسلام بلا ثقافة ولا فكر. إسلام متهالك القوى الاقتصادية والحربية والمادية. . ماذا بقى فيه من حقيقة الإسلام؟!

فأما الفكر الإرجائى فقد رضى عن هذا الإسلام المتخلف المتهالك وقال: لا ضير! لأنه لا يضر مع الإيمان شئ!  
وأما الاتجاه الصوفى فقد رضى كذلك عن هذا الإسلام المتخلف المتهالك وقال: لا ضير! فهذه كلها من أمور الدنيا الفانية، وليس المهم هو الدنيا إنما هو الآخرة. ليس عالم المادة وإنما عالم الروح!  
وأما بالنسبة لحقيقة الإسلام، فقد كان هذا الإسلام المتخلف المتهالك يوشك في الحقيقة أن يصبح إسلاما بلا إسلام!!  
وعندئذ أقبل الصليبيون. . من كل حذب ينسلون.

### (٣) الغزو الصليبي

بدأت محاولات الغزو الصليبي الحديث في الحقيقة منذ بدايات القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) بعد طرد الإسلام من الأندلس. فحين سقطت آخر دويلة إسلامية في الأندلس - وهى دويلة غرناطة - عام ١٤٩٢م بعد معارك وحشية طويلة، بارك البابا الانتصار الصليبي، وشجع الصليبيين على متابعة المسلمين لطردهم من بقية بلاد الإسلام!

وعلى الرغم من أن المسلمين الذى بقوا في الأندلس قد ظلوا محافظين على إسلامهم سرا ما يقرب من مائتى عام تحت الضغط الوحشى الواقع عليهم من

محاكم التفتيش، مما لا مثيل له في الوحشية في التاريخ كله من قبل.. فلم يكن من المتوقع أن يظلوا على إسلامهم بغير قوة تحميهم من البطش.. فتلاشوا تدريجياً حتى انتهوا.

ولم يكن في وسع الصليبية الحاكمة أن تكرر مسيرتها الأولى إلى بيت المقدس من طريق الشرق، لأن الدولة العثمانية الفتية لم تكن واقفة لهم بالمرصاد فحسب، بل كانت بكل حيويتها العارمة تتوغل في شرق أوروبا بقوة كاسحة لا يقف أمامها شيء. وكانت - كما يقول المستشرق الكندي المعاصر ولفرد كانتول سميث - لا تكتسح الأرض فقط، بل كانت تكتسح العقيدة المسيحية ذاتها، ويدخل أهلها في الإسلام بعشرات الألوف كل عام:

«إلى أن قام كارل ماركس وقامت الشيوعية، كان النبي «صلى الله عليه وسلم» (يقصد الإسلام) هو التحدى الحقيقي الوحيد للحضارة الغربية الذي واجهته في تاريخها كله. وإنه لمن المهم أن نتذكر كم كان هذا التحدى حقيقياً، وكم كان يبدو في وقت من الأوقات تهديداً خطيراً حقاً.

«لقد كان الهجوم مباشراً في كلا الميدانين الحربى والعقيدى، وكان قويا جداً.. فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة «أجمل مقاطعات الإمبراطورية الرومانية» لتسلمها منها القوة الجديدة، وكانت في خطر من ضياع الإمبراطورية بكاملها. وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تقع - تماماً - في يد الجيوش العربية كما وقعت مصر وسوريا، فقد استمر الضغط عليها فترة طويلة. وفي موجة التوسع الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل سنة ١٤٥٣، وفي قلب أوروبا المفزعة ذاتها أحاط الحصار بفينا سنة ١٥٢٩، بينما ظل الزحف، الذى بدأ عنيدا لا يلبس، مستمرا في طريقه. وحدث ذلك مرة أخرى في وقت قريب لم يتناول عليه العهد في سنة ١٦٨٣، وإن وقوع تشيكوسلوفاكيا في قبضة الشيوعية عام ١٩٤٨ لم يكن له قط في العصر الحديث ذلك الفزع في نفوس الغرب المثيب، كما كان لذلك الزحف المستمر قرنا بعد قرن، من تلك القوة الضخمة المهذبة، التى لا تكف ولا تهدأ، ويتكرر انتصارها مرة بعد مرة.

«وكما هو الأمر مع الشيوعية، كذلك كان التهديد والانتصارات [الإسلامية] قائمين في عالم القيم والأفكار أيضاً. فقد كان الهجوم الإسلامى موجهاً إلى عالم

النظريات كما هو موجه إلى عالم الواقع . وقد عملت العقيدة الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسي للعقيدة المسيحية، التي كانت بالنسبة لأوروبا العقيدة السامية التي أخذت - في بطن - تبنى حولها حضارتها . وكان التهديد الإسلامى موجهها بقوة وعنف، وكان ناجحا مكتسحا في نصف العالم المسيحى تقريبا . والإسلام هو القوة الإيجابية الوحيدة التي انتزعت من المسيحيين أناسا دخلوا في الدين الجديد وآمنوا به . . بعشرات الملايين» (١) .

ولكن الصليبية وقد عجزت عن اختراق الحاجز العثماني في الشرق، بل لم تفكر مجرد تفكير في اقتحامه، اتجهت إلى الالتفاف حول العالم الإسلامى من جهة الغرب، وخاصة بعد اكتشافها لطريق رأس الرجاء الصالح . كان الطريق من أقصى الشرق إلى أوروبا عبر رأس الرجاء الصالح معروفا ومحفوظا عند المسلمين، دونوه في خرائطهم، ودرسوا أحواله الملاحية دراسة دقيقة كما يبدو من كتاب «عجائب الهند» للبيرونى وغيره، ولكن أوروبا كانت قابضة في ظلمات قرونها الوسطى المظلمة، لا تعرف عن العالم إلا القليل، ولا تخاطر بركوب بحاره ومحيطاته .

ولكن مجموعة من العوامل المتفاعلة في داخل أوروبا دفعتها أخيرا إلى ارتياد البحار المجهولة، وكان من أقوى هذه العوامل الدافع الصليبي، الذى عملت البابوية على تشجيعه، متمثلا في متابعة المسلمين بعد طردهم من الأندلس، للاستيلاء على بلادهم وإخضاعها لحكمهم - إن لم يكن طردهم منها كما طردوهم من الأندلس - وتمثلا كذلك في محاولة انتزاع السيطرة التجارية العالمية منهم وحيازتها في أيدهم، لإضعاف المسلمين من جهة، والتقوى على حريهم من جهة أخرى .

ومن أعاجيب ذلك الزمان أن يكون الرائد الذى دل فاسكو داجاما وأعانه على إتمام رحلته هو البحار العربى المسلم «ابن ماجد» الذى أمدّه بالمعلومات والخرائط، بل قاد بنفسه سفينته نحو جزر الهند الشرقية!!  
غفلة أم قهر . . ؟ لست أدري!

(١) ولقد كانتول سميث، الإسلام في التاريخ الحديث، الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

وحين أتم فاسكو داجاما رحلته بمعونة ابن ماجد، قال قولته الشهيرة المفصحة عن الهدف الحقيقي للرحلة، الذى نتغافل نحن عنه حين ندرّس الرحلة لأبنائنا بتأثير الغزو الفكرى كما سيجىء، ونزعم لطلابنا أنها كانت رحلة «علمية»! قال: الآن طوقنا رقبة الإسلام، ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق ويموت!!  
رحلة صليبية واضحة الأهداف.

ومثلها كل الرحلات الأخرى التى قام بها الصليبيون فى العالم الإسلامى، يدرسون مداخلة ومخارجه، ويرجعون إلى حكوماتهم ليدلوها على طريقة التسلل إلى بلاد المسلمين. وأشهرها رحلة ماجلان، التى كان هدفها الاستيلاء على الأرض الإسلامىة فى الفلبين وإخضاعها لحكم الصليبيين، والتى ندرّسها لأبنائنا كذلك على أنها من أعظم الرحلات «العلمية» الاستكشافية فى التاريخ!<sup>(١)</sup>  
أما أنها استكشافية نعم! وأما أنها «علمية». . . فليس شىء أشد من ذلك تزويراً على التاريخ.

ثم إنها استكشافية بالنسبة لأوربا، لأنها كشفت للأوروبيين بلادا لم يكونوا يعلمون عنها شئيا إلا بالسمع. أما بالنسبة لنا نحن المسلمين! هل كانت بلادنا مجهولة منا فى انتظار أن يأتى ماجلان فيكشفها لنا، كما نوحى لأبنائنا ونحن ندرّس لهم التاريخ؟! <sup>(٢)</sup>

\* \* \*

توالت الرحلات. . . وتوالت الاستكشافات. . . وبدأت السرقات!  
يجىء الصليبيون إلى سلطان من سلاطين المسلمين - فى أفريقيا خاصة - فليجأون إلى كرمه - أو قل إلى غفلته! - فيطلبون منه مساعدة سفنهم التى ترسو فى مرافئه فيساعدهم بلا شك! فيطلبون قطعة أرض على الشاطئ ليقوموا هم بخدمة سفنهم إذا جاءت! فيعطيهم قطعة الأرض بمقتضى «الكرم» ولاشك! فإذا استولوا

---

(١) كتب ماجلان إلى البابا عدة مرات يطلب الإذن له بإعداد «رحلة» إلى الفلبين لإخضاع «الكفار» (أى المسلمين) لحكم الصليب، وأخيرا أذن له البابا فقام برحلته «العلمية» الاستكشافية! ولما حاول رفع الصليب على الأرض الإسلامىة قتله المسلمون. ونحن ندرس لأبنائنا أن «المبشرين» قتلوه، لأنهم لم يقدرُوا قيمة الرحلة الاستكشافية العظيمة!

(٢) انظر من كتابات المسلمين - على سبيل المثال - رحلة ابن بطوطة!

على قطعة الأرض وصارت لهم نقطة ارتكاز على الشاطئ جاءوا بالسفن المحملة بالجنود والسلاح، ونزلوا في المرفأ، وجاسوا خلال الديارا!  
ولم تكن هذه بطبيعة الحال هي الطريقة الوحيدة للغزو الصليبي، فقد استخدموا كل الوسائل التي تحقق لهم أهدافهم، من غزو عسكري صريح،<sup>(١)</sup> إلى حملات تبشيرية تمهد السبيل<sup>(٢)</sup> إلى تسلسل «تجاري» ينقلب فيما بعد إلى استعمار كامل<sup>(٣)</sup>.

وأخيرا - في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي - كانوا قد احتلوا كل الأرض الإسلامية تقريبا، ما عدا تركيا ذاتها، وأجزاء من الجزيرة العربية، وأخضعوا المسلمين في مناطق احتلالهم للحكم الصليبي جهرة أو بوساطة حكام من «المسلمين!» يقومون بالحكم ظاهرا، ومن ورائهم - أو من خلالهم - يحكم الصليبيون!

لا تحتاج ظاهرة الغزو الصليبي ذاتها إلى تعليل ولا تفسير!  
فالحقد الذي يحملة الصليبيون في قلوبهم للإسلام قد أخبرنا به اللطيف الخبير في كتابه المنزل:

«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»<sup>(٤)</sup>.

«ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق»<sup>(٥)</sup>

«ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا»<sup>(٦)</sup>.

فهو حقد دائم، كامن في قلوبهم ضد الإسلام، لا يحتاج إلى باعث آخر. فمجرد وجود إسلام في الأرض كافٍ لتحريك ضغائنهم، و باعث لهم على التحرك ضد المسلمين ليردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

تلك حقيقة نحتاج إلى توكيدها والتذكير بها لأن هناك أكذوبة ضخمة اصطنعها الغرب ليداري بها أحقاد الصليبية، وأطلقها في جميع المجالات حتى صدقها

(١) كما حدث في مصر والشمال الأفريقي.

(٢) كما حدث في وسط أفريقيا وغربها.

(٣) كما حدث في الهند وأندونيسيا.

(٤) سورة البقرة [١٢٠] (٥) سورة البقرة [١٠٩]. (٦) سورة البقرة [٢١٧]

المسلمون أنفسهم - بتأثير الغزو الفكري - وصاروا يرددونها على نحو ما لقنها لهم سادتهم . . خلاصتها أن عصر الحمية الدينية قد انتهى ، ولم تعد تلك الحمية تحرك أوروبا اليوم كما كانت تحركها في العصور الوسطى ، لأن «الدين» في أوروبا لم يعد عاملاً مؤثراً في حياة أهلها . إنها هو «استعمار اقتصادى» هدفه البحث عن الموارد والخامات ، ولا علاقة له بالدين !!

وتلك - في مجملها - أكذوبة لا نصيب لها من الواقع !  
حقيقة إن أوروبا هجرت الدين ونسيته ، ولم تعد تحكمه في شىء من واقع حياتها لا السياسية ولا الاقتصادية ولا العلاقات الاجتماعية ولا مشاعر القلب ولا خطرات الذهن . ولكن هذا كله شىء والحقد الصليبي شىء آخر!  
إن الحقد الصليبي ليس مبعثه بالضرورة «تدين» النصارى كما قد يبدو لأول وهلة ، إنما سببه الأساسى هو وجود المسلمين ! وجود تجمع بشرى لا يتسمى إليهم ولا ينضوى إلى زمرتهم ولا يتبع ملتهم ، وهذا هو الذى تشير إليه الآية الكريمة :  
«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»<sup>(١)</sup> .

وسواء كانوا هم متدينين أو منسلخين من دينهم فلن يرضوا عن «المسلمين» طالما هم مسلمون ، يستظلون براية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» !  
يقول محمد أسد في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» :

«إن الاصطدام العنيف الأول بين أوربة المتحدة من جانب وبين الإسلام من الجانب الآخر - أى الحروب الصليبية - يتفق مع بزوغ فجر المدنية الأوربية . فى ذلك الحين أخذت هذه المدنية - وكانت لا تزال على اتصال بالكنيسة - تشق سبيلها الخاص بعد تلك القرون المظلمة التى تبعت انحلال رومية . حينذاك بدأت آداب أوربة ربيعاً منوراً جديداً . وكانت الفنون الجميلة قد بدأت بالاستيقاظ نبطاً من سباتٍ خلفته هجرات الغزو التى قام بها القوط والهون والآفاريون . ولقد استطاعت أوربة أن تتملص من تلك الأحوال الخشنة فى أوائل القرون الوسطى ، ثم اكتسبت وعياً ثقافياً جديداً ، وعن طريق ذلك الوعى كسبت أيضاً حساً مرهفاً . ولما كانت أوربة فى وسط هذا المأزق الحرج ، حملتها الحروب الصليبية على ذلك

(١) سورة البقرة [١٢٠] .

اللقاء العدائي بالعالم الإسلامي . لقد كان ثمت حروب بين المسلمين والأوربيين قبل عصر الحروب الصليبية: كانت فتوح العرب في صقلية والأندلس، وكان هجومهم على جنوب فرنسا، ولكن هذه المعارك كانت قبل أن تستيقظ أوربة إلى وعيها الثقافي الجديد، فاتسمت من أجل ذلك، ومن وجهة النظر الأوربية على الأقل، بطابع ذى نتائج محلية . ولم تكن تلك المعارك قد فهمت بعد على وجهها الحقيقي . إن الحروب الصليبية هي التى عينت فى المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربة من الإسلام لبضعة قرون تتلو . ولقد كانت الحروب الصليبية فى ذلك حاسمة لأنها حدثت فى أثناء طفولة أوربة، فى العهد الذى كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها (يقصد قد أخذت تظهر) وكانت لا تزال فى طور تشكيلها . والشعوب كالأفراد، إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التى تحدث فى أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً أو باطناً مدى الحياة التالية . وتظل تلك المؤثرات محفورة حفرأ عميقا، حتى إنه لا يمكن للتجارب العقلية فى الدور المتأخر من الحياة، والمتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلا بصعوبة، ثم ينذر أن تزيلها تماما .

«وهكذا كان شأن الحروب الصليبية، فإنها أحدثت أثرا من أعماق الآثار وأبقاها فى نفسية الشعب الأوربى . وإن الحمية الجاهلية العامة التى أثارها تلك الحروب فى زمنها لا يمكن أن تقارن بشيء خبرته أوربة من قبل، ولا اتفق لها من بعد .

«لقد اجتاحت القارة الأوربية كلها موجة من النشوة، كانت - فى مدة ما على الأقل - عنفوانا تخطى الحدود التى بين البلدان التى بين الشعوب والتى بين الطبقات . ولقد اتفق فى ذلك الحين، وللمرة الأولى فى التاريخ، أن أوربة أدركت فى نفسها وحدة - ولكنها وحدة ضد العالم الإسلامى . لقد كان ثمت قبل ذلك الزمن أنجلو سكسون وجرمان وفرنسيون ونورمان وإيطاليون ودمركيون وسلاف، ولكن فى أثناء الحروب الصليبية ولدت فكرة «المدنية الغربية» وأصبحت هدفاً واحداً تسعى إليه جميع الشعوب الأوربية على السواء . وكانت تلك المدنية الغربية عدوة للإسلام وفتت عربا [وكيل الطفل المعمد بالتعبير الكنسى] فى هذه الولادة الجديدة . . . لقد نشأ تسميم العقل الأوربى عما شوّهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة فى الغرب . وفى ذلك الحين استقرت



تلك الفكرة المضحكة في عقول الأوروبيين من أن الإسلام دين شهوانية وعنف حيوانى ، وأنه تمسك بفروض شكلية ، وليس تركية للقلوب وتطهيرا لها ، ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت . .

«لقد بذرت بذور البغضاء . . إن حمية الصليبيين الجاهلية كان لها ذيوها في أماكن كثيرة من أوربة ، فشجع ذلك نصارى الأندلس على الحرب لإنقاذ بلادهم من «نير الوثنيين» . . . .

«ولكن قبل أن يتاح لصدى هذه الحوادث أن يخفت في أسبانية حدث حدث ثالث عظيم الأهمية زاد في فساد الصلات بين العالم الغربى وبين الإسلام : ذلك هو سقوط القسطنطينية في يد الأتراك . . وسقوط القسطنطينية فتح باب أوربا على مصراعيه للسيل الإسلامى . وفي القرون التى تلت والتي امتلأت بالحروب ، لم تبق عداوة أوربة للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب ، بل ذات أهمية سياسية أيضا . وهذا زاد في اشتداد تلك العداوة . . ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبى كلما ذكرت كلمة «مسلم» ، ولقد دخلت في الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت في قلب كل أوربى رجلا كان أم امرأة . وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافى . ثم جاء عهد الإصلاح الدينى حينما انقسمت أوربة شيعا ، ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها في وجه كل شيعة أخرى ، ولكن العداة للإسلام كان عاما فيها كلها . بعدئذ جاء زمن أخذ الشعور الدينى فيه يخبو ولكن العداة للإسلام استمر»<sup>(١)</sup> .

وفي هذا ما يوضح تلك الحقيقة التى تشكل أحيانا على الذهن : كيف أن أوربا هجرت دينها ومع ذلك فما تزال تشعر بالحقد الصليبي تجاه المسلمين .

فإذا أضيف إلى «وجود» الإسلام ، وهو الباعث الأول لحقد اليهود والنصارى منذ أول لحظة وجد فيها الإسلام ، قبل أن يحدث احتكاك من أى نوع بين المسلمين واليهود أو بينهم وبين النصارى . . إذا أضيف إلى مجرد وجود الإسلام حركته التاريخية الهائلة التى اصطدم فيها باليهود والنصارى ، وأزاحهم من مراكز قوتهم - كلها أو بعضها - فترة طويلة من الوقت ، فقد وجد «سبب إضافى» للحقد ،

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة عمر فروخ مقتطفات ص ٥٢ - ٥٨ .

لا يزول، بشهادتهم هم أنفسهم، التي نطق بها رجل مثل «ولفرد كانتول سميث» في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث»<sup>(١)</sup> وينطق بها على الدوام غيره من المستشرقين والمبشرين ورجال السياسة ورجال الفكر. .<sup>(٢)</sup>

ولا يمنع هذا من وجود أطماع اقتصادية هائلة لأوروبا في الشرق الغني بالخطامات والموارد، التي لا يكاد أصحابها يستثمرون منها إلا القليل، بينما تتحرق أوروبا شوقا إلى شيء منها!

ولكن هذا لا ينبغي أن يخفى عنا مجموعة من الحقائق في هذا الشأن :

**الأولى :** أن الباعث الصليبي كان هو الباعث الأول الذي حرك أوروبا إلى الاستيلاء على العالم الإسلامي كما هو ثابت من رحلتى فاسكو داجاما وماجلان، والرحلات «الاستكشافية» الأخرى - في أفريقيا خاصة - التي حملت المبشرين بكميات هائلة إلى أماكن لم يكن الاستغلال الاقتصادي فيها محدد المعالم أول الأمر، وإن كان قد حدث على نطاق واسع فيما بعد، حين اكتشف المحتلون مصادر الثروة وأخذوا في استغلالها.

**الثانية :** أن التحرك الاقتصادي الأول من أوروبا نحو الشرق كان هدفه الأول حرمان المسلمين من مصادر قوتهم لإضعافهم، وهو هدف صليبي واضح تتخذ له جميع الوسائل، وما الوسيلة الاقتصادية إلا واحدة من هذه الوسائل فحسب. وليست هي الغاية كما يزعمون ويزعم معهم المستعبدون لهم من «المثقفين» خاصة، الذين يهز الواحد منهم كتفيه في بلاهة ويقول: إن الغرب لا يريد إلا تأمين مصالحه الاقتصادية فحسب، ولا يهيمه شيء غير ذلك!

**الثالثة :** أنه حين برز العامل الاقتصادي في حياة أوروبا فيما بعد، وأصبح - في ظاهر الأمر - هو المحرك الأول لجميع تصرفاتها، بقى هناك فارق واضح بين «الاستعمار الاقتصادي» في بلاد الإسلام، والاستعمار الاقتصادي في البلاد غير الإسلامية التي استولوا عليها في مرحلة التوسع وتكوين الإمبراطوريات. فمع أنه في جميع أحواله ظالم للبلاد المحتلة المستغلة، أناني النزعة، لا يهيمه إلا

---

(١) راجع شهادته في الصفحات السابقة.

(٢) راجع تصريحات مجموعة منهم في كتاب «التبشير والاستعمار» لعمر فروخ وزميله.

تحقيق مصالحه الخاصة على حساب أهل البلاد الأصليين، حريص دائما على تركهم فقراء متخلفين ليتسنى له استغلالهم أطول وقت ممكن، معاكس دائما لحركاتهم التحررية الاستقلالية، كابت لوجودهم السياسي و«القومي».. مع ذلك كله فإنه - في البلاد غير الإسلامية - لا يتعرض لعقائد الناس وأفكارهم وتقاليدهم بشيء من العنف على الإطلاق، مكتفيا بما يتسرب إلى حياتهم تدريجيا من التأثير الناشئ من رغبة المغلوب في تقليد الغالب. أما في البلاد الإسلامية فقد كانت هناك دائما تدبيرات وترتيبات يقصد بها قصداً إلى إزالة مظاهر الحياة الإسلامية، ومحاولة سحق الإسلام في نفوس المسلمين بالعنف، أو صرفهم عنه صرفاً خبيثاً ماكرًا بوسائل أخرى غير العنف،<sup>(١)</sup> ولكنه لا يهادن ولا يرضى عنه في أي حال من الأحوال.. وكان من أول هذه التدبيرات والترتيبات في كل بلد إسلامي وقع في قبضتهم تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم ووضع القوانين الوضعية بدلا منها، وهو أمر لا علاقة له من قريب ولا بعيد «بالمصالح الاقتصادية» التي يزعم الغرب ويزعم معه أتباعه المستعبدون له أنها الهدف الأول والأخير من استيلائهم على العالم الإسلامي!

ومن هذا يتبين أن الدافع الصليبي كان موجودا دائما مع الغزو الأوربي لبلاد الإسلام، سواء كان يعمل منفردا كما كان في منطلقه الأول، أو ممتزجا بالدافع الاقتصادي كما حدث فيما بعد، ولكنه في جميع أحواله حاد النزعة محتدم الأوار لا يهدأ ولا يسكن، بل ازدادت حدته في القرن الأخير خاصة مع بروز حركات البعث الإسلامي كما سيجيء. (٢).

## (٤) الغزو الفكري

يقصد بالغزو الفكري الوسائل غير العسكرية التي اتخذها الغزو الصليبي لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية وصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، مما يتعلق بالعتيدة وما يتصل بها من أفكار وتقاليد وأنماط سلوك.

(١) ستتكلم عن هذه الوسائل في الفقرة التالية بعنوان «الغزو الفكري».

(٢) يعلم المسلمون الممارسون لدينهم من الذين يعيشون في أوربا أو يزورونها مدى الحقد الصليبي الكامن في قلوب الأوربيين تجاه الإسلام!

والدافع إلى استخدام الغزو الفكرى فى الحرب الصليبية المعاصرة هو الحصيلة المرة التى خرج بها الصليبيون من حروبهم الصليبية الأولى مع المسلمين فى القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين)، والتى انتهت بالهزيمة الساحقة وعدم تحقيق شىء مما خرج الصليبيون من بلادهم لتحقيقه، وبذلوا فيه الأموال والدماء والنفوس .

فى تلك الحروب الأولى وقع لويس التاسع ملك فرنسا فى الأسر بعد هزيمته حملته الصليبية، وبقي سجيناً فى المنصورة فترة من الوقت حتى افتداه قومه وفكَّ أسره .

وفى أثناء سجنه أخذ يتفكر فيما حل به وبقومه، ثم عاد يقول لقومه: إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا تقاتلوهم بالسلاح وحده - فقد هزمتم أمامهم فى معركة السلاح - ولكن حاربوهم فى عقيدتهم فهى مكن القوة فيهم .  
ووعى قومه نصيحته . .

فلما عادوا لغزو العالم الإسلامى مرة أخرى لم يكتفوا بالسلاح وحده، ولكنهم استصحبوا معهم تلك الوسيلة الخبيثة التى نطلق عليها اسم «الغزو الفكرى» .  
والهدف الأخير من الغزو الفكرى هو اقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين وصرْفهم عن التمسك بالإسلام، أما الوسائل فهى كثيرة متعددة، ولكن يمكن حصرها فى مجالين أساسيين: مناهج التعليم، ووسائل الإعلام .

حين دخل الإنجليز مصر عام ١٨٢٢ قام جلاستون رئيس الوزارة البريطانية يومئذ فى مجلس العموم البريطانى يقول مشيراً إلى المصحف: طالما كان هذا الكتاب فى أيدي المصريين فلن يقر لنا قرار فى تلك البلاد!

وفى مؤتمر المبشرين الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٠٦ وقف الخطباء يقولون: لقد فشلنا! فقد فتحنا المدارس والمستشفيات والملاجئ، وأعطينا الأموال وقدمنا الخدمات، ثم لا يدخل فى النصرانية بعد ذلك إلا طفل صغير خطفناه من أهله قبل أن يعرف عقيدة أهله، أو رجل كبير جاء إلينا من أجل المال ولا نضمن عقيدته مع ذلك! فقام «الأب زويمر»<sup>(١)</sup> مقرر المؤتمر يرد عليهم: لقد استمعت إلى

---

(١) مبشر برتستانى كان له نشاط تبشيرى واسع فى البلاد الإسلامية . وأوصى قبل موته بأن يدفن فى مقابر اليهود!

إخواني الخطباء، ولست موافقا على ما يقولون. فليست مهمتنا هي تنصير المسلمين، فهذا شرف ليسوا جديرين به (!) ولكن مهمتنا هي صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وفي ذلك نجحنا نجاحا باهرا بفضل مدارسنا التبشيرية، والسياسة التعليمية التي وضعناها للبلاد الإسلامية! (١).

وتلك أقوال صريحة لا تحتاج إلى تعليق . .

فالمطلوب هو صرف المسلمين عن دينهم وعن قرآنهم، وليكونوا بعد ذلك ما يكونون. فإذا عجزوا عن تنصيرهم كما كانوا يشتبهون ويخططون في البدء، (٢) فينبغي على الأقل أن ينتزعوا من قلوبهم ذلك الشيء المرهوب، الذي يزعجهم ويفزعهم حتى وهو كامن في قلب «الرجل المريض» كما صرح أحد الكتاب في كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» حيث قال: إن أوروبا كانت تفرع من الرجل المريض لأن وراءه ثلثمائة مليون من المسلمين على استعداد للجهاد بإشارة من أصبعه!

نعم! إنها روح الجهاد في هذا الدين أشد ما يفزعهم منه، وإن كان كل شيء فيه مقبلا لديهم لا يطيقون أن يبصروه! (٣).

ولعل خير نموذج تقدمه في مجال الغزو الفكري هو التجربة المصرية . . فقد كانت للصليبيين عناية خاصة بمصر بالذات، وبالقضاء على الإسلام فيها، بسبب مركزها الحيوى المؤثر في قلب العالم الإسلامي، وبالذات بسبب وجود الأزهر فيها، مما جعلها مركز الإشعاع الروحي والثقافي للعالم الإسلامي كله. قال أحد المبشرين في كلمة له في المؤتمر التبشيري الذي عقد في القاهرة سنة ١٩٠٦ وهو يتساءل عما إذا كان الأزهر يتهدد كنيسة المسيح بالخطر: إن السنين من المسلمين رسخ في أذهانهم أن تعليم العربية في الجامع الأزهر متقن ومتين أكثر

---

(١) راجع «الغارة على العالم الإسلامي» ترجمة محب الدين الخطيب.

(٢) لا عمرة بما يقوله زويمر من أن هدف الصليبيين لم يكن هو تنصير المسلمين، ولا عمرة بتعليقه السمح أن التنصير شرف لا يستحقه المسلمون! فذلك محاولة منه لتغطية الفشل الذي لقيه المبشرون في عملية التنصير، كما قال الثعلب حين عجز عن الصعود إلى كرمة العنب إنه عنب حصرم!!

(٣) يعرف الذين يعيشون في أوروبا من المسلمين كم يشرهم منظر الفتاة المسلمة المتحجبة إلى حد لا يستطيعون إخفاءه!

منه في غيره، والمتخرجون في الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين وباب التعليم مفتوح في الأزهر لكل مشايخ الدنيا، خصوصا وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجانا لأن في استطاعته أن ينفق على ٢٥٠ استاذاً ثم عرض اقتراحا يريد به إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة، وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربية. وختم كلامه قائلا: ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل لنا لتسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية. (١).

لذلك كانت عنيتهم بإفساد الإسلام في مصر - أو بعبارة أخرى محاولة إخراج مصر من الإسلام - عناية شديدة، وبذلوا في سبيل تحقيقها جهودا مركزة قد تكون أوسع نطاقا وأعمق أثرا من أى محاولة أخرى قاموا بها في بقية العالم الإسلامي (فيما عدا محاولاتهم التي بذلوها في تركيا لإزالة الخلافة حتى حققوا هدفهم على يد كمال أتاتورك) (٢).

وتمت سبب آخر لاختيار التجربة المصرية هو أنها تجربة متكاملة، من أول الانسلاخ من الإسلام إلى بدء العودة إليه. وسيجد كل قارئ من البلاد العربية أو الإسلامية الأخرى أن بلاده قد مرت بجانب من هذه التجربة على الأقل. فإذا عرضنا له التجربة المتكاملة سهل عليه أن يستوعب أبعاد المؤامرة ويستوعب كذلك رد الفعل.

## دور الحملة الفرنسية

في عام ١٧٩٨م جاءت الحملة الصليبية الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون بونابارت.

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٥٧ - ٥٨، الدار السعودية للنشر، جدة.

(٢) ركن الصليبيون في محاولتهم القضاء على الإسلام على نقطتين رئيسيتين: الأستانة والقاهرة. الأستانة باعتبارها مركز القوة السياسية والعسكرية للعالم الإسلامي، والقاهرة باعتبارها مركز الإشعاع الروحي والثقافي ولكن جهودهم في الأستانة كانت سياسية وعسكرية في المقام الأول. بينما كانت جهودهم في القاهرة فكرية وثقافية في المقام الأول. لذلك فإننا - في مجال الغزو الفكري - نركز على التجربة المصرية، وستعرض للتجربة التركية في أثناء السرد التاريخي.

وندرس نحن لأبنائنا أن الحملة الفرنسية كانت فتحة عظيمة - لا بالنسبة لفرنسا ولكن بالنسبة لمصر! - وأنها هي بداية الانفتاح المصرى على العالم المتحضر، وبداية الخروج من الظلمات إلى النور. وما يزال هناك سؤال دورى يتردد فى اختبارات الشهادة الإعدادية، مرة يقال فيه: اذكر فوائد الحملة الفرنسية على مصر، ومرة يقال: اذكر «مآثر» الحملة الفرنسية على مصر!! ولا يذكر فى المنهج مرة واحدة بطبيعة الحال أنها كانت حملة صليبية على مركز من أهم مراكز العالم الإسلامى!

يقال فى أهداف الحملة إن نابليون كان يريد أن يتخذ من مصر قاعدة له لقطع «الطريق الإمبراطورى» بين بريطانيا والهند، بسبب التنافس الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا. ويقال إنه حمل معه مطبعة ذات أحرف عربية لطبع الأوامر والمشورات «الإصلاحية» التى يصدرها نابليون إلى الشعب المصرى. وإنه جاء معه بعثة علمية للتنقيب عن آثار الفراعنة.

وببلاهة وغفلة - أو بخبث وسوء نية - تتجاهل الأهداف الحقيقية للحملة، وأهداف المطبعة والبعثة «العلمية»!

فأما التنافس الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا فى تلك الفترة فحقيقة تاريخية لا شك فيها، وكذلك رغبة نابليون الأكيدة فى أن يتخذ من مصر قاعدة يحارب منها بريطانيا، ويقطع «طريقها الإمبراطورى» إلى الهند. أما أن هذه هى كل أهداف الحملة فأمر يكذبه واقع التاريخ!

فما العلاقة بين قطع الطريق الإمبراطورى وبين محاولة تنحية الشريعة الإسلامية فى مصر وإحلال القوانين الوضعية محلها؟!

وما العلاقة بين قطع الطريق الإمبراطورى وبين البعثة العلمية التى تنقب عن آثار الفراعنة؟!

أما حين نعلم أنها حملة صليبية تحمل معها أهدافاً محددة ضد الإسلام .. فهناك يتضح كل شىء!

أرسل نابليون منشورا إلى المصريين بعد احتلال الإسكندرية جاء فيه:  
«بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه.

«من طرف الفرنساوية، المبني على أساس الحرية والتسوية: (١)  
«السر عسكر الكبير، أمير الجيوش الفرنساوية بونابرتة، يعرف أهالي مصر  
جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون  
بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية(٢) . .

«قد قيل لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب  
صريح فلا تصدقوه! (٣) وقولوا للمغترين إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم  
من يد الظالمين. وإننى أكثر من المالك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه  
والقرآن العظيم! . .

«أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجرججية(٤) وأعيان البلد: قولوا لأمتكم إن  
الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون (!! ) وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية  
الكبرى وخرّبوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام  
(!!) . . ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين  
لحضرة السلطان العثمانى، وأعداء أعدائه، أدام الله ملكه (!!) . . الخ . .  
الخ(٥)

وبعد هزيمة المالك أمامه في معركة «إمبابة» جاء واستقر في القاهرة في منزل  
«الألفى بك»، وكان - بوصفه «مسلمًا!» محبا للإسلام والقرآن - يرأس مجلس

---

(١) يلاحظ رداءة أسلوب الترجمة ولكن هكذا كانت الأساليب في ذلك الوقت أقرب إلى العامية منها إلى العربية  
الفصحى . والإشارة واضحة إلى شعار الثورة الفرنسية: «الحرية الإخاء المساواة» ومعلوم جيدا أن هذا هو نفس  
شعار الماسونية!

(٢) هنا يذكر نابليون بصراحة أن أحد أهداف الحملة هو الانتقام من المالك الذين يتعاملون مع الفرنسيين  
المقيمين في منطقة نفوذهم (مصر والشام) «بالذل والاحتقار» . والذين يكتبون عن «مآثر» الحملة الفرنسية على مصر  
يفغنون الكلام عن هذه النقطة الصليبية المتقنة!

(٣) يكاد المرئ يقول خذونى!

(٤) لم أفهم ما دخل «الجرججية» (وهم اليونانيون المقيمون بمصر) في منشور موجه للمسلمين ليطمئتهم على أن  
نابليون مسلم مثلهم!!

(٥) انظر نص المنشور بكامله في كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأثار» لعبدالرحمن الجبرتي، ص ١٨٢ - ١٨٣  
طبع دار الجليل ببيروت.



العلماء! ويخلع عليهم أحيانا «خلعا سنية!» . . ويحاول استخدامهم في ترويح القوانين الوضعية التي أراد إحلالها محل الشريعة الإسلامية، والتي كان يطبعها في المطبعة العربية التي جاء بها معه ووضعها في بولاق!

ويا له من إجراء يقطع به الطريق الإمبراطورى بين بريطانيا والهند!  
إنها لسذاجة بلهاء أن تصور أن نابليون جاء فقط ليقطع الطريق الإمبراطورى بين بريطانيا والهند!

نعم، إنه ينافس بريطانيا ويلاحقها ويضيق عليها. ولكنه جاء ومعه مخططه الصليبي الكامل لإخراج مصر من دائرة الإسلام، لعلها تكون بعد ذلك نقطة ارتكاز لإفساد بقية العالم الإسلامى الذى يتلقى فيها العلم، ويستمد منها النور. . . ولقد كانت محاولة تنحية الشريعة الإسلامية هي أول نقاط المخطط التي بدأ بتنفيذها بالفعل، حتى كشفه واحد من علماء الأزهر، فتح الله على قلبه وكشف بصيرته فعلم حقيقة نواياه، (١) فقال له في وجهه: لو كنت مسلماً حقاً كما تدعى لطبقت الشريعة الإسلامية في بلدك فرنسا، بدلا من تنحية الشريعة هنا، ووضع القوانين الوضعية بدلا منها. . .

وأما المطبعة. . . تلك «المأثرة» العظيمة من مآثر الحملة. . . فقد جاء بها نابليون لأكثر من سبب. ففيها يطبع المنشورات التي يطالب فيها الشعب المصرى المسلم بالخضوع لأوامر المعتصب الصليبي، كالمنشور الذى قال فيه إن الإيذان بالقضاء والقدر يستلزم الاستسلام الكامل للفرنسيين وعدم مقاومتهم، لأن تغلبهم على مصر والاستيلاء عليها كان بقدر من الله! كما كان يطبع فيها المنشورات الحاوية «لقانون نابليون» التي يصدرها لإبطال الشريعة الإسلامية بالتدريج!

وإذا كانت المطبعة قد استخدمت فيما بعد لهدف مغاير تماما لأهداف نابليون، من نشر للتراث العربى الإسلامى، فهذا أمر لا يحسب لنابليون، ولا يحسب من «مآثر» الحملة. . . لأنه لم يكن مقصودا عند نابليون، بل كان عكسه تماما هو ما استخدمت فيه على أيامه!

---

(١) هو الشيخ الشرقاوى، وكان نابليون شديد الحنق عليه!

وأما البعثة «العلمية» التي جاءت تنقب عن آثار الفراعنة، وهي المأثرة الثانية من مآثر الحملة فأمرها أنكى!

يقول أحد المستشرقين الصرحاء في كتاب «الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته»: «إننا في كل بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام. ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفيننا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات»<sup>(١)</sup>

ولقد كان هذا هو الهدف المخطط للبعثة «العلمية» المرافقة للحملة. . لم يكن هدفا «علمياً» إنما كان هدفا صليبياً مغلقاً بالعلم، شأنه شأن الرحلات «العلمية» الاستكشافية التي قام بها الصليبيون ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي! لقد كانت الآثار الفرعونية موجودة منذ ألوف السنين. . سرق منها ما سرق ونهب منها ما نهب. . وبقيت المعابد والهياكل الضخمة يزورها من يزور مصر ويعتبرها من «عجائب» الماضي السحيق، يتسلى برؤيتها و يقف عندها ليأخذ العبرة ويمضى. . ويعود إلى بلاده ليصفها لمن لم يرها. . ثم يمضى الأمر كله بلا احتفال كبير.

وأما المسلمون من أهل مصر فقد كانوا يرونها دون شك، ويتعجبون من دقائق صنعها، ولكنها في حسبهم أصنام وأوثان تركها قوم غابرون، انقطعت الصلة بينهم وبينهم بكون هؤلاء مسلمين وأولئك من عبدة الأوثان.

وكان هذا هو الحال في كل مكان في العالم الإسلامي توجد فيه آثار من بقايا عبدة الأوثان الذين كانوا يسكنون الأرض قبل مجيء الإسلام، سواء في الجزيرة العربية أو بلاد الشام والعراق أو غيرها من البلاد. . وظل الأمر كذلك ما يزيد على ألف عام. . الناس في إسلامهم، وهذه الأوثان في الأرض، لا تثير فيهم إلا عبرة التاريخ.

ولكن المخطط الخبيث الذي حمله الصليبيون معهم وهم يجوسون خلال الديار كان هو نبش الأرض الإسلامية لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ، لذذبذة ولاء

---

(١) انظر: Near East: Culture and Society, Edited by T. Cuyler Young

المسلمين بين الإسلام وبين تلك الحضارات، تمهيدا لاقتلاعهم نهائيا من الولاء للإسلام!

وكان هذا ذاته هو الهدف من البعثة «العلمية» التي جاء بها نابليون معه إلى مصر!

ومن السذاجة البلهاء - التي يحمل «المتقفون» قدرا هائلا منها - أن نقول إن أهدافها كانت «علمية» بحتة، وقد شهد شاهد من أهلها أنها لم تكن كذلك! كان المقصود هو إثارة النعرة الفرعونية في المصريين المسلمين، حتى إذا انتسبوا لم يكن انتسابهم إلى الإسلام، إنما إلى «مصر» بعيدا عن الإسلام كما قال «شاعر النيل» حافظ إبراهيم:

أنا مصرى بنانى من بنى هرم الدهر الذى أعيى الفنا!  
وإذا كان حافظ إبراهيم نفسه له شعر إسلامي، فقد تحقق فيه المخطط الخبيث على أى حال، وهو ذبذبة ولائه بين الإسلام وبين الحضارات السابقة على الإسلام كما قال ذلك المستشرق الصريح!

هذه هي الأهداف الرئيسية لحملة نابليون، إلى جانب قطع الطريق الإمبراطوري بلا شك: العمل على تنحية الشريعة الإسلامية، وإحلال القوانين الوضعية بدلا منها، وإثارة النعرة الفرعونية، تمهيدا لعزل مصر عن العالم الإسلامي أو إخراجها منه ومن الإسلام ذاته..

فإذا أضفنا إلى ذلك «بغايا الحملة»! اللواتي تحدث عنهن الجبرتي.. أولئك «الساقطات» اللواتي جاء بهن نابليون، يسرن في شوارع القاهرة حاسرات متخلعات يثرن الفتنة وينشرن الفاحشة، ويغرين بعض النساء المسلمات بتقليدهن كما أشار الجبرتي في أكثر من موضع من كتاب «عجائب الآثار»<sup>(١)</sup> وإذا أضفنا نداء نابليون الخطير الذي أذاعه غداة احتلاله لمصر ليهود العالم كي يعودوا لوطن آبائهم ليستوطنوه.<sup>(٢)</sup>

(١) راجع الجزء الثاني ص ٢٣١، ٢٤٤-٢٤٥، ٢٥١، ٢٧٢-٢٧٣، ٣٠٢، ٤٣٦-٤٣٧.

(٢) نادرا ما يذكر هذا التصريح رغم خطورته، راجع موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص ٢٤٣، نشر مؤسسة الأهرام سنة ١٩٧٩ مادة «الصهيانية المسيحيون».

إذا أضفنا هذا وذاك فقد اتضح لنا المؤامرة الصليبية الهائلة التي جاء بها نابليون إلى مصر، بالتعاون مع اليهود الذين كان لهم ضلع كبير في إثارة الثورة الفرنسية<sup>(١)</sup> التي أنتجت نابليون ذاته ووجهت أعماله . .

وتلك هي «المآثر» الحقيقية للحملة الفرنسية التي لا تذكرها كتب التاريخ المكتوبة بأيدي الأوربيين، والتي ينقلها ويتلمذ عليها «الأساتذة» الكبار من المؤرخين «المسلمين»!

وأيا كان الأمر فإن حماقات نابليون في مصر من ضرب الأزهر بالقنابل من القلعة، واتخاذه اصطبلًا للخيل، ومحاولة اقتلاع المصريين عنوة من الإسلام، بالإضافة إلى الظروف السياسية والحربية التي أحاطت بفرنسا واضطرت نابليون إلى مغادرة مصر والعودة إلى فرنسا، وترك الحملة تواجه غضب المسلمين المتزايد من وجود الكفار على أرضهم، مما حدا بسليمان الحلبي إلى قتل كليبر قائد الحملة بعد رحيل نابليون . . . (٢)

هذه الظروف كلها مجتمعة قد قضت على الحملة الفرنسية واضطرتها إلى مغادرة مصر . . ولكنها - مع الأسف - لم تقض على كل «مآثرها»! فقد بقيت البعثة «العلمية» تواصل عملها في الصعيد رغم ذهاب الحملة التي استفدتها معها، وهذا من العجب العاجب الذي لا نستطيع اليوم تفسيره! وبقي من الحملة ذاتها رجال ادعوا الإسلام - كما ادعاه نابليون من قبل - كسليمان «باشا» الفرنسي الذي كان له دور كبير فيما بعد! وبقي معهد الآثار الفرعونية الذي أنشأه نابليون في حي المنيرة بالقاهرة (وما يزال قائما مكانه حتى هذه اللحظة!!) .

---

(١) راجع ان شئت فصل «دور اليهود في إفساد أوروبا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .

(٢) قاتل المصريون الحملة الفرنسية ببسالة وشجاعة نادرة، ولكن لا بوصفهم «مصريين» إزاء «فرنسيين» كما تصور كتب التاريخ التي يتداولها الطلاب والدارسون، إنما بوصفهم «مسلمين» يقاتلون الكفار الذين يحتلون أرضهم . والدليل على كونها حربا جهادية إسلامية ضد «الصليبيين» أن علماء الدين كانوا هم قادتها، وأن غضب نابليون قد انصب على الأزهر بوصفه عنصر المقاومة للغزو الصليبي . . وتأتي قمة الدلالة في كون سليمان «الحلبي» الذي قتل كليبر لم يكن «مصريا» إنما كان «مسلماً» دفعه إسلامه الى قتل قائد الحملة الصليبية الموجهة إلى أرض إسلامية . ذلك أن دعاوى «الوطنية» لم تكن قد برزت بعد، ولم تكن هي الدافع الذي دفع المصريين إلى قتال الفرنسيين . ومن التزوير على التاريخ أن تقدمه للدارسين على النحو الذي تقدمه به اليوم . . وهذا ذاته من تأثير الغزو الفكري الذي توغل في قلوب «المسلمين»!

عجزت الحملة الفرنسية - بسبب هذه الظروف - عن تنفيذ مخططاتها الصليبية اليهودية . . ولكن الأقدار ساقت لها من يقوم عنها بتنفيذ كل مخططاتها في شخص «محمد على الكبير!» .

## دور محمد على

كان محمد على شخصا سعى السمعة . . معروفا بالقسوة وغلظ الكبد . . ترسله الدولة العثمانية لتأديب القرى التى تتأخر فى دفع ما يفرض عليها من المال، فيعسكر هو وأفراد حملته التأديبية حول القرية ينهبون ويسلبون ويفزعون الأمنين، حتى يرى أهل القرية أن الأفضل لهم أن يدفعوا الأموال المطلوبة - وإن أبهطتهم - خيرا من الذل والفرع الذى يعانونه من محمد على وأفراد حملته!  
وكان محبا للعظمة الى حد الجنون . .

صفات كلها صالحة . . . ! (١)

وليس بين يدى الآن ما يقطع بأن فرنسا هى التى تدخلت لدى السلطان لإرساله واليا على مصر . . وإن كانت الظروف تشير إلى ذلك . (٢)

ولكنه جاء على أى حال . . واليا من قبل الدولة العثمانية على مصر . . عام ١٨٠٥ من الميلاد، أى بعد مغادرة الحملة الفرنسية بثلاثة أعوام، كانت مصر فى أثنائها قد عادت إلى حكم المماليك مع الولاء للسلطان .

واحتضنته فرنسا احتضانا كاملا لينفذ لها كل مخططاتها!

أنشأت له جيشا مدربا على أحدث الأساليب ومجهزا بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذ بإشراف سلميان باشا الفرنساوى!

وأنشأت له أسطولا بحريا على أحدث طراز يومذاك .

وأنشأت له ترسانة بحرية فى دمياط .

وأنشأت له القناطر الخيرية لتنظيم عملية الري فى مصر .

---

(١) ليس من باب المصادفة أن الذين اختيروا للأدوار الكبرى فى حرب الإسلام كانوا متصفين بجنون العظمة وقسوة القلب من أمثال محمد على وكمال أتاتورك وجمال عبدالناصر . . ذلك أنها صفتان لازمتان لمثل هذا الدور «العظيم»!

(٢) حبذا لو قام أحد الباحثين بتحقيق هذه القضية لخدمة الحقائق التاريخية .

هل كان هذا كله حبا في شخص محمد علي؟ أو حبا في مصر؟!  
إنها كان لتنفيذ المخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه  
بسبب اضطرابها إلى الرحيل .

لقد قام محمد علي بدور خطير في نقل مصر من المرتكز الإسلامي إلى شىء آخر  
يؤدى بها في النهاية إلى الخروج من الحيز الإسلامي . . سواء كان واعيا تماما لهذا  
الدور، أو مستغلاً من قبل الصليبية لتنفيذه . والذي يغلب على حسنا - على ضوء  
التجربتين الأخيرتين، تجربة كمال أتاتورك وجمال عبدالناصر - أنه كان واعياً للدور  
وضالاً فيه . ولكن يستوى أن يكون ضالعا بوعى أو مستغلاً مستغفلاً . . فهو في  
الحالين يؤدى ذات الدور، ويؤدى الدور إلى ذات النتائج بصرف النظر عن النوايا  
الداخلية للمنفذين . ولكن يبقى شىء مؤكد في جميع الأحوال . . أن «المسلم»  
الحق لا يمكن بحال أن يقوم بمثل هذا الدور لا واعيا ولا مستغفلا، لأن إسلامه  
يمنعه أن يتلقى «التوجيه» من أعداء الإسلام .  
لكى نفهم حقيقة الدور الذى قام به محمد علي في خدمة أعداء الإسلام،  
ينبغى أن نفهم ماذا كان يريد الأعداء .

لقد كانوا يريدون القضاء على الإسلام بصفة عامة، ولكنهم وضعوا في مخططهم  
أهدافا مرحلية معينة تمكنهم - في تصورهم - من القضاء الأخير على الإسلام . .  
من هذه الأهداف: القضاء على الدولة العثمانية، والقيام «بتغريب» العالم  
الإسلامى مع العناية الخاصة بتغريب مصر - بلد الأزهر - وتصدير التغريب منها  
إلى بقية العالم الإسلامى .

فأما القضاء على الدولة العثمانية فالأمر فيه واضح . وأما عملية التغريب - عن  
طريق الغزو الفكرى - فمهمتها الأولى قتل روح الجهاد الإسلامية ضد الصليبيين  
للقضاء على المقاومة المستمرة التى يلقاها الغزو الصليبي المسلح، وذلك بإزالة  
الحاجز العقيدى الذى يذكر المسلم دائما بأنه مسلم وأعداؤه كفار يجب أن يجاهدهم  
ولا يسمح لهم باحتلال أرضه الإسلامية، فإذا «تغرب» لم يعد هذا الحاجز قائما في  
نفسه، ولم يعد يثير عنده ما يثيره الإسلام في نفس المسلم . كما أن التغريب هو الذى  
يضمن تبعية العالم الإسلامى للغرب - بعد أن يخضع عسكريا له - لأنه حين  
يتغرب، يحس أن انتماؤه لم يعد للإسلام وإنما للغرب، فلا يشعر برغبة في الانفصال

عنه ، وحتى إن رغب في يوم من الأيام أن «يستقل» ففي حدود التبعية العامة التي لا تخرجه من حوزة سادته ، ومن النطاق الذي يضربه السادة حوله .  
والآن وقد أدركنا تخطيط الأعداء فلننظر دور محمد على بعد «احتوائه» من قبل فرنسا .

كانت الخطة الصليبية - التي اضطلعت فرنسا بتنفيذها في مصر - هي تكبير محمد على وإغرائه بالاستقلال عن السلطان ، فتفصل بذلك قطعة من أرض المسلمين عن الدولة الإسلامية (وذلك يضعفها ولا شك) ثم يكون محمد على نموذجا مغريا لغيره من الولاة ، فيستقلون تباعا عن الدولة رغبة في السلطان الذاتي ، فتفكك عرى الدولة وتنهار . . وفي ذات الوقت كانت الخطة هي تغريب مصر - بعد استقلالها - لضمان تبعيتها الدائمة للغرب وانفصالها النهائي عن الإسلام .

وقام محمد على بالدور المطلوب خير قيام! فإن الجيش الذي صنعته له فرنسا ، وقام بتدريبه سليمان باشا الفرنساوي قد استخدمه محمد على لا في محاولة الاستقلال عن الخلافة فحسب ، بل في محاربة الخليفة نفسه! وقد كاد يتغلب على جيش الخليفة بالفعل لولا تدخل بريطانيا . . تظاهرا بالوقوف في صف الخليفة ، وغيره في الحقيقة من أن تستأثر فرنسا «بصدقة» السلطان ، وبالنفوذ في مصر! وفي الوقت نفسه لتخدم الهدف العام للصليبية بطريقة أخرى . . فقد أوقفت بريطانيا محمد على عند حده في ظاهر الأمر ، ومنعته من مهاجمة الخليفة ، وفي الوقت ذاته ضمنت له الاستقلال الفعلي عن الخليفة ، والاستئثار بحكم مصر حكما وراثيا ينتقل في ذريته ، مع التبعية الاسمية للسلطان!! (هذا بينما تجمعت أوروبا الصليبية كلها لتحطيم محمد على في معركة نافارين لأنه نسى نفسه وتجراً على مهاجمة دولة صليبية هي اليونان! فقد كبرته الصليبية وسلحته لمحاربة الإسلام فقط ، فإذا فعل ذلك فله كل العون . أما إذا هاجت أطماعه لحسابه الخاص ، فمس أحد الصليبيين بسوء ، فهنا يجب تأديبه بل تحطيمه تحطيماً كاملاً إذا لزم الأمر! .)

أما الجانب الآخر من المهمة وهو عملية التغريب ، فقد نفذها محمد على بسياسة الابتعاث التي اتبعها ، بإرسال الطلاب الشبان إلى أوروبا ليتعلموا هناك . . وكان هذا أخطر ما فعله في الحقيقة . . لأنه من هناك بدأ الخط «العلماني» يدخل ساحة التعليم ، ومن ورائه ساحة الحياة في مصر الإسلامية .

وقد يقول قائل إنه لم يكن أمامه من سبيل النهوض بمصر إلا هذا السبيل!  
وهو قول مردود . .

فلو كان في مكان محمد على قائد مسلم واع،<sup>(١)</sup> يريد أن ينهض بمصر الإسلامية - أى على أسس إسلامية وقاعدة إسلامية - فقد كان أمامه سبيل آخر، هو النهوض بالأزهر - معقل العلم لا لمصر وحدها بل للعالم الإسلامي كله - برده إلى الصورة الزاهية التي كانت عليها المعاهد الإسلامية في عصور النهضة، حيث كانت تعلم العلم الشرعى والعلوم الدنيوية، وكان يتخرج فيها الأطباء والمهندسون والرياضيون والفلكيون والفيزيائيون والكيميائيون المسلمون الذين علموا العلم لأوربا يوما من الأيام!

إذا كانت بلاده - أو بلاد العالم الإسلامي جمعاء - تفتقر إلى المتخصصين في هذه العلوم، الذين يحتاج إليهم الأزهر لينهض بمهمته، ففى وسعه يومئذ أن يرسل أفرادا بأعيانهم، يختارون اختيارا دقيقا، على أساس دينهم وتقواهم، وحصافتهم ورزانتهم، بعد أن يكونوا قد تجاوزوا سن الفتنة، وأحصنوا بالزواج فلا ينزلقون في مزالق الفساد الخلقى . . فيتخصصون في مختلف العلوم ويعودون ليدرسوا للطلاب في بيئتهم الإسلامية، فيظل الشباب محافظا على إسلامه، ويتزود من العلوم بما ينفض عنه تحلفه العلمى، ويعيد إليه الحاسة العلمية التي فقدها المسلمون خلال عصر التخلف الطويل . . وعندئذ «تنهض» مصر، بل ينهض العالم الإسلامي كله من طريق الأزهر الذى يؤمه الدارسون من جميع بلاد العالم الإسلامى . . ويكون هذا القائد المسلم قد أدى أجل خدمة للإسلام والمسلمين . .

فهل فكر محمد علي على هذا النحو، أو هل كان قمينا أن يتجه هذه الوجهة؟!  
لو كان هذا لما اختاروه! ولما جاءوا به ليؤدى دوره «العظيم»!  
إنما كانت صياغته النفسية كلها و«التوجيه» الذى يتلقاه، كله إلى الجانب الآخر . . جانب التغريب .

لذلك أرسل الشبان الصغار بأعداد متزايدة إلى أوربا، وهم في سن الفتنة، غير

---

(١) كانت الدعايات حول محمد على «الكبير» تقول عنه إنه كان رجلا داهية!! فلم يكن الذى ينقصه إذن هو الوعى!



محصنين بشيء . . «لينهلوا» من العلم إن شاءوا، ومن الفساد إن شاءوا، أو من العلم والفساد معاً في غالب الأحيان . . ثم يعودوا، ليكونوا رأس الحربة المتجه إلى الغرب، الذي يجرب بلاده كلها إلى هناك!

ولا عبرة بأنه كان يرسل مع كل بعثة إماماً يؤمهم في الصلاة ويعلمهم أمور دينهم! فقد كان للصلاة حتى ذلك الوقت قداستها في حس المسلمين، ولا يتصور وجود «مسلم» لا يؤديها! أو هي في أقل الاعتبار «تقليد» له قداسته، لا يمكن أن يخرج عليه مسلم! لذلك لم يكن يتصور أن تكون هناك مجموعة من المسلمين بغير إمام يؤمهم في الصلاة، ولا يمكن أن يقدم محمد على على كسر ذلك التقليد المقدس في ذلك الحين.

ولكن ماذا فعل الأئمة؟!!

لقد كان رفاة رافع الطهطاوى واحداً من أولئك الأئمة «العظام»! . . أو هكذا كان يوم ذهب إلى فرنسا . . ولكنه عاد وهو واحد من أئمة التغريب!

استقبله أهله بالفرح يوم عاد من فرنسا بعد غيبة سنين . . فأشاح عنهم في ازدياء، ووسمهم بأنهم «فلاحون» لا يستحقون شرف استقباله!

ثم ألق كتابه الذي تحدث فيه عن أخبار «باريز» ودعا فيه إلى «تحرير» المرأة إلى السفر، وإلى الاختلاط، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس، فقال إنه حركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى، فلا ينبغي النظر إليه على أنه عمل مذموم!

ولم يكن يتوقع بطبيعة الحال أن تستجيب الأمة الإسلامية في مصر إلى هذه الدعوة الطهطاوية في حينها، فقد كانت بقية الإسلام في نفوس المسلمين، كما كانت سيطرة التقاليد الإسلامية على كل جوانب الحياة، تبلغان من القوة إلى الحد الذي يجعل مثل تلك الدعوة في ذلك الوقت مثاراً للسخرية ومثاراً للاستنكار الشديد . .

ولكن رأس الحربة كان يشير إلى الاتجاه . . الاتجاه إلى التغريب.

لقد كان العمل الذي قام به رفاة طهطاوى - ومن ورائه محمد على - هو على وجه التحديد على النحو التالي:

كانت في حياة المسلمين - في مصر وفي غيرها من بلاد العالم الإسلامي - نقطة

ارتكاز واحدة، هي الإسلام - بصرف النظر مؤقتا عن كل ما أصابهم من تخلف عن حقيقة هذا الدين - فجاء رفاة الطهطاوي فوضع إلى جانب نقطة الارتكاز الضخمة القائمة، نقطة ضئيلة غاية الضآلة هي «الحضارة الغربية»، ودعا المسلمين إلى الانتقال إليها والارتكاز عليها. ورويدا رويدا في حياة المسلمين أخذت تلك النقطة الضئيلة تكبر وتتضخم، وتصبح نقطة ارتكاز ثانية في حياة المسلمين إلى جانب الإسلام، مع التضاؤل التدريجي في نقطة الارتكاز الأولى بمقدار ما تتضخم النقطة الثانية. . حتى يأتي وقت تصبح تلك النقطة الضئيلة هي نقطة الارتكاز الرئيسية، وتصبح نقطة الارتكاز الضخمة السابقة نقطة جانبية ضئيلة تكاد تنمحى من الوجود!

\* \* \*

لقد استغرقت عملية الانتقال التدريجي ما يقرب من قرن من الزمان، ولكنها كانت عملية مستمرة لا تتوقف، بل تتوسع على الدوام، على النحو الذي ستحدث عنه في الفقرات التالية، متبعين مراحل الانتقال في مجالات الحياة المختلفة، الاجتماعية والأخلاقية والفكرية والسياسية والاقتصادية. . وبالذات في قضية «تحرير المرأة». ولكن ينبغي هنا أن نتوقف لنسأل: لماذا حدث هذا الانتقال؟!

هل هي الهزيمة العسكرية أمام الغرب الظافر، وولع المغلوب بتقليد الغالب؟ إن هذا وحده لا يكفي لتفسير ما حدث خلال ذلك القرن من الزمان، الذي تغرب فيه العالم الإسلامي، ونسى أصوله كلها كأنه لم يكن مسلما في يوم من الأيام، بل كأنه لم يعايش الإسلام من قبل ثلاثة عشر قرنا متوالية بلا انقطاع! هل الهزيمة العسكرية وحدها تكفي لتفسير هذا التحول الهائل، بل هذا الانهيار الهائل خلال قرن واحد من الزمان؟!

في الأمة صاحبة العقيدة لا تؤثر الهزيمة العسكرية كل هذا التأثير، بل قد لا يكون لها تأثير على الإطلاق!

لقد هزم المسلمون هزيمة شديدة في أحد، يكفي في تصويرها قوله تعالى: «إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم» (١).

(١) سورة آل عمران [١٥٣].

وهزتهم الهزيمة هذا شديدا لأنهم لم يكونوا يتصورون أن يهزموا قط ماداموا مؤمنين وأعداؤهم كفار، حتى قالوا مستنكرين في دهشة: «أني هذا؟! أي كيف يتأتى لهذا أن يحدث!»:

«أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: «أني هذا؟!...» (١).

ولكن التوجيه الرباني بعد الهزيمة كان البلسم الشافي للجراح:

«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» (٢).

ومنذ نزل هذا التوجيه وعته الأمة وعملت به، فلم تعد الهزيمة توهنها، لأنها تستعلى بالإيمان، وتتأسى بالذين وصفهم الله لهم:

«وكأين من نبيٍّ قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا. والله يحب الصابرين. وما كان قولهم إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين. فاتاهم الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين» (٣).

حتى حين هزموا الهزيمة المنكرة أمام التتار والصليبيين.

لقد كانت غارة التتار كاسحة، حتى إنها أزالَت الدولة العباسية من الوجود، وخربت بغداد، وأذلت أهلها فجرى النهر أربعين ليلة أحمر من كثرة ما أريق من دماء المسلمين. ووصل الرعب والضعف بالمسلمين إلى أن التترى كان يلقي المسلم في شوارع بغداد وليس معه سيفه، فيقول للمسلم: ابق هنا حتى أعود إليك بالسيف لأقتلك، فيبقى المسلم من الضعف والذل واقفا في مكانه حتى يعود إليه التترى بالسيف فيقتله! ومع ذلك كله لم تذُل أرواح المسلمين بحيث ينظرون إلى التتار على أنهم خير منهم، أو أنهم جديرون بالاحترام! إنها كانوا في نظرهم مجموعة من الهمج الوثنيين المتبربرين لا يستحقون إلا الاحتقار المطلق حتى وهم منتصرون!

وكانت غارات الصليبيين مفاجئة للمسلمين وهم على غير استعداد. . . واستغرقت قرنين من الزمان. . . لقي المسلمون فيها هوانا شديدا حتى ختم الله لهم

(١) سورة آل عمران [١٦٥].

(٢) سورة آل عمران [١٣٩].

(٣) سورة آل عمران [١٤٦ - ١٤٨].

بالنصر عليهم أيام صلاح الدين، بعد أن أقاموا دويلات نصرانية في مصر والشام. . ومع ذلك لم تذلل أرواح المسلمين بحيث ينظرون إلى النصارى على أنهم خير منهم أو أنهم جديرون بالاحترام! بل كانوا في نظرهم هم المشركين عباد الصليب. وكانوا يحقرونهم احتقارا شديدا من أجل شركهم ومن أجل فساد أخلاقهم، وكانوا يقولون عنهم إنهم دياييث. يكون الواحد منهم سائرا مع زوجته في الطريق فلتلقي بصديق لها، فيتحنى الزوج ليتيح للمرأة أن تتحدث مع صديقها ما شاءت من الحديث! (١).

الهزيمة العسكرية وحدها لا تؤثر إذن في الأمة ذات العقيدة مهما كانت شديدة وغير متوقعة.

ولكن قد يقال إن التفوق العلمي والحضاري والمادي الذي ووجه به المسلمون - مع الهزيمة - هو الذي أثر فيهم هذا التأثير، وحولهم هذا التحول، لأنهم فوجئوا به دفعة واحدة، فانكشف لهم مقدار تخلفهم الرهيب.

وهو قول ظاهره مقنع. . وقد كان لاكتشاف المسلمين مدى تخلفهم إزاء تفوق الغرب أثر في انبهارهم بما عند الغرب ولا شك. . ولكن هذا وحده لا يفسر! فضلا عن أن يبرر. .

لقد كان المسلمون في بدء حياتهم «متخلفين» في ميدان العلم وفي الجانب المادي والتنظيمي من الحضارة بدرجة لا تقاس إلى جانب ما كان لدى القوتين المجاورتين فارس والروم. . وكان المسلمون في حاجة إلى الاقتباس منهم والأخذ عنهم في هذين الميدانين، ولكنهم - كما أشرنا في الفصل الأول - لم يشعروا قط أن أعداءهم أعلى منهم، ولا أن ما عند أعدائهم من أفكار ومعتقدات وأنماط سلوك خير مما عندهم. بل نظروا باستعلاء الإيمان إلى هذا كله على أنه جاهلية عمياء لا تهتدي بالهدى الرباني ولا تطبق في حياتها منهج الله. فأخذوا العلم الذي كانوا يحتاجون إليه، وأخذوا من الجوانب المادية والتنظيمية ما وجدوا أنفسهم في حاجة إليه، وطوعوه لمنهج حياتهم، ولم يأخذوا شيئا من معتقدات الجاهلية ولا أفكارها

(١) انظر كيف انقلبت المعايير في القضية ذاتها بعد الهزيمة الأخيرة فوجد في «المسلمين» من يقول (في مجلة روز اليوسف) إلى متى نظل رجعيين! يكون الواحد سائرا مع زوجته في الطريق فلتلقي بصديق لها، فيصر الزوج على الوقوف ليستمع لما يدور بين الزوجة والصديق!!

ولا أنماط سلوكها . . وكان هذا هو المسلك الصحيح بالنسبة للأمة المسلمة حين تشعر بحاجتها إلى شيء تفتقده عندها وتجده عند الأمم الجاهلية من حولها .  
أما في هذه المرة فقد كان مسلكها مختلفا كل الاختلاف . .

كان مسلكها هو «الانبهار» بما عند الغرب . . الانبهار الذي يؤدي إلى الانهيار أمام القوة الغالبة ، وتسليم القيادة لها بلا تحفظ ، والرضى بالتبعية الكاملة لها . . بل الامتنان والاعتباط إذا قبلت القوة الظاهرة أن تعتبرها من بين الأتباع!!  
كيف حدث ذلك!؟

لا الهزيمة العسكرية وحدها تصنع هذا في الأمة ذات العقيدة ، ولا التخلف العلمي والحضاري والمادي وحده يصنع ذلك ، ولا حتى اجتماع الهزيمة والتخلف معا يمكن أن يؤدي إلى كل ذلك الانهيار .

إنما هي الهزيمة الداخلية ، الناجمة من التخلف العقيدى .  
«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأتتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» (١) .

إن اشتراط الإيمان في الآية الكريمة لا يجيء عبثا! فالإيمان الصحيح وحده هو الذي يحول دون الوهن والحزن في حالة الهزيمة أمام الأعداء (٢) ، ويحول دون النتائج التي تترتب على الوهن والحزن ، وهي الاستسلام للأعداء ، والكف عن مقاومتهم ، والكف عن محاولة منازلتهم من جديد . .  
والاستعلاء قرين الإيمان .

الاستعلاء على الجاهلية ، والنظر إليها على أنها جاهلية ولو كانت تملك ما تملك من أدوات النصر العسكري ، ومن أدوات التمكين المادي في الأرض . .

والآية الكريمة ترد المؤمنين إلى الميزان الحقيقي والمعياري الحقيقي . فحين تكون القضية هي قضية الكفر والإيمان ، فالمؤمنون هم الأعلون ولو أصابتهم هزيمة مؤقتة أو ضعف مادي مؤقت ، لأن الإيمان بذاته أعلى من الكفر ، أعلى منه نفسيا وروحيا وعقليا وأخلاقيا وإنسانيا بمقدار ما يعلو الحق على الباطل ، والمنهج الصحيح على المنهج الفاسد ، والرؤية الصحيحة على الرؤية الخاطئة ، والسلوك المستقيم على السلوك المعوج . .

(١) سورة آل عمران [١٣٩]

(٢) نزلت هذه الآية بعد هزيمة المسلمين في أحد .

«أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم؟!»<sup>(١)</sup>.

هذا من الوجهة النفسية والشعورية والوجدانية، التي تمنح الذوبان في العدو أو الهزيمة الروحية أمامه.

ومن الوجهة العملية حين يستيقن المؤمنون بأنهم هم الأعلون بالعقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح - ولو أصابتهم هزيمة مؤقتة أو ضعف مادي مؤقت - فإن هذا اليقين ذاته هو الذي يعينهم على أن يقوموا من كبوتهم، ويسترجعوا قوتهم، ويتأهبوا لمنازلة الأعداء من جديد:

«الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانا، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»<sup>(٢)</sup>.

الإيمان الصادق إذن، بمفهومه الإسلامي الصحيح، لا بالمفهوم الإرجائي، ولا بالمفهوم الصوفي، ولا المتفلت من التكاليف الربانية، هو الذي يعصم الأمة من الهزيمة الروحية أمام الأعداء، وإسلام القياد لهم، والرضى بالتبعية لهم. . . فهل كان هذا الإيمان موجودا بصورته تلك حين اقتحم الصليبيون بلاد الإسلام، وطفغوا فيها وأكثروا فيها الفساد؟! كلا بلا شك!

ولو كان موجودا بصورته تلك، التي نزل بها من عند الله، وعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، لما حل بالمسلمين ما حل بهم مهما يكن حالهم من ضعف القوة العسكرية والتخلف في الناحية العلمية والمادية والتنظيمية. . . إنما كان الإيمان كفيلا بأن يبعث الأمة لتزيل عنها ضعفها، وتستدرك تخلفها، وتقوم لمناجزة الأعداء من جديد. . .

حقيقة كان هناك إيمان من لون ما. . .

هو الذي جعل الأمة تقاوم الغزو الصليبي، وتجاهده مجاهدة إسلامية، أي تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتنظر إليه على أنه غزو من قبل الكفار

(١) سورة الملك [٢٢].

(٢) سورة آل عمران [١٧٢-١٧٣].

لبلاد الإسلام تنبغي مجاهدته وإزالته؛ وتقاوم ما وسعتها المقاومة عملية تنحية الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين الوضعية محلها، على أساس أن هذا كفر يخرج الأمة من الملة إذا رضيت به . . كما جاهدت الأمة الإسلامية في مصر حملة نابليون الصليبية، ومنعته من إحلال قانونه محل الشريعة الإسلامية. وكما جاهد المسلمون في الشمال الإفريقي ضد الغزو الصليبي الفرنسي، وفي الهند ضد الغزو الصليبي الانجليزي، وفي أندونيسيا ضد الغزو الصليبي البرتغالي ثم الهولندي . . وباختصار: في كل مكان واجهت فيه الأمة الإسلامية غزو أوروبا الصليبية لبلادها. ولكن هذا الإيهان كان قد اعتراه ما بيناه من قبل من الفكر الإرجائي، والاتجاه الصوفي، والتفلسف من التكاليف، فضلا عن تحوله عند العامة إلى مجموعة من الخرافات ومجموعة من التقاليد. . لذلك لم يصمد طويلا للغزو، رغم بسالة المقاومة التي أبدتها في جهاده. . فلما انهار كان انهياره عنيفا غير معهود من قبل . . وانهارت معه الأمة وأسلمت نفسها للتيار!

ولنعد الآن لنستكمل مع التجربة المصرية خطوات التاريخ . .

## دور الاحتلال البريطاني وأدواته في الإفساد

كان محمد علي وأبناؤه حتى الخديو إسماعيل عند حسن ظن فرنسا بهم . . فأسسوا للنفوذ الفرنسي في مصر، وقاموا بعملية التغريب على النحو المطلوب، وقال «إسماعيل العظيم» قوله المشهورة: أريد أن أجعل مصر قطعة من أوروبا! حتى جاء توفيق فتغير الربان الذي يمسك بالدفة ولكن لم يتغير الاتجاه! بدأ النفوذ الانجليزي في عهده يتدخل في شئون مصر من بعيد . . ثم انتهى الأمر باحتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢ م.

وكانت الخطة الجديدة بطبيعة الحال هي التغريب على الطريقة الإنجليزية بدلا من الفرنسية، وإن كان العجيب أن انجلترا لم تتعرض قط للمؤسسات الصليبية الفرنسية كالمدارس والمعاهد التبشيرية وما شاكلها، رغم حرصها على طرد النفوذ الفرنسي السياسي. ذلك أن دول أوروبا الصليبية قد تتنافس فيما بينها على النفوذ والمغانم تنافسا عنيفا يؤدي إلى الحرب بين الحين والحين، ولكنها إزاء الإسلام تتساند كلها ويحمي بعضها مصالح بعض!!

أهم ما حدث من التغيير هو الأسلوب الإنجليزي البارد في تحويل الناس عن الإسلام، ذلك الأسلوب الذى يتفق مع مثلهم المشهور ( Slow but Sure ) بطئ ولكن أكيد المفعول .

كان في نابليون حماقة الفرنسيين . . يغضب فيضرب ، فيؤدى الضرب إلى مزيد من اليقظة ومزيد من المقاومة ، كما حدث حين ضرب الأزهر بالقنابل وجعله اصطبلًا للخيل .

أما الإنجليز فهم لا يقلون في صليبيتهم عن الفرنسيين ، ولا يقلون في مقتهم للأزهر عن غيرهم من الصليبيين .<sup>(١)</sup> ولكن طريقتهم في التغيير تختلف في الوسائل وإن لم تختلف في الأهداف ، فتأتى بنتائج مختلفة في نهاية المطاف .

بطيء ولكنه أكيد المفعول . . يعمل عمله دون أن يتيقظ الناس للتغيير . يقول اللورد كرومر ، أول «معتمد بريطاني» في مصر<sup>(٢)</sup> : إن مهمة الرجل الأبيض الذى وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد (يقصد مصر) هو تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن ، بحيث تصبح هى أساس العلاقات بين الناس . وإن كان من الواجب - منعا من إثارة الشكوك - ألا يعمل على تنصير المسلمين ، وأن يرعى من منصبه الرسمى المظاهر الزائفة للدين الإسلامى ، كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك!<sup>(٣)</sup> .

وحيث بدأ حكمه في مصر شكاه المبشرون إلى الحكومة البريطانية بدعوى أنه يضيق عليهم ! فلما أرسلت الحكومة البريطانية الشكوى إليه ليرد عليها ، جمع المبشرين وقال لهم : هل تتصورون أننى يمكن أن أضيق عليكم؟! ولكنكم تخطفون الأطفال من الشوارع ، وتخطفون الرجال لتنصيرهم ، فتستفزون المسلمين فيزدادون تمسكا بدينهم ، ولكنى اتفقت مع شاب تخرج قريبا في كلية اللاهوت (Trinity College) بلندن ، ليضع سياسة تعليمية ستحقق جميع أهدافكم!<sup>(٤)</sup>

(١) راجع - قبل صفحات - قول احد المبشرين : هل الأزهر خطر على كنيسة المسيح؟

(٢) كان هذا هو اللقب الذى أطلق على الحاكم البريطانى في مصر في مبدأ الامر .

(٣) لورد كرومر ، مصر الحديثة Modern Egypt الجزء الاول ، الصادر سنة ١٩٠٥ .

(٤) قرأت هذا النص في الجزء الاول من كتاب التبشير والإرساليات التبشيرية Mission & Missionaries

وهو من الكتب الممنوع إخراجها في مكتبة المتحف البريطانى . ولكن أحد الأصدقاء كان قد عثر عليه في بيت أحد الأقباط في أسيوط ، فأطلعنى عليه ثم استرده ، ثم فقد منه في أثناء عملية اعتقاله بتهمة «الإسلام» في أحداث عام ١٩٦٥م ! فيرجى ممن يستطيع الاطلاع على الكتاب توثيق النص مشكورا .



هكذا يكون العمل البطيء الأكيد المفعول!  
سياسة تعليمية تحقق جميع أهداف المبشرين - أي جميع الأهداف الصليبية - على  
مهمل ، ودون ضجة تثير الانتباه ، «منعاً من إثارة الشكوك»!

## « أ » مناهج التعليم

تولى «المستر دنلوب» - القسيس الذى عينه كرومر مستشاراً لوزارة المعارف -  
مهام منصبه ، وكان فى يد «سعادة المستشار» - كما كانوا يسمونه - السلطة الفعلية  
الكاملة فى وزارة المعارف المصرية الإسلامية!

وحين يكون القسيس على رأس السلطة فى وزارة التعليم ، فما الذى يتوقع أن  
يكون من أمر التعليم!؟

جاء دنلوب ليضرب الأزهر - موطن الخطر على كنيسة المسيح - ولكن بغير حماقة  
نابليون ، وقد علم أن ضربه بتلك الحماقة كان سبباً فى استئثار المسلمين .

ترك دنلوب الأزهر على ما هو عليه لم يتعرض له على الإطلاق ، ولكنه - على  
الأسلوب البطيء الأكيد المفعول - فتح مدارس جديدة تعلم «العلوم الدنيوية» ولا  
تعلم الدين ، إلا تعليماً هامشياً هو فى ذاته - كما سيجىء - جزء من خطة إخراج  
المسلمين من الإسلام!

وقال الناس فى بادئ الأمر - على البديهة ، واستيحاء من البقية الباقية من الحس  
الإسلامى فى قلوبهم - إن هذه المدارس مدارس كفر لأنها لا تعلم القرآن . . إذ  
كانت المدارس الأولية التى تمهد لدخول الأزهر تعلم القرآن كله فى سنوات  
الدراسة الأربع . .

ولكن مدارس الكفر هذه أصبحت - بتدبير دنلوب - هى الوسيلة للرزق من  
ناحية ، وللمكانة الاجتماعية من ناحية أخرى . .

لقد كان المتخرج من هذه المدارس - بعد أربع سنوات فقط من الدراسة - يعين  
فور تخرجه فى دواوين الحكومة براتب يبلغ أربعة جنيهات كاملة ، كانت فى ذلك  
الحين تمثل ثروة ضخمة ، إذ كانت الأسعار زهيدة إلى حد لا يتصور بالنسبة  
للأسعار الحالية ، وكانت القوة الشرائية للجنيه المصرى عظيمة ، بحيث كانت

الجنهات الأربعة تكفى للحياة الكريمة فى العاصمة ذاتها، ويستطيع صاحبها أن يتزوج ويكون أسرة، ويتبقى معه بعد ذلك ما يدخره ليشتري به «الأطيان» فى الريف! (١).

أما خريج الأزهر الذى يقضى فى الدراسة عشرين سنة من عمره فى بعض الأحيان فلا يجد عملا. . وإن وجد عملا فى إقامة الشعائر فى المسجد فبإائة وعشرين قرشا، تكفى للحياة نعم، ولكنها حياة ذليلة ضئيلة بالنسبة لخريج المدرسة الابتدائية الذى يعمل فى «الديوان»!

وحين يكون الوضع على هذا النحو، ويكون لك ولد تريد تعليمه، فألى أين تذهب به؟ تذهب به إلى الأزهر ليقضى زهرة شبابه هناك ثم يتخرج ليبقى عاطلا، أو يعمل مقيم شعائر فى المسجد بهذا الراتب الضئيل؟ أم تذهب به إلى مدارس دنلوب، فيتخرج بعد أربع سنوات ليكون من المشار إليهم فى المجتمع، من «موظفى الحكومة» الذين يتودد إليهم البقال والجزار وصاحب المسكن، ويحتلون المكانة المرموقة فى كل مكان؟!!

لقد كان الانتساب إلى الأزهر فيما مضى شرفا تتسابق إليه الأسر. . وكانت الأسرة التى تحوى ضمن أفرادها «عالما» أى واحدا من خريجي الأزهر، تصبح محط الأنظار، سواء فى العاصمة أو فى الأقاليم، وينظر إليها الناس بالتبجيل والإكبار، لأن «العلم» فى حس الناس هو علم الدين، الذى هو خير الدنيا والآخرة، ولأن وظائف الدولة يحتل معظمها خريجو الأزهر، فينالون - فى المجتمع الإسلامى - كل وسائل الرفعة والصعود.

وبصرف النظر عما كان فى الأزهر من تخلف عن المنهج الإسلامى الصحيح، الذى كانت تمثله جامعات الأندلس، بل كان يمثله الأزهر نفسه فى عصور الازدهار، من الجمع بين علوم الدين والدنيا، وإعداد الناس لعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى. . فقد كان مرتبطا فى حس الناس بالإسلام، وكان رمزا

---

(١) كانت «الفيلاء» ذات الحديدية الواسعة فى ضواحي القاهرة تؤجر بإائة وخمسين قرشا! وكانت أفة السكر (أى ما يوازي الكيلو وربع الكيلو) تباع بقرشين ونصف القرش. وكانت عشر بيضات كبار بقرش واحد. . وقس على ذلك بقية تكاليف الحياة!

حيا له في ضيائهم، ومن ثم كان اعتزازهم به، وتوجههم إليه، وكانت لخريجه تلك المكانة في المجتمع الإسلامي.

فأما الآن - في عهد دنلوب - فقد تغير الحال تماما .

لم يعد يذهب إلى الأزهر إلا الفقراء الذين يعجزون عن دفع مصروفات المدارس «الحديثة»، وفي الوقت ذاته ينالون «جزاء» فقرهم ضياعا في المجتمع وهوانا فيه.

وقد تبعت بعض الأسر العريقة واحدا من أبنائها للأزهر من أجل «البركة» وابتغاء المكانة في الريف خاصة - كما صنعت أسرة مصطفى عبدالرازق مثلا - ولكن هؤلاء الأفراد القلائل من خريجي الأزهر من الأسر العريقة والثرية لم يكونوا لينفوا الصورة العامة التي صار الأزهر إليها، وهي أنه مأوى الفقراء العاجزين عن دفع تكاليف «التعليم الحديث»، العاجزين في الوقت ذاته عن نيل المكانة في «المجتمع الحديث»!

أما خريجو المدارس الجديدة فأولئك هم «الطبقة الجديدة» في المجتمع . . الطبقة الصاعدة . . الذين يلوون ألسنتهم برطانة المستعمر، ويفاخرون بها، ويحتضنهم المستعمر من جانبه، ويؤدى عن طريقهم الدور المطلوب، البطيء الخطوات، الأکید المفعول.

من هم أولئك الخريجون؟ ما ثقافتهم؟ ما وجهتهم؟ كيف نفذ بهم دنلوب أهدافه الصليبية التي انتدبه من أجلها كرومر، ومنحه من أجلها ما منحه من سلطان؟

فلننظر في المناهج التي وضعها دنلوب في مدارسه، ولنتخير من بينها أشدها خطرا وأبعدها أثرا: مناهج اللغة العربية، ومناهج الدين، ومناهج التاريخ .  
فأما اللغة العربية - لغة القرآن الذي يحترق قلب الصليبية حقدا عليه - فقد خطط دنلوب لقتلها والقضاء عليها.

فقد كان الراتب الذى يتقاضاه المدرسون من أصحاب المؤهلات العليا اثني عشر جنيها إلا مدرس اللغة العربية وحده، يتقاضى أربعة جنيها! وكان لهذا الوضع انعكاساته ولاشك سواء في داخل المدرسة أو في المجتمع على اتساعه! فأما في داخل المدرسة فلم يعد مدرس اللغة العربية هو المقدم، بل أصبح

في ذيل القافلة! يتقدمه المدرسون جميعا حتى ذوو المؤهلات المتوسطة، بل يتقدمه - في الراتب - فراش المدرسة أحيانا إذا كان ذا أقدمية طويلة!! ومن ثم لم تعد له كلمة في المدرسة؛ فلا هو يستشار في شئونها، ولا هو يشارك في شئ من إدارتها؛ ولم يعد له كذلك عند التلاميذ احترام، ولولا العصا التي يحملها ويؤدب بها التلاميذ ما قره أحد ولا عُجِّلَ له حساب! بينما يحظى مدرس اللغة الإنجليزية بالذات بأكبر قدر من التوقير والاحترام!

أما في المجتمع الواسع فهو أشد ضياعا منه في المدرسة! فالناس جميعا يعلمون وضعه المالى، ويعلمون أنه في ذيل القافلة، وأن المدرسين الآخرين مقدمون عليه في الراتب وفي الاحترام سواء! وإذا كانت العصا التي يحملها تخيف منه تلاميذه فيلتزمون بالأدب في درسه، فإن المجتمع في الخارج لا يخشى عصاه تلك، بل يتخذها مادة للتندر والهزء والاستخفاف، بينما العصا التي يحملها زميله مدرس اللغة الإنجليزية توفر له الاحترام داخل المدرسة، ولا تعيبه في المجتمع بشئ، إن لم توفر له المهابة والتقدير والتعظيم!

الناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ولأم المخطيء الهبل! (١)

وهكذا ينحدر وضع مدرس اللغة العربية في المجتمع، بقدر ما ينحدر راتبه، ويصبح مادة دائمة للسخرية، يتحدث الناس عن جهله، وتحلفه، وضيق أفقه، وقره، وانحطاط مستواه الاجتماعى والفكرى. . وأشد ما يعاب عليه، ويزدرى من أجله، أنه لا يعرف لغة أجنبية!!

وحين يصبح مدرس اللغة العربية في هذا الوضع المهين الذى لا يبعث على الاحترام، فإن وضعه يؤثر حتما على المادة التى يدرسها. . وقد كان هذا هو الهدف المقصود من وراء ذلك التدبير الخبيث.

لقد انتقل الوضع المهين المزدرى من المدرس إلى المادة. . وصارت اللغة العربية موضع الازدراء والتحقير والنفور. . فالطلاب يشكون من صعوبة اللغة العربية نحوا وصرفا وبلاغة ونصوصا وأدبا. . وقد ظلوا يغايشونها ثلاثة عشر قرنا قبل ذلك بلا شكوى! وكأنها اكتشفوا فجأة تلك الصعوبة التى تصرفهم عنها صرفا!! وقد

---

(١) البيت للمتنبي

بدأوا يوازنون بينها وبين اللغات الأجنبية - وبالذات الإنجليزية - ليجدوا أن اللغات الأجنبية أيسر - وبالذات الإنجليزية - في كل شيء! فهى لغات غير معربة، لا تحير القارئ بين الرفع والنصب والجر، ونحوها سهل، وهجاؤها سهل، وتراكيبها غير معقدة!<sup>(١)</sup> والخلاصة التى يصلون إليها أن العناية باللغة العربية غير واجبة، بل ربما كانت غير جائزة! بينما العناية باللغة الأجنبية - وبالذات الإنجليزية - واجبة كل الوجوب! وأصبح الطالب الذى وجّه هذا التوجيه وطبع ذلك الطبع يخطئ في النحو العربى فينصب الفاعل ويرفع المفعول بلا تخرج ولا مبالاة، فإذا صحح له خطؤه أو نبه إليه هز كتفيه مستكفا وقال: يا عم! دعك من «الفقهنة»! هل أنا «فقى»!<sup>(٢)</sup> بينما يحترز كل الاحتراز أن يخطئ في نطق كلمة من لغة أجنبية أو في تصريف فعل من أفعالها أو في صياغة تركيب من تراكيبها، وإذا وقع منه الخطأ صار سخرية المجلس كله ورمى بالجهل المعيب!!

والكتّاب يشكون من جمود اللغة وعدم مرونتها وعدم طواعيتها، وعدم قدرتها على نقل المعانى «وظلال المعانى» كما تستطيع ذلك اللغات الأجنبية - وبالذات الإنجليزية! - في طلاقة ويسر ورشاقة وعمق! وكأنها الكتّاب لم يصحبوا هذه اللغة ثلاثة عشر قرنا من قبل ذلك، وعُبرت عن خلجات نفوسهم كلها بغير عجز! وكأنها اكتشفوا قصورها فجأة وكانوا غافلين عنه. . فانصرفوا إلى دراسة آداب اللغات الأخرى وهجروا الأدب العربى! وأصبح المتنبى والبحترى أو علقمة وامرؤ القيس أسماء سخيفة ممجوجة تصم صاحبها لتوه بالتخلف العقلى والحضارى! وأصبح

(١) يعلم دارسو اللغات الأجنبية «الحية» أن النحو والصرف في اللغة الفرنسية معقد أشد التعقيد، فتصريف الأفعال فيها يقع في ثلاث مجموعات على ثلاث صور مختلفة، ثم في كل مجموعة شواذ ينتسبون إليها ولكن لا يصرفون مثلها! ولكل فعل - أيا تكن المجموعة التى ينتسب إليها - ستة تصريفات مختلفة تمثل صيغ الزمن المختلفة (لا ثلاثة فقط كما هو في اللغة العربية: الماضى والمضارع والأمر) كما أن الهجاء فيها معقد ومخالف للمنطوق، فضلا عن التأنيث والتذكير على غير منطوق واضح. أما اللغة الإنجليزية فقد تكون أيسر من الفرنسية ظاهرا، ولكن التراكيب الاصطلاحية فيها (idioms) غير قياسية ولا بد من حفظ كل واحد منها على حدة. وللأفعال فيها ست صيغ للزمن كما للفرنسية بدلا من الثلاث الصيغ العربية. والهجاء غير قياسي، وبالذات بالنسبة لمجموعة الحروف O U G H التى ترد على ستة أنحاء مختلفة في النطق مثل:

Enough, Dough, Cough, Thought, Thorough, Through.

(٢) كلمة «فقى» (وأصلها فقيه) تعنى في المفهوم العامى المصرى الرجل الذى يقرأ القرآن على المقابر لقاء دربهات. . وهو رجل «يستزجر» لهذا الأمر. ولا احترام له عند الناس.

دانتى وشكسبير ووردزورث وبايرون وأندريه جيد وأنتول فرانس وفيكتور هوغو  
هى التى تتردد على ألسنة «المثقفين» للدلالة على أنهم مثقفون ، ولو لم يكن لهم من  
حصيلتها إلا حفظ الأسماء!

و «العلماء» . . أو بالأحرى مترجمو العلوم يشكون من أن اللغة العربية لغة غير  
علمية!! إن صلحت للأدب - أى الأدب الردىء! - فإنها لا تصلح للعلم . .  
جامدة . . معقدة . . محدودة . . متخلفة . . ولا بد من اتخاذ اللغات الأجنبية -  
وبالذات الإنجليزية! - لدراسة العلوم ، ولا بد أن نعلمها لأبنائنا فى المدارس إذا  
أردنا أن يكون لدينا فى يوم من الأيام علماء! وكأنها لم يكن لهذه اللغة صلة بالعلم  
من قبل - فى عصور الازدهار - بل كأنها لم تكن فى وقت من الأوقات هى لغة  
العلم، يوم قال روجر بيكون: من أراد أن يتعلم فليتعلم العربية، فهى لغة  
العلم!!

وهكذا صوبت السهام إلى اللغة العربية من كل جانب، ولم تعد شيئاً يعتز به  
المسلم العربى كما كان يعتز طيلة ثلاثة عشر قرناً من قبل، بل أصبحت معرفة  
يسارع الإنسان إلى الانسلاخ منها، ويمعن فى العيب فيها والانتقاد عليها لكى  
يصبح من «المثقفين»!

ولم يكن بد من أن ينتقل هذا الوضع المزرى من اللغة ذاتها إلى ما هو مكتوب  
بتلك اللغة . . وكان هذا هو الهدف الأخير المطلوب من ذلك التخطيط الخبيث!

فالمكتوب باللغة العربية هو تراث الأمة كله . . وعلى رأسه القرآن!!

والمطلوب هو صرف الأمة عن تراثها كله . . وعلى رأسه القرآن!!<sup>(١)</sup>

وانصرف الناس بالفعل عن قرآنهم وتراثهم بالتدريج ، فلم يعودوا يشعرون أنه  
هو «الزاد» . . إنما الزاد هو المكتوب بلغة السادة الغالبيين!

أما درس الدين فى مناهج دنلوب فلا يقل سوءاً إن لم يكن أسوأ .

فمدرس الدين هو نفسه مدرس اللغة العربية الذى وضعه دنلوب فى ذلك

---

(١) تم صرف المسلمين فى تركيا عن تراثهم الإسلامى بتغيير الحروف العربية وكتابة اللغة التركية بالأحرف اللاتينية  
على يد أنتاتورك، وتصفية اللغة التركية من معظم الكلمات العربية التى تتضمنها لتنشأ أجيال تعجز كاملاً عن  
الاتصال بتراثها الإسلامى ، فتقطع عنه وتنشأ بلا دين . وقد قامت فى مصر محاولات مشابهة على يد عبدالعزيز  
فهيمى وغيره ولكنها ولدت ميتة ولم يقدر لها النجاح .

الوضع المزرى المهين، ولكن يزيد عليه أن أكبر المدرسين سنا هو الذى يوكل إليه تدريس الدين بحجة إراحته من تعب تصحيح الدفاتر وحملها من المدرسة إلى البيت وبالعكس! ويزيد على ذلك أيضا أن حصة الدين توضع فى نهاية الجدول المدرسى. فهى - فى أغلب الأحيان - السابعة يوم السبت أو الخامسة يوم الخميس أو السادسة فى بقية الأيام!

وفحوى ذلك أن التلاميذ يتلقون درس الدين وهم فى حالة الضجر والإعياء فى نهاية اليوم المدرسى، وهم ينتظرون دق الجرس لينفلتوا إلى الشوارع وإلى البيوت. ويتلقون من مدرس عجوز فإن يسعل ويتفل ويتحرك فى تراخ ظاهر. فيقترن درس الدين فى نفوسهم بالعجز والفناء والضجر والضييق والرغبة فى الانفلات! فوق أنه درس ميت فى طريقة تدريسه، فهو مجموعة من النصوص تلقى لتحفظ حفظا وتستظهر، بلا حركة ولا حياة ولا روح!

ولكى تعلم أنها خطة مقصودة لتنفير التلاميذ من درس الدين، ثم من الدين ذاته فى النهاية - كتفسيرهم من اللغة العربية وما هو مكتوب بها - فاعلم أن درس الدين المسيحى فى المدارس التبشيرية - حتى التى تزعم أنها «علمانية» لا علاقة لها بالدين!، والتى يؤمها التلاميذ «المسلمون» ومحضرون درس الدين - يقام فى الصباح الباكر، والتلاميذ قادمون بنشاطهم كله وبشهرهم كله، ويقوم بتدريسه أشب المدرسين والمدرسات وأحبهم إلى قلوب التلاميذ! ولا يقام فى فصل الدراسة حتى لا تكون له رتبة الدروس اليومية العادية، إنما يقام فى كنيسة المدرسة! ويقام فى وسط الأناشيد التى تتجاوب بها حناجر التلاميذ وقلوبهم، فيقترن درس الدين فى نفوسهم بالفرحة والبهجة والنشاط والحركة والاستبشار بالحياة!

أضف إلى ذلك أن درس الدين فى منهج دنلوب هو فى الحقيقة رقعة فى الثوب الدراسى غير متجانسة معه، إن لم نقل متنافرة معه! فهو ثوب «علمانى»<sup>(١)</sup> بحت، لا علاقة له بالدين على الإطلاق، على الطريقة الغربية اللادينية التى فصلت الدين عن العلم وفصلته عن الحياة. فإذا جاء درس الدين ذكّر الله ورسوله وذكر الدين والآخرة. . ولكنه - حتى فى أفضل أحواله - صوت ضعيف لا يكاد صده

(١) اقرأ - إن شئت - فصل «العلمانية» فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

يبلغ الأذان فضلا عن القلوب . فإذا كان على حالته التي يلقي بها بالفعل ،  
نصوصاً لا تشرح ولا تبث فيها الحياة ، بل تستظهر استظهاراً بغير فهم ، ويقوم  
بتدريسها ذلك العجوز الفانى الضعيف فقد خمد الصوت تماماً ولم يعد له أثر .  
بل صار له الأثر العكسى وهو التنفير من الدين . . وذلك هو المطلوب! (١)

ولكى تعلم أنها خطة مقصودة لتنفير التلاميذ من الدين ، فلتعلم أن الدين في  
المدارس التبشيرية التي يؤمها التلاميذ المسلمون ، لا يقتصر على ذلك الدرس - مع  
حيويته التي أشرنا إليها ، وإحاطته بالفرح والنشاط والبهجة - بل هو «روح» تلقى  
إلى التلاميذ في كل مناسبة ، في أثناء الدروس وأثناء اللعب وأثناء الوقوف في الصف  
وأثناء الانصراف إلى الفصول أو الانصراف من المدرسة ، ومن ثم يكون ذا أثر  
عميق في نفوس التلاميذ ، ولا يكون درس الدين المتخصص رقعة في الثوب ،  
متنافرة معه وغير متناسقة ، بل قطعة طبيعية من نسيج الثوب ، متناسقة معه ومزينة  
له .

وزيادة في النكاية لدرس الدين فقد وضعه المنهج الدنلوبى ضمن «المواد  
الإضافية» التي تحذف في جدول الصيف المختصر ، الذى يقتصر على «المواد  
الرئيسية» فيحذف منه الدين والرسم والأشغال اليدوية والألعاب الرياضية . .  
وهكذا يصبح في حس التلاميذ مادة «هامشية» ليس لها اعتبار!  
وهذا التدبير البطيء الأکید المفعول تخرجت أجيال وراء أجيال لا تحس بأى  
توقير نحو الدين!

\* \* \*

أما «ثلاثة الأثافي» فهي درس التاريخ . . بشقيه : الإسلامى والأوربى!  
فأما منهج التاريخ الإسلامى فيبدأ - كالمعتاد - بدراسة أحوال الجاهلية تمهيداً  
لدراسة البعثة النبوية وصدر الإسلام .  
وفي دراسة الجاهلية ترد تلك الجملة «الشهيرة» (٢) : كان العرب في الجاهلية  
يعبدون الأصنام ويثدنون البنات ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويقومون بغارات  
السلب والنهب ، فجاء الإسلام فناهم عن ذلك . .

(١) في النية إصدار كتيب بعنوان «منهج لدرس الدين» .

(٢) نقول «شهيرة» لأنها انتقلت من مصر إلى معظم بلدان العالم العربى!



وتبدو هذه الجملة بريئة في ظاهرها، ولكنها خبيثة كل الخبث في واقعها. فأما البراءة الظاهرية فمصدرها أن العرب في الجاهلية كانوا حقيقة على الصورة التي تصفها هذه العبارة، وأن الإسلام قد أزال تلك الصورة بالفعل، وأما الخبث فممنشؤه أن العبارة لم تتحدث عن «جوهر» الجاهلية الذي جاء الإسلام لمحوه وتغييره، إنما تحدثت عن «مظاهر» الجاهلية العربية خاصة، التي قد لا توجد في الجاهليات الأخرى، بينما الإسلام لم ينتزل لمحو مظاهر الجاهلية العربية، وإنما لإلغاء جوهر الجاهلية كله وإبدال الإسلام به.

بعبارة أخرى.. حين نحصر مهمة الإسلام في محو هذه المظاهر وحدها، فماذا يكون قد بقي من مهام الإسلام في الوقت الحاضر؟ حين ينظر التلاميذ حولهم فلا يجدون أصناما معبودة،<sup>(١)</sup> فقد سقط إذن هذا «البند» من مهام الإسلام..

وحين لا يجدون البنات توءد، بل يجدون على العكس من ذلك بنات مدلات أشد التدليل، فقد سقط هذا البند كذلك من مهام الإسلام.. وحين يجدون بعض الناس يشربون الخمر ويلعبون الميسر، فقد دعا الإسلام دعوته «الأخلاقية» فاستجاب لها من استجاب ووقع غيرهم في «المعاصي».. ولا حيلة!

وأما غارات السلب والنهب فتوجد اليوم حكومات نظامية ذات قوات مخصصة للأمن تحول دون وقوع مثل هذه الغارات وتعاقب من تسول له نفسه اقترافها.. فماذا بقي إذن من مهام يمكن للإسلام أن يؤديها في العالم الحديث؟! إن الإسلام - بهذه الصورة - يكون قد استنفد أغراضه.. وهذا هو الإجماع المطلوب منذ أول درس من دروس التاريخ الإسلامي! أنه جاء لزمان معين كان يتسع له ويحتاج إليه، ولكن لم تعد هناك حاجة إليه في الوقت الحاضر، فهو جزء من التاريخ الغابر ولا زيادة!

وكان الأمر يختلف اختلافا واسعا بطبيعة الحال لو ذكرت الحقيقة الجوهرية التي جاء من أجلها «الدين».. الدين كله من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى

---

(١) يخفى عن التلاميذ عمدا أحوال الوثنيين في أفريقيا وآسيا.

الله عليه وسلم ، وهى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده بلا شريك ، العبادة المتمثلة فى الاعتقاد بوحداية الله ، وتقديم الشعائر التعبدية إليه وحده ، وتحكيم شريعته فى كل شأن من شئون الحياة ؛ مع الخصيصة التى اختصت بها الرسالة الأخيرة المنزلة على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى أنها رسالة للبشرية كافة منذ مبعثه عليه السلام إلى قيام الساعة . .

كم تتغير الصورة فى حس التلاميذ حين تدرس لهم تلك الحقيقة الجوهرية التى جاء من أجلها «الدين» ، وتلك الخصيصة التى اختصت بها الرسالة الأخيرة؟! إنه تغير يبلغ ما بين السماء والأرض!!

فلا هذا الدين استنفد أغراضه فى الماضى ، ولا استنفدها بالنسبة للحاضر ، ولا استنفدها بالنسبة للمستقبل! ولا يستنفدها أبدا طالما هناك مشرك واحد فى الأرض يعتقد بوجود آلهة غير الله ،<sup>(١)</sup> أو يقدم الشعائر التعبدية لأحد غير الله (أو مع الله) ، أو يحكم شريعة غير شريعة الله!

بل حتى لو تصورنا جدلا أن أهل الأرض آمنوا كلهم جميعا (وهو فرض لا يتحقق أبدا لأنه يخالف ما قدر الله)<sup>(٢)</sup> فلن يستنفد هذا الدين أغراضه ، لأن مهمته عندئذ تكون المحافظة على إيمان الناس بالتذكير بما أنزل الله ، تحقيقاً للتوجيه الرباني :

«وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين»<sup>(٣)</sup>

فكيف والأرض مليئة بكل أنواع الشرك ، سواء شرك الوثنية ، أو شرك الرسائل السماوية المحرفة لدى اليهود والنصارى ، أو شرك الاتباع المتمثل فى تحكيم الشرائع الجاهلية بدلا من شريعة الله؟

بل كيف والعالم الإسلامى ذاته - ومصر من بينه - قد نحييت فيه الشريعة الربانية ووضعت بدلا منها قوانين الجاهلية؟

أى مهمة للإسلام يؤديها اليوم أعظم من مهمة رد الناس عن هذا الشرك كله ، ودعوتهم إلى التوحيد؟!!

(١) أو ملحد ينكر وجود الله البتة .

(٢) قدر الله أن يكون البشر أحرارا فى أفعالهم ومسئولين عنها ، ومقتضى ذلك أن يختلفوا فيؤمن بعضهم ويكفر بعضهم الآخر ، «ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة» أي يقهرهم على الإيمان ولكنه لم يشأ ذلك سبحانه .

(٣) سورة الذاريات [٥٥] .

ولكن هذا بالذات هو الذى يراد أن يبعد عن أذهان التلاميذ!  
يراد منهم ألا يتذكروا أبداً أن مصر قد نحتت فيها الشريعة الإسلامية منذ  
دخلها الاحتلال الصليبي، وصارت تحكمها القوانين الجاهلية، لأن تذكر ذلك  
يترتب عليه أن يجاهد المسلمون في مصر هذا الاحتلال جهاداً دينياً لإخراج  
الصليبيين من بلاد الإسلام.

من أجل ذلك يشوه الدرس الأول ذلك التشويه، حتى تنسى الأجيال المتخرجة  
في «مدارس الكفر» أن الإسلام له مهمة يمكن أن يؤديها في الوقت الحاضر!  
ثم يدرس للتلاميذ عصر البعثة وصدر الإسلام بطريقة قد تكون وافية، وإن  
كان لا يركز فيها على جوهر الجاهلية الذى جاء الإسلام لإزالته، وجوهر الإسلام  
الذى بعث الرسول صلى الله عليه وسلم لبيانه للناس، ودعوتهم إليه، وتمكينه  
في الأرض بالجهاد..

ولكن الصورة المشرقة المتمثلة في عصر البعثة وصدر الإسلام تطمس فجأة  
وتخبو.. لأن الذى يدرس للتلاميذ بعد ذلك هو «التاريخ السياسى» للإسلام..  
أو بالأحرى هو التاريخ الذى يغلب عليه الانحراف!!

حقيقة إن خط الانحراف واقع تاريخي، وخاصة في الجانب السياسى من حياة  
المسلمين.. وأن هذا الانحراف بدأ مبكراً منذ العهد الأموى.. وأنه ارتكبت فيه  
فظائع من أجل الاستيلاء على الحكم أو استبقائه لا يرضى عنها الله ولا رسوله،  
ولا تليق بالمسلمين..

ولكن التركيز على خط الانحراف وحده وإسقاط بقية الصورة هو تشويه متعمد  
للتاريخ الإسلامى لأمر يراد! (١).

فلو أن الصورة أعطيت كاملة كما هي في الحقيقة لأعطت إجماءً آخر مختلفاً كل  
الاختلاف (٢).

وقع الانحراف نعم - في الجانب السياسى خاصة - ولكن لم ينته الإسلام من  
الوجود! وبقي في الواقع التاريخي للإسلام جوانب كثيرة من الإسلام مطبقة في عالم  
الواقع، وبقيت فيه أمجاد كثيرة جديرة بالتسجيل، وجديرة باعتراف المسلمين.

(١) عرضت لهذه النقطة بشئ، من التوسع في كتاب «المستشرقون والإسلام».

(٢) عرضت لهذه النقطة أيضاً بشئ، من التوسع في كتاب «كيف نكتب التاريخ الإسلامى».

ولكن الذى يراد من دراسة التاريخ الإسلامى فى المنهج الدنلوبى ليس هو إثارة  
اعتزاز المسلمين بتاريخهم، بل هو على وجه التأكيد قتل هذا الاعتزاز!  
ومن أجل هذا الهدف تخفى الصفحة البيضاء كلها، أو بالأحرى يخفى ما فى  
صفحة التاريخ الإسلامى من بياض، ويبرز الخط الأسود وحده على أنه هو  
التاريخ!

يخفى نشر العقيدة الصحيحة فى مساحة واسعة من الأرض تمتد من المحيط إلى  
المحيط، وإخراج الناس فيها من الظلمات إلى النور، وإجراء العدل الربانى المتمثل  
فى تطبيق الشريعة الربانية، وتحقيق العدل خاصة بالنسبة لمن بقى على دينه فى تلك  
الرقعة الواسعة من الأرض، مما لا مثيل له فى التاريخ البشرى كله. . . ويقدم هذا  
كله فى عبارة موجزة مبهمه موهمة، وهى امتداد الفتوح الإسلامية! كأنها هى حركة  
توسع حربى لا هدف له إلا فسخ الرقعة وبسط النفوذ!

ويخفى بقاء المجتمع الإسلامى فى عمومه فترة طويلة من الزمن نظيفا من  
الفاحشة، أمانا على أعراضه أمانا على أنسابه، وحيثما كانت الدولة قوية مبسوطه  
السلطان فهو آمن أيضا على دمانه وأمواله فى ظل شريعة الله .

وتخفى الحركة العلمية الإسلامية الهائلة التى نشرت نورها فى الأرض، وتعلمت  
منها أوروبا حين بدأت نهضتها الحديثة نتيجة احتكاكها بالمسلمين فى أكثر من أرض  
وأكثر من مجال .

وتخفى الحركة الحضارية الإسلامية الضخمة بشقيها، المعنوى المتعلق بالقيم  
الإنسانية العليا، والمادى المتعلق بالعمارة المادية للأرض والأشكال التنظيمية  
للحياة .

كما يخفى بطبيعة الحال تفرد كلتا الحركتين بميزتها الإسلامية الخاصة - المستمدة  
من المنهج الإسلامى - وهى فسح المجال للنشاط البشرى فى جميع مجالاته الحيوية،  
مع الالتزام بالمنهج الربانى الذى يجمع الروح والمادة، ويجمع الدنيا والآخرة كلها  
فى نظام .

وحين يخفى هذا كله فماذا يبقى؟!!

يبقى إحياء ان خبيثان، مقصودان :

أولهما: أن الإسلام لم يحكم إلا فترة قصيرة جدا فى عهد الخلفاء الراشدين  
ثم انتهى إلى غير رجعة .

والثانى: أن التاريخ الإسلامى - بعد صدر الإسلام - خالٍ من كل القيم التى تقيم الحياة الإنسانية الصحيحة، وأنه عبارة عن عمليات دموية من أجل السلطان!

وبعد أن يفرغ التاريخ الإسلامى من محتواه الحقيقى على هذا النحو يوجه التلاميذ إلى أوروبا!

أوروبا هى العلم! أوروبا هى الحضارة! أوروبا هى القيم! أوروبا هى الديمقراطية! أوروبا هى حقوق الإنسان! أوروبا هى التقدم الصناعى! أوروبا هى الصورة الصحيحة للوجود البشرى فى جميع المجالات!

ويخفى - عمدا - فظائع الاستعمار الوحشية فى كل مكان دنسته أقدام المستعمرين، وخاصة فى العالم الإسلامى . ويخفى - عمدا - البواعث الصليبية للتحرك الأوروبى نحو العالم الإسلامى . ويخفى - عمدا - الفساد الخلقى الآخذ فى الانتشار - يومئذ - فى أوروبا . ويخفى - عمدا - غلبة الروح المادية على تلك الحضارة وانطماس الروح .

وهكذا يقدم التاريخ - الإسلامى والأوروبى - كاذبا من شقيه كليهما وإن احتوى جانبا من الحق!

ففى التاريخ الإسلامى يقدم الخط الأسود من الصفحة بتركيز فائق ويخفى ما فى بقية الصفحة من البياض، وفى أنتاريخ الأوروبى يقدم الخط الأبيض من الصفحة بتركيز فائق ويخفى ما فى بقية الصفحة من السواد!

وحيث يقدم التاريخ بصورته الكاذبة هذه من شقيها فإذا تكون النتيجة؟! تكون تخريج أجيال متعاقبة من «التعلمين» يجنحون تدريجيا إلى الانسلاخ من الإسلام على أنه شىء قد استنفد أغراضه ولم تعد له مهمة يؤديها فى الوقت الحاضر، بل على أنه شىء قد عاش أكثر مما ينبغى، وكان ينبغى أن يندثر من زمان بعيد، ويتجهون إلى أوروبا على أنها مهبط الوحي ومنبع النور، ومنتجع الصحة لمن يريد الاستشفاء من التخلف والرجعية!

\* \* \*

إذا كان هذا كله فى المدرسة الدنلوبية الابتدائية فالمدرسة الثانوية تحوى هذه السموم كلها ولكن بجرعة أكبر! فالطلاب فى المدارس الثانوية أنضح بلا شك

وأقدر على الاستيعاب، وأجدر - حين يتناولون جرعة السم - أن يكون تأثيرهم بها أشد!

من أجل ذلك يزداد في تحقير درس اللغة العربية إلى جانب الدروس الأخرى عامة ودرس اللغة الإنجليزية خاصة، ويزاد من تحقير درس الدين ووضعه في أقصى الزاوية الهامشية، ويزاد في إعطاء التفصيلات في خط الانحراف التاريخي للمسلمين مع الإخفاء الكامل لكل بياض الصفحة . . ويزاد أخيراً - وليس آخراً - في الجرعة الأوروبية التي تصور أوربا على أنها القمة السامقة الفريدة في تاريخ البشرية، وتلوى أعناق الطلاب لياً إليها مع الإعجاب المبهور الذي لا يدع للإنسان الفرصة لالتقاط أنفاسه!

\* \* \*

فإذا تم هذا كله جاءت «مدرسة المعلمين العليا» لتكتمل التخطيط الدنلوبى الخبيث . .

كانت هذه هي المكان الذي يتخرج فيه معلمو المواد كلها ما عدا اللغة العربية، التي يتخرج معلموها في الأزهر - وحده أولاً، ثم فيه وفي «دار العلوم العليا» فيما بعد - وكانت في الوقت ذاته هي «معمل التفريخ» للمخطط كله، الذي يضمن دوام التأثير وعمق التأثير، على أسلوب المخطط كله، البطيء الخطى، الأكيد المفعول.

كان طلابها يختارون بادئ ذي بدء من بين خريجي المدارس الثانوية الذين حقنوا بالسم الخبيث على جرعتين متواليتين طويلتين، إحداهما في أثناء التعليم الابتدائي والثانية في أثناء التعليم الثانوى أى خلال تسع سنوات متواليات.

وكانوا يختارون ثانياً على أسس معينة وضعها وينفذها مدير المدرسة ومعلموها وكلهم من الإنجليز!

ولك أن تتوقع نوع «العينة» المطلوبة! ونوع «المؤهلات» المطلوبة!  
وبطبيعة الحال لن تكون الاستقامة على الإسلام، ولا التقوى والصلاح من بين تلك المؤهلات!

وأياً كانت نوعية الداخل وقت دخوله، فالخارج «مضمون»! مضمون النوعية ومضمون المؤهلات!

هنا في «معمل التفريخ» يتم كل شيء بعناية فائقة. . لأنه مستقبل أمة كاملة يصاغ!

كانت المدرسة تقع في حي «المنيرة»<sup>(١)</sup> على بعد دقائق معدودة من ثكنات جيش الاحتلال في قصر النيل. <sup>(٢)</sup> وكان الأساتذة الإنجليز لا يدخلون على طلابهم في الحقيقة بوصفهم أساتذة فحسب! بل بوصفهم قوة الاحتلال القاهرة التي جاءت لتقهّر نفوس هؤلاء الطلاب وتشعرهم بالضالة والدونية إزاء «الرجل الأبيض» العظيم الذي وضعته «العناية الإلهية!» على رأس هذه البلاد<sup>(٣)</sup> هذا هو المعنى الظاهر الذي كان يعتمد أولئك «الأساتذة» إظهاره. أما المعنى الخفي - وهو القهر الصليبي للمسلمين - فهذا لم يكونوا يصرحون به، ولكنه ينبث - واضحا - في كل مناسبة وفي كل توجيه.

وأياً كان الأمر فقد كان أولئك «الأساتذة» يمثلون في نفوس الطلاب شيئا مرهوبا لا يقاوم، بل حسب الطالب منهم أن يتحاشى فتكاته المتوقعة في أية لحظة، ولكنه لا يحس بالأمن الحقيقي لحظة واحدة حتى ينتهي من دراسته ويتخرج. فإذا تخرج فالرهبنة من «الخواجة» لا تغادر قلبه، وإن أخذت صورا متعددة متجددة في حياته العملية!

وفي جو الرهبة العام يتلقى الطلاب جرعات السموم. . هل يملك أحد أن يمتنع عن تناولها؟ بل هل يملك أحد أن يمتنع عن التأثير بها حتى لو أراد؟! .

جرعات السم هنا واضحة. . . والتلقين مباشر. . . إن ما بكم من تخلف سببه الإسلام! الدين كله يسبب التخلف، ولكن الإسلام بصفة خاصة يعمل على التخلف أكثر من أي دين!! ستظلون متأخرين طالما بقيتم متمسكين بالإسلام! لن تتقدموا إلا إذا تخلصتم من عقلية القرون

(١) في مكان كلية تجارة القاهرة في الوقت الحاضر.

(٢) في مكان فندق الملتون بميدان التحرير! في الوقت الحاضر.

(٣) راجع كلام كرومر قبل صفحات.

الوسطى التى كانت تعتبر الدين أساس الحياة! أساس الحياة اليوم هو العلم وليس الدين . . !

وهذا إلى جانب التلقين غير المباشر . .

لقد كانت أوروبا فى العصور الوسطى المظلمة خاضعة لسلطان الدين ، فكانت جاهلة متأخرة جامدة . وحين نبذت الدين تقدمت وتحضرت وتعلمت وأوتيت كل وسائل القوة والتمكن . كان الدين حاجزا عن العلم لأنه مجموعة من الخرافات . وحاجزا عن العمل والنشاط والإنتاج لأنه ينظر إلى الآخرة ويهمل الدنيا . كان لا بد من تحطيمه للقضاء على الخرافة ، والاستمتاع بالحياة على الأرض . الفكر الإنسانى الحر هو الذى تصدى بجرأة لتحطيم الخرافة ، ووصل إلى التقدم الرائع الذى تمارسه أوروبا اليوم . هو الذى قرر الديمقراطية ، وقرر حقوق الإنسان ، ورفع من قيمة الكرامة الإنسانية بتقرير مبدأ الحرية الشخصية التى كانت مهدرة فى ظل السيطرة الدينية . .

وما كان الطلاب يومئذ يملكون الرد على التحدى . وما كانوا يملكون - فى هزيمتهم الداخلىة المبهورة بما عند الغرب ، ورهبتهم من الاحتلال العسكرى الجاثم على أرضهم ، ورهبتهم من «الخواجة» الذى يجرعهم ذلك السم - ما كانوا يملكون المعرفة التى يردون بها على التحدى ، حتى لو بقيت لهم نفوس ترغب فى الرد!

هل كان فى إمكانهم يومئذ أن يدركوا أن التخلف الذى أصابهم ، والذى يعيرهم به «الخواجة» وينفذ منه لمهاجمة عقيدتهم ودينهم وتقاليدهم ، لم يكن سببه الإسلام ، إنما كان سببه التخلف العقيدى الذى أبعد الأمة عن حقيقة الإسلام؟

وهل كان فى إمكانهم يومئذ أن ينفذوا إلى حقيقة «الحضارة الغربية» فيعرفوا جوانب قوتها وجوانب ضعفها ، ويدركوا أن الدين الذى حطمته أوروبا لتتقدم وتتحضر كان ديناً زائفاً من صنع الكنيسة ، وكان جديراً بالتحطيم بالفعل لأنه عائق عن الحياة وعن التقدم وعن عمارة الأرض ، ولكن الحياة بلا دين من جانب آخر مفسدة لا تقل عن مفسدة الدين الزائف إن لم تكن أشد ، وأنها تعرض هذه الحضارة فى النهاية إلى الانهيار؟!!

كلا! ما كان فى طوقهم يومئذ أن يدركوا شيئاً من ذلك كله ، حتى لو أوجعهم



تبكيت الخواجة لهم، وتعييره إياهم، ونسبته كل ما في حياتهم من سوء إلى الإسلام!

وإذ لم يكن في طوقهم أن يدركوا شيئاً من ذلك، فقد كان المتوقع لهم - وهو ما حدث بالفعل - أن يتأثروا بالسموم التي تقدم لهم، وينصبوا في القالب الذي وضع لهم بلا مقاومة تذكر، أو بلا مقاومة على الإطلاق!

وهل كان «الخواجات» - من مدير وأساتذة - سيسكتون على واحد من الطلاب لو وجدوا فيه شيئاً من المقاومة لأهدافهم؟ كلا ولا شك! ولكننا لم نسمع على أي حال أن واحداً من الطلاب قد قاوم، وفصل لأنه قاوم!

فإذا انتهت سنوات الدراسة الأربع في مثل هذا الجو وهذا التوجيه، فقد ضمن الخواجات أن «فراخهم» التي أنتجوها في «معمل التفريخ»، والتي ستخرج لتتولى تربية جيل جديد من النشء، ستقوم بالدور المطلوب تلقائياً بغير حاجة إلى توجيه جديد، فقد انطبعت نفوسها بما يراد طبعها به، وصارت «تتقياً» تلقائياً ما سكب في كيانها من السم، ولكن لا لتتخلص منه وتنفىء إلى صحتها كما يفعل الإنسان السوي حين يتناول السم، بل لتطعمه فراخاً جديدة صغيرة السن، لا تدرك شيئاً مما حولها، بل تلتقط كل ما يوضع أمامها بلا تمييز ولا قدرة على التمييز!

بهذا التخطيط الخبيث أحكم دنلوب قبضته الصليبية على «الأجيال» . . . فلم تكن المسألة إفساد جيل بعينه يذهب ويذهب معه فساد . إنها كان الهدف ضمان سريان السم في الأجيال المتعاقبة، لكيلا يخرج جيل يفكر في العودة إلى الإسلام!

ومن طريق معمل التفريخ الضخم الذي أقامه، ضَمِنَ الدورة الكاملة للسم . . ضَمِنَ الأستاذ والتلميذ . الأستاذ الذي سيصب التلاميذ في القالب المطلوب، والتلاميذ الذين سينشأون في داخل القالب لا يقاومون نشأتهم فيه . ولكن التخطيط مع ذلك لم يكتف بتلك الدورة المتكاملة، التي تدور دورة كاملة مع كل جيل جديد، بل كان أشد خبثاً وأشد إحكاماً فمد الخيوط إلى مدى أبعد!

فإذا كان المدرس العادي قد صُبَّ في القالب فانصبَّ، وسلط على النشء ليصبه من جديد في نفس القالب، فإن المدرس «الممتاز» . . وناهيك «بامتياز»!

يكافأ على امتيازها هذا مكافأة إضافية، ليستفاد منه على نطاق أخطر. . فيبتعث إلى انجلترا ليصاغ من جديد صياغة أدق!

صحيح أن «الخواجات» هنا قد قاموا «بالواجب» على النحو المطلوب. . ولكن فرق بين أن تظل في بلدك - وإن صاعك الخواجات - متأثرا ببعض تقاليدها، وأفكارها، وعقائدها. . وبين أن «تستنبت» من جديد في أرض الخواجات أنفسهم! فتصبح كأنك خواجه بالفعل، بدلا من أن تكون مصريا متأثرا بالخواجات فحسب! بل إنك قد تعود ملكيا أكثر من الملك، فتقوم بالدور المطلوب بأعنف مما كان الخواجات أنفسهم يفعلون!

فإذا عاد أولئك المبتعثون وقد صاروا خلقا آخر، ممسوخا كل المسخ، لا يعرف دينه ولا لغته ولا قومه، وينظر إلى ذلك كله بازدراء شامل. . فهناك يوضعون في مراكز التوجيه، ليكون أثرهم في الإفساد أشمل وأوسع، حتى إذا صار أحدهم في نهاية المطاف وزيرا للمعارف أو وكيلا للوزارة، حطم من مقدسات قومه ما لم يكن يجرؤ دنلوب نفسه أن يفعل. . فدنلوب - كما خطط لنفسه أو خطط له سيده الذي استخدمه ليقوم بدوره - يحافظ على المظاهر الزائفة «منعا من إثارة الشكوك»، أما هذا الثور الهائج فلا يتقى شيئا ولا يحفل بشيء!!

وفي وسط هذه الدورة الخبيثة يظل مدرس اللغة العربية (ومدرس الدين) يُبعد عن الطريق، ويداس بالأقدام، يسبقه غيره على الدوام، ولا يتولى وظيفة واحدة من وظائف التوجيه، فيظل صوته يخفت ويخفت حتى لا يسمعه أحد من الناس، ويظل الآخرون يبرزون ويبرزون حتى تصبح في أيديهم صدارة «المجتمع الجديد».

وتمضى دورة الزمن فتفتح الجامعة الأهلية ثم الجامعة الرسمية ثم تتلوها الجامعات ذوات العدد، فتسير نفس السيرة على نفس المخطط، وقد غاب صاحبه من الوجود كله، ولكن مخططه يظل سارى المفعول. . وأكد المفعول!

## « ب » وسائل الإعلام

إذا كان هذا نصيب مناهج التعليم في عملية الغزو الفكرى الصليبي ضد الإسلام، فهناك أداة أخرى لا تقل خطرا إن لم تكن أخطر.. تلك هي وسائل الإعلام.. الكتاب والصحيفة والمسرح والسينما ثم الإذاعة (ولم يكن التلفزيون قد اخترع بعد في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها، ولكنه منذ جاء سار على نفس التخطيط).

فأما الكتاب فقد بدأ مترجما في أول «عهد النهضة» ثم أصبح مؤلفا فيما بعد، وإن كان خط الترجمة ظل موجودا على الدوام.

ومن الأمور الطبيعية في مثل الحال التي كان المسلمون قد وصلوا إليها أن يبدأ الأمر بالترجمة، لغياب عنصر التأليف، وفراغ الجو الإسلامى كله من الفكر الحى المتدفق المتألق المواكب لخط الحياة..

ولكن ما الذى ينبغى أن يترجم!؟

كان المفروض - كما حدث في حركة الترجمة الأولى - أن يبدأ الأمر بترجمة الكتب العلمية. فقد كان الفقر العلمى شديدا، وكان التخلف في الميدان العلمى من أبرز ما أحس به المسلمون حين صحوا على الهزيمة أمام جحافل الصليبيين.

ولا شك أن بعض الكتب العلمية قد ترجمت في تلك الفترة. ولكن الجانب الأعظم من حركة الترجمة سار في قنوات أخرى بعيدة كل البعد عن المطلوب، أو عن الأمر الواجب في ذلك الحين.

فإلى جانب الكتب العلمية القليلة التي ترجمت، ترجمت مئات من القصص والمسرحيات، والكتب التي تحمل الفكر الغربى «العلماني»<sup>(١)</sup> الجاحد للدين، المناوئ له، مع عناية خاصة بنشر أفكار عن نظرية التطور الداروينية..

فأما القصص والمسرحيات فقد كان الهدف من نشرها على نطاق واسع هو تحطيم التقاليد الإسلامية التي تمنع الاختلاط وتنفر من الفاحشة والتحلل

---

(١) العلمانية كما بينا في كتاب ومذاهب فكرية معاصرة؛ ترجمة مزيفة لكلمة Secularism التي تعنى إقامة الحياة على أسس غير دينية، والأولى - كما قلنا في ذلك الكتاب - أن تسمى «اللا دينية».

الخلقى . . فقد كانت هذه التقاليد - مع كونها تقاليد خاوية من الروح<sup>(١)</sup> - عقبة ضخمة في سبيل الإفساد الخلقى الهائل الذى تهدف الصليبية إلى إحداثه في المجتمع الإسلامى . .

وإذا تذكرنا أن نابليون كان قد جاء معه ببعض «الساقطات» كما سماهن الجبرتى وهو يروى أحداث الحملة، وأن هذا كان هدفا مقصودا من أهداف الحملة - أو من مآثرها!! - لإشاعة السفور في المجتمع المصرى المسلم، ومن ثم إشاعة الفاحشة . . سهل علينا أن نفهم الهدف من القصص الغرامية والمسرحيات التى تعرض جوا مختلفا تماما عن الجو الإسلامى المحافظ، الذى لا يُجهر فيه بالفاحشة ولا يتعالن بالمنكر . . والذى تسعى الصليبية إلى تحطيمه بوصفه ركنا من الحياة الإسلامىة التى يراد هدمها أولا عن آخر.

فالذى تعرضه تلك القصص والمسرحيات لا يزيد على أن يكون علاقات غير مشروعة بين رجل وامرأة أو بين شاب وفتاة، تعطى في القصة أو المسرحية شرعية وواقعية ليست لها في الميزان الإسلامى . ويتم هذا في جو «الفن» الذى يسبغ على كل شىء جمالا وجاذبية مهما يكن فيه من الشر. تلك مزىة الفن، وتلك خطورته في ذات الوقت.

فهو يحمل القدرة على التأثير، ويعرض ما يعرض في جو من المشاعر والوجدانات تجعل القارئ أو السامع يشارك بخياله مع المشهد المعروض، وينفعل بما ينفعل به الأشخاص المعروضون في المشهد. ومن هنا يحمل الفنان مسئوليته . . فحين يكون خيرا . . حين يكون ملتزما بالقيم الإنسانية العليا . . فإنه يتجه إلى تزيين الخير والتنفير من الشر. وليس من الضرورى أن يكون ذلك عن طريق التوجيه المباشر. بل كلما لجأ الفنان إلى الطريق غير المباشر . . أى عرض ما يريد عرضه من خلال مواقف ومشاهد ومشاعر ووجدانات دون أن يتدخل بشخصه تدخلا مباشرا، كان ذلك أبلغ في التأثير في نفس القارئ أو السامع، وأفعل في جذبه إلى صف المعنى المطلوب.<sup>(٢)</sup> وأما حين لا يكون ملتزما بالقيم العليا، أو حين يكون أسوأ من ذلك

(١) راجع «خط الانحراف» .

(٢) تناولت هذه القضية في كتاب «منهج الفن الإسلامى» ولا مجال هنا للتفصيل .

معاديا لها، راغباً في تحطيمها، فإنه يحمل القدرة الفنية التي تمكنه كذلك من جذب القارئ أو السامع إلى صف التوجيه الذي يريده . .

وقد كان الفن الذي يترجم هو الفن الذي تخلص تماماً من القيم الدينية، وراح يدعو إلى إقامة مجتمع «طليق» من تلك القيم . . مجتمع يهبط تدريجياً حتى يصبح مجتمعاً حيوانياً في النهاية . . . (١)

وسواء كان الذين ينقلون هذه القصص والمسرحيات إلى العربية واعين تماماً للدور الذي يلعبونه أو غير واعين، فقد كان هناك تشجيع خفي لنشر هذا «الفن» وترويجه بين الشباب خاصة . (٢)

والهدف واضح . .

فحين يقرأ الشاب قصة غرامية - أو عاطفية كما كانوا يسمونها - يلتقى فيها الفتى والفتاة بعيداً عن أعين الناس، ويجرى بينهما من الكلام والمواقف ما يجرى، مصوراً بجاذبية الفن وإغرائه، فسيتمنى في دخيلة نفسه أن لو كان هو صاحب الموقف، أو أن يقع له مثل ما يقرأ في القصة أو المسرحية . . ويعلم الشاب جيداً أن مجتمعه المحافظ لا يسمح بمثل هذه المواقف التي يقرأ عنها . . ولكنه عندئذ يتمنى أن يجيء يوم تتحطم فيه تقاليد مجتمعه، التي تحول بينه وبين «الاستمتاع» على النحو الذي يتم في المجتمعات الأخرى، التي «تحررت» من مثل تلك التقاليد .

فإذا جاء اليوم الذي تُحطَّم فيه هذه التقاليد بالفعل - وقد جاء! (٣) - فلن يكون مثل هذا الفتى من المعارضين! بل سيكون أول المرحبين!

\* \* \*

أما الكتب التي تحمل الفكر «العلماني» فالهدف من ترجمتها واضح كذلك . يقول «أ. شاتيليه» في مقدمة كتاب «الغارة على العالم الإسلامي»: «ولا شك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية، تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية في قلوب منتحليها، ولا يتم لها ذلك إلا بيث الأفكار

---

(١) لم تكن النهاية واضحة في القرن الماضي كما هي واضحة اليوم، ولكن ذوى الحس السليم كانوا يرونها ولا شك .

(٢) كان بين المترجمين والناشرين نصارى لبنانيون . وصلتهم بمخطوط الصليبية واضحة .

(٣) سنتكلم فيما يلي عن عملية تحطيم التقاليد عن طريق «تحرير المرأة» .

التي تتسرب مع اللغات الأوروبية . فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحثك الإسلام بصحف أوروبا، وتمهد السبيل لتقدم (!) إسلامي مادي . وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيائها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها»<sup>(١)</sup> .

وهذا يوضح لنا الهدف من ترجمة هذه الأفكار ونشرها باللغة العربية . ذلك أنه مهما انتشر تعلم اللغات الأجنبية فستظل الجماهرة الكبرى من الشعب عاجزة عن قراءة هذه الأفكار في لغاتها الأصلية . ومن ثم يبقى الحاجز الذي يشكو منه ذلك المبشر قائما يحمي العالم الإسلامي من عوامل التدمير الخارجية . . فإذا انساح الحاجز عن طريق الترجمة، قضت الصليبية لبانتها - على حد تعبير المبشر - وأمكن إحداث الدمار المطلوب!

وأما العناية الخاصة بالداروينية ونظرية التطور فقد يكفينا فيها قول البروتوكولات: «لقد ربنا نجاح دارون وماركس ونيتشه وإن تأثير أفكارهم على عقائد الأعميين واضح لنا بكل تأكيد!»<sup>(٢)</sup> . وقد استطاعت اليهودية العالمية عن طريق ترويج أفكار داروين وتوسيع نطاقها أن تحطم ما كان قد بقي من عقائد «الأعميين» الأوروبيين، وتنشئ هناك مجتمعا «جديدا» بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد.<sup>(٣)</sup> وكان في تخطيط الصليبية استخدام تلك القذائف المدمرة لذات الهدف في المجتمع الإسلامي، لإنشاء مجتمع «جديد» بدلا منه، لا دين له ولا أخلاق ولا تقاليد! لذلك كانت العناية بنشر تلك النظرية بالحاح في العالم الإسلامي . . لعلها تصنع هنا ما صنعتها هناك!<sup>(٤)</sup> .

\* \* \*

أما الصحافة فشأنها أخطر . .

فلئن كان الكتاب بصفة عامة هو زاد «المثقفين»، فالصحافة زاد شامل، يشمل

(١) راجع هذه المقدمة في كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» ترجمة محب الدين الخطيب .

(٢) راجع البروتوكول رقم (٢) من بروتوكولات حكباء صهيون .

(٣) راجع إن شئت فصل «دور اليهود في إفساد أوروبا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .

(٤) قام بالترويج لهذه الأفكار في مصر اثنان من الصليبيين: شبل شميل وسلامة موسى، وواحد ممن يحملون

أسماء المسلمين هو إسماعيل مظهر . . إلى جانب الأسماء الأخرى غير اللاحقة .

المثقفين وأنصاف المثقفين، كما يشمل العامة حتى الذين لا يقرأون منهم، إذ هناك من يتحلقون حوله ليقرأ لهم الصحيفة حتى في أعماق الريف! وفي مصر بالذات قامت الصحافة بدور خطير لعله أخطر الأدوار، إذ كانت مصر في نظر المخططين كما أسلفنا هي مركز التوجيه الروحي والثقافي بسبب موقعها الجغرافي ومكانتها التاريخية، وبسبب وجود الأزهر فيها. فإذا أمكن إفسادها من الناحية الإسلامية كان ذلك عونا كبيرا للذين يخططون لإفساد العالم الإسلامي كله، لأن الفساد سيصدر يومئذ وعليه خاتم القاهرة، فيكون أفعال في الإفساد مما لو جاء وعليه خاتم لندن أو باريس!

لذلك لا نعجب كثيرا من وجود ثلاث دور صحفية كبيرة، لبنانية مسيحية مارونية في القاهرة! وإن كان السؤال يظل باقيا: لماذا اختار أولئك المسيحيون المارونيون اللبنانيون القاهرة لتكون موضع نشاطهم؟ أبتوجيه وتخطيط من الصليبية العالمية أم بدافع من صليبيتهم الذاتية؟! وبطبيعة الحال لا يوجد فرق في النهاية بين هذا الوضع وذاك، فالقتوات الصليبية تلتقى كلها في النهاية في مجرى واحد. ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أن هناك اتفاقا صليبيا عالميا<sup>(١)</sup> على جعل القاهرة مكان الأفكار الناشئة عن الإسلام، والحركات المناوئة للإسلام وللدولة العثمانية، كتشجيع نازلي فاضل على بث أفكارها «التحررية» في صالونها بالقاهرة، بحضور اللورد كرومر،<sup>(٢)</sup> وكصدور بعض النشرات السرية للقومية العربية المطاردة من قبل الدولة العثمانية من القاهرة،<sup>(٣)</sup> وكإقامة جمال الدين الأفغاني في مصر فترة من الوقت.<sup>(٤)</sup>

فإذا لاحظنا هذه الدلائل كلها كان الأقرب إلى الحساب أن يكون وجود هذه

(١) أو قل صليبيا يهوديا كما سيظهر فيما بعد.

(٢) سيأتي الحديث عن صالون نازلي فاضل ودوره في «إغواء» محمد عبده وسعد زغلول وتأثيره في أفكار مصر السياسية والاجتماعية.

(٣) كانت معظم هذه النشرات تصدر من القاهرة وباريس، كما كان أعضاء الجمعيات السرية الداعية إلى القومية العربية من نصارى لبنان وسورية يعيشون حياتهم ما بين القاهرة وباريس، أى في حماية بريطانيا وفرنسا، اللتين تعملان جاهدتين لقتل «الرجل المريض» والاستيلاء على تركته!

(٤) كان جمال الدين - كما سيأتى - يدعو إلى نزع الخلافة من الأتراك وأن يتولاها العرب، بينما كان يعلم بذلك أنه الفذ أن العرب أضعف من أن يتولوا شيئا في ذلك الوقت! كما كان يدعو للماسونية وتآخي الأديان!

الدور الصحفية الثلاث: دار الأهرام لآل تقلا، ودار الهلال لآل زيدان، ودار المقطم لآل صروف، نتيجة توجيه صليبي عالمي، لا مجرد انبعاث صليبي ذاتي، ولا توافق خواطر بين أصحاب هذه الدور الثلاث.

وأيا يكن المنبع فالمصعب واحد، والتخطيط واحد، والأهداف واحدة. .  
الهدف هو تحويل هذه الأمة عن الإسلام، والمنهج هو منهج الدولة الصليبية الحاكمة: «بطيء ولكنه أكيد المفعول». . «منعاً من إثارة الشكوك».

وهل كان يتصور في ذلك الزمان أن تكون الخطى أسرع مما كانت؟!  
كلا! فتجربة نابليون الحمقاء كانت ما تزال ماثلة للعيان، والفشل الذي منيت به نتيجة حماقتها وسرعة خطوها وعنف حركتها كان ما يزال ماثلاً في الأذهان. .  
وكانت بقايا الإسلام في نفوس المسلمين المصريين كقيلة بإفساد الخطة كلها لو انكشفت. . وسرعة الخطو من العوامل التي يمكن أن تكشف الخطة وتفسد المفعول. . لذلك كان كرومر ودنلوب حريصين على العمل البطيء الذي لا يثير الشكوك.

نعم. . لم يكن يتصور أن تبدأ الصحافة اللبنانية المسيحية المارونية عملها بمهاجمة الإسلام. . فقد كانت غضبة الجماهير كقيلة بتحطيم تلك الدور على رءوس أصحابها من أول الطريق!

ولكن على مهل. . . ممكن!  
بل لقد يجذع الغافل إذا اطلع على بعض أعداد هذه الصحف فيحسبها لأول وهلة صحافة إسلامية!!

فهي تمتدح الإسلام، وتمتدح رسوله العظيم صلى الله عليه وسلم، وتخصص مكاناً يومياً لأخبار «الباب العالي» ومقابلات السلطان وتنقلاته، ولا تقصر في توفية أخبار ما يدور بين السلطان والدول الأوروبية من مفاوضات أو مناقشات أو منازعات. . فأى شيء يريد المسلم من صحيفته أكثر من ذلك؟!!

نعم، ولكن الذي يدق في الأمر يجد من خلال ذلك، وإلى جانب ذلك، أشياء أخرى تنم عن مقاصد مختلفة.

فالإسلام يمتدح بما يرضى «عواطف» المسلمين، نعم، ولكن لا يتحدث عنه كنظام حياة وشريعة حكم! وحينها تناقش المشاكل القائمة في مصر أو في العالم



الإسلامي فلا يقدم لها الحل من شريعة الإسلام ولا حتى من روحه . . إنها تقدم الحلول - كما سنرى - من التجربة الأوروبية ومن «الحضارة الأوروبية»! بل أكثر من ذلك . .

إن هذا الإسلام الذي يُتحدّث عنه بما يرضى عواطف الجماهير، دون أن يقدّم للناس على أنه نظام حياة أو شريعة تحتوى على حلول مشاكلهم . . هذا الإسلام ليس حديثاً يومياً يطالع القارئ لهذه الصحف فيظل على ذكر دائم من دينه، ولو حتى على مستوى العواطف والوجدانات . . إنها هو حديث «مناسبات» معينة، يطلق عليها «المناسبات الدينية»! فلا ينحسر الدين عن مفهومه الحيوى الشامل فحسب، بل ينحسر مرة أخرى إلى مناسبات عارضة في حياة المسلم، يتمتع فيها وجدانه بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح الإسلام، ثم يبقى وجدانه خاوياً حتى من ذكر الإسلام بقية الشهور وبقية الأيام!

وكما ملئ الفراغ الناجم من تفرغ التاريخ الإسلامى من محتواه في المنهج الدنلوبى بذكر أوربا وقوتها، ونهضتها، وحضارتها، وأصالتها، وعظمتها . . فكذلك تملأ الصحف الفراغ الناجم من تفرغ الإسلام من محتواه الحقيقى، والفراغ الناجم من عدم ذكر الإسلام إلاّ في «المناسبات الدينية» فحسب . . تملأ الصحف هذا الفراغ وذاك بذكر أوربا!

فهنالك ذكر يومى دائم لأوربا في باب الأخبار، وحديث دائم عن أوربا في كل مناسبة من المناسبات!

فأما الأخبار فقد يبدو ذكر أوربا فيها أمراً طبيعياً وبديها . . ليس فقط لأن مهمة الصحف أن تطلع قارئها على أخبار العالم الذى يعيش فيه، وليس فقط لأن أوربا في تلك الفترة كانت مركز نشاط دائب لا يفتر في جميع الاتجاهات، بل لأن الحقيقة الواقعة - رضينا أم أبينا - أن أوربا كانت تمسك بيدها يومئذ أزمّة الأمور، وتقرر للعالم ما يقوله وما يفعله، بحكم غلبتها العسكرية والسياسية والعلمية والحضارية . .

ومع ذلك فإن الصحيفة الإسلامية في الوطن المسلم يكون لها طريقة في تقديم الأخبار تشعر قارئها أنه مسلم - ولو كان مغلوباً على أمره - وتشعره أن له نظرة إلى الأمور متميزة عن نظرة غيره إلى الأمور ذاتها. فهو قد يغضب لأمر قد يرضى بها

غيره . وقد يفرح بأمور يأسف لها غيره . وقد يأسى لأمور يرضى بها غيره . . وقد يشارك غيره ولكن من موقفه الخاص المتميز . (١) .

ومع ذلك فإذا أغضينا عن الأخبار وطريقة تقديمها، فلا نستطيع أن نغضى عن الذكر الدائم لأوروبا في تلك الصحافة، فإنه - فيها - بيت القصيد!  
إن أوروبا لا تذكر في هذه الصحافة بحجمها الحقيقي - وهو يومئذ في ذاته كبير - ولكن يزداد عليها ويضاف إليها حتى يلقي في روع القارئ أن أوروبا هي العالم، وألا وجود لشيء غير أوروبا في هذا الوجود .

وحقيقة أن أوروبا كانت يومئذ غالبية ومسيطرة . . ولكنها كانت مسيطرة على عوج عظيم في منهج حياتها كله .

فهل كانت تلك الصحافة تكتب عن بشاعة الاستعمار وبشاعة الجرائم التي يرتكبها ضد البلاد المحتلة ومعظمها بلاد إسلامية؟

وهل كانت تكتب عن الدوافع الصليبية للاستعمار في البلاد الإسلامية، من وراء «المصالح الاقتصادية» و«المصالح السياسية» وما شابهها من المصالح؟!  
وهل كانت تكتب عن الغزو الفكرى وأهدافه الخفية التي يراد منها صرف الأمة عن دينها؟! (٢)

وهل كانت تكتب عن الفساد الخلقى في أوروبا، وما يجره على الناس من آثار سيئة في حياتهم؟!

وهل كانت تكتب عن الربا، وكيف يحدث الظلم الاقتصادى والاجتماعى من إدارة المال بطريق الربا؟! (٣)

وهل كانت تكتب عن المؤامرة الأوربية - الصليبية اليهودية - للقضاء على الخلافة العثمانية؟!

---

(١) يحتاج هذا الموضوع إلى تفصيل وافٍ عن «الإعلام الإسلامى» لعل الله يوفق كاتبنا متخصصا ليكتب فيه من منطلق إسلامى واضح، ليبين للناس أن الإعلام الإسلامى ليس «وعظاء» وإنما هو تناول لجميع شئون الحياة من زاوية النظر الإسلامية ومن الموقف الإسلامى .

(٢) لم يكن ذلك ممكنا بطبيعة الحال وهذه الصحافة ذاتها جزء من الغزو الفكرى .

(٣) كانت تكتب عن الربا لتطلب إباحته على أنه «ضرورة اقتصادية»!

إن الصحيفة الإسلامية في الوطن المسلم لم تكن لتغفل الحقيقة الواقعة أو تتجاهلها. لم تكن لتغفل أن أوروبا هي المتحكمة في شئون العالم، وأنها هي القوة المتمكنة في كل اتجاه. . . سواء في المجال السياسي أو الاقتصادي أو الحربي أو العلمي أو التكنولوجي. ولكنها - حين تكون إسلامية - لا بد أولاً أن تقف موقف الناقد من انحرافات أوروبا حيث توجد انحرافات. . . وهي موجودة بوفرة في الحياة الأوربية. (١) ولا بد ثانياً أن تنهض هم المسلمين ليتداركوا تخلفهم، ليستردوا ما فقدوه من التمكن في الأرض، مرشدة لهم إلى الطريق السوي لتدارك التخلف، وهو أن يأخذوا من أوروبا ما هم في حاجة إليه من تقدم علمي ومادي، مع المحافظة على دينهم وأخلاقهم وتقاليدهم، وعدم الذوبان في أوروبا، وعدم تقليدها فيما يخالف عقيدة الإسلام وشريعته وروحه.

وهذا هو مفرق الطريق بين الصحافة الإسلامية والصحافة غير الإسلامية. وقد يقول قائل: وأين كان المسلمون؟! ولماذا لم يصدرُوا صحافتهم التي تعبر عن موقفهم وتخدم وجودهم ومصالحهم؟! ونقول إن المسلمين كانوا غائبين عن وعيهم ولا شك، في غمرة الانبهار التي

نشأت عن التخلف العقيدى الذى كانوا واقعين فيه، والذى أدى في حياتهم إلى كل ألوان التخلف الأخرى: العلمي والمادي والحضاري والفكري والحربي والاقتصادي والسياسي. . . ولكننا نريد أن نبرز فقط حقيقة تلك الصحافة التي أقامها المسيحيون اللبنانيون المارونيون في مصر، وحقيقة الدور الذي قامت به. . . فضلاً عن علامة الاستفهام التي تحيط بهم: لماذا جاءوا إلى مصر بالذات ليعملوا فيها وينشئوا بها دورهم الصحفية دون أى بلد آخر؟ فهناك موقفها الخاص من كل هذه القضايا التي أشرنا إليها. فإنه إذا استحال عليها أن تقف الموقف الإسلامى - وهي مسيحية - فهي لم تقف كذلك الموقف «المحايد» الذى يعرض الحسنات والسيئات، إنما وقفت موقف المدافع المستميت عما يسمى «الحضارة الأوربية» بكل سقطاتها وانحرافاتهما، كما وقفت موقف المحرض للمسلمين في مصر أن يقتفوا أثر

(١) انظر إن شئت «جامعية القرن العشرين».

أوروبا في كل شيء ، وأن يحلوا مشاكلهم على النسق الأوربي ، وأن ينظروا إلى الأمور كلها لا بعينهم هم ، ولكن بعين أوروبا . .  
وإليك مثلا واحدا يبرز المعنى الذي نقصد إليه . .  
لقد أدت الثورة الصناعية في أوروبا إلى تحطيم الأسرة وإفساد الأخلاق وانتشار البغاء . . . (١)

وبصرف النظر عن كل شيء ، (٢) فتلك مشكلة أوربية بحته ، نشأت من ظروف محلية هناك . .

ما شأن المسلمين بها ؟!

لماذا يُشغَلون بها ؟!

وإن انشغلوا بها فمن أى زاوية ينظرون إليها؟ أمن زاوية أنه فساد أخلاقي أصاب أوروبا حين تنكرت للدين والأخلاق والتقاليد ، أم من زاوية أنه «ضرورة»؟!  
ضرورة اجتماعية في الحياة الحضارية الصناعية؟!  
هذا مفرق الطريق . . . !

لقد ظلت الصحافة «المصرية» . . اللبنانية المسيحية المارونية . . تتحدث عن البغاء ، وعن كونه «ضرورة اجتماعية» في العالم «المتحضر»! عشرات السنين قبل أن تكون في العالم الإسلامي كله مشكلة تدعو إلى وجوده ولا إلى الحديث عنه!  
لماذا ؟!

المجرد «تسليّة» القارئ المصري ؟!

وهل هذه القدرة النفسية والأخلاقية والاجتماعية تصلح مادة للتسليّة ؟!  
كلا! لم يكن القصد هو التسليّة! إنما كان القصد تهيئة الأذهان لليوم الذي يراد فيه نشر البغاء في المجتمع الإسلامي المصري ، وجعله جزءا من كيان المجتمع ، تحرسه «الدولة» بقوانينها وتسهر عليه!!  
كان المراد هو تذيب «الحس» الإسلامي الذي ينفر من الفاحشة ومن التعالين

---

(١) تحدثت في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» عن الثورة الصناعية وما أدت إليه من فساد ، وأن هذا لم يكن من طبيعة التقدم الصناعي في ذاته ، ولم يكن ضربة لازب ، إنما تم بتخطيط يهودي خبيث .  
(٢) أى بصرف النظر عن دور اليهود في هذا الشأن ، وعن الآثار النفسية والاجتماعية التي ترتبت على هذا الفساد الخلقى . .

بها، بعد أن نحيث «الشريعة» التي تمنع البغاء وتعاقب عليه، حتى إذا جاء اليوم المنشود - وقد جاء - لم تكن النفوس نافرة ولا القلوب منكرة، إنما كان هناك تقبل مسبق «للضرورة الاجتماعية» التي تنشأ من «الحضارة!» وكان المعارضون لممارسة هذه «الضرورة» هم «المتزمتين» و«الجامدين» و«المتحجرين» الذين لا يريدون أن يسايروا «ركب الحضارة» ولا روح «التطور» السارية في العالم كله!

وذلك مجرد نموذج يمكن أن تقاس عليه كل «القضايا التقدمية» الأخرى، كالاختلاط، والعلاقات الحرة، و«قضية المرأة» ودور الدين في الحياة «العصرية» و«العلمانية» . . الخ . . الخ . . وكيف كانت الصحافة «المصرية» تناوئها . . وكيف كانت بكل خطتها جزءاً من الغزو الفكري الصليبي المقصود . .

لقد أدت هذه الصحافة دوراً خطيراً في حياة المسلمين في مصر . . على خطين رئيسيين: تقليص دور الإسلام، ولسى الأعتاق لياً إلى أوروبا بحيث تصبح تدريجياً هي الوجهة التي يتجه المسلمون إليها بدلا من الإسلام، والتي يتوسمون فيها طريق الخلاص من حاضرهم السيء الذي يعيشونه، ويتطلعون من خلالها إلى مستقبل سعيد باسم يلحقهم بركب الحضارة، ويدفع عنهم وصمة التأخر والانحطاط .

يذكرنا هذا بما قلناه عن رفاة رافع الطهطاوى . . ولقد رُفِضَتْ دعاوى رفاة الطهطاوى يومئذ لأنه فاجأ بها قوما غير مستعدين لتقبلها . . ولكنها هي بحد ذاتها وأكثر منها ستصبح منذ اليوم مقبولة، لأن الصحافة - على الخط البطيء الأكيد المفعول - قد مهدت لها الأذهان والقلوب؛ فإذا جاءت الآن - وقد جاءت بالفعل - وجدت الناس أكثر استعدادا لتقبلها، بل وجدت بعضهم متلهفين إليها، يستبطنون قدومها ويستعجلون خطاها!

ولقد يقول قائل: أولم تكن الأمور صائرة إلى هذا المصير بحكم جميع الظروف المحيطة بالمسلمين؟! فليس دور تلك الصحافة إذن إلا مواكبة ما كان حادثا بالفعل من «تطور» في أفكار الناس ومشاعرهم، مما كان لا بد أن يحدث في جميع الأحوال؟ ونتوقف في الإجابة عند نقطتين . .

أما أن الأمور كانت صائرة من تلقاء نفسها إلى هذا المصير، فأمر قد نرجحه بحكم الظروف التي كانت تحيط بالمسلمين يومئذ ولكننا لا نقطع به . . فالذي

حدث في الجزيرة العربية من انطلاق محمد بن عبد الوهاب بحركته القوية لتصحيح العقيدة وإزالة ما شابها من الغبش، يدلنا على أن الطريق الذي سارت فيه الأمور في مصر لم يكن حتميا، إنما كان يمكن أن يحدث في مصر ما حدث في الجزيرة العربية من محاولة لتصحيح أحوال الأمة بإزالة «التخلف العقيدى» الذى نشأت عنه كل ألوان التخلف الأخرى من علمية ومادية وحضارية وعسكرية. . الخ . ولكن الجو الذى أحدثته تلك الصحافة (مع وسائل الإعلام الأخرى بلا شك) قد جعل قيام مثل هذه الحركة في مصر في ذلك الوقت احتمالا ضئيلا جدا، وجعل الاحتمال الأقوى هو السير في الطريق الذى سارت فيه بالفعل .

وأما النقطة الأخرى فهمي أن هذه الصحافة لم تكن مواكبة، ولكنها كانت رائدة! لم تكن تتحدث عن أشياء قائمة بالفعل في نفوس الناس، بل عن أشياء يراد أن تقوم في نفوسهم! والمثال الذى ضربناه بقضية البغاء واضح . فقد كانت هذه الصحافة تدأب على إدخال الأفكار الغربية اللادينية إلى المجتمع الإسلامى ولولم يكن متقبلا لها، أو مشغولا بها من قبل .

ولو فرضنا جدلا أن وضع الغالب والمغلوب هو الذى سيحسم القضية، سواء أقامت تلك الصحافة بدورها أم لو تقم (١) فمما لا شك فيه أن دور الصحافة كان هو الإسراع في تعبيد المغلوب للغالب الصليبي، ومدّه في الغي، وإبعاد صحوته إلى ما ينبغى أن يكون عليه، ومنعه من الرجوع إلى الإسلام لو أراد أن يرجع إليه . .

\* \* \*

وتدرجيا . . على مهل شديد . . بدأت تلك الصحافة تهاجم الإسلام!  
هل كان يتصور أن تهاجم الإسلام يومئذ باسمه الصريح؟  
كلا! فالبقية الباقية من الدين في قلب هذه الأمة في ذلك الحين كانت تمنع

---

(١) بينا من قبل أن ما يشبه السنّة من ذوبان المغلوب في الغالب عن طريق التقليد لا ينطبق على أمة العقيدة . فإذا قلنا إن العقيدة كانت قد ضعفت في قلوب هذه الأمة، ومن هنا كان الذوبان سيحدث بصورة حتمية، نقول إن الضعف غير الفناء . إنما الذى سعت إليه تلك الصحافة الصليبية وكادت تنجح فيه هو الإفناء . . وهذا هو دورها الحقيقى!

حدوث ذلك . ولو حدث لثارت الجماهير على هذه الصحف وهدمتها على رءوس أصحابها . .

إنما تهاجم التقاليد!

التقاليد البالية!

وإذا سألنا أنفسنا ما تلك التقاليد البالية التي تهاجم ، لوجدنا أن معظمها كان هو الإسلام!

حقيقة كان من بين تلك التقاليد التي تهاجم تقاليد جاهلية ارتدت إليها الأمة الإسلامية في فترة التخلف العقيدى ، كالتقاليد التي منعت تعليم المرأة ، والتي قضت بإساءة معاملتها وتحقيرها ، على أساس أن مهمتها أن تحمل وتلد ولكن ليس لها كيان إنسانى يوجب الاحترام . وهى ردة جاهلية فى هذا المجال كانت الأمة قد هبطت إليها نتيجة البعد عن المنهج الربانى القويم ، الذى ساوى - فى الإنسانية - بين كيان المرأة وكيان الرجل ، وإن فرق بينهما فى بعض التكاليف وبعض الحقوق وبعض الواجبات . حيث قال سبحانه : «فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض»<sup>(١)</sup> .

وقال : «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»<sup>(٢)</sup> .  
وقال : «وعاشروهن بالمعروف»<sup>(٣)</sup> .

وقال صلى الله عليه وسلم : «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى»<sup>(٤)</sup> .  
ولقد كانت تلك التقاليد غير الإسلامية هى المدخل الخبيث الذى دخلته الصحافة لمهاجمة «التقاليد البالية» بحجة أنها ليست من الإسلام ، إنما هى من صنع المتزمتين من الرجال الذين أضفوا عليها قدسية الدين ليحموا من ورائها أنانيتهم وتزمتهم . . وقد كان هذا حقا يراد به باطل . فلم يكن القصد من مهاجمتها هوردها إلى أصلها الإسلامى الصحيح ، إنما كان القصد هو النفاذ من هذا المدخل

(١) سورة آل عمران [١٩٥] .

(٢) سورة النحل [٩٧] .

(٣) سورة النساء [١٩] .

(٤) أخرجه الترمذى وإسناده صحيح .

الخبث لمهاجمة التقاليد الإسلامية الصحيحة الأصيلة، بحجة أنها كلها «تقاليد بالية» ليست من الإسلام!

فاحتقار المرأة، وتعييرها بأنها تحمل وتلد وليست مساوية في الكيان الإنساني للرجل، وعدم تعليمها، وتركها في جهالة ومهانة.. كل هذا ليس من الإسلام. ولكن منع الاختلاط بغير موجب، ومنع التبرج والفتنة، ومنع إقامة علاقة «حرة» بين الرجل والمرأة إلا العلاقات الشرعية التي أذن الله بها وحددها. هذا كله من صميم الإسلام، قرره الله ورسوله، ولم يقرره المتزمتون من «رجال الدين»<sup>(١)</sup> ولا قرره الرجل وأضفى عليه قداسة الدين ليحمي أنانيته وتزمته.

ولكن الذين كانوا يهاجمون «التقاليد البالية» في الصحافة «المصرية».. اللبنانية المسيحية.. لم يقفوا عند التقاليد غير الإسلامية، ولم يسعوا إلى تصحيحها بردها إلى أصلها الإسلامي الصحيح.. ذلك أن هدفهم لم يكن تصحيح عقيدة هذه الأمة وتصحيح مسلكها بإرجاعه إلى صورته الإسلامية، إنما كان هدفهم الحقيقي هو محو الإسلام محوا وإزالته من الوجود..

وهذا هو مفرق الطريق!

لقد كان من شأن الداعية المسلم والمصلح المسلم أن يهاجم تلك التقاليد الجاهلية التي ارتدت إليها الأمة في فترة التخلف العقيدى، ويندد بها، ويدعو إلى إبطالها وإزالتها.. ولكن لحساب الإسلام.. لحساب المنهج الربانى الصحيح. وكان من شأن الداعية المسلم والمصلح المسلم في ذات الوقت أن يرسخ التقاليد الإسلامية الصحيحة، فيدعو إلى المحافظة على الحجاب الإسلامى، ومنع التبرج، ومنع الاختلاط، ومنع التفسخ الخلقى.

ولكن الذى صنعته تلك الصحافة وكتابها كان هو المهاجمة الشاملة لكل التقاليد، صحيحها وفاسدها، التقاليد التى تمنع تعليم المرأة، والتقاليد التى تمنعها من «مشاركة الرجل في كل أمور المجتمع»!

ولقد كانت «قضية المرأة» من أكبر الموضوعات التى خاضتها تلك الصحافة

---

(١) ليس في الإسلام «رجال دين»، كما قلنا في أكثر من موضع وفي أكثر من كتاب. ولكن هكذا يعبر أعداء الإسلام.



وكتابها، ومن أبعدها أثراً في تحويل المجتمع إلى الوجهة التي يريدها المخططون الصليبيون .

ومن كان في شك من التخطيط الصليبي وراء إثارة «قضية المرأة» فليقرأ قرارات المؤتمر التبشيري الذي عقد في لكنوس سنة ١٩١٣ ، والذي كان - كغيره من مؤتمرات المبشرين - يخطط علانية لهدم الإسلام ومحاوله محوه من الوجود، حيث جاء في قرارات ذلك المؤتمر:

«سابعاً: الارتقاء الاجتماعي والنفسي بين النساء المسلمات»<sup>(١)</sup>

وذلك عن طريق «تعليمها» و «تحريرها» .

والهدف من تعليمها واضح!

فكما كانت تجربة اليهود الأولى في أوروبا<sup>(٢)</sup> كذلك كانت تجربة الصليبيين في مصر (وغيرها من بلاد العالم الإسلامي): أنه مهما حاولوا إفساد المجتمع عن طريق إفساد الرجل وحده فإنه في النهاية لا يفسد! أو لا يفسد بالدرجة التي يرغبونها، ولا بالسرعة التي يرغبونها! ذلك أنه طالما كانت هناك أم متدينة - ولو كانت جاهلة بالقراءة والكتابة والعلوم - فإنها تبذر في أبنائها بذور العقيدة وهم بعد أطفال . . فمهما فسدوا في شبابهم فإنهم يعودون إلى ما لقتتهم إياه أهمهم في طفولتهم، فلا يحدث الفساد المطلوب . . وأنه لا بد من إفساد الأم لضمان إفساد المجتمع . . ولا بد من إفسادها وهي فتاة قبل أن تصبح أمّاً، حتى إذا أصبحت أمّاً في يوم من الأيام لم تكن لديها العقيدة التي تبذرها في قلوب أبنائها، ولا الأخلاق الدينية التي تطبع بها سلوكهم وهم في سن التكوين .

فكيف يفسدون الأم المسلمة والفتاة المسلمة؟

إذا كانت قابعة في بيتها فمن أين يصلون إليها؟ وإذا كانت جاهلة فمن أين

يوصلون إليها الأفكار التي يلوثون بها عقلها ويفسدون بها عقيدتها وأخلاقها؟

لابد إذن من «تحريرها» و «تعليمها» لكي يصل إليها كيد الشياطين . .

ولقد كان تعليمها واجباً إسلامياً، بل فريضة إسلامية نكلت عنها الأمة

المسلمة . . ولكن أي نوع من التعليم؟!!

(١) الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة محب الدين الخطيب، ص ١٤٧ . وهذا المؤتمر مجرد واحد من مئات

المؤتمرات التي تعقد لهذا الشأن وتقرر مثل هذه القرارات .

(٢) راجع إن شئت فصل «دور اليهود في إفساد أوروبا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .

أما «تحريرها»، على الطريقة التي تم بها ذلك التحرير . بمعنى إخراجها من دينها وأخلاقها وتقاليدها . فقد كان هذا هو بيت القصيد!

### « ج » قضية تحرير المرأة

«بطل» هذا القصة هو قاسم أمين . .  
شاب نشأ في أسرة تركية مصرية . . أي محافظة . . فيه ذكاء غير عادى . حصل على ليسانس الحقوق الفرنسية من القاهرة وهو في سن العشرين . بينما كان هناك في عصره من يحصل على الشهادة الابتدائية في سن الخامسة والعشرين!  
ومن هناك التقطه الذين يبحثون عن الكفاءات النادرة والعبقريات الفذة ليفسدوها، ويفسدوا الأمة من ورائها! التقطوه وابتعثوه إلى فرنسا . . لأمر يراد .  
اطلع قبل ذهابه إلى فرنسا على رسالة لمستشرق يتهم الإسلام باحتقار المرأة وعدم الاعتراف بكيانها الإنساني . وغلى الدم في عروقه - كما يصف في مذكراته -  
وقرر أن يرد على هذا المستشرق ويفند افتراءاته على الإسلام .  
ولكنه عاد بوجه غير الذى ذهب به!  
لقد أثرت رحلته إلى فرنسا في هذه السن الباكرة تأثيرا بالغا في كيانه كله، فعاد إلى مصر بفكر جديد وعقل جديد ووجهة جديدة . .  
عاد يدعو إلى «تعليم المرأة وتحريرها» على ذات المنهج الذى وضعه المبشرون وهم يخططون لهدم الإسلام!  
يقول في مذكراته إنه التقى هناك بفتاة فرنسية أصبحت «صديقة» حميمة له . .  
وإنه نشأ بينه وبينها علاقة عاطفية عميقة، ولكنها «بريئة» . . وإنما كانت تصحبه إلى بيوت الأسر الفرنسية والنوادي والصالونات الفرنسية، فتفتح في وجهه البيوت والنوادي والصالونات ويكون فيها موضع الترحيب . . (١)  
وسواء كان هو الذى «التقى بها» أم كانت موضوعة في طريقه عمدا ليلتقى بها،

(١) راجع «مذكرات قاسم أمين» .

فقد لعبت هذه الفتاة بعقله كما لعبت بقلبه، وغيرت مجرى حياته، وجعلته صالحا  
للعب الدور المطلوب، الذى قررت مؤتمرات التبشير أنه لا بد منه لهدم الإسلام!  
ونحن نميل إلى تصديقه فى قوله إن العلاقة بينه وبينها كانت «بريئة» . . لا  
بالمعنى الإسلامى للبراءة بطبيعة الحال، ولكن بمعنى عدم وصول هذه العلاقة إلى  
درجة الفاحشة . . فإنها - على هذه الصورة - تكون أقدر على تغيير أفكاره من  
العلاقة المتبدلة التى تؤدى إلى الفاحشة، لأن الفتاة ستكون حينئذ ساقطة فى حسه  
غير جديرة بالاحترام، وغير جديرة بأن تكون مصدر «إلهام»!

وسواء كانت الفتاة قد «مثلت» الدور بإتقان، لتظل العلاقة بينه وبينها  
«روحية!» و«فكرية» لتستطيع التأثير عليه، أم كانت تربيته المحافظة فى الأسرة  
المنحدرة من أصل تركى هى التى وقفت بهذه العلاقة عند الحد الذى يصفها  
بالبراءة . . فالنتيجة النهائية كانت انقلابا كاملا فى كل كيانه .  
ولنحاول أن نتصور كيف حدث التغيير .

هذا شاب عبقرى، نعم، ولكنه قادم من بلاد محتلة، تحتلها إحدى الدول  
الأوربية . . وهو قادم إلى أوروبا . . تلك التى يتحدث قومه عنها بانبهار المأخوذ،  
وتمثل فى حسهم العملاق الضخم الذى يتضاءل الشرق أمامه وينزوى . فنستطيع  
عندئذ أن نتوقع أنه قادم إلى أوروبا وهو منحنس داخل نفسه، يحس بالضآلة  
والقزامة، ويتوجس أن يزدري فى بلاد العمالقة، لأنه قزم قادم من بلاد الأقزام،  
وأقصى ما يتمناه قلبه أن يجد الطمأنينة النفسية والعقلية فى تلك البلاد الغريبة التى  
لا يكاد يستوعبها الخيال!

وبينما هو كذلك - منكمش متوجس - إذا هذه الفتاة تبرز له فى الطريق فتؤنس  
وحشته بادئ ذى بدء، فيزول عنه انكماشه وتوجسه، ويذهب عنه توتر أعصابه،  
ويشعر بالطمأنينة فى المهجر . .

ثم إن هذه الفتاة تبادله عواطفه - كما قص فى مذكراته - فيشعر فوق الطمأنينة  
بالسعادة والغبطة، ويزداد استقرار نفسه فلا يعود يشعر بالغرابة النفسية. الداخلية،  
وإن بقيت الغربة بالنسبة للمجتمع الخارجى الذى لم يحتمك به بعد . .

غير أن الفتاة تنتقل معه - فتقله - خطوة أخرى . . فهى تصحبه إلى الأسر  
الفرنسية فتفتح له تلك الأسر أبوابها وترحب به، وتصحبه إلى النوادى والصالونات

فترحب به كذلك . . وهنا تزول الغربة نهائيا، سواء بالنسبة لمشاعره الخاصة أو بالنسبة للمجتمع الخارجى، وينطلق فى المجتمع الجديد واثقا من نفسه، واثقا من خطواته . .

كيف تصير الأمور الآن فى نفسه؟!

كيف ينظر إلى العلاقة بينه وبين هذه الفتاة؟

وكيف ينظر إلى التقاليد التى تم عن طريقها كل ما تم فى نفسه من تغيير؟!  
علاقة «بريئة» . . أى لم تصل إلى الفاحشة . . نمت من خلالها نفسه نموا هائلا، فخرجت من انكماشها وعزلتها، واكتسبت إيجابية وفاعلية، مع نمو فى الثقافة، وسعة فى الأفق، ونشاط وحيوية . .

ما عيب هذه التقاليد إذن؟ وما المانع أن تكون تقاليدنا نحن على هذا النحو «البرىء»؟!

هناك بلا شك - مهما أحسنّا الظن - مجموعة من المغالطات فى هذا «المنطق» . .  
المغالطة الأولى هى دعواه «براءة» هذه العلاقة على اعتبار خلوها من الفاحشة المبينة . فحتى لو صدقناه - ونحن أميل إلى تصديقه كما قلنا - فهى ليست «بريئة» فى الميزان الإسلامى الذى يقيس به المسلم أمور حياته كلها . فهى تشمل على «خلوة» محرمة فى ذاتها سواء أدت إلى الفاحشة أم لم تؤد إليها . وهى محرمة فى دين الله لحكمة واضحة، لأنها تؤدى فى النهاية - حتما - إلى الفاحشة، إن لم يكن فى أول مرة - ولا حتى فى أول جيل - فإنه ما من مرة أباحت البشرية لنفسها هذه الخلوة إلا وصلت إلى الفاحشة فى نهاية المطاف . . لم تشذ عن ذلك أمة فى التاريخ!

والمغالطة الثانية هى تجاهله ما هو واقع بالفعل فى المجتمع الفرنسى من آثار مثل هذه العلاقة، ، وقد علم يقينا بلا شك أن ذلك المجتمع يعج بألوان من العلاقات الأخرى «غير البريئة» ويسمح بها بلا رادع . . فلم يكن ذلك سرا مخفيا عن أحد ممن يعيش فى ذلك المجتمع، سواء من أهله أو من الوافدين عليه . فحتى لو صدقناه فى أن علاقته هو الخاصة لم تصل إلى ما يصل إليه مثلها فى ذلك المجتمع - لظروف خاصة مانعة فى نفسه أو فى نفسها - فليس ذلك حجة لإباحة تلك العلاقات، أو الدعوة إلى مثلها، وهو يرى بنفسه نتائجها الواقعية حين يبيحها المجتمع .

والمغالطة الثالثة هي زعمه في كتابه الأول «تحرير المرأة» أن هذا التحرير لن ينتج عنه إلا الخير. ولن تنشأ عنه العلاقات الدنسة التي رآها بعينه في المجتمع الفرنسي. . . إنها سينشأ عنه تقوية أواصر المجتمع وربطها برباط متين! (١).

وأياً كان الأمر. . . فقد عاد قاسم أمين من فرنسا داعياً لتحرير المرأة. . . داعياً إلى السفور ونزع الحجاب. . .

نفس الدعوة التي دعا بها رفاة الطهطاوى من قبل عند عودته من فرنسا. . . مع فارق رئيسي. . . لا في الدعوة ذاتها ولكن في المدعويين! فإن أكثر من نصف قرن من الغزو الفكري المستمر كانت قد فعلت فعلها في نفوس الناس، فلم تقابل دعوة قاسم أمين بالاستنكار البات الذي قوبلت به دعوة رفاة الطهطاوى، ولم توءد في مهدها كما وثدت الدعوة الأخرى من قبل!

ومع ذلك فلم يكن الأمر سهلاً. فقد أثار كتاب «تحرير المرأة» معارضة عنيفة جعلت قاسم أمين يزوى في بيته خوفاً أو يأساً، ويعزم على نفض يده من الموضوع كله. . . ولكن سعد زغلول (٢) شجعه، وقال له: امض في طريقك وسوف أحميك!

عندئذ قرر أن يعود، وأن يسفر عن وجهه تماماً! فلئن كان في الكتاب الأول قد تمحك في الإسلام، وقال إنه يريد للمرأة المسلمة ما أعطاها الإسلام من حقوق، وفي مقدمتها التعليم، فقد أسقط الإسلام في كتابه الثاني «المرأة الجديدة» ولم يعد يذكره. . . إنما صار يعلن أن المرأة المصرية ينبغي أن تصنع كما صنعت أختها الفرنسية، لكي تتقدم وتتححر، ويتقدم المجتمع كله ويتحرر! وهكذا سقط الحاجز المميز للمرأة المسلمة، وصارت هي والمشرقة أختين بلا افتراق!

بل وصل الأمر إلى الدعوة إلى السير في ذات الطريق الذي سارت فيه الغربية من قبل، ولو أدى ذلك إلى المرور في جميع الأدوار التي قطعتها وتقطعها النساء الغربيات. . . وقد كان من بين تلك الأدوار ما يعلمه قاسم أمين - ولا شك - من التبذل وانحلال الأخلاق!

قال:

« . . ولا نرى مانعاً من السير في تلك الطريق التي سبقتنا إليها الأمم الغربية

(١) تنازل عن هذه المغالطة في كتابه الثاني «المرأة الجديدة» كما سيجي . . .

(٢) سنتحدث في فقرة تالية عن دور سعد زغلول في حياة مصر الحديثة . . .

لأننا نشاهد أن الغربيين يظهر تقدمهم في المدنية يوما فيوما .  
« . . وبالجملة فإننا لا نهاب أن نقول بوجود منح نساننا حقوقهن في حرية  
الفكر والعمل بعد تقوية عقولهن بالتربية ، حتى لو كان من المحقق أن يمررن في  
جميع الأدوار التي قطعتها وتقطعها النساء الغربيات»<sup>(١)</sup> .  
وكان آخر ما قاله في ليلة وفاته مخاطبا - بالفرنسية - مجموعة من الطلبة والطالبات  
الذين جاءوا من رومانيا في زيارة لمصر:

« . . أحيى هذه البعثة العلمية وأشكرها على زيارة نادى المدارس العالية .  
أحيى منها بصفة خاصة هاته الفتيات اللواتى تجشمن مصاعب السفر متنقلات من  
الغرب إلى الشرق حبا في الاستزادة من العلوم والمعارف . أحييهن وقلبي ملؤه  
السرور حيث أرى نصييهن من العناية بتربيتهن لا يقل عن نصيب رفقائهن .  
أحييهن ولى شوق عظيم أن أشاهد ذلك اليوم الذى أرى فيه حظ فتياتنا المسلمات  
المصريات كحظ هاته الفتيات السائحات من التربية والتعليم . ذلك اليوم الذى  
نرى فيه المسلمات جالسات جنبا إلى جنب مع الشبيبة المصرية في اجتماع أدبى  
كاجتماع اليوم ، فيشاركنا في لذة الأدبيات والعلوم التى هن منها محرومات . فعسى  
أن تحقق الآمال حتى يرتقين فيرتقى بهن الشعب المصرى»<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

والآن وقد صار للمرأة «قضية» فلا بد للقضية من تحريك . .  
وتبنى القضية فريق من النسوة على رأسهن هدى شعراوى ، وفريق من الرجال  
«المدافعين» عن حقوق المرأة . وأصبح الحق الأول الذى تطالب به النسوة هو  
السفور . . وصارت القضية التى يدور حولها الجدل هى السفور والحجاب . .  
من أين جاءت القضية ؟!

حين قامت الحركة النسوية في أوربا كان للمرأة بالفعل قضية ! قضية المساواة في  
الأجر مع الرجل الذى يعمل معها في نفس المصنع ونفس ساعات العمل ، بينما  
تتقاضى هى نصف ما يتقاضاه الرجل من الأجر.<sup>(٣)</sup>

(١) عن مجلة الهلال في الاحتفال بالذكرى العشرين لوفاة قاسم أمين ، عدد اول يونيه سنة ١٩٢٨ ص ٩٤٨ .

(٢) الهلال ، اول يونيه ١٩٢٨ ، ص ٩٤٩ .

(٣) تحدثت عن هذه القضية وأطوارها المتتابعة في أوربا في فصل «دور اليهود في إفساد أوربا» في كتاب «مذاهب  
فكرية معاصرة» .

وحيث اتسعت القضية هناك وتعددت مجالاتها - تلقائيا أو بتخطيط الشياطين<sup>(١)</sup> - فقد كان محورها الأول هو قضية المساواة مع الرجل في الأجر، ترجع إليه كلما طالبت أو طوِّب لها بحق جديد. . حتى أصبحت القضية هناك في النهاية هي قضية المساواة التامة مع الرجل في كل شيء، ومن بين «كل شيء» «حق الفساد» الذي كان الرجل قد وَصَلَ - أو وُصِّلَ - إليه، فصار حق الفساد داخلا بدوره في قضية المرأة، تحت عنوان «حق المرأة في اختيار شريك حياتها» في مبدأ الأمر، ثم تحت عنوان «حق المرأة في إبداء عواطفها» وأخيرا تحت عنوان «حق المرأة في أن تهب نفسها لمن تشاء»!!

أما في مصر - أو في العالم الإسلامي - فلم تكن للمرأة قضية خاصة! إنما كانت القضية الحقيقية هي انحراف هذا المجتمع عن حقيقة الإسلام، مما سميناها «التخلف العقيدى»، وما نتج عن هذا التخلف العقيدى من تخلف في جميع مجالات الحياة. وما تحقير المرأة وإهانتها وعدم إعطائها وضعها الإنساني الكريم إلا مجال من المجالات التي وقع فيها التخلف عن الصورة الحقيقية للإسلام. وعلاجها - كعلاج غيرها من الحالات جميعا - هو العودة إلى تلك الصورة الحقيقية، والتخلي عن ذلك التخلف المعيب. .

تلك هي «القضية». . وهي ليست «قضية المرأة» ولا «قضية الرجل». . إنما قضية الأمة الإسلامية كلها، بجميع رجالها ونسائها وأطفالها وحكامها وعلمائها وكل فرد فيها. . وتخصيصها بأنها «قضية المرأة» فضلا عن مجانبته للنظرة «العلمية» الفاحصة، فإنه لا يعالج القضية. لأنه يأخذ عرضا من أعراض المرض فيجعله مرضا قائما بذاته، ويحاول علاجه. . فلا يقدر لهذا العلاج أن ينجح، لأنه يتعمى عن الأسباب الحقيقية من ناحية، ويفتقر إلى الشمول من ناحية أخرى.

ولكن. . هل كان في ذهن أحد أن يبحث القضية بحثا جادا مخلصا فاحصا دقيقا ليتعرف على الأسباب الحقيقية فيعالجها؟!!

أم هل كان أحد ممن تناول القضية في تمام وعيه ليناقشها مناقشة علمية موضوعية مبصرة؟!!

---

(١) لم تكن تلقائية في الواقع وإن بدت كذلك!

أم هل كان أحد ممن تناول القضية سيد نفسه لينظر إليها بنظرة الخاصة، ويرى فيها ما يرى بمنظاره الخاص؟! أم كانوا كلهم من العبيد . سواء عبيد شهواتهم أو عبيد الغرب . . الذين يساقون سوقا لتنفيذ مخططات أعدائهم وهم سادرون في الغفلة، غارقون في الضلال البعيد!

بلى! لقد كانوا كلهم كذلك، رجالا ونساء، دعاة وأتباعا، مخططين ومنفذين! وإذا كان لابد للقضية من موضوع، فقد جعلت القضية - فجأة وبلا مقدمات حقيقية - قضية الحجاب والسفور!

لقد كانت القضية في أوروبا «منطقية» في ظاهرها على الأقل . . أو في بدايتها على الأقل .

فحين تضطر المرأة إلى العمل - لظروف ليس هنا مجال تفصيلها<sup>(١)</sup> - ثم تعطى نصف أجر الرجل الذي يقوم بنفس العمل، فطلب المساواة في الأجر قضية حقيقية من جهة، وجبهة كل الوجاهة من ناحية أخرى .

أما قضية الحجاب والسفور فما مكانها من المنطق، وما مكانها من الحق؟! لم يكن «الرجل» هو الذي فرض الحجاب على المرأة، فترفع المرأة قضيتها ضده لتتخلص من «الظلم» الذي أوقعه عليها، كما كان وضع القضية في أوروبا بين المرأة والرجل . إنما الذي فرض الحجاب على المرأة هو ربها وخالقها<sup>(٢)</sup>، الذي لا تملك - إن كانت مؤمنة - أن تجادله سبحانه فيما أمر به، أو يكون لها الخيرة في الأمر: «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا»<sup>(٣)</sup> .

ثم إن الحجاب في ذاته لا يشكل قضية . .

فقد فرض الحجاب في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونفذ في عهده، واستمر بعد ذلك ثلاثة عشر قرنا متوالية . . وما من مسلم يؤمن بالله ورسوله يقول

(١) فصلت أسبابها عند الحديث عن الثورة الصناعية وآثارها في الحياة الأوربية، في فصل «دور اليهود في إفساد أوروبا» من كتاب ومذاهب فكرية .

(٢) أشرت في هامشة سابقة إلى هذه الحقيقة ردا على الذين يجادلون في وقائع التاريخ، ويزعمون أن الحجاب كان تقليدا عربيا صحراويا قائما قبل الإسلام . . وذكرت قول عائشة رضي الله عنها في مدح نساء الأنصار «لما نزلت آية الحجاب قامت كل واحدة منهن إلى ثوبها فاعتجرت به» .

(٣) سورة الأحزاب [٣٦] .



إن المرأة كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مظلومة<sup>(١)</sup>. فإذا وقع عليها الظلم بعد ذلك، حين تخلف المسلمون عن عقيدتهم الصحيحة ومقتضياتها، فلم يكن الحجاب - بدهاءة - هو منبع الظلم ولا سببه ولا قرينه! لأنه كان قائما في خير القرون على الإطلاق، التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خيركم قرني...»<sup>(٢)</sup> وكان قرين النظافة الخلقية والروحية، وقرين الرفعة الإنسانية التي لا مثيل لها في تاريخ البشرية كله..

ولكن المطلوب هو نزع الحجاب!

المطلوب هو السفور!

المطلوب هو التبرج!

المطلوب هو أن تخرج المرأة في النهاية عارية في الطريق!

ذلك ما تطلبه مؤتمرات المبشرين، وما يطلبه الصليبيون الذين يخططون...<sup>(٣)</sup>. فلتكن القضية إذن هي قضية السفور والحجاب... وليوصف الحجاب بكل شر يمكن أن يرد على الذهن، وليوصف السفور بكل خير يخطر على البال... ولتبدأ القضية من هنا... ولتنته حيث يريد الشياطين!

☆ ☆ ☆

تلقت «القضية» كما قلنا مجموعة من النسوة فطالبن بالسفور على أنه «حق» للمرأة سلبها إياه المجتمع أو سلبها إياه الرجل الأناني المتحجر المتزمت الرجعي المتعفن الأفكار!<sup>(٤)</sup>

وكانت «زعيمة» «النهضة النسوية» هدى «هانم» شعراوي، التي اتخذت من بيتها «صالونا» تقابل فيه الرجال سافرة... في غير وجود محرم<sup>(٥)</sup>.

كانت هدى شعراوي بنت محمد باشا سلطان أحد باشوات ذلك العصر، ومن هنا فهي «هانم» بالوراثة! سافرت إلى فرنسا لتتعلم... وسافرت محجبة... ولكنها

(١) يقول ذلك اليوم مرتدون متبححون ممن يحملون أسماء إسلامية، فينسبون الظلم إلى الله ورسوله، وإلى الدين الذي نزل من عند الله.

(٢) سبق ذكره.

(٣) واليهود يخططون معهم كما سيحيي.

(٤) في أي قرن ياترى سلبها ذلك «الحق»!؟

(٥) ستحدث عن «الصالونات»، في فقرة تالية.

حين عادت كانت سافرة . وكان أبوها يستقبلها في ميناء الاسكندرية ومعه مجموعة من أصدقائه، فلما نزلت من الباخرة سافرة احمر وجهه خجلا وغضباً، وأشاح بوجهه عنها وانصرف دون أن يجيبها . . ولكن ذلك لم يردعها عن صنعها، ولم يردها عن غيها الذي عادت به من فرنسا . .

وتخلق حولها بعض النسوة . . وبعض الرجال! الرجال الذين «يدافعون» عن قضية المرأة في الصحف والمجلات، بالنشر والشعر . . لقاء جلسة «لطيفة» في صالون الهانم، أو ابتسامه خاصة تخص بها أحدهم . . أو مبلغ من المال تدسه في يد واحد من الصحفيين المرتزقة فيكتب مقالا في «رقة» الهانم و«لطفها» وابتسامتها العذبة وحسن استقبالها لضيوفها - الرجال - أو يكتب عن اجتماعاتها وتحركاتها . . أو يكتب عن «القضية» . .

وكانت قمة المسرحية هي مظاهرة النسوة في ميدان قصر النيل (ميدان الإسماعيلية) أمام ثكنات الجيش الإنجليزي سنة ١٩١٩ . . فقد كانت الثورة المصرية قد قامت<sup>(١)</sup>، وملأت المظاهرات شوارع القاهرة وغيرها من المدن تهتف ضد الإنجليز وتطالب بالجلء التام أو الموت الزؤام . . ويطلق الانجليز الرصاص من مدافعهم الرشاشة على المتظاهرين فيسقط منهم كل يوم قتلى بلا حساب .

وفي وسط هذه المظاهرات الجادة<sup>(٢)</sup> قامت مظاهرة النسوة، وعلى رأسها صفية هانم زغلول زوجة سعد زغلول<sup>(٣)</sup>، وتجمع النسوة أمام ثكنات قصر النيل، وهتفن ضد الاحتلال . . ثم . . بتدبير سابق، ودون مقدمات ظاهرة، خلعن الحجاب، وألقين به في الأرض، وسكين عليه البترول، وأشعلن فيه النار . . وتحمرت المرأة!!!<sup>(٤)</sup>

ويعجب الإنسان الآن للمسرحية وخلوها من المنطق . .

(١) سنتحدث عن الثورة المصرية في فقرة تالية .

(٢) كانت جادة وإن شأها الانحراف الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

(٣) اسمها الحقيقي صفية مصطفى فهمي . ولكنها سميت صفية زغلول باسم زوجها سعد زغلول على طريقة الأوربيين في إلحاق الزوجات بأسماء أزواجهن نائرا بالغزو الفكري وعملية التغريب . . ولكن «الجماهير» لم تفتن لذلك ولم تستنكره!

(٤) سمي ميدان الإسماعيلية الذي تحللت فيه المرأة من حجابها الإسلامي ميدان «التحرير» و«تخليدا» لهذه الذكرى العظيمة!

فما علاقة المظاهرة القائمة للاحتجاج على وجود الاحتلال الإنجليزي ، والمطالبة  
بالجلاء عن مصر . . ما علاقة هذا بخلع الحجاب وإشعال النار فيه؟!  
هل الإنجليز هم الذين فرضوا الحجاب على المرأة المصرية المسلمة من باب  
العسف والظلم ، فجاء النسوة يعلنن احتجاجهن على وجود الإنجليز في مصر ،  
ويخلعن في الوقت ذاته ما فرضه عليهن الانجليز من الحجاب؟!  
هل كان الإنجليز هم الذين ألبسوا المرأة الحجاب ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً  
كاملة قبل ذلك؟! أو كانوا هم الذين سلبوا المرأة «حق» السفر منذ ذلك الزمن  
السحيق . . فجنن اليوم «يتحررن» من ظلمهم ، ويلقن الحجاب في وجههم تحدياً  
ونكايه فيهم؟!  
ما المنطق في المسرحية؟!  
لا منطق في الحقيقة!

ولكن التجارب التالية علمتنا أن هذا المنطق الذي لا منطق فيه ، هو الطريقة  
المثلى لمحاربة الإسلام .

إن الذى يقوم بعمل من أعمال التخريب والتحطيم ضد الإسلام ينبغى أن  
يكون «بطلاً» لتتدارى في ظل «البطولة» أعمال التخريب والتحطيم!  
كحال أتاتورك . . جمال عبدالناصر . . أحمد بن بيلا . . وعشرات غيرهم من  
«الأبطال» الذين حاربوا الإسلام بوسيلة من الوسائل . . كلهم ينبغى أن يكونوا  
«أبطالاً» وقت قيامهم بمحاربة الإسلام ، وإلا انكشفت اللعبة من ورائهم ،  
وانكشفت عملتهم لأعداء الإسلام من الصليبيين واليهود . .

كحال أتاتورك الذى أطاح بالخلافة ، وأراد أن يقطع ما بين الأتراك وبين  
إسلامهم ، فمنع الأذان باللغة العربية ، وكتب اللغة التركية بالحروف اللاتينية وأمر  
بخلع الحجاب وذبح عدداً من علماء المسلمين . . كان «بطلاً» صنعت له البطولات  
المسرحية الزائفة لتخفى يده التى تقطر بدماء المسلمين ، وتخفى جريمته الكبرى فى  
حرب الإسلام . .

جمال عبدالناصر الذى ذبح قادة الدعوة الإسلامية فى مصر ، وأنشأ للتنكيل بهم  
فى سجون مصر ألواناً من التعذيب الوحشى لا مثيل لها فى تاريخ البشرية كله إلا  
فى محاكم التفتيش التى أقامها الصليبيون فى الأندلس للقضاء على الإسلام . .

والغى المحاكم الشرعية وهم بإلغاء الأزهر. . وأضاف جرعات جديدة «لتحرير المرأة» . . كان «بطلا» . . أضيفت عليه البطولات المصطنعة لإخفاء الجريمة الهائلة التي ارتكبتها ضد الإسلام . .

أحمد بن بيلا الذي جاء ليسرق الثورة الإسلامية، ويحوّلها إلى ثورة اشتراكية بعيدة عن الإسلام مناوئة له، والذي دعا المرأة الجزائرية إلى خلع الحجاب بحجة عجيبة حين قال: إن المرأة الجزائرية قد امتنعت عن خلع الحجاب في الماضي لأن فرنسا هي التي كانت تدعوها إلى ذلك! (١) أما اليوم فإنني أطلب المرأة الجزائرية بخلع الحجاب من أجل الجزائر. . ! أحمد بن بيلا - يوم أن دعا تلك الدعوة - كان «بطلا»! أضيفت عليه البطولة المصطنعة بخطفه من الطائرة وهو متوجه من فرنسا إلى الجزائر. . حتى إذا نضجت اللعبة . . لعبة «البطولة» . . أطلق سراحه ليقوم بعمله ضد الإسلام . . (٢)

وعلى هذا الضوء نفهم مظاهر النسوة في ميدان الإسعيلية بالقاهرة سنة ١٩١٩ .

لا بد من بطولة تُضفى على كل عمل من أعمال التخريب ضد الإسلام، لتخفى ما وراءه من تدبير. . (٣)

وأى بطولة للنسوة يومئذ أكبر من أن يقفن أمام قوى الاحتلال، يهتفن ضدها، ويفتحن صدورهن للرصاص . . !؟

يقول حافظ ابراهيم في شأن هذه المظاهرة:

خرج الغوانى محتججن ورحت أقرب جمعهنه  
فإذا بهن نَحْدَن من سود الثياب شعارهنه

(١) هنا كشف بن بيلا القناع عن الحقيقة - بلا قصد منه - حين صرح بأن قوى الاستعمار الصليبي هي التي تدعو إلى السفور وخلع الحجاب!

(٢) يقال إنه - في مجسه - حين عزل عن الحكم ونفى من الأرض قد عاد إلى الإسلام وأخذ يدعو إليه. ولسنا نكره للناس الهدى. ولكنه في فترة سلطانه كان مناوئا صريحا للإسلام.

(٣) لسنا ندرى بالضبط من هو صاحب التدبير في خلع الحجاب في أثناء المظاهرة وإحراقه، ولكن مجربات الأمور تدل على أن سعد زغلول - الصديق الحميم لقاسم أمين، الذي شجعه على المضي في الطريق، ووعده بحمايته - كان يبارك تلك الخطوات، ويضع زوجته على رأسها. وسيأتي الكلام عن دور سعد في تحويل الثورة من ثورة إسلامية إلى ثورة وطنية مبتعدة عن الإسلام.

فطلعن مثل كواكبٍ يسقطن في وسط الدجئة  
وأخذن يجتزن الطريق ودار سعد قصدهنَّ  
يمشين في كنف الوقار وقد أبن شعورهنَّ  
وإذا بجيش مقبل والخيل مطلقة الأعنة  
وإذا الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهنَّ  
وإذا المدافع والبنادق والصوارم والأسنة  
والخيل والفرسان قد ضربت نطاقاً حولنَّه  
والورد والريحان في ذاك النهار سلاحهنَّ  
فتطاحن الجيشان ساعات تشيب لها الأجنة  
فتضعضع النسوان والنسوان ليس لهن منَّة (١)  
ثم انهزمن مشتتات الشمل نحو قصورهنَّ

\*\*\*

وتدرجياً . . في ظل البطولة المدوية . . سقط الحجاب!  
وأصبح من المناظر المألوفة في العاصمة أولاً، ثم في المدن الأخرى بعد ذلك،  
أن ترى الأمهات متحجبات، والبنات سافرات، وكانت الأداة العظمى في عملية  
التحويل هذه هي التعليم من جهة، والصحافة من جهة أخرى.  
فأما التعليم فقد اقتضى معركة طويلة حتى تقرر . . على المستوى الابتدائي  
أولاً ثم المستوى الثانوي ثم في المرحلة الجامعية .  
واستفاد أعداء الإسلام فائدة عظيمة من الوضع الجاهلي الذي كان يسود  
المجتمع الإسلامي تجاه المرأة وتعليمها، فأثاروها قضية، ودقوا دقا عنيفا على  
الأوضاع الظالمة لينفذوا منها إلى ما يريدون .  
ولسنا الآن في مجال تحديد المسئوليات، إنما نحن نتابع خطى التاريخ .  
وإلا فقد كان المسلمون على خطأ بين وظلم بين للمرأة حين منعوا تعليمها كما  
أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلموها، وحين أهانوها وحقروها في  
ذات الأمر الذي كرمها الله به ورفعها، وهو الأمة وتنشئة الأجيال .

(١) منة أى قوة.

«ووصينا الإنسان بوالديه، حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين، أن اشكر لي ولوالديك، إلى المصير»<sup>(١)</sup>.  
«الجنة تحت أقدام الأمهات»<sup>(٢)</sup>.

«من أولى الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال ثم من؟ قال: أمك.  
قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك»<sup>(٣)</sup>.

ولكن الذين استغلوا هذا الوضع ليطلقوا دعوتهم لم يكن همهم الحقيقي رفع الظلم عن المرأة، إنما كان رائدهم الأول هو تحطيم الإسلام، وإخراج المرأة فتنة متبرجة في الطريق لإفساد المجتمع الإسلامي. . ولم تكن الفوضى الخلقية التي عمّت المجتمع فيما بعد مفاجئة لهم، ولا شيئاً مستنكراً من جانبهم يشعرهم بالندم على ما قدمت أيديهم. . بل كانت شيئاً محسوبا ومتوقعا ومرغوبا بالنسبة إليهم، وقد كانوا يرون تجربة الغرب ماثلة أمام أعينهم، ويعرفون ما يثول إليه الأمر في المجتمع المسلم حين يتجه ذات الوجهة، ويسير على ذات الخطوات. .

ولا ينفي هذا بطبيعة الحال وجود مخدوعين مستغفلين يتلقفون الدعوة بإخلاص. . ولكنه إخلاص لا ينفي الغفلة! وهم - بغفلتهم - أدوات معينة للشياطين، يستغلون موقفهم لتقوية دعوتهم، لأن الناس ترى إخلاصهم فتظن أنهم على خير فيتبعونهم، فيتم ما أراد الشياطين!

وقد كان هناك بديل ثالث للمصلح المخلص، الذي يريد الله ورسوله، ويريد تصحيح الأوضاع في المجتمع المنحرف، ورفع الظلم عن المظلومين، وهو الدعوة - والجهاد - لإعادة المجتمع الإسلامي إلى صورته الصحيحة التي ينبغى أن يكون عليها. ولكن أحداً من «المصلحين» القائلين يومئذ لم يدع إلى ذلك البديل الثالث. وظل الخيار المعروض دائماً هو إما الإبقاء على الأوضاع السيئة المتخلفة الجامدة الظالمة، وإما محو الإسلام ونبذه والانسلاخ منه، والاتجاه إلى أوروبا من أجل التقدم والتحضّر والرقى. . بل إنه حين جاءت الدعوة إلى البديل الثالث في موعدها المقدور عند الله، وجدت أبشع الاضطهاد والتنكيل من الحكام، ووجدت

(٢) رواد أحمد والنسائي

(١) سورة لقمان [١٤]

(٣) متفق عليه.

الإعراض العنيف والمعارضة من «المصلحين!»، مما يكشف عن الاتجاه الحقيقي لحركات «الإصلاح» التي أقيمت في المجتمع الإسلامي، وأن هدفها لم يكن الإصلاح حقاً، بقدر ما كان هو تحطيم الإسلام أولاً. . . وليكن بعد ذلك ما يكون!  
سقط الحجاب تدريجياً عن طريق «بنات المدارس»!

أو لم تقرر المؤتمرات التبشيرية في مخططاتها ضد الإسلام ضرورة العمل على تعليم المرأة المسلمة وتحريرها؟!

وفي مبدأ الأمر لم يكن التبرج والتهتك هو طابع بنات المدارس، بل لم يكن مقبولاً أصلاً في المدارس!

والحكمة في ذلك واضحة بطبيعة الحال! فلا المجتمع في ذلك الوقت كان يسمح، ولا كشف الخطة كاملة منذ اللحظة الأولى كان يمكن من تنفيذها، بل كان قيمنا بالقضاء عليها في مهدها!

لو خرجت بنات المدارس عن تقاليد المجتمع المسلم دفعة واحدة ومن أول لحظة، هل كان يمكن أن يقبل أحد من أولياء الأمور أن يرسل بنته إلى المدرسة لتتعلم؟!

كلا بالطبع!

إنما لا بد من طمأننة أولياء الأمور تماماً، حتى يسمحوا بإرسال بناتهم إلى المدارس. ولتكن الخطة على الأسلوب المتبع في عملية التحويل كلها: «بطيء ولكنه أكيد المفعول»! «منعا لإثارة الشكوك»!

بالتدريج. . .

الشعر في مبدأ الأمر مغطى بقبعة. . . وتتدلى من الخلف ضفيرتان تربطهما شريطة من القماش. الضفيرتان مكشوفتان أما الرأس فتخفيه القبعة! والوجه سافر. . . نعم. . . ولكن. . . صغيرات يا أخى! لا بأس!

ولم يمر الأمر في الحقيقة بسهولة. . . ولكنه مر في النهاية! كما مرت كل الخطوات التالية حتى كُشِفَ الصدر والظهر والساقين والذراعين والعري على الشواطئ والتهتك في الطرقات. . .

كيف مرّ؟!

إن لهذا الأمر دلالاته ولا شك. . .

نعم، كانت هناك جهود شيطانية لإفساد المجتمع المصرى بالذات، لتصدير الفساد منه إلى بقية المجتمع الإسلامى كما مر القول، وشاركت فى هذه الجهود كل الوسائل الممكنة من صحافة وإذاعة وسينما ومسرح. الخ. وكان التركيز عنيفا والوسائل فعالة. ولكن هل يكفى ذلك كله لتفسير ما حدث؟!

ليبان ذلك نقول: إن كل هذه الوسائل ما تزال مستخدمة حتى هذه اللحظة، وبعنف أشد مما كان قبل خمسين عاما دون شك، وقد أحدثت هذه الوسائل فى خلال ما يزيد على نصف قرن تيارا هائلا نافرا من الإسلام منسلخا منه. ومع ذلك توجد اليوم فتيات محجبات، جامعات مثقفات، لا يتنازلن عن حجابهن ولو دخلن من أجله السجون والمعتقلات.

فما الفرق؟!

بعبارة أخرى نسأل: هل كان الحجاب الذى سقط عقيدة أم تقاليد؟! والأخلاق التى سقطت. هل كانت ذات رصيد إيمانى حقيقى أم كانت تقاليد؟!

والرجل الذى ثار يوم كشفت «بنات المدارس» عن وجوههن. هل ثار للعقيدة، أم ثار للتقاليد؟!

والرجل الذى ثار يوم نزلت المرأة إلى الشارع لتعمل. هل كانت ثورته نابعة من عقيدة حقيقية، دينية أو غير دينية، أم كانت «عنجهية» الرجل هى المحرك، والمحافظة عليها هى الدافع إلى الثورة؟ حين يكون الحجاب عقيدة فإنه لا يسقط. مهما سلط عليه من أدوات التحطيم.

وحين تكون الأخلاق ذات رصيد إيمانى حقيقى، فليس من السهل أن تسقط - ولو سلطت عليها عوامل الإفساد - إلا بعد مقاومة شديدة وزمن مديد. أما التقاليد الخاوية من الروح. وأما العنجهية الفارغة. فهى عرضة للسقوط إذا اشتد عليها الضغط، وقد كان الضغط عنيفا بالفعل، بل كان شيطانيا بكل ما تحمله الكلمة من معان!

\* \* \*

بدأت بنات المدارس يكشفن عن وجوههن ويسرن فى الطريق على النحو الذى



وصفناه، ولكن في ملابس طويلة تغطي الذراعين جميعا وتصل إلى القدمين، وفي أدب ظاهر و«استقامة» كاملة..

وهل كن يملكن غير ذلك؟!

إن الفتاة التي يحدثها شيطانها أن تلتفت فقط - يمينه أو يسرة - تضيع! تسقط في نظر المجتمع، وتكون عبرة لمن يعتبر! فمن التي في مبدأ الأمر تلتفت يمينه أو يسرة؟!

إنها هو الأدب الكامل والانضباط الشديد!

وحين افتتحت أول مدرسة ثانوية للبنات في القاهرة.. «مدرسة السنية».. كانت ناظرتها انجليزية.. وكانت «قمة» في المحافظة إلى حد التزمت! فهكذا ينبغي أن تكون الأمور في مبدأ الأمر! حتى يكتب لهذه الخطوة الثبات في الأرض والتمكين، ويمكن مدها فيما بعد إلى آفاق جديدة! أما لو كشف المستور من أول لحظة فلن تدخل فتاة واحدة المدرسة الثانوية، ويؤء المخطط كله بالخسران! كانت هيئة التدريس نسوية خالصة، فيما عدا مدرس اللغة العربية لتعذر وجود مدرسات للغة العربية يومئذ. ولكنه كان يختار من الرجال المتقدمين في السن، المتزوجين، المشهود لهم حقا بالصلاح والتقوى، فهو بالفعل أب يرعى بناته، ويشعرن نحوه بما تشعر به الفتاة نحو أبيها الوقور، فتقدم له الاحترام والتوقير. وليس في المدرسة كلها رجل آخر إلا كاتب المدرسة، وهو من عزل عن المدرسة كلها في مكتب خاص لمقابلة أولياء الأمور، والقيام بالأمور الكتابية والحسابية للمدرسة، وحارس الباب، وهو كذلك رجل وقور متقدم في العمر تقول له البنات «يا عم!» إذا حدث على الإطلاق أن وجهن له الكلام!

وكانت الفتيات يحضرن إلى المدرسة في عربات مغطاة بالستائر، ويعدن إلى بيوتهن بنفس الوسيلة. فأما إن كان أهل الفتاة لا يريدون أن يتحملوا نفقات العربية، فيأتي معها ولي أمرها يسلمها إلى المدرسة صباحا ويتسلمها في نهاية اليوم المدرسي، لكي لا يتركها تسير وحدها في الطريق.

أى شىء يريد الآباء أكثر من ذلك؟!

بل إن «حضرة الناظرة» هى أشد في تأديب البنات من أولياء أمورهن! إنجليزية يا أخى! الإنجليز حازمون في التربية! قل ما تشاء فيهم، ولكن في التربية..!

وكانت المناهج في مدارس البنات رجالية في الحقيقة لأمر يراد فيها بعد . . ولكنها بعد مغطاة . . فالفتاة تدرس نفس المناهج المقررة في المدارس الثانوية للبنين، ولكنها تدرس إلى جانبها مواد «نسوية» كالتدبير المنزلي ورعاية النشء . . وذلك للإيهام بأن المقصود من التعليم في هذه المدارس هو إعداد الفتاة لحياة الأسرة التي تنتظرها . إذ كانت أشد نقط المعارضة في تعليم البنات بعد المرحلة الابتدائية أن الدراسة الثانوية ستعطل الفتاة عن الزواج - وهي في سن الزواج - وتبعدها عن جو البيت الذي خلقت له، والذي ستقضى بقية حياتها فيه . .

فأما تعطيل الفتاة عن الزواج فقد واجهه أصحاب «القضية» بالمطالبة بإرجاء سن الزواج، وتحريم الزواج قبل سن السادسة عشرة (وصدر تشريع بذلك) ومحاولة تزيين هذا التأخير بمختلف الحجج، حتى صار أمرا واقعا فيما بعد، لا عند السادسة عشرة، بل عند الثلاثين وما بعدها في بعض الأحيان!

وأما إبعاد البنت عن جو البيت فقد واجهه أصحاب القضية بتلك الدروس المتناثرة في التدبير المنزلي ورعاية النشء، وفي مقابلها تزداد سنوات الدراسة الثانوية للبنات، فتصبح ست سنوات بدلا من خمس للبنين . .

حتى إذا هدأت ثورة المعارضين، وصار التعليم الثانوي للبنات أمرا واقعا بعد المعارضة العنيدة التي كانت من قبل، أخذت هذه الدروس النسوية تتضاءل، حتى محيت في نهاية الأمر، وأصبح المنهج رجاليا خالصا في مدارس البنات . . وألغيت السنة السادسة، وأصبحت الفتاة تتخرج بعد خمس سنوات على ذات المناهج التي يتخرج عليها الفتى . . لتصبح للفتاة قضية جديدة . . قضية الدخول إلى الجامعة!

ولكن . . لا نسبق خطى التاريخ!

\* \* \*

تعددت مدارس البنات الثانوية في القاهرة ثم في الإسكندرية ثم في غيرها من المدن . . وخفت قبضة الناظرة الإنجليزية فلم يعد يهمها إلا «النظام» الصارم في داخل المدرسة . أما «أخلاق» البنات فلم تعد تعيرها اهتماما كما كانت من قبل . وجاءت بعدها ناظرات مصريات، أقل انضباطا من ناحية النظام، وأقل اهتماما بقضايا الأخلاق . .

وسارت الأمور فترة من الزمن سيرها الرتيب، وكثر الإقبال على مدارس البنات حتى ضاقت بهن، فقامت إلى جانبها مدارس أهلية تسير على ذات المنهج، وتحقق ذات الأهداف. . . واطمأن الناس اليوم على بناتهم فلم يعودوا يصحبونهن في الذهاب والإياب. . . وأصبحت أفواج البنات تذهب في الطرقات وحدها ونحى. . . ولكن. . . هل كان يمكن أن تستمر الأمور في داخل هذا النطاق المحدود؟! يوجد دائما في كل مجتمع فتاة «جريئة» وفتى «جريء»! (١) يخرجون على تقاليد المجتمع ويتحللون منها. . .

وفي المجتمعات المتأسكة يكون نصيب هؤلاء هو الردع الفوري، الذي يمنع العدوى، ويقضى على الجرثومة قبل أن يستفحل أمرها. أما في المجتمعات المفككة فلا يحدث الردع المطلوب، أو لا يحدث بالقوة الحاسمة التي تؤتى أثرها، فتظل الجرثومة باقية، وتظل تنتشر حتى يحدث الوباء. لذلك مدح الله خير أمة أخرجت للناس بقوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» (٢).

ولعن شر أمة أخرجت للناس بقوله تعالى: «لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه. لبئس ما كانوا يفعلون» (٣).

وفي المجتمعات التي تتحول فيها القيم والأخلاق إلى «تقاليد» خاوية من الروح، يحدث الإنكار ويحدث الاحتجاج، ولكن لا يحدث الردع الحاسم الذي يقتل الجرثومة قبل أن تستفحل، فتبقى، ثم تنتشر في خطى بطيئة ولكنها أكيدة المفعول!

وهذا هو الذى حدث في المجتمع المصرى أمام الغزو الفكرى الصليبي فى القرن الرابع عشر الهجرى، وفى المجتمع الإسلامى كله. . . كانت هناك بقايا قيم

---

(١) أقيمت فى شواطئ الإسكندرية (ونشرتها الصحف!) مسابقة بعنوان «أبوعيون جريئة»! يكون الفائز فيها هو أوقع الشبان وأقلهم حياء وأدبا!

(٢) سورة آل عمران [١١٠].

(٣) سورة المائدة [٧٨-٧٩].

وبقايا دين . . ولكنها كانت تقاليد خاوية من الروح، فلم تستطع أن تصمد طويلا أمام الغزو الكاسح، الذى يزين الفساد للناس باسم الرقى والحضارة والتقدم و«التحرر» من الرجعية والتحرر من الجمود.

بدأت أول فتاة «جريئة» تلتفت برأسها حين يلقي إليها الفتى «الجرىء» بألفاظ الغزل المستور أو المكشوف . .

وتسقط الفتاة الجريئة في نظر المجتمع من أجل هذه الالتفاتة، وتعتبر فتاة فاسدة الأخلاق، ولكنها لا تردع! ولا يردع الفتى الجرىء الذى ألقى بألفاظ الغزل على قارعة الطريق . . فيتكرر النموذج من هنا ومن هناك . . وتبذل أعصاب الناس على المنظر المكرور . . وتصبح ظاهرة «معاكسة» «بنات المدارس» ظاهرة مألوفة في المجتمع المصرى، لا يتحرك لها أحد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . ويفرح الشياطين!

ورويدا رويدا تتغير ملابس بنات المدارس!

تقصر «المريلة» قليلا . . هل هناك مانع؟! الجورب يغطى ما كشفته «المريلة» فماذا يحدث؟!!

ويقصر الكم قليلا . . هل هناك مانع؟! سنتيمترات قليلة لا تقدم ولا تؤخر . . ماذا يحدث؟! هل تخرب الدنيا إذا قصرت الأكمام قليلا أو قصر «الذيل»! لا تحبكوها أيها المتزمتون!

وتبذل الأعصاب على المنظر المكرور، فتقصر الأكمام بضعة سنتيمترات أخرى أو يقصر الذيل، أو يقصر الجورب . . وينكشف من المرأة ما أمر الله بستره بنفس المقدار!

أف لكم أيها المتزمتون! تفتأون تذكرون الأخلاق وتنادون بالويل والثبور! ماذا حدث للأخلاق حين تراجعت الملابس بضعة سنتيمترات؟ هل تقاس الأخلاق بالسنتيمتر أيها الجامدون؟ الأخلاق قيم (!!) . . والقيم محلها القلب (!!) ما دامت الفتاة «مقتنعة» بالقيم في داخل نفسها فلن تفسد ولو سارت عارية في الطريق!

وحين تكثر الفتيات في الشوارع، حاسرات مقصرات، سواء من بنات المدارس الثانوية أو مدارس المعلمات، أو من خريجات المدارس الأخيرة اللواتى صرن

معلّيات، وصارت لهن رواتب خاصة يستطعن الإنفاق منها على حوائجهن . . عند ذلك تبدأ «المودات» في الظهور. . وتصيح هناك صحافة نسوية تتخصص في عرض «المودات» أو ركن في المجلات والصحف العامة يسمى «ركن المرأة» يقدم النصائح ويقدم «المودات» . .

فأما النصائح فتبدأ في غاية «العفة» وفي غاية الاتزان!

كيف تحافظين على محبة زوجك؟!

وهل يكره الإسلام أن تتحب المرأة إلى زوجها وتتجمل له وتترين؟!  
نحن فقط نقدم النصيحة مصورة! لأننا في زمن الصحافة المصورة التي توضح

كل شيء بالرسم!!

وحين تستقر هذه الخطوة نتقدم خطوة أخرى إلى «الأمم»! تمهيدا «لتحرير»  
المرأة من قيد آخر من قيود الدين والأخلاق والتقاليد!

لقد كان الزوج في المرحلة الأولى هو «المحلل» . . وانتهت مهمته فلنكن الآن  
صرحاء!

كيف تجذبين انتباه الرجل؟!

نعم! وماذا فيها؟!

ألا تترين إلا المرأة المتزوجة؟! وماذا تفعل الفتاة التي تبحث عن الزوج؟! ألا  
تترين ليقع في شباكها «ابن الحلال»؟!

فإن لم يقع «ابن الحلال» فمزيدا من التزين . .

هذا فستان يكشف «مفاتيح الصدر» وهذا يكشف «مفاتيح الظهر» وهذا يكشف  
«مفاتيح الساقين»! (١).

وتتطور «المودة» العالمية وتتطور، حتى تكشف مفاتيح الجسم كله بجميع  
أجزائه، وتتبعها الصحافة المصرية شبرا بشبرا وذراعا بذراع . . «حتى إن دخلوا جحر  
ضب دخلتموه»! (٢).

\* \* \*

وجاء دور الجامعة . .

(١) هذه العبارات وردت بنصها في مجلات «المودة» وفي «ركن المرأة» في المجلات التي تخصص ركنًا للمرأة.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبرا وذراعا بذراع، حتى إن دخلوا جحر ضب دخلتموه». قالوا من يارسول الله؟ قال: اليهود والنصارى، أخرجه الشيخان.

كنتنم أيها المتزمتون تعارضون في تعليم المرأة حتى في المرحلة الابتدائية! وكنتنم تقولون إنها لا تصلح إلا للبيت، وليست لديها القدرة على التعليم. . . واليوم تتحداكم الفتاة المتعلمة! ها هي ذى قد تعلمت على ذات المناهج التى يتعلم عليها الفتى،<sup>(١)</sup> ووصلت إلى المرحلة الثانوية. وهى لم تلحق به فحسب، بل تفوقت عليه في كثير من الأحيان!<sup>(٢)</sup>.

والآن صار من حقها أن تدخل الجامعة. . . فإذا أنتم قائلون أيها الرجعيون! ودارت معركة طويلة بين المدافعين والمعارضين كتلك التى قامت في أوروبا من قبل. . .<sup>(٣)</sup>

وقال المدافعون: إنه نفس الدور! إن المرأة قضيتها واحدة في كل بلاد العالم. وستسير في نفس الخطوات. ونتيجتها في النهاية واحدة. هى النتيجة التى وصلت إليها أوروبا، التى سبقت العالم كله بقرن من الزمن أو أكثر، وخاضت المرأة فيها ذات المعركة، وخرجت منها منتصرة في النهاية. . . وفي ظاهر الأمر كان الذى يقوله المدافعون أمراً واقعاً في كثير من بلاد الأرض. ولكنهم كانوا غافلين عن أمور. . .

كانوا غافلين أولاً عن أن القضية لم تأخذ شكلاً واحداً في كل الأرض بسبب طبيعتها الخاصة كما توهموا، ولكن لأن الأجهزة العالمية التى تدير القضية لحسابها الخاص قد جعلتها تأخذ هذه الصورة لأمر تريده.<sup>(٤)</sup>

وكانوا غافلين ثانياً عن أن قضية المرأة المسلمة ليست هى قضية «أختها» الأوروبية! «فأختها» الأوروبية - ولا أخوة في الحقيقة لأن المسلمة لا تؤاخى المشركة - قد صارت لها قضية لأنه ليس لمجتمعها منهج ربانى يسير عليه، إنما يشرع فيه البشر لأنفسهم، فيظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم. وقد وقع الظلم هناك من

---

(١) هذه هى «حكمة» تعليم الفتاة على منهج الفتيان، ليصبح هناك وجه لقضية «المساواة» بين الجنسين، التى تصل في النهاية إلى المساواة في «حق» الفساد! وهناك حكمة أخرى لا نقل عنها حكمة هى إلغاء «قوامة» الرجل على المرأة أو خلخلتها أساسها على الأقل بعد أن «يتساووا» في نوع التعليم!

(٢) كان هذا التفوق يحدث بالفعل لأن الأولاد ينشغلون بالشارع والنادى والمقهى ورفقة الأصحاب، بينما البنات في البيوت متفرغات لمراجعة الدروس، فضلاً عن روح التحدى التى تحفز المرأة لتحدى الرجل.

(٣) تحدثت عن هذه المعركة في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٤) راجع إن شئت فصل «دور اليهود في إفساد أوروبا» من كتاب «مذاهب فكرية».

تشريع - أو عرف - وضعه البشر، ثم اختاروا - أو اختار لهم الشياطين في الحقيقة - حلا ساروا فيه حتى أوصلهم في النهاية إلى الخبال، من تفكك الأسرة، وتحلل المجتمع، وشقاء الرجل والمرأة كليهما، وتشرذم الأطفال، وجنوح الأحداث، وانتشار الشذوذ، والأمراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة . .

أما المرأة المسلمة فقضيتها أن الظلم قد وقع عليها من مخالفة المنهج الرباني الذي التزم به مجتمعا عقيدة ولم يلتزم به عملا، وارتد في هذه النقطة بالذات إلى أعراف الجاهلية الفاسدة .

وقد يكون الظلم واحدا أو متشابها، ولكن العلاج يختلف لاختلاف الأسباب . فعلاج القضية بالنسبة للمرأة المسلمة هو الرجوع إلى المنهج الرباني الصحيح، والالتزام به عقيدة وعملا . وليس علاجه هو اتباع الخطوات التي سارت فيها القضية في الغرب، فخرجت من تحبب إلى تحبب وما تزال . .

وحقيقة إن المنهج الرباني هو العلاج لكل مشكلات البشرية، ولو آمنت به أوروبا ونفذته لحلت كل مشكلاتها . ولكن الذين ينفذونه بالفعل - أو المفروض أن ينفذوه - هم الذين التزموا به فعلا - أي المسلمون - فإذا حادوا عنه فإن مهمة «المصلحين» هي تذكيرهم به، ودعوتهم إلى العودة إليه ليطبقوه في عالم الواقع، فتتحل مشاكلهم وينصلح حالهم . أما اتباع أوروبا، وسير المرأة المسلمة في ذات الخطوات التي سارت فيها «أختها» الأوربية فلن يحل مشكلتها، كما لم يحل مشكلة «أختها»، وسيصل بها وبمجتمعا - وقد وصل بالفعل - إلى ذات المصير البائس الذي وصل إليه مجتمع «أختها» من قبل .

ولكن المدافعين يومئذ لم يكونوا يفقهون شيئا من ذلك كله . . وهم يومئذ أحد فريقين: فريق يعلم جيدا أن الطريق الذي تسير فيه «القضية» سيؤدي إلى انحلال أخلاق المجتمع وتفككه كما حدث في أوروبا، وهو يريد ذلك ويسعى إليه جاهدا لأنه من «الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا»<sup>(١)</sup>

(١) قال تعالى:

«إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة» [سورة النور: ١٩]

وفريق آخر مخدوع مستغفل لأنه مستعبد للغرب، لا يرى إلا ما يراه الغرب،  
ويظن - في غفلته وعبوديته - أن سيده دائماً على صواب!  
وهذا وذاك معاً مسخران لخدمة الصليبية في المجتمع الإسلامي،<sup>(١)</sup> وخدمة  
اليهودية العالمية كذلك<sup>(٢)</sup>.

وقال هذا وذاك إن «قضية المرأة» تستلزم أن تدخل الفتاة الجامعة لتؤدي  
«رسالتها» على الوجه الأكمل!

وقضية التعليم - الجامعي أو غير الجامعي - ليست هي القضية بالنسبة للمرأة  
المسلمة، فلن يمنعها الإسلام من طلب العلم، وهو الذي يدعوها إليه بل يفرضه  
عليها. ولكن الإسلام يشترط في تعليمها - وفي نشاطها كله - شرطين اثنين: أن  
تحافظ على دينها وأخلاقها، وأن تحافظ على وظيفتها الأولى التي خلقها الله من  
أجلها، وهي رعاية الأسرة وتنشئة الأجيال. وفي حدود هذين الشرطين تتحرك  
حركتها كلها، وهي حدود واسعة سَلَّ عنها الصحابيات الجليلات رضوان الله  
عليهن.

ولكن عبّاد الغرب وشياطينه لم يكونوا يريدون شيئاً من ذلك بطبيعة الحال وهم  
يطالبون للفتاة المسلمة بالتعليم الجامعي وما تبع ذلك من «قضايا»!  
فأما الشياطين فإنهم ما جاءوا يبتغون الإصلاح.. . إنها جاءوا للتخريب بادئ  
ذى بدء.

وأما العبّاد فليس لهم إلا طريق واحد، لا يرون غيره، ولا يستطيعون رؤية  
غيره، لأنهم عبيد. والعبد لا يرى إلا ما يراه سيده له، بل يعتقد في دخيلة نفسه  
أن مجرد اتجاه فكره إلى شيء غير ما يراه السيد هو إثم غير مغفور!

\* \* \*

دارت المعركة، وطالب المدافعون عن قضية المرأة أن يسمح لها بدخول الجامعة  
أسوة بالرجل ومساواة له.

وقال المعارضون إن الفتاة لا تصلح للتعليم الجامعي أصلاً لأنه لا يناسب  
طبيعتها، وسيؤثر على أنوثتها، فضلاً عن أنه سيشتغلها عن الزواج ويعطلها عنه

---

(١) إلا أن يكون هو ذاته صليبياً كسلامة موسى فهو يشارك في تنفيذ المخطط الصليبي مدفوعاً بصليبيته الذاتية.  
(٢) كان لليهودية مشاركة ضخمة في تحطيم الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي لأهداف عدة من بينها إنشاء  
الدولة اليهودية في الأرض الإسلامية.



عدة سنوات، وسيصرفها عن الأسرة والبيت - مهمتها الأصلية - وفوق ذلك كله فهناك مشكلة الاختلاط الذي لا بد أن يحدث في الجامعة، وهو أمر يخالف الدين والأخلاق والتقاليد. (١)

واستغرقت المعركة ردحا من الزمن غير قليل. وتقاذف الفريقان الاتهامات الحادة، وضاعت حقائق كثيرة في وسط المعركة كانت على الأقل تستحق دراسة مستأنية ليتخذ فيها القرار على بصيرة.

فأما المدافعون فالمسألة عندهم منتهية لا حاجة فيها إلى التوقف والدرس. فهم مدفوعون دفعا - بوعي منهم أو بغير وعي - إلى تخريب المجتمع الإسلامي وتدميره، بل مدفوعون دفعا إلى استخدام «قضية المرأة» بالذات لإحداث هذا التدمير. وأما المعارضون فمن أي منطلق ينطلقون؟

كان ظاهر الأمر أنهم ينطلقون من منطلق إسلامي.. وقد كثر في كلامهم بالفعل ذكر الدين والأخلاق والتقاليد.. ولكن هل كانوا على وعي حقيقي بالإسلام؟

لقد كان وعيهم به ضئيلا في الحقيقة.. وكان إخلاصهم للتقاليد أعمق في حسهم من الإخلاص للدين! أو قل: إن التقاليد التي كانوا يحرصون عليها ويدافعون عنها كانت مختلطة في حسهم بالدين، ومن ثم كان يختلط عليهم الإخلاص للتقاليد بالإخلاص للدين!

ولكنها لم تكن في الحقيقة تقاليد إسلامية.. إنما كانت تقاليد جاهلية ارتدت إليها الأمة المسلمة في فترة تخلفها العقيدى، ثم اختلطت في حسها بالإسلام، وظن المدافعون عنها بإخلاص أنهم يدافعون عن الدين!

وكانت عنجهية الرجل ولاشك عنصرا من عناصر القضية.. كان يجب أن يتميز وينفرد بأشياء، سواء كانت مما ميزه الله به حقيقة أو مما ميزته به الجاهلية، ويختلط الأمران معا في حسه، فيعتقد أنها - كليهما - من صميم الدين، وأنه حين يدافع عن مركزه المتميز، ويدفع المرأة عن اللحاق به، يدافع عن الدين!

---

(١) لم يفكر أحد في إقامة جامعة نسوية خاصة!

ولم يفت المدافعون عن «قضية المرأة» أن يستغلوا نقطة الضعف هذه في موقف المعارضين، وأن يستغلوها إلى آخر المدى. . . فدعوا إلى إخراج الدين كله من القضية، والحديث عنها على أنها قضية تقاليد. . . وحين تكون على هذه الصورة، فهي إذن تقاليد عتيقة بالية، ينبغي أن تحطم ويستبدل بها تقاليد جديدة. . . عصرية تقدمية متطورة.

وبطبيعة الحال لم يرض المتدينون والحريصون على الأخلاق عن حصر القضية في محيط التقاليد وإخراجها من دائرة الدين، كما كان أعداؤهم يدعونهم كلما احتدمت المعركة بقولهم: لا تزجوا بالدين في كل الأمور! فالدين لا علاقة له بهذه الأمور!!

ولكنهم في النهاية انهزموا وتراجعوا. . . ثم صمتوا. . . وتقرر الأمر الذي خطط له المخططون، فأصبح «أمرا واقعا» رضى المتدينون أو كرهوا، وأعلنوا رأيهم أو صمتوا عنه. . .

لماذا حدث ذلك؟!

لم يكن «التطور العالمى» كما توهم المتوهمون. ولم يكن ضغط الحضارة الغربية. ولم يكن «الحق» الذى كان مغلوبا ثم انتصر كما أذاع المدافعون عن قضية المرأة. ولم تكن «طبيعة القضية» وكونها قضية عالمية لا بد أن تأخذ مجراها في كل الأرض. . . بل لم يكن الغزو الفكرى في ذاته هو الذى جعل الأمور تأخذ هذه الصورة. . . إنما كان قبل كل شىء: الهزيمة الداخلية الناشئة من الخواء، الناجم بدوره عن التخلف العقيدى، والانهيار بما عند الغرب، والظن بأنه لا بد أن يكون صوابا ما دام آتيا من عند الأقوياء الغالبين!

نعم، إنها الهزيمة الروحية هى التى مكنت للغزو الفكرى، وهى التى جعلت كل ما يخططه المخططون يَنْفُذُ كأنه أمر حتمى لا مرد له، ولا طاقة لأحد بالوقوف في طريقه!

وما كان شىء من ذلك ليحدث لو أن المسلمين كانوا على إسلام صحيح. فالعقيدة الحية المتمكنة من القلوب لا تقهر، ولا يتخلى عنها أصحابها مهما وقع عليهم من الضغوط. (١)

---

(١) انظر ما وقع من الضغوط على الجماعة المسلمة في مكة، وانظر ما يقع اليوم من المذابح البشعة لإخماد الصحوة الإسلامية وهى مع ذلك لا تخمد.

والاستعلاء بالإيمان بقى الناس من الذوبان في عدوهم ولو انهزموا أمامه في المعركة الحربية .

والغنى النفسى الذى يحدثه الإيمان الحق بالله ، والغنى الواقعي الذى يحدثه التطبيق الصحيح للمنهج الربانى ، يجعل المسلم - فردا وجماعة ومجتمعا ودولة - فى غنى عن الاقتراض فى عالم القيم والمبادئ - فضلا عن التسول! - وإذا احتاج لشيء من أمور الدنيا يفتقده عنده فإنه يأخذه فى استعلاء المؤمن ، ويطوعه لمنهجه الربانى ، ويصح مال كاله لا مملوكا له . .

وما كان الغزو الفكرى ليتسرب إلى نفوس المسلمين - لو كانوا على إسلام صحيح - ولا إلى عقولهم وأفكارهم ومشاعرهم ، حتى يزيلهم عن قاعدتهم ، ويحرفهم فى التيار . . غثاء كغثاء السيل ، كما وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا من الزمان .

وما كان ضغط الحضارة الغربية ليجلى المسلمين عن مواقعهم ، وهى حضارة زائفة ممسوخة فى عالم القيم ، برغم كل التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى الذى تشتمل عليه . وقد كان المسلمون قمينين أن يأخذوا كل التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى الذى يحتاجون إليه - كما أخذوا من الروم والفرس أول مرة - دون أن يفقدوا إسلامهم ، أو يتخلوا عن ذاتيتهم ، أو تختلط القيم والموازين فى حسهم .

وما كان «التطور العالمى» ليغلب المسلمين على أمرهم . . فهو ليس «حتمية» حقيقية كما خيّل اليهود للبشرية ليدفعوها فى المسار الذى جرفوها إليه . إنها انجرفت أوروبا فى تيار التطور اليهودى لخوائها من العقيدة الصحيحة ، ولأن عقيدتها الممسوخة لم تكن تصلح للحياة ، ولا كانت تقدر على الصمود أمام كيد اليهود .<sup>(١)</sup> ولكن المسلمين كانوا قمينين أن يصمدوا ولا ينهزموا أمام «التطور» المزعوم ، الذى انتكس فيه «الإنسان» أكبر نكسة وقع فيها فى تاريخه كله ، فى مجال القيم والأخلاق والمبادئ ، بل فى مجال «إنسانية الإنسان» ذاتها ، رغم البريق الخاطف ، ورغم كثرة ما قيل فى هذا العصر عن «إنسانية الإنسان» . . ! كان المسلمون قمينين أن يصمدوا ولا ينهزموا لأنهم يملكون العقيدة الصحيحة من جهة ، ولأنهم هم المؤهلون أن يقفوا للكيد اليهودى من جهة أخرى ، لأن الله وعدهم بالنجاة من

(١) راجع إن شئت فصل «دور اليهود فى إفساد أوروبا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .

ذلك الكيد إن استقاموا على الشرط: «وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً»<sup>(١)</sup>.

بل كان المسلمون قمينين أن يصححوا أفكار البشرية الزائغة إزاء لوثة الداروينية، ولوثة التطور، ولوثة المادية، ولوثة التفسير الجنسي للسلوك البشرى، والتفسير الآلى للحياة، ولوثة «التحرر» من كل القيم، ولوثة إخراج المرأة من بيتها ووظيفتها، لتكدح وتشقى من أجل لقمة العيش، وتتبدل وتفسد، وتفسد المجتمع كله معها في نهاية الأمر..

لو كانوا على إسلام صحيح!

ولكنهم لم يكونوا.. فأصابهم ما أصابهم.. وبدلاً من أن يصححوا للبشرية منهج حياتها، ويهدوها إلى المنهج الحق، تخلوا هم عن منهجهم الربانى، وراحوا يلهثون لهثاً وراء الجاهلية الأوربية، يستأذنونها في مذلة أن تسمح لهم باللهث وراءها، ولا تحقرهم ولا تستصغروهم إلى أن يتمكنوا من اللحاق بها في آخر الشوط!

وذلك هو التفسير الحقيقى لما حدث في قضية المرأة، وكل القضايا الأخرى التى أملت بالمسلمين فى أثناء «نهضتهم» المعاصرة!

\* \* \*

دخلت المرأة الجامعة لا «لتتعلم» فقط.. ولكن «لتتحرر»!

لتتحرر من الدين والأخلاق والتقاليد..

فقد قيل لها - كما قيل للمرأة الأوربية من قبل - إن التعليم.. والاختلاط.. والحرية.. و «التجربة» كلها «حقوق» للمرأة، كان الدين والأخلاق والتقاليد تمنعها من مزاولتها.. واليوم ينبغى أن تحطم الحواجز كلها لتحصل المرأة على ما لها من حقوق..

وبطبيعة الحال لم تكن هناك طفرة.. إنما جاء كل شىء بالتدريج.. وما كان المخططون يتوقعون أن تحدث الطفرة - وإن تلهفت قلوبهم لمشاهدتها - ولا كان ذلك ممكناً فى عالم الواقع.

لقد دخلت أربع فتيات كلية الآداب فى «الجامعة المصرية» مقتحات كل

(١) سورة آل عمران [١٢٠].

الحواجز القائمة يومئذ، والمجتمع كله - بين مؤيد ومعارض - يرقب التجربة الجديدة، وما يمكن أن تسفر عنه .

وكان هناك - طبعاً - قدر من الأدب، وقدر من الحياء، وقدر من الاحتشام، سواء من جانب الفتيات الأربع، أو من جانب الطلاب في مدرجات الجامعة وأفنيتها، والجو كله مملوء بالحذر والترقب . .

ومع ذلك كله كتبت أمينة السعيد في مذكراتها التي نشرتها لها «الهلال» - وهي إحدى الفتيات الأربع اللواتي «اقتحمن» الحواجز، ليشتن جدارة الفتاة المصرية بكذا وكذا مما أثبتن جدارتهن به! - كتبت تقول: إنه في الاختبار الشفوي في آخر العام كانت اللجنة - في اختبار اللغة الإنجليزية - مكونة من أستاذ انجليزي وأستاذ مصرى، وإن الأستاذ الإنجليزي ابتدرها في الاختبار بسؤالها عن رأيها في الحب! تقول إنها من جانبها تلعثمت في بادئ الأمر . . وإن الأستاذ المصرى غضب حتى احمرَّ وجهه من الغضب، وغادر اللجنة، فقال لها الأستاذ الانجليزي: لا عليك منه! استمرى!

وتقول: إنها وجدت نفسها تنطلق في الحديث - عن الحب - بلا تلعثم ولا حياء! وهو المطلوب!

\* \* \*

لم تكن الجامعة المصرية - كما كانت جامعة القاهرة تسمى في ذلك الحين - قد أنشئت لترعى القيم الإسلامية، ولا لترعى تنشئة الشبان والفتيات تنشئة إسلامية . إنما كانت قد أنشئت لتكون منبراً «حراً» . . يهاجم منه الدين والأخلاق والتقاليد مهاجمة شفهوية وعملية كلما أمكن، مع الحذر من الخروج السافر دفعة واحدة، حتى ترسخ أقدام الجامعة، وتصبح معلماً ثابتاً من معالم الحياة المصرية . . فلا عليها بعد ذلك أن تفعل ما تشاء علانية بدون موارد، فلن يصيبها يومئذ ما يقتلع جذورها بعد أن تثبت وتستقر . .

كانت مدرسة المعلمين العليا - الدنلوبية - قد استنفدت أغراضها في تخرج المدرسين الذين سيوالون تعليم الأجيال فترة غير قصيرة من الزمن، يبثون فيهم ما بُثَّ فيهم من قبل من نفور من الدين وأهله، وانسلاخ من آدابه وقيمه، وعبودية مقنعة أو سافرة للغرب . .

واليوم يراد توسيع الدائرة . . فالمدرسون مهمون نعم، ومطلوبون نعم، ولكن

المدرس بطبيعة نشأته محدود الأفق، محصور في دائرته لا يغادرها، تتحول حياته بعد حين إلى رتابة مملّة، فينغلق على نفسه، ويفقد حيويته وخصوبة فكره. . . إلا النادر القليل.

ونريد اليوم أن يكون لدينا «مفكرون» . . . «أحرار» . . . لينشروا «حرية الفكر» على مستوى المجتمع كله . . . رجاله ونسائه وكل من فيه . . .

ومدرسة المعلمين العليا بكل ما قدمت من «خدمات» عاجزة بطبيعة تكوينها عن أداء هذه المهمة الخطيرة . . . إنها الذى يقدر على ذلك هو الجامعة . . .

ومن هنا كانت الجامعة محددة الأهداف - عند مخططيها - من أول لحظة .  
ولقد فرح الناس بها فرحاً شديداً عند مولدها، وأقبل الشباب عليها بلهفة وتشوق، لأنها - في ظاهرها - كانت خطوة تعليمية وثقافية ضخمة، سدت ثغرة كانت موجودة في الحياة المصرية، بعد تجرد الأزهر، وانصراف الناس عنه، والعزلة التي فرضها عليه دنلوب . . . ثم لأمر آخر كان يخالج تلك النفوس ويزيد من فرحتها: لقد صرنا الآن مثل أوروبا . . . صارت لدينا جامعة!

ولم يكن كثيرون يتوقعون أن تصبح الجامعة منبرا لمهاجمة الإسلام، ولتخريج شباب يستخفون علانية بكل القيم الدينية، يستخفهم الغرور العلمي - أو الجهلى! - متكئين إلى أنهم «خريجو الجامعة»! أى «الطراز» الحديث! - فليس لأحد أن يتصدى لهم أو يناقشهم أو يخطئهم . . . وإلا فهو جاهل رجعي متخلف . . . فهنا - في الجامعة - وهنا فقط، يوجد العلم الحق، والأفق الواسع، والفكر المتحرر، والنظرة التقدمية، والروح العلمية، وإرادة الحياة الحرة . . . وفي كل مكان آخر - أياً يكن ذلك المكان - توجد الرجعية والجمود والتأخر، والعفن المتن الذى خلفته عصور الانحطاط، والجهل الفاضح الذى يعيش في الظلمات، غير منفتح على تيار الحياة الحي . . . ويكفى أهله سوءاً وجهالة وتخلفاً أنهم لا يعرفون «لغة أجنبية»! (١).

(١) ربما لا يعلم كثير من القراء أننى من خريجي تلك الجامعة، ومن دارسى اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي فيها، فلست أصدر فيها أقرر هنا عن عصبية معهية ضد الجامعة! إنها هى الحقيقة التى أحسبها - الآن - لم تعد خافية! ولا يتكر أحد أنه من الناحية «الثقافية» كانت الجامعة أوسع أفقا، وخريجوها أكثر احتكاكا بالأفكار «العالمية» . ولكنها لم تكن توجه طلابها لتقد الحضارة الغربية، واختيار الصالح من نهارها للاستفادة به في «نهضة» حقيقية، مع طرح الفاسد من هذه الثمار، إنها كانت على العكس من ذلك من أكبر أدوات «التغريب» . . .

ولعل الناس فوجئوا - في أول الأمر - بالمستشرقين الذين يقدحون في الإسلام، ويشوهون صورته، ويهاجمونه جهرة، أساتذة في كلية الآداب يدرسون أفكارهم للطلاب، تحت إشراف طه حسين «عميد الأدب العربي» ورئيس قسم اللغة العربية يومئذ، ومن بينهم المستشرق اليهودي «مرجوليوت» الذي كان يقول إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - مجهول النسب! فقد كانت العرب تطلق على من لا تعرف نسبه اسم عبدالله، ومن ثم فمحمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - هو ابن رجل مجهول النسب! وهي فرية لم يقلها أحد غيره من المستشرقين!<sup>(١)</sup>

ولعلمهم فوجئوا بطه حسين الذي قال في كتاب «الشعر الجاهلي»: «للتوراة والإنجيل أن يحدثانا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنها كذلك، ولكن هذا وذاك لا يثبت لهما وجوداً تاريخياً!»<sup>(٢)</sup> يصبح في مكان الصدارة في الجامعة الجديدة، ثم يقول في فترة لاحقة، في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»: إن مصر لم تكن قط جزءاً من الشرق، وإنما كانت دائها جزءاً من حوض البحر الأبيض المتوسط، وكل ما جاءها من الخير جاءها من حوض البحر الأبيض المتوسط، وكل ما جاءها من الشر جاءها من الشرق!

ولعلمهم فوجئوا بمن يقول إن قصص القرآن قصص «فنية» . . . يعني لا يتحدث عن حقائق تاريخية وأشخاص حقيقيين . . . إنما هي قصص فنية، مبتدعة من الخيال لأغراض فنية!<sup>(٣)</sup>

وفوجئوا . . . وفوجئوا . . . وفوجئوا . . . وثارت نائرة من نار منهم . . . ولكنها ثورة أضعف من أن تغير شيئاً من الواقع . . . ومضى الواقع الجديد يثبت أركانه، يمد له المخططون من وراء الستار، وتتبدل عليه مشاعر الناس . . . حتى جاء الوقت

---

(١) انظر فصل «الديانة المحمدية Mohamedanism» تأليف مرجوليوت، في موسوعة تاريخ العالم: Universal History of the World .

(٢) الأفكار الرئيسية في هذا الكتاب - وهي القول بأن الشعر الجاهلي الحقيقي كان أبلغ من القرآن، ولذلك طمس عليه المسلمون، وانتحلوا شعراً أقل منه بلاغة ونسبوه إلى الشعراء الجاهليين، «ليزعموا» بعد ذلك أن القرآن أبلغ من الشعر الجاهلي! هي أفكار مرجوليوت المشار إليه، انتحلها طه حسين! وقد صودر هذا الكتاب حين أثار ما أثار من ضجة. ولكن طه حسين سئل في حديث صحفي أجراه معه محمود عوض في مجلة صباح الخير قبل وفاة طه حسين بعام واحد عن أفكاره في هذا الكتاب فقرر أنه ما زال مؤمناً بكل حرف فيها!

(٣) الدكتور محمد احمد خلف الله في كتاب «الفن القصصي في القرآن الكريم».

الذي أصبح «الناس» هم أنفسهم خريجي الجامعة (أو الجامعات فيما بعد) . . فتجانست الأفكار والتصورات والدوافع وأنهاط السلوك! ولم يعد شيء مما يجري في الجامعات يثير ما يسمى «الرأى العام»!

\* \* \*

وإذا كانت كلية الآداب بالذات قد خصصت «لتفريخ» مثل هذه الأفكار والتصورات، وتخرّيج «مفكرين أحرار» يقومون «بواجبهم» في إزالة «العفن» و«التن» من الأفكار والعقول، ليضعوا بدلا منها المفاهيم الغربية عن الدين والأخلاق والتقاليد، ولينشئوا مجتمعا جديدا على هدى المخططين الذين يخططون من وراء الستار، قد «تحرر» أبناؤه وبناته وصاروا «طلقاء» يفعلون بالدين ما يراود منهم . . فإن كلية الحقوق قد أنشئت لتخريج أجيال تدعو إلى القانون الوضعي - لأنه تخصصها الذي ربيت عليه، ولم تعلّم غيره، فمن الطبيعي أن تتعصب له، وتعادي كل شيء غيره - وتبعد عن الأذهان نهائيا قضية تحكيم شريعة الله، لأنها غير واردة في أذهانهم أصلا . . ومن هؤلاء يكون رجال السياسة ورجال الحكم، والأسماء البارزة للامعة في المجال الاجتماعي .

أما الكليات العملية فهي تخرج الفنيين من أطباء ومهندسين وزراعيين وغيرهم . . ولكنها تخرجهم على الطريقة الغربية البحتة، أي «علمانيين»<sup>(١)</sup> لا يطبقون الحديث في أمور الدين - فضلا عن أن يتدينوا هم أنفسهم - لأنهم طلاب «علم» والدين خرافة، ولأنهم «واقعيون» والدين أساطير، ولأنهم «عقول مفكرة» لا ينبغي لها أن تتدنى إلى مستوى العوام الذين لم يطلعوا على «الحقائق العلمية» . . وفضلا عن ذلك فإنهم «يتميزون» عن أمثالهم من «العلمانيين» في الغرب، بكونهم يحتقرون لغة بلادهم، لأنها لغة متخلفة لا تصلح للعلم، ويتحدثون - من ثم - بلغة السادة المتحضرين، ويرفضون أن ينظروا في أي كلام مكتوب بالعربية، لأن العربية أصلا هي لغة الجمود والتخلف، ولو كان المكتوب بالعربية هو القرآن . . بل إن هذا الكتاب بالذات هو أشد ما ينفرون من قراءته أو النظر إليه!

---

(١) لفظة «علمانية» هي ترجمة عربية مضللة لكلمة Secularism كما أشرنا من قبل، والأولى أن تسمى «اللا دينية» انظر - إن شئت - فصل «العلمانية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة». وما هو جدير بالذكر أن هذه الترجمة المضللة كانت من صنع اللبنانيين المسيحيين!



وهكذا تتوأكب الكليات وتتوأكب التخصصات . . لتخرج في النهاية الجيل المطلوب لأعداء الإسلام! الجيل المتجه بكليته إلى الغرب، النافر من «الرجوع» للإسلام<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وكما كان من أهداف الجامعة تخريج الجيل الجديد من «الرجال المتحررين» - الذين أداروا ظهورهم للإسلام وولوا وجوههم شطر الغرب - سواء من كلية الآداب أو الحقوق أو الكليات العملية، فقد كان من أهدافها كذلك تخريج الجيل الجديد من «النساء المتحركات» اللواتي انسلخن من الدين والأخلاق والتقاليد . . فقد كانت «الفتاة الجامعية» . . «المثقفة» . . «المتحررة» . . عنوانا للتغير المطلوب، ودافعا في الوقت ذاته إلى مزيد من «التحرر» المطلوب!

ولكن هنا تأتي وسائل الإعلام الأخرى لتمد «قضية المرأة» باللهيب الدائم الذي لا يخبو أواره، حتى يتم المطلوب كله، وفي أقصى صورة ممكنة . .

فلئن كان «اللهيب» قد ابتدأ - أو اشتعل - في مسرحية المظاهرة النسائية التي أحرقت الحجاب في ميدان الإسماعيلية أمام ثكنات الجيش الإنجليزي، فالصحافة المصرية - اللبنانية المسيحية المارونية<sup>(٢)</sup> - توأكب «القضية» وتدفعها دائما إلى الأمام.

إن عدسة الصحافة تلاحق «الفتاة الجامعية» لترصد جميع تحركاتها . . وتختار - بطبيعة الحال - الوجوه الجميلة لتجعلها «إعلانا» عن القضية . . وتتنوع التعليقات، ولكنها كلها تبارك تلك الخطوة الجبارة التي خطتها الفتاة المصرية، والتي حطمت فيها القيود والحواجز، وأخرجت المرأة المصرية من سجن «التقاليد»

---

(١) لا ينبغي ذلك بطبيعة الحال أن يكون من بين ذلك الجيل، أو تلك الأجيال، من لم يخضع لعملية التغريب، ويقى محافظا على إسلامه وذاتيه. ولكنهم - قبل «الصحة الإسلامية» التي ستحدث عنها في الفصل القادم - كانوا قلة لا يحسب لهم حساب.

(٢) وكانت هناك كذلك صحافة «مصرية» صميمة، ولكنها كانت - بوعي أو بغير وعي - تقتفي أثر الصحف اللبنانية المسيحية المارونية التي أرسدت «القواعد الصحفية» في مصر. بل قد تزيد عليها تبذلا لتكسب مزيدا من القراء من «الأجيال الصاعدة» من الأولاد والبنات!

المظلم، ومن عقلية القرون الوسطى المظلمة<sup>(١)</sup>.. لترى النور.. لتتحرر..  
لتشارك في أمور المجتمع!

وفي ظل تلك التعليقات تسنح الفرصة - وهي دائما سانحة - لمهاجمة تلك  
«التقاليد» التي تجعل المرأة حبيسة البيت، مستعبدة للرجل، ناقصة الأدمية،  
مهضومة الحقوق، لا عمل لها إلا الحمل والولادة والرضاعة و«خدمة» الرجل وتربية  
الأولاد..!

ولا بد من وقفة هنا لبيان حقيقة، سبقت الإشارة إليها، ولكنها تحتاج إلى مزيد  
من الإيضاح..

إن المرأة كانت مظلومة بالفعل، وكانت تعامل معاملة سيئة بالفعل، وكانت  
تعتبر بأنها جاهلة، وبأن مهمتها هي أن تحمل وتلد ولا شأن لها بشيء آخر..  
وكانت هذه نظرة «جاهلية» تسربت إلى المجتمع المسلم حين تخلف عقيدا، وفسد  
كثير من مفاهيمه الإسلامية؛ والجاهليات تنجح - غالبا - إلى تحقير المرأة وازدراؤها،  
إلا أن تنجح - كالجاهلية الإغريقية الرومانية، ووريتها الجاهلية المعاصرة - إلى  
تدليل المرأة وإفسادها خلقيا لتصبح مسرحا لشهوة الرجل..

وكان وضع المرأة في مصر - وفي العالم الإسلامي كله - في حاجة إلى تصحيح،  
لرد الكرامة الإنسانية إليها، ووضعها في المكانة اللائقة بها بوصفها «إنسانة» كرمها  
الله حين قرر الكرامة لكل بني آدم: «ولقد كرمنا بني آدم..»<sup>(٢)</sup> وسأواها في  
الإنسانية بالرجل حين قرر أنه «بعضكم من بعض»<sup>(٣)</sup> وقرر لها احتراماً وتوقيراً

---

(١) تعبير «القرون الوسطى المظلمة» من تعبيرات الغزو الفكري التي تجري - بطلاقة! - على ألسنة المستعبدين  
للغرب. ويقصد بها - في حسم - الإسلام! وأوروبا نصف - بحق - قرونها الوسطى بأنها مظلمة. لأنها كانت مظلمة  
حقا. وتقول - بحق - إن «الدين» عندها كان سبب ذلك الظلام، وإن التحرر منه هو الذي أخرجها من قرونها  
المظلمة، لأن ذلك الدين لم يكن ربانيا، إنما كان دينا بشريا - جاهليا - من صنع الكنيسة. يحتوي من الحرافات  
والخزعيلات والافتراء على الله مالا تستسيغه فطرة سليمة ولا فكر «حر». أما المستعبدون للغزو الفكري فيسون  
أولا أن هناك فارقا رئيسيا بين الإسلام - الدين الرباني غير المحرف - وبين دين الكنيسة المحرف. وينسون ثانيا أن  
القرون الوسطى المظلمة في أوروبا كانت هي الفترة التاريخية المشرقة بنور الإسلام. سواء في المشرق أو المغرب  
والاندلس، حيث تعلمت أوروبا لتخرج من الظلمات إلى النور!

(٢) سورة الإسراء [٧٠].

(٣) سورة آل عمران [١٩٥].

خاصا في وضع الأمومة من أجل ما تتكبده في الحمل والرضاعة: «حملته أمه كرها ووضعته كرها»<sup>(١)</sup> وجعل الجنة تحت أقدامها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

وكان هذا الوضع المنحرف عن أوامر الإسلام وتوجيهاته هو هو الذي فتح الثغرة للغزو الفكري، وهو هو الذي استغله الشياطين لينفذوا منه إلى المجتمع الإسلامي - في كل بلاد الإسلام - وينفذوا مخططاتهم فيه . .

ولو كان المجتمع الإسلامي يطبق الإسلام في صورته الصحيحة، فمن أين كان ينفذ الشياطين؟

كانت أوروبا - في جاهليتها - ستصبح صيحتها؛ و«تحرر» نساءها من الدين والأخلاق والتقاليد؛ وتخرج المرأة هناك سافرة متبرجة عارية؛ وتملأ الشوارع والمصانع والمكاتب والدواوين؛ وتغرق - هي والرجل - في علاقات دنسة، تدنس الجسد والروح؛ وتتفكك الأسرة؛ ويتشرد الأطفال؛ وتنتشر الجريمة والخمر والمخدرات والقلق والأمراض العصبية والنفسية والانتحار والجنون . . ويظل المجتمع الإسلامي في تماسكه، ورفعته ونظافته وتطهره، ينظر رجاله ونساؤه إلى تلك الجاهلية نظرة استنكار ونفور واستعلاء . .

وربما قال قائل: إن مابدا اليوم من عوار الجاهلية المعاصرة لم يكن واضحا للعيان يوم بدأت «الحركة النسائية» في العالم الإسلامي، ومن ثم كان العالم الإسلامي عرضة للافتتان «بقضية المرأة» في وجهها «الإصلاحية»، قبل أن يظهر ما تحويه في باطنها من الفساد . . وهذا قول مردود . .

ففي وقت مبكر نسبيا - عام ١٩٢٩م - كتب «ول ديورانت»، الكاتب الأمريكي، في كتابه «مباهج الفلسفة» هذه الكلمات:

«فحياة المدينة تفضي إلى كل ميثبط عن الزواج، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية، وكل سبيل يسهل أداءها. ولكن النمو الجنسي يتم مبكرا عما كان من قبل، كما يتأخر النمو الاقتصادي . . . ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن

(١) سورة الأحقاف [١٥].

القديم ، وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعاً للسخرية ، وتختفي الحياء الذي كان يضافي على الجمال جمالا ، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم ، وتطالب النساء بحققها في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال ، ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفاً ، وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس . .

« . . . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزهرة<sup>(١)</sup> ، وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الإنسان . وهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب المكشوف ، تلك التي تحاول كسب المال باستشارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين - وهم في حُسمى الفوضى الصناعية - من حُسمى الزواج ورعايته للصحة» .

« . . . حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار ، اندفعت بما لم يسبق له مثيل في تيار المغامرات الواهية . فهي واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب وحفلات من الشمبانيا في نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية . وقد ترجع حرية سلوكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريرتها الاقتصادية ، فلم تعد تعتمد على الرجل في معاشها . وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله في فنون الحب . فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذي يجعل الزوج المنتظر متردداً ، إذ كيف يمكن أن يكفي أجره المتواضع للإنفاق عليها معا في مستواهما الحاضر من المعيشة؟»<sup>(٢)</sup> .

« . . . ولندع غيرنا من الذين يعرفون نجبرونا عن نتائج تجاربنا . . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . . فنحن غارقون في تيار من التغيير ،

---

(١) يقصد صناعة البغاء . ويلاحظ أنه يلتمس لها المبررات رغم الأسى الذي يحسه على الفتاة الأمريكية!  
(٢) يقصد أن الرجل قد يرفض الزواج من الفتاة الفاسدة الأخلاق . ولكن الضغط الاقتصادي يجعله يقبل في النهاية بعد تردد!

سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في اختيارها . وأي شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم . . .»<sup>(١)</sup> .

فإذا كان هذا قد كان واضحا عند رجل غير مسلم - بل رجل ملحد ساخر بكل القيم الدينية والأخلاقية - مثل ول ديورانت ، قبل أكثر من نصف قرن من الزمان ، فقد كان الأخرى أن يكون واضحا تماما عند المجتمع المسلم ، الذي يهتدي ببصيرته الإيمانية ، المستمدة من إيمانه بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والذي يرى حتمية السنن الربانية في الحياة البشرية حين يقدم الناس لها الأسباب ، ويؤمن بالنتائج السيئة المترتبة على فساد الأخلاق في حياة الأمم وحياة الأفراد . .

ولكن القضية أن المجتمع الإسلامي كان بعيدا عن حقيقة الإسلام . .  
ومن هنا وُجِدَت الثغرة التي ينفذ منها الشياطين . .

وحين نفذوا فإنهم لم يقولوا إن المجتمع قد بعد عن الإسلام الصحيح وينبغي أن يعود إليه . . فما لهذا جاءوا ، وما لهذا أطلقوا صيحاتهم ! إنها هم كانوا يعملون - بجهدهم كله - ليخرجوا هذه الأمة من الإسلام ، وليرسموا لها الطريق الذي يبعدها نهائيا عنه ، ويمنعها - بكل سبيل - من العودة إليه . .

ولئن كانوا قد استخدموا الإسلام في مبادئ حركتهم - كما استخدمه قاسم أمين وغيره - ليترسوا به من قذائف المعارضين ، الذين سيرمونهم - ولا شك - بالمروق من الدين ، فإن هذه المرحلة سرعان ما استنفدت أغراضها ، ووقفوا موقفهم الحقيقي من الإسلام ، وهو موقف النبذ والمعارضة والهجوم ، على مرحلتين متتابعتين - بحكم الظروف - الأولى هي مهاجمة «التقاليد» . . والأخرى هي مهاجمة «الدين» باسمه الصريح .

في مرحلة الهجوم الأولى هاجموا التقاليد التي كانت ظالمة بالفعل ، من تأثير الردة الجاهلية التي كان المجتمع الإسلامي قد ارتد إليها نتيجة تخلفه العقيدي ، وعدم تطبيقه الإسلام على صورته الحقيقية ، ولكنهم حرصوا على أن يُدخلوا في دائرة الهجوم التقاليد الإسلامية الحقيقية التي قررها الله ورسوله ، جنبا إلى جنب مع التقاليد الفاسدة ، ويطلقوا عليها جميعا أنها تقاليد «بالية» ينبغي أن تحطم وأن تغير ،

---

(١) مقتطفات سريعة من كتاب «مباحج الفلسفة» لول ديورانت . ترجمة عبد العزيز جاويد وفي الأصل توسع في هذا الموضوع استغرق ما بين ص ١٢٦ و ص ٢٣٦ من الترجمة العربية .

كما حرصوا على أن يَسْمُوها كلها بأنها من تراث العصور الوسطى «المظلمة»، التي ينبغي لها أن تمحي من الوجود في العصر الحديث.. عصر النور.. والتحرر.. والانطلاق!

وكان في هذا الهجوم - على هذا النحو - خبث ماكر ولاشك. فحقيقة إن كلا النوعين من التقاليد - الصحيح والفاسد - كان قائما في الحياة الإسلامية، بعضه إلى جانب بعض، ولكن كان من السهل - لو خلصت النيات - فرز هذه من تلك، والإبقاء على التقاليد الحقة، المستمدة بالفعل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومحاربة التقاليد الفاسدة، التي جاءت من الردة الجاهلية في شأن المرأة، حتى لو اقتضى الأمر خوض معركة مع المتمسكين بها، فإنها برز «العلماء» في حياة هذه الأمة بالمعارك الحادة التي خاضوها ضد انحرافات المجتمع، ولو كان المجتمع كله غارقا فيها، وتركوا بصماتهم الإصلاحية بمقدار ما بذلوا من جهد، وبمقدار ما كان هذا الجهد مخلصا متجردا لله.

لكن الخبثاء استغلوا ما غشي الإسلام من غبش في نفوس معتقيه، فلم يعودوا يميزون بين الحق والباطل، واستغلوا بصفة خاصة جهالة «المثقفين»، فهاجموا الظلم البين الذي يباه الله ورسوله، وأدخلوا معه تقاليد الإسلام الحقيقية على أنها من الظلم الذي ينبغي إزالته، وزعموا - في بادئ الأمر - أنها ليست من الدين، إنما هي من وضع رجال متزمتين، اخترعوها من عند أنفسهم وألصقوها بالدين! حتى إذا زرعوا كرهها والنفور منها في قلوب أولئك «المثقفين»، وضمنوا لهذا النفور الثبات والرسوخ في قلوبهم، صارحوهم في المرحلة الأخيرة أنها من الدين! وقالوا لهم جهرة إن «الدين» ذاته هو البلاء الذي ينبغي التخلص منه ونبذته وراء الظهور! هاجموا ترك المرأة جاهلة بلا تعليم.. وكان هذا بالفعل من التقاليد الفاسدة التي انزلت إليها المجتمع الإسلامي بعيداً عن تعاليم الإسلام.

وهاجموا احتقارها وازدراءها، وتعييرها بأنها تحمل وتلد ولا شأن لها بشيء آخر؛ وكان هذا بالفعل من التقاليد الفاسدة المضادة تماما لتعاليم الإسلام. وهاجموا تزويجها بغير إذنها وبغير رغبتها، وكان هذا كذلك من التقاليد الفاسدة المخالفة للنصوص الصريحة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكنهم - إلى جانب ذلك - هاجموا حججها، وهاجموا استقرارها في بيتها، وعدم

خروجها إلا للضرورة، وصوروا ذلك بأنه سجن وضعها الرجل فيه أنانية منه وظلماً، بينما هي أوامر صريحة من الله سبحانه وتعالى لأمهات المؤمنين ولنساء المؤمنين معهن . وطالبوا بخروجها إلى «المجتمع» سافرة «متحررة» بغير قيد، وهو أمر نهى الله عنه نهياً صريحاً في آيات مبينات :

«وقرن في بيوتكن، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى»<sup>(١)</sup>.

«يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن»<sup>(٢)</sup>.

«وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن»<sup>(٣)</sup>، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن . . . الآية»<sup>(٤)</sup>.

ولكن المهاجرين - في الجولة الأولى - خلطوا الحابل بالنابل - عن عمد - وجعلوا القضايا كلها تقاليد عتيقة بالية عفي عليها الزمن، ولم يعد يستساغ وجودها في عصر الحرية والنور!

أما في الجولة الثانية (وسياتي الحديث عنها) فقد أصبح الدين ذاته هو الرجعية التي ينبغي أن ننبتها لنكون «تقدميين»!

\* \* \*

قلنا إن الصحافة - سواء اللبنانية المسيحية المارونية، أو المصرية الصميمة التي يشرف عليها من يحملون أسماء إسلامية<sup>(٥)</sup> - قد تابعت «قضية المرأة» باهتمام ملحوظ، وحرصت على تغذية المعركة بالوقود الدائم الذي لا يفتقر، كما حرصت على متابعة «الفتاة الجامعية» وهي تشق طريقها «الصاعد» الذي تدوس فيه كل المقدسات لكي تصل إلى «النور»!

(١) سورة الأحزاب [٣٣].

(٢) سورة الأحزاب [٥٩].

(٣) الخمار كما هو معلوم من اللغة هو غطاء الرأس. والجيب في اللغة هو فتحة الصدر، فالمسلمة بنص الآية تغطي رأسها بالخمارة، وتغطي صدرها كذلك. أمراً من عند الله، لا من عند الرجل المتزمت الذي يظلم المرأة بأنانيته.

(٤) سورة النور [٣١].

(٥) كان هناك «مسلمون» لا يربطهم بالإسلام شيء، وكان هناك متمسلمون مثل «روز اليوسف» وهي يهودية أو مسيحية سمت نفسها «فاطمة اليوسف».

وكان من بين ما حرصت عليه تلك الصحافة - والمجلات الأسبوعية بصفة خاصة - إبراز «الروح الجامعية» . .

ولا يتبادر إلى ذهن أحد أن المقصود بالروح الجامعية هو روح البحث العلمي ، والتعمق في أخذ الأمور، وعدم التسرع في إصدار الأحكام حتى يتثبت الباحث من أن لديه من الدلائل ما يسند الحكم الذي وصل إليه . . إلى آخر هذه المعاني التي تخطر على البال حين تذكر «الجامعة» وتذكر «الروح الجامعية» . . والتي كان نصيب «الجامعيين» منها في غالبية الأحيان ضئيلا للغاية . . !

إنما «الروح الجامعية» - اعلم هداك الله - هي ممارسة الاختلاط في الجامعة بين البنين والبنات، ومقدار ما يقع في هذه الممارسة من تحرر وانطلاق، وانعتاق من سجن التقاليد البالية التي تفصل شقي المجتمع بعضهما عن بعض، وتضع بينهما الحواجز التي تعيق الأمة كلها عن التقدم والارتقاء . . !!  
وحذار أيتها الفتاة أن تنهزمي في المعركة! فالمجتمع كله ينظر إليك ويرقب نتيجة المعركة .

حذار أن تغضي بصرك! فغض البصر معناه عدم الثقة بالنفس، وهو من مخلفات القرون الوسطى المظلمة، التي كانت تنظر إلى المرأة على أنها دون الرجل . . فتغض بصرها<sup>(1)</sup>! أما أنت يا حاملة الراية فارفعي رأسك عاليا، لتثبيتي أنك مساوية للرجل في كل شيء، وأنتك نذله في كل شيء . .  
شيئان ينبغي أن «تحرري» منها الفتاة الجامعية . . غرض البصر . . والحياء!

\* \* \*

وفتاة الجامعة ينبغي كذلك أن تكون رشيقة خفيفة الحركة!  
فإليك الأزياء . . انتقي منها ما يناسبك . . وما يظهر رشافتك . . وأظهري من «زينتك» بقدر طاقتك!

(1) غرض البصر كما هو معلوم من أمر هذا الدين، هو أمر رباني للرجال والنساء معا: «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن»، فلا دخل لهذا الأمر بالدونية! إنها هو الاحتشام اللائق «بالإنسان» لكيلا يتحول إلى حيوان شهوان. وقد كان من أكثر من الح على الفتاة أن تخلع حياءها ولا تغض من بصرها الكاتب الصليبي سلامة موسى. لغاية في نفسه مفهومة وواضحة. بينما تروى كتب السيرة عن قمة البشرية محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان أشد حياء من العذراء!



لا حرج عليك . . ماذا تحشين؟!  
 تحشين الدين؟ والأخلاق والتقاليد؟  
 تعالي معا نحطم الدين والأخلاق والتقاليد، التي تريد أن تكبلك في حركتك  
 فلا تكوني رشيقة كما ينبغي لك!  
 وينبغي كذلك أن تكوني جذابة!  
 فهكذا المرأة «المتحررة» من صفاتها أن تكون جذابة . . في مشيتها . . في  
 حركتها . . في حديثها!

ألا ترغين أن «ينجذب» إليك فتى الأحلام . . شريك المستقبل؟!  
 إن لم ينجذب هذا، فلينجذب غيره . . المهم أن يكون هناك دائما من يتطلع  
 إليك . . ويعجب بك . . ويرغب فيك!  
 وبدأت «الفتاة الجامعية» تتخلع في مشيتها وتتكرس، وتتخلع في حديثها  
 وتتكرس<sup>(١)</sup>، وأصبح هذا عنوان «المرأة الحديثة» أو «المرأة المتحررة» التي تملأ  
 الشارع، فيعج الشارع بالفتنة الهائجة التي لا تهدأ ولا تستقر . . وهو المطلوب!

\* \* \*

أما البيت . . فأخر ما تفكر فيه الفتاة الجامعية . .  
 لقد نعت لها بكل نعت مفرز منفر . . حتى أصبح البقاء فيه هو المعرة التي لا  
 تطيق فتاة جامعية أن تلتصق بها . .  
 البيت هو السجن . . هو الضيق . . هو الظلام . . هو التأخر . . هو  
 الرجعية . . هو «عصر الحريم» . . هو التقاليد البالية . . هو القرون الوسطى  
 المظلمة . . هو دكتاتورية الرجل . . هو شل المجتمع عن الحركة، ودفعه إلى  
 الورا . . !

إنها تتعلم الفتاة الجامعية لتعمل . . لا لتبقى في البيت كما كانت تصنع جدتها

---

(١) يقول الله سبحانه وتعالى مخاطبا «أمهات المؤمنين»: «يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض» [سورة الأحزاب: ٣٢] «ومن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم، وأمهات المؤمنين، وفي عصر الذروة الذي أرتفع فيه المجتمع الإسلامي إلى قمم لم تصل إليها البشرية في أي جيل من أجيالها، السابقة أو اللاحقة، فكيف بفتاة لا تعرف عن الإسلام إلا اسمه، ويجتمع شارد عن الإسلام؟ هل كان لهذه التوجيهات المسمومة إلا نتيجة واحدة: أن ينحل المجتمع، ويقضي على ما بقي فيه من دين وأخلاق وتقاليد؟»

الجاهلة المتأخرة الرجعية القابعة في سجن التقاليد . . المستعبدة للرجل . .

وحين تعمل تُنمى شخصيتها . . تصبح إنسانة ناضجة!

أما حين تبقى في البيت . . فلاي شيء تبقى؟! لتطبخ وتغسل . . يا للعار!! أو تحمل وتلد وترضع . . إن هذا الأمر - حتى لو حدث - لا ينبغي أن يمنعها من العمل . فالمرأة «الحديثة» قد تغلبت على هذه المشكلة، ونسقت بين حياتها الزوجية وبين العمل، فلم يعد شيء يعوقها عن العمل بعد الزواج . . أما قبل الزواج فالعمل، ولا شيء غير العمل!

ولسنا هنا نناقش هذه اللوثة . . ولا الآثار التي ترتبت على «ترجيل المرأة» في أوروبا، وإفساد فطرتها، وتغييرها من أن تكون على فطرتها التي فطرها الله عليها، ودفعها دفعا إلى التنصل من كل ما يتعلق بأنوثتها من قيم وممارسات (وتركيز الأنوثة كلها في لحظة الجنس الدنسة المسعورة) ودفعها إلى التشبه بالرجل، وتعليمها على مناهج الرجل، وتوجيه مشاعرها إلى العمل لا إلى البيت . .

لا نناقش هنا هذه اللوثة . . ويكفي أن نشير إلى أن المرأة الأوروبية نفسها قد بدأت تتعب من لوثتها، وتحن إلى العودة إلى بيتها وفطرتها . . وبدأت تدرك أن اللعبة كلها لم تكن لصالحها . . (١)

إنما نتبع فقط - في بلادنا - خط إخراج الأمة الإسلامية من الإسلام . . وتركيز المخططين على «قضية المرأة»، لعلمهم أنها من أفعال الوسائل في الوصول إلى الهدف المطلوب . .

\* \* \*

لم تكن الصحافة وحدها هي التي تعمل . . وإن كانت من أهم الأدوات . .  
إنما القصة والمسرحية والسينما والإذاعة . . كلها أدوات . .  
فأما القصة والمسرحية فقد بدأتنا - كما كان متوقعا - بالترجمة، وانتهتا بالتأليف .  
وأما السينما فقد ظلت أجنبية فترة غير قصيرة من الوقت، حتى قام ناس فقالوا إن من العار علينا ألا تكون لنا سينما وأفلام «وطنية» أي متكلمة باللغة العربية (نقصد العامية!) فقامت «الجهود» وتكاتفت حتى برزت تلك الأفلام إلى الوجود . .

(١) ناقشت هذه القضايا في أكثر من كتاب . منها «الإنسان بين المادية والإسلام» و«منهج التربية الإسلامية» الجزء الثاني، و«مذاهب فكرية معاصرة» . ولا يتسع المجال هنا لإعادة المناقشة . فحسبنا هنا التقرير .

فأما الإذاعة فقد جاءت متأخرة نوعاً ما . . ولكنها سرعان ما لحقت الركب،  
وشاركت في الموكب «الكبير» . .

لقد تكاتفت الأدوات كلها للوصول في النهاية إلى هدف واحد . . . . .  
الامة عن دينها وأخلاقها وتقاليدها . . وإنشاء مجتمع «جديد» لا يحفل شيئاً بالقيم  
الدينية؛ لا يجعلها نصب عينيه، ولا يستمد منها منهج حياته، ولا يلجأ إليها في  
تكوين أفكاره ولا اهتماماته ولا عاداته ولا أنماط سلوكه . بل إن ذكرها - في أي وقت  
- فهو ذكر السخرية والاستهزاء والاستخفاف . . .

ولا نحتاج هنا أن نتحدث عن هذه الوسائل (خاصة بعد أن أضيف إليها  
التلفزيون والفيديو) وعن آثارها المدمرة في حياة الأمة، فهذا واقع مشهود، يشهده  
الناس كل يوم وكل لحظة، ويرون بأعينهم آثاره في أولادهم وبناتهم، ويرون  
بأعينهم كيف يعجزون عن صد آثاره الملتفة، ووقاية أولادهم وبناتهم من تلك  
الآثار . . .

إنما نذكر فقط «عينات» سريعة قد تعين في تصور التخطيط الذي يكمن وراء  
التنفيذ . . .

● كتبت «روز اليوسف» في مذكراتها - وكانت تقوم بالتمثيل على المسرح قبل  
اشتغالها بالصحافة وإصدار مجلتها التي تحمل اسمها - كتبت تقول إنها طلبت إعانة  
لمسرحها من الحكومة، وكانت مصر إذ ذاك خاضعة للنفوذ البريطاني المباشر،  
فصحبها المندوب السامي البريطاني وهو الحاكم الحقيقي في مصر في ذلك الحين  
أن تذهب إلى الريف، وتعرض مسرحياتها هناك، فإن فعلت ذلك نالت الإعانة  
في الحال! (١)

والهدف واضح . . .

فالريف المصري في ذلك الوقت «مسلم» في عمومه، محافظ على بقايا من الدين  
والأخلاق، ومحافظ بشدة على «التقاليد» المستمدة من الإسلام (بصرف النظر عما  
غشاها في بعض الجوانب من انحرافات) ومن أشد ما يحافظ عليه الريف من  
التقاليد - وفي الصعيد خاصة - قضية الحجاب وقضية العفة وقضية العرض . . .  
وقضية صيانة المرأة بصفة عامة من التبذل والانحلال و«الانفلات» . . .

(١) وهذا يفسر لنا حرص الفرق التمثيلية في ذلك الوقت على أن تجوب الريف، مع قلة من يفهمون «الفن»

إذ ذلك!

وبقاء الريف على هذه الصورة عقبة ولا شك أمام المخططين. فالريف هو معظم مصر. ولن يؤتمى المخطط ثماره كاملة إن فسدت العاصمة وحدها، وبقي الريف سليما حتى ولو في محيط التقاليد. . فإن هذا يطيل الأمر على المخططين، ويستنفد من وقتهم وجهدهم شيئا غير قليل (لم تكن الإذاعة قد أنشئت بعد، ولا التليفزيون بطبيعة الحال) فمن هنا يوجه المندوب السامي البريطاني «روز اليوسف» - وهو أعلم بحقيقتها، وحقيقة دورها - أن تذهب إلى الريف، لعل مسرحها ومسرحياتها أن ترزحه قليلا عن تقاليد الصامدة، فيأخذ في «الذوبان» . . فتتفرج الأمور<sup>(١)</sup>.

● نجيب الريحاني ممثل فكاهي موهوب، وصاحب «مدرسة» في التمثيل كما يقول نقاد المسرح. ولكنه صليبي لا ينسى صليبيته، وإن غلفها «بالفن» . . بل هي عن طريق «الفن» تبلغ مداها الخبيث دون أن يحس الناس بالأمر، لأنهم مشدودون إلى البراعة الفنية المؤثرة، فيتلقون التأثير الخفي وهم في نشوة الإعجاب. . فينساقون وراء التأثير.

له فيلم سينمائي<sup>(٢)</sup> يسخر فيه من مدرس اللغة العربية ومن اللغة العربية سخرية ماكرة - مقصودة بلا شك - فيصور مدرس اللغة العربية بائسا مسكينا تبعث كل موافقه على السخرية به، ولا يثير الاحترام عند أحد، ويجعل فتاة مائعة تحاول أن تقرأ نصا عربيا في درس المطالعة فتخطئ أخطاء مضحكة - يضحك لها الجمهور الغافل - ولكنها تقدم في سياق الأحداث بالصورة التي توحى للمشاهد أن البنت معذورة. . فاللغة هكذا. . صعبة على الأفهام! لا يمكن للمتعلم أن يستوعبها مهما بذل المعلم من الجهد!

---

(١) لا نعجب إذا وجدنا الكاتب اليهودي الأمريكي «مرو برجر» في كتابه «العالم العربي اليوم» الذي صدر سنة ١٩٦٢ ينص نضا على أن المدينة ينبغي أن تصب خلاصة «تجربتها الحضارية» في الريف والبادية، بعد أن يقرر - بوضوح - أن الإسلام قد ضعف تأثيره في المدينة ولكنه مازال باقيا على قوته في الريف والبادية! ولا نعجب كذلك من حرص جمال عبد الناصر على توصيل الكهرباء إلى الريف المصري - وإلى الصعيد خاصة - عن طريق توليد الطاقة من السد العالي، ليشاهد الريفيون التليفزيون! وحرصه كذلك - في حربه مع اليمن - على إدخال التليفزيون إلى اليمن!

(٢) اسمه «غزل البنات».

● جورجى زيدان هو أحد مؤسسي دار الهلال (والآخر هو أخوه إميل زيدان) وهما - كما أسلفنا - من اللبنانيين المسيحيين المارونيين الذين اتجهوا إلى تأسيس الصحافة في مصر. ولكن جورجى زيدان يزيد - على كونه صحفياً - أنه يكتب قصصاً وروايات «إسلامية!» تتناول أحداث التاريخ الإسلامى في ثوب فني.. وقد تناول في رواياته عدة أحداث تاريخية، وله قدر من البراعة الفنية - بالنسبة لوقته على الأقل - تجعل القارئ يتابع رواياته في شغف وتأثر..

فكيف تناول أحداث التاريخ الإسلامى؟!

إنه ما من مرة ينسى فيصور المسلمين في موقف «إسلامى» يبعث على الإعجاب بهم، أو تقديرهم واحترامهم، فضلاً عن أن يبعث في المسلم الاعتزاز بأعجاز الإسلام..

إنهم - أي المسلمون - إما غارقون في الطرب واللهو، والجري وراء شهواتهم، سواء شهوة الجنس أو شهوة الملك أو شهوة المال.. وإما واقفون مواقف جادة تثير الإعجاب، لأن واحداً من «أهل الكتاب» - سواء كان يهودياً أو نصرانياً - هو الذي يشير عليهم ويخطط لهم، ويقف وراءهم يساندهم في التنفيذ! فإن لم يكن ذلك الواحد من أهل الكتاب حاضراً في الصورة، فالمسلمون في هولهم وعبتهم، وخلافاتهم وشجاراتهم، ومؤامراتهم الهابطة.. يسلمون أنفسهم إلى الضياع.. وهذا متى؟ في أشد الأوقات التي كان المسلمون فيها ممكنين في الأرض، تدين لهم الدنيا بالطاعة والإذعان!!<sup>(١)</sup>

● تخصص مجموعة من القصصيين والمسرحيين والسينمائيين في موضوع معين، يتكرر بصور مختلفة، خلاصته أن فتاة - جامعية في الغالب، ومتعلمة بصفة عامة - لها «صديق».. يقع بينهما ما يقع - على درجات مختلفة من الوقوع! - ثم يتقدم للزواج منها فيرفضه أبواها - الريفيان في الغالب، والرجعيان التقليديان بصفة عامة - إما لأنهما يرتبان لها زواجا معيناً بعقليتهما المتخلفة، وإما لأنهما - حرصاً منها على «التقاليد» - يشعران بميل الفتاة له فيرفضانه من أجل هذا السبب بعينه.. ثم

(١) مما يؤسف له أن الذين يتجهون إلى «مسرحة» أحداث التاريخ الإسلامى للإذاعة أو التلفزيون من «المؤلفين»، يتجهون أول ما يتجهون إلى أعمال جورجى زيدان! فإن لم يجدوا فيها طلبتهم بحثوا عن مرجع آخر!

تمضي القصة أو المسرحية أو الفيلم بإصرار الفتاة على موقفها، بصور مختلفة من الإصرار، أدناها رفض الخطيب الذي يقدمه لها والداها، وأشدّها ترك البيت والهروب مع «الصديق» . . . وينتهي الأمر في كل حالة بتنفيذ ما أصرت عليه الفتاة ورضي الوالدين، أو تسليمهما لأمر الفتاة التقدمية إذعانا للأمر الواقع، أو اقتناع الأم خاصة، ومحاولة إقناعها الأب بأنها كانا مخطئين، وأن الفتاة على حق! (١) .

● تخصص مجموعة من الكتاب - في وقت من الأوقات (٢) - في القول بأن المجتمع لم يكن نظيفا من الجريمة الخلقية وقت أن كان محافظا على التقاليد . . . وأن الفاحشة كانت تقع تحت ستار الحجاب . . . وذلك رداً على الذين كانوا يقولون إن السفور والاختلاط سيؤديان حتما إلى التحلل الخلقي .

وكون المجتمع - أي مجتمع مهما كان محافظا - لا يخلو من وقوع جريمة فيه، فهذه حقيقة . . . يكفي شاهدا لها أن الفاحشة وقعت في مجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنه من التبجح الغليظ أن يقال إنه مادامت الفاحشة تقع هنا وتقع هناك، فلا فائدة في الدين، ولا فائدة في الأخلاق، ولا فائدة في التقاليد، ولا قيمة لكل التوجيهات الخلقية! فهناك فارق ضخم بين مجتمع لا تقع فيه الجريمة إلا شذوذا يستنكر، وتنال عقوبتها الرادعة حين تقع، ومجتمع يعج بالفاحشة حتى تصبح العفة فيه هي الشذوذ المستنكر!

● كتب إحسان عبد القدوس في إحدى توجيهاته التي كان يبثها في مجلة «روز اليوسف» (٣) : إنني أطالب كل فتاة أن تأخذ صديقها في يدها، وتذهب إلى أبيها، وتقول له : هذا صديقي !

● كتب أنيس منصور في إحدى مقالاته في أخبار اليوم إنه زار إحدى الجامعات الألمانية ورأى هناك الأولاد البنات أزواجا أزواجا مستلقين على الحشائش في فناء

---

(١) لا يذكر بطبيعة الحال موقف الإسلام في هذه القضية، لأنه ليس المقصود هو التصحيح باسم الإسلام، إنما باسم التقدم والتحرر والخروج على الإسلام! فضلا عن أن الإسلام لن يرضى عن العلاقة القائمة بين الولد والبيت قبل الزواج. وهذه العلاقة بالذات هي موضوع «الدعوة» في القصة والمسرحية والفيلم!

(٢) ربما لم تعد هذه الموضوعات تطرق في مصر اليوم فقد استنفذت أغراضها، ولكنها ما تزال تستخدم في بقاع أخرى من العالم الإسلامي، حيث توجد بقية من تقاليد يراد القضاء عليها!

(٣) روز اليوسف هي أم إحسان عبد القدوس.

الجامعة . . قال : فقلت في نفسي : متى أرى ذلك المنظر في جامعة أسيوط ! لكي  
تراه عيون أهل الصعيد ، وتتعود عليه !

هذا وغيره فضلا عن آلاف بل ملايين الصور العارية . . والأغاني العارية . .  
والأفكار العارية . . والنكت العارية . . التي تملأ الصحف والمجلات والإذاعة  
والسينما والتلفزيون . . وآلاف بل ملايين الأجساد العارية في كل مكان : في  
الشوارع والمكاتب ووسائل المواصلات والشواطئ العارية في فصل الصيف . .  
وفضلا عن التفاهة التي تشيعها السينما والإذاعة والتلفزيون في نفوس  
مشاهديها ومستمعيها . . التفاهة التي تجعل النفوس لا تتجه لشيء جاد . . فضلا  
عن أن تتجه لله واليوم الآخر، أو للجهاد في سبيل الله !

\* \* \*

ولم تكن « قضية المرأة » وحدها، وما نتج عنها من الفساد الخلقي ، هي التي  
استخدمت في فك ارتباط المجتمع بجذوره الإسلامية ، فقد كان الجهد المبذول  
شاملا لجميع الميادين بلا استثناء ، وإن كانت « قضية المرأة » والفساد الخلقي  
الناشئ من « التحرر » ، من أفعال الوسائل في فك ذلك الارتباط .  
ولنشر هنا إلى مجالين رئيسيين عمل فيهما الغزو الفكري بنشاط وافر، هما مجال  
الفكر والأدب ، ومجال السياسة .

## « د » مجال الفكر والأدب

فأما في مجال الفكر والأدب فقد كان المطلوب بت الصلة بين « الأجيال الحديثة »  
وبين تراثها الفكري والأدبي المستمد من الإسلام .  
وقد حاول عبد العزيز فهمي (باشا) وآخرون أقل منه وزنا وأهمية أن يدعوا  
لكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية كما فعل أتاتورك باللغة التركية ، ولكن  
المحاولة وئدت في مهدها ، ولم تقف قط على قدميها ، وما كان لها أن تنجح في البلد  
الذي يحوي الأزهر ، والذي ظل الأزهر قائما فيه ألف عام يعلم اللغة العربية لكل  
شعوب الإسلام .  
وحاول آخرون أن يدعوا لكتابة الأدب باللغة العامية ، لعل هذه اللغة أن تنمو

وتترعرع - حين تصير لغة الفكر والأدب - فتقتل اللغة العربية، كما قتلت الفرنسية والإيطالية وغيرها اللغة اللاتينية التي تفرعت عنها في صورة لغات عامية في مبدأ الأمر، ثم تحولت إلى لغات «حية» وقتلت اللغة الأم!

ولكن هذه المحاولة كذلك باءت بالفشل - على الرغم من لا يزالون ينادون بها إلى هذه اللحظة - بسبب وجود القرآن. فكما أن الله قد حفظ كتابه المنزل: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»<sup>(١)</sup>، فكذلك كتب الله لهذه اللغة أن تبقى وتحفظ نتيجة حفظ الكتاب المنزل بها: «إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون»<sup>(٢)</sup>.

وقد كان هذا من أغيب الأمور لدعاة التغريب . . وما يزال!  
ولكنهم إذ فشلوا في القضاء الكامل على اللغة العربية - رغم محاولة تشويه صورتها في أذهان «الأجيال الحديثة»، بالحديث عن صعوبتها<sup>(٣)</sup>، وجودها، وعجزها عن الوفاء بما يراد منها الوفاء به في مجال الفكر والأدب والعلم والفن - فقد حاولوا - من طرق أخرى - قطع الصلة أو توهينها بين تلك «الأجيال الحديثة» وتراثها الإسلامي.

كانت إحدى الطرق هي بث فكرة «التطور» . . سواء في مجالها «العلمي» الأصلي<sup>(٤)</sup>، أو في المجالات الفكرية والاجتماعية والأخلاقية التي سرت إليها في أوروبا بفعل اليهودية العالمية<sup>(٥)</sup>.

ومقتضى فكرة التطور أن كل حديث هو خير من كل قديم، لمجرد أن هذا حديث وذاك قديم، فقط، بصرف النظر عن أي أسباب أخرى! ولما كان الإسلام كله قديما، قد مضى عليه - في ذلك الوقت - أكثر من ثلاثة عشر قرنا، فالتطور يقتضي نبذه والأخذ بما جدّ بعده . . والذي جدّ بعده هو الحضارة الأوروبية . . لذلك لزم الأخذ بتلك الحضارة ونبذ الإسلام<sup>(٦)</sup>.

وإذ كان هذا السبب وحده - في مبدأ الأمر على الأقل - لا يكفي، لأن

---

(١) سورة الحجر [٩] (٢) سورة يوسف [٢]

(٣) راجع ما ذكرناه عن فيلم نجيب الريحاني، وما ذكرناه من قبل عن مخطط دنلوب ضد اللغة العربية.

(٤) فقدت نظرية التطور الداروينية اليوم كثيرا من مقوماتها، وأنكرها كثير من العلماء المحدثين.

(٥) انظر إن شئت فصل «دور اليهود في إفساد أوروبا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٦) يقول طه حسين في كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» الذي سبقت الإشارة إليه: فعملينا إذن أن نأخذ

الحضارة الغربية بخيرها وشرها. إن كان فيها شر (!) لا محالة من ذلك!



«الرجعيين» لا يؤمنون بالتطور كما يؤمن به التقدميون، فلا بد من تقويته بأسباب «موضوعية» توهن تمسك المسلمين بالإسلام من جهة، وتصلح من جهة أخرى لتثبيت فكرة التطور، حتى تصبح - وحدها - قادرة فيما بعد لفك الارتباط بين المسلمين والإسلام!

فالإسلام كان صالحاً للبيئة البدوية التي نشأ فيها، ولكنه لا يصلح للبيئة المتحضرة الموجودة اليوم!

والإسلام يظلم المرأة، ويجعلها قعيدة البيت، مستعبدة للرجل، مهذرة الإنسانية، مهضومة الحقوق!

والإسلام نظام غير ديمقراطي! ليس فيه تقرير لحقوق الإنسان!  
والإسلام ليس له نظام حكم<sup>(١)</sup>! إنما هو مجموعة من التوجيهات الأخلاقية ليس غير!

والإسلام نظام رجعي لأنه يحرم الربا، والربا هو العمود الذي يدور عليه الاقتصاد الصناعي المتطور، ولا يدور على غيره!

والإسلام.. والإسلام.. والإسلام.. (٢)

\* \* \*

وكان من بين الطرق المستخدمة كذلك تشويه التاريخ الإسلامى..  
فضلا عن إبراز التاريخ السياسي وحده، وإخفاء مقومات التاريخ الإسلامى الأخرى، أو بعبارة أخرى إبراز خط الانحراف وإخفاء الجوانب البيضاء من الصورة، مما يعطى إحاء خبيثاً بأن الإسلام لم يعش إلا فترة قصيرة من الوقت، وأنه ليس فيه من المقومات ما يعطيه استمرارية الوجود، وليس فيه ما يستحق الحرص عليه، بل ينبغى نبذه والانسلاخ منه.. فضلا عن ذلك كله فقد عمد المستشرقون - الذى تولوا نشر الشبهات حول الإسلام بلغاتهم، وتولى تلاميذهم من بعدهم نشرها باللغة العربية، إما منسوبة إلى أصحابها فى حالات قليلة، وإما منتحلة بأسماء أولئك التلاميذ فى أغلب الأحيان - عمد أولئك المستشرقون - ومن بعدهم تلاميذهم - إلى النيل من شخصيات الإسلام العظمى، بدءاً برسول الله صلى

(١) انظر كتاب «الإسلام ونظام الحكم» لعل عبدالرازق.

(٢) ناقشت كثيراً من هذه الشبهات من قبل فى كتاب «شبهات حول الإسلام».

الله عليه وسلم ، والصحابة الكرام رضوان الله عليهم . وأخيرا الدولة العثمانية والسلطان عبدالحميد!!

لقد ركزوا - في التشويه - على فترتين اثنتين بصفة خاصة: فترة صدر الإسلام وفترة الدولة العثمانية . لسببين مختلفين ، وإن كانا يلتقيان في النهاية عند محاولة سلخ الأمة الإسلامية من الإسلام .

فأما فترة صدر الإسلام فلأنها موضع الفخر والاعتزاز الشديد لدى كل مسلم . وما زالت - بوضاءتها الفذة ، ورفعتها الشاهقة ، ومثاليتها العجيبة - تشد المسلمين شدا في جميع أجيالهم ، فلا يملكون أنفسهم من التأثير بها ، ومن الرغبة العميقة في رؤيتها مرة أخرى ممثلة في واقع الأرض .

ويعلم أعداء الإسلام جيدا أن وجود تلك الفترة المثالية هو الذى حفظ للإسلام حيويته على مر القرون رغم كل ما أصابه من الكوارث من الداخل والخارج . (١) ففى كل جيل من أجيال المسلمين يوجد من تهفو نفسه إلى تلك الفترة الفذة ، فيحاول أن يعيد تحقيقها في نفسه أو فيمن حوله ، فيمتد خط الإسلام ولا ينقطع ، وينبعث في كل مرة بعد الغفوة أو الخمود . (٢)

وبكل الحق والغیظ الذى يملكهم من هذا الأمر ، يروحون يحاولون تشويه تلك الفترة ، لعلهم يقتلعون من نفوس المسلمين الاعتزاز بها ، والتطلع إليها ، فلا تعود موضع خطر دائم من انبعاث جديد!

وأقدس الشخصيات عند المسلمين شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويليها في التوقير والاحترام من صحابته الكرام أبوبكر وعمر رضى الله عنهما . ثم يأتى رتل ضخمة من الشخصيات التاريخية تزدهم بهم فترة صدر الإسلام على نحو لم يتكرر في التاريخ . .

فليكن همُّ أعداء الإسلام إذن هو هذه الشخصيات بالذات . . لعلها إن

---

(١) يقول سبحانه وتعالى عن أهل الكتاب: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم! وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون» [سورة البقرة: ١٤٦] فهم يعلمون جيدا أنه الحق ، كما يعلمون مكامن القوة فيه .

(٢) راجع فصل «نظرة إلى الجيل الفريد» حيث بينا أن وجود تلك الفترة الفريدة في تاريخ الإسلام - حتى وإن لم تتكرر - يؤدى - بقدر الله - مهمة ضخمة في حياة الأمة الإسلامية .

شوهت صورتها تفقد إشعاعها الحيّ في نفوس المسلمين، فيذهب ذلك الخطر الذي يتهدد أعداء الإسلام من انبعاث الإسلام من جديد.

وتحت دعوى «البحث العلمي» و«المنهج العلمي»، يروح المستشرقون يلوكون كلاما نافها ضعيفا يبدو فيه التمثل والكذب وسوء القصد والبعد الكامل عن المنهج العلمي وروح البحث العلمي . (١)

ولكن تلاميذهم - الذين استعبدت أرواحهم للغرب وكل ما يجيء من الغرب - يروحون يتلقفون ما يقوله المستشرقون ثم يعيدون تقيؤه في صورة كتب ومحاضرات ورسائل «جامعية!» وبحوث ومقالات، ينسبون فيها الأقوال إلى أصحابها - كما قلنا - في حالات قليلة، وينسبونها إلى أنفسهم أغلب الأحيان، فيقعون في جريمتين معا: جريمة الذوبان في فكر أعدائهم، وجريمة الكذب والادعاء، متفجحين في الحالتين بما يتشدقون به من كلام أعدائهم، مستعلين به على عباد الله!

ومن كثرة تكرار الأكاذيب - خاصة تحت ستار البحث العلمي - ينخدع ناس، ويتأثر ناس، ويصدق ناس . . فينجرفون في التيار!

أما بالنسبة للدولة العثمانية وعبد الحميد خاصة فقد كان هناك لتشويهها هدف آخر.

إن أوروبا الصليبية تكره الإسلام عامة، ولكنها تكره الدولة العثمانية بصفة خاصة، لأنها هي التي توغلت في أوروبا، وضمت منها مساحات شاسعة إلى الدولة الإسلامية، وأخذت من أهلها - كما قال ولفرد كانتول سميث - عشرات الملايين دخلوا في الإسلام . . ثم إن أوروبا الصليبية - ومعها اليهودية العالمية - يكرهان عبد الحميد بالذات لأنه كان يقاوم ضغط أوروبا مجتمعة للقضاء على الدولة العثمانية، ولأنه رفض إعطاء وطن قومي لليهود في فلسطين (وهو مطلب صليبي يهودي كما سيأتى بيانه فيما بعد) رغم كل المحاولات وكل الإغراءات . .

والدولة العثمانية هي آخر دولة خلافة حكمت العالم الإسلامي، وكان المسلمون في كل الأرض يدينون لها بالولاء، سواء كانوا واقعين تحت حكمها المباشر، أو كانوا «مستقلين» عنها، أو كانوا حتى في حوزة أعداء الإسلام . .

(١) تحدثت عن هذه القضايا بتفصيل أكثر في كتاب «المستشرقون والإسلام».

وبعد مؤامرات طويلة - صليبية يهودية - امتدت قرنين من الزمان، استطاع الأعداء أن يقضوا على دولة الخلافة ويستريحوا منها، ويحكموا قبضتهم على المسلمين . .

ولكن أعداء الإسلام - الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم - لا يطمثون أبداً إلى الإسلام . . ويخشون دائماً أن ينبعث من جديد، ويخشون أن تعود له دولة في يوم من الأيام .

يقول «توماس بين» أحد المستشرقين الأمريكيين في مقدمة كتابه «السيف المقدس The Sacred Sword» - بعد أن يشرح لقرائه نبذة عن تاريخ الإسلام وفتوحاته الواسعة: «وقد تغير الحال اليوم، وأصبح المسلمون في قبضة أيدينا. ولكن ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى. وإن الشعلة التي أوقدها محمد «صلى الله عليه وسلم» في قلوب أتباعه، لهي شعلة غير قابلة للانطفاء!» .

ويقول المؤرخ الانجليزي توينبي في محاضرة له بعنوان «الإسلام والغرب»: إن الإسلام يمكن أن يتولى زعامة الدول البروليتارية (١) مرة أخرى إذا تهيأت الظروف!

من أجل ذلك ينبغي تشويه صورة الدولة الإسلامية الأخيرة - أي الدولة العثمانية - وتصويرها في أبشع صورة، حتى لا يفكر أحد في إقامة دولة للإسلام مرة أخرى . . بل حتى يحمداوا الله - أو يحمداوا الشيطان! - أن هذه الدولة قد ذهبت إلى الأبد ولن تعود!

ومن أجل ذلك ركز الأعداء على أخطاء الدولة العثمانية وظلوا يكبرونها حتى تملأ فراغ الصفحة كله . .

ولقد كان للدولة العثمانية أخطاء بلا شك . . وأخطاء جسيمة في بعض الأحيان . (٢) ولكن الصورة التي صورها الأعداء لم تكن هي الصورة الحقيقية التي وقعت بالفعل، إنما صورة مشوهة - عن عمد - تكبر فيها الأخطاء مئات المرات، وتمحى فيها كل الحسنات، حتى تبدو سوادا كلها، حالكة السواد!

---

(١) يقصد توينبي بالدول البروليتارية الدول الواقعة تحت سيطرة الغرب، أو ما يسمى في مصطلح هذه الأيام بدول «العالم الثالث» .

(٢) راجع فصل «خط الانحراف» عند الحديث عن الدولة العثمانية .

وعبدالحميد بصفة خاصة . . الذى كانت جريمته الكبرى - فى حس أعدائه - رفضه بإصرار إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين . . فهذا ينبغى أن تكون صورته أسود من السواد! ليكون عبرة لكل من يقف فى وجه أطماع الصليبية العالمية واليهودية العالمية . .

وكان أشد ما وضع لفتنة المسلمين، وسلخهم من الإسلام، تصوير وضعهم التاريخى فى أواخر الدولة العثمانية بأنهم كانوا بين خيارين اثنين لا ثالث لهما: إما البقاء فى ظل الدولة الإسلامية والحكم الإسلامى، ومعه التأخر والانحطاط والجمود فى كل ميادين الحياة، ومعه الظلم والاستبداد والتسلط؛ وإما إزالة الدولة الإسلامية والحكم الإسلامى، والانفتاح على التقدم والحضارة والرقى فى كل ميادين الحياة، بعد التحرر من الظلم والتسلط والاستبداد! (١)

وحجب عن المسلمين - فى هذه الصورة - البديل الثالث الممكن، وهو قيام حركة إسلامية صحيحة، تصلح مفاصد الحكم العثمانى، ولكن تبقى على الدولة الإسلامية والحكم الإسلامى، سواء فى تركيا أو فى أى مكان من العالم الإسلامى، وتصلح انحرافات المجتمع الإسلامى وترده إلى حقيقة الإسلام . .

فهذا البديل بالذات هو ما يكرهه أعداء الإسلام، وأشد ما يتخوفون منه، فلا ينبغى أن يظهر فى الصورة على الإطلاق، ويبقى الخيار بين البديلين السابقين، ذلك الخيار الذى يودى - فى النهاية - إلى الانسلاخ من الإسلام!

\* \* \*

كذلك استخدم طريق ثالث فى مجال الفكر والأدب لصرف المسلمين عن الإسلام . .

إن «الأدباء» و«المفكرين» الذين تعلموا اللغات الأجنبية قد وقعوا ولا شك على ثروة أدبية وفكرية فى اللغات التى تعلموها، كانت جديدة بالنسبة إليهم، وكان

---

(١) حين أزيلت الدولة العثمانية وقع المسلمون فى قبضة أعدائهم بذبحونهم ويقتلونهم وينتهكون حرمانهم ولا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، كما قرر سبحانه وتعالى فى محكم تنزيله . وكان هذا هو «التحرر» من التسلط والاستبداد الذى نالوه من أيدي أعدائهم الذين أغروهم بالانسلاخ من دولة الخلافة والانسلاخ من الإسلام . ثم جاء بعد ذلك عهد «الاستقلال» الذى حكم فيه العالم الإسلامى عملاء الصليبية والصهيونية فأوقعوا بالمسلمين أشنع أنواع الدكتاتورية فى التاريخ . وأشنع مذابح التاريخ! وما زال عبيد الغرب يتحدثون عن «الاستعمار التركى» ومفاصده، بينما كانت مفاصد الحكم التركى لا تقاس إلى جانب وحشية حكاهم فى عهد «الاستقلال» .

فيها أشياء كثيرة تستحق الاطلاع عليها والاستفادة منها؛ وكانت بالنسبة للخواء الفكري الذي يعيشه المسلمون تبدو ثروة لا تقدر بثمن، وزادا دسما يصلح لإقامة الحياة..

وحدث انبهار ضخم عند هؤلاء «الأدباء» و«المفكرين» بالفكر الأوربي والثقافة الأوربية..

ولسنا نقول إن الفكر الغربي والثقافة الغربية كانت شيئا غثا لا يستحق الاطلاع عليه.. بل نقول - على العكس - إن فيه أشياء كثيرة تستحق الاطلاع. ولكننا نشير إلى نقطتين هامتين في الموضوع.

الأولى : أن قاعدة هذا الفكر منحرفة، لأن الظروف التي أحاطت بأوروبا ونفرتها من الدين، جعلت هذا النفور يتغلغل في الفكر الأوربي كله، ويشمل جميع ميادينه، سواء كان أدبا صرفا، أو دراسة «علمية» أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية الخ.. وأن الشرود عن الله، ومعاندة كل ما يأتي من عند الله، قد ترك بصماته على هذا الفكر، ومن ثم جنح عن الرؤية الصحيحة لحقائق الوجود الرئيسية، وأوجد صورة - أو صورا - لهذا الوجود ليست هي صورته الحقيقية، ما دامت تصوره منقطعا عن خالقه، قائما بغير تدبير خالقه له، وعلى غير السنن التي رتبها خالقه له.. وحين لا يرى الإنسان تلك الحقيقة العظمى تفوته الرؤية الصحيحة الشاملة للوجود كله، كما تفوته «قطاعات» كاملة من هذا الوجود، لا تدخل في «الرؤية» البشرية حين تنقطع عن الوحي الرباني.. وينعكس هذا كله على الوجود الإنساني، وغاية هذا الوجود، والمنهج الذي يتبع لتحقيق تلك الغاية بعد تحديدها.. فيكون ذلك كله «هوى» بدلا من أن يكون «حقائق»، ويكون تجارب عشوائية لا تستند إلى يقين..

«ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن»<sup>(١)</sup>  
«وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا، ذلك ظن الذين كفروا»<sup>(٢)</sup>.

والثانية : أن في هذا الفكر مزايا إيجابية لا شك فيها. منها اتخاذ «المنهج العلمي» في البحث، والصبر والجلد على البحث، وعبقورية التنظيم، واتخاذ

(٢) سورة ص [٢٧].

(١) سورة المؤمنون [٧٠].

التجربة أساسا للبحث، مما أدى - بالذات - إلى تقدم هائل في ميادين العلوم البحتة، وميدان التكنولوجيا الحديثة. . ولكن الحقائق الجزئية - الكثيرة - التي اهتدى إليها هذا الفكر - في جميع الاتجاهات - لا تنفي انحراف القاعدة الأساسية التي تقوم عليها تلك الحقائق الجزئية، كما أن انحراف القاعدة يجعل الفائدة النهائية من هذه الحقائق الجزئية محدودة، بينما كانت تكون هي ذاتها أبلغ وأعمق وأجمل، لو كانت قائمة على قاعدتها الصحيحة، حيث تظهر الارتباطات الحقيقية الحية بين الجزئيات، حين تُرى آثار الصنعة الربانية الشاملة الواحدة الموحدة في جنبات الكون كله. .

ولكن الرؤية الكاشفة لهذا الفكر، التي تميز بين مزاياه وعيوبه، والتي تستفيد من جزئياته الصحيحة، وتدرك في ذات الوقت انحراف قاعدته فلا تتأثر بها بل تنبذها وتنكرها. .

هذه الرؤية لا تتوفر إلا لصاحب الرؤية الإسلامية الصحيحة، ذات القاعدة الشاملة السليمة المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، والتي تمدّ صاحبها بالبصيرة التي يضع فيها ذلك الفكر موضع التمحيص والنقد، فيعلم ماذا يأخذ وماذا يدع. وكان هذا كله غائبا بسبب الخواء الذي يعيشه المسلمون، الناشئ من التخلف العقيدى، ومن جمود الفكر الإسلامى على ما كان عليه قبل قرون، وعدم مواكبته لما جدّ في حياة الناس من أمور، وتحول الإسلام كله في حس المسلمين إلى تقاليد خاوية من الروح، سواء في ميدان العمل أو في مجال التفكير. .

ولكن الانبهار الذى أصاب أولئك «الأدباء» و«المفكرين»، الناشئ من عدم اتصال روحهم بروح الإسلام، وعجزهم عن الغوص والتعمق في حقائق الإسلام ببصيرة المسلم الموصول القلب بالله، وبالكون الذى خلقه الله، وبحقائق الوجود وحقائق الحياة. . ذلك الانبهار كان يمكن أن يظل «مسألة شخصية» عند هؤلاء الأدباء والمفكرين، يظنون يعانونها حتى يفتح الله عليهم بالرؤية الصحيحة، التي تتولد في القلب المتفتح حين يمارس الإسلام بكيانه كله، فيفتح الإسلام له كنوزه - على قدر موهبته - ويفتح بصيرته بقدر ما يصدق في عبادة الله. .

ولكن الذى نشر ذلك الانبهار على نطاق الأمة كلها، كان هو تلك الأجهزة المتربصة لالتقاط أولئك الأدباء والمفكرين، وتكبيرهم، والدعاية لهم، ونشر

أفكارهم على أوسع نطاق ممكن . . وقامت الصحافة بالنصيب الأوفى في ذلك المجال . . فوصلتهم، لا للمكانة التي كانوا يستحقونها بمواهبهم فحسب، بل زيادة عليها عدة أضعاف! وجعلت لهم دويًا يخترق الأذان ويستقر في الأذهان! وفي غياب الفكر الإسلامي الحقيقي، الحى المتجدد، المستمد من منابع الصافية، الشامل لكل مجالات الحياة . . صار أولئك الأدباء والمفكرون «العلمانيون» هم قادة الفكر، وعمداء الأدب، وأساتذة الجيل . . فجروا الأمة كلها وراءهم إلى الفكر الغربي، على أنه «مهبط الوحي» وزاد الحياة! وذلك حين خرجت أجيال من المتعلمين تتلقف فكرهم وأدبهم في لهفة وشغف، وتتخلق حولهم، وتتعصب لهم، وتصوغ فكرها من فكرهم، واتجاهاتها من اتجاهاتهم . . وقد كانت اتجاهاتهم كلها بعيدة عن الإسلام، بل منسلخة تماما من الدين، إن لم تكن ساخرة مستخفة مستهزئة! متجهة إلى الغرب وأفكاره وأدبائه وفلاسفته، وأصبحت أسماء الأدباء والشعراء الأوربيين من أمثال شكسبير ووردزورث وبايرون وغيرهم (للمدرسة الإنجليزية) وأناتول فرانس وفكتور هوغو وأندريه جيد وغيرهم (للمدرسة الفرنسية)<sup>(١)</sup> هي البديل من امرئ القيس وعلقمة والمنتبى والبحترى . . البديل الذى يعطى صاحبه علوا في الأرض، وانتفاشا في القوم، لأنه «مثقف»، ولو كان كل علمه بأولئك الأدباء والشعراء - كما قلنا من قبل - هو مجرد ذكر أسمائهم! وأصبحت: قال فلان أو فلان من مفكرى الغرب هي البديل من «قال الله وقال الرسول» . . بل أصبحت «قال الله وقال الرسول» هي عنوان الرجعية والجمود والتأخر. . من ناحيتين اثنتين على الأقل: من ناحية أنها مكتوبة باللغة العربية، ومن ناحية أنها «دين»!

### « ه » مجال السياسة

أما في عالم السياسة فلم يكن الأمر أقل سوءا . . بل ربما كان أشد خطورة . . لقد حاول نابليون من قبل تنحية الشريعة الإسلامية، ووضع «قانون نابليون»

(١) كان في مصر مدرستان ثقافيتان متميزتان: المدرسة الإنجليزية وعلى رأسها مصطفى شكري وتلميذاه، المازني والعقاد، والمدرسة الفرنسية وعلى رأسها طه حسين.



بدلاً منها . . ولكن الأمة المسلمة في مصر أبت ذلك إباء، وثارت على الحملة الفرنسية الصليبية الكافرة، وطردتها آخر الأمر، بعد مقاومة عنيدة قامت بها الأمة الإسلامية المصرية، وبعد قيام «سليمان» المسلم الحلبي بقتل كليبر قائد الحملة بعد رحيل نابليون .

ولكن الإنجليز حين جاءوا إلى مصر عام ١٨٨٢م نَحَّوْا الشريعة الإسلامية، وحكموا بدلاً منها قانون نابليون، دون ثورة من جانب الشعب . . .  
ولقد يعجب الإنسان اليوم من تبدل الموقف تجاه الأمر الواحد ما بين عامي ١٧٩٨ و ١٨٨٢م، ولكن عوامل عدة كانت تعمل في ساحة الأحداث وفي داخل النفوس .

فلا شك أن ما يزيد على ثمانين سنة من الزحزحة المستمرة عن الإسلام كان لها أثر ملموس في عالم الواقع . فسياسة «التغريب» التي اتبعها محمد علي، وورثها من بعده أبنائه، وكان قوامها الأول سياسة الابتعاث التي اتبعها محمد علي، ثم سياسة «الفرنجة» التدريجية التي اتبعها أبنائه وبخاصة الخديو اسماعيل، كان لها أثرها التدريجي في تقبل الأفكار الغربية وأنماط الحياة الغربية، وتضائل الاستنكار لها كلما تقدم الزمن . . .

وجود المدارس التبشيرية التي نشطت في عهد أبناء محمد علي، وكان يتعلم فيها مسلمون ومسلمات، يتزايد عددهم على الدوام، ويبرزون بالتدريج على ساحة المجتمع، وينشرون التفرنج سواء في أزياء الملابس أو أزياء الفكر أو أزياء السلوك . . كان له كذلك أثره التدريجي في زحزحة المجتمع من نقطة ارتكازه الطبيعية - وهي الإسلام - بإيجاد نقطة ارتكاز أخرى إلى جانبها، تبدأ ضعيفة وتقوى بالتدريج . . (١)

وربما كان العامل المباشر الذي حدد موقف الأمة الإسلامية في مصر من تنحية الشريعة الإسلامية هو فشل الثورة التي قام بها عرابي في صدِّ الانجليز؛ ودخول الإنجليز منتصرين، واحتلالهم البلاد بعد القضاء على قوة الجيش المصري، ولكن هذه - وحدها - لم تكن لتؤدي إلى سكوت الأمة عن هذا الأمر الخطير، لولا العوامل

---

(١) راجع ما قلناه من قبل عن دور رفاة رافع الطهطاوي في الحياة المصرية .

التي أشرنا إليها آنفاً، ولولا الخواء الشامل الذي أصاب حياة الأمة من تخلفها العقيدى. فقد حدثت هزيمة المجاهدين المسلمين في الهند أمام الغزو الإنجليزي، ولكن تنحية الشريعة الإسلامية هناك، وإحلال القانون الإنجليزي محلها، أثارت المجاهدين مرة أخرى - رغم هزيمتهم - فقاموا بثورات متعددة ما بين عام ١٨٢٦ وعام ١٨٥٧م كبدت الانجليز خسائر كثيرة في الأرواح، ولم تسمح لهم بالاستقرار حتى قضوا عليها بوحشية بالغة.

ولاشك أن «المتدينين» نظروا إلى الأمر على أنه كفر صريح لا يمكن الرضا عنه. . . ولكنهم غلبوا على أمرهم فسكتوا صاغرين. . . ولكن الاحتلال الصليبي البريطاني لم يكن ليأمن، حتى لو سكت الناس صاغرين. فهم يعرفون هذا الدين كما يعرفون أبناءهم، وتجربتهم في الهند - على الأقل - تعلمهم أن المسلمين قد يعودون إلى الثورة والمقاومة ما لم يسحق فيهم «الإسلام» . . .

لذلك كان الغزو الفكري الذي اتبعوه - على طريقتهم البطيئة الأكيدة المفعول - موجهاً إلى كل ركن من أركان الحياة الإسلامية، لزعزعة هذه الأمة زعزعة كاملة عن الإسلام (مع المحافظة على المظاهر الخاوية للإسلام منعا من إثارة الشكوك كما قال كرومر في تقريره الذي سبقت الإشارة إليه) وكان من أهم المجالات التي عنى الاحتلال الصليبي بها مجال السياسة. . . أي مجال الحكم والتشريع . . .

لقد ظلت هذه الأمة ثلاثة عشر قرناً قبل ذلك تحكّم الشريعة الإسلامية، ولا تعرف لها بديلاً في حياتها، ولا تتصور - مجرد تصور - أن يكون لها في حياتها بديل. وترى - بحق - أن تحكيم الشريعة الإسلامية هو قرين إسلامها، ومقتضاه الواقعي في حياتها، إلى جانب صلاتها وعبادتها، وأن هاتين الصفتين هما اللتان تميزان المسلم من الكافر: تحكيم الشريعة وإقامة الصلاة، أما بقية الأمور فقد يجري عليها شيء من التساهل (أو شيء من الإرجاء!) ولكنه لا يجري على هذين الأمرين بالذات!

وكان هذا مما حفظ لهذه الأمة وجودها التاريخي، رغم كل ما وقعت فيه من أخطاء، ومن تقصير، ومن بدع، ومن انحرافات. . .

وقد غلب الاحتلال الصليبي الأمة على نفسها، فنحى شريعتها، وأجلمها بالحديد والنار والعسف والتسلط، ولكنه - كما قلنا - لا يأمن أن يحدث رد الفعل،

وأن تحدث الثورة على هذا الأمر في يوم قريب أو بعيد . . فلا بد من العمل الجاد للحيلولة دون وقوع رد الفعل المرهوب . .

وهنا تقدم عملاؤه لمعاونته في زحزحة الأمة عن عقيدتها في عالم السياسة، كما عاونه آخرون في مجال الفكر والأدب، ومجال المرأة، ومجال الأخلاق . . وكل مجال عمد فيه إلى محاربة الإسلام . .

جاء أستاذ الجيل (!) لطفي السيد ليقول في «جريدته»<sup>(١)</sup> كلاماً ما أنزل الله به من سلطان!

جاء يقول للناس: إن الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر! ولا ينبغي أن نحاربهم ونقاومهم! إنما واجبنا أن نتعلم منهم، ثم نتفاهم معهم بعد ذلك لتصفية ما بيننا من خلافات!

أرأيت كم جريمة يرتكبها - ويدعو إلى ارتكابها - «أستاذ الجيل»!  
الجريمة الأولى هي القول بأن الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر . .  
والمسلمون لا يعرفون لهم في تاريخهم كله ولي أمر إلا منهم:  
«يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم»<sup>(٢)</sup> .

وبصرف النظر عما وقع من التحريف - فيما بعد - من تفسير «منكم» على المفهوم الوطني أو القومي الذي ياباه الإسلام، وصرفها عن معناها الإسلامي الحقيقي - أي المسلمين الذين يحكمون بشريعة الله، وهم وحدهم الذين أمر الله بطاعتهم، بل قيد طاعتهم بطاعتهم هم لله ورسوله، كما هو ظاهر في الآية من ذكر الأمر بالطاعة لله وللرسول وحدهما، وعطف طاعة أولي الأمر على طاعة الله والرسول دون ذكر الفعل الأمر بالطاعة . . وكما هو ظاهر من التعقيب الأخير في الآية: «فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . .» وكما هو واضح من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» . .<sup>(٣)</sup>

بصرف النظر عن هذا كله، فتلك أول مرة في تاريخ الأمة الإسلامية، توجه

(١) كان اسمها «الجريدة» .

(٢) سورة النساء [٥٩] .

(٣) رواه أحمد وأبو داود وسنده صحيح .

الأمة فيها إلى قبول «أولياء أمر» لهم من غير المسلمين أصلاً . . من الصليبيين الكافرين!!

إنما استولى الصليبيون في الحروب الصليبية الأولى على بعض البلاد الإسلامية، وأقاموا فيها دويلات - في مصر والشام - استمر بعضها مائتي عام، ولكن لم ينظر المسلمون قط إليهم على أنهم «أولياء أمورهم»! إنما نظروا إليهم على أنهم كفار يغتصبون أرضاً إسلامية، ينبغي «جهادهم» لإجلانهم من أرض الإسلام . .

ولكن «أستاذ الجيل» كان يدي بدلوه في حرب الإسلام! فيزين للأمة أن تتخذ ولياً لها من الصليبيين!

أما جريمته الثانية فهي طلبه من الأمة ألا يقاوموا عدوهم الصليبي الغاصب، إنما بدلا من ذلك يتعلمون منه!

وأى شيء كان يريد من الأمة أن تتعلم منهم؟!

لو أنه وجه الأمة أن تتعلم منهم أسباب القوة الحقيقية، من التقدم العلمي والتكنولوجي، والجلد على العمل والصبر عليه، والتنظيم الدقيق لكل أمور الحياة، مع تحذيرها من الوقوع في الفساد العقيدي المتمثل في نبذ الدين عن كل مجالات الحياة، والفساد الاجتماعي المتمثل في إخراج المرأة من بيتها ووظيفتها وفطرتها، وما يترتب عليه من فساد خلقي وفوضى وإباحية، والفساد الفكري الناشئ من تصور الكون بلا خالق، وتصور الإنسان على أنه حيوان، وتصور الحياة الدنيا على أنها هي المبدأ والنهاية بلا بعث ولا معاد، ولا حساب ولا جزاء . .

لئن فعل ذلك لقلنا إنه «أستاذ» حقا، يوجه «الجيل» إلى ما فيه خيره وفلاحه بالنسبة للظروف المحيطة به . .

ولكنه لم يقل شيئا من ذلك، وما كان متصورا منه أن يقول . . ولو قالها ما حصل قط على لقب أستاذ الجيل! إنما كان يكون مع الرجعيين المتخلفين!

وأما الجريمة الثالثة فهي دعوته بعد ذلك كله إلى «التفاهم» مع العدو الصليبي الغاصب بعد مرحلة التعلم، لا إلى الجهاد لإجلاء الغاصبين بعد استمداد وسائل القوة عن طريق «التعلم» منهم!

وهي كلها «خدمات» لأصحاب الشأن، كان لها وزنها عند إطلاق اللقب

عليه، واستمرارهم في إضفاء اللقب عليه إلى آخر لحظة من حياته .  
ولكن الخدمة الكبرى التي قدمها، واستحق عليها التقدير بحق ممن  
يملكون التقدير يومئذ، لم تكن في مجرد «الكلام» على هذا النحو. فالكلام  
وحده - وإن استمر يكرر كما كان يكرره لظفي السيد - لا يؤتى ثمرته حتى  
يتبناه قوم فيعملوا به . .

لذلك كانت الخدمة الحقيقية هي «تخريجه» لجيل من «الزعماء» في اتجاهات  
مختلفة، من بينهم محمد عبده، وقاسم أمين، وسعد زغلول! فهنا «الأستاذية» الحققة  
التي تستحق اللقب وتستحق التقدير!  
ولكننا لا نستطيع إدراك هذا الأمر على حقيقته حتى نخرج على صالون «نازلي  
فاضل»، لندرك لمحة مما كان يجري فيه . .

\* \* \*

لقد ابتليت مصر في تاريخها الحديث بثلاثة «صالونات» كان لها تأثير ملحوظ في  
خط سير الأحداث: صالون مي زيادة (ماري زيادة) الأديبة الشاعرة اللبنانية  
المسيحية، وصالون هدى شعراوي، وصالون نازلي فاضل . .

«والصالون» مكان يُستقبل فيه الناس من «عشاق» لون معين من ألوان الفن أو  
الفكر أو الثقافة . . الخ . فيقضون فيه وقتاً للتعرف والتدارس و«التذوق» والتأثر  
والتأثير . . فيكون بمثابة منتدى لهم، ولكنه منتدى خاص، لا يفتح لعامة الناس،  
إلا من أذن له صاحب الصالون ورضي عنه . . وله تقاليده الخاصة التي ينبغي أن  
تراعى . فهو أولاً وآخر «بيت» مملوك لصاحبه، وصاحبه هو صاحب التصرف فيه .  
ولكن الصالونات الثلاثة المشار إليها كانت تتميز بأن أصحابها نساء! ونساء  
يستقبلن الرجال بلا محارم! على غير مثال مسبوق في الحياة الإسلامية<sup>(١)</sup>، ويبقى  
الرجال ساعات متطاولة في «ضيافة» صاحبة الصالون، لا يهم أن يكون فرداً أو  
جماعة من الرجال في وقت واحد .

فأما مي الأديبة الشاعرة فقد فتنت أدباء مصر جميعاً في وقت من الأوقات،

---

(١) يزعم بعضهم أن سكينه بنت الحسين رضي الله عنها - وهي أديبة وشاعرة - كانت تستقبل الرجال في بيتها  
يتلقون الأدب والعلم على يديها . وأياً تكن صحة ذلك فقد كانت سكينه محببة . تخاطب الرجال من وراء حجاب،  
وترعى حرمت دينها وربها . أما هؤلاء فقد كن سفارات، لا يرعين في صالوناتهم شرعاً ولا حرمة .

بظرفها - كما قالوا - ولطف حديثها، وحسن استقبالها للرجال، وثقافتها، ولباقتها،  
و. . (١).

وأما هدى شعراوي فقد استقطبت من استقطبت من الصحفيين والشعراء  
والكتاب المدافعين عن «قضية المرأة» . .

وأما نازلي فاضل فقد كان صالونها أخطر الثلاثة .

كانت نازلي فاضل أميرة «متحررة» من أميرات أسرة محمد علي، تعلمت على  
الطريقة الغربية، وتخلقت بأخلاق الغرب، و جعلت من بيتها صالونها على النحو  
الذي ذكرناه، تستقبل فيه الرجال وتتجاذب معهم أطراف الحديث . .

ولكن أي رجال . . وأي أحاديث؟!!

لقد كان أكبر زبائنها هو اللورد كرومر نفسه!

وناهيك بصالون يكون ضيف الشرف الدائم فيه هو المعتمد البريطاني . .

الحاكم المطلق في البلاد!

ثم كان من رواده الذين يكثرون التردد عليه: لطفي السيد، وسعد زغلول،  
وقاسم أمين، ومحمد عبده، ومصطفى فهمي والد صافية، التي سميت بعد زواجها  
من سعد زغلول: صافية زغلول! نسبة إلى زوجها، على طريقة الغرب في إلحاق  
الزوجة بلقب الزوج!

فأما محمد عبده فقد كتب في مذكراته التي نشرتها دار الهلال بعنوان «مذكرات  
محمد عبده»: إنه تأثر تأثراً عميقاً بلطف السيدة . . وإن عمق تأثره بها قد غير نظره  
إلى المرأة تغييراً كاملاً!

ومحمد عبده - كما هو مشهور - هو كاتب مقدمة كتاب قاسم أمين المسمى «تحرير  
المرأة»! وقد قيل في يوم من الأيام إنه كاتب الكتاب كله، أو الموحى بأفكاره لقاسم  
أمين . ولكن حسبنا منه كتابة المقدمة، لتتعرف على نوع «التأثر» الذي تأثره محمد  
عبده من لطف «نازلي هانم» صاحبة الصالون!

أما قاسم أمين فهو غني عن الإشارة . .

---

(١) انظر دواوين العقاد الأربعة الأولى، وهـ أوراق الورد، ورسائل الأحزان للرافعي .

وأما سعد زغلول فله قصة لا بد من ذكرها، لأنها تمثل تحولا من أخطر التحولات في الحياة المصرية الحديثة<sup>(٣)</sup> . .

كان سعد موهوبا موهبة «الزعامة» بالنسبة للأمة المصرية في ذلك الحين . .  
أعنى موهبة الخطابة!

فقد كانت الجماهير في ذلك الوقت تتحلق مبهورة الأنفاس حول «الخطيب» كما تتحلق حول الساحر الذي يصنع الأعاجيب . وكان هذا أمرا منطقيا مع الأحوال يومئذ، لا بالنسبة لمصر وحدها، بل بالنسبة لأكثر البلاد العربية والإسلامية، إن لم نقل لكثير من بلاد العالم كذلك .

لقد كانت نسبة التعليم أقل مما هي اليوم بكثير في أكثر أصقاع الأرض . ومن ثم لم تكن الكلمة المكتوبة تحدث أثرها الذي تحدثه اليوم عند المتعلمين القارئین، الذين تعودوا أن يقرأوا، وأن يتأثروا بها قرأوا، على روية وتدبر بغير انفعال . ولم تكن الإذاعة قد أنشئت بعد، حيث يمكن للناس أن يستمعوا وهم متفرقون في بيوتهم أو نواديهم . .

ومن ثم كانت الوسيلة هي الخطابة . .

يقف الخطيب في مكان الاجتماع، فتتحلق حوله الجماهير . وعلى قدر موهبته الخطابية يكون تأثيره في الجماهير، ويكون في الوقت ذاته ترشيحه «للزعامة»! وبطبيعة الحال لا تكون القدرة الخطابية وحدها هي كل مقومات الزعامة، فلا بد من صفات أخرى يتصف بها الزعيم، ولا بد من «مواقف» يقفها ليبرز بين الجماهير وتلتف حوله . . ولكن الخطابة - يومئذ - كانت في مقدمة المؤهلات . وقد كان سعد موهوبا في الخطابة بصورة غير عادية . .

كان يشتغل في مبدإ أمره بالمحاماة، وكان إذا ترفع في قضية تغصّ قاعة المحكمة بالحاضرين، الذي جاءوا فقط ليسمعوا مرافعته، أو بالأحرى جاءوا ليسمعوه وهو يترفع! بينما القضية ذاتها التي يترفع فيها لا تهمهم من قريب ولا من بعيد!

ومن هناك التقطه الصالون . .

---

(١) كل من الثلاثة: محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول يمثل في الحقيقة تحولا خطيرا في حياة الأمة، ولكن ربما كان سعد أشدهم أثرا وأكثرهم خطورة .

التقطه ليصوغه صياغة معينة، تؤدي دورها الخطير في مسار الأحداث .  
هناك التقى بكرومر، ولطفي السيد، ومصطفى فهمي (والد صافية «زغلول») وغيرهم ممن يعملون على «التقريب» بين المصريين والانجليز، عن طريق «التغريب» .

وبعد مرحلة معينة من «الصياغة» و«التشكيل» عين كرومر سعداً وزيراً للمعارف .

ويقول كرومر عن هذا التعيين (في تقريره لسنة ١٩٠٦، المقدم للبرلمان الانجليزي في أبريل سنة ١٩٠٧)<sup>(١)</sup> بعد كلام طويل عن «الوطنية المصرية» وصف في ختامه المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها سعد زغلول، والتي سهاها على سبيل الاختصار (مدرسة الشيخ محمد عبده) بأن برنامجها يقوم على (التعاون مع الأوروبيين - لا معارضتهم - في إدخال المدنية الأوروبية إلى بلادهم) ونصح بأن يمنحوا كل تشجيع ممكن . . يقول كرومر بعد ذلك: إن اختيار سعد زغلول لمنصب وزير المعارف ليس إلا تنفيذاً لسياسة ترمي إلى تأييد هذه المدرسة، ووضع مقاليد السلطة في يدها . ثم يقول عقب ذلك ما نصه: «وسوف نراقب ما تتمخض عنه هذه التجربة من آثار في عناية وانتباه . فإذا نجحت التجربة، وذلك ما أمله واعتقده، فسوف نمح قدرأ أكبر من التشجيع للسير في الاتجاه نفسه إلى مدى أبعد . أما إذا فشلت التجربة فستكون النتيجة الحتمية لذلك هي الاعتماد في شئون الإصلاح على الأوروبيين - وعلى الإنجليز خاصة - إلى مدى أكبر مما جرى عليه العمل سابقاً . وأية ما كانت الحال، فلن يكون هناك سبيل إلى التراجع . إن العمل يسير بجد ونشاط في إدخال المدنية الغربية إلى مصر . وهو يأخذ طريقه بتقدم ونجاح في كل إدارة من إدارات البلد، حسب خطة مرسومة وضعت خطوطها بعد دراسة للموقف، تقوم على التطور والتدرج، لا على الانقلاب العنيف والتغيير المفاجيء (٢)» (٣) .

(١) ص ٨ من النسخة الانجليزية .

(٢) أي على الأسلوب الانجليزي المعروف: «بطيء، ولكنه أكيد المفعول»!

(٣) عن كتاب «حصوننا مهددة من داخلها» للدكتور محمد محمد حسين، طبع مطبعة الرسالة ببيروت . الطبعة الثامنة سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م ص ١٠٣ .



ويقول المدافعون عن سعد زغلول: إنه يكفيه فخراً و«وطنية» أنه جعل التعليم باللغة العربية بعد أن كان كله باللغة الإنجليزية، وأنه أصر على هذا المطلب حتى استجاب له الإنجليز. .

ولسنا نقول إن سعدا كان صفرا. .

ولسنا نقول إنه كان العوبة في يد الاستعمار، يؤمر فيطيع، كما كان «زيور باشا» مثلاً، أو غيره من الذين كانوا لا يعرفون إلا تنفيذ الأوامر الصادرة إليهم. .

إنما نقول إن هناك اطمئناناً مبدئياً لدى الاستعمار الصليبي أنه سيقوم بعملية التغريب، وعملية التقريب. . وهو هدف رئيسي، يهون أمامه أن يستجيبوا له في تغريب التعليم، مادام التعليم ذاته سيظل على ذات المنهج الذي وضعه دنلوب، وأشرف على تنفيذه بكل دقة، بينما «الرياسة» في الوزارة لسعد زغلول!

لقد كان المعروف لدى الناس عموماً أن دنلوب هو الوزير الحقيقي في الوزارة، وبصرف النظر عن فكرة الناس فهذه هي الوقائع: لقد صار التعليم باللغة العربية نعم - وذلك أمر فيه من الخير ما فيه - ولكن ماذا يُعلّم الطلاب؟ هل سعى سعد - وهو صاحب الثقافة الأزهرية العربية الدينية - إلى إزالة الإجحاف المتعمد الذي وضعه دنلوب على معلم اللغة العربية، والذي ينشأ عنه ما ينشأ في نفوس الطلاب من ازدراء اللغة العربية وكل ما هو مكتوب بها، بينما مدرس اللغة الانجليزية - في التعليم المعرب - هو صاحب الصدارة، وصاحب الكلمة المسموعة؟ هل سعى سعد إلى إحياء درس الدين من الموات الذي فرضه عليه المنهج الدنلوبى الخبيث، بإعطائه لأهرم المدرسين وأعجزهم، ووضعه في نهاية اليوم المدرسى، وحذفه آخر العام من الجدول المختصر بوصفه «مادة إضافية»، وحصره في استظهار مجموعة من الآيات - بلا شرح ولا تفهيم - ومجموعة من النصوص لا تستجيب لشيء في عالم التلاميذ؟ هل سعى سعد إلى تصحيح منهج تدريس التاريخ - سواء منه الإسلامى أو الأوربى - الذى يخرج طلاباً لا يعتزون بتاريخهم، وتلوى أعناقهم لياً إلى أوربا، فيشبون على الانسلاخ من الإسلام والذويان في الغرب؟

إن هذا هو المحك. . وهذا هو الميزان الذى يوزن به «وزير المعارف» في بلد مسلم، يفتات الاستعمار الصليبي على إسلامه، ويهدف - كما قال كرومر صراحة - إلى زحزحته زحزحة كاملة عن حقيقة دينه، مع رعاية المظاهر الخاوية للإسلام، منعاً من إثارة الشكوك. .

هنا يصبح «وزير المعارف» بطلا حقيقا، يستحق الإشادة به، ويستحق أن يأخذ مكانه من التاريخ . .

فهل سعى سعد إلى شيء من ذلك؟ بل هل فكّر فيه مجرد تفكير؟ إن إصراره على تعريب التعليم عمل خير بلا شك، فقد أبقى الخيط موصولاً لا ينقطع، كما كاد ينقطع في الشمال الإفريقي<sup>(١)</sup> ولكن أفق سعد كان ينتهي عند هذه النقطة، لا يتجاوزها إلى النقطة الجوهرية، التي كان ينبغي أن يمتد إليها بحكم إسلامه أولاً، وبحكم ثقافته الأزهرية العربية الدينية ثانياً. فأين ذهب حساسيته «للإسلام» الذي يُجلبه دنلوب عمدا من مناهج التعليم، ويخرب قواعده في نفوس الدارسين؟

هنا ينبغي أن نرجع إلى لطفى السيد، وإلى «نازلى هانم»، وإلى أثر «الصالون» بعمامة في قلب الرجل الأزهرى دارس الشريعة الإسلامية والدين الإسلامى! فإن كرومر لم يضعه في وزارة المعارف إلا بعد أن اطمأن إلى «تهذيبه» و«تشذيبه» في الصالون!  
هذه واحدة . .

ثم كان سعد هو «السوكيل المنتخب» لمجلس شورى القوانين . . بحكم «شعبيته» الذائعة الصيت . .

وينبغي أن نعرف أولاً ما هو مجلس شورى القوانين . .  
إنه في ظاهره «مجلس نيابى» لتعويد الشعب أن يحكم نفسه بنفسه! وما كان الإنجليز حريصين قط - في أى بلد احتلوه - على أن يردوا السلطة للشعب الذى اغتصبوا حريته وأخضعوه لهم بالحديد والنار!

إنما كان الهدف الحقيقى من هذا المجلس هو إصدار «قوانين» تحكم البلاد بدلا من الشريعة الإسلامية! وما كان الاستعمار الصليبي - في مصر خاصة - يرغب أن يستقل بسلطة إصدار القوانين المعارضة للشريعة الإسلامية، رغم ماله من سلطان، كما صنع في الهند مثلا، لأن مصر بلد الأزهر، وبلد علماء الدين لعدة قرون . . ومن الخير له - حسب أسلوبه الذى اتبعه في مصر، الأسلوب البطيء

---

(١) عرب التعليم في الشمال الإفريقي بعد نضال كبير بعد خروج الفرنسيين. ولكن ما زال الفكر الغربى الذى دسه الاستعمار الصليبي يحتاج إلى جهد «إسلامى» لإزالة آثاره . .

الأكيد المفعول - أن تكون هناك سلطة «شعبية» هي التي تعطى «الشرعية» لهذه القوانين، فيكون «الشعب» هو الذى يصدر القوانين المخالفة للشرعية، بمعرفته وبرغبته! وتكون سياسة الاستعمار هي التظاهر بالغضب والاستياء من أن الشعب يريد أن يفرض إرادته على المستعمرين! وفي وسط «اللعبة» تمر القوانين المطلوبة كأنها «كسب» للشعب جاء رغم إرادة الاستعمار!

وكان للمجلس وكيلان، أحدهما معين والآخر منتخب، وكان الوكيل المنتخب هو سعد زغلول. . فقد كان له في ذلك الوقت من الشهرة الشعبية ما يجعله ينتخب بسهولة في ذلك المكان. .

نعم، كان هو «الممثل الشعبى» الذى يعبر - بمنصبه هذا - عن كون الشعب ممثلاً في المجلس. ولكن أى شعب كان يمثله سعد، وهو يصوغ القوانين المعارضة للشرعية الإسلامية ويمنحها الشرعية؟ هل هو شعب مصر المسلم، الذى ينبغى - بمقتضى إسلامه - أن يتحاكم إلى شريعة الله، ويرفض التحاكم إلى كل شريعة غير شريعة الله؟

وبصرف النظر عن حال الشعب يومئذ - من إقبال على الإسلام أو إدبار، أو إهمال لهذه القضية بالكلية - فإن سعداً ليس فرداً عادياً من الشعب. . بل هو قائد وزعيم. والقيادة معناها توجيه الأمة إلى ما ينبغى أن تتجه إليه، وإيقاظها له إن كانت غافلة عنه، وتجنيداً لها بكل طاقتها حتى تصل إلى تحقيقه.

وسعد - بثقافته - ليس بعيداً عن مجال الشريعة، بل هي مجال دراسته في الأزهر. . فأين ذهبت حساسيته للإسلام، حتى صار موضع فخره أنه الوكيل المنتخب للمجلس الذى يصوغ القوانين الوضعية لتحكم الناس بدلاً من الشريعة الإسلامية؟(١).

وهذه أخرى. .

ولكن الثالثة هي الأخطر. .

قامت الثورة المصرية عام ١٩١٩م عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى ببضع شهور. .

---

(١) نذكر بهذه المناسبة أن كرومر - في رثائه الشهير للشيخ محمد عبده - أبدى أسفه العميق على فقد ذلك «الصديق»، وأشاد بالذات بفتاواه التى كانت العون الأكبر لمجلس شورى القوانين.

وكانت هذه الثورة تعبيرا عن غضب الأمة المخترن منذ عهد الاحتلال . .  
وكان «الخرزين» الذي تفجر يحوى أشياء كثيرة، تجمعت على مدى الزمن فأدت  
إلى الاشتعال .

كان فيها الغضب الطبيعي من العدو الغاصب الذى يحتل البلاد بعساكره،  
ويهيئ - بوجوده - كرامة البلاد .

وكان فيها الاستياء من فرض «الحماية العسكرية» - فضلا عن الاستعمار - منذ  
قيام الحرب سنة ١٩١٤ ، وقد كانت فترة الحماية تتميز بالمزيد من الشراسة فى معاملة  
الشعب المهدر الكرامة ، فقد أنشئت المحاكم العسكرية ، وكانت تحكم على الناس  
بالإعدام لأدنى شبهة ، ولمجرد الإرهاب ، كما حدث فى «حادثة دنشواى» الشهيرة ،  
حيث ذهب مجموعة من الجنود الإنجليز يصطادون الحمام فى قرية «دنشواى»  
فأصيب أحدهم بضربة شمس فمات متأثرا بها ، فحكمت المحكمة العسكرية  
الانجليزية بإعدام مجموعة من الأهالى بتهمة أنهم هم الذين قتلوه! وكانت هذه  
الحادثة من الأشياء الشديدة الإثارة التى تجمعت - مع غيرها - لإحداث الثورة . .

وكان فيها الاستياء من سلب الفلاحين دوابهم التى يعتمدون عليها فى  
أرزاقهم ، مع سلبهم أقواتهم الضرورية من الغلال ، تحت ذريعة أن السلطة  
العسكرية فى حاجة إليها لحماية البلاد! وقد كانت تذهب فى حقيقتها لتموين  
«الجيش العربى!!» - الذى جندته انجلترا لمحاربة دولة الخلافة بقيادة لورد ألبنى  
Lord Allenby ، الذى قال وقت أن دخل القدس عام ١٩١٧ : الآن انتهت  
الحرب الصليبية! والذى صرح قائلا: لولا معاونة «الجيش العربى» ما استطعنا أن  
نتغلب على دولة الخلافة!<sup>(١)</sup>

وكان فيها استياء أهل القاهرة بالذات من أفاعيل جيش «الأنزاك» ANZAC<sup>(٢)</sup>  
المكون من خليط من الاستراليين والنيوزيلنديين ومجندى جنوب أفريقيا وكندا ، فقد  
عاثوا فى القاهرة فسادا وانتهكوا الأعراض ، وكان الواحد منهم يدخل أى بيت بلا

(١) سنعرض للثورة العربية «الكبرى!» وللجيش العربى الذى قاتل دولة الخلافة فيها بعد .

(٢) ترمز هذه الحروف إلى الدول التى جاء منها أولئك الجنود ، على طريقة اللغات الأوربية فى أخذ حرف من كل  
اسم (هو عادة الحرف الأول) وجمعها فى شكل كلمة إذا أمكن . فهذه الدول فى لغتها الأصلية هى :

. Africa, New Zealand, Australia, Canada . ومجموع الحروف الأولى يكون كلمة ANZAC .

تميز ليرتكب الفاحشة، ويعلق قبعته على الباب بمثابة أمر بعدم الاقتراب! فإذا وجد مقاومة قتل الذين يقاومونه برصاص مسدسه . . وكانت هذه بالذات من أشد ما أثار الثورة في نفوس المصريين .<sup>(١)</sup>

ولكن أشد العوامل التي حفزت المصريين للثورة - إلى جانب ذلك كله - كان عزل مصر رسميا عن دولة الخلافة منذ إعلان الحماية، وقطع صلتها بها نهائيا، وجعلها تابعة لبريطانيا . .

وما كانت الصلة بدولة الخلافة ذات واقع عملي في مجال السياسة . . فمنذ عزل الخديو توفيق، وإخضاع مصر للاحتلال البريطاني، لم تعد مصر - عمليا - تابعة لدولة الخلافة وإن كانت كذلك بالاسم . . أما الصلة الروحية فقد بقيت في نفوس المصريين، وكانت هي الرباط «الإسلامي» الذي يربط المصريين المسلمين بدولة الإسلام.

وبصرف النظر عن كل السوء الذي كان واقعا في الدولة العثمانية ذاتها، وصارفا لها عما ينبغى لها من الروح الإسلامية،<sup>(٢)</sup> فقد كانت في قلوب المسلمين في كل الأرض «رمزا» مرتبطا في قلوبهم بالإسلام . . ومثالا له في عالم العيان .

فلما أعلنت انجلترا الحماية العسكرية على مصر بعد قيام الحرب، فصلت مصر نهائيا عن الدولة العثمانية . . فكان ذلك - كما قلنا - أمرا شديدا وقع على النفوس، وكان له في إحداث الثورة أثر بليغ . .

باختصار . . كانت الثورة «إسلامية» في جوهرها . . يقوم بها الشعب المسلم في مصر تجاه الغاصبين الكفار . . وكانت تنطلق من الأزهر، مهد الإسلام، بالضبط كما انطلقت من قبل أيام نابليون . .

ولكن تحولا خطيرا طرأ على الثورة . . كان عماده سعد زغلول!

ولنعد إلى «وثائق» الثورة نقرأ على ضوءها التاريخ!

نشرت صحيفة الأهرام في عام ١٩٦٩م بعض وثائق المتحف البريطاني الخاصة

---

(١) من أجل ذلك حرص «الخلفاء» في الحرب العالمية الثانية على استصحاب جيش من «البغايا» خاص بهم . وشددوا على جنودهم ألا يتعرضوا للنساء المصريات خوفا من تكرار رد الفعل الذي حدث بعد الحرب الأولى . ولكنهم في جميع الأحوال لا يستغنون عن الفاحشة، لأنهم جنود جاهلية همجية!  
(٢) كان حزب الاتحاد والترقي يثير في تركيا النعرة الطورانية ويدعو إلى تترك الدولة . مما تناوله فيما بعد .



هل هو الخوف على الزعامة والمكانة الشعبية؟ هل هو الخوف من أن يسبقه غيره إلى عمل شيء كمحمد محمود أو غيره؟

لا نخوض كثيرا في هذا الأمر. . ولنحسن الظن. . ولنقل إن كلام محمد محمود قد شجع سعدا على التحرك. . فقرر العمل. .

لكن الذى نقف عنده هو الوثيقة التى تتحدث عن لقاء «الوفد» للسير «ونجيت» Wingate المندوب السامى البريطانى فى ذلك الحين. .

تحدث سعد عن تدمير الأمة، وحالة الفوران التى تغلّى فى الصدور، وطالب برفع الحماية وتغيير الأحوال. .

تقول الوثيقة إن المندوب السامى استمع إلى الوفد - باستنكار طبعاً - ثم قال: كأنكم تريدون الاستقلال!! فقال سعد: نعم! نريد الاستقلال!

نقف هنا لنحاول إلقاء نظرة على فكر سعد زغلول فى تلك اللحظة. إن «الاستقلال» لم يكن وارداً فى ذهن سعد، ولا فى كلامه مع المندوب السامى. إنما الذى كان وارداً هو رفع الحماية العسكرية، وتخفيف قبضة الاستعمار على البلاد.

ولكن المندوب السامى - بقدر من الله - هو الذى نطق بكلمة «الاستقلال» ولعله كان يتصور أن «مندوبى الأمة» - التى يعلم المراقبون أنها فى حالة فوران - لن يكون

مطلبهم أقل من الاستقلال!

أيا كان الأمر، فقد التقطها سعد، وقال: نعم! نريد الاستقلال!

وقال ونجيت - كما هو متوقع - إن هذا مطلب لا يمكن أن يوافق عليه. وقال

إنه سيرفع الأمر للحكومة البريطانية. .

واندلعت الثورة على إثر رفض المندوب السامى «المطالب الأمة». .

وكانت ثورة عارمة. . اشترك فيها الشعب كله إلى أقاصى الصعيد. .

وكانت القاهرة - بطبيعة الحال - هى مركز الثورة. . فكانت المظاهرات تخرج

يومياً من الأزهر، بعد أن تستمع إلى الخطباء الذين يشعلون حماسة الجماهير ضد

المستعمر الغاصب، فيتلقفها جنود الاحتلال بالمدافع الرشاشة، فيسقط كل يوم

قتلى، فتزيد الثورة اشتعالاً مع الدماء السائلة والرصاص المصوب إلى الصدور. .

ونفى سعد و«صحبه الكرام» بتعبير الصحافة المصرية الموالية للثورة، بحسبان

أن نفى الزعماء سيقضى على الثورة ويمكن الإنجليز من السيطرة على الموقف.

ولكن الثورة ازدادت حدة - كما كان متوقعا من ذلك الإجراء في تلك الظروف - فسحبت بريطانيا مندوبها السامى من مصر وعينته في وظيفة أخرى، على طريقة الإنجليز في معاقبة من يفشل في خطته من كبار موظفيها! وجاءت باللورد ألبني مندوبا ساميا في مصر على أمل أن يقضى على الثورة ويريح منها الحكومة البريطانية . .

كان ألبني هو القائد «المظفر» الذى تغلب على جيش دولة الخلافة . . وهو رجل عسكري له هيبة «العساكر» فربما أدت هيئته بالمصريين إلى الخوف من العواقب، والكف عن المقاومة، وإنهاء الثورة . .

تقول وثيقة أخرى أن ألبني مكث شهرا كاملا يدرس الأحوال في مصر قبل أن يقدم على قرار (والثورة ماضية في طريقها على ذات الصورة) ثم أرسل تقريرا مطولا إلى حكومته (منشور بكامله في الوثيقة) أبرز ما فيه جملتان ذواتا دلالة عميقة وأهمية بالغة:

«إن الثورة تنبع من الأزهر، وهذا أمر له خطورته البالغة» . . «أفرجوا عن سعد زغلول وأعيدوه إلى القاهرة!»

لقد أدرك الرجل الداهية - وما كان في حاجة أن يكون داهية لكى يدرك - أن الثورة تنبع من الأزهر - أى أنها ثورة دينية إسلامية - وأن هذا الأمر له خطورته البالغة!

إن أعداء هذا الدين يعلمون جيدا أن أخطر شئ عليهم هو روح «الجهاد» في هذا الدين . إنهم أقوى عسكريا بلا شك، ويملكون كل وسائل الإرهاب في أيديهم، وقد يستطيعون إخماد الثورة في النهاية، ولكن ذلك يكلفهم الكثير الكثير . ثم هو غير مأمون العواقب في جميع الأحوال . فالجهاد الإسلامى روح لا تخمد . . إن سكنت حيننا بالهزيمة العسكرية فإنها لا تموت، ويمكن أن تتجدد مرة أخرى في أى حين .

والحل المقترح: «أفرجوا عن سعد زغلول وأعيدوه إلى القاهرة!»

ونفترض أقصى ما يمكن من حسن الظن، فنقول إن لورد ألبني رأى أن السبب الذى أدى إلى اتساع نطاق الثورة واشتداد المقاومة هو نفى سعد زغلول، وأن إرجاع سعد قمين بأن يهدئ الخواطر الثائرة وينهى الثورة . .



ولكن سلوك سعد بعد عودته هو الذى يلجئنا إلى قراءة العبارة الواردة في آخر تقرير ألنبي على نحو آخر، يجعل لها ارتباطا مباشرا بالعبارة الأولى الواردة في أول التقرير، والتي تشير إلى الطبيعة «الدينية» للثورة . . .  
عاد سعد ليقول: الدين لله . . . والوطن للجميع!

ومعنى العبارة واضح . . .  
الدين لله، أى بينكم وبين الله . . . فلا تذكره في هتافاتكم وفي حركتكم،  
واذكروا «الوطن» واجعلوه موضع التركيز!  
عبارة أخرى: تحويل الثورة من ثورة دينية إسلامية، إلى ثورة وطنية لا علاقة لها بالدين .

ومن كان في شك من دلالة العبارة التي جعلها سعد شعارا للثورة، فلينظر في «الجميع» الذين يعينهم سعد، بعد قوله «الدين لله» . إن الجميع المقصودين في العبارة هم الأقباط والمسلمون . وكان الأقباط قد اشتركوا في الثورة بعد قيامها لأن الظروف القائمة كلها يومئذ كانت تؤدي إلى اشتراكهم . . . فسعد يريد أن يقول - بل قال بالفعل - لا ترفعوا الشعارات الإسلامية على الثورة - من أجل الأقباط المشتركين فيها - وارفعوا «الوطن» شعارا للثورة، لأن هذا الشعار هو الذى يتسع «للجميع» . . . أما الدين فهو لله، أى أمر خاص، بين الإنسان وبين الله، يُسرّه الإنسان ولا يعلنه! (١) .

كأن وجود الأقباط في مصر يمنع المسلمين أن يكونوا مسلمين! ويمنعهم من أن يعلنوا إسلامهم! ويمنعهم من أن يتحركوا بمقتضى إسلامهم! ويمنعهم - حين ينطلقون من منطلقات إسلامية - أن يقولوا إنهم ينطلقون من منطلقات إسلامية!!  
من قال هذا؟ وكيف تقرر؟! وعلى أى أساس تقرر؟!

إن الأقباط يعيشون في مصر منذ أربعة عشر قرنا . . . منذ الفتح الإسلامى لمصر . . . يعيشون في سلام وأمن لا تتمتع به أية أقلية في أى مكان في الأرض إلا في

---

(١) يتضح هذا من لائحة «حزب الوفد» الذى أسسه سعد زغلول بزعامته، فقد نص في هذه اللائحة نصا صريحا على تحريم الخوض في الأمور الدينية (أى عدم ذكر الدين إطلاقا في داخل الحزب، وهو نفس الشعار الذى أطلقه سعد على الثورة) كما أن حزب الوفد الجديد أعلن - بمناسبة النقاش الذى دار حول دخول الإخوان المسلمين للانتخابات باسم الحزب - أن الحزب كان «علمانيا» منذ نشأته!

ظل الإسلام . وقد كان الإسلام هو الذى أخرجهم من الذل الساحق الذى كانوا يعانونه فى ظل الدولة الرومانية - المسيحية! - بسبب اختلاف المذهب؛ والإسلام هو الذى رد إليهم كرامتهم الضائعة، حتى ذهب الرجل القبطى ألوف الأميال ليشكو إلى عمر ضربة عصا ظالمة وقعت على ابنه من ابن عمرو بن العاص، بينما كانوا يتلقون السياط أيام الرومان وهم صاغرون . وبشأنهم أبرز عمر هذا المبدأ الإسلامى العظيم: يا عمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا!

وعاش الأقباط هذا الزمن المتطاوّل فى أمن وسلام وحرية، لم تذقه قط أية أقلية إسلامية وقعت تحت حكم النصارى . وأقرب الأمثلة هو الحبشة، المرتبطة تاريخيا بالكنيسة القبطية المصرية، والتي يبلغ تعداد المسلمين فيها أكثر من ٦٥٪ من سكانها، ومع ذلك فهم مسحوقون مستذلون، لا يعينون فى وظائف الدولة، ولا يتولون منصبا واحدا من المناصب الكبيرة، ولا يعلمون دينهم فى مدارس الدولة الرسمية، ولا يسمح لهم بفتح مدارس إسلامية تعلم أطفالهم مبادئ دينهم، وحين يفتحون «كتاتيب» لتحفيظ القرآن تظل الدولة تفرض عليها الضرائب حتى يضطر أصحابها إلى إغلاقها . . وفى هيئة الأمم - على ملاء من العالم كله - قال هيلاسلاسى ملك الحبشة السابق: إنه فى خلال اثنى عشر عاما لن يكون فى الحبشة إلا دين واحد!! أى أنه سيسحق المسلمين ويبيدهم، أو يطردهم من أرضهم . . ولم يتحرك صوت واحد فى العالم كله بالاستنكار!

أما فى مصر فلم يحدث شىء من هذا كله، ولا يمكن أن يحدث، طالما كان المسلمون مسلمين محافظين على إسلامهم . . لأن الإسلام هو الذى يأمرهم بالعدل، وهم يقومون به لله، لا لمصلحة أرضية هنا أو هناك؛ وكلما زاد تمسكهم بإسلامهم زاد حرصهم على إحقاق الحق وتطبيق العدل الربانى:

«فلذلك فادع، واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل: آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لا حجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا، وإليه المصير»<sup>(١)</sup> .

فكيف يكون وجود الأقباط - المكرّمين المعززين فى ظل الإسلام - مانعا للمسلمين أن يكونوا مسلمين، وأن يعلنوا إسلامهم، وأن يتحركوا بمقتضى

(١) سورة الشورى [١٥] .

إسلامهم، وأن يعلنوا - حين ينطلقون من منطلقات إسلامية - أنهم ينطلقون من منطلقات إسلامية؟!!

وكيف جرى هذا التحول الكبير، في قلب الزعيم «المسلم» الكبير؟!!

ولنتظر الآن من الجانب الآخر. . جانب العدو الصليبي المستعمر. .

إذا وقعت الواقعة، وحدثت الثورة - على كره من الاستعمار - فأيهما أهون عليه: حركة «الجهاد» الإسلامية، أم الحركة «الوطنية» التي تبعد الدين من مجالها، وتتحرك باسم «الوطن» فحسب؟!!

الفارق - لا شك - كبير. . ويعرف الفارق جيدا أولئك الذين يعرفون هذا الدين كما يعرفون أبناءهم!

فحين تكون الحركة جهادا إسلاميا فالقضية واضحة: مسلمون ناثرون، يجاهدون عدوا صليبيا يحتل بلادهم. فهل يتصور فيهم أن يلتقوا مع العدو الصليبي في منتصف الطريق؟ هل يتصور فيهم أن «يتفاهموا» مع عدوهم على شيء؟ هل يتصور فيهم أن يسكتوا على حركة التغريب وحركة التقريب؟ هل يتصور فيهم أن يسكتوا على تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم، ويسكتوا على الغزو الفكري المتمثل في المنهج الذي وضعه دنلوب للتعليم والمنهج الذي تتبعه وسائل الإعلام بمعاونة المستعمر الصليبي؟!!

أما حين تكون حركة وطنية فكل هذا جائز! بل لقد وقع بالفعل! ففي ظل الحركة الوطنية قام التغريب والتقريب، واتسع نطاق الغزو الفكري، واستمر المنهج الدنلوبى، واستمرت وسائل الإعلام تؤدي «مهمتها» في إبعاد المسلمين عن الإسلام!

فإذا وقعت الواقعة - على كره من الاستعمار - وثار المصريون. . فأيهما أهون على العدو الصليبي المستعمر: حركة الجهاد الإسلامية أم الحركة الوطنية؟!!

هل كان عجباً إذن أن يشير ألبني في تقريره إلى أن الثورة تنبع من الأزهر، وأن هذا الأمر له خطورته البالغة، وأن يشير على حكومته بالإفراج عن سعد زغلول وإرجاعه إلى القاهرة؟!!

ونفترض جدلاً أن الرجل الداهية قد غفل عن هذه المعانى كلها - التي لم يغفل عنها قط صليبي مستعمر في أرض الإسلام - وأن إشارته على حكومته بالإفراج عن

سعد وإرجاعه إلى القاهرة كانت «بريئة» تماما من أى معرفة سابقة بما حدث في قلب الزعيم «المسلم» الكبير في صالون نازلى فاضل، من تأثر بأفكار أستاذه «أستاذ الجليل»، وتأثر بصحبة اللورد كرومر، وتأثر «بتحرر» نازلى هانم، وغير ذلك من المؤثرات. . فإن الذى حدث بالفعل أن سعداً بعد عودته قَبْلَ وقف الثورة على أساس «التفاوض مع الانجليز» وأنه قال بعد فشل المفاوضات كلمتيه الشهيرتين: «خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز» و. «الإنجليز خصوم شرفاء معقولون»!!! ورضيت بذلك الجماهير!!!

### (٥) بروز الزعامات العلمانية وخلق الساحة من القيادة الدينية

كان التحول هائلا في الحقيقة. . ولكنه تم! وتم في يسر عجيب لا بد لنا من دراسة أسبابه.

كانت «اللعبة» التي لعبها الإنجليز في مصر - وكررها الفرنسيون بعد ذلك مع «بن بيلا» في الجزائر - هي نفي «الزعيم» - بعد الاطمئنان إلى تحوله عن الروح الإسلامية والمنطلق الإسلامى - ثم إعادته بعد فترة من الوقت ليصبح «معبود الجماهير»!<sup>(١)</sup> وليحول الثورة من مسارها الإسلامى إلى مسار آخر، مهما يكن من أمره فهو أهون على أعداء الإسلام من «الجهاد» تحت راية الإسلام.<sup>(٢)</sup> تحول سعد في حس الجماهير إلى أسطورة. .

ولئن كانت براعته الخطابية من قبل قد جمعت حوله الجماهير إلى حد الهوس، فإن نفيه ثم إعادته قد ضاعفت هوس الجماهير إلى الحد الذى تعبر عنه صحافة ذلك الوقت بالعبادة!

أصبح ما يقوله سعد هو الحق مهما كان مخالفا للحق! وأصبح ما يفعله سعد هو الصواب، أو أصبح على الأقل مسكوتا عنه ولو كان أبشع الأفاعيل!

(١) هذا هو اللقب الذى أطلقته الصحف الوفدية على سعد. . ونستعذ بالله من الكفر.

(٢) كانت الراية التى رفعها بن بيلا هي الاشتراكية. وسيأتى الحديث عن الاشتراكية فيما بعد.

كان سعد يقامر - كما أقر في مذكراته - ويغرق في لعب القمار حتى يخسر أمواله، وأعداؤه السياسيون يكشفون للجماهير ذلك، فتبتلع الجماهير ذلك، وتزداد تعصبا لسعد كلما أوغل أعداؤه السياسيون في النيل منه! وكان يفطر في رمضان، ويشرب الخمر - حتى في رمضان - ويذيع عنه أعداؤه ذلك، فيعتذر عنه المعتذرون بأنه ضعيف لا يقوى بدنه على الصيام - فهو من أهل الأعذار - وأن الطبيب قد نصحه بأخذ جرعات من الخمر بين الحين والحين لإصلاح معدته! (١) فتبتلع الجماهير إفطاره في رمضان وشربه الخمر، وتزداد تعصبا له!!

وكان يوظف أقاربه وأصحابه في الوظائف الكبيرة، ويعيب عليه أعداؤه هذه «المحسوية» فيرد عليهم متحديا: «سأجعلها زغلولية لحما ودما» فتصفق الجماهير إعجابا بالزعيم الكبير!!

وفي النهاية لم تعد القضية عند الجماهير هي قضية «الوطن» - حتى بعد تحولها من قضية إسلامية إلى قضية وطنية - بل أصبحت القضية هي قضية سعد زغلول! فإذا كان هو راضيا فالجماهير راضية، بصرف النظر عن الأمر الذي هو راض عنه، وإذا كان غاضبا فالجماهير غاضبة، بصرف النظر عن الأمر الذي هو غاضب من أجله! يستوى في ذلك الجهلاء والمثقفون، الأغنياء والفقراء، العمال والفلاحون، الطلاب والموظفون. إلا فريقا ضئيلا من الأمة خارجين على هذا «الإجماع» يوصفون بأنهم خونة مارقون. . وما كانوا بالفعل أفضل من سعد وأتباعه، إنما كان الأمر حسدا في أنفسهم من مكانة سعد عند الجماهير!

كيف تم ذلك؟!

هل يكفي لتفسيره مقدرة سعد الخطابية الفذة، التي كانت تعتبر من النماذج التاريخية الفذة؟

هل تكفي «اللعبة» التي لعبها الإنجليز بنفى سعد، ثم إرجاعه بعد تضخيمه - بنفيه - في حس الجماهير؟

هل يكفي ما يحدث كثيرا في نفوس «الجماهير» - على مدار التاريخ - من نسيان الهدف الأصلي والتعلق «بالرمز»، حتى يصبح الرمز هو الهدف في النهاية؟

---

(١) كان هذا دفاع العقاد عنه في كتابه «سعد زغلول»!

إن هذا كله يمكن أن يكون تفسيراً جزئياً لما حدث، ولكنه لا يكفي - وحده - للتفسير .

لا بد أن نضع في حسابنا حقيقتين كبيرتين أبعد تأثيراً من العوامل السابقة كلها، على كل ما لهذه العوامل من التأثير.

الحقيقة الأولى : هي «الخواء» الذي أصاب الحياة الإسلامية كلها، برغم وجود «عواطف إسلامية» تنفعل بها القلوب . .

لقد كان في الثورة - قبل أن يحولها سعد إلى ثورة وطنية - عواطف إسلامية، تتجه إلى دولة الخلافة، و«ثور» حين يفصل ما بينها وبينها، و«ثور» ضد «الكفار» المغتصبين (فقد كانت هكذا أحاديث الناس عند بدء الثورة وخاصة في الريف) وتتجه إلى الأزهر ليقودها، لأنه هو الجدير - في حسها - أن يقود الثورة الإسلامية . . ولكن . .

كم كان وعى المسلمين «بالإسلام»؟! وكيف كانت حقيقته في إحساسهم؟! وبالذات ماذا كان في حسهم من قضية «الحكم بما أنزل الله»؟ هل كانوا على وعى من أنها «مقتضى الإسلام» ومحكه الحقيقي، أم إنها «كمالات» يتمنى الناس وقوعها ولكن عدم وجودها لا يؤثر في «إسلامهم»؟!!

هذه هي القضية الرئيسية في التحول الخطير، الذي حدث بهذا اليسر العجيب في حس «الجماهير» . .

لو كان هناك وعى إسلامي حقيقي؛ لو كان هناك إدراك واع حاسم بأن الحكم بما أنزل الله هو المقتضى الطبيعي والمقتضى الأول لشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأن الناس لا يكونون مسلمين إذا رضوا بحكم غير حكم الله . . لو كانوا كذلك ما سهل تحويلهم إلى القضايا «الوطنية» التي يوضع شعاراً لها: الدين لله والوطن للجميع، ويمنع في نشاطها السياسي الخوض في أمور الدين . . أما الحقيقة الأخرى : فهي خلو الساحة من القادة الطبيعيين لهذه الأمة، وهم «علماء الدين» .

لقد كان علماء الدين دائماً في تاريخ هذه الأمة هم قادتها وموجهيها، وهم ملجأها كذلك إذا حزهم أمر، وملاذها عند الفزع . . تتجه إليهم لتلقى علم الدين منهم، وتتجه إليهم ليشيروا عليها في أمورها الهامة، وتتجه إليهم إذا وقع

عليهم ظلم من الحكام والولاة ليسعوا إلى رفع الظلم عنهم ، بتذكير أولئك الحكام والولاة برهيم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . وكان العلماء يضطهدون من قبل ذوى السلطان أحيانا، ويلقون في السجون أحيانا، ويؤذون في أبدانهم وأموالهم وكراماتهم أحيانا . ولكنهم يصمدون لهذا كله، تقديراً لمسئوليتهم أمام الله - وهم الذين منّ الله عليهم بمعرفة دينه - حين يسألهم ربهم يوم القيامة عن «الأمانة» الكبرى الملقاة على عاتقهم ، عن مهمة هداية الناس إلى الحق - حاكمهم ومحكومهم - ومهمة النصيحة في الدين لأولى الأمر خاصة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للراعى والرعية سواء، وإمامهم - صلى الله عليه وسلم - يشجعهم على احتمال البلاء في سبيل هذه الأمانة فيقول لهم: «سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» (١)

وكما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها في أمورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية، كانوا كذلك دعاتها إلى الجهاد كلما حدث على الأمة عدوان . . يذكرونها بالله واليوم الآخر، وبالجنة التي تنتظر المجاهدين الصادقين، وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم أحيانا، بل يقودون الجيوش بأنفسهم في بعض الأحيان . .

تلك كانت مهمة علماء الدين والدين حيّ في النفوس . . وفي التاريخ نماذج عديدة لعلماء أرضوا ربهم وأدوا أمانتهم وجاهدوا في الله حق جهاده، وصبروا على ما أصابهم في سبيل الله فما ضعفوا وما استكانوا . .

فأين كان «العلماء» في تلك الفترة التي نحن بصدددها من التاريخ؟ هل كانوا في مكان القيادة الذي عهدتهم الأمة فيه إلى عهد ليس ببعيد . . آخره موقفهم من حملة نابليون؟

هل كانوا هم حماة الأمة من العدوان؟ وحماتها من الظلم الواقع عليهم من ذوى السلطان؟

هل كانوا هم الذين يطالبون للأمة بحقوقها السياسية وحقوقها الاجتماعية وحقوقها الاقتصادية؟

---

(١) أخرجه الحاكم (١٩٥/٣) وقال: صحيح الإسناد .

هل كانوا هم الذين يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقومون إلى الإمام الجائر فيأمرّونه وينهونه، قتلهم أم لم يقتلهم؟  
 أم كان كثير منهم قد استعبدوا أنفسهم للسلطان، ومشوا في ركابه، يتملقونه وباركون مظالمه فيمدونه في الغي؛ بينما البقية الصالحة منهم قد قبعت في بيوتها، أو انزوت في الدرس والكتاب، تحسب أن مهمتها قد انتهت إذا لقنت الناس «العلم».. وهو علم مطلوب في ذاته، ولكن كثيرا من فائدته ضائع، لأنه يعيش بقضاياها في الماضي، ولا ينظر إلى الحاضر فضلا عن أن ينظر في المستقبل!  
 إن «العلم» الديني الموجود في تلك الكتب زاد ضروري لكل متخصص في علوم الشريعة،<sup>(١)</sup> ولكن لا يقف عنده، بل ليحمله مرتكزا ينطلق منه إلى دراسة الحاضر، دراسة إسلامية علمية. أي النظر في الحاضر: هل هو مستوفٍ لشروط «الصحة» الإسلامية، منضبط بضوابط العقيدة والشريعة، أم منحرف عنها، أم ناقص في بعض جوانبها، ثم تقديم العلاج الإسلامي لجوانب النقص وجوانب الانحراف.

بعبارة أخرى، كان واجب العلماء أن «يتحركوا» بهذا الدين، و«بالعلم» الذي يعلمونه من هذا الدين، لصياغة المجتمع صياغة إسلامية صحيحة، ووضع كل من الحاكم والمحكوم في وضعه الصحيح، بردّ الحاكم إلى الالتزام بشريعة الله، فيزول من ثم ما هو واقع في المجتمع من ظلم سياسي واجتماعي واقتصادي، وردّ المحكومين إلى الالتزام بأوامر الإسلام ونواهيه، فيزول من ثم ما هو واقع في المجتمع من فساد خلقي وروحي وسلوكي.. أو الجهاد في سبيل هذا الأمر على الأقل، فيتحقق من الإصلاح بقدر ما يخلص الناس نياتهم لله، وبمقدار ما يبذلون من الجهد اللازم للإصلاح.

ثم كان واجب العلماء أن «يجتهدوا» - بما فقهوه من فقه هذا الدين - ليضعوا الحلول الإسلامية - المستمدة من مصادر التشريع الإسلامي - للمشكلات التي جددت في حياة الناس. فمهمة الفقه الدائمة هي مد ظل الشريعة - بالاجتهاد -

(١) فيها عدا ما اندس في «التراث» من أمور تخالف المنهج الإسلامي من جهة، ولا يترتب عليها مصلحة إسلامية من جهة أخرى كالفلسفة المسماة إسلامية، وعلم الكلام بكل قضاياها الجدلية الذهنية التجريدية الفارغة، وأمثال ذلك من المباحث.



حتى يغطي كل ما يجد في حياة الناس، وضبط ما يجده في حياة الناس بضوابط الشريعة لكي لا تشرذم بعيدا عن المنهج الرباني الذي أنزله الله ليحكم كل الحياة. فهل كان العلماء على المستوى اللازم لهذه المعركة الضخمة في ذلك الحين؟! وما نريد أن نظلمهم، فقد كان منهم ولاشك من صدع بكلمة الحق، ومنهم من ألقى بالمنصب تحت قدميه حين أحس أنه يستعبده لأولى السلطان أو يلجمه عن كلمة الحق، ومنهم من فكر واجتهد. ولكنهم قلة بين الكثرة الغالبة التي راحت تلهث وراء المتاع الأرضي، أو تقبع داخل الدرس والكتاب، على ما فيها من جوانب القصور.

وحين كانوا كذلك كان قد برز في الساحة زعماء علمانيون - صاغهم الاستعمار والغزو الفكري - يطالبون بحقوق الجماهير! يطالبون أن تكون «الأمة مصدر السلطات» وأن يكون للحاكم حدود يلتزم بها ولا يتجاوزها، وأن يكون هناك «دستور» يحدد اختصاص كل من السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية، و«برلمان» يجمع «ممثلي الأمة» ويكون له وحده حق إصدار القرار. وينادون في الوقت ذاته «بالإصلاح» في كل المجالات: في مجال التعليم. في مجال الاقتصاد. في مجال الخدمات الصحية. في مجال المرافق العامة. وينادون بإزالة التخلف الذي وقعت فيه الأمة في كل ميدان. . . التخلف العلمي والحضارى والفكرى والمادى. . .

باختصار يقومون بمهمة «القيادة» التي تقاعس عنها علماء الدين، بالإضافة إلى عنصر آخر - يفتقده علماء الدين في ذلك الوقت - هو اطلاعهم على أحوال العالم الحاضرة، والمأمهم بثقافة العصر، وتمرسهم ببعض الخبرات العملية على الأقل في بعض المجالات. . .

حين كان الأمر على هذه الصورة فأين كان يتوقع أن تتجه الجماهير؟! صحيح أن الجماهير تبينت - فيما بعد - أن هذا كله كان أسطورة ضخمة! تبينت أن «الديمقراطية» المزعومة إن كان لها ممارسات حقيقية في بلادها الأصلية فهي عندنا مجرد تمثيلية مضحكة لا تجعل للأمة رقابة حقيقية على أصحاب السلطان! وأن «ممثلي الأمة» لا يمثلونها في شيء حقيقى، وإنما يمثلون مصالحهم الشخصية، ومصالحهم الشخصية يومئذ هي مصالح الإقطاع الطاغى، ومصالح

الراسمالية النامية، الآخذة في زحزحة الإقطاع العتيد، وأخذ مكانه في السلطان والطغيان سواء!<sup>(١)</sup> وأن الفساد الذي نجم من الحزبية التي فرقت الأسر وأزنت العداوات والأحقاد، والذي نجم من فساد الذمم والضياير حين فشت المحسوية، ولم يعد يقدر أحد بما يشتمل عليه من حق، ولا بما يعمل من حق، إنها بمقدار قربه من الحزب الحاكم، ومقداره انتهازيته ووصوليته. . هذا الفساد أكبر وأخطر من كل «كسب» حصلت عليه الأمة، إن كانت قد حصلت على أى كسب على الإطلاق!

وفضلا عن ذلك كله فقد نسيت الأحزاب - التي نشأت أصلا من «الحركة الوطنية» - قضيتها الوطنية، ونسيت «الوطن» كله وكل دعاوى «الإصلاح» التي قامت من أجلها. . وانغمست في «لعبة الحكم» تضع فيها همها كله وجهدها كله. . وتصبح في النهاية - على اختلاف زعمائها وقادتها - العوبة في يد الاستعمار ينفذ من خلالها ما يريد!

حقا! لقد اكتشفت «الجهاهير» ذلك كله فيما بعد. . أما في مبدأ الأمر فقد كانت «اللعبة» تأخذ بالألباب، يزيد من تزيينها في أعين الجهاهير غياب القيادة الطبيعية لهذه الأمة، المتمثلة في علماء الدين. .

ومن جانب آخر. . هل قام علماء الدين بتسوية أمتهم في قضية الإسلام الرئيسية: قضية التوحيد؟

هل قالوا لهم: إن التوحيد الذي أمر الله به، وأرسل به رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنزل به كتابه المعظم، هو الاعتقاد اليقيني بوحداية الله في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، وتقديم الشعائر التعبدية له وحده بلا شريك، وتحكيم شريعته وحدها، وعدم التحاكم إلى أى شريعة سواها. . وأن الإخلال بأى واحدة من هذه الثلاثة هو إخلال بالتوحيد، ومن ثم فهو شرك ينقض الإسلام؟

وهل علموهم أن هذا الدين قول وعمل، وأنه لم ينتزل ليكون مجرد وجدانات في القلب، أو مجرد شعائر تؤدي، إنها هو إلى جانب الوجدانات والشعائر عمل

---

(١) الحقيقة أن الديمقراطية - حتى في بلادها الأصلية - تمثل مصالح الراسمالية قبل كل شئ. آخر، ولكن الجهاهير لم تبين ذلك إلا في موجة «الاشتراكية». انظر فصل «الديمقراطية» من كتاب «مذاهب فكرية».

بمقتضى المنهج الربانى فى واقع الأرض ، وأول العمل تحكيم شريعة الله؟ هل نبهوهم إلى الانحرافات العقيدية التى هم واقعون فيها، ودعوهم إلى نبذها، ودخلوا فى «جهاد» من أجل تقويمها، سواء كانت الانحرافات هى التبرك بالأضرحة والمشايخ والأولياء والتوجه إليهم لجلب النفع ودفع الضر، أو كانت هى تحكيم غير شريعة الله، أو كانت هى الفكر الإرجائى الذى يخرج العمل من مقتضيات الإيمان؟

هل قام محمد عبده مثلا، وتلميذه الشيخ رشيد رضا، ببيان التوحيد على هذه الصورة الربانية التى عرفها السلف الصالح من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وطبقوها فى واقع حياتهم؟ أم إن الأمر كان على العكس من ذلك: تطويع الأمة «للواقع» المخالف للإسلام، على أنه «ضرورة» لا بأس بالأخذ بها، وتنويم «العزائم» التى يمكن أن تنجيه إلى الجهاد الحقيقى لرد الواقع إلى الإسلام؟! محمد عبده يصدر الفتوى بإباحة ربا صندوق البريد، ويصدر الفتاوى التى تعين مجلس شورى القوانين على إصدار القوانين المخالفة للشريعة. والشيخ رشيد رضا يدعو المسلمين لطاعة الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله! قال الشيخ فى فتوى عجيبة تجمع بعض الحقائق الإسلامية الأصيلة الناصعة إلى جانب حشد من المغالطات:

«وحكم الله العام المطلق، الشامل لما ورد فيه النص، ولغيره مما يعلم بالاجتهاد والاستدلال، هو العدل. فحيثما وجد العدل فهناك حكم الله، كما قال أحد الأعلام»<sup>(١)</sup>.

«ولكن متى وجد النص القطعى الثبوت والدلالة، لا يجوز العدول عنه إلى غيره إلا إذا عارضه نص آخر اقتضى ترجيحه عليه، كنص رفع الحرج فى باب الضرورات.

---

(١) هذه هى المغالطة الأولى. فالعدل كلمة لا ضابط لها إن لم تنضبط بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وكما يقول الإمام ابن تيمية فى الرسالة الثانية عشرة من مجموعة التوحيد: «فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر. فإنه ما من أمة إلا وهى تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل فى دينها ما رآه أكابرهم».

«وقد كان مولوى نورالدين مفتى بنجاب من الهند سأل شيخنا الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup> عن أسئلة منها مسألة الحكم بالقوانين الإنكليزية، فحوّلها إلى الأستاذ لأجيب عنها كما كان يفعل في أمثالها أحياناً. وهذا نص جوابي عن مسألة الحكم بالقوانين الإنكليزية في الهند (وهو الفتوى الـ ٧٧ من فتاوى المجلد السابع من المنار).

### «الحكم بالقوانين الإنكليزية في الهند»

(س ٧٧) ومنه: «يجوز للمسلم المستخدم عند الإنكليز الحكم بالقوانين الإنكليزية، وفيها الحكم بغير ما أنزل الله؟ (ج): إن هذا السؤال يتضمن مسائل من أكبر مشكلات هذا العصر، كحكم المؤلفين للقوانين وواضعيها لحكوماتهم، وحكم الحاكمين بها، والفرق بين دار الحرب ودار الإسلام فيها.<sup>(٢)</sup> وإننا نرى كثيرين من المسلمين المتدينين يعتقدون أن قضاة المحاكم الأهلية الذين يحكمون بالقانون كفار أخذوا بظاهر قوله تعالى: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون». ويستلزم الحكم بتكفير القاضى الحاكم بالقانون تكفير الأمراء والسلاطين الواضعين للقوانين، فإنهم وإن لم يكونوا ألفوها بمعارفهم، فإنها وضعت بإذنهم، وهم الذين يولون الحكام ليحكموا بها، ويقول الحاكم من هؤلاء: أحكم باسم الأمير فلان، لأننى نائب عنه بإذنه، ويطلقون على الأمير لفظ (الشارع).

«أما ظاهر الآية فلم يقل به أحد من أئمة الفقه المشهورين، بل لم يقل به أحد قط، فإن ظاهرها يتناول من لم يحكم بما أنزل الله مطلقاً، سواء حكم بغير ما أنزل

---

(١) يقصد الشيخ محمد عبده، وقد توفى عام ١٩٠٥م وهذا الكلام مكتوب في عدد ١٧ ديسمبر ١٩١٣م من مجلة المنار، وفي هذا العدد أعاد الشيخ رشيد رضا نشر فتواه المنشورة في عدد سابق، مع تلك المقدمة التى نقلنا جزءاً منها. وهى تستوعب من ص ٢٦٢ - ص ٢٦٥ من المارج ٤ م ١٧.

(٢) يقصد الفرق بين دار الحرب ودار الإسلام فيما يتعلق بتطبيق القوانين المخالفة للشرعة الإسلامية.

الله تعالى أم لا. (١) وهذا لا يكفره أحد من المسلمين حتى الخوارج الذين يكفرون الفساق بالمعاصي، ومنها الحكم بغير ما أنزل الله. (٢) واختلف أهل السنة في الآية، فذهب بعضهم إلى أنها خاصة باليهود، وهو ما رواه سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس، قال: إنما أنزل الله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفساقون في اليهود خاصة. وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال: الثلاث الآيات التي في المائدة «ومن لم يحكم بما أنزل الله» الخ ليس في أهل الإسلام منها شيء. هي في الكفار. وذهب بعضهم إلى أن الآية الأولى والتي فيها الحكم بالكفر للمسلمين، والثانية التي فيها الحكم بالظلم لليهود، والثالثة التي فيها الحكم بالفسق للنصارى، وهو ظاهر السياق. وذهب آخرون إلى العموم فيها كلها، ويؤيده قول حذيفة لمن قال إنها كلها في بني إسرائيل: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة! كلا والله لتسلكن سبيلهم قد الشرك. رواه عبدالرزاق وابن جرير والحاكم وصححه. وأول هذا الفريق الآية بتأويلين:

«فذهب بعضهم إلى أن الكفر هنا ورد بمعناه اللغوي للتغليظ لا معناه الشرعي الذي هو الخروج من الملة، واستدلوا بما رواه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في السنن عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال في الكفر الواقع في إحدى الآيات

(١) وهذه هي المغالطة الثانية. فإن هذا الظاهر الذي افترضه الشيخ - وبني عليه ضرورة صرف الآية عن ظاهرها - لا يقول به أحد قط! لأنه من التجريدات الذهنية التي ليس لها واقع عمل. فإنه لا يوجد إنسان لا يحكم، إلا إذا كان مسلوب الإرادة تماما، أو كان متوقفا تماما عن التصرف في أي أمر من أمور الحياة! ولكنه ما دام يتصرف، فهو يستند في داخل نفسه إلى حكم معين يقرر على أساسه تصرفه. فإذا كان هذا الحكم قد راعى فيه ما أنزل الله فهو مسلم، وإن كان قد راعى فيه مخالفة ما أنزل الله فهو خارج عن الإسلام. وعلى سبيل المثال فإن مخالفة النص العام خضوعا للضرورة - الذي ذكره الشيخ في المقدمة - لا يعتبر حكما بغير ما أنزل الله، فإن حكم الضرورة - المخالف للنص العام - وارد فيما أنزل الله. ولكن القضية هي تحديد الضرورة بالضوابط الشرعية، حتى لا تكون مسرحا للهوى البشري، فتصبح - من ثم - من مزالق الشيطان.

(٢) وهذه هي المغالطة الثالثة: فإن الحكم بغير ما أنزل الله لا يقع - بإطلاقه - في باب «المعصية» كما يوهم كلام الشيخ هنا، مما نفاه هو نفسه فيما بعد. فقد يكون جهلا بأن الحكم في هذه الفرعية مخالف لما أنزل الله فلا إثم عليه (وإن وجب عليه الاجتهاد في معرفة الدليل) وقد يكون شهوة (كحكم القاضي المرتضى بما يخالف حكم الله وهو عالم بالمخالفة) فهذه معصية. وقد يكون تأولاً (مع صدق النية) فهذا اجتهاد خاطئ له أجر. وقد يكون مضاهاة لشرع الله، أو تفضيلا لشرع البشر على شرع الله. وكلاهما شرك صريح يخرج من الملة.

الثالث: إنه ليس بالكفر الذى تذهبون إليه. إنه ليس كفرا ينقل عن الملة. كفر دون كفر. (١)

«وذهب بعضهم إلى أن الكفر مشروط بشرط معروف من القواعد العامة، وهو أن من لم يحكم بما أنزل الله منكرا له، أو راغبا عنه لاعتقاده بأنه ظلم، مع علمه بأنه حكم الله، أو نحو ذلك مما لا يجامع الإيمان والإذعان. (٢) ولعمري إن الشبهة في الأمراء الواضعين للقوانين أشد والجواب عنهم أعسر، وهذا التأويل في حقهم لا يظهر، (٣) وإن العقل ليعسر عليه أن يتصور أن مؤمنا مذعنا لدين الله يعتقد أن كتابه يفرض عليه حكما ثم هو غيره باختياره، ويستبدل به حكما آخر بإرادته، إعراضا عنه وتفضيلا لغيره عليه، ويعتد مع ذلك بإيانه وإسلامه. (٤) والظاهر أن

(١) مظلوم ابن عباس! فقد قال ما قال وهو يسأل عن الأمويين: أنهم يحكمون بغير ما أنزل الله، فما القول فيهم؟ وما من أحد على الإطلاق قال عن الأمويين إنهم كفارا! فقد كانوا يحكمون الشريعة في عموم حياة الناس، ولكنهم يجردون عنها في بعض الأمور المتعلقة بسلطانهم إما تأولا وإما شهوة - ولكنهم لا يجعلون مخالفتهم تشريعا مضاهيا لشرع الله - فقال فيهم ابن عباس إنه كفر دونه كفر. فهل كان يمكن لابن عباس أن يقول هذا فيمن ينحى الشريعة الإسلامية أصلا، ويضع بدلا منها قوانين وضعية؟

(٢) نشأ هذا الجدل كله - وينشأ دائما - حول آيات سورة المائدة لأنها ذكرت المسلمين واليهود والنصارى كلا على حدة، فخيّل لبعض الناس أن كلا منهم يختص بآية ويختص بحكم غير الآخر. وكان الأوفق النظر إلى صيغة العموم في الآيات: «ومن لم يحكم بما أنزل الله» فلا يكون هناك مجال للاختلاف. وعلى أى حال فليست هذه هى الآيات الوحيدة في القرآن في هذا الشأن. وهناك آيات صريحة لا تحتمل الخلاف في تأويلها كقوله تعالى: «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله» [سورة الشورى: ٢١] وهى صريحة في أن اتخاذ شريعة لم يأذن بها الله هى من اتخاذ الشركاء. أى من الشرك الأكبر المتنافى مع الإسلام. وقوله تعالى: «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك...» [سورة النساء: ٦٥].

(٣) يريد أن يقول إن الشبهة غير واردة في حقهم، ومن ثم فإن شرط الكفر (وهو إنكار شرع الله أو الرغبة عنه أى رفضه والإعراض عنه) غير متحقق فيهم، ذلك لأنهم مسلمون. ولكن انظر كيف انتقل فجأة من القول بأن الحكم عليهم عسير لوجود الشبهة «والجواب عنهم أعسر» إلى إطلاق الحكم بلا دليل!

(٤) هذه هى المغالطة الرابعة. فبدلا من أن يدل على إيمانهم - أو يطالبهم بالتدليل على إيمانهم - وظاهر أمرهم هو الكفر بسبب وضعهم قوانين تخالف ما أنزل الله - فإنه يصادر على الدليل - كما يقول المناطقة - فيقرر أنهم مؤمنون مذعنون لدين الله، ثم يستند إلى هذا الحكم الذى لم يقدم أى دليل عليه، ليستبعد تصور أنهم يغيرون حكم الله باختيارهم، ويستبدلون به حكما آخر بإرادتهم!! ثم إن هذه المغالطة ذاتها تحوى في طياتها المغالطة الخامسة - المفهومة ضمنا من كلامه - وهى الزعم بأن هؤلاء الأمراء مكروهون على تبديل حكم الله - ما دام يستبعد أنهم يغيرون حكم الله باختيارهم - فأى إكراه يقع على الحكام ليحكموا بغير ما أنزل الله؟! هذا الإكراه يصح في حالة واحدة - هى أن =

الواجب على المسلمين في مثل هذه الحال مع مثل هذا الحاكم أن يلزموه بإبطال ما وضعه مخالفا لحكم الله ولا يكتبوا بعدم مسانדתه عليه ومشايعته فيه، فإن لم يقدروا فالدار لا تعتبر دار إسلام فيما يظهر،<sup>(٣)</sup> وللأحكام فيها حكم آخر. وهنا يجيء سؤال السائل. وقبل الجواب عنه لا بد من ذكر مسألة يشته الصواب فيها على كثير من المسلمين وهي:

«إذا غلب العدو على بعض بلاد المسلمين وامتنعت عليهم الهجرة، فهل الصواب أن يتركوا له جميع الأحكام ولا يتولوا له عملا أم لا؟ يظن بعض الناس أن العمل للكافر لا يحل بحال. والظاهر لنا أن المسلم الذي يعتقد أنه لا ينبغي أن يحكم المسلم إلا المسلم، وأن جميع الأحكام يجب أن تكون موافقة لشريعته وقائمة على أصولها العادلة، ينبغي له أن يسعى في كل مكان بإقامة ما يستطيع إقامته من هذه الأحكام، وأن يحول دون تحكم غير المسلمين بالمسلمين بقدر الإمكان. وهذا القصد يجوز له أو يجب عليه أن يقبل العمل في دار الحرب إلا إذا علم أنه عمل يضر المسلمين ولا ينفعهم، بل يكون نفعه محصورا في غيرهم، ومعينا للمتغلب

== يتولى بإنسان من بيته قسرا، ثم يهدد بالقتل إن هو لم يجلس على دست الحكم ويحكم بغير ما أنزل الله! فعندئذ قد يكون معذورا عند الله! وهو أمر لم يحدث مرة واحدة في التاريخ ولا يمكن أن يحدث! إنها يختار الحكام الجلوس في مقاعد الحكم بمحض إرادتهم، ويملكون دائئا أن يرفضوا - إذا عرض الأمر عليهم - ولا تثرِب عليهم! فكيف يقال إنهم مكرهون؟! إن مثل هؤلاء الحكام الذين يشير الشيخ رشيد رضا إليهم يرتكبون في الواقع جريمتين كبيرتين: الأولى في حق الله، إذ ينتحون شريعته ويضعون بدلا منها شريعة جاهلية من صنع البشر، والثانية في حق شعوبهم، إذ يجلبون عنهم عدوهم الحقيقي الذي يفرض عليهم الحكم بغير ما أنزل الله ليفتتهم عن دينهم، فيترس بهم العدو ليمنع قتال الأمة له. ولو أن الحكام امتنعوا عن ستر العدو بأشخاصهم فقد كان العدو سيتحمل تكاليف المواجهة الدموية (كما يحدث اليوم في أفغانستان) وتكون الغلبة في النهاية إن شاء الله للمسلمين حين يصرون على جهاد عدوهم، ولو هزموا في المعركة مرة ومرة ومرة، لأن هذا وعد الله. أما حين يتترس العدو بهؤلاء الحكام مجبونه بأشخاصهم، فإن الأمة تغفل عنهم فتكف عن الجهاد، فيكون للعدو من التمكين ما أراد. فكيف يستخف الشيخ رشيد رضا بهذا كله من جانب هؤلاء الحكام، ولا يضعه حتى في دائرة المعصية، بل يجعله عزيمة تحقق المصلحة للمسلمين كما سيجيء!!؟

(١) هنا يفتح الله على الشيخ فيقرر حكم الإسلام واضحا صريحا في واجب الأمة في مثل هذه الحالة، وفي حكم الدار التي تحدث هذه الحالة فيها. ولكن يذهب بقيمة هذا التقرير شيئا. الأول أنه لم يبين متى يكون الحاكم على هذا الوصف؟ أي ما العلامة الظاهرة التي تعرف الأمة بها وضعه لتقوم بواجبها الإسلامي الذي حدده الشيخ في وضوح ونصاعة؟! والأمر الثاني هو المغالطة التي سيأتي بيانها بعد، وهي اتخاذ وصف الدار بأنها ليست دار إسلام في مثل هذه الحالة، ذريعة للقول بأن أحكام الشريعة غير واجبة التنفيذ فيها!!

على الإجهاز عليهم . وإذا هو تولى لهم العمل وكلف الحكم بقوانينهم فإذا يفعل وهو مأمور أن يحكم بما أنزل الله؟

«أقول إن الأحكام المنزلة من عند الله تعالى منها ما يتعلق بالدين نفسه، كأحكام العبادات وما في معناها كالنكاح والطلاق، وهي لا تحل مخالفتها بحال، ومنها ما يتعلق بأمر الدنيا كالعقوبات والحدود والمعاملات المدنية<sup>(١)</sup> والمنزل من الله تعالى في هذه قليل وأكثرها موكول إلى الاجتهاد.<sup>(٢)</sup> وأهم المنزل وأكده الحدود في العقوبات، وسائر العقوبات تعزير مفوض إلى اجتهاد الحاكم، والربا في الحدود المدنية، وقد ورد في السنة النهي عن إقامة الحدود في أرض العدو، وأجاز بعض الأئمة الربا فيها، بل مذهب أبي حنيفة أن جميع العقود الفاسدة، جائزة في دار الحرب، واستدل له بمناجبة (مراهنة) أبي بكر (رض) لأبي ابن خلف على أن الروم يغلبون الفرس في بضع سنين وإجازة النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وصرحوا بعدم إقامة الحدود فيها. روى ذلك عن عمر وأبي الدرداء وحذيفة وغيرهم، وبه قال أبو حنيفة. قال في أعلام الموقعين: «وقد نص أحمد وإسحق بن راهويه والأوزاعي وغيرهم من علماء الإسلام على أن الحدود لا تقام في أرض العدو، وذكرها أبو القاسم الخرقى في مختصره، فقال: لا يقام الحد على مسلم في أرض العدو. وقد أتى يسر بن أرطأة برجل من الغزاة قد سرق مجنة، فقال: لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تقطع الأيدي في الغزو لقطعتك» رواه أبوداود، وقال أبو محمد المقدسى: هو إجماع الصحابة. روى سعيد بن منصور في سننه بإسناده عن الأحوص بن حكيم عن أبيه أن عمر كتب إلى الناس ألا يجلدوا أمير جيش ولا سرية ولا رجلا من المسلمين حداً وهو غاز حتى

---

(١) هذه هي المغالطة السادسة. فمن قال إن الحدود تتعلق بأمر الدنيا وحدها وهي حق لله؟! وعلى أى أساس من دين الله يفرق الشيخ بين النكاح والطلاق وبين الحدود، فيجعل الأولى من أمور الدين التى لا يحل مخالفتها بحال، والأخرى من أمور الدنيا (أى التى تحل مخالفتها في رأى الشيخ إذا استخدمنا دليل المخالفة، قرينة لفهم ما يؤول إليه الشيخ هنا، ويقرره صريحاً فيما بعد!).

(٢) هذه هي المغالطة السابعة. فإذا كان المنزل في القرآن بالنسبة لهذه الأحكام قليلاً، فالسنة - المكملة والشارحة - تحمى الكثير ولا يجوز لعالم فقيه كالشيخ رشيد رضا أن يذكر القرآن وحده في هذا المجال ويسقط السنة النبوية المطهرة، الحاوية لتفاصيل الأحكام، والمستقلة وحدها بالأحكام في بعض الأحيان.



يقطع الدرب قافلا لثلاث تلحقه حمية الشيطان فيلحق بالكفار. وعن أبي الدرداء مثل ذلك» ثم ذكر ترك سعد إقامة حد السكر على أبي محجن في وقعة القادسية، وذكر أنه قد محتج به من يقول لاحد على مسلم في دار الحرب كما يقول أبوحنيفة، ولكنه علله تعليلا آخر ليس هذا محل ذكره. وانظر تعليل عمر تجده يصح في بلاد الحرب. (١)

«فعلم مما تقدم أن الأحكام القضائية التي أنزلها الله تعالى قليلة جدا، (٢) وقد علمت ما قيل في إقامتها في دار الحرب لاسيما عند الحنفية. فإذا كانت الحدود لا تقام هناك (٣)، فقد عادت أحكام العقوبات كلها إلى التعزير الذي يفرض إلى اجتهاد الحاكم (٤). والأحكام المدنية أولى بذلك لأنها اجتهادية أيضا، والنصوص القطعية عن الشارع قليلة جدا، وإذا رجعت الأحكام هناك إلى الرأي والاجتهاد في تحري العدل (٥) والمصلحة (٦)، وأجزنا للمسلم أن يكون حاكما عند الحربي في

(١) هذه أعجب المغالطات على الإطلاق! فما العلاقة بين عدم إقامة الحد على المسلم المحارب في دار الحرب. حتى لا يستغزه الشيطان للحاق بالعدو (أي الارتداد عن الإسلام) وبين إسقاط أحكام الشريعة عن المسلمين في الهند. أو في أي بلد آخر غلب عليه الكفار فنحووا شريعة الله، ووضعوا بدلا منها قوانين جاهلية تحكم الناس؟! وكيف يستدل بعدم إقامة الحد على المسلم في أثناء الغزو، على عدم جواز إقامة الحدود في البلاد المشار إليها آنفا، بحيث تصح الشريعة في تلك البلاد للقوانين الوضعية لا للشريعة الإسلامية؟! وبصيح تطبيق الشريعة الإسلامية فيها خطأ ينهى عنه الدين!!؟

لو قلنا إن خضوع المسلمين في الهند - أو في غيرها - للقوانين الجاهلية ضرورة، ماداموا قد عجزوا عن المقاومة بعد قيامهم بالجهاد الواجب، لكان هذا أمرا منطقيا معقولا، لأنه لا حيلة للناس غير ذلك (مع وجوب المجاهدة بالقلب، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» رواه مسلم. أما أن يقال إنه لا يجوز إقامة أحكام الشريعة في هذه الحالة - بأمر الدين - فقول ما أظن أن أحدا قاله في تاريخ الإسلام كله!

(٢) هذا عود إلى قضية قلة الأحكام المنزلة في القرآن، وقد علقنا عليها من قبل، ولكن المغالطة الجديدة هنا (وهي التاسعة) هي الإجماع بأنها مادامت قليلة فلا بأس بمخالفتها!! فلنفرض أن الله تعالى لم ينزل إلا حكما واحدا في دينه كله، وترك الباقي للاجتهاد، فهل يجوز للمسلمين أن يقولوا: مادامت الأحكام كلها متروكة للاجتهاد إلا واحدا، فهلم ترك الالتزام بهذا الحكم الواحد. ونجتهد فيه كبقية الأحكام!!؟

(٣) أي لا يجوز إقامتها!

(٤) هذه هي المغالطة العاشرة. فمن الذي يجوز له الحكم بالأحكام التعزيرية اجتهادا؟ أ هو الحاكم المسلم، أم إن كل حكم تعزيري في الدنيا يصبح شرعيا إذا طبق على المسلمين ولو صدر من الإنجليز!!؟

(٥) سبق الكلام عن العدل وضرورة ضبطه بالكتاب والسنة ليصبح هو «العدل» الذي يرضى الله عنه.

(٦) من الذي يحدد المصلحة؟ وما قلناه عن العدل ينطبق على المصلحة، فهي - وإن كانت متروكة للاجتهاد -

فضابطها هو القواعد الشرعية.

بلاده لأجل مصلحة المسلمين<sup>(١)</sup>، فالذي يظهر أنه لا بأس من الحكم بقانونه لأجل منفعة المسلمين ومصالحهم<sup>(٢)</sup>. فإن كان ذلك القانون ضارا بالمسلمين، ظلما لهم، فليس له أن يحكم به، ولا أن يتولى العمل لو وضعه إعانة له<sup>(٣)</sup>.  
وجملة القول أن دار الحرب ليست محلا لإقامة أحكام الإسلام<sup>(٤)</sup>، ولذلك تجب الهجرة منها إلا لعذر أو مصلحة للمسلمين، يؤمن معها من الفتنة في الدين. وعلى من أقام أن يخدم المسلمين بقدر طاقته، ويقوي أحكام الإسلام بقدر استطاعته<sup>(٥)</sup>. ولا وسيلة لتقوية نفوذ الإسلام وحفظ مصلحة المسلمين مثل تقلد أعمال الحكومة<sup>(٦)</sup>، ولا سيما إذا كانت الحكومة متساهلة قريبة من العدل بين جميع الأمم والملل كالحكومة الإنكليزية<sup>(٧)</sup>. والمعروف أن قوانين هذه الدولة أقرب إلى الشريعة الإسلامية من غيرها، لأنها تفوض أكثر الأمور إلى اجتهاد القضاة. فمن

(١) لم يستدل في هذه القضية الخطيرة بأي دليل شرعي! إنما اطلق حكم الجواز من عند نفسه بلا دليل. . إلا المصلحة. . والمصلحة كما قلنا تحتاج هي ذاتها إلى الضوابط الشرعية، فلا تصلح - على إطلاقها - أن تكون سندا لحكم إلا إذا كانت منضبطة بالضوابط الشرعية.

(٢) مرة أخرى يصدر حكما بغير دليل شرعي في قضية من أخطر القضايا وهي الحكم بغير ما أنزل الله، الذي يقول عنه سبحانه وتعالى إنه كفر، ويقول أشد المتساهلين - بغير دليل شرعي - إنه فسوق ومعصية، فيقول هو عنه إنه ولا بأس به! مستندا إلى حكم أصدره من عند نفسه - بلا دليل - بجواز أن يكون المسلم حاكما عند الحربي في بلاده! وهكذا تتوالى الأحكام في الفتوى مرتبا بعضها على بعض، وهي كلها مفتقرة إلى الدليل الشرعي الذي يسندها!

(٣) من الذي يمدد الظلم؟ إن الذي يمدد المصلحة هو الذي يمدد الظلم، وهو الله سبحانه وتعالى، العليم الخبير، صاحب الأمر، الذي له ما في السماوات والأرض، والذي يحكم لا معقب لحكمه. وقد قرر العليم الخبير صاحب الأمر أن الحكم بغير ما أنزل الله هو الظلم: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» فمن ذا الذي يجروا أن يقول إن الحكم بغير ما أنزل الله يمكن أن يكون ظلما أحيانا وغير ظالم أحيانا أخرى؟!

(٤) استند إلى مثل هذا المنطق السيد أحمد خان فقال إن دار الحرب (وكان يقصد بلاد الهند بالذات) ليست محلا للجهاد!

(٥) قرر فيما سبق أن دار الحرب ليست محلا لإقامة أحكام الإسلام، ليرر خضوع المسلمين للأمر الذي لا يحكمون بما أنزل الله. وهنا - لما أراد أن يبرر قيام المسلمين بتقلد الوظائف في الحكومة التي لا تحكم بما أنزل الله - قال إن واجب المسلمين أن يتقلدوا هذه الوظائف ليعملوا قدر الإمكان على تقوية أحكام الإسلام! فماذا نسمي هذا التحايل؟!

(٦) نرجي، التعليق على هذه القضية إلى حين الحديث عن قضايا الحركة الإسلامية في الفصل القادم.

(٧) نمر بهذه دون تعليق، لأنها ليست في حاجة إلى تعليق!

كان أهلاً للقضاء في الإسلام وتولى القضاء في الهند بصحة قصد وحسن نية يتيسر له أن يخدم المسلمين خدمة جليلة. وظاهر أن ترك أمثاله من أهل العلم والغيرة للقضاء وغيره من أعمال الحكومة تأثراً من العمل بقوانينها يضيع على المسلمين معظم مصالحهم في دينهم وديناهم. وما نكب المسلمون في الهند ونحوها وتأخروا عن الوثنيين إلا بسبب الحرمان من أعمال الحكومة<sup>(١)</sup>. ولنا العبرة في ذلك بما يجري عليه الأوروبيون في بلاد المسلمين، إذ يتوسلون بكل وسيلة إلى تقلد الأحكام، ومتى تقلدوها حافظوا على مصالح أبناء ملتهم وجنسهم، حتى كان من أمرهم في بعض البلاد أن صاروا أصحاب السيادة الحقيقية فيها، وصار حكامها الأولون آلات في أيديهم.

«والظاهر مع هذا كله أن قبول المسلم للعمل في الحكومة الإنكليزية في الهند (ومثلها ما هو في معناها) وحكمه بقانونها هو رخصة تدخل في قاعدة ارتكاب أخف الضررين، إن لم تكن عزيمة يقصد بها تأييد الإسلام وحفظ مصلحة المسلمين<sup>(٢)</sup>. ذلك أن تعدد من باب الضرورة التي نفذ بها حكم الإمام الذي فقد أكثر شروط الإمامة، والقاضي الذي فقد أهم شروط القضاء، ونحو ذلك. فجميع حكام المسلمين في أرض الإسلام اليوم حكام ضرورة<sup>(٣)</sup>. وعلم مما تقدم أن من تقلد العمل للحربي لأجل أن يعيش براتبه فهو ليس من أهل هذه الرخصة، فضلاً عن أن يكون من أصحاب العزيمة. والله أعلم.

(١) كانت الحكومة الإنكليزية في الهند تحرم المسلمين عمداً من تقلد وظائف الدولة وتسندها إلى الوثنيين. وهذه هي الحكومة التي قال عنها أنفا إنها «متساهلة قريبة من العدل بين جمع الأمم والملل»!

(٢) أرايت كيف يجعل من مخالفة صريح أمر الله سبحانه وتعالى «عزيمة»؟! لقد كان المسلمون من الضعف - بعد الهزيمة العسكرية - بحيث لا يملكون إلا الخضوع لسلطان أعدائهم، وهم بهذا في دائرة عفو الله: «إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفواً غفوراً» [سورة النساء: ٩٨ - ٩٩] أما أن يصبح هذا الخضوع عزيمة يدعى المسلمون إليها فمن العجب العاجب في ذلك الزمان!

(٣) سبقت الإشارة إلى أنه لا يوجد إكراه على الحكام أن يجلسوا في مقاعد الحكم ويحكموا بغير ما أنزل الله. فالضرورة غير قائمة بالنسبة لهم. وإن لم يقدرُوا أن يكونوا في مكان المجاهدين لإعادة الشريعة إلى مكانها الذي نجاه عنها المستعمر الصليبي، فلا أقل من أن يتورعوا عن خدمة ذلك المستعمر بستره بأشخاصهم، والحيلولة بين المجاهدين وبينه، ليتحمل هو التكاليف الدموية لعدوانه على المسلمين. بل هم - أكثر من ذلك - ينوبون عنه في تقبيل المجاهدين الذين يجاهدون لإعادة الشريعة إلى مكانها!

«(تنبیه): دار الحرب بلاد غير المسلمين وإن لم يجاربوا<sup>(١)</sup>. وكانت القاعدة أن كل من لم تعاهده على السلم يعد محاربا».

» : » :

حين يكون «علماء الدين» على هذا النحو. يطوعون الناس للأمر الواقع، ويخذلونهم عن الجهاد الواجب لتغييره، ولا يتحركون من جانبهم لينافحوا عن حقوق الناس كما بينها الله في كتابه وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يقفون للسلطان الجائر يأمرونه وينهونه ليأطروه على الحق أطرا ولو تعرض لهم بالأذى. فضلا عن كونهم لا يعلمون حقيقة التوحيد كما أنزلها الله - الشاملة للعقيدة والشريعة - ولا يقدمون الرؤية الإسلامية الصحيحة للواقع الذي يعيشه الناس، ولا الرؤية الإسلامية الصحيحة لطريق الخلاص من ذلك الواقع السيء الذي يعيشه الناس..

وحين يكون الزعماء العلمانيون - الذين أبرزهم الاستعمار بعد أن صنعهم على عينه، ووضعهم في مكان القيادة ليشدوا الأمة كلها بعيدا عن الإسلام - هم - كما بدوا في عين الجماهير يومئذ - ينادون «بحقوق الجماهير»، ويقفون للسلطان الجائر، ويدعون الأمة للخلاص من الواقع السيء، ويرشدونها إلى طريق الحرية والتقدم والحضارة..

حين يكون الفريقان على هذا النحو، فهل نعجب من التفاف الجماهير حول الزعماء العلمانيين، وفتنتهم بهم إلى الحد الذي رأينا نموذجا منه في سعد زغلول<sup>(٢)</sup>؟!

وما نقول هذا لنبرر موقف الجماهير.. ولكن لنفسره فحسب..

---

(١) عدل هنا - دون مناسبة ظاهرة - عن كلامه الأول الذي أشار فيه إلى أن الدار التي فيها أمير مسلم (أي يحمل اسما مسلما!) يغير حكم الله باختياره. ويستبدل به حكما آخر بإرادته لا تعتبر دار إسلام (يعني تعتبر دار حرب) وحصر دار الحرب بأنها بلاد غير المسلمين وإن لم يجاربوا. والذي عليه جمهور العلماء، أن الدار تأخذ وصفها من غلبة الأحكام عليها (أي بصرف النظر عن عقائد أهلها) فالأرض التي تحكمها شريعة الله هي دار إسلام ولو كان أغلب سكانها غير مسلمين. كما كانت الهند خلال ثمانية قرون من الحكم الإسلامي. وأغلب سكانها من المجوس عباد البقر. كذلك الأرض التي لا تحكمها شريعة الله فهي دار حرب ولو كان أغلب سكانها مسلمين، أو دار ردة إذا كان أهلها مسلمين ثم ارتدوا عن الإسلام.

(٢) لم يكن سعد زغلول حالة فردية. ففي كل بلد كان هناك زعيم أو زعماء على شاكلة سعد زغلول!

أما التبرير، فلا تبرير للخروج على أمر الله . والله سبحانه وتعالى يقول: «بل الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره»<sup>(١)</sup> وكل من قال لا إله إلا الله، محمد رسول الله، يقصد بها الإسلام<sup>(٢)</sup>، فهو مسئول أمام الله عن الحال التي وصل إليها المسلمون، وعن السلوك المنحرف الذي وقع فيه المسلمون . ولكن الناس ليسوا في المسئولية سواء . . فالحكام أولا، والعلماء بعدهم . . وفي النهاية يأتي دور «الجماهير»!

## (٦) استيراد النظم والمبادئ من أوروبا

أيا كان الأمر . . وأيا كانت مسئوليات الناس . . فقد صاحب هذا الوضع ظاهرة خطيرة - أو قل إن شئت ترتبت عليه نتيجة خطيرة - أصبحت منذ ذلك الحين جزءا من واقع هذه الأمة، هي استيراد النظم والمبادئ - للمسلمين - من عند أعداء الإسلام!

لقد كان الأمر سيئا وخطيرا من كل وجه .

فقد كانت هذه هي المرة الأولى في حياة الأمة، التي تستورد فيها «المبادئ» من خارج الإسلام، وتستورد النظم - السياسية والاقتصادية والاجتماعية - من خارج الإسلام!

لقد احتاجت الأمة من قبل إلى «تنظييات» إدارية، وأشكال من أشكال الحضارة المادية، لم تكن في رصيدها السابق من قبل، وكانت محتاجة إليها لتقييم «الدولة» على مستوى الكفاءة اللازم لدولة متنامية القوة تتوسع رقعتها بسرعة خيالية . . فأخذت تلك التنظييات وتلك الأشكال من فارس وبيزنطة، ولم تجد في نفسها حرجا من ذلك، ولكن تم الأمر على قاعدتين مهمتين!

الأولى: أن الأمة لم تشعر بالصغار والانكسار وهي تأخذ ما هي محتاجة إليه من «حضارة» أعدائها، بل كانت تحس بالاستعلاء، الناشئ من الإيمان: «ولا تهنوا

(١) سورة القيامة [١٤ - ١٥].

(٣) إن قالها نفاقا فهو في الدرك الأسفل من النار.

ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»<sup>(١)</sup> أي من كونهم مؤمنين وكون أعدائهم غير مؤمنين، فالمؤمن هو الأعلى - بسبب إيمانه - أيًا كانت حالته المادية أو العسكرية، وغير المؤمن هو الأدنى - بسبب كفره وإعراضه عن الهدى الرباني - أيًا كانت حالته المادية والعسكرية. فهم يشتركون هذه «البضاعة» الحضارية ممن يملكها، دون أي خضوع روحي له، ودون أي إكبار له، لأنه لا يستحق الإكبار وهو معرض عن دين الله .

والثانية: أن الأمة - في حركة الأخذ هذه - لم تأخذ إلا ما كانت في حاجة إليه . . فهي لم تأخذ كل ما كان عند أعدائها من التنظيمات والأشكال المادية من الحضارة، إنما أخذت فقط ما شعرت أنها محتاجة إليه من هذه «البضاعة الحضارية». وأهم من ذلك أنها حين أخذت تلك التنظيمات والأشكال المادية لم تأخذ معها قط المبادئ والنظم التي كانت لاصقة بها عند الذين أخذت عنهم. فقد كانت تلك المبادئ والنظم قائمة على عقائد وتصورات جاهلية، لا تصلح للمسلمين البتة، وليس المسلمون في حاجة إليها، لأن دينهم فيه الغناء عنها، بل هم مأمورون أمراً ألا يتخذوا شيئاً منها، وإلا فهي ردة جاهلية لا تستقيم مع الإسلام .

فأما «النظم» السياسية والاقتصادية والاجتماعية فهي متصلة بالتشريع، والمسلمون منبهيون نهياً جازماً عن أخذ التشريع من عند غير الله :

«ومن لم يحكم بما أنزل فأولئك هم الكافرون»<sup>(٢)</sup> «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله»<sup>(٣)</sup> «وأن احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك»<sup>(٤)</sup> .

وأما «المبادئ» فهي إما موافقة لما جاء من عند الله، فالمسلم يتلقاها من المصدر الرباني وحده لا من أي مصدر سواه، وإما مخالفة لما جاء من عند الله، فالأخذ بها إذن كفر وفسوق وعصيان .

وهكذا لا يأخذ المسلم من «البضاعة الحضارية» إلا ما يكون محتاجاً إليه من الأمور التنظيمية أو الأشكال المادية التي لا تفرض بذاتها منهجاً للتصور ولا منهجاً

(١) سورة آل عمران [١٣٩] .

(٢) سورة المائدة [٤٤] .

(٣) سورة الشورى [٢١] .

(٤) سورة المائدة [٤٩] .

للسلوك يخالف عقيدة المسلم ومنهجه الرباني للحياة . أما النظم<sup>(١)</sup> : السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية . . وأما القيم والمبادئ . . فهي «الدين»<sup>(٢)</sup> الذي يتلقاه المسلم من ربه ولا يتلقاه من مصدر سواه .

أما في حركة الأخذ الثانية، التي تمت في ظل الخواء الروحي والتخلف العقيدي من ناحية، وفي ظل الغزو الفكري من ناحية أخرى - وقد تلازما في الحقيقة لارتباط الأخير بالأول - فقد انهارت الحواجز، ولم يعد «المسلمون» يفرقون بين ما ينبغي أخذه وما ينبغي تركه من «البضاعة الحضارية» الموجودة عند الغرب .

لقد كانوا متخلفين في كل شيء - نعم ! - ولكن الغرب لم يكن يستطيع إمدادهم بكل ما يحتاجون إليه ليقوموا من عثرتهم . بل كان كثير مما عند الغرب قميماً أن يزيد من عثرتهم - كما حدث بالفعل ! - لأنه يُعثرُ الغرب ذاته، وإن كان الغرب - بسبب قوته المادية الفارحة - لا يتأثر بعثراته الآن !

لقد كان الغرب يملك تقدماً علمياً فائقاً، وتقدماً مادياً هائلاً، وعبقورية تنظيمية مبدعة، وروحاً من الجلد والصبر على العمل والإنتاج، وروحاً عملية في مواجهة المشكلات، سواء من ناحية الدراسة أو من ناحية التنفيذ . . وكان كل هذا لازماً لزوماً شديداً للمسلمين، لتخلفهم الشديد في تلك الميادين كلها، بعد أن كانوا أصحاب قدم ثابتة فيها كلها وقت أن كانوا على جادة الإسلام .

وكان الواجب على المسلمين أن يصرفوا جهدهم لتعلم هذه الأمور والتمكن منها، بوصفها حاجة ملحة لا فكاك منها . .

وكان عند الغرب في الوقت ذاته قدر هائل من الفساد الروحي والفكري والخلقي، لا ينبغي لعاقل أن يأخذه، فضلاً عن أن يأخذه مسلم، أتم الله نعمته عليه ورضي له الإسلام ديناً، وميزه بمنهج حياة مستقيم نظيف متطهر مرفع خالٍ من الدنس وخالٍ من الفساد .

---

(١) الفرق واضح بين «النظم» و«التنظيمات» . فحين يكون في الدولة وزراء، وللوزراء وكلاء، ثم مديرو عموم . ثم موظفون مختلفو المناصب يختص كل منهم بعمل، فهذا تنظيم إداري يخدم أي نظام يستخدمه، ولا يفرض على النظام تصوراً معيناً ولا فكرة معينة، ومن ثم يستخدمه الكل على السواء، ويستخدمه المسلمون حين يرونه نافعاً لهم، ولا حرج عليهم في ذلك . أما النظم فأمرها مختلف لأنها تتصل بالشرع .

(٢) الدين بمعنى منهج الحياة، ويشمل العقيدة والشريعة والشرعة .

وكان عند الغرب كذلك نظم اقتصادية وسياسية واجتماعية، يختلط فيها الصلاح والفساد، ولكنها بجملتها تشريع بغير ما أنزل الله، قائم على قاعدة غير إسلامية، هي تعبيد البشر بعضهم لبعض - بالتشريع - بدلا من تعبيدهم لربهم وخالفهم، ومن ثم فقاعده جاهلية، وإن كان في بعض جزئياته يلتقي التقاء عارضا ببعض ما جاء من عند الله، كمبدأ الشورى، وبعض الحقوق وبعض الضمانات . . الخ (١) وتلك الأمور - المتصلة بالتشريع - يأخذها المسلم - كما قلنا - من التشريع الرياني، ولا يأخذها من مصدر سواه .

ومن هنا يتحدد الموقف الذي كان على المسلمين أن يقفوه تجاه ما يسمى في مجموعهم «بالحضارة الغربية» . . فكل ما يتصل بالتقدم العلمي، والتقدم المادي، والناحية التنظيمية، وروح الجلد والصبر على العمل، والروح العملية في الدراسة والتنفيذ، فليأخذوه وليصرفوا جهدهم فيه . وكل ما عدا ذلك فليتركوه وليحذروه . . أما الذي حدث بالفعل فقد كان غير ذلك . . فأما الأشياء النافعة فقد اتجهوا إليها ولكن بجهد متعاس متخاذل متعثر الخطوات . .

وأما الفساد فقد سارعوا إليه فاستوعبوه كله، وعبوا منه عباً كأنها هو «الزاد» .  
وأما النظم فقد سعوا إلى استيرادها وتقليدها ضاربين صفحا تماما عما أنزل الله .  
ولذلك كله تفسيره من حال المسلمين يومئذ، وإن كان الإثم لاحقا بهم في كل حال .

\* \* \*

لقد ظنوا في غفلتهم أن «الحضارة الغربية» كتلة واحدة، وحسبة واحدة، إما أن تؤخذ كلها وإلا فلا فائدة من أخذ بعضها وترك بعضها الآخر . كما أوهمهم بذلك دعاة الغزو الفكري، سواء من الصليبية واليهودية أو من عملائها، وسواء من عملائها العميل المستغفل والعميل المأجور (٢) ! ووجد هذا النداء أذنا صاغية لدى «المسلمين» المستضعفين . .

(١) راجع إن شئت فصل «الديمقراطية» و«الشيوعية» من كتاب «مذاهب فكرية» .

(٢) العميل المستغفل هو الذي يحقق مصلحة للمستعمر الصليبي أو اليهودي - غفلة منه - وهو يجب أن يحقق مصلحة للمسلمين !!



فأما دعاة الغزو الفكري من الصليبيين واليهود فمصلحتهم واضحة في إيهام «المسلمين» بذلك الوهم، لأنه أفعال في استعبادهم، وضمان خضوعهم التام لهم، وضمان إبعادهم بعداً كاملاً عن الإسلام، الذي لا يمقتون شيئاً مقتهم له، ولا يخافون شيئاً خوفهم منه<sup>(١)</sup>. فحين ينسلخ المسلمون انسلخاً كاملاً من كل مقومات دينهم، في عالم التصور وعالم السلوك، في الأفكار والأخلاق والنظم والعادات، فلن يبقى لهم من شخصيتهم المتميزة شيئاً، ولن يبقى لهم من القدرة على المقاومة شيئاً، ويتم إخضاعهم بعامل «العبودية» وهو أفعال بكثير وأدوم بكثير من عامل القهر العسكري الذي يلجأ إليه الاستعمار في مبدأ الأمر، ولكنه لا يأمن نتائجها دائماً، لأن مجرد وجوده يستفز المقهورين، ويدفعهم إلى المقاومة حيناً بعد حين. . أما إذا استعبد المقهورون من الداخل، بتدوير مقومات شخصيتهم من ناحية، وإشعارهم الدائم أنهم «تبع» لقاھريهم في كل شيء، فهنا يأمن الاستعمار الصليبي (اليهودي) أكثر، ويحلم ببقاء أطول، ولو خرج كل عساكره من الأرض المحتلة<sup>(٢)</sup>.

أما العملاء فمنهم من باع نفسه للشيطان لقاء الأجر الذي يحصل عليه، سواء كان الأجر سلطاناً في الأرض، أو شهرة وذبوع صيت، أو مالاً حراماً، أو شهوات دنسة، فهو يقوم «بالمطلوب» منه، والمطلوب هو استعباد المسلمين لقاھريهم من الصليبيين واليهود، ومن أفعال الوسائل إيهامهم أن عليهم أن يأخذوا الحضارة الغربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها كما قال طه حسين. ومنهم «النظيف» الذي لا يتناول أجراً على عمله، ولكنه مهزوم داخلياً، فهو ينطلق من هذه الهزيمة، يحسب - في غفلة القهر الداخلي - أنه بدعوته إلى تقليد الغرب يقدم للمسلمين طريق الخلاص مما هم فيه! وفي النهاية يستوي العميل المستغفل والعميل المأجور في تمكين «السادة» من استعباد «العبيد»!

وأما المستضعفون فقد وجدت منهم الدعوة أذناً صاغية من جهتين اثنتين: الأولى ميل المغلوب إلى تقليد الغالب، وهو أمر مشهور في التاريخ. والثانية أن

(١) مر بنا كلام «ولفرد كانتول سميث» الصريح في فرع أوروبا من الإسلام أكثر من أي شيء آخر.

(٢) من أجل ذلك كان كرومر يقول: «إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد هي تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس!»

«التقليد» أسهل على المغلوب المستضعف، لأنه يوفر عليه عناء «الاختيار». ولأن الانتقاء والاختيار لا يقوم به في الحقيقة «العبد» المستضعف، إنما يقوم به «السيد» صاحب الإرادة الحرة، والقدرة على التمييز قبل القدرة على الاختيار. .  
 لقد كانت الكارثة كامنة في قلوب «المسلمين» أنفسهم: . من التخلف العقيدي والخواء الروحي . . فلم يتحقق فيهم ما أمرهم به الله :  
 «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

لقد كانت دعوى «أخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها» دعوى باطلة من أساسها! فالتقدم العلمي لا علاقة له بداهة بالفساد الخلقي!! ولا يقول عاقل في الأرض كلها إنه لا بد للإنسان أن يفسد خلقيا لكي يتقدم علميا! إنما كان منشأ هذا الانحراف الفكري في أوروبا عوامل خاصة هناك، فقد وقفت الكنيسة هناك وقفة حمقاء ضد العلم، فلم يكن ثم مناص من تنحية قبضة الكنيسة عن الحياة كلها لكي يأخذ التقدم العلمي مجراه؛ وأخذ التقدم العلمي مجراه بالفعل حين رفع عن كاهل الناس سلطان الكنيسة، ودينها الجاهلي الزائف الذي كانت تستعبد به الناس، ولكن أوروبا خسرت في مقابل ذلك كيانها الإنساني حين نبذت العقيدة في الله، وخسرت أخلاقها حين قطعت صلتها بالدين، ونبتت في رأسها الأفكار «الحيوانية» عن الإنسان، وقيمه، وسلوكه، وأهدافه . فأصابها من جراء ذلك شر عظيم، رأى «العقلاء» منهم نذره منذ وقت مبكر، ورأى غيرهم آثاره حين وقعت بالفعل، وصاروا يبحثون لأنفسهم ولشعوبهم عن «طريق الخلاص»!  
 ووقع التمكين في الأرض لأوروبا وهي على هذه الحال من الانتكاس الإنساني والخلقي، بمقتضى إحدى السنن الربانية التي يجربها الله في عباده:  
 «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء. حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون»<sup>(٢)</sup> .

كما كان التمكين يجري بحسب سنة أخرى في ذات الوقت (ولا تعارض بين سنن الله، إنما تجري مترابطة في نظام محكم)

(١) سورة آل عمران [١٣٩].

(٢) سورة الأنعام [٤٤].

«من كان يريد الحياة الدنيا وزيتها نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل ما كانوا يعملون»<sup>(١)</sup>.

وهكذا أصبحوا ممكنين في الأرض رغم فسادهم، لا بسبب فسادهم! وإنما تحقق التمكين لهم بالجهد الإيجابي الذي يبذلونه لتمكين أنفسهم، فيعطيه الله ثمرته في الأرض - إلى حين - حسب سنته، ثم يدمر عليهم - في النهاية - حسب سنته كذلك لأنهم غير مستقيمين على طريقه. تلك هي قصة أوربا.

أما التلازم بين التقدم العلمي والمادي وبين الانسلاخ من الدين والانسلاخ من الأخلاق، فأكذوبة ضخمة لم يكن لها وجود إلا في نفوس العبيد، الذين استعبدتهم الغزو الفكري، وأنسأهم ربه، وأنسأهم أنفسهم!:

«ولا تكونوا كالذين نسوا الله أنسأهم أنفسهم. أولئك هم الفاسقون»<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا فإن تيار التغريب، الذي يدعو لإصلاح الحال على منهج الغرب، راح يحاول تقليد أوربا في كل شيء، فانزلت قدمه في الفساد قبل أن يحاول تثبيتها بالتقدم العلمي والتقدم المادي! ومن هنا سار التقدم العلمي والمادي بطيئا متعثر الخطوات، لا كما كان يرجوه المخلصون، ولا كما كان يمكن أن يحدث لو أن الأمة تجمعت بعزمها كله لإحراز ذلك التقدم، دون الانغماس في الفساد الخلقي الذي يصرف عن جديات الأمور، كما فعلت اليابان حين قررت أن تنهض، فأخذت علم الغرب كله - ثم تفوقت عليه في بعض الأمور - دون أن تغير تقاليدها ولا عقائدها، وهي عقائد وثنية جاهلية<sup>(٣)</sup>، وقد كان «المسلمون» أولى بذلك لولا التخلف العقيدي والخواء الروحي الذي كانوا غارقين فيه.

وخلاصة الأمر أن التخلف العلمي والمادي ظل باقياً على نطاق واسع رغم كل «الجهود» التي بذلت. وأن الفساد الخلقي والتحلل الديني اكتسح العالم الإسلامي

(١) سورة هود [١٥ - ١٦].

(٢) سورة الحشر [١٩].

(٣) بدأت اليابان في الأخير تحلل تدريجياً من عقائدها وتقاليدها على يد الجيل «الثقف» الذي تلقى تعليمه في الغرب، بعد أن صمدت طويلاً للغزو الفكري، ولا يستغرب هذا من الوثنيين حين تغزروهم «الثقافة» ولكنه لم يكن حتماً على «المسلمين» لو كانوا على إسلام صحيح.

بحيث أصبح هو السمة البارزة فيه . ثم أضيف إلى الأمرين معا استيراد النظم والمبادئ من أوروبا، وضرورة ذلك جزءا من حياة الأمة ومن واقعها، لا تتخرج منه ولا تتأثم، ولا ترى فيه أية مخالفة «للدين»، ولا خروج على الإسلام!

وقد كان الوصول بالأمة إلى هذا الحال في حاجة إلى زحزحة هائلة للأمة عن نقطة ارتكازها الطبيعية - وهي الإسلام - حتى تصبح نقطة الارتكاز هي أوروبا والحضارة الأوروبية، وليس الإسلام.

ولقد بدأت الزحزحة مبكرة - كما قلنا - من أيام رفاة رافع الطهطاوي، أول «زعيم للإصلاح» في مصر «الحديثة»!

وتوالى الجهود... جهود الشياطين... على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان، بلا هوادة، ولا توقف، ولا تراجع، بل بعنف متزايد على الدوام.

ولكن الجهود اتخذت صورتين مختلفتين، على فترتين متميزتين من الزمن، وإن كانت الفترة الثانية قد انكأَت كثيراً على الأولى، ولم تكن لتعمل عملها لو لم تكن الأولى قد مهدت لها في واقع الحياة وواقع النفوس.

تمتد الأولى بصفة عامة إلى الحرب العالمية الثانية، حيث كانت السيطرة الصليبية (اليهودية) في يد بريطانيا وفرنسا، وهما اللتان تقومان - أساسا - بمحاربة الإسلام، وزحزحة الأمة الإسلامية عنه. وتبدأ الفترة الثانية من بُعْد الحرب العالمية الثانية، حيث انتقلت السيطرة الصليبية (اليهودية) إلى أمريكا، وتولت هي - أساسا - حرب الإسلام، وإن كانت حرب الإسلام - دائما - جهداً مشتركاً بين كل أعدائه، يقوم كل منهم بنصيبه فيه!

في الفترة الأولى كانت اللعبة هي «الوطنية» من جهة، و«الديمقراطية» من جهة أخرى، والذي يقوم باللعبة هو الأحزاب السياسية التي صنعها الغرب لتخدم أهدافه بعملية «التغريب» وعملية «التقريب».

في هذه الفترة لم يكن الإسلام يحارب حربا دموية عنيفة (إلا قرب نهايتها كما سنبين في الفصل القادم)، إنما كانت الحرب تتخذ صورة الزحزحة البطيئة (الأكيدة المفعول) عن طريق الغزو الفكري، وعن طريق مناهج التعليم ووسائل الإعلام، وعن طريق إخراج المرأة إلى الشارع وإفساد أخلاقها وتحويلها إلى «فتنة» لنفسها وللرجل، وعن طريق إيجاد مؤسسات سياسية لا تحكم بما أنزل الله، وإعطائها ثقل

«الأمر الواقع»، والزعم بأنها هي الصورة الوحيدة الممكنة... الخ... الخ... مما فصلناه فيما سلف من هذا الفصل.

في تلك الفترة عني المخططون بعدم مهاجمة الدين هجوما صريحا مباشرا - وإن هوجم تحت ستار محاربة «التقاليد» العتيقة البالية - ولكن في ذات الوقت يقلص الإسلام تقليصا تدريجيا متزايدا حتى يخرج تماما من الحياة الواقعية ويصبح وجدانات في داخل الضمير.

حين نحيث الشريعة الإسلامية عن الحكم، وهاجت الخواطر، وقال المسلمون - بحق - إن هذا كفر، قيل للناس لا بأس عليكم من تنحية الشريعة الإسلامية (فهذا «اجتهاد» لجأ إليه الحاكم!!)<sup>(١)</sup>، ولكنكم مازلتُم مسلمين، مادمتُم تصلون وتصومون، وتزكون وتحجون!

ثم سلط على الأمة من الوسائل الشيطانية - عن طريق «قضية المرأة» وما تبعها من الفساد الخلقي، وعن طريق السينما الخليعة والإذاعة الخليعة والشواطئ العارية والصحافة العارية... الخ - ما يصرف الناس تدريجيا عن الصلاة والصوم والزكاة والحج، ثم قيل للناس لا بأس عليكم وإن لم تصلوا وإن لم تصوموا... فأنتُم مسلمون مادمتُم تقولون لا إله إلا الله!

ولكي يتم إيهام الناس أنهم مازالوا مسلمين، وهم لا يحكمون شريعة الله، وهم لا يؤدون الشعائر التعبدية... كان لابد من جهد «فكري» لتحويل الإسلام عن حقيقته، وتحويله إلى المفهوم الكنسي الغربي: علاقة بين العبد والرب، لا صلة لها بواقع الحياة!

واعتمد القائلون بالجهد - ولاشك - اعتمادا كبيرا على الفكر الإرجائي، الذي كان يقول إن الإيمان هو التصديق، أو هو التصديق والإقرار، وإن العمل ليس داخلا في مسمى الإيمان، وإنه لا يضر مع الإيمان شيء!!

ولكن لا يجوز لنا أن ننسى أن الفكر الإرجائي - في أحط دركاته قبل الغزو الصليبي والغزو الفكري - لم يكن قد وصل قط إلى تنحية شريعة الله ولا إسقاط الصلاة... لأن المسلمين - على كل ضعفهم وكل تفلتهم - لم يكونوا يرون لأنفسهم وجودا إسلاميا بغير تطبيق الشريعة الربانية وبغير أداء الصلاة... .

(١) راجع فتوى الشيخ رشيد رضا التي أوردناها من قبل.

ولكن المنزلق كان قائما على أي حال . . وكان «المسلمون» قمينين أن يهبطوا عليه  
إذا دفعهم إليه «دافع»! وقد جاء الغزو الصليبي والغزو الفكري فقاما بالدفع  
المطلوبة . . فهوى المسلمون على المنزلق . . يصاحبهم الفكر الإرجائي على طول  
الطريق . . !

كانت البداية على يد «أستاذ الجيل» . . فقد ظل يكرر في جريدته أن الدين  
شيء سام نبيل، ولكن محل القلب . . ولا ينبغي خلطه بالسياسة، لأن السياسة  
دنسة! ولا يجوز تلويث الدين بدنس السياسة!!

وجاء محمد عبده يقول: لعن الله ساس ويسوس وسياسة<sup>(١)</sup> . . !!

ثم جاء سعد زغلول يقول: الدين لله، والوطن للجميع!!  
وظل الدين يزحزح ويقلص حتى انتهى تماما عند «المثقفين» إلى المفهوم الغربي  
الكنسي للدين . . علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا صلة لها بواقع  
الحياة . . حتى أصبح يقال: ما للدين والسياسة؟ ما للدين والاقتصاد؟ ما للدين  
وقضايا المجتمع؟ ما للدين وملابس المرأة؟ ما للدين وعمل المرأة؟ ما للدين . .  
وأبي شيء في هذه الحياة!!

ويستدل - دائما - بما حدث في أوروبا!

فحين كان «رجال الدين» هناك يتدخلون في كل هذه الأمور كانت الحياة  
فاسدة، وكان الظلم والظلام يخييان على أوروبا، وذلك في «العصور الوسطى  
المظلمة» فلما كُفَّ رجال الدين عن التدخل في شؤون الحياة الواقعية، اعتدل  
الحال، وتقدمت أوروبا، وجاءت الثمار الجنية . . ثمار الحضارة والتقدم والرقى!  
ولكي تتم المقارنة جُعِلَ في الإسلام كذلك رجال دين! ثم قيل للناس: القضية  
واحدة! إما أن تكفوا «رجال الدين» عن التدخل في السياسة والاقتصاد والاجتماع  
وقضايا المرأة وغيرها من الشؤون، وإما أن نظل في جو العصور الوسطى المظلمة!  
ولن نتقدم ونتحضر حتى تحصروا الدين في مهمته «السامية»: تهذيب المشاعر  
وترقيق الوجدان، وتكفوا «رجال الدين» عن التدخل «فيما لا يعينهم» من أمور  
الحياة!!

---

(١) كانت السياسة دنسة بالفعل لأنها لا تسير على المنهج الرباني. ولكن مهمة «عالم الدين» هي العمل على  
ردعها إلى المنهج الرباني، أي العمل لرد الحكم للشريعة لا العمل على إبعاد الدين عن السياسة بحجة أنها دنسة أو  
ملمونة!

وفي هذا الموقف من قِبَلِ «المثقفين» يتجمع السم كله الذي وضعه الاستعمار الصليبي لإبعاد المسلمين عن الإسلام . . منهج دنلوب في تحقير اللغة العربية ومدرستها، ومدرس الدين، والأزهر كله، وإبعاده عن مركز الصدارة، ووضعه في زوايا الإهمال، بحيث يصبح تدخله في أي أمر من أمور المجتمع تدخلا «فيما لا يعنيه!!» ومنهج الصحافة في جعل الدين أمرا موسميا، يلتفت إليه في مناسبات معينة خلال العام، ويصرف النظر عنه بقية العام، فلا يستمع إليه إذا تكلم في غير تلك المناسبات المحدودة، لأنه يتكلم في غير موضعه المخصص له! والتغريب . . وشبهات المستشرقين . . والزعماء العلمانيون في الأدب والفكر، والسياسة والاجتماع . . وليّ الأعناق إلى أوربا واعتبار كل ما حدث فيها هو الأمر الصواب الذي ينبغي أن يحدث في كل مكان!!

\* \* \*

ومهما يكن من أمر فقد ظلت الحرب الصليبية اليهودية ضد الإسلام تتخذ هذه الصورة من الزحزحة المستمرة البطيئة الأكيدة المفعول، حتى فوجئت بالصحوة الإسلامية على غير انتظار!

ولن نتحدث هنا عن الصحوة الإسلامية، فقد تركنا الحديث عنها إلى الفصل القادم . . ولكننا نقول هنا ونحن نتبع الأحداث إنه عند نقطة معينة، سنتناولها بالحديث في الفصل القادم، تفجر الصراع، وختمت بريطانيا وجودها بصراع دموي مع الحركة الإسلامية قتل فيه الإمام الشهيد حسن البنا بأيد «مسلمة!!» تعمل بأمر الاستعمار الصليبي اليهودي، وتنفذ له رغباته في خنق الحركة الإسلامية قبل أن يشتد خطرهما، ويتسع الخرق على الراقع!

ثم جاءت أمريكا لتزليل «الاستعمار القديم» وتأخذ هي مكانه في المنطقة الإسلامية، وتتسلم بدلا منه راية الحرب الصليبية اليهودية ضد الإسلام . . وتميز عهدها بتغيرات جذرية في «اللعبة» السياسية . .

فقد استخدمتْ لحرب الإسلام في المنطقة العربية بالذات عنصرين جديدين تماما، لا عهد للمنطقة بهما: أولهما الانقلابات العسكرية، وثانيهما الاشتراكية!!

## (٧) الانقلابات العسكرية واستخدام الاشتراكية لحرب الإسلام

لم تكن تجربة الانقلابات العسكرية في حرب الإسلام جديدة تماما بالنسبة للاعبين الجدد في المنطقة . فقد سبقتها التجربة التركية على يد أتاتورك ، وكان المدبر الحقيقي لها هو اليهودية العالمية ، لإزالة الدولة الإسلامية التي ترفض - بإصرار - إعطاء اليهود وطنا قوميا في فلسطين . وسواء كان أتاتورك نفسه من يهود الدنيا المتسلمين ، الذين كانوا العنصر الفعال في إزالة الخلافة أو كان من غيرهم (فالمعروف حتى الآن فقط أنه مجهول الأب ، وأن «أحمد رضا» الذي ينسب إليه هو زوج أمه وليس أباه)<sup>(١)</sup> سواء كان هذا أو ذاك فقد قام بالدور المطلوب تماما . فلم يكتف بإزالة دولة الخلافة - العقبة القائمة يومئذ في وجه إقامة الدولة اليهودية في فلسطين - بل نكل بالمسلمين تنكيلا وحشيا فقتل منهم عشرات الألوف ، من علماء الدين ومن المتمسكين بالدين عامة ، وألغى الحروف العربية وأمر بكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية ليفصل الأجيال الحديثة عن تراثها الإسلامي فصلا كاملا ، ومنع الأذان باللغة العربية ، وألزم الناس بلبس القبعة لكي يصعب عليهم الصلاة ، وأمر بإزالة حجاب المرأة المسلمة ، وألغى كل أثر للدين في واقع الحياة ، بدءا بالشرعية الإسلامية والمحاكم . . ومرورا بكل شيء يخطر على البال!

كانت تلك التجربة في الحقيقة هي «الرصيد» الذي رجعت إليه الصليبية الصهيونية وهي تخطط لحرب الإسلام في المنطقة ، والذي أقامت على منواله «أتاتورك» آخر ، هو جمال عبد الناصر ، ليقوم بنفس الدور . . ولنفس الأهداف . . وإن اختلفت الوسائل بعض الشيء ما بين أتاتورك الأول ، وأتاتورك الجديد .

تميز هذا العهد بالعنف الإجرامي في محاولة القضاء على الحركة الإسلامية ، والمذابح الوحشية ، وفنون التعذيب البربرية التي تعرض لها المسلمون بالجملة ، مما

---

(١) اقرأ في هذا كتاب «الرجل الصنم» ترجمه عن التركية عبد الله عبد الرحمن ، طبع مؤسسة الرسالة ببيروت ، واستمع إلى من بقي حيا من الأتراك الذي عاصروا تلك الأحداث .



لا مثيل له في التاريخ كله، إلا ما حدث من محاكم التفتيش في الأندلس للقضاء النهائي على الإسلام هناك. وقد كان اختيار «العساكر» حكاما في المنطقة مقصودا لهذا الأمر بالذات، قبل أي شيء آخر، كما كان المقصود منه كذلك إخضاع شعوب المنطقة بالقوة الإرهابية لتقبل الصلح مع إسرائيل.

ولا نتعجل الحديث . . (١).

إنما يهمننا هنا أن نشير بكلمة إلى استخدام «الاشتراكية» في حرب الإسلام . . . يظن كثيرون من «الطيبين» أن الاشتراكية التي استخدمت في المنطقة كانت واردة من روسيا! ويستدلون على ذلك - بلا شك - بالتوغل الذي توغلته روسيا في المنطقة في وقت من الأوقات .

وقد كانت «اللعبة» متقنة في الحقيقة لتؤدي إلى هذا الاعتقاد عند الناس . . لأمر يراد!

هناك كتاب كان مقررا على طلبة البكالوريوس في كلية التجارة بجامعة القاهرة فترة من الوقت، يحمل عنوان «مراحل التنمية الاقتصادية في البلاد المتخلفة» من تأليف «والت روستو» وهو أحد أخوين يهوديين يعملان في البيت الأبيض الأمريكي (٢)، يقول فيه ما خلاصته:

إن المنطقة (يقصد ما يسمى بمنطقة الشرق الأوسط<sup>(٣)</sup>) معرضة للشيوعية، بسبب فساد الحكم فيها، والفوارق الضخمة بين الطبقات، وانخفاض مستوى الدخل. ولا بد لعلاج هذا الأمر من رفع مستوى المعيشة، وتقريب فوارق الطبقات، وإزالة الفساد الضارب أطنابه في الحكم. ولا يمكن رفع الدخل القومي إلا عن طريق التصنيع الثقيل. ولكن التصنيع الثقيل في البلاد المتخلفة لا يمكن أن يقوم به رأس المال الفردي. لأنه لا يحقق أرباحا سريعة، وقد يظل يحقق خسائر لمدة عشرينسنوات أو خمس عشرة سنة، مما لا يحمّله رأس المال الفردي. لذلك ينبغي

(١) سيأتي الحديث عن ذلك في فصل «الصحة الإسلامية».

(٢) الثاني يسمى «يوجين روستو».

(٣) «الشرق الأوسط» تعبير مآكر من تعبيرات الغزو الفكري يراد به إيجاد مكان لإسرائيل في المنطقة لا يثير الاستنكار. فلو وصفت هذه المنطقة بأنها منطقة إسلامية فكيف توجد فيها إسرائيل؟ ولو وصفت حتى بأنها عربية فكيف توجد فيها إسرائيل؟ أما حين تصبغ منطقة «جغرافية» لا صفة لها ولا انتها، فإن وجود إسرائيل فيها يصبح أمرا لا يثير الاستنكار!

أن تقوم به الدولة ، وذلك بإنشاء قطاع عام يظل يتسع تدريجيا حتى يحتوي القطاع الخاص في داخله . ولا بد في ذات الوقت من إنشاء زعامات محلية قوية تلتف حولها الجماهير لكي لا تتجه ببصرها إلى روسيا . وبعد أن يرتفع الدخل القومي ، وتقرّب فوارق الطبقات ، يمكن الرجوع إلى نشاط رأس المال الفردي الحر مرة أخرى ، بينما تكون شعوب المنطقة قد كرهت الشيوعية تحت وطأة التجربة الاشتراكية المخففة!!

هل بقي شيء من الصورة يختلف عن الواقع الذي طبق بالفعل؟!!

نعم! هناك شيء واحد لم يكن في بال «والت روستو» وهو يصدّر الاشتراكية إلى شعوب المنطقة من داخل البيت الأبيض! لأنه لم يكن يعيش في المنطقة، وكان يتصور الأمور من وراء مكتبه لا من المشاهدة «الميدانية»!

لقد جاء «التأميم» إلى مصر في الوقت الذي كان «الموظف» يحسب نفسه قد أدى كل واجبه الذي يستحق راتبه عليه، إذا هو حضر في الميعاد أو بعده بقليل، وانصرف في الميعاد أو قبله بقليل، وشرب «فنجان» القهوة وقرأ جريدة الصباح! أما «العمل» فليس داخلا في استحقاق الراتب<sup>(١)</sup>، إنما - إذا كان ولا بد - يكون عليه أجر إضافي!!

وبينما الحال هكذا أمتت المصانع الحيوية والمؤسسات، فتحول من فيها من العمال بين يوم وليلة إلى «موظفين» في الدولة، على ذات النسق الذي كان قائما في دواوين الحكومة من قبل! فضلا عما يحدث في الاشتراكية دائما من وجود طبقة من العاملين لا تعمل في الحقيقة، إنما ينصرف همها إلى التقرب إلى «المباحث» و«المخابرات» بالتجسس على إخوانهم، وكتابة «التقارير»!

وهكذا لم يرتفع الدخل القومي بالتجربة الاشتراكية، ولم يصلح الفساد، بل انهار الاقتصاد انهيارا حادا وصل - أكثر من مرة - إلى حافة الإفلاس! وعولج - في كل مرة - بالقروض التي تؤدي في النهاية إلى مزيد من الانهيار!

المهم لدينا - في سياقنا هذا - أن «التحول الاشتراكي العظيم» كان توجيهها من البيت الأبيض، ولم يكن توجهها حقيقيا إلى الاشتراكية . ولكن بقي إيضاح آخر لا تتم الصورة إلا به . .

(١) على نفس الطريقة التي لا يدخل فيها «العمل» في مسمى «الإيمان»!!!

لم يكن الهدف الوحيد - ولا الهدف الأول - للاشتراكية هو تكريه شعوب المنطقة في الشيوعية على ضوء التجربة الاشتراكية المخففة!

لقد كان لها هدف أخطر من ذلك بكثير. . هو حرب الإسلام! إن الغرب لا يملك في وقته الحاضر من وسائل حرب الإسلام إلا الفساد الخلفي. . (١) ولكن الاشتراكية تملك!

إنها توهم الناس بأنها «عقيدة» . . و«للعقيدة» دائما سحر في نفوس الناس ولو كانت باطلة. . ففي النفس البشرية - كما فطرها الله - ميل فطري إلى «الاعتقاد» . وفي حالة الفطرة السوية يتجه هذا الميل الفطري إلى الإله الحق، فاطر السماوات والأرض وخالق الإنسان:

«وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم: ألسنت بر بكم؟ قالوا: بلى! شهدنا!» (٢).

ولكن حين تفسد الفطرة يتجه «الاعتقاد» إلى غير الله، معه أو من دونه فيقع الناس في الشرك:

«إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالهم الشياطين. .» (٣).

والاشتراكية تقول للناس - بلسان الحال أو بلسان المقال: اتركوا عقيدتكم وخذوا هذه «العقيدة» فهي العقيدة الصحيحة!

والاشتراكية فوق ذلك تبدو للناس - وللشباب خاصة - ذات هدف جاد يستحق أن يعاش من أجله وأن يُعمل من أجله، بينما تميع الغرب وتتفكك وانحل، فلم يعد له هدف جاد يحيا من أجله غير الإنتاج المادي، وهو هدف لا يشبع النفوس ولو كانت متكسبة كنفوس الناس في هذه الجاهلية (وهذا الذي يجعل الشيوعية تخايل للشباب في غرب أوروبا وفي أمريكا رغم الوضع الاقتصادي المعقول الذي يعيش فيه الفرد العادي هناك، والذي يخسره حين تحكم الاشتراكية!!)

ومن أجل ذلك تملك الاشتراكية في مجال حرب الإسلام أكثر مما يملك الغرب الفاسد المتميع المنحل! فضلا عن كون «الاشتراكيين» - بحكم تكوينهم الفكري المعادي للدين - أعنف وأوقع في مهاجمة الإسلام!

(١) هذا بالطبع إلى جانب القمع الوحشي الذي يقوم به عن طريق الانقلابات العسكرية في المنطقة. ولكننا نقصد هنا المجال الفكري والعقدي.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) سورة الأعراف [١٧٢]

ومن أجل ذلك يوضعون - في منطقة النفوذ الأمريكي - في مجالات التوجيه الفكري: في الصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون والمسرح والكتاب، ليقوموا - من هذه المجالات كلها - بمحاربة الإسلام!

وهنا يبدو «إشكال» في «اللعبة» يحتاج إلى إيضاح.

كيف يتصور أن أمريكا تستخدم عدوتها اللدود في منطقة نفوذها بمحض رغبتها، بل بتوجيهها وأمرها لعملائها في منطقة نفوذها؟

وكيف يتصور من جانب آخر أن تدخل روسيا في اللعبة إذا كان القياد ليس لها، والمصلحة الأخيرة المتحققة ليست لها ولكن لغريمتها أمريكا؟!

أما أنه في منطق العقل إشكال... فنعم!

أما في منطق السياسة فهو يجري ببساطة تامة، ويمثل معلما بارزا من معالم هذه الحقبة التاريخية التي تعيشها المنطقة الإسلامية، وتدور بها الدوامات السياسية العالمية، وهي غطاء كغشاء السيل، لا يملك نفسه عن الدوران، ولا يجتار حتى المكان الذي يدور فيه!

أما من ناحية أمريكا فخذ هذه الواقعة:

تركيا من مناطق النفوذ الأمريكية التي لاشك فيها. وفي وقت من الأوقات أحست أمريكا بوجود حركة إسلامية بدأت تظهر في وسط الشباب، فقامت بانقلاب عسكري لقمع الحركة الإسلامية، على عاداتها في تكليف الانقلابات العسكرية بهذه المهمة في المنطقة. ولكن الحرب القبرصية التي قامت سنة ١٩٦٤ أشعلت الروح الإسلامية في الجيش ذاته! وذلك حين أحاطت الدبابات اليونانية بالقرى الإسلامية وحاصرتها، ومنعت عنها الطعام والماء والدواء، فانتشرت الأوبئة فيها، فتحرك الجيش التركي بروح إسلامية لصد الهجمات الصليبية!

عندئذ أسقط في يد أمريكا... «فالعسكر» هم أداها المفضلة لقمح الحركات الإسلامية. فإذا سرى الإسلام في الجيش ذاته فما العمل؟ عندئذ أصدرت أمريكا أوامرها للحكومة التركية بإطلاق نشاط الحزب الشيوعي التركي بعد أن كان محظور النشاط، لتستعين بالشيوعية لصد الإسلام!! وتذكر الصحف الصادرة وقتئذ أن بعض الوزراء وافقوا على هذا الأمر ورفضه آخرون، فأمر المعارضون بتقديم استقالاتهم!

وأما من ناحية روسيا فخذ هذه الواقعة:

في الحرب «الأيدولوجية» التي قامت بين الصين وروسيا في الستينيات من هذا القرن الميلادي<sup>(١)</sup>، تبادلّت الصين الاتهامات مع روسيا، وكان من أشد ما اتهمت الصين به روسيا أنها خانت المبادئ اللينينية الاستالينية، وصارت تقدم مساعدات لحكومات تدور في فلك أمريكا كحكومة مصر، وبعض الحكومات الأخرى في المنطقة. وردت روسيا بأنها لا تجهل أن هذه الحكومات تدور في فلك أمريكا، ولكنها ترى أن وجودها في داخل تلك البلاد خير لها من أن تكون واقفة في الخارج، تتفرج من بعيد!

وهكذا تتم اللعبة.. أمريكا تستخدم نشاط الشيوعيين في منطقة نفوذها لمحاربة الإسلام وتضع في أيديهم وسائل الإعلام ليقوموا لها بتلك المهمة، بشرط ألا يخرجوا على حدود اللعبة، ولا يتسلموا «السلطة» في المنطقة.. فإذا اغتروا بأنفسهم، وظنوا أنهم قوة حقيقية، وأقاموا انقلابا شيوعيا، تذبّحهم أمريكا ذبحاً كما صنعت في أندونيسيا عام ١٩٦٥م وفي السودان عام ١٩٧٠م. وهما المرتان اللتان تجاوز فيهما الشيوعيون حدود اللعبة المتفق عليها! أما في غير ذلك فهم يعملون - بإذن أمريكا، بل بتوجيهها - لمحاربة الإسلام. وروسيا ترضى بدورها الثانوى في اللعبة لأن هذه ليست منطقة نفوذها الأصلية، المتفق عليها في توزيع مناطق النفوذ بينها وبين أمريكا.<sup>(٢)</sup> إنما هذا «نشاط إضافي» تقوم به روسيا لصالح المعسكرين معاً، إذ الإسلام هو العدو المشترك لكلا المعسكرين، وأى جهد يقوم به أحد المعسكرين في هذا السبيل يغطيه المعسكر الأخر ويباركه، كما قامت روسيا (بالاتفاق مع الهند) بتفتيت وحدة باكستان لحساب أمريكا (ولحسابها الخاص أيضاً) وكما تقوم حالياً بمحاربة الإسلام في أفغانستان بضراوة وحشية لحسابها (ولحساب أمريكا في ذات الوقت).

---

(١) لم تكن الحرب أيدولوجية في حقيقتها! ولكن الصين كانت قد توصلت إلى صناعة القنبلة الذرية فلم يعد هناك مبرر في حسها للخضوع لروسيا بينما شعبها يبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف الشعب الروسى. ولكن سترت تمردا بالخلاف الأيدولوجى!

(٢) اتفقت أمريكا وروسيا اتفاقاً غير مكتوب، ولكن له ثقل الأمر الواقع على أن تترك أمريكا الشرق الأقصى لروسيا، وتترك روسيا الشرق الأوسط لأمريكا بصفة عامة، وإن كانت تحدث بعض التدخلات من هنا ومن هناك ولكنها تدخلات هامشية وغير حاسمة!

وليس يعيننا من أمر هذه اللعبة في الحقيقة أن نتبع لحساب من تتم . . فهي في جميع الأحوال تتم لحساب أعداء الإسلام . وأعداء الإسلام يتصارعون فيما بينهم صراعا شديدا على مصالح كل منهم الخاصة، ولكنهم بالنسبة للإسلام ينسون صراعاتهم، وينسون عداواتهم، ويقفون صفا واحدا لمحاربتة ومحاولة القضاء عليه .

إنما الذى يعيننا فى تتبع وسائل الكيد الذى يكيد به الأعداء للإسلام، أنه فى «المرحلة الاشتراكية» كان الهجوم على الإسلام أشد، وأوقع، وأوسع دائرة مما كان فى المرحلة السابقة .

أما من ناحية الشدة فقد صار الدين يهاجم جهرة بعد أن كان الهجوم فى المرحلة السابقة ملفوفا، يأخذ صورة مهاجمة «التقاليد» لا مهاجمة الدين فى ذاته . وصار الدين هو «الرجعية» التى ينبغى القضاء عليها، بعد أن كانت الرجعية فى المرحلة السابقة هى «أفكار» رجال الدين المتزمتين، التى ينسجونها من عند أنفسهم ويلصقونها بالدين!

أما الوقاحة فربما يكفى فيها هذه النماذج الثلاثة :

كتبت محمد حسنين هيكل - وهو أمريكى ولكن «الفترة الاشتراكية» جرأته على الهجوم السافر على الإسلام - إن التقدم التكنولوجى قد أحال أكثر الكتب (المنزلة) قداسة إلى أوراق صفراء تحفظ فى المتحف!

وكتب أحد الشيوعيون (لم يذكر اسمه) بمناسبة الخير المزعوم الذى كان سيفيض على البلاد من جراء السد العالى: إن هذه الصحراء قد بقيت فى يد «الله» ملايين السنين فظلت كما هى صحراء جرداء . فلما تسلمها «الإنسان» حولها إلى مروج خضراء!

ورسم صلاح جاهين (رسام «الكاريكاتير» المعروف) صورة هزلية فى جريدة الأهرام رسم فيها رجلا بدويا (يرمز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) يركب حمارا فى وضع مقلوب (أى رأس الحمار فى اتجاه وجه الرجل فى الاتجاه المضاد رمزاً «للرجعية») وفى أرضية الصورة ديك وتسع دجاجات، وعنوان الرسم: «محمد أفندى جوز التسعة» وهو هجوم سافر على شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجاته التسع، لم يسبق له مثيل فى أية صحافة «إسلامية!» على الإطلاق، بل لعل الصحف الصليبية ذاتها لا تتوقع هذه الوقاحة .

وأما اتساع الدائرة فمشوه أن الشيوعية - في حربها الشديدة للدين - أطلقت مجموعة من الدعاوى العريضة، أدخلتها في صلب «النظرية» أو «الفلسفة» الشيوعية بخصوص الدين، لتسخفه وتسخر منه على جميع الأصعدة وفي جميع المجالات، لعلها تستطيع القضاء عليه بعد تشويه صورته وتنفير الناس منه، والشيوعيون «العرب!» يستخدمون ذات الدعاوى - حذو القذة بالقذة - في حربهم للإسلام، مستخدمين «المادية الديالكتية» و «المادية التاريخية» للتدليل - تدليلا علميا!! - على سخف الدين في ذاته، وانتهاء دوره في حياة البشرية، ورجعية معتنقيه، وكون عجلة التطور «الحتمي» ستسحقهم سحقا وتطهر منهم الأرض!!<sup>(١)</sup>.

ومن هنا أخذت مهاجمة الإسلام على يد الاشتراكيين بعدا فكريا وبعدا اجتماعيا وبعدا سياسيا في وقت واحد، منطلقا كله من محور واحد: محور «التطور» الذي أصبح الدين بمقتضاه رجعية: رجعية فكرية ورجعية اجتماعية ورجعية سياسية ينبغي سحقها والقضاء عليها.. هكذا.. لوجه الشيطان!!

ولم تعد القضية أن الإسلام يحوى «بعض» الأفكار أو «بعض» الأحكام أو «بعض» المواقف التي لا يرضى عنها «التقدميون» كما كان الحال من قبل، إنما صارت القضية هي «الدين» ذاته، وضرورة نفيه من الوجود نفيًا، ونسفه من القلوب نسفاً، وإبادة معتنقيه كلما أمكن، و«تحرير» كل من أمكن تحريره وكل ما أمكن تحريره من الدين..

ومن هنا وقع «التحالف» بين الاشتراكيين وبين عبدالناصر، وأيدوه وعضدوه وهو يذبح المسلمين ويحارب الإسلام، لأنه - وهو يقوم بهذه الأعمال لحساب أمريكا - يخدم مصلحتهم الخاصة في ذات الوقت. كما تحالف معه «المثقفون» الذين يكرهون الإسلام، لأنهم رأوا في وجوده وتمكنه أمانا لهم من الحركة الإسلامية وقوتها!

وإذ كان عبدالناصر هو الدرس الثاني بعد أتاتورك، فقد كان الإخراج متقنا واللعبة أكثر سبكا.

---

(١) ناقشت هذه القضايا كلها مناقشة تفصيلية في فصل «الشيوعية» من كتاب «مذاهب فكرية» لمن أراد الرجوع

ولا بد لإنتقان اللعبة من بطولات زائفة تُضفي على القاتل وهو يذبح فريسته، لكي تتوارى الجريمة في ظل البطولات!

وكما كان لأتاتورك «بطولات فذة»<sup>(١)</sup> قام في ظلها بذبح الإسلام في عاصمة الخلافة، تمهيدا لتفتيت الدولة وتوزيع أسلابها بين الطامعين، وتمكين اليهود في النهاية من إقامة الوطن القومي في فلسطين، بعد أن أبت عليهم دولة الخلافة ذلك وهي في نزعها الأخير. . كذلك كان لعبدالناصر «بطولاته الفذة» . . فهو «بطل باندونج» و«بطل القناة» و«قاهر بريطانيا وفرنسا» و«مؤسس السد العالي» و«بطل القومية العربية» . . الخ . . الخ . .<sup>(٢)</sup> وفي ظل هذه «البطولات» كلها يذبح المسلمون، ويعمل عبدالناصر جاهدا لقتل الحركة الإسلامية . . لكي تأمن إسرائيل!<sup>(٣)</sup>

ولسنا هنا نؤرخ لعبدالناصر . . ولسنا كذلك نؤرخ لهذه الحقبة الخطيرة من حياة الأمة الإسلامية . . إنما نحن فقط نتتبع الخطوط العريضة لمحاولات الأعداء للقضاء على الأمة الإسلامية والقضاء على الإسلام، ونتتبع الوسائل التي استخدموها في هذه الحرب الضارية التي شنوها على الإسلام . . ولكننا نلخص الموقف كله في نهاية هذا الفصل، فنقول إن موقف الأعداء، سواء في الغزو العسكري، أو الغزو الفكري، أو فتنة المسلمين عن دينهم بكل الوسائل، ليس أمراً مستغرباً منهم، أيّاً كان القدر الذي يشتمل عليه من الخسة والمكر، والخديعة واللؤم، والبربرية والوحشية . . فهم هم كما وصفهم الله في كتابه المنزل:

«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»<sup>(٤)</sup> .  
«ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا»<sup>(٥)</sup>  
«لا يرقبون في مؤمن إلا ولاذمة»<sup>(٦)</sup>

(١) كان من بطولاته الفذة - المصطنعة - انسحاب قوات الحلفاء من الأناضول أمام هجماته!

(٢) نسوا أن يقولوا: و«بطل النكسة»! . .

(٣) انظر الفصل القادم .

(٤) سورة البقرة [١٢٠]

(٥) سورة البقرة [٢١٧]

(٦) سورة التوبة [١٠]



«ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق»<sup>(١)</sup>

«وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً»<sup>(٢)</sup>.

أما المسلمون فهم يهتمون بتبعية ما حل بهم من كيد أعدائهم، وما حل بهم من هوان وضعف، ولا يستطيعون أن يحتجوا في الحياة الدنيا ولا بين يدي مولاهم في الآخرة بأن أعداءهم كادوا لهم، وفعلوا بهم ما فعلوا، ولم يكن لهم محيص.. إن هذا الكيد - بكل ضراوته التي أشرنا إليها، وكل مكره وخبثه ودنسه - ليس ابن اليوم، ولا ابن الأمس القريب.. إنما عمره أربعة عشر قرناً ونيفاً.. أى منذ نزل هذا الدين.. لا يكف إلا ريثما يشتعل من جديد!

ولكن الله - تعالى شأنه - قال لنا في كتابه المنزل - بعد أن علمنا كل شيء عن موقف الأعداء وكيدهم، ومحاولتهم الدائمة لفتنة المسلمين عن دينهم، وزحزحتهم عنه - قال سبحانه وتعالى: «وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً»<sup>(٣)</sup>. ولم يكن الصبر المذكور في الآية الكريمة - ولا كانت التقوى - تميمة يعلقها المسلمون على صدورهم فترد عنهم الكيد! ولم يكن الصبر والتقوى كذلك أمراً سلبياً في داخل الصدور، يمارسه الناس بوجداناتهم فيصد عنهم الكيد! إنما الصبر والتقوى قوة إيجابية هائلة تصد الكيد بإيجابيتها وفاعليتها.. بقدر من الله.

ولقد فسد مفهوم الصبر والتقوى عند الأجيال المتأخرة من المسلمين كما فسد كل شيء في حياتهم وتصوراتهم، فتحول إلى مفهوم سلبى لا يغير شيئاً في واقع الحياة! ولكى نفهم المعنى الحقيقى المقصود بالصبر والتقوى، ونفهم كيف يؤدي التمسك بهما إلى صد الكيد، فلنعرف أولاً ماذا يريد الأعداء.. إنهم يريدون أن يردوا المسلمين عن دينهم أو يزحزحوهم عنه.. فالصبر المطلوب إذن هو الصبر على هذا الدين، وعلى كل تكاليفه ومقتضياته، والاستقامة على أمره، والإصرار عليه مهما فعل الأعداء.. والتقوى هى اتقاء سخط الله وغضبه.. ولا يكون هذا إلا بتنفيذ أوامره والانتهاز عن نواهيه.. وحين يقع الصبر والتقوى على هذه الصورة فما الذى يستطيعه الأعداء يومئذ، ومن أين ينفذون؟!

[٢] سورة المائدة [٦٤]

[١] سورة البقرة [١٠٩]

[٣] سورة آل عمران [١٢٠].

إنما نفذوا في الحياة الإسلامية من تقصير المسلمين في تنفيذ ما أمر الله به، سواء كان التقصير متمثلاً في التقاعس عن إعداد العدة التي أمرهم الله بإعدادها لإرهاب عدو الله وعدو المسلمين، أو التقاعس عن الإنفاق في سبيل إعداد هذه القوة كما أمر الله .

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون»<sup>(١)</sup>.

أو كان التقصير متمثلاً في إرجاء العمل والاتكال على الإيوان المكنون في داخل القلب . .

أو كان في ترك عمارة الأرض والمشى في مناكبها وابتغاء فضل الله، توهمًا أن هذا يقرب الإنسان من الله ويضمن له الآخرة . .

أو كان في ترك العدل الذي أمر الله به سواء في سياسة الحكم أو سياسة المال أو ارتباطات الناس في المجتمع أو روابط الأسرة بين الرجل والمرأة . .

أو كان في الفرقة التي نهى الله عنها وحذّر منها . .

أو كان في اتخاذ بطانة من دون المسلمين لا يألوهم خبالاً . .

أو كان في غير ذلك مما وقع فيه المسلمون في قرونهم الأخيرة من البدع والمعاصي والخرافات والجهالات، فأصابتهم السنة التي لا تتبدل ولا تتخلف، وأصابتهم النذير الذي حذرهم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: إنكم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل .

ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»<sup>(٢)</sup>.

وقد تحقّق النذير بقدر من عند الله، ولكن في الوقت ذاته بسبب من تهاون الأمة في حمل أمانتها التي ناطها الله بها، كما وقعت الهزيمة يوم أحد بقدر من عند الله ولكن بسبب - في الوقت ذاته - من المعصية التي وقعت من المسلمين :

«أولاً أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنى هذا؟! قل: هو من عند

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود

(١) سورة الأنفال [٦٠]

أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله . . .» (٣) .

ولا خلاص لهم إلا أن يعودوا إلى الله ، فيعبدوه حق عبادته ، فيذهب الله عنهم آثار الكيد ، ويرد لهم التمكين الذى وعدهم به ، وحققه لهم حين استقاموا على طريقه ، ثم نزعه منهم حين أخلوا بالشرط :

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا» (٤)

---

(٤) سورة النور [٥٥] .

(٣) سورة آل عمران [١٦٥ - ١٦٦] .

## الصحة الإسلامية

جاءت الصحة الإسلامية في موعدها المقدور عند الله . . وكانت مفاجأة ضخمة لكثير من الناس!

ولكن هل كانت مفاجأة في الحقيقة؟!

إن الذين فوجئوا بها من الداخل كانوا هم الذين نقلوا نقطة ارتكازهم نهائيا من الإسلام إلى الحضارة الغربية، وأداروا ظهرهم للإسلام على أنه قد ذهب إلى غير رجعة، وأنهم هم - «المثقفين» - هم الطليعة للأجيال القادمة، التي ستتحرك نهائيا من كل عقابيل الماضي، وتمضي على طريق التحرر إلى نهاية الشوط.

وأما الذين فوجئوا بها من الخارج فكانوا هم الذين بذلوا جهد الشياطين طوال ما يزيد على قرن من الزمان لإبعاد الأمة عن الإسلام بكل الوسائل، ورأوا بالفعل أجيالا تتبعد تدريجيا عن الإسلام، وكل جيل يبتعد أكثر من سابقه عن نقطة ارتكازه الأصلية، فظنوا - بحساباتهم الأرضية - أن الأمة قد أزمعت أن تخرج نهائيا من الإسلام. . . ولن تعود!

ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا قد أغفلوا حقيقة ضخمة تندرج تحتها حقائق كثيرة لا تسير بحسب حساباتهم، ولا تستطيع حساباتهم أن تصل إليها، لأن الله قد جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوا، وجعل في آذانهم وقرا!

أغفلوا بادئ ذي بدء أن الذي يدبر الأمر في هذا الكون العريض كله ليسوا هم، وليس غيرهم من البشر، إنما هو الله!

«والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون»<sup>(١)</sup>

«وربك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة»<sup>(٢)</sup>

---

(١) سورة يوسف [٢١]. (٢) سورة القصص [٦٨].

«بديع السماوات والأرض، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون»<sup>(١)</sup>  
والله سبحانه هو الذي قرر أن يبقى هذا الدين في الأرض إلى قيام الساعة على  
الرغم من كيد الأعداء كله :

«يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي  
أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»<sup>(٢)</sup>  
وأغفلوا ثانيا أن الناس في المنطقة الإسلامية قد صحبوا هذا الدين اثني عشر  
قرنا كاملة قبل أن يجيئوا هم بسمومهم ليفتنوا الناس عن دينهم، وامتزجت به  
مشاعرهم، وأصبح هو حياتهم وفكرهم، ومبدأهم ومعادهم، ونبضهم الطبيعي  
الذي تنبض به قلوبهم، فلا عجب أن يرجعوا إليه ولو غفلوا عنه فترة، إنما العجب  
- كان - أن يشردوا عنه ويتجهوا إلى غيره! والعجب الأكبر - كان - أن يثبتوا على هذا  
الشرود، ولا يرجعوا إلى نبض قلوبهم الطبيعي!

وأغفلوا - فيما أغفلوا - أن هذا «دين الحق» . . لا تنطبق عليه كل تخرصاتهم عن  
الدين الذي انتهى إلى غير رجعة، والذي كان يمثل مرحلة وسيطة بين السحر  
والعلم، والذي أدخل مكانه بصفة نهائية للتقدم العلمي والحضاري  
والتكنولوجي . . الخ . فكل هذه التخرصات إن انطبقت على دين أوروبا الجاهلي -  
الذي حرفت فيه الكنيسة ما حرفت، وشوهت ما شوهت - فلا تنطبق على الدين  
الحق، الذي حفظ الله أصوله فلم يطرأ عليها تبديل ولا تحريف، والذي يملك  
الناس في كل لحظة أن يرجعوا إلى أصوله الصحيحة المحفوظة، فيصححوا مسيرتهم  
إن أصابها انحراف في أثناء الطريق . . دين الفطرة، الذي أنزله الله ليلتقي تماما  
مع الفطرة السوية كما أنشأها الله، لأنه مفصل على قدها بالضبط، والذي يصحح  
انحرافات الفطرة كلما وقع فيها اختلال .

وأنه إن كانت البشرية - في خارج الإسلام - قد كفرت وألحدت وفسقت عن أمر  
ربها - لأي سبب من الأسباب - فلم يكن هذا أمرا «بشريا» طبيعيا يفترض أن يتجه  
البشر كلهم إليه، ولا أن يثبتوا عليه إن اتجهوا إليه فترة من الوقت<sup>(٣)</sup> ولم يكن من

(١) سورة البقرة [١١٧].

(٢) سورة الصف [٨ - ٩].

(٣) انظر - إن شئت - فصل «الإلحاد» في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

الحتم أن يصيب المسلمين بالذات - أصحاب الدين الحق - مهما انحرفوا عن حقيقة الدين في وقت من الأوقات . فإنما حدث الإلحاد في العالم الذي كانت الكنيسة تسيطر عليه، لا من طبيعة الدين من حيث هو، ولا من طبيعة البشر من حيث هم، ولا لأن الدين كان له دور تاريخي وانتهى ! ولكن لأن الكنيسة قدمت للناس بدلا من دين الله دينا آخر لا يصلح للحياة، ولا يسمح لها بالحركة والتقدم والنمو، ولا يسمح للحركة العلمية أن توجد، فضلا عن أن ترسخ أقدامها وتتقدم، بينما العلم ضرورة للكائن البشري، وحاجة مركوزة في فطرته، ليقوم بعمارة الأرض بوصفها جزءا من مهمة الخلافة التي من أجلها خلق الله الإنسان .<sup>(١)</sup>  
 وأيا كان الأمر، فقد جاءت الصحوة الإسلامية في موعدها المقدور عند الله . .  
 وإن فاجأت من فاجأت من الناس من هنا ومن هناك!<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

كان الناس - قبل الصحوة الإسلامية - قد انقسموا - في عمومهم - إلى فريقين متباعدين لا يكاد يربط بينهما رابط، كأنهما أمتان منفصلتان، وإن تشابهت بينهما الأسماء!

فريق «المتدينين» المحافظين، على رأسه أصحاب الثقافة الإسلامية من خريجي الأزهر، ويشمل كذلك كبار السن من سكان المدينة الذين حافظوا على «تقاليدهم الإسلامية» في وجه الطوفان، وإن كانوا قد اعتزلوا المجتمع نجاة بأنفسهم من ذلك الطوفان، كما يشمل أهل الريف الذي لم تكن قد غزته الموجة الكاسحة بعد، فهو على حاله التي كان عليها منذ قرون، شديد المحافظة على تقاليده - في الصعيد خاصة - ولكن حظه من الوعي ضئيل في كل اتجاه، «والدين» عنده لا يعدو أن يكون مشايخ وأضرحة، وكرامات وأولياء . . و«تقاليد» . .

(١) في فصل «الدين والكنيسة» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» تفصيل لما فعلت الكنيسة الأوروبية، مما أدى إلى نفور أوروبا من الدين . .

(٢) نتكلم هنا عن الصحوة الإسلامية في مصر، لأننا أثرنا - كما أشرنا في الفصل الماضي - أن نتبع التجربة المصرية من بدء الانسلاخ عن الإسلام إلى بدء العودة إليه . لذلك لم نتكلم عن حركة محمد بن عبد الوهاب السابقة في الزمن عن الصحوة المصرية، والتي كان لها تأثيرها عليها دون شك، كما لم نتحدث عن حركة الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية على يد المودودي وغيرها من الحركات المعاصرة، ولكن القارئ - من أي بلد إسلامي - سيجد فيها كتبنا مشابه مما حدث في بلاده، سواء عن الغزو الفكري أو عن الصحوة الإسلامية .

وفريق اتجه إلى الحضارة الغربية على أنها طريق الخلاص من كل ما أصاب العالم الإسلامي من أمراض، وعلى رأسها التخلف الحضاري، الذي اعتبره عقدة العقد وعلة العلل، وهو الذي يحتاج إلى العلاج العاجل، وعلاجه عندهم هو أخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها - إن كان فيها شر! - لا محالة من ذلك كما قال طه حسين! وإن كان هذا الفريق قد انقسم إلى قسمين تجاه «الدين» أحدهما يرى نبذه كليةً كما نبذته أوربا، لأنه هو سبب التخلف وسبب الأمراض كلها، والآخر يرى أنه لا بأس من بقائه على أن «يلزم مكانه» لا يتجاوزه. ومكانه هو أن يكون علاقة خاصة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا شأن لها بواقع الحياة! . . فليكن «الدين» اعتقاداً في الله واليوم الآخر، وليكن شعائر تعبدية<sup>(١)</sup>، ولكن لا ينبغي له أن يزيد على ذلك؛ وليس له أن يتدخل في شيء من أمور الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ ولا علاقة له عموماً بالأمور «المتطورة» - وفي مقدمتها قضية المرأة - فهذه كلها تستمد من الحضارة الغربية، وتستورد من هناك!

الفريق الأول يحمل تراث ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً، ويعتز به ويحافظ عليه، ولكنه لا يدرك على وجه التحديد أي شيء من هذا التراث هو من حقيقة هذا الدين، وأيةً قد وفد عليه من خارجه أو انحرف عن طريقه الصحيح. ثم هو يزداد اعتزازاً بهذا التراث، واحتضاناً له، وتمسكاً به، كلما أحس بتوغل التيار الغربي في حياة الأمة! ومحس - بالفطرة - أن هذا التيار موجهٌ ضد دينه وأخلاقه وتقاليده، فيرفضه كله، وينظر إليه نظرة الحذر والتوجس، ويحاول قدر استطاعته ألا يمسه من دنسه شيء!

والفريق الآخر بقسميه - النافر من الدين كليةً، أو الذي يرى حصره في نطاقه الوجداني والتعبدية، وعزله عن بقية الحياة - هو الفريق الذي تشرب السم الذي بثه الغزو الفكري في نفوس «المثقفين»، كل بقدر ما عبّ من هذا السم، وكل بقدر ما استراح للقدر الذي تشربه من السموم!

وعملاء الغزو الفكري في الداخل، والمخططون له من الخارج، يمدون لهذا الفريق في الغني، ليدفعوه دفعة جديدة بعيداً عن الإسلام، ويستخدمون في ذلك

(١) لم يكن كثير منهم يؤدي الشعائر التعبدية. إنها كانوا يعتبرون ذلك جائزاً لمن أراد!!

كل وسيلة ، ويتخذون من موقف الفريق الأول ذاته مادة للتنفير من الدين ، وتشويه صورته في نفوس الناس !

هل تريدون الدين؟! انظروا إلى هؤلاء المشايخ! انظروا إلى تزمتهم وتعصبهم ، وضيق أفقهم وقلة وعيهم ، وقلة خبرتهم بما يجري في الدنيا من حولهم . . إنهم يعيشون بعقلية «القرون الوسطى» ويريدون أن يحكموا على الحاضر «المتطور» بعقليتهم المتأخرة تلك . . وأتى لعجلة التطور أن تتوقف من أجلهم؟! بل ستمضي في طريقها وتسحقهم سحقاً!

وقد كان في موقف هذا الفريق ما يعيبه حقاً - رغم طيبته وإخلاصه - وما يجعله مادة يستغلها شياطين الفريق الآخر لتنفير الناس من الدين!

فلم يكن تحقير المرأة وازدراء دورها في الحياة ، ورفض تعليمها وثقيفها ، مما أمر به الإسلام أو مما يرضى عنه الإسلام ، وهو الذي فرض العلم على كل مسلم ، ووجه الناس جميعاً - رجالاً ونساءً - أن يتدبروا أمور الكون من حولهم ، وأن يكون لهم موقف واعٍ مما يعرض لهم من أحداث . .

ولم يكن رفض المعطيات الصالحة في الحضارة الغربية كالعلم ، والتقدم المادي ، واستخدام الآلة لتحمل عن الإنسان عبء الجهد البدني الشاق ، وتنظيم الحياة وترتيبها ، والدراسة العملية للمشاكل وللحلول . . لم يكن رفض ذلك كله متمشياً مع روح الإسلام الحقيقية ، ولا متمشياً مع نهج الأجيال الأولى ، أفضل أجيال الإسلام وأعلمهم بحقيقة هذا الدين!

ولم يكن الوقوف عند قضايا القرن الخامس الهجري - على أحسن تقدير - كأن لم تمض قرون بعد ذلك ، ولا تغير في حياة الناس شيء . . لم يكن ذلك متمشياً مع روح الإسلام الدافعة النامية على الدوام ، التي تستوعب ما يجد في حياة الناس من أمور لا تتعارض مع الفطرة السليمة وحاجاتها ، فإن ما يجد في حياة الناس نتيجة زيادة معرفتهم بالكون المادي ، وزيادة قدرة الإنسان على تسخير هذه المعرفة في عمارة الأرض ، أمر لا ياباه الإسلام ، لأنه داخل في المهمة التي خلق الله الإنسان من أجلها وهي تعمير الأرض بمقتضى المنهج الرباني . بل الإسلام يأمر به أمراً ويوجه إليه توجيهها صريحاً:



«هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه، وإليه النشور»<sup>(١)</sup>

«وسخر لكم مافي السماوات وما في الأرض جميعاً منه»<sup>(٢)</sup>  
«هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها»<sup>(٣)</sup>

ولم يكن الانزواء عن حركة العالم المواراة، وحصر مناهج التفكير في القوالب الموروثة من أجيال، فضلاً عن كون قضايا التفكير ذاتها هي الموروثة من تلك الأجيال. . لم يكن ذلك مما يأمر به الإسلام أو يرضى عنه. . صحيح أن في حركة العالم المواراة كثيراً من السوء في حكم الإسلام، وهذا السوء يقد إلى العالم الإسلامي في موجات متلاحقة كالطوفان. . ولكن الموقف الصحيح عندئذ هو بناء السفينة الصالحة، وعبور الطوفان بها حتى تصل إلى بر الأمان، وليس الانزواء على الجبل الذي لا يعصم من الماء!

لقد كان الطوفان الطاغى الذي تمور به الحياة في الغرب، وتفقد موجاته المتلاحقة إلى العالم الإسلامي، في حاجة إلى رؤية إسلامية صحيحة عميقة، تشخص الداء وتقدم الدواء، وترشد التائهين وتدلهم على المسلك الصحيح. . أما الاعتصام بالماضي، ونفض اليد من الحاضر. . فلم تكن له نتيجة عملية إلا الغرق في الطوفان!!

ولا شك عندنا في إخلاص هذا الفريق من المتدينين. . ولكن الإخلاص وحده لا يكفي، بل لابد معه من البصيرة:  
«قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين»<sup>(٤)</sup>

لقد كانوا يحملون التراث الإسلامي - بما يحتويه من انحرافات المسلمين خلال القرون - ويعتزون به على أنه هو «الإسلام». وكانوا يدركون جيداً أن موجة التغريب الكاسحة تتجه إلى هذا التراث لتفتك به وتقضي عليه، فيحتضنونه أكثر

(١) سورة الملك [١٥].

(٢) سورة الجاثية [١٣].

(٣) سورة هود [٦١].

(٤) سورة يوسف [١٠٨].

ليحموه من الهجوم الموجه إليه ، ولكنهم كانوا - بحالتهم التي كانوا عليها - عاجزين عن تصحيح هذا التراث ، وتنقيته مما ألم به من أمراض وانحرافات . . ولم يكن هو - بحالته التي كان عليها - قادرا على الحياة! (١)

لذلك لم يكن لهذا الفريق ذاته قدرة على الامتداد فيما يليه من أجيال . . إنما كان يتذابوب ويتضاءل على الدوام ، إما بالعزلة وإما بالموت . . ويخلى السبيل لموجة التغريب الكاسحة ، تتسع على الدوام!

وكان المخططون في سرور بالغ - ولا شك - بهذه الحال!  
فحين يتذابوب هذا الفريق ويتضاءل ، تنداح الموجة بلا حواجز ، وتزول العقبات كلها من طريق التغريب . ولا تبقى إلا مشكلة المتدينين في الريف - وفي الصعيد خاصة - وهذه المشكلة - على المدى - لها حلول!

فحلها - كما طلب الكاتب اليهودي الأمريكي «مرو برجر Morroe Berger» في كتابه «العالم العربي اليوم The Arab World Today» (٢) أن تصب المدينة خلاصة حصيلتها «الحضارية» في الريف لمطاردة بقايا الإسلام هناك ، سواء كانت خلاصة حصيلتها الحضارية هي السينما الداعرة أو الإذاعة الداعرة أو الصحافة الداعرة (وذلك قبل وصول البرامج التليفزيونية الداعرة) (٣) . .

على أن الريف - وإن كان مطلوبا إفساده في النهاية لكي لا يرسل إلى المدينة أفرادا متدينين يحتاجون إلى جهد لإفسادهم ، ولكي لا يجد الإسلام له «مأوى» في

---

(١) ليس المقصود هنا هو التراث بمعناه العلمي الاصطلاحي ، إنما المقصود هو الميراث التاريخي للمسلمين ، وهذا كان في حاجة إلى تنقية جذرية . لما دخله في خلال الأجيال الأخيرة خاصة من انحرافات (انظر فصل «خط الانحراف»).

(٢) سبقت الإشارة إليه . وهذا الكتاب لم ينل في اعتقادي حظه من الدراسة الجادة ، مع أنه يلقي كثيرا من الضو ، على مخططات الأعداء لمحاربة الإسلام .

(٣) عنى جمال عبد الناصر عناية خاصة بإيصال «خلاصة الحصيلة الحضارية» إلى الريف . ومن بين هذه العناية ترتيب رحلات للريفيين والريفيات إلى الشواطئ العارية بمبلغ رمزي زهيد لا يتجاوز جنيتها ونصف الجنيه لفترة أسبوعين كاملين ، تشمل نفقات السفر والإقامة . . حتى ترى الريفيات مناظر العري الدنس ، ويذهب ما في نفوسهن من الحياء الفطري ، وتنتهي «المشكلة» .

أي بقعة من الأرض<sup>(١)</sup> - فإنه لا يمثل خطرا عاجلا لأنه «متخلف» بطبعه، ومن ثم فهو ليس مصدرا «للعديوي»! أي أنه من المستحيل على أهل المدينة الذين «تحرروا» و«تحضروا» و«تطوروا» أن يقلدوا أهل الريف في شيء أصلاً، لا في عقائدهم، ولا في أفكارهم، ولا في أنماط سلوكهم. ومن ثم فإن الدين - وإن كان المطلوب محوه من الريف على المدى الطويل - لا يمكن أن ينتقل من الريف إلى المدينة بصورة تؤثر في سير الأحداث فيها، فتردها إلى التدين بعد أن انسلخت منه. أما الأفراد المتدينون الذين يأتون من الريف يحملون معهم جرائم «التخلف» فسرعان ما يذوبون في المدينة، و«يتطهرون» من تخلفهم، أو ينزويون في ركن منها مع المستضعفين من المتزويين!

وهذا يكون «الدين» قد انحصر في «المتخلفين»، سواء كان أولئك المتخلفون هم «المشايخ» من أهل المدينة، «ذوي العقول المتحجرة المتعفة الرجعية»<sup>(٢)</sup>، أو هم أهل الريف السذج الجهلاء الذين لا يجب أحد لنفسه أن يكون منهم. . . وكان هذا ولا شك نجاحا للمخططين والموجهين، الذين كانوا قد بثوا من قبل في أذهان «المثقفين» أن الدين تخلف، أو أنه هو التخلف بعينه. . . فإذا انحصر الدين بالفعل في «المتخلفين» الذين يشهد الناس تخلفهم، فهذا مصداق القول! وأصبح سلخ «المثقفين» من دينهم أيسر - إن كان قد بقي لهم دين! ويكفي أن يقال للمرأة «المثقف» أ تريد أن تكون كالمخلفين من المشايخ أو من أهل الريف، حتى ينسلخ من فوره، لينفي عن نفسه تلك التهمة الكريهة البغيضة: تهمة التخلف<sup>(٣)</sup>! . .

---

(١) لم يطالب «مروجر» بصب خلاصة الحصيلة الحضارية على الريف فقط، ولكن على البادية كذلك في البلاد التي فيها بادية، بعد أن قرر - بوضوح - أن الإسلام قد ضعف في «المدينة المصنعة الأهلة بالسكان» وما زال قويا في الريف والبادية!

(٢) هكذا كان «المشايخ» دائما يوصفون بعد أن فعل بهم مخطط «دلوب» ما فعل . . . وبعد أن انزوا أمام تيار التغريب الذي سمي «تيار الحضارة» . . . وكانوا بالفعل لا يمثلون تيارا حيا قادرا على توجيه الحاضر فضلا عن المستقبل.

(٣) على أحد الشواطئ أرادت فتاة أن يصورها المصور جالسة على رمال الشاطئ بلباس البحر. وكانت - على عريها - مازال تحمل شيئا من بقايا الحياء الفطري، ولكن هذا الوضع «المحتشم!!» لم يعجب المصور فطلب منها أن تجلس في وضع أكثر تبذلا، فأبت . . . فقال لها - ليستفزها - هل أنت فلاحة أم ماذا؟! وفي الحال كانت الفتاة على الوضع المطلوب . . . لتنفى عن نفسها التهمة الكريهة البغيضة . . . تهمة التخلف!

وفي كل يوم تجد منسلخين جددا يتلعمهم تيار التغريب، وتصبح الموجة المنسلخة هي الغالبة، وهي التي تقرر صورة المجتمع، وتقرر - في حس أصحابها - مصيره كذلك..

رجال السياسة البارزون، الذين يصلون ويجولون، وتلتف حولهم الجماهير، سواء أكانوا في الحكم أم كانوا من المعارضين، كلهم من «العلمانيين» الذين تنص لوائح أحزابهم نصا صريحا على عدم «الخوض» في الأمور الدينية!

ورجال الفكر والأدب البارزون، الذين تنشر لهم الصحف والمجلات آراءهم وكتاباتهم ومعاركهم الفكرية والأدبية، وتتلقفها الجماهير، هم كذلك من العلمانيين الذين أبعدوا الدين إبعادا من فكرهم وإنتاجهم، إلا أن يسخروا به بين الحين والحين، بقدر ما كانت تسنح الفرصة في ذلك الحين!

ورجال الاقتصاد البارزون، الذين يقتحمون الميدان الاقتصادي «الوطني» وتشير الصحف إليهم وتتبع أخبارهم، وتشير إعجاب الجماهير بهم، هم من العلمانيين الذين أباحوا الربا، وقرروه أصلا ثابتا من أصول «الاقتصاد الحديث» المتطور، ومن أصول «القوة الاقتصادية» التي ينبغي أن نحصل عليها لتحرر من قبضة الأعداء!

ورجال الفن - ونساؤه - الذين يقومون بدور الترويح و«الترفيه» عن الجماهير، كلهم - بطبيعة الحال - من الذين انحلت أخلاقهم من قبل، فكان الانحلال ذاته هو المؤهل الذي يؤهلهم لدخول عالم الفن! وهؤلاء قد جعلت منهم الصحافة «نجوما» و«أبطالا» يسعى الأولاد والبنات إلى تقليدهم، والتشبه بهم، ولا يكف المجتمع عن التطلع إليهم، والإشادة بهم، والتحدث عنهم، والاهتمام بشأنهم.. بل أصبحواهم «الطبقة» المرموقة التي تحظى بالاحترام وتحظى بالتقدير!

فأي شيء بقي في حياة الناس لا تشكله أيدي المنسلخين من الدين، الداعين إلى التغريب تحت عنوان من العناوين؟!

وفي هذا الجو والناس - بفريقيهم - على هذه الصورة.. قامت الصحوة الإسلامية - مفاجئة - في جميع الاتجاهات لما كانت عليه حياة الناس.. فكانت منعطفًا حادًا في الطريق!

\* \* \*

كانت المفاجأة الأولى أن الذين يحملون الدعوة إلى الإسلام في هذه المرة هم «الأفندية» وليسوا «المشايع»!

وكانت هذه كذلك هي الطامة الكبرى!

فحينما نجح المخططون في حصر «الدين» في المشايخ، وسلخ «الأفندية» منه، كان ذلك في حسهم نصرا مؤزرا لأنهم بذلك قد حصروه في العنصر المتخلف المنقرض الذي ليس له امتداد. . أما اليوم فماذا يفعلون «بالأفندية» حين يحملون الدين؟!!

لقد كان «الأفندية» هم حَمَلَة التغريب، وهم في الوقت ذاته الأداة التي يستخدمها المخططون لجر الأمة كلها إلى العبودية للغرب، والانسلاخ من الإسلام، باعتبارهم حملة الثقافة، وحملة العلم، وحملة الحضارة، وحملة الرقي، وحملة الوعي، وعنوان التقدم. .

وقد كان تغيير الزي في ذاته مقصودا لأمر يراد. .

فقد كان مع الزي «الوجهة». .

أي أن الذي يرتدي زي الغرب يتجه في الوقت ذاته إلى المكان الذي استورد الزي منه، فيستورد منه أفكاره وتقاليده وأنهاط سلوكه ونظم حياته. . السياسية والاقتصادية والاجتماعية. . وفي كل اتجاه.

وكان تقسيم الأمة إلى فريقين متميزين لا رابط بينهما، مقصودا كذلك لأمر يراد. .

فالمشايع يتجهون إلى الشرق. . إلى الإسلام. . ويضفى عليهم من صفات الجمود والرجعية والتخلف ما ينفر «الجيل الجديد» منهم، ويبعدهم عن أن يكونوا قدوة لأي مقتدٍ<sup>(١)</sup>. . و«الأفندية» يتجهون إلى الغرب. . إلى أوروبا. . وينسلخون من الإسلام، ويضفى عليهم من صفات التقدم والرقي وسعة الأفق وعمق الإدراك ومسيرة ركب الحضارة ما يجعلهم هم القدوة لمن أراد الاقتداء<sup>(٢)</sup>. . لذلك كان تغيير الزي يحمل معه بالفعل تغيير الاتجاه. .

---

(١) وكان في موقفهم الذاتي - كما أسلفنا بيانه - ما يساعد الأعداء على إضفاء هذه الصفات عليهم، وما يصدّق هذه الصفات.

(٢) وكان لهم من قشور الثقافة ومظاهر الحضارة المادية ما يساعد الأعداء على إضفاء هذه الصفات عليهم بحيث تبدو كأنها حقيقة.

فاليوم تأتي المفاجأة من أن الذين عُيِّر لهم زيم ليغيروا وجهتهم، هم أنفسهم - بزيم - الذين يعودون إلى الإسلام، ويحملون الدعوة إليه . . !

\* \* \*

وكانت المفاجأة الثانية أن دعاة الإسلام الجدد من «الأفندية» لا يقفون موقف «الجمود» من «الحضارة الغربية» فيرفضوها جملة، ويأبوا أن يأخذوا أي شيء منها، بل إنهم يعلنون أن فيها أشياء نافعة ينبغي أخذها والاستفادة منها، كالتقدم العلمي والتقدم التكنولوجي والروح العملية وعبقرية التنظيم؛ وفيها أشياء ضارة لا ينبغي للمسلم أن يقع فيها كالإلحاد والكفر، والفكر المادي الذي ينكر وجود الخالق سبحانه، أو ينكر تدبيره لكل شئون الكون، والفساد الخلقي الذريع الذي يهبط بالإنسان إلى الدرك الحيواني بل أسفل منه <sup>(١)</sup>، وآلية الحياة التي تنفي المشاعر الوجدانية وتبعدها عن مجال «الحياة العملية»، والفردية الأنانية التي تقطع الروابط الأسرية والروابط الإنسانية . . وفيها إلى جانب هذه وتلك نظم سياسية واجتماعية واقتصادية يختلط فيها الخير والشر، فأما الشر فينبغي نبذه لا محالة، وأما الخير - أي ما كان موافقا للإسلام - فينبغي أخذه من مصدره الرباني المنزل من عند الله . . ولم تكن هذه المفاجأة أخف وقعا على المخططين من الأولى . .

فكما كان زي المشايخ - الذي نقرأ منه الجليل الجديد بكل وسائل التنفير - سلاحا في أيديهم يستخدمونه لحرب الإسلام، فسقط من أيديهم حين صار «الأفندية» هم حملة الدعوة الجديدة إلى الإسلام . .

كذلك كان موقف الرفض البات الذي يفقه المشايخ من الحضارة الغربية سلاحا في أيديهم يستخدمونه في حرب الإسلام، إذ يصفون تلك الحضارة بكل طيب من النعوت، ويصورونها على أنها هي العلاج لكل مرض ولكل مريض، ثم يقولون إن المشايخ يرفضونها جملة وتفصيلا، فيظل المشايخ في موقف اللوم، وتظل الحضارة الغربية في المقام الذي يتطلع الناس إليه . . فجاءت الدعوة الجديدة على يد «الأفندية» لتسقط هذا السلاح أيضا من أيديهم، لأن الدعوة الجديدة لا ترفض تلك الحضارة جملة، بل تنادي بأخذ النافع منها، ورفض الشر الذي يتفق كل عاقل على أنه شر!

(١) يقول تعالى عن أمثالهم: «أولئك كالأنعام، بل هم أضل» [سورة الأعراف: ١١٩].

كما كان نقد الحضارة الغربية على هذا النحو من قبل الدعوة الجديدة موضع الحقن الشديد من المخططين وأتباعهم معاً في ذات الوقت. فقد كان أوحى إلى «المثقفين» - كما أسلفنا في الفصل السابق - أن الحضارة الغربية كتلة واحدة وحزمة واحدة لا يمكن فكها ولا تجزئتها! وكانت تلك دعوى باطلة بطبيعة الحال، فقد تكررت عملية «الانتقاء» من الحضارات عدة مرات في التاريخ. مرة على يد المسلمين الأوائل إذ انتقوا من الحضارة الجاهلية - الفارسية والبيزنطية - ما وجدوه صالحاً لهم ونبذوا سائرهما فلم يقربوه! ومرة على يد أوروبا إذ أخذت من الحضارة الإسلامية المنهج التجريبي في البحث العلمي، كما أخذت التقدم العلمي في الفيزياء والكيمياء والطب والفلك والرياضيات، واستفادت من خبرتهم البحرية وخرائطهم ومعلوماتهم الجغرافية في كشف ما كان الأوربيون مجهولونه من بلاد العالم بدءاً بطريق رأس الرجاء الصالح، ثم انتشاراً في الأرض بعد ذلك. وتأثرت بكثير من فنون العمارة والوسائل الحضارية التي كان المسلمون يملكونها في الأندلس والشمال الأفريقي وبلاد المشرق الإسلامي. . ولكنها رفضت أن تأخذ الأساس الذي قامت عليه تلك الحضارة كلها وهو الإسلام. وتكررت عملية الانتقاء مرة ثالثة في العصر الحديث على يد اليابان كما سبقت الإشارة من قبل. . وما تزال قابلة للتكرار ما شاء قدر الله لها أن تتكرر في الحاضر والمستقبل.

نعم. . كانت الدعوى باطلة، ولكنها كانت تبث عن قصد من المخططين لأمر يراد. . خشية أن يتجه المسلمون في محاولتهم للنهوض إلى أخذ إيجابيات هذه الحضارة ونقط القوة فيها، ولا يأخذوا الإلحاد والفساد الخلقي، فتكون الطامة التي يعانون الشيء الكثير منها على يد اليابان ولكنها على يد المسلمين أشد<sup>(١)</sup>! لذلك قال قائلهم: لا بد لنا من أخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها لا محالة من ذلك!

فاليوم تجيء الصحوة الإسلامية على يد «الأفندية» فتحدث موقفاً شديداً

(١) كانت معاناتهم من اليابان أنها صارت تنافسهم في أسواقهم وتضايقهم فيها. أما مصيبتهم من المسلمين إذا استردوا كيانتهم المفقودة فهي ضياع مواردهم الخامة التي يسرقونها من المسلمين، وضياع سيطرتهم السياسية التي يارسونها بسحق المسلمين وإخضاعهم لنفوذهم. . فضلاً عن أمور أخرى يعرفها الغرب جيداً ولا يدركها المسلمون أنفسهم في غفلتهم واستضعافهم. .

الإغاضة للمخططين وأتباعهم على السواء. فكما أن دعوتها لأخذ النافع من الحضارة الغربية يسقط عنها تهمة الرجعية والجمود الذي كانوا يصمون به المشايخ فيتلبس بهم، فكذلك دعوتها «للانتقاء» من هذه الحضارة، وعدم أخذ ماهي غارقة فيه من الفساد الخلقي والانتكاس النفسي والإنساني، يفسد هدفا هاما من أهداف حملة التغريب، وهو نشر الفساد والإلحاد - تحت عنوان الحضارة والرقى والتقدم - لإذابة ما بقي من كيان هذه الأمة، وتحويلها إلى «غشاء كثفاء السيل» لا جذور له ولا انتهاء، فيتبدد في التيار..

\* \* \*

وكانت المفاجأة الثالثة أن الدعاة الجدد جاءوا يقولون للناس: إن ما أصاب المسلمين من التخلف والجمود والضعف والتأخر في جميع الميادين لم يكن سببه الإسلام.. إنما سببه البعد عن الإسلام، والانحراف عن صورته الصحيحة. وأن الصورة الحقيقية للإسلام ينبغي أن تؤخذ من مصادره الصافية الأولى: كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وحياة السلف الصالح الذين طبقوا هذا الإسلام أول مرة في واقع الأرض، فكانوا عجباً في التاريخ، وكانوا «خير أمة أخرجت للناس»..

لقد كان المخططون وأذناهم قد بثوا في روع «المثقفين» أن «الإسلام هكذا.. جمود ورجعية وتخلف، وعجز عن النهوض والتقدم، بل مانع من النهوض والتقدم، وأن ما حل بالمسلمين هو النتيجة الطبيعية لكونهم مسلمين! وأنه لا طريق لهم لعلاج ما هم فيه من التخلف والضعف، والفقر والجهل والمرض، إلا أن يبدؤا الدين كما فعلت أوروبا من قبل، فإنها لم تتقدم إلا حين حطمت «الأغلال» التي كانت تعوقها عن التقدم، أغلال «الدين» وما حوله من أخلاقيات وتصورات وتقاليد..

فاليوم يشير الدعاة الجدد قضايا مغايرة تماما.. يفرقون فيها بين الإسلام في صورته الصحيحة وبين الواقع المنحرف الذي يعيشه المسلمون باسم الإسلام؛ كما يفرقون بين الدين الذي انسلخت منه أوروبا، والدين الذي نزل من عند الله وتكفل الله بحفظ أصوله من التحريف، فبقيت على صورتها المنزلة، وأصبح الرجوع إليها ممكنا في كل لحظة؛ ويفرقون بين «الحكومة الشيوعية» التي قامت في



أوروبا في قرونها الوسطى المظلمة، التي كان يحكم فيها «رجال الدين» بما شاءت لهم أهواؤهم من الجهالات والمفاسد، والحكومة الإسلامية التي يحكم فيها من يختاره المسلمون لحكمهم، ولكنه يتقيد في حكمه بما أنزل الله؛ وأنه ليس في الإسلام «رجال دين» يحكمون أو يشرعون للناس بما يشاءون، إنما فيه «علماء» و«فقهاء» لا يلبسون مسوحا خاصة، ولا يشكلون طبقة، وليس لهم سلطان ولا حصانة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، ويملك أي إنسان أوتي قدراً صالحاً من العلم أن يناقشهم ويجادهم ويخطئ اجتهادهم إن كان دليله أقوى من دليلهم! وأن الإسلام دين «مفتوح» أمام كل معتقيه، يملكون أن يتفقهوا فيه بقدر ما توصلهم إليه مداركهم، وليس حكراً على طبقة من الكهنوت، تحتكر نصوصه، وتحتكر تفسيره، وتحتكر حق تبديله وتغييره حين تشاء!

وحقيقة إن الذي يقوله «الأفندية» حملة الدعوة الجديدة لم يكن كله جديداً. . . فقد كان «المشايخ» من قبل يقولون شبيهاً به من بعض نواحيه، فحقائق الإسلام واحدة، والحديث عنها لا بد أن يتلاقى في بعض جوانبه. ولكن أحداً لم يكن يأبه لما يقول المشايخ - لا المخططون ولا أتباعهم - لجملة أسباب: فهو أولاً كلام صادر عن «المشايخ» . . . وهم في ضياعهم الذي هم فيه! فيضيع معهم كلامهم مهما يكن فيه من الحق!

وهو ثانياً كلام . . . ليست وراءه «حركة»! ومن ثم يموت حيث هو . . . على السنة قائله، أو في آذان سامعيه - إن سمعه أحد! - لأن أصحابه لا يتحركون به . . . لا يحولونه إلى «دعوة» . . . لا يجتمعون أحداً حوله ليعتنته ويؤمن به، ويجعل تحقيقه غاية يعيش من أجلها، ويتحمل ما يتحمل في سبيلها.

ثم هو فضلاً عن ذلك كلام مصبوب في قوالب جافة، هي القوالب التي كانت العقيدة قد صبت فيها منذ قرون طويلة، ذهنية تجريدية لا تخاطب الوجدان ولا تحركه، ولا تساير عقلية الذين يوجه إليهم الخطاب في الوقت الحاضر. ومن ثم فهي مرفوضة ابتداءً من «المثقفين» خاصة، لا تمثل بالنسبة إليهم زادا فكرياً يعيشون عليه، ولا زادا روحياً يبعث ما ضمير من أرواحهم في موجة التغريب العاتية . . .

أما على يد الدعوة الجدد من «الأفندية» فقد أحس المخاطبون كأنها يتعرفون على

الإسلام من جديد . . . والإسلام هو الإسلام . حقائقه ثابتة لا تتغير . ولكن طريقة تناوله ، وطريقة تعريف الناس به تختلف من عصر إلى عصر ، حسب أحوال الناس في كل عصر ، وثقافتهم ، واهتماماتهم ، ومشكلاتهم ، وانحرافاتهم وأمراضهم كذلك . وقد كانت القوالب الذهنية التجريدية «حالة» أملت بالناس في عصر معين ، فاستساغوا يومئذ أن يقدم الإسلام إليهم في هذه الصورة ، ولكنها لم تكن الصورة المثلى ، ولا الصورة الصالحة لكل زمان ، لأنها لا تسير على المنهج القرآني ، الذي أنزله الله للناس كافة وللعصور كافة . . . يغتفون منه في كل جيل ما يناسب أحوالهم واهتماماتهم ومشكلاتهم . . . فيلبى حاجتهم في كل مرة ، ويعطيهم بقدر ما تفتح قلوبهم وعقولهم . . . ولكنه لا يحف ، ولا يتقرب - كما حدث في عصر معين - إلا أن يصيب الناس ركود وجمود ، كان «الشايع» يحملونه معهم ويحسبون أنه هو الصورة المثلى للإسلام .

أما الدعاة الجدد فقد عادوا به إلى المنهج القرآني ، فأذابوا ما كان قد علق به في ذلك العصر السحيق من جفاف وتقرب حملته الأجيال المتتابعة في ركودها وجمودها ؛ ومن هنا أحس المخاطبون كأنها يتعرفون على الإسلام من جديد ، فأقبلوا عليه - من شاء الله منهم - بقلوب متفتحة وعقول متفتحة ، متعطشة للمزيد . وأهم من ذلك - وهو الخطر الأكبر في نظر الأعداء - أنه «حركة» . . . فهو ليس «كلاماً» في القراطيس ، وإنما هو «إيمان» في القلوب . إيمان يملأ تلك القلوب فتتحرك به حركة ملموسة في عالم الواقع ، وتتخذ موقفاً محددًا من كل شيء حولها ، وتصوغ سلوكها العملي على مقتضاه .

\* \* \*

وكانت المفاجأة الرابعة هي انتشار الدعوة انتشاراً «ذريعاً» في صفوف المثقفين من الأطباء والمهندسين والعلميين والمحامين ، وغيرهم من ذوي الثقافات الحديثة ، ومن طلاب الجامعة في شتى التخصصات !

ولقد كان الظن أن هؤلاء لا يعودون أبداً ، ولا تستهويهم مثل هذه الدعوة أبداً ! لقد رُبوا على أن يصموا آذانهم ، ويغلقوا قلوبهم وأذهانهم عن أي شيء يذكر فيه «الدين» . . . فضلاً عن أن يكون الدين هو المنطلق الذي يُنطلق منه ، والمرتكز الذي يُرتكز عليه !

رُبُوا على أن الدين أمر من أمور الماضي، وأنهم هم يستشرفون للمستقبل! وأن الدين «غيبات» وهم يعيشون في «الواقع»! وأن الدين ممزوج بالخرافة وهم يعيشون عصر العلم!

فما بالهم يعودون إلى كل ما نهوا عنه، وكل ما بذل الجهد الجهيد لإبعادهم عنه! جهد استخدمت فيه مئات الكتب، وألوف المقالات، وألوف الدروس «العلمانية» في المدارس والجامعة، وألوف الصور العارية والأفلام العارية والأغاني العارية، وألوف الفتيات المتبرجات في الطريق، وألوف المراقص والحانات ودور اللهو ودور الفجور؟!

\* \* \*

لقد كانت كلها مفاجآت حادة وغير منظورة. . وكانت دون شك مفاجأة غير سارة لكل أعداء الإسلام.

ولم يسكت الدعاة إلى «التحرر» و«التحضر» و«التقدم» - بطبيعة الحال - على هذه الدعوة المفاجئة، وهاجموها بكل وسائل الهجوم، وأول وسائل الهجوم هو دمغها «بالرجعية» وهي أشد وسائل التنفير عند «المثقفين»!  
ولقد كانوا يهاجمونها دفاعا عن أنفسهم في الحقيقة!  
«ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء!»<sup>(١)</sup>

ولكنهم - في عبودية منتكسة - كانوا يهاجمونها كذلك دفاعا عن «السادة» الذين يشعرون بالتبعية لهم والانتفاء إليهم! ودفاعا عن الفكر الذي استعبدوا له من الداخل خلال عملية التغريب. . فماعدوا يحسون لأنفسهم بوجود ذاتي، وأصبح وجودهم مرتبطا بذلك الفكر الدخيل عليهم، يحسبونه - في غفلتهم - فكرهم الخاص، لأنهم لا يدركون عملية المسخ التي أجريت لهم وهم غافلون، فشوهت كيانه من الداخل، وشوهت نظرهم إلى أنفسهم وكل ما يحيط بهم، فصاروا ينظرون بعيون سادتهم! وصاروا - في دخيلة أنفسهم - يحتقرون أنفسهم بوصفهم «شركيين»! لأن سادتهم يحتقرونهم وهم على هذه الصورة! ويحاولون بكل جهدهم

---

(١) سورة النساء [٨٢].

أن ينسلخوا من تلك الصورة ويمحوا «عارها» عن أنفسهم لعل سادتهم يرضون عنهم، فيرضوا هم عن أنفسهم!! (١)

لذلك لم يكن العبيد في حاجة إلى إشارة من السادة ليهاجموا الدعوة الإسلامية، فهم - بطبيعة موقفهم المسوخ كله - يحسون بالعداء العميق لها، والنفور الشديد منها. ولكن السادة - مع ذلك - لم يهملوا التوجيه:

لا بد من جرعة زائدة من كل ما تقدم. . من الكتب والمقالات والدروس والأبحاث التي تهاجم الدين والأخلاق والتقاليد. . والصور العارية والأفلام العارية والقصص العارية والأفكار العارية. . والفتيات المترجات في الطريق. . والمراقص والحانات ودور اللهو ودور الفجور! فإنه لا شيء يصد هذا الخطر الداهم مثل إفساد الأخلاق، وصرف الشباب عن كل الاهتمامات الجادة، وشغلهم بلذائد الحس الدنسة، وهموم الدنيا القريبة، لكي لا يفرغوا إلى ربهم، ولا يذكروا آخرتهم، فتتسد منافذ «الدين» في قلوبهم، ويصبحوا في مناعة من تلك الدعوة الخطرة، بل في عداء مع تلك الدعوة التي تريد أن «تحرّمهم» مما هم غارقون فيه من الدنس والتفاهة والانحلال!

\* \* \*

ولكن المفاجأة المذهلة كانت أعنف من كل ذلك!

كانت دخول الفدائيين المسلمين ساحة الحرب في فلسطين عام ١٩٤٨!! وهنا ينبغي أن نعود بذاكرتنا خمسين سنة إلى الوراء قبل ذلك التاريخ. . إلى مؤتمر «هرتزل» زعيم الصهيونية في مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧، الذي تقرر فيه ضرورة إنشاء الدولة اليهودية خلال خمسين عاما في فلسطين. ففي ذلك المؤتمر وضعت المخططات الكفيلة بإقامة الدولة خلال خمسين عاما، وقامت الدولة بالفعل بعد خمسين عاما من ذلك المؤتمر.

---

(١) نذكر في هذا المجال كتابات الدكتور حسين فوزي في كتاب «سند باد عصري» وكتابات الدكتور زكي نجيب محمود في مهاجمة «الفكر الشرقي» وتمجيد «الفكر الغربي». . ثم نذكر قوله «توينبي» في محاضراته بعنوان «الإسلام والغرب» (تعريب الدكتور نبيل صبحي) التي يقول فيها إننا ظللنا نحرج المسلم التركي حتى يتخلل عن إسلامه ويقلدنا، فلما فعل ذلك احتقرنا. . لأنه لم يعد عنده ما يعطيه!!

فأي شيء فعل المخططون<sup>(١)</sup> لتنفيذ أهدافهم خلال الفترة التي قرروها لإنشاء دولتهم؟!

لقد بدأوا - كما هو معلوم - بمحاولة إغراء السلطان عبد الحميد بإعطاء اليهود قطعة أرض في فلسطين ليقموا عليها وطناً قومياً لهم، وتكفلوا في مقابل ذلك بما يغري أي حاكم في الأرض لا يريد إلا الحياة الدنيا، ولا يريد إلا الملك والسلطان (كما صوروا السلطان عبد الحميد!).

كانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تعج بالمشاكل التي لا تتركها في راحة . . . فالحالة الاقتصادية متدهورة، والقلاقل تتلاحق في قلب الدولة وفي أطرافها، يقوم بها حزب الاتحاد والترقي الذي يشكل أغلبية أعضائه يهود الدونما المتسلمون<sup>(٢)</sup>، وتقوم بها الأقليات غير الإسلامية بتحريض من روسيا بريطانيا: روسيا تحرض الأرمن الأرثوذكس<sup>(٣)</sup>، وبريطانيا تحرض بقية الطوائف، كما تقوم - مع فرنسا - بتشجيع حركات «القومية العربية» التي يحملها نصارى لبنان وسوريا، يحرضون بها العرب على الثورة والتمرد على سلطان الخلافة، بغية تفكيك الدولة الإسلامية، والقضاء على «الرجل المريض» كما كانوا يسمون الدولة العثمانية، ليرثوا تركته، ويوزعوها أسلابة فيما بينهم . . . وفي وسط هذه الحال المضطربة تقدم «هرتزل» بعرضه السخى المغري إلى السلطان عبد الحميد . . .

عرض عليه قروضا طويلة الأجل، ومشروعات لإنعاش الاقتصاد العثماني المتأزم، وعرض عليه التدخل لدى روسيا وبريطانيا لكف أيديهما عن إثارة الأقليات في كل مكان . . . وكانت هذه بالذات من أشد ما يستخدمه الأعداء لإجهاد الدولة وعدم إعطائها فرصة لالتقاط الأنفاس . . .

---

(١) ينبغي أن نتذكر جيدا أن التخطيط - كما سيجيء بيانه - كان صليبيا صهيونيا في ذات الوقت، ولم يكن صهيونيا فقط ولا صليبيا فقط.

(٢) كان هؤلاء اليهود يعيشون في المغرب، التي نزحوا إليها مع المسلمين النازحين إليها من الأندلس فرارا من فظائع محاكم التفتيش، ثم صدرت إليهم أوامر خفية بأن يتمسلموا وينزحوا إلى البلقان. وهناك قاموا بدورهم في القضاء على الخلافة العثمانية.

(٣) كان الروس يتبعون المذهب الأرثوذكسي، ومن هنا كانت صلتهم بالأرمن الذين هم على مذهبهم، وتحريضهم إياهم ضد دولة الخلافة.

وكان رد عبد الحميد حاسما ناصعا عملاقا . . كما ينبغي للقائد المسلم أن يكون .

لوكان يريد السلطان والجبروت ، ومتاع الحياة الدنيا ، كما صوره أعداؤه ليشوهوا صورته - انتقاما من موقفه العنيد الواعي من مخططات الصليبية الصهيونية لتدمير المسلمين والقضاء على الإسلام - لقبيل العرض اليهودي - الصليبي ، وانساق معه ، وأصبح «بطلا تاريخيا» مثل الذين توزعوا أسلابه من بعده ، وحكموا بلاد العالم الإسلامي تحت السلطان الصليبي الصهيوني ، وصاروا «أبطالا تاريخيين» . . تركز بطولتهم في تذبيح المسلمين ، وتسخير أوطانهم لمصالح الصهيونية والصليبية ! ولكن الرجل المسلم قال قولته المشهورة : إن هذه ليست أرضي ، ولكنها أرض المسلمين ، وقد رووها بدمائهم ، وفي كل شبر منها شهيد . . ولا أملك أن أتنازل عن شبر واحد منها !

وكان ما كان مما يعرفه الجميع . .

عزل عبد الحميد بعد أن لوئت سمعته بكل شناعة يمكن أن يوصف بها حاكم ! وأثيرت النعرة «الطورانية» على يد حزب الاتحاد والترقي ، وقامت الدعوة إلى «تريك» الدولة ، لإثارة العرب ، حتى يرفعوا شعار «العروبة» ويثوروا «الثورة العربية الكبرى» بقيادة لورنس - الذي سمي «لورنس العرب» !! - لتفتيت وحدة المسلمين ، وإثارة العداوة والبغضاء بينهم ، تمهيدا وتسهيلا للأحداث التي ستجري فيما بعد .

ثم قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) - أو أقيمت<sup>(١)</sup> - للقضاء النهائي على الدولة العثمانية ، وفصل العالم العربي عنها ، بما فيه فلسطين التي يراد إقامة الدولة اليهودية فيها ، بعد أن عجز اليهود عن إقامة الدولة فيها وهي في ظل الدولة العثمانية . .

ثم جيء بكهال أتاتورك ليجهز على الخلافة ، ويذبح المسلمين ، ويدير ظهر

---

(١) يقول «وليم كار» في كتابه «أحجار على رقعة الشطرنج» إن اليهود أقاموا الحرب العالمية الأولى للقضاء على الدولة العثمانية تمهيدا لإنشاء الدولة اليهودية ، والحرب العالمية الثانية من أجل إنشاء الدولة بالفعل . وهو قول يحمل كثيرا من الحق ، بصرف النظر عن تهويلات ولیم كار في شأن اليهود . ولاشك أنهم استغلوا المناسبتين استغلالا كاملا لتحقيق أهدافهم .

تركيا للإسلام بعد أن كانت هي مركز الخلافة ومركز القوة السياسية والعسكرية للعالم الإسلامي<sup>(١)</sup>، وجعلها تابعا ذليلا لأوروبا، وتضفى عليه في الوقت ذاته البطولات الزائفة ليكون نموذجا يحتذى من بعد في بقية أرجاء العالم الإسلامي<sup>(٢)</sup>.

ووزعت أسلاب «الرجل المريض» - بعد القضاء عليه - بين بريطانيا وفرنسا صديقتي اليهود، ووضعت فلسطين بالذات تحت الانتداب البريطاني، وبريطانيا يومئذ هي زعيمة العالم الصليبي، وصاحبة الإمبراطورية «التي لا تغيب عنها الشمس»، والنصرة الأولى للصهيونية، ووزير خارجيتها «بلفور» - صاحب وعد بلفور المشهور - من أصل يهودي، ومندوبها السامي الذي عينته في فلسطين «صمويل هور» يهودي. وفي ظل الانتداب تم التحضير لإنشاء الدولة، بتسليم الأراضي التي تملكها الدولة لليهود، وما لزم من بقية الأرض يشتري بأثمان مغرية، ثم يُغرى الذين باعوا الأرض بإنفاق ما حصلوا عليه من ثمنها على الفتيات اليهوديات، اللواتي يعملن في «تل أبيب» لهذا الهدف، ولغيره من الأهداف!!

أما ما حول فلسطين فقد قسم إلى دويلات ضعيفة لا تملك أمر نفسها، فهي تحت الحكم البريطاني أو الفرنسي، لا تملك قوة سياسية وهي تحت الاحتلال الصليبي، ولا قوة حربية بطبيعة الحال، فجيوشها - التي تسمى جيوشا من باب المجاز فحسب - هي جيوش للزينة والاستعراض في الحفلات. . . ولهدف آخر هو تكريه العرب في الجندية وحمل السلاح، لما يلقونه في فترة التجنيد الإجباري من مهانة وذل متعمدين، لا تستوجبها التربية العسكرية في ذاتها، ولا يعامل الانجليز والفرنسيون جنودهم بها في بلادهم، وذخيرة هذه «الجيوش» وسلاحها في يد بريطانيا وفرنسا، فإن كفت عن الإمداد بالسلاح أو حتى بالذخيرة عجزت تلك «الجيوش» عن إطلاق طلقة واحدة ولو في الهواء!<sup>(٣)</sup>

وهذه الدويلات فوق ذلك. . . أي فوق ضعفها السياسي والحربي - والاقتصادي

(١) قلنا من قبل إن الأعداء ركزوا على تركيا ومصر بالذات في مخططاتهم للقضاء على الإسلام.

(٢) قال جمال عبد الناصر في أكثر من مرة إن مثله الأعلى هو كمال أتاتورك.

(٣) حدث بالفعل في الحرب المرحية التي قامت على أرض فلسطين عام ١٩٤٨ أن امتنعت بريطانيا عن تقديم

الذخيرة للجيوش العربية فتوقفت الحرب وتم التقسيم!!

أيضاً<sup>(١)</sup> - متعادبة متخاصمة لا يربط بينها رابط! لا الإسلام.. ولا حتى «العروبة».. ولا حسن الجوار.. بل انقلب هذا كله إلى عداوات وخصومات! لقد كانت دعاوي «الوطنية» و«القومية» قد بذرت بذورها في تلك الأرض من زمن سابق تمهيدا لذلك اليوم «الموعود»! وكان لكل من الدعوين «زعماء» و«أبطال»! وقد سردنا في الفصل السابق قصة سعد زغلول في مصر، وفي كل بلد كانت هناك «قصة» مشابهة أو مماثلة.. وكان ذلك - كما سردنا هناك - أثرا من آثار «التخلف العقيدي» الذي استغله الغزو الفكري، ونجح في استغلاله، فتوغلت سموم الكيد في حياة الأمة بسبب بعدها عن حقيقة الإسلام، وعن الصبر والتقوى اللذين أخبر الله عباده أنهما الوسيلة التي تقى الأمة من آثار السم:

«وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا»<sup>(٢)</sup>

لقد بذرت تلك الدعاوي في الأرض الإسلامية لتفوق وحدة الأمة وتمزق رابطتها. فمن شأن القومية والوطنية أن تبذر التحاسد والتباغض في نفوس الناس تجاه الوطنيات الأخرى والقوميات الأخرى، وأن يشتد التحاسد والتباغض بينهم كلما وجدت بينهم أهداف مشتركة! لأن كلا منهم يريد أن يستحوذ على الهدف وحده ويحرم منه الآخرين! ولقد نجحت الوطنية والقومية في أوروبا لأسباب محلية هناك،<sup>(٣)</sup> وظنت أوروبا أنها لعبة ناجحة، لأنها تعاصرت - في تاريخها - مع التقدم الصناعي، ومع الرخاء الذي ساد أوروبا نتيجة احتلالها بلاد العالم الإسلامي ونهب خيراته واستغلالها على أوسع نطاق.. وإن كانت أوروبا قد شقيت - وأشقت العالم كله معها - بويلات الحروب المتتالية، التي نجمت عن تنافس الوطنيات والقوميات، وتقاتلها على مناطق النفوذ..

أما المسلمون!

لقد كانت دعاوي الوطنية والقومية في الوطن الإسلامي فتنة لا تعود عليهم إلا بالويل وحده، فلم تكن لهم القوة التي يكسبون بها شيئا من ورائها.. وإنما يجنون من تمزقهم أن يكونوا لقما سائغة في فم العدو، يزدردوا في سهولة بعد أن كان قد

(١) كانت كلها بلادا فقيرة «متخلفة» رغم إمكانياتها الذاتية.

(٢) سورة آل عمران [١٢٠].

(٣) انظر إن شئت فصل «القومية والوطنية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».



عجز من قبل عن التهام اللقمة الكبيرة المتجمعة، على كل الضعف والوهن الذي كان قد أصاب «الرجل المريض»! (١).

ومازلت أذكر - بالعجب والأسف للذين أحسست بهما أول مرة وأنا صغير - ما قاله الوزير العراقي المسئول في أواخر الثلاثينيات حين صار للعراق أسطول جوي، إذ قال: لقد أصبحت لدينا طائرات حربية تستطيع أن تضرب القاهرة بالقنابل وتعود دون توقف!!  
يا عجباً! ويا أسفاً!

فإذا كانت الطائرات العراقية عاجزة في ذلك الوقت عن ضرب الإنجليز في قاعدتهم داخل العراق - في الموصل - فلماذا تفكر في ضرب القاهرة؟! وماذا صنعت لهم القاهرة حتى يفكروا في ضربها؟!  
ولكن هكذا يفعل السم المبتوث عن قصد في الأرض الإسلامية، الذي صنعت له الزعامات والبطولات ليفتنن بها الناس، فيزدادوا تمزقاً كلما ازدادوا فتنة، ويزدادوا ضعفاً وهواناً على العدو!

وهل كان الوجود الصليبي في المنطقة يأمن على نفسه، وهل كان الوجود الصهيوني يأمن على نفسه، لو كان المسلمون في تلك البقعة من الأرض - وفي غيرها - أمة واحدة كما أمرهم ربهم:

«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» (٢)

فإذا كانت هذه حال تلك الدويلات المحيطة بالدولة اليهودية المزعم إنشاؤها، من الضعف السياسي والحربي والاقتصادي، ومن الفرقة والخصومة حتى لا تجتمع لهم كلمة، فماذا بقي مما يخشاه الأعداء؟

نعم! بقي شيء واحد. . هو الشباب!  
فالشباب قوة خطيرة إذا تجمع على هدف معين، وأخذة مأخذ الجد. .

---

(١) جاء في كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» قول أحد المبشرين: إن أوروبا كانت تفزع من «الرجل المريض» لأن وراءه ثلثائة مليون من البشر، مستعدين للجهاد بإشارة من أصبعه!

(٢) سورة آل عمران [١٠٤].

ومن أجل ذلك كانت عناية الأعداء منذ وقت مبكر بتميع هذا الشباب وإتلافه، وإشاعة التفاهة والانحلال في كيانه، لكي لا يتجمع في يوم من الأيام على هدف معين، ويأخذه مأخذ الجد. . وكانت هذه هي «حكمة» الصحف العارية والأفلام العارية والشواطئ العارية. . وحكمة إخراج المرأة من دينها وأخلاقها وتقاليدها، لتخرج متبرجة في الطريق، وتكون فتنة لنفسها وللشباب من حولها، وتحقق أهداف المبشر النصراني «زويمر» - الذي أوصى أن تدفن جثته في مقابر اليهود، مما يدل على أصله الحقيقي، وعلى أن الحقد اليهودي والصلبي قد اجتمعا في شخصه - حين قال مخاطبا المبشرين في المؤتمر التبشيري الذي عقد في القدس سنة ١٩٣٥ :

«إنكم أعددتهم نشأً (في بلاد المسلمين) لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها. وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية. وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار المسيحي، لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات.

«فإذا تعلم فللشهوآت، وإذا جمع المال فللشهوآت، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يوجد بكل شيء.

«إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه، وانتهيتم إلى خير النتائج، وباركتكم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم، فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الرب»<sup>(١)</sup>

بهذا التخطيط المحكم - من جميع نواحيه - قامت الدولة اليهودية عام ١٩٤٨، بعد خمسين عاماً من مؤتمر «هرتزل» عام ١٨٩٧، واعترفت بها أمريكا في منتصف الليل بتوقيتنا المحلي، وبعد عشر دقائق أعلنت روسيا - التي قامت على أساس لاديني، والتي ترفض من حيث المبدأ قيام أي دولة في الأرض على أساس ديني - أعلنت اعترافها بالدولة اليهودية!

وكانت قد جرت قبل الإعلان الرسمي للدولة مسرحية الحرب بين «الجوش» العربية وبين العصابات اليهودية خلال عام ١٩٤٨، لتستقر القوات كلها على خط

---

(١) عن كتاب «المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام»، لمحمد عمود الصراف، طبع دار الاعتصام بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ص ٢١٨.

التقسيم المعدّ من قبل ، والمتفق عليه من قبل! وكان أحد فصول المسرحية أن تمتنع بريطانيا عن تموين الجيش المصري بالذخيرة فيتوقف الجيش عن القتال! ويتوقف - بالمصادفة البحتة! - عند خط التقسيم!

وفي أثناء ذلك وقعت المفاجأة المذهلة . . التي لم تكن لأحد على بال! دخل الفدائيون من الإخوان المسلمين ساحة المعركة ، بعزيمة المسلم المجاهد في سبيل الله ، وبنية الشهادة في سبيل الله .

وأحس اليهود على الفور بالفرق الهائل - الخطير - بين القتال مع أولئك المجاهدين ، والقتال مع الجيوش المسرحية التي شاركت في المسرحية المعدّة من قبل ، والمتفق عليها من قبل!

وكانت المفاجأة مذهلة لا لليهود وحدهم ، ولكن للعالم الصليبي كله! فأما اليهود فكانوا - بعد أن التقوا بالفدائيين في بضع معارك - كانوا إذا سمعوا صيحة: «الله أكبر والله الحمد»، فروا من معسكراتهم ، تاركين أسلحتهم وذخيرتهم ومؤنهم ، لينجوا بجلودهم من هجمات الفدائيين ، الحريصين على الموت حرص أعدائهم على الحياة .

وأما الصليبية فلم تكن مفاجأتها أخف وقعا ، وإن لم تكن مشاركة بجنودها المباشرين في ساحة القتال!

لقد كانت الدعوة الإسلامية بقيادة الإمام الشهيد حسن البنا قد أزعجت الصليبية من أولى خطواتها عام ١٩٢٨ ، وخاصة حين نشطت في منطقة الإسماعيلية ، حيث كانت القاعدة البريطانية في ذلك الحين . وكانت بريطانيا - زعيمة الصليبية وقتئذ - تتابع حركات الجماعة التي أنشأها حسن البنا مراقبة دقيقة ، وتتحسس أخبارها ، وتحاول أن تنفذ إليها عن طريق جواسيسها .

وأذكر عبارة ظهرت في الطبعة الأولى لكتاب «الاتجاهات الحديثة في الإسلام Modern Trends in Islam» تأليف المستشرق الإنجليزي جب Gibb عام ١٩٣٦ (عدلت في الطبعات التالية!) تبين مدى قلق بريطانيا زعيمة الصليبية من هذه الجماعة .

يتحدث جب في هذا الكتاب عما سماه «الاتجاهات الحديثة في الإسلام»،

ويقف بتلك «الحدائث» عند جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده<sup>(١)</sup>. ثم يكتب (في الطبعة الأولى) هامشة تعليقية يقول فيها: «ظهرت بعد ذلك (أي بعد الفترة التي جعلها موضوع دراسته) جماعة جديدة تسمى جماعة الإخوان المسلمين، يتزعمها رجل يسمى حسن البنا، ومن السابق لأوانه الحكم على هذه الجماعة، وإن كان يبدو أنها ذات خطورة خاصة!»

وواضح من العبارة أن بريطانيا تتخوف من هذه الجماعة، وأنها في الوقت ذاته لم تستطع أن تسبر غورها تماما، مع تخوفها منها..

وإذا كان هذا هو الحال عام ١٩٣٦، عند ظهور الطبعة الأولى من ذلك الكتاب، فقد ظل الحال على نحو قريب منه حتى عام ١٩٤٨، حين دخلت القوات الفدائية في فلسطين.. مع فارق واحد، هو أن بريطانيا قد زادت تخوفا من الجماعة، بدليل تدخلها المباشر لمنع الإمام الشهيد من ترشيح نفسه للانتخابات في دائرة الاسماعيلية عام ١٩٤٢<sup>(٢)</sup>، وضغطها على النحاس باشا رئيس الحكومة القائمة يومئذ ليمنع هذا الترشيح. ولكنها من جانب آخر لم تكن حتى تلك اللحظة قد استطاعت أن تسبر غور هذه الجماعة مع تخوفها منها، رغم كل محاولات الجاسوسية أن تنفذ خلالها..

لذلك كانت المفاجأة بالنسبة إليها مذهلة كما كانت بالنسبة لليهود! وقد كانت المسألة مفاجئة لبريطانيا - وللعالم الصليبي كله من ورائها - من جهتين اثنتين على الأقل.

فأما الجهة الأولى فهي أن العالم الصليبي كان قد ساء ظنه بالإسلام كله، أنه قد «شاخ» وانتهى، ولم يعد قادرا - بعد الضعف المزري الذي وصل إليه المسلمون خلال القرون الأخيرة - أن ينبعث من جديد، في صورة «جهاد» إسلامي! لقد كانت كل حركات الجهاد الإسلامي قد أخذت وقضى عليها، سواء في الهند أو في الشمال الأفريقي، أو في السودان، أو في غيره من بقاع العالم الإسلامي. وكان الغزو الفكري المسموم قد حول روح الجهاد إلى حركات «سياسية»، أقصى

(١) لا يتسع المقام هنا لمناقشة موضوع الكتاب، ولكني ناقشته في كتاب «المستشرقون والإسلام».

(٢) لنا رأى في قضية الدخول في الانتخابات نبينه في موضعه من هذا الفصل.

ما تلجأ إليه هو إقامة «مظاهرات» في الشوارع، تقذف أبواب الحوانيت ومصايح النور ورجال الشرطة بالأحجار، ثم تعود إلى بيوتها في نهاية المطاف! وتدخل في «مفاوضات» خاسرة بين الحين والحين، يتظاهر العدو فيها بالتراجع عن موقفه المرة تلو المرة إزاء «المقاومة العنيدة التي لا تلين!» التي تبديها الحركات السياسية، بينما العدو يريد أن يطمئن إلى الحكام الذين سيتسلمون البلاد بعد «الاستقلال» أنهم قد تخلوا تماما عن فكرة الحكم بما أنزل الله!! وعندئذ يسلمهم «أمانة» الحكم!!

لذلك لم يدر في خلد الصليبية أن «الإسلام» يمكن أن ينبعث من جديد في صورة جهاد إسلامي. ورغم تخوفها من جماعة الإخوان المسلمين في مصر، ومراقبتها الدائمة لها، وتخوفها الدائم من مفاجآت الإسلام التي قال عنها «جب» في كتاب «وجهة العالم الإسلامي Whither Islam»: إن أخطر ما في هذا الدين أنه ينبعث فجأة، دون أسباب ظاهرة، ودون أن تستطيع أن تتنبأ بالمكان الذي يمكن أن ينبعث منه! رغم هذا كله فلم تكن الصليبية تتوقع أن يكون الانبعاث على هذه الصورة!

وأما الجهة الثانية أن الصليبية قد عنيت بدك قواعد الإسلام في مصر بالذات من وقت مبكر<sup>(١)</sup>، منذ حملة نابليون الصليبية على مصر عام ١٧٩٨م، أي قبل تلك الأحداث بقرن ونصف قرن من الزمان، ولم تكف أبدا خلال تلك الفترة الطويلة عن العمل بكل الوسائل - التي بينها في الفصل السابق - لمحاولة القضاء على الإسلام، وإخراج مصر نهائيا من الدائرة الإسلامية، وخاصة خلال فترة الاحتلال البريطاني الذي جثم على أرض مصر منذ عام ١٨٨٢م<sup>(٢)</sup>. لذلك كانت المفاجأة للعالم الصليبي أن تكون مصر بالذات هي التي تنتج مثل هؤلاء الفدائيين، وترسلهم في تلك اللحظة الحرجة إلى القتال!

عندئذ التقت الصليبية والصهيونية في هدف واحد مشترك، كما التقت في قرار واحد مشترك: أنه لا بد من إبادة هذه الجماعة ليستتب الأمر للدولة اليهودية وللصليبية في ذات الوقت.

---

(١) قلنا من قبل إن الأعداء اتجهوا إلى تحطيم الإسلام في تركيا ومصر أكثر من أي مكان آخر في العالم الإسلامي، باعتبار تركيا مقر الخلافة ومركز القوة السياسية والعسكرية، ومصر مقر الأزهر ومركز الإشعاع العلمي والروحي للمسلمين.

(٢) بقي الاحتلال إلى عام ١٩٥٤ حيث غادرت آخر القوات البريطانية الأرض المصرية.

لقد كان إنشاء الدولة اليهودية في وسط المحيط العربي الإسلامي هو ذاته هدفا صليبيا أشار إليه اللورد كامبل في تقريره الشهير عام ١٩٠٧م، تحسبا ليقظة «العملاق» كما عبر صاحب التقرير!

كانت الدول الصليبية قد أفلقتها بوادر اليقظة في المنطقة قبل أن يستشعرها أصحابها أنفسهم! ذلك أنه يعرفون هذا الدين كما يعرفون أبناءهم كما أخبر عنهم اللطيف الخبير:

«الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم»<sup>(١)</sup>

ولما كانت بريطانيا هي زعيمة العالم الصليبي يومئذ، وصاحبة النفوذ الأوسع في المنطقة، فقد لجأت إليها الدول الصليبية لتبحث لها الأمر الذي يشغلها جميعا، وتتعاون عليه جميعا، وإن أرادت كل لنفسها أن تفوز منه بأكبر نصيب!

وانتدبت بريطانيا اللورد كامبل - أحد أعضاء مجلس اللوردات - لبحث الأمر ويقدم تقريرا لأصحاب الشأن أجمعين. فكتب تقريره الشهير الذي قال فيه: إن هناك شعبا واحدا يقطن ما بين المحيط إلى الخليج<sup>(٢)</sup>. لغته واحدة ودينه واحد وقبلته واحدة، وثقافته واحدة، وآماله مشتركة وأرضه متصلة. وهو اليوم في قبضة أيدينا. ولكنه بدأ يتململ. فماذا يحدث لنا غدا إذا استيقظ العملاق؟!

إن الذى يحدث غدا، والذي تتوجس منه الصليبية واضح ولا شك. فبصرف النظر عن الحقد الصليبي الذي يكره الإسلام لأنه الإسلام، ويكره المسلمين لأنهم المسلمون:

«إن تمسككم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها»<sup>(٣)</sup>

بصرف النظر عن هذا الحقد، فهناك - إلى جانبه - المصالح السياسية والاقتصادية التي تتأثر تأثرا بالغا إذا استيقظ العملاق. فإن أوروبا لم تصبح هي أوروبا التي نعرفها إلا بما سلبته من أراضي المسلمين وخيرات المسلمين! فماذا كانت أوروبا قبل التوسع الاستعماري في العالم الإسلامي؟ وماذا كان يمكن

(١) سورة البقرة [١٤٦].

(٢) يقصد الشعب العربي المسلم.

(٣) سورة آل عمران [١٢٠].

أن تكون - مهما بلغت قوتها - إذا ظلت محصورة في داخل نفسها، تتصارع دولها فيما بينها كما كانت تتصارع قبل أن تتجه بصراعاتها إلى الخارج؟  
إنما أصبحت أوروبا بهذه القوة وهذه الرفاهية وهذا التقدم بما تدفق عليها من ثروات نتيجة الاحتلال الصليبي للعالم الإسلامي، فماذا يحدث غدا إذا استيقظ العملاق، واسترد خيراته المنهوبة وكرامته المسلوقة؟!

لن يكون خيرا لأوروبا بطبيعة الحال!

وهنا يتقدم اللورد كامبل بالحل!

لا بد أن نقطع اتصال هذا الشعب، بإيجاد دولة دخيلة تكون صديقة لنا وعدوة لأهل المنطقة، وتكون كالشوكة تحز العملاق كلما أراد النهوض!

وتلك هي الدولة اليهودية التي قامت عام ١٩٤٨م.. وذلك هو التخطيط الصليبي لإنشائها منذ عام ١٩٠٧م على الأقل، إن لم يكن قبل ذلك التاريخ!  
لذلك التقت الصليبية العالمية والصهيونية العالمية في هدف واحد مشترك، كما التقت في قرار واحد مشترك: أنه لا بد من إبادة هذه الجماعة المسلمة ليستتب الأمر للدولة اليهودية وللصليبية في ذات الوقت!

لم يعد الأمر يحتمل الخط البطيء.. خط الإفساد الخلقي، والغزو الفكري.. ففي وسط هذا كله، وبعد عملٍ دائب لمدة قرن ونصف قرن من الزمان، قامت الصحوة الإسلامية على هذه الصورة الخطيرة التي كشفت عنها الحرب الفدائية في فلسطين.. فماذا بقي؟!

فلتستمر الأدوات كلها في العمل لا تتوقف.. فلتستمر الكتب والمقالات والأبحاث والدراسات التي تهاجم الدين والأخلاق والتقاليد.. ولتستمر الصحف العارية والأفلام العارية والشواطئ العارية.. ولتستمر الفتيات المتبرجات في الطريق.. ولتستمر المراقص والحانات ودور اللهو ودور الفجور.. ولتضاعف عملها.. ولكن لا بد من عمل حاسم لوقف الخطر المرهوب..

وتوالت الأحداث.. من اعتقال وتعذيب وتشريد، بعد أن اجتمع سفراء الدول الأجنبية مع قواد القوات البريطانية في مدينة «فايد» بالإسماعيلية، وأرسلوا إنذارا إلى الحكومة المصرية بضرورة حل جماعة الإخوان المسلمين ووقف نشاطها.. وبلغت الأحداث قممها بمقتل الإمام الشهيد عام ١٩٤٩.

\* \* \*

كان ظن الصليبية والصهيونية التي دبّرت مقتل الإمام الشهيد - بأيدٍ «إسلامية!!» - أن قتله سيحل القضية كلها مرة واحدة وإلى الأبد، ويريح منها أعداء الإسلام، فلا يعودون يشغلون بالهم وأعصابهم بتلك الأمور!  
 وكانوا معذورين في ذلك الظن، وإن كانوا في الوقت ذاته غافلين!  
 كانوا معذورين في ظنهم أن مقتل حسن البنا سيقتضي على الجماعة التي أنشأها، فقد كان بالنسبة لتلك الجماعة كل شيء في حقيقة الأمر. . كان هو منشئها، ومتعهدها بالتوجيه والرعاية، كان هو عقلها المفكر، وقلبها النابض، وروحها الدافعة. فظنوا - ولهم العذر - أنهم إن قضوا عليه فقد قضوا على المحرك الحقيقي، فتموت الحركة من تلقاء ذاتها وتنتهي. .  
 ولكنهم كانوا غافلين عن سنة ربانية هائلة: أن الدعوة التي يقدم لها الدم لا تموت!

وكانوا غافلين عن أمر هائل: أنهم هم أنفسهم هم المسخرون - بقدر من الله - لإحياء هذه الدعوة، بكثرة ما يسفكون فيها من الدماء!

\* \* \*

مرّ عامان من الكبت والإرهاب الذي تولته حكومة إبراهيم عبد الهادي، حتى تغيرت الأحوال السياسية في مصر عام ١٩٥٠، حين أطلقت الحريات، وسمح بإجراء انتخابات جديدة في ظل ظروف عادية. .  
 وهنا وقع المفاجأة. .

فقد حدث اندفاع هائل نحو الإسلام في جميع المجالات!  
 في الجامعة كانت انتخابات اتحاد الطلاب تقع بكاملها في يد الإخوان المسلمين في بعض الكليات، أو تقع غالبيتها في أيديهم على الأقل. وتسرب «الإسلام» إلى نقابات الأطباء والمهندسين والمحامين والعمال. . وأخطر من ذلك كله أنه تسرب إلى قوات الجيش والبوليس، فوجد في كل منها ضباط برتب مختلفة ينتمون إلى «الحركة» الإسلامية، ويعملون لنشر الدعوة في مجالاتهم أو في غيرها على السواء!  
 عندئذ تبينت الصهيونية والصليبية أن الضربة الأولى لم تكن هي القاضية، وأنه لا بد من ضربة جديدة أعنف من الأولى وأشد، تكون هي القاضية في تقدير الشيطان.



ولكن أحداثا عالمية كانت قد وقعت في تلك الأثناء، غيرت خريطة المنطقة كلها، وإن لم تغير شيئا من الأهداف . .

كانت أمريكا قد برزت إلى الوجود بوصفها «زعيمة العالم الحر»! بعد أن حطمت الحرب بريطانيا وفرنسا، وحولتها إلى دول من الدرجة الثانية . . وصاحب ذلك - أو ترتب عليه - أمران مهمان بالنسبة للمنطقة الإسلامية وسير الأحداث فيها. الأول هو انتقال زعامة الصليبية إلى أمريكا مع انتقال زعامة «العالم الحر» إليها! . . فالعالم الحر - المزعوم - هو الصليبية في حقيقة الأمر. وزعامة الصليبية تقع دائما في يد الدولة الأقوى في العالم الصليبي . فحين كانت هي بريطانيا كانت زعامة الصليبية في يدها، ولما صارت هي أمريكا انتقلت إليها الزعامة بحكم الأمر الواقع! فإن العالم الصليبي كله يجارب الإسلام، ولكنه يسلم قيادة الحرب - بحكم الأمر الواقع - إلى أقوى دولة فيه! وهم يتنافسون فيما بينهم، ويتصارعون في الأمور كلها، أما في محاربة الإسلام فهم صف واحد متساند متعاون متكافل يشد بعضه بعضا!

والأمر الثاني أن اليهودية العالمية نقلت نقطة ارتكازها من بريطانيا إلى أمريكا! وليس معنى هذا أنها تركت العمل في بريطانيا أو التعاون معها. كلا! فهي تعمل من جميع نقط وجودها . . من بريطانيا ومن فرنسا ومن ألمانيا ومن جنوب أفريقيا ومن روسيا، ولكنها تجعل نقطة ارتكازها الرئيسية في الدولة الأقوى، ليكون ضمان «مصالحها» - أو ضمان «شروها» - أكبر! ومن هنا صار التعاون الأكبر للقضاء على الحركة الإسلامية قائما بين اليهودية العالمية وبين أمريكا بعد أن كان قائما من قبل بينها وبين بريطانيا . .

ولسنا هنا نؤرخ للأحداث، لا بالنسبة للصحة الإسلامية ولا بالنسبة لمخططات الأعداء للقضاء عليها، فإن هذا له مجال آخر، وله كتاب متخصصون . .

إنما نحن - على مدار البحث كله - نرسم خطوطا عريضة لظواهر تاريخية رئيسية . .

فكما أننا لم نؤرخ للجماعة الأولى، ولكننا أبرزنا خطوطا عريضة تمثل أبرز سماتها، ولم نؤرخ لخط الانحراف التاريخي، وإنما أبرزنا أهم الخطوط الرئيسية فيه . .

فكذلك نحن لا نؤرخ لأحداث الصحوة الإسلامية، إنما نتناولها كظاهرة تاريخية،  
فنشير - بقدر ما تسمح طبيعة البحث - إلى أهم الخطوط البارزة في شأنها.

\* \* \*

قررت الصليبية الصهيونية أنه لا بد من توجيه ضربة ثانية - حاسمة - للحركة  
الإسلامية تقضي عليها القضاء الأخير. ومن ثم تعاونت الصهيونية مع أمريكا -  
حسب مقتضيات الوضع الجديد - لتوجيه تلك الضربة، وكانت الأداة التي  
اختيرت لذلك هي جمال عبد الناصر والانقلابات العسكرية.

إن المكان الذي تجتمع فيه الصليبية والصهيونية اجتماعاً «طبيعياً» - حسب  
منطق الأحداث المعاصرة - هو الولايات المتحدة الأمريكية! فهي صليبية - بحكم  
الأمر الواقع - وهي صهيونية بحكم خضوع الدولة الأمريكية والسياسة الأمريكية  
كلها للتنفيذ اليهودي. ومن هنا ندرك الدور الرئيسي لأمريكا في إدارة الأحداث في  
المنطقة الإسلامية، لحساب الصليبية والصهيونية معاً في آن واحد.

أما اختيار الانقلابات العسكرية أداة لحرب الإسلام فهي - كما أسلفنا في نهاية  
الفصل السابق - مبنية على الخبرة السابقة للصليبية الصهيونية، المتمثلة في تجربة  
أتاتورك، وهي تجربة تعتر بها الصليبية الصهيونية اعترازاً كبيراً، وتعتبرها «كنزا  
ثميناً» في حوزتها مثل هذا الهدف العظيم. هدف القضاء على الإسلام وتذبيح  
المسلمين. وإذ كانت هذه التجربة تعتبر - في حساباتهم - ناجحة في أداء مهمتها،  
فقد قررت أمريكا - دون تردد - أن تستخدمها لذات الهدف الذي استخدمت فيه  
من قبل على يد أتاتورك.

إن العسكريين - بطبيعة تكوينهم النفسي - محبون للسلطة، وميالون إلى تركيزها  
في أيديهم، فإذا اختير للانقلاب العسكري رجل يشتمل على خصلتين رئيسيتين:  
جنون العظمة وقسوة القلب، إلى جانب بغض الإسلام، فقد تم للعملية المطلوبة  
كل عناصر النجاح، وسوف يقوم العسكري المجنون بعملية الإبادة المطلوبة بكل  
العنف المطلوب، وبأقسى الوسائل التي تخطر - أو لا تخطر - على البال..

وقد نجحت التجربة الأولى على يد أتاتورك، لاشتغالها على كل العناصر  
المطلوبة، من حب السلطة وجنون العظمة وقسوة القلب وبغض الإسلام، بعد  
أن أضيفت إليها «التزيينات» اللازمة من «البطولات» الزائفة، حين انسحبت أمام

«بطشه القاها!» قوات الحلفاء التي كانت تحتل الأناضول، وهي التي خرجت منتصرة من الحرب العالمية من قبل!! فأصبح اسمه «الغازي أتاتورك» بدلا من أن يكون لقبه الحقيقي «أتاتورك السفاح».

واليوم يراد توجيه ضربة قاضية للحركة الإسلامية في مصر، مركز الثقل الثاني للعالم الإسلامي، بعد أن ثبت أنه ما يزال يمثل مركز ثقل حقيقي بعد كل تدبير الصليبية الصهيونية فيه، إذ تمتد الدعوة الإسلامية منه إلى البلاد العربية المحيطة. . في سوريا والأردن والعراق والسودان. . ويمكن أن تمتد منه إلى أبعد من ذلك إذا ترك بغير تدمير. (١)

إذن فلتلجأ الصليبية الصهيونية إلى الانقلابات العسكرية بحسب رصيد تجربتها السابقة، كما أشار «مرو برجر» في كتاب «العالم العربي اليوم» (ص ٢٤٨ من الأصل الإنجليزي، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٤).

أما اختيار عبد الناصر بالذات لهذه المهمة، فليس في أيدينا حتى الآن الوثائق التي تبين متى كان أول اتصال اليهود به، والتعرف عليه، واكتشاف وجود الخصال المطلوبة فيه: جنون العظمة وقسوة القلب وبغض الإسلام<sup>(٢)</sup>. إنها أول اتصال

---

(١) تيقظ الانجليز إلى هذا الخطر قبل ذلك بسنوات، فغيروا سياستهم في مصر تغييرا جذريا لعلهم يتفادون الخطر بالطرق السلمية، البطيئة الأكيدة المفعول. فقد كان تخطيطهم الأول هو عزل مصر تماما عن العالم العربي والإسلامي. وإثارة النعرة الوطنية التلبسة بالنزعة الفرعونية كما سبق بيانه في الفصل الماضي، مع نشر التحلل والفساد الخلقي الذي يعمت الوجدان الديني ويقتل الاهتمامات الجادة. . ولكن بعد ظهور حركة الإخوان المسلمين، وامتدادها من مصر إلى البلاد العربية المجاورة، سعت بريطانيا إلى إنشاء «الجامعة العربية» في القاهرة، وجعل مصر «أم العرب» و«زعيمة العالم العربي» و«كبرى الشقيقات» فيه! لعل راية العروبة تخاليل للناس فيتجمعوا تحتها بدلا من الراية الإسلامية المرهوبة. ولكن الإنجليز لجأوا بعد ذلك إلى العنف - كما سبق بيانه - حين لم تفلح دعوى العروبة ولا غيرها من الوسائل في وقف المد الإسلامي!

(٢) قضى عبد الناصر طفولته في حارة اليهود بالقاهرة إذ كان أبوه وكيل مكتب بريد حارة اليهود في ذلك الوقت. ونشرت مجلة «المجلة» - على جملة حلقات - تلخيصاً لكتاب من تأليف الكاتب اليهودي «موريس مزراحي» بعنوان «ملف اليهود في مصر» جاء في الحلقة السابعة منها (العدد ٢٩٠ بتاريخ ٢٨/٨/١٩٨٥) أن سيدة يهودية تدعى مدام يعقوب فرج شمويل توسطت لدى عبد الناصر لتخفيف الحكم الصادر على اثنين من اليهود في مصر بالإعدام لاثامهما في قضية جاسوسية، لأن عبد الناصر كان يدين لها بالفضل، لأنها هي التي رعته في طفولته بعد وفاة أمه وكانت تعامله كأحد أبنائها. . ولكننا لا نعرف شيئا يقيننا عن اتصال اليهود به وتعرفهم على خصاله قبل اللقاء الذي تم في الفالوجا بينه وبين إيجال ألون في أثناء حصار الفالوجا سنة ١٩٤٩م.

رسمي معلن بينه وبين اليهود هو الذي تم في أثناء حصار الفالوجا بفلسطين عام ١٩٤٩م، إذ تم اللقاء الأول بينه وبين «إيجال ألون» لمدة ساعة كاملة ثم تعددت الاجتماعات بعد ذلك. . وقد اشتهر أمر هذه اللقاءات بحيث لم يعد في حاجة إلى إثبات. . كما أن «كاتب الثورة» المقرب، محمد حسنين هيكل أقر به إقرارا صريحا في مقال له «بصراحة» منسوباً إلى جمال عبد الناصر نفسه.

واستغرق الأمر عامين كاملين في التحضير والترتيب، من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٥٢، حين قامت «الحركة المباركة»<sup>(١)</sup> التي سميت «الثورة» فيما بعد، وقام جمال عبد الناصر بالدور المطلوب على الوجه الأكمل، فأقام للمسلمين مذبحتين من أبشع مذابح التاريخ، الأولى عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥، والثانية عام ١٩٦٥ - ١٩٦٦م.

\* \* \*

مرة أخرى. . لسنا نؤرخ لأحداث الصحوة الإسلامية، ولا لمخططات الأعداء للقضاء عليها. إنما نشير فقط إلى الخطوط العريضة التي تبرز أهم الاتجاهات. . في ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ افتعلت مسرحية الاسكندرية، وتم على أثرها اعتقال أكثر من عشرين ألفاً من شباب الإخوان المسلمين وشيوخهم في السجن الحربي وغيره من السجون، ووقع عليهم من ألوان التعذيب الوحشي ما تعجز كل الكلمات عن وصفه، مهما تكن دقة المتكلم في الوصف، وبراعته في التعبير!<sup>(٢)</sup>

---

(١) هكذا كانت تسمى في أيامها الأولى. وقد صرح محمد نجيب الرئيس الظاهري للحركة في مجلة المصور في أول عدد صدر بعد الحركة) أن أول من علم بخبر الحركة كان هو السفير الأمريكي في مصر، وكان ذلك قبل قيام الحركة بستة أشهر!! وهذا هو القدر الذي كان مكشوفاً للرئيس المستعار. . أما الحقيقة فيعلمها الرئيس الحقيقي جمال عبد الناصر!

(٢) أذكر للقارئ نموذجاً واحداً ربما يعينه - ولو من بعيد - على تصور شيء مما كان يجري في السجن الحربي من ألوان التعذيب. كان اعتقاله في نوفمبر من عام ١٩٥٤، بعد الحادث بما يقرب من شهر. وكان الشهيد يوسف طلعت قد اعتقل قبلي بثمان وأربعين ساعة، بعد أن ظلوا يبحثون عنه أكثر من ثلاثة أسابيع حتى تمكنوا من معرفة مكانه فاعتقلوه. وكان «العرف» قد جرى في السجن الحربي على أن يستقبل كل فوج من المعتقلين بما أطلقنا عليه من باب السخرية «حفل الاستقبال»! فكان يتناثر فريق من زبانية المعتقل على الطريق من باب السجن إلى «المكتب» حيث تسجل الأسماء في أوراق السجن، وكلما مر بهم واحد من المعتقلين قام كل واحد من الزبانية بتصبيه في «استقباله» إما بضربة سوط، أو ضربة عصا، أو صفة قوية على وجهه، أو لكمة في صدره، أو ركلة بكعب الحذاء الحديدي في أي مكان من جسمه بلا تحرز. . وكان ذلك مقصوداً لبث الرعب في قلب كل داخل من أول =

وكانت أدوات التعذيب قد أقيمت في السجن الحربي ابتداء من يونيو ١٩٥٤ - أي قبل الحادث بخمسة أشهر - وأخذ الزبانية يدرّبون على استخدامها بواسطة خبراء من «النازي» - الذين كان يستخدمهم هتلر لأعمال التعذيب في معسكرات الاعتقال الألمانية - استؤجروا خصيصا لهذا الأمر منذ ذلك التاريخ! (١).

لحظة، كجزء من خطة الإرهاب العامة التي تمارسها الدولة مع المسلمين. وكان نصيبي من حفل الاستقبال كنصيب كل واحد من الفريق الذي دخل معي السجن في نفس اللحظة. ولكني ذهلت عن ذلك كله - حتى ذكرني الإخوة فيما بعد بما كان من أمر الزبانية معي - ذهلت عنه ذهولا كاملا حين رأيت الشهيد يوسف طلعت، مأخوذا من باب السجن الداخلي إلى المكاتب للتحقيق!

كان يوسف قوي الجسم، شديد الأسر، متين البناء، وكان معروفا بقوته الجسدية إلى جانب رسوخ عقيدته وجرأته في الحق، ولم يكن قد مضى عليه في أيديهم إلا ثمان وأربعون ساعة كما أسلفت. . . ولكن منظره أذهلني! كانت الأربطة التي يرشع منها الدم والمركروكروم، الأحمر تمتد من أعلى رجليه إلى أسفل قدميه، كما تغطي ذراعيه بطولها. وكان معه اثنان من الزبانية، أحدهما يقوده من أمامه والآخر من خلفه، وفي كل خطوة كان يتلقى ضربتي سوط على ساقيه اللدائيتين، إحداهما من أمام والآخرى من الخلف، ومع ذلك لا تزيد خطوته في كل مرة عن خمسة سنتيمترات! ولو كان يملك أن يجعلها أوسع من ذلك يستتير واحد لوفر على نفسه مئات الأسواط في هذا المشوار الكئيب من باب السجن إلى المكاتب، حيث يعاد تعذيبه من جديد! لذلك ذهلت عما أصابني شخصيا في «حفل الاستقبال» . . . وقد كنت - قبل دخولي - قد سمعت كثيرا عما يجري هناك من ألوان التعذيب. . . ولكن كل ما كنت سمعته لم ينشئ عندي صورة حقيقته عن التعذيب، حتى رأيته بعيني في ذلك المشهد الرهيب. . .

(١) قال لي المحقق أثناء التحقيق الذي أجرى معي في السجن الحربي في الاعتقال الثاني عام ١٩٦٥ (وهو مثبت في ملفات التحقيق): لقد قلت أمام مجموعة من الناس إن حادث الاسكندرية كان مسرحية! قلت: لم أقل ذلك! قال: فإذا قلت إذن؟! قلت: قلت لهم إنه سواء كان حادث الاسكندرية حقيقيا أم كان حادثا مفتعلا فقد كان مُعدًا للإخوان كل ما حدث لهم بالفعل! قال مستنكرا: وما دليلك على ذلك؟ قلت: لقد كان لي صديق يدعى «حسن السيد» وهو عديل الضابط أحمد أنور مدير السجون الحربية، وكان موضع ثقة كبيرة من جمال عبد الناصر، وكانت قد قامت بيني وبينه صداقة وثيقة عام ١٩٥٢، فزرت ذات مساء في أواخر يوليو ١٩٥٤ في مكتبه (وكان يعمل محاميا) فوجدت عنده زبونين أنهى أمرهما بسرعة وقال: تعال! إنما أريدك في أمر مهم. وأغلق باب مكتبه بالمفتاح من الداخل مع أنه لا يمكن فتحه من الخارج! وقال: أريدك في أمر على غاية من الأهمية. . . تريد أن نوقف الصدام بين الإخوان والحكومة بأي شكل! قلت: إن الصدام قد وقع بالفعل، فكيف يوقف؟ قال: فليكفوا عن نقد المعاهدة (يقصد المعاهدة التي أجريت بين الحكومة وبين الانجليز في ذلك العام وكان للإخوان عليها جملة اعتراضات) قلت: لقد أعلنوا رأيهم فيها بالفعل، فما العمل؟! قال: فلينسحبوا من السياسة ويعلنوا أنفسهم جماعة دينية! قلت: الحماية أشخاصهم يفعلون ذلك، ويدمرون في الوقت ذاته الأساس الذي قاموا عليه! لقد قاموا على أساس ممارسة الإسلام بمعناه الشامل. والسياسة جزء منه، فإذا انسحبوا اليوم من السياسة فإذا بقي لهم من مبادئهم يرتكزون عليه؟ قال: مؤقتا فقط حتى تمر الأزمة. . . فإنك لا تدري ماذا سيحدث لهم! قلت مستفسرا: =

كان ماحدث للإخوان المسلمين في عام ١٩٥٤ وثيق الصلة بأمر آخر غير مسرحية الإسكندرية!

كان وثيق الصلة بتقرير «جونستون» المندوب الخاص للرئيس أيزنهاور في «الشرق الأوسط» المكلف ببحث القضية الفلسطينية، وتقديم تقرير للرئيس أيزنهاور عن الحل الأمثل للقضية .

وقد قام «جونستون» بالمهمة التي كلف بها، فجال خلال المنطقة، وقابل العرب واليهود، ثم قدم تقريرا مفصلا مبنيًا على ثلاث نقاط رئيسية :

**النقطة الأولى:** هي تقسيم مياه نهر الأردن بين العرب واليهود بالنسب التالية: ١٠٪ تقريبا لكل من سوريا ولبنان باعتبار أن منابع النهر تجري في كل من البلدين . و٤٠٪ تقريبا لكل من الأردن وإسرائيل . فأما إسرائيل فتأخذ هذا القدر لاستصلاح صحراء النقب، لإيواء ثلاثة ملايين من المهاجرين اليهود الجدد . وأما الأردن فتأخذ هذا القدر لاستصلاح ثلاثة ملايين دونم (في الضغّة الغربية) لتوطين اللاجئين العرب<sup>(١)</sup> .

**النقطة الثانية:** هي أنه نظرا لعدم وجود حدود واضحة بين إسرائيل والبلاد العربية المحيطة بها،<sup>(٢)</sup> فإنه كثيرا ما يدخل العربي الأرض الإسرائيلية وهو يظن أنه

---

ماذا سيحدث لهم؟ ترددت في الإجابة فكررت عليه السؤال: مالذي سيحدث لهم؟ فقال: أنا أعيش في وسطهم، وأعلم ماذا سيحدث . يعني . . حين يأخذون المرشد والأشخاص البارزين في الجماعة فيعدمونهم، ويأخذون كذا ألف شاب فيعذبونهم على طريقة إبراهيم عبد الهادي . . تكون الدعوة قد انتهت!! قلت: لا تنتهي الدعوة بهذا! قال محتدا: أظن ستقول لي إن الاضطهاد يذكي الدعوات! أنا أحفظ هذا الكلام أكثر منك! ولكن أمامك مائة سنة أخرى حتى تعود الدعوة من جديد! قلت: إن هذا عصر تتابع فيه الأحداث بسرعة ولا مجال فيه لشيء، بأخذ مئات السنين! ومع ذلك فإذا في وسعي أنا أن أفعل؟! قال: تلنقي بأخيك سيد وتطلب منه وقف الصدام مع الحكومة بأي شكل! قلت له: نعم! أفعل . . ولم التق بأخي حتى كانت الاعتقالات .

قلت ذلك للمحقق فارتبك ارتباكا شديدا لم يستطع إخفاءه! وظل ما يقرب من نصف دقيقة لا يجد ما يقول . ثم قال متلعثما: في يوليو ألم يكن الحادث قد وقع؟! قلت: لا! لقد وقع في ٢٦ أكتوبر! قال: نعم! لقد كان الإخوان يومئذ قد بدأوا يشاغبون! وبعد أسبوعين طلبني المحقق . وقال: لقد استدعينا حسن السيد وسألناه، فأقر بما ذكرته في التحقيق!

(١) وبذلك تنتهي مشكلة «اللاجئين» التي كانت في ذلك الوقت تشغل «الرأي العام العالمي» حتى استطاع اليهود - بوسائلهم - أن يُنسوا «الرأي العام العالمي» مشكلة اللاجئين . حين حولوا العرب جميعا إلى لاجئين!!  
(٢) كانت البلاد العربية في ذلك الوقت لا تعترف بإسرائيل . وتسميها «إسرائيل المزعومة» فلم تكن هناك حدود معترف بها!

مازال في الأرض العربية، أو يدخل الإسرائيلي الأرض العربية وهو يظن أنه مازال في الأرض الإسرائيلية، فتنشأ عن ذلك اشتباكات حربية تسيء إلى أمن المنطقة، فيحسن تحديد حدود ولو مؤقتة بين إسرائيل والبلاد العربية - تحدد نهائيا فيما بعد<sup>(١)</sup> - على أن تترك شقة حرام عرضها مائتا متر بين البلاد العربية وإسرائيل.

النقطة الثالثة: هي أنه إذا بقيت أمور أخرى مختلف عليها بين العرب واليهود، فيجلس العرب واليهود على مائدة مستديرة لحل هذه الخلافات<sup>(٢)</sup>.

ولاعيننا الآن هذا التقرير، ولا مافية من إجحاف بالعرب وخدمة مغلقة أو غير مغلقة لليهود. . فقد أصبح كله في ذمة التاريخ، وما كان في حقيقته إلا خطوة مرحلية تتوسع إسرائيل بعدها ما شاءت. . وقد تجاوزت إسرائيل اليوم كل ما جاء في ذلك التقرير، فاستولت على الضفة الغربية بأكملها، وعلى ثمانين في المئة من مياه النهر، وذبحت من المسلمين من ذبحت، وطردت من طردت، وحوّلت من حوّلت إلى لاجئين. .

إنما الذي يعيننا هو الجملة الختامية التي ختم بها «جونستون» تقريره، الذي كان في ذلك الوقت هو الطريقة التي تريد بها أمريكا تثبيت إسرائيل على وضعها الذي كانت عليه، وإعطاءها الشرعية اللازمة لوجودها، والتي كان اليهود يحتاجون إليها كخطوة مرحلية، يثبون بعدها وثبات جديدة في تحقيق ما هو مخطط من قبل، وما هو متفق عليه بين أمريكا وإسرائيل. .

كانت الجملة الختامية على هذا النحو:

«ولكن، طالما أن جماعة الإخوان المسلمين، وهي جماعة قوية مسلحة متعصبة، يبلغ تعدادها حوالي المليون في مصر والبلاد العربية الأخرى. . طالما أن هذه الجماعة باقية بقوتها، فلن يمكن تنفيذ هذا الحل، ولن تستقر الأمور في الشرق الأوسط»!!

وكان المعنى واضحا بكل تأكيد. . معناه: اقضوا لنا على هذه الجماعة لكي «يمكن تنفيذ هذا الحل، ولكي تستقر الأمور في الشرق الأوسط»!!

---

(١) لاحظ رغبة جونستون في عدم تحديد حدود نهائية في ذلك الحين لكي لا تنقيد بها إسرائيل! إنها يريد فقط إعطاءها شرعية الوجود، ولا بأس عليها بعد ذلك أن تتخطى الحدود!

(٢) وذلك تمهيدا للصالح!

ورفع التقرير في يونيو ١٩٥٤ إلى الرئيس أيزنهاور، فوافق عليه . . وأعطيت الإشارة لجمال عبد الناصر للتنفيذ!

وهذا هو الذي يفسر فزع الرجل الطيب، الأستاذ حسن السيد، الذي كان يعيش في وسطهم، ويعرف - مما يسمع منهم - ماذا يراد بالإخوان المسلمين!!

\* \* \*

تمت المذبحة البشعة على يد السفاح «البطل»!  
وقتل من قتل على جبل المشنقة أو على يد الزبانية في أثناء التعذيب . .  
وعاشت البلاد في رعب قاتل سنوات متلاحقات . .  
وبدا للناس - ظاهرا - أن الحركة الإسلامية قد انتهت إلى غير رجعة . .  
واطمان الأعداء إلى ما تم من التدبير . .

كتب مروبرجر في عام ١٩٦٢م في كتابه «العالم العربي اليوم»:  
«وكانت أشد صورة لتجدد هذا الصراع (بين الاتجاه الديني والاتجاه العلماني  
«Secular» هي التي حدثت في مصر بعد عام ١٩٥٤ . . ذلك أن الإخوان المسلمين  
المطرفين لما رأوا أن الحركة العلمانية (اللا دينية)<sup>(١)</sup> تزداد قوة انقلبوا على زملائهم  
السابقين في السلاح، الذي استولوا على السلطة عام ١٩٥٢ . ولقد قام النظام  
(الحاكم في مصر) بقمع الإخوان المسلمين بلا رحمة، وقمع دعوتهم إلى الوحدة  
الإسلامية التي يقفون بها ضد الدعوة القومية اللا دينية»<sup>(٢)</sup> .  
ثم قال في الصفحة التالية: <sup>(٣)</sup>

«إن الصراع بين الاتجاه الديني والاتجاه القومي اللا ديني هو صراع حتمي،  
ولكن يمكن تأجيله بعض الوقت، ولكن الغلبة في ذلك الصراع ستكون للاتجاه  
القومي اللا ديني».

---

(١) تترجم كلمة Secular عادة بالعلمانية، وهي ترجمة خاطئة، والصحيح ترجمتها باللا دينية (راجع فصل «العلمانية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة») فالناس في الإسلام إما أن يكونوا بكل واقعهم وكل مشاعرهم داخل الدين وإلا فهم خارجه . ولا توجد في الإسلام منطقة «علمانية» تكون فيها بعض الأعمال وبعض المشاعر خارج دائرة الدين، ويكون أصحابها مع ذلك مسلمين!! إنها كان ذلك في الدين الكنسي المحرف . الذي قال قساوسته أذ ما لقيصر لقيصر وما لله لله! ولكن الله تعالى يقول: «ويا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين» [سورة البقرة: ٢٠٨] أي ادخلوا بكافة أنفسكم في الإسلام .

(٢) ص ٣١٩ من الطبعة الثانية Anchor Books edition نيويورك سنة ١٩٦٤ .

(٣) ص ٣٢٠ .



ثم كتب (ص ٣٨٥ - ٣٨٧) كلاما طويلا عن التغير الاجتماعي في روسيا وتركيا ومصر خلص منه في النهاية بأن جمال عبد الناصر قد أحدث اتجاها إلى العلمانية (اللا دينية) في مصر عن طريق تغيير مناهج التعليم وتشجيع الصناعة وتعليم المرأة وتغيير علاقات الأسرة . . الخ ، قد يكون بطيئا ولكن لا رجعة فيه !

\* \* \*

ولكن قدرا هائلا كان ينتظر جمال عبد الناصر، وينتظر الصليبية الصهيونية من ورائه . .

ففي سنة ١٩٦٣ بدأت مخبراته تقول له إن هناك حركة ما في صفوف الإخوان المسلمين، لا يعرف مصدرها بالضبط، ولا يعرف حجمها بالضبط، ولكنها بدأت تنشط . .

وكانت مفاجأة أعنف من كل ما سبق!  
أبعد كل ما حدث؟!!

لقد كانت الصحوة الإسلامية منذ بدئها مفاجأة «لأصحاب الشأن» من الصليبيين واليهود!  
وكان اتساع مداها بعد مقتل قائد الحركة الأول مفاجأة أخرى لأصحاب الشأن!

وكانت عودة النشاط في صفوف الحركة بعد كل الذي فعله عبد الناصر من التعذيب الوحشي الذي لا مثيل له في التاريخ<sup>(١)</sup>، مفاجأة أعنف وأشد!  
لذلك كانت مذبحة ١٩٦٥ - على يد السفاح «البطل» - أعنف بكثير من مذبحته السابقة سنة ١٩٥٤ .

\* \* \*

ومرة ثالثة نقول إننا لا نؤرخ لأحداث الصحوة الإسلامية، ولا نؤرخ لجمال عبد الناصر، ولا للمخططات الصليبية الصهيونية للقضاء على الحركة الإسلامية . .  
إنما نحن فقط ندرس هذه الظاهرة . . ظاهرة الصحوة الإسلامية . .  
لقد بدأت في قلب رجل واحد، فتح الله عليه، ووهب له من إشرافه الروح

---

(١) إلا ماصنعه محاكم التفتيش في الأندلس للقضاء على الإسلام كما سبقت الإشارة.

وصفاء الصلة بالله ما يستشعر به عظمة الإسلام، وما يتحرك به لتحقيق هذه العظمة في واقع الحياة .

بدأ حياته صوفيا، فانتمى منذ صباه إلى جماعة صوفية، عمقت إشرافه الروحي ووصلت قلبه بالله . .

ولكنه أدرك - بما فتح الله عليه - أن الإسلام أعظم بكثير مما تتمثله الصوفية وتمارسه . . إنه نظام حياة كامل، وليس صلة روحية بين العبد والرب فحسب . . ليس عبادة فردية يستغرق فيها العابد، في صلة محدودة «بالإخوان» في الطريقة<sup>(١)</sup>، بعيدا عن واقع الحياة . . إنما هو عبادة فردية وجماعية في ذات الوقت، تتمثل في إقامة المجتمع المسلم الذي يتحاكم إلى شريعة الله، والدولة المسلمة التي تحكم بشريعة الله . . وإذ كان هذا الحكم غير قائم فينبغي العمل على إقامته في ترتيب متدرج متسلسل: بناء الفرد المسلم، فالأسرة المسلمة، فالمجتمع المسلم، فالدولة المسلمة .

يقول الإمام الشهيد في رسالته بعنوان «أيها الشباب»:

«إن مناجاة الإخوان المسلمين محدد المراحل واضح الخطوات . فنحن نعلم تماما ماذا نريد، ونعرف الوسيلة إلى تحقيق هذه الإرادة .

« ١ ) نريد أولا الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه، فهذا هو تكويننا الفردي .

« ٢ ) ونريد بعد ذلك البيت المسلم في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه، ونحن لهذا نعى بالمرأة عنايتنا بالرجل، ونعنى بالطفولة عنايتنا بالشباب، وهذا هو تكويننا الأسرى .

« ٣ ) ونريد بعد ذلك الشعب المسلم في ذلك كله أيضا، ونحن لهذا نعمل على أن تصل دعوتنا إلى كل بيت، وأن يسمع صوتنا في كل مكان، وأن تيسر فكرتنا وتتغلغل في القرى والنجوع والمدن والمراكز والحواضر والأمصار لا نألو في ذلك جهدا ولا نترك وسيلة .

« ٤ ) ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة التي تقود هذا الشعب إلى المسجد، وتحمل به الناس على هدى الإسلام من بعد، كما حملتهم على ذلك بأصحاب

---

(١) أي الزملاء في الطريقة الصوفية .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر وعمر من قبل . ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه ، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية ، ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

لقد كانت هذه الإشرافة في قلبه وروحه - التي فتحت عينه على هذه الحقيقة - فتحاً ربانياً ولاشك ، وكانت في الوقت ذاته هي الاستجابة الصحيحة للأحداث القائمة منذ أكثر من قرن من الزمان في العالم الإسلامي بأسره، وفي مصر بصفة خاصة . كانت هي الموقف الصحيح الذي كان ينبغي أن يقفه رفاعة رافع الطهطاوي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وسعد زغلول . . وكل الذين انهزمت أرواحهم إزاء الغرب، فانجرفوا - بدرجات متفاوتة - في تيار التغريب! هل كان من المستحيل على هؤلاء أن يتجهوا الوجهة الصحيحة في الزمن الذي عاشوا فيه؟!

هل كانوا هم النتائج «المنطقي» الوحيد، أو النتائج «الممكن» الوحيد بالنسبة لظروف عصرهم؟!

كلا! فقد كان نموذج محمد بن عبد الوهاب قائماً في الجزيرة العربية في الوقت الذي عاشوا فيه، وكان يمثل الاتجاه الصحيح والحركة المستقيمة . . ولكنهم لم يتجهوا إليه ولا إلى مثله، إنما اتجهوا إلى الغرب لما كان في نفوسهم من الهزيمة الداخلية إزاءه .

والله هو الذي يقدر الأقدار، وهو الذي يفتح على قلوب من يشاء من عباده، ويطمس على قلوب من يشاء . . ولكن الله بين لنا كيف يجري قدره في الأرض من خلال أعمال الناس واتجاهاتهم :

«ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . . .»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) راجع : مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البناء طبع المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر،

بيروت . الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ص ١٧٧ .

(٢) سورة الروم [٤١] .

«ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله، فأحبط أعمالهم»<sup>(١)</sup>.  
«قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب. الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم  
بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب»<sup>(٢)</sup>.

«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين»<sup>(٣)</sup>.  
فلا عذر لهؤلاء فيما انحرفوا فيه عن الطريق الصحيح، وجرّوا أمتهم كلها  
وراءهم في انحرافٍ عن الطريق الصحيح.  
وفي الوقت ذاته نسأل: هل كان يمكن للدعوة أن تنجح لو قامت في ذلك  
الوقت بدلا من وقتها الذي قامت فيه؟

ذلك غيب لا نملك الإجابة اليقينية عليه، وإن كان نموذج محمد بن  
عبد الوهاب في الجزيرة يوحى بأنه كان في الإمكان. ولكن هذا لا يسقط عن هؤلاء  
واجب الدعوة! فإن الله من رحمته كلفنا أن ندعو، ولم يكلفنا الوصول إلى نتائج  
معينة في دعوتنا. ولا يحاسبنا سبحانه عن النتائج - إن بذلنا جهدنا - لأنه هو  
سبحانه الذي يرتب النتائج ويقدرها. إنما يحاسبنا على الجهد الذي ينبغي أن  
نبذله: هل بذلناه؟ وعلى أي نحو بذلناه؟

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر  
وأولئك هم المفلحون»<sup>(٤)</sup>.

«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»<sup>(٥)</sup>.  
«يأتي النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والرجلان، وليس معه أحد»<sup>(٦)</sup>.  
«إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها  
فليغرسها»<sup>(٧)</sup>.

فلو قام هؤلاء بواجب الدعوة إلى الله ثم لم يستجب لهم أحد، لكانوا قد أدوا  
مأعاليهم، وأعذروا إلى الله. . ويقع الوزر على الذين لا يستجيبون.

كانت هذه الإشراقه في قلب حسن البناء فتحاً ربانياً - كما قلنا - وكانت في الوقت

---

(١) سورة محمد [٩].  
(٢) سورة الرعد [٢٧ - ٢٨].  
(٣) سورة العنكبوت [٦٩].  
(٤) سورة آل عمران [١٠٤].  
(٥) أخرجه الشيخان.  
(٦) متفق عليه.  
(٧) أخرجه البخاري.

ذاته هي الاستجابة الصحيحة للأحداث القائمة في العالم الإسلامي - وفي مصر خاصة - منذ أكثر من قرن من الزمان . .

وكانت هي قدر الله الغالب الذي قدره سبحانه - في غيبه - رداً على كيد الكائدين بإزالة الخلافة . .

لقد كان الضياع الذي أحسه المسلمون بعد الإطاحة بالخلافة، والحزن البالغ الذي أصاب العالم الإسلامي، والأسى الذي استولى على القلوب، هو ذاته الذي بعث حسن البنا إلى إنشاء دعوته، فقد قال في نفسه: إذا كانت دولة الإسلام قد ضاعت فلماذا لا نحاول استعادتها من جديد؟!

«والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وأخذت الدعوة مداها في حياة الإمام الشهيد، وانضم إليها مئات الألوف من الناس . . (٢)

كانوا نهاج شتى، واتجاهات متعددة . .

كان فيهم فريق من الصوفيين الذين ظنوا أن جماعة الإخوان المسلمين جماعة صوفية جديدة متنورة، تسير على ذات القاعدة الصوفية التي يعرفونها، ولكنها خالية من «البدع» التي يقع فيها «المحترفون» من الصوفية، فأروا أن اتباعها لا يخرج بهم عن طريقهم الذي ألفوه، وفي الوقت ذاته لا يوقعهم فيها يعاب على الصوفية من انحرافات .

وكان فيهم كثير من الشباب النظيف المتطهر، الذي لم تلوثه موجة الفساد الكاسحة التي تفسد المجتمع وتلوثه بالدنس، والذي اتخذ موقفاً محدداً من الحضارة الغربية: أن ينتفع بالنافع منها، الذي لا يتعارض مع عقيدته وأخلاقه، ولكنه يرفض مادية هذه الحضارة، وتبذرها الأخلاقي، وتحللها الجنسي، واستحلالها لكل ما حرم الله . .

ولقد كان مثل هؤلاء الشباب موجودين في المجتمع . . لم تكن قد أكلتهم الدوامة، ولا غلبتهم على نظافتهم وتطهرهم . . ولكنهم كانوا ضائعين . . كانوا

(١) سورة يوسف [٢١].

(٢) تقدر بعض الجهات عدد الذين انضموا للدعوة قبل مقتل الإمام الشهيد بنصف مليون وليس هناك إحصاء دقيق بطبيعة الحال.

أفرادا متناثرين لا يربط بينهم رابط، ولا تجمع بينهم وحدة.. وكانوا قمينين أن يعيشوا في عزلتهم الضائعة، تفنى فيها أعمارهم، لا يلتفت إليهم أحد، إلا بالسخرية إن التفت! ولا يحدثون تيارا في المجتمع، لأنهم قطرات متناثرة مُزاحة من طريق السيل المتدفق، فحسبها أن تقف في موقعها الذي أزيحت إليه، حتى تفنى وتضيع.. ومن ثم لم يكن لهم - رغم وجودهم - وجود محسوس!  
فالآن وجدوا أنفسهم!

لم يعودوا قطرات متناثرة مزاحة من الطريق.. إنما صاروا - في حس أنفسهم على الأقل - وجودا محسوسا.. وجودا مستقلا متميزا عن الدوامة الكاسحة، مغايرا لها في الاتجاه، تضغطه الموجة الكاسحة، نعم، ولكنها لا تفقده وجوده، ولا تفقده تميزه، ولا تفقده ترابطه.. بل تزيده!

ثم إنه ينمو.. نموا سريعا<sup>(١)</sup>.. فتحس الموجة الكاسحة ضغطه، وإن كانت لا تقف له، ولا تأبه له، ولا تكف عن الجريان من أجله، ولكنها تحس بالضيق من وجوده!

وكانت هناك «جماهير» جاءت لتشيع «وجدانها الديني» وهي لا تعرف من الإسلام إلا ذلك الوجدان! وكانت تجد في خطب الإمام الشهيد ودروسه من فيض «الروحانية» - وقد وهب الله له روحانية فياضة مشعة عميقة التأثير - ما يشبع في نفسها وجدانها الديني، فيشدها إلى «الجماعة» فتمارس بعض نشاطاتها، ولكن مطلبها الأول هو إشباع ذلك الوجدان!

وكان فيهم كذلك مستنفعون! من رجال الأحزاب السياسية القائمة يومئذ! ظنوا أن هذا حزب سياسي جديد، ينمو بسرعة متزايدة.. أو قطار جديد، ينهب الأرض نهباً، وتزايد «جماهيره».. فحدثتهم أنفسهم أن لعله يكون - بكثرة جماهيره وترابطهم - أقرب من غيره في الوصول إلى الحكم.. فلا تفتهم إذن الفرصة، ولا يفتهم القطار!

وحين جاءت الضربة عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ فرت كثير من تلك الجموع إلى غير رجعة!

---

(١) لنا رأى في هذا النمو السريع سببته فيها بعد، ولكنها هنا نسجل واقع الحال.

فرّ المتصوفون . . فقد عرفوا - يقينا - أن هذه لم تكن جماعة صوفية جديدة متنورة، إنما كانت حركة جهادية، يتعرض أصحابها لما يتعرض له المجاهدون في التاريخ كله، من القتل والتعذيب والتشريد والمطاردة . . وما لهذا كانوا قد جاءوا، ولا عندهم احتمال له ولا اضطبار عليه . . فالنجاة النجاة من مخاطر الطريق!

وفر المستنفعون . . فقد عرفوا - يقينا - أن هذا القطار هو أبعد شيء عن الوصول إلى كراسي الحكم . . وهم لهذا جاءوا، لا يعرفون غيره، ولا يستهدفون سواه . . فالفرار الفرار قبل أن يدمغوا دماغه لا يستطيعون التخلص من عقابيلها فيما بعد!

وفرت «الجماهير» فإعاد هناك ما يشيع وجدانهم الديني، وهم لا يملكون غيره، ولا يعرفون من الإسلام غيره، إنما هناك سجن وتعذيب وتشريد وتقتيل . . وما لهذا كانوا قد جاءوا، ولا عندهم احتمال له ولا اضطبار عليه . . فالهرب الهرب قبل أن تعثر عليهم السلطات، وتتهمهم بأنهم كانوا «هناك»!

وبقي الشباب التنظيف المتطهر . . ومع ذلك لم يبق كله . . فما كان كله يعرف من قبل عقابيل الطريق . . وما كان كله يقدر أن سيناله في الطريق شيء من العذاب والتضحيات! إنما كان يظن أنها سياحة طيبة في الجو النقي، بعيدا عن قذارات المجتمع الدنس الذي يعيش فيه، فيها متاعها الذاتية فحسب، متاعب المحافظة على الدين في وسط الفساد الكاسح، تلك التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يأتي زمان يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر». أما التعرض للسجون والمعتقلات، والتشريد والتعذيب، فلم يكن في حساب كثير منهم على الرغم من أن الإمام الشهيد قال لهم ذلك في وضوح لا لبس له، حين قال لهم في رسالة «بين الأمس واليوم»:

«أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيرا من المشقات، وسيعرضكم كثير من العقبات. وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات. أما الآن فلا زلتم مجهولين، ولا زلتم تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد. سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم. وستجدون من أهل الدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام وينكر عليكم جهادكم

في سبيله . وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان ، وستقف في وجوهكم كل الحكومات على السواء ، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم ، وأن تضع العراقيل في طريقكم .

«وستذرع الغاصبون بكل طريق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم ، وسيستعينون بالحكومات الضعيفة والأخلاق الضعيفة والأيدى الممتدة إليهم بالسؤال ، وإليكم بالإساءة والعدوان . وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات ، وسيحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة ، وأن يظهرها للناس في أبشع صورة ، معتمدين على قوتهم وسلطانهم ، معتمدين بأموالهم ونفوذهم .

«يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون» التوبة . وستدخلون بذلك ولا شك في دور التجربة والامتحان ، فتسجنون وتعتقلون ، وتنقلون وتشردون ، وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم وتفتش بيوتكم ، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان :

«أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» العنكبوت . ولكن الله وعدكم بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين :

«يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم» . «فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين» . فهل أنتم مصرون على أن تكونوا أنصار الله؟<sup>(١)</sup>

إنما الذين بقوا داخل الجماعة بعد الضربة القاصمة كانوا هم الذين تربوا بالفعل على يد الإمام الشهيد ، والذين كان - في تقسيمه - يسميهم «الإخوان العاملين» . وإن كان كثير من هؤلاء قد ظهرت عليهم فيما بعد آثار «التعجل» في التكوين والحركة ، التي ستتكلم عنها فيما بعد .

\* \* \*

فرت كثير من الجموع التي كانت تتحلق حول الإمام الشهيد في درسه الأسبوعي ، فتملاً المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين ، وتملاً الشوارع المتفرعة حوله ، حين رأوا أن الأمر ليس عرضاً قريباً ولا سفراً قاصداً ، إنما هو جهاد

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر ، بيروت - ط ٣ -

١٤٠٣هـ - ١٤٨٣م ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .



وعذاب<sup>(١)</sup>. كما فرت الجموع التي كانت تستقبل الإمام الشهيد كلما تنقل في مدن القطر أو في أريافه، في رحلاته الدائمة التي لم يكن يفر عنها..

ولكن حدوث ذلك التجمع يحمل مع ذلك دلالاته.. أو قل: يحمل دلالاته. الدلالة الأولى: أن الإسلام لم يكن قد انتهى تماما من القلوب كما ظن الذين ظلوا يعملون - خلال قرن ونصف قرن من الزمان - على نحو الإسلام من مصر محوا، وتحويلها إلى «قطعة من أوربا»<sup>(٢)</sup> أو «قطعة من حوض البحر الأبيض المتوسط»<sup>(٣)</sup> أو قطعة من أي شيء إلا الإسلام!

والدلالة الثانية: أن الناس كانت تنتظر الدعوة لتتجمع..

إن الجماهير لا تتجمع من تلقاء نفسها إلا في الأمور التي تتعلق بالكيان المادي، كما تتجمع المظاهرات التي تطالب بالخبز أو غيره من الضرورات القاهرة. أما التجمع من أجل «القيم» فإنه يحتاج دائما إلى قيادة. ولقد كان علماء الدين دائما هم القيادة التي تلجأ إليها الجماهير في أزماتها، أو التي تدعو الجماهير إلى التجمع، فتتجمع حولها وتتحرك بإرشادها.

ولما غاب العلماء من الساحة، وانزواوا في داخل دروسهم أو في داخل أنفسهم، غابت القيادة «الدينية» وبرزت - أو أبرزت - مكانها القيادة «اللا دينية» وتبعتها الجماهير مفتونة بها على نحو ما ذكرنا في الفصل السابق.

فلما برزت القيادة الدينية مرة أخرى عادت الجماهير إلى التجمع حولها، وإن يكن بنسبة أقل في هذه المرة بسبب الغزو الفكري والفتنة بالغرب، ولكنه تجمع قابل للتوسع والنمو، بقدر ما تفلح القيادة في إزالة الغاشية التي غشيت الأمة، وعرض الإسلام في حقيقته الناصعة، وتربية جيل جديد على حقائق الإسلام.

والدلالة الثالثة: أن الإسلام يحمل دائما جاذبيته إلى القلوب بكونه دين الفطرة. فحيثما استقامت الفطرة اهتدت إلى الإسلام وسهل عليها اتباعه.. فإذا كان الواقع المنحرف الذي كان يعيشه المسلمون قد استغل من قبل الأعداء لتنفير الناس من الإسلام، وإيهامهم أنه هو السبب في جمودهم وتأخرهم، وضعفهم وتخلفهم، فإن العرض الصحيح لحقائق الإسلام قمين أن يرد القلوب الشاردة

(١) قال تعالى: «لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك، ولكن بعدت عليهم الشقة» [سورة التوبة: ٤٢].

(٢) هذه قولة الخديو إسماعيل.

(٣) هذه قولة طه حسين.

إليه ، والدعوة إلى التجمع تحت رايته قميئة أن ترد المسلمين إلى وضعهم الطبيعي بعد أن يتفرقوا في شتى الضلالات :

(١) «وإن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» .

صحيح أن التمكين للإسلام مرة أخرى يحتاج إلى جهاد شاق . .  
وصحيح أن الحرب الضارية الماثرة ضد الإسلام اليوم من الصليبية العالمية واليهودية العالمية وأذناها تجعل الجهاد المطلوب للتمكين للإسلام أشق من أي وقت مضى ، بحيث لا يطيقه إلا أولو العزم من المسلمين ، ولهذا كان المستجيبون للدعوة قليلين في مجموعهم وإن كثروا . .

كل هذا صحيح . . ولكن تبقى الدلالة قائمة لا تتغير . . لأنها مرتبطة بالاتجاه ذاته : اتجاه العودة إلى الإسلام ، لا بالعدد الذي اتجه حتى الآن بالفعل . .  
ومن أجل هذه الدلالة يجن جنون الأعداء كلما رأوا هذه الدعوة تمتد ، أو تنتفس بعد أن يكتموا أنفاسها ويظنوا أنهم قضاوا عليها القضاء الأخير!

\* \* \*

لقد كان العمل الذي قام به حسن البناء عملاً ضخماً يشبه أن يكون إعادة بناء أمة . .

لقد كان حال هذه الأمة كجدار يريد أن ينقض . . فأقامه . .  
ولم يكن عمله هو مجرد تجميع اللبنة التي كانت ماتزال صالحة في المجتمع . .  
أو تجميع القطرات المتناثرة التي أزاحها السيل . . إنها كان عمله - إلى جانب التجميع - هو إنشاء بناء متين من تلك اللبنة ، وإيجاد تيار حي متدفق من هذه القطرات . .

كان عمله هو إعادة الإسلام في نفوس معتنقيه إلى «حركة» . . إلى منهج حياة وعمل . . إلى ممارسة واقعية ، بعد أن كان قد تحول على يد «المشايع» إلى قوالب جافة تنقصها الحياة والحركة ، وعلى يد محمد عبده إلى منهج ثقافي عقلاني ، لا يتحرك لتغيير الواقع ، ولا «يجاهد» من أجل التغيير ، وعلى يد الصوفية إلى أضرحة وأولياء ومزارات ، وعلى يد العامة إلى تواكل خامل وخرافات . .  
ولم يكن ذلك عملاً سهلاً على أي إنسان يتصدى لهذه المهمة في تلك الفترة من

---

(١) سورة الأنعام [١٥٣] .

الزمان، وفي تلك البقعة من المكان، حيث ركزت الصليبية والصهيونية جهودها لاقتلاع الإسلام . .

لم يكن سهلا ربط القلوب برباط الأخوة بعد أن فرقها الفردية الأنانية الواردة مع تيار التغريب، والناجمة من قبل من تخلى الأمة التدريجي عن ممارسة الإسلام في عالم الواقع .

ولم يكن سهلا تربية النفوس على أن تنذر نفسها للدعوة، وتخلي عن كثير من متاع الأرض، بعد أن كانت النفوس قد ألفت الإخلاق إلى الراحة، ونذر الجهد للحياة الدنيا منقطعة عن الآخرة، فإن ذكر أحدهم الآخرة فبالشعائر التعبدية على الأكثر، إن لم يكن بالنوايا الطيبة فحسب!

ولم يكن سهلا تربية تلك النفوس التي أدخلت إلى الراحة لكي تنذر نفسها - صادقة - للموت في سبيل الله، تعتبر الموت في سبيل الله أغلى أمانها . .

لم يكن شيء من ذلك سهلا على أي إنسان يتصدى لهذه المهمة . . ولكنه كان ينساب سهلا من بين يدي ذلك البناء العظيم، الذي وهب الله له ما وهب من صفات الداعية البناء . . من إشراق الروح، وصفاء القلب، والتجرد لله، والحب الفياض، والجلد على العمل، والصبر على الكد، والقدرة على التجميع، والقدرة على القيادة، والقدرة على التنظيم . .

\* \* \*

ولكن هذا البناء الضخم الذي أقامه كان يشتمل على ثغرات ظلت تعطى تأثيراتها بصور شتى في خط السير . . وأغلب الظن أن هذه الثغرات لم تكن بادية للبناء العظيم في بداية السير، إلا أنها بدت له واضحة فيما بعد قبيل مقتله كما سيجيء، وإن كان لم يمهل لترسيخها في قلوب أتباعه .

كانت الثغرة الأولى هي الاستعجال في التجميع الجماهيري قبل موعده الذي ينبغي أن يجيء فيه . .

إن الحرص على هداية الناس، وعلى هداية أكبر عدد ممكن في أقصر وقت، هو رغبة بشرية ملحة في نفوس الدعاة والمصلحين، بل كانت كذلك في نفوس الأنبياء أنفسهم . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحس بالرغبة العميقة في أن يهتدي الناس، كما يحس بالأسى العميق لعدم استجابة الناس لدعوة الحق، حتى قال له ربه :

«فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا»<sup>(١)</sup> .  
«إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين»<sup>(٢)</sup> .  
ولكن هناك سننار بانية يجري بمقتضاها أمر الدعوات ، وفيها الخير ، وإن شقت  
في مبدأ الأمر على الدعوة والمصلحين . وليست الكثرة الجماهيرية في مبدأ الدعوة من  
بين هذه السنن ، ولا هي مما يتحقق به الخير!

ولو كان الخير يتحقق من هذه الكثرة في مبدأ الطريق ، ما حجبها الله عن نبيه  
صلى الله عليه وسلم ، ولا عن دينه الذي قدر سبحانه أن يمكن له في الأرض في  
حياة النبي المرسل به ، وقيم له دولة ذات سلطان!

وحين ننظر إلى الأمر من زاوية الأرضية - منقطعة عن قدر الله - فقد يجيل إلينا  
أن عناد العرب ولَدَدَهُمْ<sup>(٣)</sup> هو الذي جعل حفنة قليلة من الناس هي التي تتبع  
الرسول صلى الله عليه وسلم خلال ثلاثة عشر عاما كاملة من الدعوة في مكة . .  
ولكن حين ننظر إلى الأمر من زاوية قدر الله ، فقد كان الله قادرا - لو شاء سبحانه  
- أن يجمع حول رسوله صلى الله عليه وسلم ألوف مؤلفة في تلك السنوات  
المعدودة . .

ولكن قدر الله جرى على النحو الذي جرى به - وهو سبحانه الذي يقول للشيء  
كن فيكون - لخير هذه الدعوة ومصلحتها ، وكانت الدعوة على هذه الصورة هي  
الأكثر تمكنا في الأرض ، وهي التي كتبت - بقدر من الله - تاريخا لم تكتبه غيرها من  
الدعوات . .

كان الذين استجابوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة خلال ثلاثة عشر  
عاما قلة محدودة لا تبلغ المائتين من الناس ، ولكنهم كانوا هم نواة ذلك الجيل  
الفريد الذي تفرد في التاريخ البشري كله . .

كانوا قلة ، نعم ، ولكنهم كانوا - بلغة البناء - هم الأعمدة الراسية التي يقوم  
عليها البناء كله ، فتحمله وتمكن له في الأرض . وكما يعمد البناء حين يشرع في  
إقامة بنائه إلى ذلك الأساس دكا متينا بادئ ذي بدء ، ثم إقامة الأعمدة التي تحمل  
البناء ، قبل أن يضع الطوب والأحجار . . فكذلك فعل قدر الله بهذه الدعوة على

(١) سورة الكهف [٦] . (٢) سورة الفصص [٥٦] .

(٣) قال تعالى : «فإنها يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لئلا» [سورة مريم : ٩٧] .

يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيض له تلك الفئة القليلة حوله صلى الله عليه وسلم، تتلقى كل رعايته، وكل توجيهه، وكل تربيته، وتتلقى منه الشحنة كاملة، فتكون كما شاء الله لها أن تكون، عمدا راسية في كل اتجاه؛ ثم جاء قدر الله بالأنصار، يتربون على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم - مع المهاجرين - وهم جميعا قلة محدودة، فينالون من تربيته ورعايته وتوجيهه الحظ الأوفى - ويظل للمهاجرين سبقهم في ذلك كله - وذلك قبل أن تحييء الأحجار التي تكمل البناء، وتجعله صالحا لأداء مهمته، أولئك الذين قال الله عنهم:

«ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا»<sup>(١)</sup>.

ذلك هو الترتيب الرباني، الذي به نجحت الدعوة وتمكنت في الأرض . . . ونتخيل الأمر تم على غير هذه الصورة، فدخل الناس في دين الله أفواجا منذ أول لحظة، أو في السنوات الأولى للدعوة . . . هل كان يقوم البناء على ذات الصورة، وهل كان يرسخ في الأرض كما قدر الله له الرسوخ؟!!

إن الله يقول للشيء كن فيكون . . . ولو شاء الله لفعل، ولو قدر شيئا لكان . . . ولكن الله - جلّت مشيئته - قد جعل سننا في الكون وسننا في الأرض وسننا في حياة الناس، وجعل تلك السنن هي العاملة - بمشيئته سبحانه - في الكون والأرض والناس. وجعل من سنته في الدعوة أن يستجيب لها قوم محدودون، ينالون من رعاية النبي المرسل النصيب الأوفى، فيكونون كالأعمدة الراسية التي يقوم عليها البناء . . .

والتربية عملية شاقة بطيئة تحتاج إلى كثير من الجهد . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو أعظم مربٍ في التاريخ . . . ولكنه لو واجه الألف من أول لحظة فما كان من المستطاع أن يعطيهم كل رعايته وكل توجيهه وكل تربيته، كما أعطاهم لتلك الحفنة القليلة المحدودة العدد، فتحقق فيها على أكمل صورة وبأكمل قدرٍ قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس . . .»<sup>(٢)</sup> وكان إتمام الأمر على هذا النحو متمشيا مع السنن الجارية التي يجري بها قدر الله في حياة الناس. فلقد شاء الله - لحكمة يعلمها سبحانه - أن يجري أمر هذا الدين كله على

(١) سورة النصر [٢].

(٢) سورة آل عمران [١١٠].

السنن الجارية لا على السنة الخارقة، حتى لا يأتي جيل من أجيال المسلمين يتقاعس، ويقول: لقد نصر الأولون بالحوار، ولم تعد الحوارق تنزل بعد ختم الرسالة وانقطاع النبوات!

إن الخارقة الكبرى في هذا الدين هي كتاب الله المنزل، وهي باقية محفوظة بقدر الله إلى قيام الساعة:

«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»<sup>(١)</sup>.

ولئن كان اشتراك الملائكة في القتال مع المسلمين يوم بدر من الحوارق، فقد كانت الخارقة هي رؤية المسلمين للملائكة وهم يقاتلون معهم. أما تنزل الملائكة على المؤمنين بالثبوت والتأييد والسكينة فهو قدر جارٍ يجريه الله حين يشاء على من يستحقه من عباده:

«إن الذين قالوا ربنا الله، ثم استقاموا، تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا، وفي الآخرة..»<sup>(٢)</sup>.

إنما السنة الجارية - التي جرى بها الأمر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن تقف الجاهلية بالمرصاد لدعوة الحق، تحاربها وتهدها وتربص بها، وتصد «الجاهير» عن الانضمام إليها بكل وسائل الصد، وبكل وسائل التخويف والإيذاء، فلا يقبل عليها في مبدأ الأمر إلا أفاذ من الناس، قد رسخ الإيمان في قلوبهم، فاستعلوا على الجاهلية، وصبروا على كيدها كله، وصمدوا في موقفهم لا يتزحزون عنه، لا يزيدهم الابتلاء إلا رسوخا في الإيمان.. فيتمحصون بذلك كله، ويصطفاهم الله لحمل الأمانة وإقامة البناء.. والابتلاء سنة:

«أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين»<sup>(٣)</sup>.  
والتمحيص قبل القضاء على الأعداء سنة:  
«وليمحص الله الذين آمنوا، ويمحق الكافرين»<sup>(٤)</sup>.

(٢) سورة فصلت [٣٠ - ٣١].

(٤) سورة آل عمران [١٤١].

(١) سورة الحجر [٩].

(٣) سورة العنكبوت [٢ - ٣].

فحين يتم الابتلاء والتمحيص، ويعلم الله من قلوبهم أنها تجردت له وأخلصت، وأصبح الله ورسوله أحب إليهم من كل ماسواهما، يجري قدره سبحانه بالتمكين لهم في الأرض، ويدخول الناس أفواجا في دعوة الحق . .

وفي فترة الابتلاء والتمحيص تتم جوانب كثيرة من التربية المطلوبة لحملة الأمانة، الذين يواجهون الجاهلية في أول جولة، والذين تلزمهم صفات وأحوال غير التي تلزم للأفواج الداخلة فيما بعد، ويحتاجون إلى عناية خاصة تختلف عن العناية المطلوبة للقادمين فيما بعد، بمقدار ما تختلف إقامة الأعمدة الراسية في الأرض، التي تحمل البناء كله، عن إقامة الأحجار في أماكنها بين هذه العمدان . إن هذه الأعمدة تحتاج إلى صناعة خاصة، ومكونات خاصة، ومقومات خاصة، وزمن معين لاستكمال تلك المقومات . فإن لم تستوف كل مقومات صناعتها، فإنها تعرض البناء كله فيما بعد للتشقق أو الانهيار.

وحقيقة إن الأعمدة وحدها لا تشكل بناءً، ولا تحقق الهدف الذي من أجله أنشئ البناء . . فلا بد من الأحجار الكثيرة التي تشكل الجدران، وتعطي البناء شكله النهائي، وتحقق الهدف الذي أقيم من أجله . . ولكنك لو بدأت برص الأحجار قبل ذلك الأساس، وقبل إقامة الأعمدة الراسية، أو قبل إتمام ذلك كله على المستوى المطلوب، فإن البناء كلما علا ينهار . . وتكون الأحجار حملاً ثقيلاً أكثر مما هي عون وتأييد!

وحين يتم - في فترة التربية - إعداد الصفوة التي تواجه الجاهلية أول مرة ذلك الإعداد الخاص المطلوب لها، فإن أموراً كثيرة تتم في الحقيقة في آن واحد . إن هذه الصفوة - كما قلنا - هي التي تستطيع - بحكم متانة تأسيسها - أن تصمد لكيد الجاهلية، التي تحاول بكل جهدها أن تقضي على الدعوة الجديدة قبل أن تمد لها جذورا في التربة، لأنها تعلم جيدا أنها إن لم تبذل كل طاقتها في ذلك فسيفلت الأمر من يدها، ولا تستطيع أن تسيطر عليه . . لذلك يكون البطش في أقصى عنفوانه في جولته الأولى، ولا يصمد له إلا تلك الصفوة المختارة من المؤمنين، الذين يتلقون الشحنة الكاملة من قائدهم الذي يتعهدهم بتربيته ورعايته .

ثم إن نجاح هذه الصفوة في الصمود للكيد هو الذي يشكل في الحقيقة نقطة التحول في خط سير الدعوة، لأنه يعطف القلوب نحو أولئك المؤمنين الذي يتلقون

هذا القدر الهائل من البطش والتعذيب دون أن يتحولوا عن الحق الذي يؤمنون به، فيكون صمودهم شهادة لهذا الحق، تجتذب نفوسا جديدة، تؤمن به وتجاهد في سبيله، فتتسع القاعدة وهي على ذات القدر من المثانة وقوة التأسيس .

ثم إن هذه الصفوة تشكل جنودا فائقين لقائد الدعوة، ولكنهم في الوقت ذاته يربون ليكونوا قادة، وليكونوا خلفا للقائد من بعده . .

انظر إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

لقد كانوا جنودا فائقين للدعوة، ولقائدهم صلى الله عليه وسلم، على الصورة التي يعرفها التاريخ . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم رباهم في الوقت ذاته بحيث يكون كل واحد منهم ركنا في الموقع الذي يكون فيه، فقاموا بالمهام التي وكلها إليهم على المستوى الفائق الذي يعرفه التاريخ، وكانوا هم القدوة للناس في تربيتهم على هذا الدين، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوتهم هم في هذه التربية الفريدة . . ثم كانوا هم حملة الأمانة من بعده، والقادة الذين قادوا الأمة من بعده في الخلافة الراشدة التي يعرفها التاريخ . .

تلك سنة جارية في عملية «البناء» . . وهي ألزم ما تكون في بناء الجماعة التي تتولى الدعوة لدين الله .

فإذا عدنا إلى البناء الضخم الذي أقامه الإمام الشهيد، وكَوّن به - بقدر الله - منعظا تاريخيا في حياة الأمة الإسلامية، نجد أن «الأفواج» من الناس قد سمح لها بالتجمع في وقت باكر، لم يكن قد تهيأ فيه ذلك الأساس المتين بالقدر المطلوب، ولا إقامة الأعمدة التي تحمل البناء على المواصفات المطلوبة للجيل الأول، الذي يواجه الجاهلية أول مرة . .

وهنا يتبادر سؤال . .

هل كان من واجب الإمام الشهيد أن يصد الناس الذين التفوا حوله بعشرات الألوف، حتى يتمكن من تربية العدد اللازم لهم من الدعاة والمربين، فيتركهم في ضياع وهو قادر على تجميعهم، وإثارة وجدانهم الديني على أقل تقدير؟

وحين توضع القضية على هذا النحو فالجواب لاشك بالنفي!

ولكن هذا ليس هو الوضع الصحيح للقضية!

إننا نسأل: لو علم الناس حقيقة الدعوة وأبعادها، وحقيقة الأوضاع المحيطة



بها، وحقيقة المعركة بين الدعوة وأعدائها، وحقيقة مخططات الصليبية الصهيونية تجاه الإسلام، وتجاه كل دعوة تحاول إعادة الناس إليه . . فهل كانوا يتجمعون بعشرات الألوف في تلك السنوات القصار؟!

ونعود إلى كلام الإمام الشهيد نفسه، الذي أثبتناه قبل صفحات :  
« أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لازالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيرا من المشقات، وسيعترضكم كثير من العقبات. وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتם تسلكون سبيل أصحاب الدعوات . . . »  
وهذه هي القضية في حقيقتها . .

فلو عرف الناس - أو عُرِفُوا - حقيقة الدعوة، لجزت السنة الربانية مجراها، فأقبل على الدعوة أفراد معدودون، يتلقون شحنة التربية كاملة، ويكونون هم الأعمدة الراسية التي تحمل البناء، ويكونون هم المرين الذين يقومون بتربية الناس حين يدخلون في الدعوة أفواجا، ويكونون هم «الصف الثاني» في الدعوة، الذي يخلف القائد على الطريق . .

ولقد كان «الإخوان العاملون» جنودا فائقين نعم . . يتحركون بأمر قائدهم الحركة المضبوطة التي يكلفهم بها، وعلى النحو الذي يوجههم إليه<sup>(١)</sup>، ولكنهم لم يكونوا بعد قد تهيأوا ليكونوا قادة ومعلمين لتلك الأفواج كلها التي تجمعت قبل أوانها حول الدعوة، لأنها - كما قال الإمام الشهيد - لم تكن تعرف حقيقة الدعوة. كما أنهم - وهذا أخطر - لم يكونوا قد تهيأوا بعد لتسلم القيادة من بعده، والمضي بها في الطريق الشاق الطويل . . فكان لهذا أثره في خط السير فيما بعد كما شهدت الأحداث .

\* \* \*

وكما حدث التعجل في دعوة الجماهير للتجمع قبل أن يتم بناء الأعمدة الراسخة بالمواصفات المطلوبة، حدث التعجل بالتحرك قبل الأوان المناسب سواء في الساحة الداخلية أو في ساحة المعركة في فلسطين .

---

(١) شكا الإمام الشهيد في نهاية حياته من بعض التصرفات غير المسئولة التي يقوم بها أفراد معينون من الجماعة . ولكن هذا لا ينفي الأصل، وهو طاعة الجنود لقائدهم، وسماعهم وطاعتهم له في النشاط والمكره .

فأما في الداخل فقد كان هناك تعجل في إظهار قوة الجماعة، سواء في استعراضات الجواله، أو في المظاهرات والمسيرات، أو في الدخول في القضايا السياسية المثارة في ذلك الوقت، كمحاربة الشيوعية، أو تأييد قضية مصر في مجلس الأمن، أو غيرها من القضايا، كأنها تريد الجماعة في كل مرة أن تقول: نحن هنا، ونحن نستطيع أن . .

وبصرف النظر عن كون هذه القضايا المثارة يومئذ كانت مما يجوز للجماعة المسلمة أن تخوض فيه، أم إن واجبها كان المناداة بتصحيح منهج الحياة الأساسي، الذي تنجم تلك القضايا من فساد، ومن عدم اتباع منهج الله بشأنه . . بصرف النظر عن هذا الأمر<sup>(١)</sup>، فقد كان «استعراض العضلات» على هذه الصورة، قبل استكمال العدة اللازمة، من تمكين الأساس، وإقامة الأعمدة الراسية، واستكمال التربية المطلوبة، تعجلا بالحركة قبل الأوان، ترتب عليه ما ترتب من آثار في خط السير .

أما في فلسطين، فلقد كان دخول الفدائيين من الإخوان المسلمين في ساحة المعركة قدرا مقدورا دون شك . . ولكن هذا الحدث كان له أثر بالغ في سير الأحداث كلها فيما بعد . وما قدره الله لا بد أن يتم . ولكن كتاب الله علمنا أن قدر الله لا ينفي دور البشر ومسئولياتهم :

«أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟! قل: هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله . . » (٢) .

وليس لدي الآن ما يثبت أن الإمام الشهيد قد اتخذ قرار دخول الفدائيين فلسطين بمحض رغبته، أم بضغط الشباب وإلحاحهم عليه . . ولكني أحسب أن ماسبق من اشتراك الجماعة في القضايا السياسية المثارة على الساحة، هو الذي جعل دخول الإخوان المعركة في فلسطين هو الأمر «الواجب» . . سواء كان قائد الجماعة مقتنعا بجذواه أم غير مقتنع . فمادامت الجماعة قد شاركت في الأحداث من قبل، وهي تنادي بالجهاد والفداء، فإن قعودها عن دخول المعركة كان يعد بالنسبة إليها نكوصا عن المبادئ التي أعلنتها من قبل ودعت إليها الجماهير!

(١) سنعود إلى هذا الأمر بالحديث فيما يلي من هذا الفصل .

(٢) سورة آل عمران [١٦٥ - ١٦٦] .

وأياً كان الأمر فقد وقع قدر الله . . واكتشفت الصليبية والصهيونية الخطورة البالغة لهذه الجماعة على كل مخططاتهم ، وعلى وجود الدولة اليهودية بصفة خاصة ، فكان ماكان من المذابح المتوالية التي تعرضت لها الجماعة قبل أن يتم لها النضج ، وتكون على مستوى الأحداث . .

\* \* \*

وكما حدث التعجل في دعوة الجماهير للتجمع ، وفي التحرك بهذه الجماهير قبل الأوان المناسب ، حدث كذلك في عملية البناء ذاتها ، فلم تبدأ من نقطة البدء اللازمة ، بل تجاوزتها إلى ما يجيء بعدها في الترتيب . .  
لقد اعتبرت قضية العقيدة قضية بديهية ، وقضية منتهية . وكل ما ينبغي علينا بشأنها هو إيقاظ الوجدان الديني من غفوته ، وتحويله - بالعمل - إلى حركة واقعة ، فيستقيم الأمر ، وتتحقق الأهداف .

وكان هذا - كما سيحيىء بيانه - مبالغة في إحسان الظن ، أثبتت الأيام فيما بعد أنه في حاجة إلى مراجعة شديدة ، وأن نقطة البدء كان ينبغي أن تكون هي تصحيح العقيدة ذاتها ، وجلاء مفهومها الحقيقي الذي غاب عن الجماهير ، بل غاب عن كثير من الدعاة أنفسهم ، في غربة الإسلام الثانية ، التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال :

«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء»<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

نستطيع أن نرد هذه العجلة بوجه الإجمال إلى نقطتين رئيسيتين :  
الأولى : هي افتراض أن «القاعدة الإسلامية» موجودة بالفعل ، وأن العمل المطلوب ليس هو «إنشاءها» من جديد ، وإنما هو «تجميعها» وبث الحركة فيها ، وتنظيمها ، وقيادتها ، وتوجيهها إلى العمل المطلوب . .  
والثانية : هي عدم التقدير الكافي للقوة المطلوبة لمواجهة الصليبية العالمية والصهيونية العالمية من جهة ، والأحوال الداخلية من جهة أخرى . . سواء من حيث نوعية هذه القوة أو من حيث حجمها المناسب .

---

(١) سبق ذكره .

ونستطيع أن نتصور - بالنسبة للنقطة الأولى - أن الإمام الشهيد قد أحسن الظن بالموقف بناء على الاستجابة الواسعة التي تلقاها من «الجمهير» حيثما تحركت قدماه في أرض مصر، وصورة «الإقبال» على الدعوة، التي اتسمت بها السنوات العشرون التي عاشها منذ بدء الدعوة إلى يوم استشهاده، حيث تضاعف حجم الجماعة عدة مرات في خلال تلك السنوات . . كما كان من أسباب حسن الظن كذلك الاستجابة الواسعة التي تلقاها من «جنوده» - الإخوان العاملين - الذين كانوا - في يده - أداة طيعة تستجيب لتعليقاته، وتتشكل - طائعة - في القالب الذي يريد تشكيلها عليه .

ولكن التجربة العملية أثبتت أن هذه النظرة كان فيها من حسن الظن أكثر مما تقتضيه الأحوال!

إن «العواطف الدينية» شيء، و«القاعدة الإسلامية» شيء آخر . . وحتى إن كانت هذه العواطف متجهة إلى الإسلام - دينها التقليدي الذي عاشت به أكثر من ثلاثة عشر قرناً من قبل - فإنها - وحدها - بغير فهم حقيقي لهذا الدين، وبغير بصيرة واعية . . لا تكفي .

فالفهم الحقيقي: الذي يصل إلى درجة «العلم» مطلوب:  
«فاعلم أنه لا إله إلا الله»<sup>(١)</sup> .

والبصيرة مطلوبة:

«قل هذه سبيلي: أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»<sup>(٢)</sup> .

ولقد كانت العقيدة قد ضمرت ضموراً شديداً في نفوس المسلمين خلال القرون المتعاقبة، كما أسلفنا القول، بحيث لم تعد هذه «العواطف الدينية» ذات دلالة حقيقية تبنى عليها حركة واعية تواجه الجاهلية المعاصرة بكل إفكها وانحرافاتهما، وتواجه الحرب الضارية الماكرة التي يشنها - في الداخل والخارج - أعداء الإسلام . .

لم يكن إيقاظ «الوجدان الديني» من غفوته، وتحويله إلى حركة واقعة، إلا

(١) سورة القتال [١٩].

(٢) سورة يوسف [١٠٨].

تصحيحاً لجانب واحد من جوانب الخلل التي أصابت العقيدة خلال القرون،  
وخلال القرن الأخير بصفة خاصة .

لقد كان التواكل الذي أحدثته الصوفية وأحدثه الفكر الإرجائي هو الخلل  
الذي أصلحته حركة الإمام الشهيد، بإيقاظ الوجدان الغافي وتحويله إلى حركة  
واقعة، وكان هذا جهداً ضخماً في حقيقته، إذا نظرنا إلى ما كان قد أصاب المسلمين  
في هذا الجانب كما بينا من قبل .

ولكن الخلل الآخر - الذي طرأ على الأمة خلال القرن الأخير خاصة - كان هو  
إفراغ «لا إله إلا الله» من حقيقتها في قضية «الحاكمية» المتصلة بتحكيم شريعة  
الله، وكان هذا الخلل شديد الخطورة في حياة هذه الأمة، وشديد الخطورة بالنسبة  
للصحوة الإسلامية ذاتها، بحيث ينبغي أن يركز له من الجهد بقدر ما ركز في علاج  
التواكل الذي أحدثته الصوفية والإرجاء . .

لقد بقيت الأمة ثلاثة عشر قرناً على وجه التقريب تعيش في ظل الشريعة  
الإسلامية، وتراها بديهية من بديهيات إسلامها كأداء الصلاة سواء بسواء .  
وقد سبق القول أن الأمة - برغم انحرافات كلها، ورغم كل البدع والانحرافات  
التي دخلت عليها - ظلت تشعر في أعماق كياناتها أن تحكيم الشريعة الإسلامية وأداء  
الصلاة هما الركبان اللذان لا يمكن أن يزولا من حياة الأمة، ولا أن ينحسر عنهما  
الواقع الذي يعيشه الناس . .

ولكن الصليبية التي أحكمت سيطرتها على العالم الإسلامي خلال القرن الأخير  
- والصهيونية في أطوائها - قد ضغطت بكل ثقلها - العسكري والفكري - لتنحية  
الشريعة الإسلامية من الحكم، وتنحية الصلاة من واقع الناس . .  
وظل الكيد - الذي يتزايد بالبحاح لرحضة الأمة عن إسلامها - يوهم الناس في  
كل خطوة أنهم مازالوا مسلمين . .

نحيت الشريعة عن الحكم أولاً، وقيل للناس لا بأس عليكم! مادمتم تصلون  
وتصومون فأنتم مسلمون . .

ثم نحيت الصلاة - والعبادات عامة - وقيل للناس: لا بأس عليكم! مادمتم  
تقولون لا إله إلا الله فأنتم مسلمون! (١)

(١) سبق أن ذكرنا ذلك من قبل في الفصل السابق . أثناء الحديث عن «آثار الانحراف» .

وفرغت لا إله إلا الله من محتواها كله تحت ضغط الأمر الواقع ، وبتأثير الغزو الفكري المسموم ، وأصبحت مجرد كلمة تنطق باللسان ، وبحسب قائلها أنه قد حاز الإسلام كله بمجرد نطقها بلسانه ، وأنه قد قام «بالشهادة» المطلوبة منه ، وأن اللجنة تنتظره في نهاية المطاف ، مهما يكن قلبه غافلا عن حقيقتها ، ومهما يكن سلوكه مناقضا لمقتضاها!

وجاءت حركة الإمام الشهيد والأمة على هذا النحو . . إلا من رحم ربك ، ممن فتح الله عليه بمعرفة حقيقة الشهادة وحقيقة الدين . .

وقام الإمام الشهيد - كما بينا - بتصحيح جانب من العطب الذي أصاب «لا إله إلا الله» في قلوب المسلمين ، ذلك الجانب الذي كانت قد أفسدته الصوفية والفكر الإرجائي ؛ ثم دعا إلى تحكيم شريعة الله ، وإلى وجوب إقامة الدولة المسلمة التي تحكم بشريعة الله ، ووجد استجابة الجماهير من حوله ، فاطمأن إلى هذا «الظاهر» ، فلم يول الأمر في مبدأ الأمر من العناية ما أثبتت التجربة فيما بعد أن الأمر كان في حاجة شديدة إليه . .

لقد قتل حسن البناء ، ومر الحادث بكثير من القلوب كأن لم يمسه على الإطلاق!

ثم جاء «البطل» السفاح ، فأقام للمسلمين مذبحه من أشنع مذابح التاريخ ، ومر الحادث بكثير من القلوب كأن لم يمسه على الإطلاق . . بل كان الأمر أسوأ بكثير . . فقد صفت كثير من الأيدي للسفاح ، ويده تقطر من دماء المسلمين!  
كيف حدث ذلك؟!

أ هذا هو الأمر الطبيعي بالنسبة «للمسلمين»؟!  
وقل من جانب آخر: لو كان الناس يعلمون حقيقة لا إله إلا الله ، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله . . أ كانوا يقفون هذا الموقف المنكر الغريب؟!  
لا يمكن ذلك بحال!

لا يمكن أن يمر قتل الداعية الذي يدعو لتحكيم شريعة الله ، بهذه البساطة التي مر بها . . ولا يمكن أن تمر المذبحة البشعة التي أقامها السفاح للدعاة الذين يدعون لتحكيم شريعة الله بهذه البساطة التي مرت بها ، فضلا عن أن يكون هناك من يصفق للسفاح ، إلا أن تكون هناك جهالة مطبقة بحقيقة لا إله إلا الله!

وَضَعُ في الحساب كل ما يمكن أن يوضع من أثر الدعاية المضادة التي أقيمت ضد الإمام الشهيد، وضد الجماعة التي خلفها من بعده . . وضع في الحساب كذلك كل ما يمكن أن يوضع من أثر الدعاية المحلية والعالمية للبطل السفاح . . فسيظل الموقف غير مقبول لا بالنسبة لمقتل الإمام الشهيد ولا بالنسبة للمذابح التي أقامها السفاح!

كان يمكن - بسبب تلك الدعاية المضادة - أن تقف الجماهير ضد شخص الإمام الشهيد أو جماعته، ثم يكون لها موقفها الخاص من قضية تحكيم شريعة الله! أما السكوت الكامل عن قضية تحكيم شريعة الله، ثم السكوت على المذابح التي تقام للمسلمين الداعين إلى تحكيمها، فأمر لا يمكن أن يحدث، إلا أن تكون تلك الجهالة المطبقة بحقيقة لا إله إلا الله، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله . . والظن بأن مجرد نطقها باللسان هو الذي يعطى صفة الإسلام، وأن هذه الصفة تظل لاصقة بالإنسان مهما يكن فكره وسلوكه بعيدين عن مقتضيات لا إله إلا الله! والجهل بأن تحكيم شريعة الله - وحدها دون سواها - والتحاكم إلى شريعة الله - وحدها دون سواها - هو أول مقتضيات لا إله إلا الله، التي لا تكون بدونها قائمة ولو نطقها الإنسان بلسانه ألف مرة كل نهار!

وبصرف النظر عن وضع الناس في ميزان الله، وكونهم - بهذه الجهالة - مسلمين أو غير مسلمين<sup>(١)</sup> . . فلاشك أن هذه الجهالة قائمة - بكل ثقلها - في حياة الناس وأفكارهم ومشاعرهم، وأن «القاعدة الإسلامية» لا يمكن أن توجد وهذه الجهالة قائمة، وأن أولى الخطوات لإقامة «القاعدة الإسلامية» هي إزالة هذه الجهالة من حياة الناس . .

إن هذه الجهالة هي العقبة الكبرى في سبيل إقامة الحكم الإسلامي! وهي أخطر بكثير مما قد تبدو لأول وهلة . .

إن الحكم الإسلامي لن يقوم بمجرد وجود «جماعة» مؤمنة مجاهدة تنادي بتحكيم شريعة الله . .

فأياً كانت الوسيلة المتخيلة للوصول هذه الجماعة إلى الحكم<sup>(٢)</sup>، فإنه لا بد لكل حكم من سند يسند ويدافع عنه مما يتعرض له من كيد الأعداء . .

(١) سنتكلم عن هذه القضية فيما بعد.

(٢) سنتكلم بعد قليل عن الوسائل.

وهناك حكومات كثيرة تقوم اليوم في العالم الإسلامي لأن أمريكا تسندها، أو لأن روسيا تسندها، أو لأنها معا يسنداها لقاء ماتقوم به من تذيبح المسلمين وتقتيلهم والقضاء عليهم . . أما الحكم الإسلامي ، فمن يسنده في كل الأرض؟ لن تسنده أمريكا بطبيعة الحال ولن تسنده روسيا . . ولا بد له من سند من أهله . . من المسلمين المؤمنين المجاهدين، الذين يقاتلون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . .

لا بد من وجود «القاعدة الإسلامية» . .

وليس معنى هذا، كما يتخيل بعض الناس، أننا لا بد أن ننتظر حتى تتحول الأمة كلها إلى مؤمنين مجاهدين لكي يقوم الحكم الإسلامي . .

إنه لا يوجد مجتمع في الأرض كلها يكون كله من أولى العزم، وكله على مستوى القمة . . ولا مجتمع الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم . فقد كان في مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم المنافقون وضعاف الإيوان والمبطنون والمتأقلون . . ولكن «القاعدة المسلمة» كانت فيه من القوة والرسوخ والتمكن بحيث حملت أولئك كلهم، ومضت في طريقها تحقق أهدافها كما قدر لها الله . .

والمطلوب اليوم، لكي يقوم الحكم الإسلامي، أن توجد «القاعدة المسلمة» بالحجم المعقول، الذي يقود خطى الأمة كلها في سبيل تحقيق ذلك الهدف الضخم . . والذي لا يعوقه وجود المنافقين وضعاف الإيوان والمبطنين والمتأقلين! والعقبة الأولى في سبيل بناء هذه القاعدة بالحجم المطلوب، هي تلك الجهالة المطبقة بحقيقة لا إله إلا الله!

ذلك أن المسلمين لا يتحركون في فراغ . . إنما يتحركون في وسط عداوات عالمية ومحلية قد تكون - في حجمها - أضخم عداوة في التاريخ! وأعداء الإسلام يستغلون هذه الجهالة على أوسع نطاق في محاربة الحركات الإسلامية . .

فهم يقيمون في البلاد الإسلامية أنظمة للحكم لا تحكم بها أنزل الله، بل تحارب الحكم بما أنزل الله والداعين إليه، ثم يضيفون - بوسائل الإعلام المختلفة - شرعية كاملة على هذه النظم، فتقبلها الجماهير تقبلا «طبيعيا» بسبب جهلها العميق بحقيقة لا إله إلا الله، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله!



ثم هم يقيمون حاجزا من النفور بين الناس وبين الحركات الإسلامية حين يقولون لهم: هل تظنون أن هؤلاء يعملون من أجل الإسلام؟! إنهم يعملون من أجل الوصول إلى الحكم، ولكنهم يتسترون وراء الدين! والتستر وراء الدين بالذات صورة كريهة تنفر الناس وتبعدهم عن الطريق!

وقد درجت الجماهير على السلبية التامة في قضايا السياسة وقضايا الحكم، فلا يهمهم كثيرا من الذي يسعى إلى الحكم ومن الذي يصل إليه! ولكنهم حينئذ كما يقول المتبنى:

الناس من يلتق خيرا قائلون له \* ما يشتهي . . ولأم المخطئ الهبل!  
أي أنه إذا وصل المسلمون للحكم فستصفق لهم الجماهير! أما إذا فشلوا فهم حينئذ يستحقون ما أصابهم! فلماذا كانوا يتعرضون للسلطان؟! هل كانوا يتصورون أن القائمين في الحكم سيسلمون لهم بمجرد أن يطلبوا منهم التخلي عن السلطة؟! لا بد أن يتمسك القائمون في الحكم بما في أيديهم من السلطة، ولا بد أن يضربوا من يتعرض لسلطانهم!

وهكذا تتميع القضية تماما، ويتساوي في نظر هذه الجماهير كل الساعين إلى السلطة وكل الواصلين إليها، دون اعتبار «للحق» و«الباطل» كما حددهما دين الله، ودونما نظر إلى «الشرعية» في الإسلام: أهي للذي يحكم بما أنزل الله، أم للذي يحكم بغير ما أنزل الله . . ويتأخر - بهذا التميع - تكوّن «القاعدة المسلمة» التي ترفض كل حكم غير حكم الله، لأنه حكم جاهلي لم يأذن به الله:

«أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟!» (١)

«أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؟» (٢)

ثم يترتب على هذه الجهالة أمر آخر، أشد خطورة على الحركة الإسلامية من هذا التميع الذي يؤجل النضج اللازم لنشأة «القاعدة المسلمة» . .

إنه يتيح للطاغية دائما أن ينفرد بالجماعات الإسلامية فيضربها بوحشية بالغة . .

(٢) سورة الشورى [٢١].

(١) سورة المائدة [٥٠].

يضرها ضرب إبادة . . وهو آمن من غضبة شعبية تكف يده عن التقتيل والتعذيب والتشريد، كما حدث عند مقتل الإمام الشهيد، وكما حدث عند المذابح الوحشية التي أقامها السفاح، وقتل فيها أئمة الجماعة وقادتها من أجل القضاء المبرم عليها . . وكما يمكن أن يحدث مرات ومرات!

ولنتصور الأمر - كان - على غير هذه الصورة . .

نتصور الجماهير فهمت المعنى الحقيقي للإله إلا الله، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله، كما بين الله في كتابه المنزل، وكما علم الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه، وكما وعدت الجماهير المسلمة خلال ثلاثة عشر قرناً من الزمان:

«فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً»<sup>(١)</sup>

«ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين. وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون»<sup>(٢)</sup>.

«إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا. وأولئك هم المفلحون»<sup>(٣)</sup>.

نتصور أن الجماهير أدركت جيداً أن المسلم لا يكون مسلماً إلا إذا حكم بما أنزل الله، وتحاكم إلى شريعة الله، أو بعبارة الإمام الشهيد<sup>(٤)</sup>: «أقر بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما»<sup>(٥)</sup>، وأدى الفرائض . .

فكيف يكون الحال؟!

(١) سورة النساء [٦٥].

(٢) سورة النور [٤٧ - ٤٨].

(٣) سورة النور [٥١].

(٤) جاء في رسالة التعاليم، في البند العشرين: «لا تكفر مسلماً أقر بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما. وأدى الفرائض، برأى أو معصية . . الخ» انظر: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البناء المشار إليها آنفاً ص ٣٥٩.

(٥) العمل بمقتضاهما هو الحكم بما أنزل الله في كل أمور الحياة. وهو شرط الإيمان الذي لا يقوم الإيمان بغيره:

«فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم. ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت. ويسلموا»

هل يمكن حينئذ للطاغية أن يقتل الدعاة ويعذبهم ويشردهم وهو آمن من غضبة الشعب المسلم عليه؟!

ولسنا نتوهم أن الفهم الحقيقي للإله إلا الله سيقرب الشعب كله بين يوم وليلة إلى مجاهدين من أولى العزم، لا يباليون بالأخطار التي تتهددهم وهم قائلون ينافحون عن شريعة الله، ويذودون عنها كل معتد أثيم!  
كلا! ما يتوهم ذلك أحد!

ولكنه - على أقل تقدير - سيجعل تكوين «القاعدة المسلمة» أيسر بكثير، وأقرب بكثير، من خطها الحالي الذي تواجه فيه وحشية الطغاة بغير سند من الجماهير، بينما الطغاة - في إجرامهم الوحشي - يتدعون بجهالة الجماهير!  
من أجل ذلك كان التركيز على هذه القضية أمراً بالغ الأهمية بالنسبة للصحة الإسلامية، وكانت هذه القضية هي نقطة البدء التي لا بد من البدء بها لتكوين «القاعدة المسلمة». وكل بدء من غير هذه النقطة الرئيسية يعوق السير، ويطيئ الطريق!

ولئن كان هذا لم يكن واضحاً تماماً في مبدأ الطريق، أو كان خافياً وراء الحماسة العاطفية للجماهير، فقد اتضح في حس الإمام الشهيد في أيامه الأخيرة على ضوء الخبرة الواقعية، كما يبدو ذلك واضحاً متبلوراً في هذا المقال الذي نقله بنصه كاملاً من جريدة «الإخوان المسلمون» اليومية (العدد ٦٢٧ السنة الثالثة بتاريخ الأحد

== تسليماً [سورة النساء: ٦٥] وهنا تعرض مسألة يختلط أمرها في أذهان بعض الناس، وهي المعصية. فإجماع الأمة أن المعصية لا تخرج صاحبها من الإيمان بينما هي عمل مخالف لما أنزل الله. ولا تناقض في الحقيقة بين الأمرين. فمركب المعصية حين يقر بأنها معصية فهو يحكم عليها بما أنزل الله، ويزنها بميزان الله، وإن خالف أمر الله فيها شهوة أو هوى. ولذلك لا يخرج من دائرة الإيمان. أما حين يستحلها فهو يحكم في شأنها بغير ما أنزل الله، ويزنها بغير ميزان الله، ولذلك يكفر. بل هو يكفر بهذا الاستحلال ولو لم يأت العمل المنهي عنه. ذلك أنه - وإن لم يرتكب بجوارحه ذلك العمل - فقد أتى بعمل من أعمال القلب يخرج صاحبه من الإيمان. هو اتخاذ نفسه نداً لله سبحانه وتعالى، مجل ويحرم من عند نفسه بغير إذن من الله. والله وحده هو صاحب الأمر في التحليل والتحريم. والإباحة والمنع، بمقتضى كونه هو الخالق وحده سبحانه: «ألا له الخلق والأمر» [سورة الأعراف: ٥٤]. وهذا هو الذي يفسر كون المعصية في حد ذاتها لا تخرج من الإيمان إلا أن يستحلها صاحبها، أي يعطيها حكماً مخالفاً لحكم الله. ومع ذلك فهناك إجماع من الأمة على أن هناك أعمالاً بعينها لا يسأل صاحبها عما في قلبه. وهل هو مستحل لها أم غير مستحل، لأنها دالة بذاتها على الكفر، كالسجود إلى الصنم، وإهانة كتاب الله، وسب الرسول صلى الله عليه وسلم، وموالاته أعداء الإسلام، والتحليل والتحريم من دون الله. أي التشريع بغير ما أنزل الله.

٧ رجب سنة ١٣٦٧، ١٦ مايو سنة ١٩٤٨) بعنوان «معركة المصحف - أين حكم الله؟»، وتوقيع «حسن البنا»:

«إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيما» [سورة النساء: الآية ١٠٥].

«وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فإن تولوا فاعلم أنها يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيرا من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون» [سورة المائدة: الآيتان: ٤٩، ٥٠].

«إنها كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا» [سورة النور: الآية ٥١].

«الإسلام دين ودولة ما في ذلك شك. ومعنى هذا التعبير بالقول الواضح أن الإسلام شريعة ربانية جاءت بتعاليم إنسانية وأحكام اجتماعية، وكلت حمايتها ونشرها والإشراف على تنفيذها بين المؤمنين بها، وتبليغها للذين لم يؤمنوا بها إلى الدولة، أي إلى الحاكم الذي يرأس جماعة المسلمين ويحكم أمتهم. وإذا قصر الحاكم في حماية هذه الأحكام لم يعد حاكما إسلاميا. وإذا أهملت شرائع الدولة هذه المهمة لم تعد دولة إسلامية. وإذا رضيت الجماعة أو الأمة الإسلامية بهذا الإهمال ووافقت عليه لم تعد هي الأخرى إسلامية، مهما ادعت ذلك بلسانها. وإن من شرائع الحاكم المسلم أن يكون في نفسه متمسكا بفرائض الإسلام بعيدا عن محارم الله غير مرتكب للكبائر. وهذا وحده لا يكفي في اعتباره حاكما مسلما حتى تكون شرائع دولته ملزمة إياه بحماية أحكام الإسلام بين المسلمين، وتحديد موقف الدولة منهم بناء على موقفهم هم من دعوة الإسلام.

«هذا الكلام لا نقاش فيه ولا جدل، وهو ما تفرضه هذه الآيات المحكمة من كتاب الله. ولقد كانت آيات النور صريحة كل الصراحة واضحة كل الوضوح في الرد على الذين يتهربون من الحكم بما أنزل الله وإخراجهم من زمرة المؤمنين، فالله تبارك وتعالى يقول فيهم:

«ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين. وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم

معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أ في قلوبهم مرض أم ارتابوا، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله. بل أولئك هم الظالمون. إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وأولئك هم المفلحون». كما جاءت آيات المائدة تصف المهملين لأحكام الله بالكفر والظلم والفسق فتقول:

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - الظالمون - الفاسقون» ثم تقول:

«أ فحكم الجاهلية يبيغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون».

«ولا يكفي في تحقيق الحكم بما أنزل الله أن تعلن الدولة في دستورها أنها دولة مسلمة، وأن دينها الرسمي الإسلام، أو أن تحكم بأحكام الله في الأحوال الشخصية وتحكم بما يصطدم بأحكام الله في الدماء والأموال والأعراض، أو يقول رجال الحكم فيها إنهم مسلمون سواء أكانت أعمالهم الشخصية توافق هذا القول أم تخالفه. لا يكفي هذا بحال. ولكن المقصود بحكم الله في الدولة أن تكون دولة دعوة، وأن يستغرق هذا الشعور الحاكمين مهما علت درجاتهم والمحكومين مهما تنوعت أعمالهم. وأن يكون هذا المظهر صبغة ثابتة للدولة توصف بها بين الناس وتعرف بها في المجامع الدولية وتصدر عنها في كل التصرفات وترتبط بها في القول والعمل».

«في العالم دولة اسمها الاتحاد السوفييتي، لها مبدأ معروف ولون معروف ومذهب معروف، نحن لا نأخذ به ولا ندعو إليه، ولكننا نقول إن هذه الدولة عرفت بلونها هذا بين الناس وفي المجامع الدولية، وهي ترتبط بمقتضياته في كل تصرفاتها وأقوالها وأعمالها. وقد أرادت انجلترا وأمريكا تقليدها فادعتا أنها تصطبغان بالدعوة إلى شيء اسمه الديمقراطية، وإن اختلف مدلوله بمختلف المصالح والمطامع والظروف والحوادث».

«فلماذا لا تكون مصر - وهي دولة مستقلة ذات سيادة - معروفة في المجامع الدولية بتمسكها بهذه الصبغة الإسلامية وحرصها عليها ودعوتها إليها وارتباطها بها في كل قول أو عمل؟ ذلك هو أساس الحكم بما أنزل الله. ومتى وجد هذا المعنى، وارتبطت الدولة بهذا الاعتبار، واصطبغت بهذه الصبغة، فستكون النتيجة ولا

شك تمسك الحاكمين بفرائض الإسلام واتصافهم بآدابه وكمالاته، ثم صدور كل التشريعات وخضوع كل النظم الاجتماعية في الدولة لتوجيهاته وأحكامه، فيتحقق حكم الله فرديا واجتماعيا ودوليا وهو المطلوب.

«أين نحن من هذا كله؟»

«الحق أننا لسنا منه في شيء. وكل حظنا منه نص المادة ١٤٩ من الدستور، ثم ما بقي في نفوس هذا الشعب من مشاعر وعواطف وتقدير وأعمال وعبادات. أما الحكومة والدولة ففي واد، وحكم الله في واد آخر.

«يا دولة رئيس الحكومة أنت المسئول بالأصالة. . . ويا معالي وزير العدل أنت المسئول بالاختصاص. . . ويا نواب الأمة وشيوخها أنتم المسئولون باسم الشعب. . . ويا فضيلة شيخ الأزهر وأصحاب الفضيلة العلماء الأجلاء، أنتم المسئولون باسم أمانة العلم والتبليغ التي أخذ الله عليكم ميثاقها. ويا أيتها الأمة أنت المسئولة عن الرضا بهذا الخروج عن حكم الله لأنك مصدر السلطات.»

«فناضلي حكامك وألزميهم النزول على حكم الله، وخوضي معهم معركة المصحف، ولك النصر بإذن الله»

حسن البنا

\* \* \*

نعم، لقد اتضح الأمر في حس الإمام الشهيد في أيامه الأخيرة، ولكنه لم يُمهَل حتى يرسخ هذا المعنى في قلوب أتباعه كما أشرنا من قبل، فظل هذا المعنى غير واضح في نفوسهم، ولا تبدو آثاره في تخطيطهم وتحركهم وأفكارهم. تلك هي النقطة الأولى التي تحدثنا عنها بالنسبة للبناء الذي أقامه الإمام الشهيد.

أما النقطة الثانية، وهي تقدير حقيقة المعركة التي لا بد أن تخوضها الصحوة الإسلامية - رضيت أم أبت - مع أعداء الإسلام، وتقدير النوعية المطلوبة لها، والجهد اللازم لإعدادها، والزمن المقدر لتهيئتها. . . فلا نستطيع أن نعلم بالضبط ماذا كان يدور في ذهن الإمام الشهيد بشأنها، وقد عوجل - رضوان الله عليه - بالقتل وهو في شبابه لم يزل، وهو في أول الطريق؛ ولكننا نلاحظ - كما قلنا - أنه قد

حدث تعجل في الإعداد، وتعجل في الحركة، كانت له آثاره فيما بعد.  
إن المعركة في حقيقتها ليست معركة محلية بين الجماعات الإسلامية وبين الطاغية الذي يقوم بتقتيلها وتعذيبها وتشريدها ومحاولة القضاء عليها. كما أنها ليست معركة سريعة تتم في جولة أو بضع جولات. إنها معركة تشارك فيه وتشرف عليها وتوجهها الصليبية العالمية والصهيونية العالمية، بالتحالف مع كل أعداء الإسلام!  
قالت إحدى الصحف البريطانية أيام العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م:  
«لقد أيدنا جمال عبد الناصر حين قام بحركته عام ١٩٥٢، على أساس أنه أتاتورك جديد قوي، جاء ليحارب الشيوعية برفع مستوى المعيشة، ويقر السلام في الشرق الأوسط بالصلح مع إسرائيل<sup>(١)</sup>. ولكنه اختار الحرب على السلام<sup>(٢)</sup>. ونحن مستأؤون منه من أجل ذلك. ولكن ينبغي ألا ننسى أنه هو الذي سحق الإخوان المسلمين المتعصبين!»

«But we should not forget that it was he who crushed the fanatic Moslem Brotherhood»

وقالت أنديرا غاندي في حديث صحفي لها مع إحدى المجلات الأمريكية عام ١٩٦٨م:

«إننا نحب جمال عبد الناصر ونؤيده لأنه قضى على الإخوان المسلمين المتعصبين!»

وكان أصدقاؤه المقربون كلهم من أعداء الإسلام: الأب مكاربيوس الذي كان يقوم بتذبيح المسلمين في قبرص بتأييد الأمم المتحدة، وتأييد جمال عبد الناصر!

---

(١) هذا هو البرنامج الثلاثي، أو «ورقة العمل» التي جيء بجمال عبد الناصر ليقوم بتنفيذها، وقد بذل كل جهده بالفعل لتنفيذها. فأتاتورك مهمته بالطبع معروفة وهي القضاء على الإسلام. وإشارة الصحيفة ذات مغزى، فأتاتورك الأول كانت مهمته القضاء على الإسلام في اسطنبول، مركز القوة السياسية والعسكرية للعالم الإسلامي، وأتاتورك الثاني - جمال عبد الناصر - مهمته القضاء على الإسلام في القاهرة، مركز الإشعاع الروحي والثقافي للعالم الإسلامي. ومحاربة الشيوعية تقلبت بها الوسائل وانتهى بها الأمر إلى تطبيق الاشتراكية لتكويه الناس في الشيوعية كما جاء في كتاب «والت روستو اليهودي الأمريكي: «مراحل التنمية الاقتصادية في البلاد المتخلفة». والصلح مع إسرائيل مهد له جمال عبد الناصر بكل مافي وسعه ولكنه هلك قبل أن يتم التنفيذ. فجاء خلفه «العظيم!» ليلمح مكارم الأخلاق!!

(٢) تشير الصحيفة بذلك إلى تأميم قناة السويس.

وتيتو اليهودي - الذي قام بذبح ثلاثة أرباع مليون مسلم في يوغوسلافيا . وأنديرا غاندي ، التي كانت تشرف على تذبيح المسلمين في الهند وتحريقهم أحياء ، ثم معاقبتهم «رسميا» بعد ذلك بحجة أنهم هم الذين يثرون الشغب في البلاد . وهيلاسلاسي ، الذي خطب في الأمم المتحدة عام ١٩٦١ خطبة قال فيها إنه بعد اثني عشر عاما لن يكون في الحبشة إلا دين واحد! أي أنه يعلن رسميا عزمه على إبادة ٦٥٪ من سكان الحبشة المسلمين أو طردهم خارج البلاد!

وكانت الدعاية العالمية - الصليبية الصهيونية الشيوعية الرأسمالية . . . الخ<sup>(١)</sup> - التي أضفت عليه «البطولات» الخرافية ، تقوم بتغطيته وهو يبلغ في دماء المسلمين . . . وكلما أوغل في إراقة الدم وفي التعذيب الوحشي ، زاد الدوى الإعلامي العالمي ، ترحيباً بالصديق الحبيب ، الذي يقضي لهم على الخطر المرهوب!

وجاءت «لجنة حقوق الإنسان!» فزارت السجون الحربية عام ١٩٥٥م في أوج المعمة الدائرة لتعذيب المسلمين بالوسائل الوحشية ، وحضرت مهزلة المحاكمات التي كان يشرف عليها أعوان السفاح ، ثم قدمت تقريرا قالت فيه إن المحاكمات تجري حسب الأصول القضائية الصحيحة ، وفي جو من الحرية التامة!!!

وتلك مجرد نماذج عابرة من العداوات العالمية المرصودة ضد الإسلام! والمعركة التي تخوضها الجماعة المسلمة - رضيت أم أبت - مع هذه العداوات كلها ليست معركة سهلة ولاقريبة ، وتحتاج إلى نوعية خاصة وإعداد خاص ، لا ينظر فيه إلى «الزمن» الذي يمكن أن يستغرقه الإعداد . . .

بل إن هذه العداوات المحددة المركزة كلها - على ضراوتها وعنف خصومتها - ليست هي العداوات الوحيدة التي تواجهها الصحوة الإسلامية ، فهي تواجه - مع هذا كله - عداوة «الجاهلية» في كل الأرض ، بما فيها الأرض الإسلامية ذاتها ، التي تسربت إليها الجاهلية ومسخت كيائها ، منذ أتاح التخلف العقيدي الذي وقع فيه المسلمون المجال لأعداء الله أن ينفذوا إلى العالم الإسلامي ويسيطروا عليه ، فينحوا عنه شريعة الله ، ويثوا فيه أفكار الجاهلية المعادية للدين . . . وإن هذه الجاهلية لتتخذ نظما للحكم ، ومناهج للفكر ، ومناهج للتعليم ، ووسائل

(١) اشتركت جميع أجهزة الإعلام العالمية التي يسيطر عليها اليهود في إضفاء صفات البطولة الحارقة على السفاح إمعانا في تغطية دوره الحقيقي .



للإعلام، وأنباطا للسلوك الواقعي . . تقف كلها موقف العداء الشديد من «الدين» وموقف العداء الأشد من «الإسلام» . .

والصحوة الإسلامية - رضيت أم أبت - تتعرض لعداوة هذه الجاهلية في كل خطوة من خطواتها، وكل تحرك من تحركاتها، إن بالتقتيل والتعذيب والتشريد، وإن بالتسخيف والترذيل، وإن بالصد والتنفير . . وبكل وسيلة من وسائل الصد والتنفير! وهي تحتاج - في مقابل ذلك - إلى نوعية فريدة لتواجه ذلك العداء كله وتصدر عليه . . نوعية ذات وعي سياسي فائق، ووعي فكري متعمق، يحيط بما حول المسلمين من عداوات، وبطبيعة المعركة، ووسائل الحرب المتبعة فيها، والأدوات اللازمة لمواجهتها . . وتدرك - فوق ذلك - أن المعركة ليست ذات صبغة محلية محدودة، وليست معركة جيل واحد، بل معركة أجيال متعاقبة، سواء بسبب العداوات المرصودة من الخارج، أو بسبب الجهل العميق بحقيقة الإسلام، الذي يعوق نشأة «القاعدة المسلمة» . . وأنها من أجل ذلك في حاجة إلى النفس الطويل الذي لا يتعب من طول الطريق . .

ولقد كان الجيل الذي رباه الإمام الشهيد جيلا فائقا في ناحيتين اثنتين على الأقل: الروح الفدائية العالية، المستعدة للموت في سبيل الله، الناذرة نفسها نذرا كاملا للدعوة ومطالبها؛ وروح الأخوة العميقة التي تربط بين الإخوة في الله . . وكان هذا جهدا ضخما بذله الإمام الشهيد من وقته وجهده وروحه ودمه، لم يكن غيره قادرا عليه، ولا كان غيره يملك الموهبة اللازمة لأدائه . .

ولكن ذلك الجيل - برغم ذلك - كان مفتقرا إلى كثير من الوعي السياسي، الذي يدرك به أن الخوض في القضايا السياسية القائمة في وقته ليس هو مهمة الجماعة المسلمة الأصيلة، إنها مهمتها الأصيلة بيان المنهج الإسلامي الذي يصحح الأمور، وبيان أن الفساد ناجم من عدم اتباع المنهج الرباني في كل أمر من الأمور . . ويدرك به أن تغيير حاكم في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي لن يغير شيئا في الموقف، طالما أنه لم توجد بعد «القاعدة الإسلامية» التي تقيم الحكم الإسلامي، ثم تحميه حين يقوم . . لأن كل حاكم يتغير يأتي بعده حاكم جديد، يقوم بذات المهمة الموكولة إليه في حرب الإسلام والمسلمين، وإن تغيرت الأدوات وتغيرت الأساليب . .

وكان مفتقرا إلى كثير من الوعي الفكري، الذي يدرك به الوسائل الخفية والظاهرة التي استخدمها الأعداء ويستخدمونها لصف المسلمين عن الإسلام، في مناهج التعليم مرة، ووسائل الإعلام مرة، وقواعد التفكير مرة، وأنماط السلوك مرة.. وأن من بين هذه الوسائل الخفية استدراج الصحوة الإسلامية إلى قضايا فرعية ومعارك فرعية يستنفدون فيها جهودهم، ويستهلكون فيها طاقتهم، وينصرفون بها عن مهمتهم الرئيسية في إنشاء «القاعدة المسلمة» بالمواصفات المطلوبة، على الزمن المديد، دون استعجال في الزمن ولا استعجال في البناء..

وكان مفتقرا إلى النفس الطويل في المواجهة، الذي يصمد به للضربة تلو الضربة دون أن يتعب من الصراع.. وقد كان يبدو عجيبا لأول وهلة أن ينهار قوم في المعتقلات والسجون، وهم المؤمنون الصادقون، وهم الفدائيون المخلصون.. لا لنقص في إيمانهم، ولا لنقص في فدائيتهم.. ولكن لأن أعصابهم كانت «مضبوطة» على زمن محدود، يتخيلون فيه تحقق النصر، والتمكين للإسلام، والقضاء على الأعداء.. فلما ضربوا بدل أن يضربوا، وتوالى عليهم الضرب بدلا من التمكين، تعبت الأعصاب المشدودة، المضبوطة على الوقت القصير، وانصرف كثيرون عن الدعوة إلى غيرها من الأمور، أو دخلوا بالدعوة في منعطف مبتعد عن الطريق! (١)

\* \* \*

والآن فلننظر إلى واقع الصحوة الإسلامية بعد مايزيد قليلا على نصف قرن منذ بدأها الإمام الشهيد..

هناك ظاهرتان على الساحة، إحداهما تدعو إلى التفاؤل، والأخرى تثير الأسى في نفوس الدعاة المخلصين.

الأولى: هي اتساع القاعدة، واتجاه مزيد من الشباب إلى الإسلام، بحيث يصح أن يقال إن الإقبال على الإسلام أصبح تيارا ذاتيا عند الشباب، لا يرتبط بالضرورة بنشاط جماعة معينة، أو بوجود جماعة معينة، إنها ينبعث تلقائيا في نفوس الشباب.. والثانية هي تبعث العمل الإسلامي وتفرقه، وكثرة الجماعات التي تعمل في الساحة، وتناقضها وتباذها، وانتقاد كل واحدة منها لساثرها، وادعاؤها أنها وحدها على الحق، وبقية الجماعات على ضلال!

(١) يأتي ذكر بعض المنعطفات عرضا في أثناء الحديث..

والظاهرتان قد وجدتا - بقدر من الله - معاً في وقت واحد مع اختلافهما في الاتجاه! ولكن هناك أسبابا متواكبة هي التي أدت إلى هذا الوضع .

فاتساع القاعدة يرجع - من جانب - إلى جهود الدعاة العاملين في حقل الدعوة، ويرجع - من جانب آخر - إلى المذابح المتوالية التي يقيمها أعداء الإسلام للمسلمين! وتلك سنة يغفل عنها دائماً أعداء الإسلام، مع تكررها دائماً مع الأيام: أن الدعوة التي يقدم لها الدم لا تموت! والأعداء - من حنقهم - لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من التقتيل والتعذيب والتشريد، ظنا منهم في كل مرة أن هذا هو الذي يقضي على الدعوة، فينفذ قدر الله من خلال أعمالهم، وتتسع القاعدة مع كل نقطة دم تراق، ومع كل سوط يلهب الظهور. . واستشهاد رجل واحد موصول القلب بالله، يصنع الله به للدعوة ما لا تصنعه ألوف الخطب وألوف الكتب وألوف المحاضرات. . ولكن الظالمين لا يعلمون .

أما تبعر العمل الإسلامي فله أسباب عدة . .

السبب الأول - والأظهر - هو غياب القيادة الكبيرة التي تطمئن لها النفوس، وتنقاد لها طائفة بدافع الحب والتقدير والثقة والاحترام، فيلتئم حولها الشمل، وتجتمع حولها القلوب. .

ووجود القيادة الكبيرة لا يحل كل مشاكل التجمع. . فهناك دائماً نفوس مريضة لا تنقاد إلا لشهواتها وأهوائها. . وقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو النبي المرسل، وهو أعظم شخصية في تاريخ البشرية كله - قد أثار حقد عبد الله بن أبي وجعلته ينشق عن الصف! وعلى المستوى البشري تعتبر قيادة الإمام الشهيد من القيادات الكبرى في التاريخ، ولم يمنع وجودها من حدوث انشقاقات داخل الجماعة وتحزبات. .

ولكن وجود القيادة الكبيرة يقلل كثيراً دون شك من مشاكل التجمع، لأنه يجمع النفوس المخلصة التي لا تعمل من أجل الظهور والمجد الشخصي، وتجمع الجنود. . والجنود غالباً ما يكونون مخلصين متجردين من الأهواء. .

وفي غياب مثل هذه القيادة تتولد زعامات صغيرة شابة تنقصها الخبرة، وكثيراً ما يختلط في نفوسها الإخلاص للدعوة والإخلاص للذات، من مدخل من مداخل الشيطان هو اعتقاد كل واحد منهم أنه على الحق، وأن أتباع الحق يستوجب اتباع

من يمثله! أي اتباعه هو! ومن ثم تتناحر هذه الزعامات وتتناطح، ويقول كل منها: على فلان وجماعته - إذا أرادوا - أن يأتوا إلى، ويتبعوني! أما أنا فلا أذهب إليه، ولا أتبعه، لأنه ليس على الحق!

والسبب الثاني: أن معظم الشباب المقبل على الدعوة اليوم لم يترب في داخل جماعة واحدة ذات قيادة منظمة، لغياب القيادات العاملة داخل السجون والمعتقلات، إنما تربى على الكتب . . على القراءة . . والقراءة وحدها لا تكفي!  
إن العمل الإسلامي لا بد له من قيادة: تقوده، وتعلمه، وتربيته . .

ولو كان الله يعلم أن النفوس - التي خلقها بعلمه سبحانه - تكفيها الكتب، فقد كان الله قادرا على أن ينزل القرآن كله جملة في قرطاس، ويعلم الناس قراءته!  
ولكن الله الذي خلق هذه النفوس - وهو العليم بها سبحانه - يعلم أن الحق لا يعمل عمله في النفوس إلا أن يتلقاه قلب من قلب، ومتعلم من معلم، ومتلق من موجّه . . لذلك أرسل الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون هو المعلم والموجه، ويكون هو القلب العظيم الذي تتلقى منه سائر القلوب.

والشباب كان يملك الحماسة والرغبة ولكنه في وقت من الأوقات لم يكن يملك إلا كتباً يقرأها، ففرقت به السبل!

إن من شأن العقول أن تختلف على دلالة النص الواحد، وإن كان قطعي الثبوت وقطعي الدلالة! فما بال إن كانت النصوص المتداولة غير قطعية الدلالة، وما بال إن كان بعضها غير قطعي الثبوت!؟

لقد نجم الخلاف طبيعيا - وإن كان غير مرغوب فيه - مع نشأة هذا الشباب على قراءة الكتب، بلا مرشد يرشد، ولا معلم يعلم، ولا قائد يقود!

وهي ظاهرة سيئة بلا شك. فالمفروض أن يتجمع العمل الإسلامي ولا يتفرق، لأن الفرقة لا تخدم أحدا إلا الأعداء . . ولكنها - كما أقول دائما - مشكلة ليس لها حل سحري! وأقصد بالحل السحري الحل السهل السريع، الذي يتم دون معاناة! ومعظم مشكلات العمل الإسلامي هو من هذا النوع الذي ليست له حلول سحرية! إنما حله هو المعاناة، والصبر على المعاناة، وبذل الجهد الدائم بلا توقف، مع الإخلاص في القصد:

«يا أيها الذين آمنوا اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون»<sup>(١)</sup>

ولكني - مع ذلك - لا أنزعج كثيراً من هذه الظاهرة على ما فيها من سوء، لأنني أنظر إليها على أنها من حصيلة الماضي أكثر مما هي مؤشر للمستقبل . من حصيلة الصحوة بعد الغفوة الطويلة . .

فحين يهب الناس من الغفوة الطويلة، ويدركون ما أصابهم، ويحاولون الخلاص، وفي غيبة المرشد الذي تطمئن القلوب إليه وتنقاد له، يمكن أن يحدث اختلاف وجهات النظر. فهذا يرى طريق الخلاص من هنا، وذاك يراه من هناك، وثالث يرى غير هذين . .

ولكن من خلال التجربة . . من خلال المعاناة . . يتضح رويدا رويدا أي الطرق أصح، وأيها قمين بالوصول .

ولا ينبغي لحظة واحدة أن ننسى أنه ليس البشر هم الذين يدبرون! إنما هو الله سبحانه . . وهذه دعوته . . وهو المتكفل بها، وهي دائمة في رعايته . . وهو سبحانه الذي تكفل بأن يميز صفها، وينقي خبثها . .

«ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب . . .»<sup>(٢)</sup>

فهو سبحانه لا يترك الصف مختلطا فيه الطيب والخبيث . وهو لا يطلع الناس على غيبه فيقول لهم سلفاً: هذا طيب وهذا خبيث . . ولكنه يدخل المؤمنين في اختبارات وابتلاءات يتميز بها الطيب من الخبيث، في الوقت الذي يتمحص فيه المؤمنون ويتجردون لله . .

فمن خلال التجربة . . ومن خلال المعاناة . . سيعرف الناس أي هذه الدعوات المتناحرة أكثر إدراكا لحقيقة الإسلام الشاملة، وأيها أصح تحركا بهذا الإدراك الشامل، وأيها أكثر تجردا وإخلاصا لله . . وينقى الله الخبث وينفيه:

«فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»<sup>(٣)</sup> .

(١) سورة آل عمران [٢٠٠] . (٢) سورة آل عمران [١٧٩] .

(٣) سورة الرعد [١٧] .

أما القيادة الكبيرة، المطلوبة - دائما - للعمل الإسلامي، فهي هبة ربانية لا تصنع! فليس هناك مصنع نستطيع أن نوصيه بأن يصنع لنا القيادة المطلوبة خلال فترة معينة من الزمن! ولكن هناك الموهبة الربانية، وهناك المصنع الرباني وهو الاختبارات والابتلاءات التي تمحص المؤمنين، وتبرز - من بينهم - من هو أصلاح للقيادة والتوجيه . . إنها علينا نحن واجب نتقدم به بين يدي الله، لنطمع أن يستجيب لنا حين ندعوه أن يبرز لنا القائد المطلوب، هو أن نخلص النية له سبحانه، ونخلص العمل، فيستجيب لله للدعاء:

«وقال ربكم ادعوني أستجب لكم»<sup>(١)</sup>

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي قال له: ادع لي يا رسول الله أن أكون رفيقك في الجنة، قال: أعنى بكثرة السجود!<sup>(٢)</sup>

وإذا كان هناك اليوم شباب لا يثقون بقيادة من يرونه أمامهم من الشيوخ، وكانوا - بعد - لم يفرزوا قيادتهم الخاصة التي يرضون بقيادتها، وتطمئن قلوبهم إليها، فليس هذا وضعا دائما، مزعجا كما يبدو في هذه اللحظة، إنها هو مرحلة عابرة، يغير الله بعدها للناس، حين يغيرون ما بأنفسهم، ويخلصون من حظ أنفسهم، ويتجددون لله .

ولنحاول في الصفحات التالية أن نستعرض أهم نقاط الخلاف التي نجمت في الحركات المعاصرة، وإن كنت أحب - قبل ذلك - أن ننتبه إلى مسألة مهمة في هذا الشأن . .

إن تصحيح المفاهيم وتصحيح المنهج أمر ضروري للحركة الإسلامية دون شك . وما تستطيع الحركة أن تثمر ثمرتها المرجوة إن لم تعرف الطريق الصحيح وتتوجه إليه . .

ولكن محاولة التصحيح بالتناوب والفرقة، والتدافع بالناكب، والجدل الدائم الذي يحاول فيه كل فريق تسفيه الآخرين وتجريحهم والنيل منهم . . كل ذلك جهد ضائع بلا ثمرة، إلا الثمرة النكدة التي يتلقفها الشيطان!  
إنما يكون التصحيح بالبيان الهادئ الهادف، وإبراز الدليل الشرعي الذي تبنى

(١) سورة غافر [٦٠].

(٢) أخرجه مسلم .

عليه الأحكام، مع التفقه في دين الله، قبل إصدار الحكم الذي يتشبه به صاحبه ويفاصل الناس عليه!

وحين لا تتعلق بذواتنا، وحين يكون الحق أعز علينا من أنفسنا، ويكون وصولنا إلى الحق عن تدبر ودراسة وبصيرة، ستنجاب الغاشية، وتتضح الرؤية، ويستبين الطريق. . وهو ما نعتقد أن الأمور ستصير إليه في النهاية بعون الله وتوفيقه. .

\* \* \*

تشعب الخلاف كثيرا بين الجماعات القائمة بالعمل في حقل الدعوة. . ولكن ربما كانت أكبر قضيتين ثار بشأنها الخلاف والجدل، هما قضية الحكم على الناس، وقضية المنهج الواجب اتباعه في الفترة الراهنة. . ثم تحيء بعد ذلك قضايا أقل شأنًا، نتعرض لبعضها بعد الكلام عن هاتين القضيتين الرئيسيتين.

## قضية الحكم على الناس

شغلت هذه القضية أكبر مساحة من الخلاف والجدل بين الفرق المختلفة. . وذهب فيها ناس إلى حد التطرف من الجهتين. فقال بعضهم: من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام! وقال آخرون: إن الأصل في الناس اليوم هو الكفر، مالم يثبت عكس ذلك. الأولون يحكمون على الناس بالنية وحدها دون العمل، والآخرون يحكمون بالعمل وحده بصرف النظر عن النية. . ووقف آخرون في منازل مختلفة بين هذا الطرف وذاك.

وقد كان لي موقف قديم في هذه القضية<sup>(١)</sup>، اقتنعت به بعد سنوات من التفكير الدائب فيها، ومازلت مقتنعا به إلى هذه اللحظة. . هو أن قضيتنا الأولى والكبرى ليست هي قضية الحكم على الناس، إنما هي قضية تعليمهم حقيقة الإسلام. فلا ينبغي أن تشغلنا تلك القضية أصلا، ولا أن نجعلها محور ارتكازنا في الدعوة، ولا نقطة الشد التي نحاول أن نشد الناس إليها من هذا الطرف أو ذاك. إنما الأولى والأجدى والأكثر ثمرة أن ننصرف إلى تعليم الناس ما جهلوه من حقيقة الإسلام؛ وإن تعليمهم هذه الحقيقة، وتربيتهم على مقتضياتها، هو العمل الحقيقي المثمر،

(١) منذ سنة ١٩٦٥.

الذي يغير واقع الناس في النهاية، ويردهم إلى الجادة التي شردوا عنها خلال الأجيال، وكان شرودهم عنها في القرن الأخير خاصة هو الذي جر عليهم الوبال . .

إن الجهالة التي تعيش فيها الأمة بالنسبة لحقيقة الإسلام هي - كما بينا من قبل - العدو الأول للحركة الإسلامية، والمعوق الأكبر للدعوة<sup>(١)</sup>، وهي التي يستخدمها الأعداء أداة من أكبر أدواتهم لحرب الدعوة وتعويقها . .

لقد كان إفراغ لا إله إلا الله من محتواها الحقيقي، وبالذات فصلها عن مقتضاها الأول، وهو الالتزام بما جاء من عند الله، وتحكيم شريعة الله . . هو الذي أتاح للعدو الصليبي الصهيوني تنحية الشريعة عن الحكم، مع إيهام الناس أن إسلامهم لا يتأثر بذلك قيد شعرة. وأنهم حين يرضون بالقوانين الوضعية، ويتحاكمون إليها عن قبول ورضى، فما زالوا رغم ذلك مسلمين، ماداموا يقولون لا إله إلا الله! وهو الذي أتاح للعدو - بعد انسحاب عسكريه من أراضي العالم الإسلامي - أن ينيب عنه في الحكم حكومات من أهل البلاد، تستمر في تنحية الشريعة عن الحكم، ومع ذلك تُضَفَى عليها في حس الناس الشرعية الكاملة، ويتقبلها الناس - بقوانينها الوضعية - دون أن يطالبوها بتحكيم شريعة الله . ثم هو الذي أتاح لعملاء العدو في العالم الإسلامي أن يبطشوا بالدعاة بطشاً، ويبيدوهم إبادة، وهم آمنون من غضب الناس عليهم، ماداموا ينطقون بأفواههم لا إله إلا الله!

وإزالة هذه الجهالة، وتعليم الناس حقيقة الإسلام، وحقيقة الارتباط الذي لا ينقسم بين لا إله إلا الله ومقتضاها الأول، وهو تحكيم شريعة الله، ثم تربية الناس على هذه الحقيقة، هو العمل المثمر المجدى، الذي يغير أحوال الناس في العالم الإسلامي، ويردهم إلى الحقيقة الضائعة، فيردهم من ثم إلى أنفسهم وإلى دينهم، فيمكن الله لهم حين يستون على الشرط:

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما

---

(١) راجع قول الإمام الشهيد في رسالة «بين الأسس واليوم»: «سيف جهل الشعب بالإسلام عقبة في طريقكم، وقد سبقت الإشارة إليه .



استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوني لا يشركون بي شيئا<sup>(١)</sup>

ومن ثم ينبغي أن تنصرف جهود الدعاة إلى إزالة هذه الجهالة، ولا تتشتت ولا تتناثر في قضايا لا طائل وراءها كقضية الحكم على الناس!

إن الحكم على الناس بالإسلام أو الكفر ليس هو الذي سيحل القضية، ولا هو الذي سيجعل الناس يغيرون موقفهم! فإنك إن قلت لهم - كما يقول الطرف الأول - من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام، فلن يخرجوا من الحدر الذي يعيشون فيه، والذي يخيل إليهم أنهم قد استوفوا متطلبات الإسلام والإيمان، وأن الجنة في جيوبهم ولو لم يعملوا! ولن يغيروا - من ثم - شيئاً من واقعهم البعيد عن حقيقة الإسلام! وإن قلت لهم - كما يقول الطرف الآخر - أنتم كفار بواقع عملكم، مهما تكن نواياكم في داخل نفوسكم، فسيشغلون بالدفاع عن أنفسهم، والبحث عن الأدلة الفقهية التي تجعلهم في عداد المسلمين. ولن يغيروا - من ثم - شيئاً من الواقع السيء الذي يعيشون فيه! أما تعليمهم - دون التعرض للحكم عليهم في الوقت الحاضر - فقد يكون هو الذي يصلح الأفكار والقلوب، ويدعو الناس إلى تغيير ما بأنفسهم فيغير الله ما بهم كما بين سبحانه:

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»<sup>(٢)</sup>

وتدفعني إلى هذا الموقف - منذ وقفته - عدة اعتبارات، مازال لها في نفسي ثقلها ووجاهتها .

الاعتبار الأول: أنني أشعر - بحق - بعد تدبر خط الانحراف الطويل كله، وآثار الانحراف، والغزو الفكري، وانزواء علماء الإسلام عن قيادة الأمة وتبصيرها بحقيقة دينها، بل مشاركة بعضهم في تضليل الأمة عن هذه الحقيقة وتعميتها عليها، بالفتاوى المضللة حيناً، وبإضفاء الشرعية على ما لا شرعية له عند الله حيناً آخر، وإيهام الناس أن هذا من الاجتهاد المأذون به في الإسلام . . .<sup>(٣)</sup>

(١) سورة النور [٥٥].

(٢) سورة الرعد [١١].

(٣) مر بنا نموذج من ذلك في فتوى الشيخ رشيد رضا في الفصل السابق.

أقول: إنني أشعر بحق - بعد تدبر هذا كله - أننا اليوم في مقام التعليم، قبل التصدي لإصدار الأحكام على الناس. وأن هذا التعليم - لإزالة الغربة الثانية التي تحيط بالإسلام اليوم - يحتاج من الوقت والجهد شيئاً غير قليل، ولكنه في النهاية هو الذي سيحسم القضية حسماً كاملاً، فمن أبي وأصر - بعد البيان والتعليم - فهو الكافر بلا شبهة، ومن أجاب الدعوة فهو المسلم بلا شبهة:

«وكذلك نفصل الآيات، ولتستبين سبيل المجرمين»<sup>(١)</sup>

«ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة»<sup>(٢)</sup>

وقد يقول قائل - ممن يرون أن الأصل في الناس اليوم هو الكفر ما لم يتبين غير ذلك - إن استجابة من يستجيب بعد البيان والدعوة لا تنفي عنه أنه كان مشركاً قبل أن يستجيب. فقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيان والتعليم، فأبى من أبي وأجاب من أجاب، ولكن استجابة من استجاب منهم لا تنفي عنه أنه كان مشركاً قبل أن يستجيب. فمن حقنا إذن أن نحكم على واقع الناس اليوم بمثل ما حكم الله سبحانه على واقع الناس في الجاهلية قبل الدعوة، فنقرر أنهم مشركون ابتداءً إلا من ظهر منه غير ذلك . .

والتشبيه هنا مع الفارق . .

فلم يكن في تلك الجاهلية من يجهل حقيقة ما هو عليه، وأنه يعبد مع الله آلهة أخرى، عالماً بها، متوجهاً إليها، معتقداً بألوهيتها، مصراً على عبادتها . . كما لم يكن أحد منهم يجهل حقيقة ما يدعى إليه، وهو نبذ هذه الآلهة كلها، سواء عبدت لذاتها أو عبدت زلفى إلى الله، والتوجه بالعبادة إلى الله الواحد الذي لا شريك له، والتلقى من عند الله وحده، ونبذ كل مصدر للتلقى أو للحكم سواه . .

وهذه الحالة من المعرفة ليست قائمة اليوم إلا عند قلة من الناس، منهم الكافرون بلا شبهة، لأنهم يرفضون وهم يعلمون ماذا يرفضون، ومنهم المؤمنون بلا شبهة، لأنهم يقبلون وهم يعلمون ماذا يقبلون<sup>(٣)</sup>. وهناك كثير من الناس تحيط بهم شبهة الجهل بحقيقة ما هو مطلوب منهم على وجه اليقين. وفي هذه الشبهة يقول الإمام ابن تيمية:

(١) سورة الأنعام [٥٥].

(٢) سورة الأنفال [٤٢].

(٣) حسب ظاهرهم، والقلوب أمرها إلى الله.

«لا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر. فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر. فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم. بل كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله، كسواليف البادية، وكانوا هم الأمراء المطاعين، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة وهذا هو الكفر. فإن كثيرا من الناس أسلموا، ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المطاعون. فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله، فلم يلتزموا بذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار»<sup>(١)</sup>.

ومن هنا لزم التعليم لإزالة هذه الجهالة قبل التصدي لإصدار الأحكام على الناس.

والاعتبار الثاني: أنه لا يمكن في الحقيقة إصدار حكم واحد يشمل المجتمع كله. فالناس في هذا المجتمع فئات كثيرة. منهم - كما قلنا - كافرون بلا شبهة، وهم الذين يرفضون هذا الدين، أو يرفضون التحاكم إلى شريعة الله رفضا صريحا بأي حجة من الحجج: إن الدين لا علاقة له بالسياسة والاقتصاد والاجتماع وواقع حياة الناس. أو أن الشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرنا لا تصلح للحكم اليوم. أو أن التطور يقتضي نبذ ما كان في الماضي - ولو كان صالحا في حينه - واتخاذ «أزياء» أحدث، في السياسة والاقتصاد والاجتماع وواقع حياة الناس. . . وهؤلاء هم الذين يعتقدون المذاهب «العلمانية» بديلا من دين الله وشريعة الله.

ومنهم مسلمون بلا شبهة، وهم الذين يعلمون أن الإسلام يقتضي الحكم بشريعته والتحاكم إليها، فيتحاكمون إليها في واقع حياتهم بما يملكون أن يتحاكموا إليها فيه، ويسعون إلى إقامة حكم الله بطريقة من طرق السعي.

ومنهم كتلة كبيرة غير متميزة السمات، لا تتخذ موقفا حاسما إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بحيث تعرف هويتهم، وهؤلاء هم الذين يختلف الرأي فيهم، وهم مع ذلك إذا دقت النظر فيهم لتبين أحوالهم ليسوا فئة واحدة في مجموعهم! فمنهم ولا شك

(١) ابن تيمية، الفتاوى، مجموعة التوحيد، الرسالة الثانية عشرة، ص ٢٧٨.

من لا يأبه لأمر الدين على الإطلاق، حكم أم لم يحكم، وجد أم لم يوجد . . وهؤلاء كفار لأنهم بلا عقيدة . ومنهم من يعتقد بجهالة أن تجاوز الأحكام الربانية هو من الاجتهاد الجائز للأمة في حالة الضرورة القائمة اليوم كما ضللهم «علمائهم»، فهؤلاء تشملهم شبهة الجهل التي تحدث عنها ابن تيمية وأشرنا إليها آنفاً، ومنهم من ينكر بقلبه وهو يجهل أن للإنكار بالقلب مقتضيات يجب أن تتوفر فيه، هي عدم المشاركة فيما يعتقد أنه باطل - إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - ومنهم من يتمنى في دخلية نفسه أن يحكم الإسلام، ولكنه لا يتحرك حركة تعبر عما في نفسه، إلا أن يجد الفرصة الآمنة تماماً، التي لا تعرضه لأذى على الإطلاق . . في «مسيرة» مأذون بها، أو «استفتاء» مأمون العاقبة!

هذا الخليط الذي لا يجمع بينه إلا خفاء هويته، وسوء مظهره، وبعده عن الصورة الصحيحة للإسلام، هو مع ذلك كله ليس ثابت الحجم ولا ثابت الصورة!

إنه واقع بين ضغطين شديدين يلجئانه إلجاء - وإن يكن في بطء شديد - إلى التحرك إما إلى معسكر الكفر الصريح وإما إلى معسكر الإيمان الصريح . واقع بين ضغط اليهودية العالمية التي تهدف إلى نشر الإلحاد الصريح في كل الأرض، ولا تكتفي من الناس بما كانت تكتفي به في القرنين الماضيين، من الخروج عن حقيقة الدين وإن ظلوا متعلقين به بخيوط واهنة آيلة للانقطاع . . إنها تريد محو الدين كله من الأرض حتى لا يبقى أحد من «الأميين» له دين، فتتحقق لليهود السيطرة الكاملة عليهم . .

وبين ضغط الحركة الإسلامية التي تلح على الناس بأن حقيقة التوحيد - التي هي الإسلام - لا تتحقق بمجرد النطق بالشهادتين باللسان، إنما بالنطق بالشهادتين والعمل بمقتضاهما وتأدية الفرائض كما أمر الله ورسوله، وكما عبر الإمام الشهيد في رسالة التعاليم .

وبين هذين الضغطين الملحين الدائمين، تتحرك هذه الكتلة الخفية السمات، حركة وئيدة ولكنها دائبة، كما يتحرك جبل الجليد في موسم الذوبان، فتتفصل عنه في مسيرته بعض أجزائه ذات اليمين وذات اليسار حتى يتداوب كله . . وفي واقعنا الذي نعيشه نرى حركة هذه الكتلة الوئيدة الدائبة، يقع منها من يقع في معسكر

الكفر الصريح ، ويتجه منها من يتجه إلى معسكر الإيوان الصريح ، ويقل حجمها بالتدريج . .

كنت أقول في نفسي قبل عشرين سنة : لو أن تميز هذه الكتلة إلى عنصريها المتميزين ، الكفر الصريح والإيوان الصريح<sup>(١)</sup> قد استغرق خمسين سنة من تلك اللحظة ، ما استوجب الأمر أن نجهد أنفسنا في استصدار الحكم عليها ، فضلا عن أن نختلف ونتخاصم في أمر ذلك الحكم ، ونجعله نقطة الشد التي نشد إليها الناس ، ونشد إليها العمل في حقل الدعوة !

والآن - بعد عشرين سنة<sup>(٢)</sup> - أرى بوادر التميز في هذه الكتلة : فهناك شباب - من الجنسين - تميع وتفكك وانحل ، واتجه إلى الكفر بغير رجعة ، إلا أن يشاء الله ، وشباب - من الجنسين - التزم الإسلام في وضوح متميز لاخفاء فيه .

وأرى ظاهرة لها دلالتها الضخمة . . ظاهرة الفتيات المحجبات . . يملأن الجامعات والمدارس ، ويملأن من الجامعات كلياتها العملية بصفة خاصة ، وهي التي أنشئت في الأصل لتكون معاقل للكفر والإلحاد والانسلاخ من الإسلام ، ويتحددين بزمن الجاهلية العالمية كلها ، لا الجاهلية المحلية فحسب ، رافعات الرأس ، مستعليات بالإيمان ، لا يصدحن عن الالتزام بالحجاب كل سخرية الجاهلية وحقدتها ، بل عدوانها عليهن بين الحين والحين ، بالاعتقال والسجن ، أو التعذيب والتنكيل .

وهذه الظاهرة بالذات لها دلالتها . . فقد كان التخطيط اليهودي «للأميين» في العالم كله هو إخراج المرأة من دينها وأخلاقها وتقاليدها بحيث لا ترجع إليها أبدا ! ضمانا لإفساد المجتمع كله ، حين لا تكون هناك «أم» تلقن أبناءها مبادئ الدين والأخلاق وهم بعد صغار<sup>(٣)</sup> . . ثم كان التخطيط الصليبي الصهيوني للمرأة المسلمة أن تسير في ذات الخط الذي دفعت إليه المرأة الأوروبية من قبل ، ضمانا لإفساد المجتمع الإسلامي كله ، حين لا تكون هناك أم مسلمة ، تلقن أبناءها

---

(١) في الحقيقة لا يوجد مجتمع في الأرض - ولا مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم - يتميز كله تميزا واضحا ، إنها تبقى فيه دائما فئات خافية الحال ، ولكننا نقصد الفئات الرئيسية في المجتمع ، التي تعطيه سمته المميزة . .

(٢) نحن الآن في عام ١٤٠٦هـ - (١٩٨٦م) .

(٣) انظر إن شئت فصل «دور اليهود في إفساد أوروبا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .

مبادئ الدين والأخلاق وهم في مرحلة الطفولة<sup>(١)</sup>، وبذلت الصليبية الصهيونية كل ما في وسعها، واستخدمت كل وسائلها لجعل عودة المرأة المسلمة إلى الإسلام، وإلى الحجاب الإسلامي، مستحيلة بعد أن تعرت بجسدها كله أو معظمه، وبعد أن أصبح العرى أصلا من أصول المجتمع «المتمدن!»، وعلامة على الرقى والتحضر والتطور والانطلاق!

لذلك فإن اقتحام الفتاة المسلمة للحواجز التي وضعتها الصليبية الصهيونية أمامها، وعودتها للحجاب الإسلامي على هذا النحو - عقيدة لا تقليدا - أمر له دلالاته الكبيرة على مدى التحول الذي صار في المجتمع، والتميز الذي بدأ يأخذ سبيله في داخل الكتلة المتميعة السهات . .

فلو افترضنا أن الأمر يحتاج إلى عشرين سنة أخرى أو ثلاثين، لتتم عملية التميز في تلك الكتلة المتميعة، أو حتى لتأخذ مسارا واضحا فيها، فالأمر في حسي لا يحتاج إلى هذا الجدل كله، أو هذا الخلاف كله، أو هذا الخصام كله، الذي جرى بين الجماعات العاملة في الحقل الإسلامي حول قضية الحكم على الناس، لأنه - في تصوري - كمحاولة التصويب على جسم متحرك، كلما أحكمنا التصويب إليه وجدناه قد تحرك من مكانه ولو بضع خطوات!

وإن بطء الحركة في هذه الكتلة هو حقيقة ملموسة، قد تثير الحنق عند بعض الدعاة، وقد تثير اليأس عند غيرهم، ولكننا لا نستطيع بحال أن نقول إن الصورة اليوم من جانبيها، الأبيض والأسود، هي كما كانت قبل خمسين سنة، أو كما كانت قبل عشرين سنة . . إنها تتغير باستمرار . . والعبرة بهذا التغيير، بصرف النظر عن سرعة التغيير.

والاعتبار الثالث: أن هذه الكتلة المتميعة من «الجاهير» لن تعارض الحكم الإسلامي حين يقوم، سواء بدافع السلبية المستولية عليها، أو بدافع «العواطف الدينية» التي تستولى عليها حين يذكر الإسلام . .

صحيح أن الجهالة العميقة التي تعيش فيها هذه الجماهير - وبالأخص جماهير «المثقفين» - تجاه الإسلام، وجعلها بالارتباط الوثيق بين لا إله إلا الله وبين تحكيم

---

(١) أشرنا إلى هذا في الفصل السابق «آثار الانحراف».

شريعة الله، هي أداة تستخدم اليوم ضد الحركة الإسلامية كما بينا في الصفحات السابقة، وهي معوق من أكبر معوقات الحركة. ولكن الذي أؤكد هنا أن الحكم الإسلامي حين يقوم - أي حين تتسع «القاعدة المسلمة» إلى الحد الذي يسمح بقيام الحكم الإسلامي - فإن الكتلة المتبعة - حتى إن بقيت على صورتها الحالية، وهو أمر غير ممكن - لن تعارض الحكم الإسلامي، ولن تقف عقبة في سبيله. إنما الذي سيعارض الحكم الإسلامي هم «العقائديون». أي الشيوعيون والعلمانيون والملحدون وأضرابهم. وهؤلاء ليسوا من بين الكتلة المتبعة التي تختلف الجماعات في الحكم عليها، إنما هم من الذين اختاروا معسكر الكفر الصريح.

فلو أن هذه الكتلة المتبعة كانت ستقف ضد الحكم الإسلامي حين يقوم، لكان الأمر حرياً أن يبذل فيه الجهد لتحرى الحكم الشرعي المضبوط بالنسبة لها، لتحديد موقفنا النهائي منها. أما الآن فموقفنا منها هو الدعوة. هو بيان حقيقة لا إله إلا الله، وحقيقة الإسلام، ومحاولة تربية من يستجيب لهذه الدعوة على معانى الإسلام الحقيقية ومقتضياته الحقيقية<sup>(١)</sup>. والدعوة - على هذا النحو - لا ترتبط بالحكم على هذه الكتلة. فسواء كانوا مسلمين - في ميزان الله - أو كافرين، فالدعوة التي توجه إليهم الآن واحدة. هي لكل الناس. حتى العاملين منهم بالفعل في الحقل الإسلامي، فإن كثيراً منهم يجهلون كل مقتضيات لا إله إلا الله، وإن كانوا يشتغلون بالدعوة إلى الإسلام! وإن منهم من يقول بتأثير الفكر الإرجائي الذي توغل في حياة الأمة منذ قرون: «من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام»!!

فلو كانت الدعوة - في مرحلتها الراهنة - تتغير - أو تتأثر - بتصنيف الناس إلى مسلمين وكافرين، لوجب أن نجتهد في هذا التصنيف، ونتحرى الدقة فيه، لأننا - عندئذ - سنقدم لونا خاصاً من الدعوة لكل فريق. ولكن الواقع أننا الآن نقدم لونا واحداً من الدعوة لكل الناس، حتى للعاملين بالفعل في الحقل الإسلامي، الذين لاشك عندنا في إسلامهم، وفي إخلاصهم لله ودعوته، حسب الظاهر من أحوالهم!

ويقول كثير من الناس، في معركة الجدل القائمة بين جميع الأطراف: إنه لا بد

(١) سنتكلم عن موضوع التربية في موضع آخر من هذا الفصل.

من الحكم علي الناس بالإسلام أو الكفر، لنحدد موقفنا منهم، ونحدد كيف نتعامل معهم، سواء في التعامل اليومي، أو التعامل الحركي في الدعوة.

فأما ضرورة الحكم على مجموع الناس لتحديد موقفنا منهم، وطريقة تعاملنا معهم، فهو كلام نظري أكثر مما هو عملي!

فنحن في أكثر الأمور لا نتعامل - واقعيًا - مع المجتمع بأسره، إنما مع أفراد معينين منه، سواء كان تعاملًا اجتماعيًا في زواج ومصاهرة، أو تعاملًا ماليًا في بيع وشراء وتجارة، أو حركة بهذا الدين في مجال الدعوة. . وفي كل هذه المجالات نستطيع بسهولة أن «نتبين» من الذي نقيم علاقاتنا معه. . أما «المجتمع» بأسره، فمتى نتعامل معه على هذه الصورة وبهذه الصفة؟!

إننا نصف المجتمعات التي نعيش فيها اليوم بأنها «مجتمعات جاهلية» لأنها لا تُحْكَم ولا تُحْكَم بشريعة الله، إنما تُحْكَم وتُحْكَم بشرائع جاهلية من صنع البشر. ولكن هذا الوصف لا يلحق الأفراد الذين يعيشون في تلك المجتمعات، بل كل فرد له حكمه الخاص، حسب موقفه من المظلة الجاهلية التي تظله، فمن رضي بها فهو منها، ومن كرهها أو أنكرها فحكمه غير حكمها<sup>(١)</sup>.

وفي تعاملنا الفردي - في جميع المجالات - لا نتعامل مع المجتمع ككل، إنما نتعامل مع أفراد في ذلك المجتمع، نستطيع - كما قلنا - أن نتبين أحوالهم، ونقيم علاقاتنا معهم على أساس معرفتنا بأحوالهم.

أما في مجال التعامل الحركي في الدعوة، فالواقع أن الحركة - الآن - لها اعتبارات خاصة غير اعتبارات الكفر والإسلام. . فالحركة الآن تحتاج إلى بناء الأعمدة الراسخة قبل كل شيء<sup>(٢)</sup>. وهذا الأمر لا يصلح له أي إنسان ولو كان من المسلمين الخالص الذين لا شك عندنا في إسلامهم. فإن أبادر رضي الله عنه هو من أجلّة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وقد آمن إيمانًا راسخًا عميقًا بالإسلام وبالرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه حين رغب في التحرك بالدعوة لم

(١) انظر شرح هذه القضية في فقرة تالية في هذا الفصل بعنوان: «ماذا نتقلد من الوظائف في المجتمع الجاهلي».

(٢) أشرنا إلى هذا الأمر من قبل، وستعاود الحديث عنه حين نتكلم عن «منهج الحركة».



يأذن له الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل نصحه أن يبقى في قومه حتى يظهر هذا الأمر، أي حتى يتم التمكين للإسلام .

فتخيرنا الناس للحركة - أو إقامة علاقات معهم على أساس الحركة - لا يبنى على تصنيفنا الناس إلى مسلمين وكافرين . بل يتجاوز ذلك إلى الاختيار من بين المسلمين الخالص من نعتقد أنه يصلح لمرحلة البناء .

أما قضية «الولاء» والتناصر - على كل أهميتها في مجال العقيدة - فليس لها في أحوالنا الراهنة، في مجتمعاتنا المضطربة الحائرة المفككة، مدلول عملي واقعي حتى نشغل أنفسنا بتصنيف الناس من أجلها! فإلى أن يقوم مجتمع مترابط تحكمه شريعة الله، وتضبط كل تصرفاته ومنطلقاته، ستظل قضية الولاء في حقيقتها العملية الواقعية قضية فردية، أو قضية «تجمعات» قائمة داخل المجتمع الجاهلي الذي لا تربطه وحدة حقيقية .

ولسنا بعد دولةً حتى يكون لتصنيفنا للناس أثر واقعي في حياتهم، إذ نقيم حد الردة على المرتدين منهم . . . إنما نحن دعوة . . . ودعوة لكل الناس . . . وبكلام واحد نقوله لكل الناس . . . ثم نتخير من المستجيبين من نعتقد أنه يصلح لمرحلة البناء . أمر واحد تثيره بعض الجماعات قد تكون له وجاهة في ميزان الله، هو اختيار الإمام الذي يُصَلَّى خلفه . وفي هذا الصدد نقول كلمة صريحة: إننا لا نستطيع أن نكره أحداً على الصلاة وراء إمام لا يرتاح إليه . أما الحكم المسبق على ذلك الإمام بالكفر، بغير البينة القاطعة التي لا تحتمل الشك، فأمر غير جائز في شرع الله! (١) .

\* \* \*

بهذه الاعتبارات كلها لا أرى أن قضية الحكم على الناس هي قضية الساعة التي نتخاصم عليها ونفترق عندها . . . وأرى كذلك أنها قضية ستحل نفسها بنفسها خلال فترة من الزمن تعتبر قصيرة في حياة الأمم وفي حياة الدعوة - وإن استبطأها بعض الدعاة - لأن الحركة الدائبة - المفروضة فرضاً على الكتلة المتميعة - ستحوها

---

(١) جاء في المغني لابن قدامة (ج ٢ ص ٢٠٠، طبعة رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية): «إذا صل خلف من شك في إسلامه أو كونه خثنى، فصلاته صحيحة ما لم يبين كفره، وكونه خثنى مشكلاً، لأن الظاهر من المصلين الإسلام، سبياً إذا كان إماماً، والظاهر السلامة من كونه خثنى، سبياً من يؤم الرجال. فإن تبين بعد الصلاة أنه كان كافراً أو خثنى مشكلاً فعليه الإعادة . . .»

تدرجياً إلى فريقين متميزين، لكل منهما سيمها المتميزة التي يعرفها بها الناس، ولا يقع فيها الاختلاف: كفر صريح أو إيمان صريح . (١)

\* \* \*

ولكننا حين نلقى جانباً قضية الحكم على الناس في الوقت الحاضر، ينبغي أن نوجه اهتمامنا كله إلى تعليم الناس ما جهلوه من حقيقة الإسلام، وحقيقة لا إله إلا الله .

إننا إن تركناهم على جهالتهم لا نكون قد أدينا الأمانة التي في أعناقنا لله . والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم:

«يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته» (٢)

فإن لم نقم بتعليم الناس حقيقة لا إله إلا الله، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله، فلن نكون قد أدينا الأمانة، ولن نكون قد قمنا بالدعوة كما أمرنا الله في قوله تعالى:

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون» (٣)

كما أننا إن قلنا للناس: من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام - وهي قوله غلاة المرجئة - فقد خدعناهم عن حقيقة الإسلام، وزدناهم تميعاً إلى تميعهم، وأخرنا نضجهم وتميزهم، وأخرنا بالتالي قيام «القاعدة الإسلامية» التي لا يقوم بغيرها الحكم الإسلامي ولا يمكن له في الأرض، ونكون إلى جانب ذلك - بوعي أو بغير وعي - قد أعنا الطاغية على دعاة الإسلام: يقتلهم

---

(١) قلنا أنفاً إنه لا يوجد مجتمع في الأرض - ولا مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم - يتميز كله تميزاً كاملاً . فهناك دائماً «منافقون» في كل مجتمع . وحكم هؤلاء في المجتمع المسلم الذي يحكم بما أنزل الله أنهم مسلمون طالما كانوا يقولون لا إله إلا الله ويخضعون لشريعة الله ولا يخرجون عليها، فإن لم يخضعوا لشريعة الله اعتبروا مرتدين وإن نطقوا بالشهادتين .

(٢) سورة المائدة [٦٧] .

(٣) سورة آل عمران [١٠٤] .

ويذبّحهم وهو آمن من غضبة الجماهير، متلفع بالجهالة التي يسدر فيها الناس! كذلك إن قلنا لهم: من قال لا إله إلا الله فهو مسلم في الحياة الدنيا وحسابه على الله في الآخرة، فقد قدمنا لهم كلمة خادعة سنين في السطور التالية ما فيها من زيف وخديعة.. فضلا عن كونها - حتى لو كانت صحيحة - ليست هي الكلمة المناسبة لأحوال الناس الراهنة، حيث هم بعيدون كل البعد عن حقيقة الإسلام، وغارقون في الذل والهوان والضياع من جراء بعدهم عن هذه الحقيقة، فهم ليسوا في حاجة لمن يمدّ لهم في الذل والهوان والضياع والغفلة، إنما هم في حاجة لمن يوقظهم من غفلتهم، ليغيروا ما بأنفسهم، فيغير الله حالهم.. وليست مهمة الدعاة أن يعطوا الناس شهادات مزورة بالإسلام! ولا مهمتهم أن يبينوا للناس كيف يكونون مسلمين في الحياة الدنيا ولو كانوا ممن لا يقيم لهم الله يوم القيامة وزنا! إنما مهمتهم أن يبينوا للناس كيف يكونون مؤمنين حقيقة في ميزان الله، ومقبولين عنده يوم القيامة، أي أن مهمتهم أن يبينوا للناس حقيقة الإسلام - حقيقة التوحيد البريئة من الشرك - لا ما يحقق للناس مظهرية الإسلام في الحياة الدنيا!

وحتى مظهرية الإسلام في الحياة الدنيا فهي لا تتحقق بمجرد نطق لا إله إلا الله كما تزعم القولة الزائفة التي أشرنا إليها في السطور السابقة. إن قول لا إله إلا الله محمد رسول الله يدخل الناس في الإسلام، نعم، ويعطيهم صفة الإسلام في الحياة الدنيا. ولكن هذه الصفة لا تلتصق بأصحابها من تلقاء ذاتها - سواء كانت مظهرية أو حقيقية - ولا تظل لاصقة بهم طيلة حياتهم مهما فعلوا! إنما هي تحتاج إلى تثبيت دائم في كل لحظة، بعمل دائم يقوم به الإنسان في كل لحظة، ولا يكف عن القيام به في أية لحظة، هو التحاكم إلى شريعة الله في كل أمر من الأمور، وعدم التحاكم إلى غيرها في أمر من الأمور.

إنما يختلف الإسلام المظهري عن الإسلام الحقيقي لا في وجوب التحاكم إلى شريعة الله - فهو لازم لكل منها لكي تظل له صفة الإسلام في الحياة الدنيا - إنما يختلفان في أن صاحب الإسلام الظاهري يتحاكم إلى شريعة الله نفاقا، وهو في

الأخرة في الدرك الأسفل من النار، والمسلم الحقيقي يتحاكم إلى شريعة الله تصديقا وإيمانا وطاعة لله، فيدخله الله في جناته جزاء إيمانه وطاعته. . وفي الحاليين لا بد من التحاكم إلى شريعة الله، لكي تظل للإنسان صفة الإسلام. .

إنما يعتبر من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله مسلما في الحياة الدنيا - بصرف النظر عما في قلبه - في حالة قيام الدولة الإسلامية التي تحكم بشريعة الله، دون أن يطلب منه - مع نطق الشهادتين - أن يتعهد بالتحاكم إلى شريعة الله وعدم الإعراض عنها إلى غيرها، لأن ذلك بديهية من بديهيات لا إله إلا الله، يفترض في قائلها أنه مقرّ بها - حقيقة أو نفاقا! - ولأن سلطان لا إله إلا الله قائم في الأرض متمثل في تحكيم شريعة الله، ولا يفترض في ناطق الشهادتين - سواء كان مؤمنا أو منافقا - أن يخرج على هذا السلطان ويتمرد عليه، لأنه حينئذ يعتبر مرتدا ويقام عليه الحد!

أي أن الناطق بالشهادتين في ظل الحكم الإسلامي - سواء كان مؤمنا أو منافقا - يقرّ بأمرين في آن واحد (سواء اعتقد حقيقتهما في قلبه أم لم يعتقدها<sup>(١)</sup>) أحدهما يقرّ به نطقاً بلسانه، والآخر يقرّ به بواقع حاله. فأما الذي يقرّ به نطقاً بلسانه فهو أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وأما الذي يقرّ به بواقع حاله<sup>(٢)</sup> فهو أنه لا شريعة ينبغي أن تحكم إلا شريعة الله، وأنه لا شرعية لحكم غير حكم الله. .

فإن نكل عن إقراره بأن شريعة الله وحدها هي التي ينبغي أن تحكم - وهو الإقرار الذي لم ينطقه بلسانه، ولكنه متضمن فيما أقرّ به بلسانه - اعتبر مرتدا، وأقيم عليه حد الردة في ظل الحكم الإسلامي، ولو ظل يردد في اليوم مائة مرة أنه لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله! ولو كان الذي أعطاه صفة الإسلام هو مجرد النطق بالشهادتين، دون وجود لازم لهما، ولا مقتضى متضمن في نطقهما، فكيف يقام عليه الحد وهو ما يزال يردد الشهادتين؟!

إن إقامة الحد على المرتد بسبب إعراضه عن تحكيم شريعة الله، أو إنكاره شيئا

(١) يعتقدها المؤمن ولا يعتقدها الكافر المنافق.

(٢) الإقرار هنا معناه الالتزام.

منها - بينما هو مازال ينطق بالشهادتين - يؤكد قطعاً أنه لم يحصل على صفة الإسلام بمجرد النطق بالشهادتين، إنما بالنطق بالشهادتين من جهة، والإقرار المتضمن في نطقهما بالالتزام بشريعة الله من جهة أخرى. وأنه قد افترض فيه حين نطق بالشهادتين أنه ملتزم بمقتضاهما - وهو تحكيم شريعة الله - ولو لم يطلب منه أن يقر بلسانه بهذا الالتزام نصاً، لأنه من بديهيات لا إله إلا الله منذ كان في البشرية دين، ومنذ أرسل الله رسولا يقول الناس: لا إله إلا الله، ويقول لهم: اعبدوا الله مالكم من إله غيره!

وإلا فلو كان الأمر على غير ذلك. . لو كان النطق بلا إله إلا الله محمد رسول الله لا يتضمن إقراراً بالتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون سواها، وعدم الإعراض عنها إلى سواها. . فكيف يتصور من عدل الله سبحانه أن يعاقب إنساناً بالقتل في الحياة الدنيا، وبالعذاب المقيم في الآخرة على شيء لم يطلب منه الإقرار به ولا الالتزام به؟!!

هذا هو الحال حين تكون شريعة الله قائمة في الأرض، وهذه هي الكيفية التي يأخذ بها الناس صفة الإسلام في الحياة الدنيا، ولو كانوا في دخيلة أنفسهم كافرين منافقين: نطق لا إله إلا الله، محمد رسول الله، والخضوع لشريعة الله، وعدم الإعراض عنها إلى غيرها من الشرائع والنظم والأحكام. ويظل الفارق بين المنافق والمؤمن أن المنافق يتحاكم إلى شريعة الله نفاقاً بغير إيمان، أما المؤمن فيتحاكم إليها عقيدةً وطاعةً وطمعاً في الجنة والرضوان.

أما حين تكون شريعة الله غير قائمة في الأرض، فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم كيف يثبت الإنسان صفة الإسلام لنفسه، ولا يجعلها تسقط عنه. قال عليه الصلاة والسلام:

«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن. ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن. وليس وراء ذلك من الإيوان حبة خردل»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه مسلم.

وهكذا يتبين ارتباط لا إله إلا الله الوثيق بتحكيم شريعة الله، دائما في جميع الأحوال، سواء كانت دولة الإسلام قائمة في الأرض، أم كان القائمون بالحكم لا يحكمون بها أنزل الله (١).

وهذا الارتباط الوثيق هو الذي يجهله الناس، وهو الذي ينبغي للدعاة أن يعلموه إياه، أداءً للأمانة التي في أعناقهم لله، وفراراً من عذابٍ توعد به الله من يكتم حقائق هذا الدين:

«إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم» (٢)

«إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البيئات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون» (٣).

ولا نكون مؤدبين للأمانة ولا قائمين بالدعوة إن لم نبين للناس هذه الحقيقة: أن الذي يعتبر مسلما في الدنيا - ولا يجوز تكفيره ولو كان منافقا في الحقيقة، وحسابه على الله في الآخرة - هو الذي ينطق بالشهادتين ويعمل بمقتضاهما - أي يتحاكم إلى شريعة الله - كما قال الإمام الشهيد في رسالة التعاليم، وكما ينبغي أن نبين للناس في مقام التعليم. أما المؤمن الحقيقي فهو الذي يصنع ذلك عن إيمان وتسليم ورضا وإخلاص:

«فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» (٤).

## منهج الحركة

تختلف الجماعات العاملة اليوم في حقل الدعوة اختلافا واسعا حول منهج الحركة الواجب اتباعه في المرحلة الراهنة. وربما لم يكن هذا الخلاف قائما قبل ربع قرن

(١) انظر إن شئت فصل «مفهوم لا إله إلا الله» من كتاب «مفاهيم ينبغي أن تصحح».

(٢) سورة البقرة [١٧٤]. (٣) سورة البقرة [١٥٩].

(٤) سورة النساء [٦٥].

من الزمان . فقد كانت الحركة تسير على المنهج الذي رسمه الإمام الشهيد وأقام  
جماعته على أساسه، ولم تكن هناك في الساحة جماعات أخرى غير تلك الجماعة .  
ولكن الموقف اليوم يختلف . .

تعددت الجماعات، وتعددت وجهات النظر . . وتعددت المواقف بتعدد وجهات  
النظر . .

ولكن هناك أمرا مشتركا يجمع بين معظم هذه الجماعات وإن اختلفت مواقفها  
ومناهجها . . هو التعجل!

يقولون: مضى على الدعوة أكثر من نصف قرن . . ولم تنجح بعد . . أى لم  
تصل إلى الحكم لتحقيق ما تدعو إليه من تحكيم شريعة الله، وحل مشاكل المجتمع  
على أساس المنهج الرباني . .

وفي ذات الوقت يقولون: إن الشيوعيين ينجحون، وغيرهم من الأقليات التي  
ليس لها سند شعبي ولا حجم يذكر تصل إلى الحكم، والمسلمون لا يصلون!  
فلا بد أن هناك خطأ في منهج الحركة . . ولا بد من التغيير . . وعند هذه النقطة يبدأ  
الخلاف!

ولا بد لنا قبل أن نبحث المنهج الذي ينبغي اتباعه في المرحلة الراهنة، أن  
نصحح هذا التصور ذاته: هل يصح قياس الحركة الإسلامية على الحركات  
الشيوعية والعلمانية والأقليات التي تصل إلى الحكم وتقهّر الشعوب؟!!

إننا إن لم ندرك بادئ ذي بدء أن هذه الحركات لا تنجح بجهد ذاتي، ولا  
بثقلها الذاتي، إنما تُنَجِّحُ من الخارج، بتحريك أعداء الإسلام لها، وإعطائها  
السند اللازم لها، والقوة اللازمة لقهْر شعوبها وإذلالها . . لا نكون جديرين بالعمل  
في مجال الدعوة، لأن العمل يحتاج إلى البصيرة والوعي، وبغيرها لا يقوم عمل على  
الإطلاق، فضلا عن العمل الإسلامي:

«قل هذه سبيلي، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني»(١)

فإن أدركنا هذه البديهية، فينبغي أن ندرك بعدها - أو معها - حقيقة أخرى  
ما زالت تخفى على الكثيرين . .

(١) سورة يوسف [١٠٨].

فإذا كان لابد لكل حكم من سند يسنده لكي يقوم أولاً، ولكي يستمر في الوجود بعد ذلك. . فأين هو السند الذي يقيم الحكم الإسلامي في الوقت الحاضر، ثم يظل مسانداً له لكي يستمر في الوجود؟

وإذا كان الشيوعيون والعلمانيون والأقليات التي تصل إلى الحكم تقوم أساساً بتحريك أعداء الإسلام، وتستمر في الوجود بسندهم لها، فهل أعداء الإسلام - سواء روسيا أو أمريكا - سيسمحون بقيام حكم إسلامي فضلاً عن أن يسندوه إذا قام؟ أم إنهم يتربصون بالمسلمين ليمنعوهم من تحقيق وجودهم الإسلامي، كما يفعل الروس في أفغانستان، وكما تفعل أمريكا في كل البلاد الواقعة تحت نفوذها؟! لابد إذن - بدهاءة - أن يقوم السند للحكم الإسلامي من داخل الأمة المسلمة مادام لا يمكن أن يجيء من خارجها. . فهل هذا السند موجود في الحقيقة؟!!

إن الذين يقولون - بلا روية - نعم، يقعون في ذات الغلطة التي وقع فيها العمل الإسلامي أول مرة، وهي افتراض أن «القاعدة الإسلامية» قائمة بالفعل، وما علينا إلا أن نذكي الوجدان الديني، وندفعه للعمل، فينتهي الإشكال!

ونكون بهذا قد أضعنا أكثر من نصف قرن من العمل في ميدان الدعوة، دون أن نأخذ العبرة، ودون أن نكتسب الخبرة اللازمة لتكوين «البصيرة» المطلوبة. .

لقد أثبتت التجربة - سواء في مقتل الإمام الشهيد أو في مذبح السفاح - أن القاعدة التي توهمنا وجودها لم تكن موجودة بالفعل، وأنها في حاجة إلى الإنشاء من جديد. . وإنما الموجود هو جماعة أو جماعات قائمة بالعمل الإسلامي، وليس بينها وبين «الجهاهير» في الحقيقة «قضية مشتركة». . وإن حدث التعاطف العارض بين الجهاهير وبين هذه الجماعات حين تتعرض للقتل والتعذيب، أو حين تقع منها بطولات تهز مشاعر الجهاهير. .

إن هذا التعاطف العارض - أيّاً كان حجمه - أمر يختلف عن وجود «القضية المشتركة» بين هذه الجماعات وبين الناس. والقضية المشتركة التي ينبغي أن تكون، هي وجوب التحاكم إلى شريعة الله، ونبذ غيرها من الشرائع كما أمر الله: «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء. .»<sup>(١)</sup>.

(١) سورة الأعراف [٣].



«أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟»<sup>(١)</sup>.

وهذه القضية ماتزال - كما أثبتت التجربة - غير واضحة المعالم عند الجماهير. .  
نعم إن القاعدة الواعية لهذه القضية، العاملة من أجلها، قد أخذت تتسع ولا شك. . وذلك من المبشرات الموجودة في حقل الدعوة اليوم. . ولكنها ماتزال أضال بكثير من الحجم اللازم لإقامة الحكم الإسلامي، ومساندته لكي يستمر في الوجود.

إن حجم الانحراف الذي وقعت فيه الأمة خلال القرون - وفي القرن الأخير خاصة - أضخم بكثير مما يتصوره الكثيرون. إنه - كما بينا جيدا من قبل - ليس فسادا في السلوك فحسب، ولكنه فساد في التصور وفساد في السلوك. فساد في تصور كل المفاهيم الرئيسية للإسلام، بدءا بمفهوم لا إله إلا الله، الركن الأول والأعظم في هذا الدين. .

وتغيير حال هذه الأمة، وإرجاعها إلى حقيقة الإسلام، أمر لا يتم بالسهولة التي يتصورها كثير من الناس، إنها يحتاج - بحسب السنة الجارية - إلى وقت أطول بكثير، وجهد أكبر بكثير، مما تم حتى هذه اللحظة في جميع الميادين!

يحتاج أولا إلى تبيين الحقائق المجهولة من هذا الدين، بدءا بحقيقة لا إله إلا الله<sup>(٢)</sup>، ويحتاج ثانيا إلى تربية الناس على ما تقتضيه هذه الحقائق من سلوك واقعي في واقع الحياة. وهو جهد طويل طويل لا يمكن - بحسب السنة الجارية - أن يتم في سنوات قصار. . والسنوات التي مرت في الدعوة - بالقياس إلى عمر الأمم - قصار، جد قصار!

وهنا - وبصبر نافذ - يخرج المتعجلون - ومعظمهم من الشباب المتحمس - بسؤالين يصبان في النهاية في ملتقى واحد: وهل من المعقول أن نتظر حتى تربي الأمة كلها على الإسلام، وهو أمر لا يتحقق بالفعل؟ وكيف نربي والحكومات المعادية للإسلام تنقض علينا كل فترة من الزمن، كلما ربينا جيلا من الشباب أخذوه، فعذبوه وقتلوه وقضوا عليه؟!

فأما بالنسبة للسؤال الأول، فلم يقل أحد قط إنه ينبغي الانتظار حتى تربي

(١) سورة المائدة [٥٠].

(٢) انظر إن شئت كتاب «مفاهيم ينبغي أن تصحح».

الأمة كلها، فهذا أمر - بالفعل - لا يتحقق أبداً في واقع الأرض . ومجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن كله على القمة السامقة التي كان عليها أصحابه رضي الله عنهم، الذين رباهم على عينه، وتعهدهم برعايته . . بل هؤلاء أنفسهم لم يكونوا كلهم على مستوى واحد من العظمة والارتفاع، وقرن الرسول صلى الله عليه وسلم هو خير القرون على الإطلاق . . فما بالك بقرننا الحاضر!

إنما المقصود - كما أشرنا مرارا - أن تترى «القاعدة» التي تحمل البناء، بالحجم المعقول، وبأقرب شيء إلى المواصفات المطلوبة لهذا العمل الخطير . . خطيرا لا في حياة هذه الأمة فحسب، بل بالنسبة للبشرية كلها في زمننا هذا الذي نعيش فيه (١) .

وأما بالنسبة للسؤال الثاني فليس صحيحا ما يتصوره بعض الناس - في نظرهم المتعجلة - من أن أعداءنا يقضون على جهدنا كله، وعملنا كله، وكلما ربينا جيلا من الشباب أخذوه . .

إنهم بالفعل يعرِّقون الحركة عن الانطلاق . . أما القضاء على الحركة فهم أنفسهم لا يزعمون ذلك وإن تمنوه! إنما الذي يحدث دائما - بقدر من الله، وحسب سنة من سنن الله - أنه بعد كل مذبحة بشعة يقومون بها يأتي مد جديد من الشباب، وتتسع القاعدة على الدوام، برغم كل التعذيب الوحشي، وكل التقتيل والتشريد، بقدر من الله، وحسب سنة من سنن الله:

«سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا» (٢) .

\* \* \*

ويقول المتعجلون: لقد ربينا بما فيه الكفاية . . وأن الآوان أن «نعمل» . . وهذه القولة - على قصرها - تشتمل على قضيتين خطيرتين من قضايا العمل الإسلامي، تحتاج كل منهما إلى بيان:

الأولى: هل ربينا حقا بما فيه الكفاية؟ وما المعيار الذي نقيس به ما تم من التربية حتى اليوم، لنعرف إن كان كافيا أم إنه يحتاج إلى مزيد.

والثانية: ما نوع «العمل» المقصود، الذي يفكر فيه المتعجلون؟

(١) ستعرض لهذه النقطة في الفصل القادم «نظرة إلى المستقبل» .

(٢) سورة الفتح [٢٣] .

وأبدأ بالقضية الثانية لأنها قد تكون أيسر بيانا من الأولى ، لأنها محددة في أذهان أصحابها، أما الأولى فما تزال تحتاج إلى تحديد .

هناك نوعان رئيسيان من التفكير، ونوعان من «العمل»، يفكر فيهما المتعجلون بحسب كونهم من الشباب أو من الشيوخ، بالإضافة إلى لون ثالث سنتحدث عنه، وإن كان لا يمثل حتى الآن «ظاهرة» في ساحة العمل الإسلامي، ولكن أصحابه يحاولون أن يجعلوا منه تلك الظاهرة، ويحاولون أن يحولوا العمل الإسلامي كله إليه . .

فأما الشباب - الذين تملؤهم الحماسة وتدفعهم إلى التعجل - فتفكيرهم هو وجوب الوصول إلى الحكم بالقوة، وتربية الأمة من موقع السلطة لا من موقع الدعوة، لأن التربية من موقع الدعوة أمر يطول به الزمن ويطول به الطريق، بسبب وقوف الأعداء بالمرصاد، وتوعيقهم المستمر للحركة الإسلامية، وتشيتها كلها أرادت أن تتجمع . .

وأما الشيوخ - الذين أجهدهم المشوار الطويل، والضربات المتوالية على الطريق - فتفكيرهم هو الدعوة «السلمية» التي لا تصطدم مع السلطة أبدا، والتي تتخذ جناحا من أجنحتها الدخول في البرلمانات والانتخابات، ومحاولة التأثير على مجرى السياسة من داخله، أو على الأقل إعلان صوت الإسلام من داخل الأجهزة السياسية التي تسيطر اليوم على حياة الناس، حتى يكون لهذا الصوت وقع في حس الناس .

ونحن نفترض - بادئ ذي بدء - الإخلاص الكامل في كل من الفريقين (والفريق الثالث كذلك الذي سنتكلم عنه فيما بعد) . . ولكن الإخلاص وحده لا يكفي! بل لابد معه من البصيرة، لأن عدم البصيرة حربي أن يفسد ثمرة الإخلاص!

ونعيد ما قلناه من قبل . . إن الحكم الإسلامي لن يتلقى سندا من أعداء الإسلام في الخارج - لا من روسيا ولا من أمريكا. لا من الصليبية ولا من الصهيونية، ولا من معسكر الشرك كله - فلا بد أن يكون سنده من الداخل . . فأين هي «القاعدة الإسلامية» التي تسند الحكم حين يقوم، وتسنده بعد ذلك لكي يستمر في الوجود؟

نفترض جدلاً أن مجموعة من الشباب المتحمس قد أحكمت التدبير، فقامت «بانقلاب»، وأقامت حكومة إسلامية في أي بقعة من العالم الإسلامي . . فمن يسندها؟!!

ولنأخذ مصر مثلاً . . وقد تحدثنا عن «التجربة المصرية» من قبل . . «والقاعدة الإسلامية» في مصر هي أوسع قاعدة حتى الآن في العالم الإسلامي كله - فيما عدا أفغانستان - فهل تكفي هذه القاعدة لسند الحكم الإسلامي، وحمایته من العدوان الصليبي الصهيوني المتوقع في جميع الأحوال؟

ولنفترض أن روسيا لم تتدخل بانقلاب شيوعي (بموافقة أمريكا أو تحريضها) كما حدث في أفغانستان، وأن أمريكا لم تتدخل بعدوان مباشر كما تحدثنا نفسها الشريرة في بعض الأحيان، ولا حرّضت إسرائيل على العدوان كما تفعل في كل الأحيان . . وإنما فقط مُنِعَ القمح عن الشعب المصري!

هل يصبر الشعب المصري - في حالته الراهنة - على الجوع من أجل إقامة الحكم الإسلامي؟ أم تسير المظاهرات - بقيادة الشيوعيين والعلمانيين والمليحين، ومن ورائها «الجهاهير» الجائعة - تقول: نريد الخبز والحرية؟!

فلنكن واقعيين . . ولنقل إن «القاعدة الإسلامية» لم تزل بعد أصغر من حجم العمل المطلوب!

إنما يحتاج الأمر إلى قاعدة مثل القاعدة الموجودة في أفغانستان، تستطيع القتال وتستطيع الصمود الطويل لكيد الأعداء. فبعد ستة أعوام كاملة من الوحشية الروسية البشعة - ولا نقول الحرب، ولا نقول العدوان - ما يزال الموقف على ما كان عليه في أول لحظة. المجاهدون في الجبال والروس في الوديان! ويغير المجاهدون بين الحين والحين على الوديان، بينما الروس لا يجرؤون على اقتحام الجبال! ويقاتل المقاتلون لا بالأسلحة «التقليدية» بل بأسلحة من بقايا الحرب العالمية الأولى تعتبر اليوم «أثرية» ويقتات الواحد منهم بحفنة أرز في اليوم والليلة!<sup>(١)</sup>.

أما قبل أن تكون القاعدة على هذا النحو، فكل محاولة للصدام مع السلطة للوصول إلى الحكم عبث غير مبني على بصيرة ولا تدبر . . وقمته هو ما حدث في

---

(١) عن دلالة الحرب الأفغانية وتوقعاتها لها، نتحدث في الفصل القادم إن شاء الله: «نظرة إلى المستقبل».

مذبحة حماة . . نموذجاً بارزاً ينبغي أن تتدبره الحركة الإسلامية جيداً لتعرف كل أبعاده، ولا تقع في مثله مرة أخرى مهما كانت الأسباب .

فإن قال المتعجلون من الشباب : من أين لنا قاعدة كالقاعدة الأفغانية؟ وكيف نعد «بلا عمل» حتى تتكون مثل تلك القاعدة؟ فنقول إن القاعدة تتكون، ببطء، نعم، ولكنها تتسع على الدوام، ولا تتوقف عن النمو، وينضم لها على الدوام شباب جديد، يعلم سلفاً عقبات الطريق، وعذابات الطريق، فيوطن نفسه على ملاقاتة الموت، واحتمال العذاب، ويوطن نفسه كذلك على المشوار الطويل . . وذات يوم - لا يعلمه إلا الله سبحانه - ستنتزع القاعدة وتتسع، وتصبح بندقية صعبة الكسر . . وعندئذ - بسنة من سنن الله الجارية - سيدخل الناس فيها أفواجا، وسيجد العدو نفسه لا أمام جماعة منعزلة يحصدها حصداً وهو مطمئن، إنها أمام أمة قد اجتمعت على إرادة موحدة . . فيجري قدر الله بما تفرح به قلوب المؤمنين . .

أما القول بأن الشباب سيقعد «بلا عمل» حتى تتكون تلك القاعدة، فهو صادر عن تصور معين للعمل، يملأ قلوب هؤلاء الشباب وأفكارهم، فلا يتصورون «العمل» إلا حمل السلاح وملاقاتة الأعداء! ويتصورون أي شيء غير ذلك قعوداً بلا عمل!

ف نقول لهم : من إذن الذي سيبنى القاعدة؟! إن لم يكن هؤلاء الشباب أنفسهم؟! وكيف يكونون بلا عمل إذا كانوا منهمكين في البناء؟!!

إنما تصدر هذه القولة عن الشباب المتعجل نتيجة أمرين معا: عدم إدراك الأبعاد الحقيقية المطلوبة لعملية التربية، والاعتقاد - من ثم - بأن التربية قد تمت، وأنها ينبغي إذن أن تنتقل إلى الخطوة التالية، وهي حمل السلاح وملاقاتة الأعداء . .

ونريد أن نتكلم عن التربية، لنوضح أبعادها المطلوبة بالنسبة للجيل الذي يواجه الجاهلية أول مرة، وبالنسبة لمجموع الأمة كذلك - أو من يستجيب للتربية منها - ولكننا نريد قبل ذلك أن نتعرف على الفريقين الآخرين من المستعجلين، لأن حديث التربية لازم للجميع؛ للمتعجلين من الشباب والشيوخ، والفريق الثالث الذي سنتكلم عنه فيما بعد، وللعاملين في ميدان التربية على حد سواء . .

ولنتذكر بادئ ذي بدء أن شيوخ اليوم هم أنفسهم بقية شباب الجيل الأول

المتعجل! الذي كان يعتقد أن «العمل» قد وجب، وأنها ضربة قوية أو مجموعة ضربات، فيخر الطغاة هذا، ومحكم الإسلام!  
وقد تخلى من أولئك الشباب من قبل من تخلى . . ولكن هؤلاء الشيوخ هم الذين بقوا ولم يتخلوا . .

نعم، لم يتخلوا . . ولكنهم يعتقدون أن الدعوة قد وصلت إلى طريق مسدود . . وأنه يجب - من ثم - تغيير الطريق!

والسبب في هذه الرؤية من جانبهم واضح . فقد كانوا تربوا على أنهم هم الذين سيضربون الضربة الأولى، أو مجموعة الضربات، ثم تتجلى الضربة عن هزيمة العدو، وانتصار الإسلام . . في سنوات معدودات . .

وقد وجدوا أنهم هم الذين يُضربون المرة بعد المرة على امتداد السنوات، وأن الأعداء هم الذين يكسبون الجولة، بينما لا يصنعون هم شيئاً إلا تلقى الضربات . ومن ثم فإن الطريق - كما تصوره - يبدو مسدوداً بالفعل، ولا يؤذن بانفتاح قريب . . فلا بد - في حسهم - من البحث عن طريق غير مسدود.

والطريق الذي يظنونه موصلاً هو الذي أشرنا إليه من قبل: دخول البرلمانات والانتخابات، وإعلان صوت الإسلام من هناك، مادام لا يُسْمَح بإعلانه من غير هذا الطريق . .

وكما ناقشنا الشباب المتعجل، الذي يدعو إلى حمل السلاح وملاقاة العدو، ورأينا - على ضوء الواقع، وعلى ضوء ما حدث في حماة - أن الصدام مع السلطة قبل تكوّن «القاعدة المسلمة» ذات الحجم المعقول، عبث لا يجني منه العمل الإسلامي إلا ما جناه في حماة . .

كذلك ناقش الشيوخ المتعجلين، الذين يظنون أنهم يركون العمل الإسلامي بولوج هذا الطريق غير المسدود، ويصلون عن طريقه إلى تحقيق الأمل المنشود . . نقول لهم نفس الشيء . . إن استخدام هذا الطريق عبث لا يؤدي إلى نتيجة قبل تكوّن «القاعدة المسلمة» ذات الحجم المعقول! ولنفرض جدلاً أننا توصلنا إلى تشكيل برلمان مسلم مائة في المائة . . كل أعضائه يطالبون بتحكيم شريعة الله! فماذا يستطيع هذا البرلمان أن يصنع بدون «القاعدة المسلمة» التي تسند قيام الحكم الإسلامي، ثم تسند استمراره في الوجود بعد قيامه!؟

انقلاب عسكري يحل البرلمان، ويقبض على أعضائه فيودعهم السجون  
والمعتقلات، وينتهي كل شيء في لحظات!!

إنه تفكير ساذج رغم كل ما يقدم له من المبررات . . وفوق ذلك فهو يحتوي على  
مزالق خطيرة تصيب الدعوة في الصميم، وتعوّقها كثيرا على الرغم مما يبدو - لأول  
وهلة - من أنها تمكن لها في الترية وتعجل لها الخطوات!  
المزلق الأول هو المزلق العقيدي . .

فكيف يجوز للمسلم الذي يأمره دينه بالتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون  
سواها، والذي يقول له دينه إن كل حكم غير حكم الله هو حكم جاهلي، لا يجوز  
قبوله، ولا الرضى عنه، ولا المشاركة فيه . . كيف يجوز له أن يشارك في المجلس  
الذي يشرع بغير ما أنزل الله، ويعلن بسلوكه العملي - في كل مناسبة - أنه يرفض  
التحاكم إلى شريعة الله؟!

كيف يجوز له أن يشارك فيه، فضلا عن أن يقسم يمين الولاء له، ويتعهد  
بالمحافظة عليه، وعلى الدستور الذي ينبثق عنه، والله يقول سبحانه:

«وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها، ويستهزأ بها،  
فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذن مثلهم . .»<sup>(١)</sup>.

وهؤلاء حديثهم الدائم هو مخالفة شريعة الله، والإعراض عنها؛ ولا حديث لهم  
غيره ينتظره المنتظر حتى يخوضوا فيه! . . فكيف إذن يقعد معهم؟!

كل ما يقال من مبررات: أننا نسمعهم صوت الإسلام . . أننا نعلن رفضنا  
المستمر للتشريع بغير ما أنزل الله . . أننا نتكلم من المنبر الرسمي فدعوا إلى تحكيم  
شريعة الله . .

كل ذلك لا يبرر تلك المخالفة العقيدية الواضحة . .  
يقولون: ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يذهب إلى قريش في ندوتها ليلبغها  
كلام الله؟!

بلى! كان يذهب إليهم في ندوتهم لينذرهم . . ولكنه لم يكن يشاركهم في  
ندوتهم!

(١) سورة النساء [١٤٠].

ولو أن مسلماً يدعو إلى تحكيم شريعة الله، استطاع أن يذهب إلى ندوة الجاهلية المعاصرة، ويُسمح له بالكلام فيها كما كانت تُسمح الجاهلية الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لكان واجبا عليه أن يذهب وأن يبلغ، لأنه في هذه الحالة لا يكون «عضوا» في الندوة، إنما هو داعية من خارجها، جاء يدعوها إلى اتباع ما أنزل الله، فلا الندوة تعتبر منها، ولا هو يعتبر نفسه من الندوة. . . إنما هو مبلّغ جاء يلقي كلمته ثم يمضي. . .

أما المشاركة في «عضوية» الندوة بحجة إتاحة الفرصة لتبليغها كلمة الحق، فأمر ليس له سند من دين الله!

والمزلق الثاني هو تميع القضية بالنسبة «للجماهير» . . .

إننا نقول للجماهير في كل مناسبة إن الحكم بغير ما أنزل الله باطل، وإنه لا شرعية إلا للحكم الذي يحكم بشريعة الله. . . ثم تنظر الجماهير فترانا قد شاركنا فيما ندعوها هي لعدم المشاركة فيه! فكيف تكون النتيجة؟!

وإذا كنا نحن نجد لأنفسنا المبررات للمشاركة في النظام الذي نعلن للناس أنه باطل، فكيف نتوقع من الجماهير أن تمتنع عن المشاركة، وكيف تنشأ «القاعدة الإسلامية» التي يقوم عليها الحكم الإسلامي، القاعدة التي ترفض كل حكم غير حكم الله، وترفض المشاركة في كل حكم غير حكم الله!

إننا نحسب أننا بدخولنا البرلمان، نقوم «بعمل» يسر قيام «القاعدة الإسلامية»، لأنه يدعو إليها من فوق المنبر الرسمي، الذي له عند الناس رنين مسموع. ولكننا في الحقيقة نعوق قيام هذه القاعدة بهذا التميع الذي نصنعه في قضية الحكم بما أنزل الله. . . فلا يعود عند الجماهير تصور واضح للسلوك «الإسلامي» الواجب في هذه الشؤون. . . ولن تكون القاعدة بالحجم المطلوب لقيام الحكم الإسلامي حتى ينضج وعي الجماهير، وتعلم علم اليقين أن عليها - عقيدة - أن تسعى لإقامة الحكم الإسلامي وحده دون أي حكم سواه، وألا تقبل وجود حكم غير حكم الله.

والمزلق الثالث أن لعبة «الدبلوماسية» كما أثبتت تجارب القرون كلها، لعبة يأكل القوى فيها الضعيف، ولا يتاح للضعيف من خلالها أن «يغافل» القوى فينتزع من يده شيئا من السلطان!



والقوة والضعف - في لعبة الدبلوماسية - لا علاقة لها بالحق والباطل! ولا علاقة لها بالكثرة والقلة!

فالأقلية المنبوذة من الشعب، المكروهة منه، التي تسندها في الداخل القوة العسكرية، وتسندها من الخارج إحدى القوى الشيطانية الموجودة اليوم في الأرض هي القوية، ولو لم يكن لها أنصار. . والأكثرية المسحوقة المستضعفة هي الضعيفة، ولو كانت تمثل أكثرية السكان!

ومن ثم فالجماعات الإسلامية - الداخلة في التنظيمات السياسية لأعداء الإسلام - هي الخاسرة في لعبة الدبلوماسية، والأعداء هم الكاسبون! سواء بتنظيف سمعتهم أمام الجماهير، بتعاون الجماعات الإسلامية معهم، أو تحالفها معهم، أو اشتراكها معهم في أي أمر من الأمور؛ أو بتميع قضية الإسلاميين في نظر الجماهير، وزوال تفردهم وتميزهم الذي كان لهم يوم أن كانوا يقفون متميزين في الساحة، لا يشاركون في جاهلية السياسة من حولهم، ويعرف الناس عنهم أنهم أصحاب قضية أعلى وأشرف وأعظم من كل التشكيلات السياسية الأخرى، التي تريد الحياة الدنيا وحدها، وتتصارع وتتكالب على متاع الأرض. . ولا تعرف في سياستها الأخلاق الإسلامية ولا المعاني الإسلامية. . فضلا عن مناداتها بالشعارات الجاهلية، وإعراضها عن تحكيم شريعة الله. . ولم يحدث مرة واحدة في لعبة الدبلوماسية أن استطاع المستضعفون أن يديروا دفة الأمور من داخل التنظيمات السياسية التي يديرها أعداؤهم، لأن «الترس» الواحد لا يتحكم في دوران العجلة، ولكن العجلة الدائرة هي التي تتحكم في «التروس»! وما يحدث من «إصلاحات» جزئية عارضة في بعض نواحي الحياة على يد «الإسلاميين» لا تطيقه الجاهلية ولا تصبر عليه، وسرعان ما تمحوه محوًا وتبطل آثاره. . وتظل الآثار السيئة التي ينشئها تميع القضية باقية لا تزول، وشرها أكبر بكثير من النفع الجزئي الذي يتحقق بهذه المشاركة، حتى لكانها ينطبق عليه قوله تعالى:

«فيها إثم كبير ومنافع للناس، وإثمها أكبر من نفعها»<sup>(١)</sup>

أما توهم من يتصور أن الجاهلية تظل غافلة حتى يتسلل الإسلاميون إلى مراكز

(١) سورة البقرة [٢١٩].

السلطة، ثم - على حين غفلة من أهلها - يتزعون السلطة ويقيمون الحكم الإسلامي، فوصفه بالسذاجة قد لا يكفي لتصويره! وتجربة السودان تكفى - فيما أعتقد - لإبطال هذا الوهم - إن كان له وجود حقيقي في ذهن من الأذهان .

\* \* \*

أما الفريق الثالث من المتعجلين فهم أصحاب «التفكير العلمي» و«الدراسات العلمية»!

وقد نبت هذا الاتجاه أو تركز عند الشباب العربي المسلم الذي يعيش في أمريكا، وإن كانت له جذور مشابهة أو مماثلة عند غيرهم ممن يعيش في أوروبا أو في «العالم القديم»!

يقول أصحاب هذا الاتجاه إن «التجربة الشرقية» قد استنفدت أغراضها، ووصلت إلى طريق مسدود . . . وإنه آن الأوان أن تتسلم قيادة العمل الإسلامي عقول جديدة، تفكر بطريقة جديدة . . . تفكر تفكيراً علمياً، مبنياً على دراسات علمية، فتقدم للناس الحلول العملية لمشكلاتهم، مستمدة من الإسلام . . . وهذا هو الطريق!

ومن كل قلوبنا نتمنى للقيادة الجديدة التوفيق . . . ولكننا نتدارس معهم مدارس «علمية» و«واقعية» في مزالق هذا الطريق . . .

إن تصور أن كل الذي ينقص الناس هو معرفة الحلول الإسلامية لمشكلاتهم، وأنهم إن عرفوا ووثقوا واطمأنوا أن الحلول الإسلامية أفضل من الحلول الرأسمالية والاشتراكية، ووثقوا بأنها حلول عملية لا نظرية، ولا دعائية، ولا خطابية، فسيقبلون لتوهم على الإسلام، ويقيمون لتوهم حكومة إسلامية . . .

إن هذا التصور قد نشأ - على الأرجح - من حياة أولئك الشباب في ظل الديمقراطية الغربية، حيث الحرية متاحة لكل الناس أن يفكروا، وأن يجربوا، وأن يدعوا، وحيث يوجد احتمال - ظاهري على الأقل - أنه حين يقتنع الناس بشيء فإنهم يسعون إلى تطبيقه في عالم الواقع، ويتمكنون - عن طريق الأجهزة الديمقراطية - من تنفيذه (١).

---

(١) من العجيب أن يبارس هؤلاء الشباب الحياة في أمريكا ثم يغفلون عن الحقيقة الكبرى هناك، وهي أن اليهودية العالمية هي التي تحكم من خلال الديمقراطية . . . وأن أي فكر مخالف لمصالحها لا يتاح له أن يتحول إلى واقع عملي!

ونفترض جدلا أن كل الذي ينقص الناس في «العالم القديم» هو معرفة الحلول الإسلامية العملية لمشكلاتهم، وأنهم إن اطمأنوا ووثقوا أن الإسلام يقدم لهم حولا عملية أفضل مما تقدم الرأسمالية والاشتراكية، فسيسعون بالفعل لإقامة الحكم الإسلامي . .

نفترض هذا . . ونسقط كل الدلالة المرة التي يدل عليها مرور مقتل الإمام الشهيد ومرور مذابح السفاح هينة على قلوب الناس، لأن وعيهم بأن تحكيم شريعة الله جزء من عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله، مازال ناقصا جدا، ومازال في حاجة إلى بيان طويل ودعوة وتربية، حتى تصحح العقيدة إلى صورتها الربانية الحقيقية التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله . .

نفترض هذا . . ونفترض أنه بمجرد أن تعرض عليهم الأبحاث العلمية المتضمنة للحلول الإسلامية العملية سيقنعون بالإسلام، وبضرورة «الحل الإسلامي»، ويسعون إلى التطبيق، أو يطالبون بالتطبيق . . فماذا تكون النتيجة؟ هل تقول روسيا وأمريكا إنه مادام المسلمون قد اقتنعوا عن طريق الدراسة العلمية والتفكير العلمي بضرورة إقامة حكومة إسلامية فدعوهم وشأنهم! وليقيموا حكمهم الإسلامي الذي ينشدون؟! أم إنها ستكلفان عملاءهما - كما تفعلان الآن - بتذبيح المسلمين وتقتيلهم، وتشريدهم وتعذيبهم، لكي يتخلوا عما هم مقدمون عليه من إقامة حكومة إسلامية في الأرض!؟

وعندئذ . . هل يكفي «الاقناع» وحده، و«التفكير العلمي» وحده، لمواجهة التعذيب الوحشي الذي يصب على المسلمين المطالبين بتحكيم شريعة الله؟ أم يحتاج الأمر إلى «عقيدة»؟ . . العقيدة التي تقول إنها قضية كفر وإيمان لا قضية الحل «الأفضل» . . قضية جنة ونار، لا قضية مشكلات عملية في الحياة الدنيا تحتاج إلى حل! والتي يستيقن الناس بها أنهم لا يكونون مؤمنين، ولا يتقبلهم الله يوم القيامة إذا أرادوا التحاكم إلى غير شريعة الله، أو رضوا بحكم غير حكم الله . . ولا شك أن الإسلام هو دين الدنيا والآخرة. وأنه ليس عقيدة فحسب، إنما هو عقيدة ومنهج كامل للحياة، محسوب فيه كل احتياجات البشرية في الحياة الدنيا،

بل محسوب فيه أن ترتفع الحياة البشرية عن مستوى الضرورة، وتصل إلى درجة «الجمال» ودرجة «الإحسان» في كل شيء:

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته!»<sup>(١)</sup>.

وأنه يقدم لتلبية هذه الاحتياجات وتنميتها وترقيتها أفضل منهج وأحسنه:

«أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟!»<sup>(٢)</sup>

صحيح هذا كله . . ولكن لأمر ما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقيم الاعتقاد الصحيح أولاً، ويحلي للناس حقيقة الألوهية، ويبين لهم أن الالتزام بما جاء من عند الله من أمر ونهي هو مقتضى هذه العقيدة الذي لا تصح بدونه، ثم - بعد ذلك - أنزل «الحلول العملية» لمشكلات البشرية، وجعل الالتزام بها قضية كفر وإيمان، وقضية جنة ونار:

«فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك . . .»<sup>(٣)</sup>

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»<sup>(٤)</sup>

«اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء»<sup>(٥)</sup>

«أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله»<sup>(٦)</sup>.

فإن نحن قدمنا «الحلول العملية» للناس قبل أن يستقر في خلدكم - إلى درجة اليقين - أن التزامهم بشريعة الله أو عدم التزامهم بها هو قضية الإيمان والكفر. قضية الجنة والنار. . فهل يتم الأمر على الصورة التي يتخيلها الباحثون؟!

وما القول في الذين يقولون لك - وهم كثير - بعد أن تقنعهم عن طريق البحث العلمي والدراسة العلمية أن الحل الإسلامي هو الأفضل، يقولون لك: اقتنعنا! وما كنا نتصور - والله - أن الإسلام بهذه العظمة وهذا الشمول وهذه القدرة على

---

(١) رواد مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه (أنظر فصل «وليرح ذبيحته» من كتاب «قياسات من الرسول»).

(٢) سورة المائدة [٥٠].

(٣) سورة النساء [٦٥].

(٤) سورة المائدة [٤٤].

(٥) سورة الأعراف [٣].

(٦) سورة الشورى [٢١].

تقديم الحلول العملية لمشكلات الناس! هلموا! أقيموا الدولة الإسلامية، وحين  
تقيمونها ستجدوننا أول المستجيبين!

هل تقوم الدولة الإسلامية على هذه الصورة؟!!

إن الاقتناع العقلي وحده لم يغير قط شيئاً في عالم الواقع، حتى في أوقات السلامة  
والأمن، فضلاً عن حالات الاضطهاد الوحشي! وهذه هي «الفلسفة» منذ سقراط  
وأرسطو إلى وقتنا الحاضر. . هل غيرت شيئاً في واقع الأرض؟ إلا أن تكون عقيدةً  
أو مرتكزة على عقيدة، فعندئذ تكون العقيدة هي التي تغير واقع الناس. .

والذي أثبتته التجربة في «العالم القديم» أن هذه العقيدة هي التي تحتاج قبل  
شيء إلى تصحيح. . لأنها فرغت من محتواها خلال الأجيال، وفي القرن الأخير  
خاصة، فأصبحت في حاجة ملحة إلى بيان حقيقتها، ثم تربية الناس على مقتضى  
هذه الحقيقة حتى يصبح سلوكهم العملي في كل المجالات - ومن بينها مجال  
السياسة والحكم، والاجتماع والاقتصاد، والعلم والفكر - مطابقاً لمقتضيات لا إله  
إلا الله. .

ونحن مع ذلك لا نقول للباحثين العلميين لا تبحثوا! بل نحن نفرح بكل بحث  
متعمق يظهر من حقائق الإسلام ما كان خافياً من قبل. . ولكن فيم يكون  
البحث؟ وعلى أي نحو يكون؟

إن هناك في الحياة البشرية - وفي الإسلام كذلك - ثوابت ومتغيرات.  
هناك أمور ثبتها الله سبحانه وتعالى وأمر بتثبيتها على صورتها في حياة الناس،  
كعقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله - بمعناها الشامل المتكامل الذي نزلت به  
من عند الله، والذي يشتمل فيما يشتمل على الالتزام بكل ما جاء من عند الله -  
والعبادات بجملتها وتفصيلاتها، والحدود، وغير ذلك مما فصله الفقهاء.  
وهناك أمور متغيرة أذن الشارع بالاجتهاد فيها، ولكنه قيدها - في غيرها الدائم  
- بمحاور ثابتة أو أصول ثابتة، لا يجوز أن تحيد عنها في أثناء تغييرها ونموها بما يلائم  
ما يجد من أمور في حياة الناس.

فحين نبحث اليوم بحثاً علمياً في الحلول الإسلامية الواقعية للمشاكل الحاضرة  
ففي أي شيء نبحث: في المحاور الثابتة أم في التفصيلات المتغيرة؟  
أما البحث في المحاور الثابتة فواجب، وهو جزء من الفقه اللازم لهذا الدين.

وكلما اتسع علم الناس بحقائق دينهم كان ذلك أوفق لهم، وأحرى باستقامة طريقهم . .

أما المتغيرات - وخاصة في المشاكل الاقتصادية التي هي عقدة العقد في حياة الناس اليوم - فحين نبحث فيها، فلننقد البحث على وجه التحديد؟ وعلى «مقاس» مَنْ نقيم البحث؟ أو بعبارة أخرى: على أساس احتياجات أي قوم من الأقاليم، وأي زمان من الأزمان؟!

نحن الآن في عام ١٤٠٦ من الهجرة (١٩٨٦ من الميلاد) فحين نقوم ببحث اقتصادي نبرز فيه مقدرة الإسلام على حل المشاكل الاقتصادية بصورة عملية أفضل مما تقدمه الرأسمالية والاشتراكية . . فلننقد تقدمه؟ للمسلمين؟ أم لغير المسلمين من سكان أوروبا وأمريكا؟!

وقد يبدو السؤال لأول وهلة غير ذي موضوع! فنحن نقوم بأبحاثنا ونقدمها - بداهة - للمسلمين! ولكننا نقصد السؤال حقيقةً لننبه القيادة الجديدة إلى أمر لسنا ندرى مدى تبينها له .

فأين هم المسلمون اليوم - على وجه الأرض كلها - الذين سيطبقون محتويات هذا البحث لينقذوا اقتصادهم من حمأة الجاهلية ويضعوه على قاعدة إسلامية؟! ولنذكر أن بحثنا ليس في النظرية، وإنما هو في التطبيقات . . فإذا لم يكن هناك الآن من يطبق، فأين عبث نقوم به حين نصرف جهدنا ووقتنا وطاقتنا في استنباط حلول عملية غير قابلة للتطبيق في عالم الواقع، لا لأنها هي في ذاتها غير قابلة للتطبيق، ولكن لأن المطبقين لم يوجدوا بعد، أو لم توجد لديهم بعد القدرة على التطبيق؟!!

ولقائل أن يقول ولا شك: نحفظ به ليكون جاهزا عند قيام الدولة الإسلامية، فتطبقه على الفور، مدروسا مفحوصا موثقا مفضلا، بدلا من أن تقع في الحيرة عند قيامها، ويبدو أمام العالم كله عجزها عن حل مشاكلها بمقتضى نظامها وعقيدتها . .

وهذا القول الذي يبدو وجيها لأول وهلة، هو عارٍ عن الوجاهة من الناحية العلمية البحتة!

فهل يعلم أحد على وجه اليقين - أو حتى على وجه التخمين - متى تقوم الدولة الإسلامية المنشودة؟!

وهل يستطيع أحد على وجه اليقين - أو حتى على وجه التخمين - أن يقول كيف تكون صورة المشكلات الاقتصادية يوم تقوم الدولة المنشودة؟!  
فأي عبث في أن نبحث - الآن - تفصيلات الحلول العملية لمشكلات زمن لا نعرف على وجه التحديد متى يكون، ولا نعرف على وجه التحديد كيف سيكون حجمها وشكلها يوم نحاول أن نواجهها بالحل الإسلامي؟!

إن المشكلات الاقتصادية بالذات هي أشد المتغيرات تغيرا في عالمنا المعاصر . . فلو قلنا إننا نتوقع قيام الدولة الإسلامية خلال عشر سنوات من اليوم - وهو قول لا يسنده أي دليل «علمي» - فهل نضمن - من الوجهة العلمية - أن مشكلات اليوم - التي نقيم بحوثنا على أساسها - ستظل على صورتها عشر سنوات فقط، حتى نجهز لها الحلول العملية من الآن؟!

فإذا افترضنا أن الدولة الإسلامية تستغرق في قيامها ربع قرن أو نصف قرن، وهو أيضا رجم بالغيب لا يستند إلى أدلة «علمية» حقيقية، فهل تبقى المشاكل الاقتصادية مجمدة على صورتها التي نبحثها اليوم، حتى نهيء لها الحلول الجاهزة التي تستخدمها الدولة فور قيامها؟!

بل هل نحن على يقين من أن مشكلات الدولة الإسلامية - حين تقوم في أي لحظة - ستكون هي بذاتها مشكلات العالم الرأسمالي الحاضرة، وهي نواة أبحاثنا كلها حتى الآن؟!

مازلت أذكر مؤتمرا اقتصاديا إسلاميا ضخما عقد من أجل البحث في مشكلة التأمين من الوجهة الإسلامية، وهل هو حلال أم حرام، وما الصورة الإسلامية التي يمكن أن يكون عليها لو أردنا أن تكون حياتنا الاقتصادية إسلامية؟!  
وقلت يومها للمؤتمر<sup>(١)</sup> - وأنا لست من رجال الاقتصاد - إنني أخشى أن نكون قد وجهنا جهدنا إلى بحث مشكلات تفرضها علينا اليوم الجاهلية الرأسمالية التي تضغط على واقعنا الاقتصادي، ولكنها قد لا تكون موجودة على الإطلاق في الدولة الإسلامية حين تقوم. فمن أدرانا أن كل مشاكل التأمين الحالية قد نجمت

(١) في كلمة بعنوان «آمال ومحاذير».

من تعطيل وظيفة بيت المال الإسلامي ، وأنه حين يقدر للدولة الإسلامية أن تقوم ،  
وتعيد لبيت المال وظيفته ، لا تكون هناك حاجة إلى التأمين كله بصورته الحالية ،  
وحيث أن يكون بحثنا في كونه حلالاً أو حراماً في صورته الراهنة إضاعة للجهد بلا  
طائل !

ولكن المؤتمر الموقر لم يلتفت بطبيعة الحال إلى هذا التحذير ، ومضى يبحث بهمة  
«علمية» فائقة في مشكلة التأمين ! وانتهى إلى نتيجة لم يوافق عليها كل المؤتمرين ،  
هي أن التأمين بصورته الحالية حرام ، ولا بد من البحث عن «صيغة» إسلامية تنفي  
ما يحوط الصورة الحالية من الربا أو شبهة الربا !

ولنفترض من الجانب الآخر أن الله سبحانه وتعالى لم يُجر سنته الجارية في إقامة  
الدولة الإسلامية ، بل أجري بفضلله ومنه وكرمه سنته الخارقة ، فقامت الدولة  
الإسلامية غداً ، ونحن غافلون لم نحضر شيئاً لقيامها ، ولا جهزنا الحلول العملية  
للمشاكل التي ستواجهها ! فهل يبرر هذا الفرض أن نصر في طاقتنا اليوم في استنباط  
الحلول العملية لتلك المشاكل !؟

كلا بالطبع ! فحين يجري الله سنته الخارقة ، فسيحفظها - سبحانه - بالخوارق التي  
تحل المشاكل في لحظات !

إنما نحن مأمورون أن نتعامل مع السنة الجارية ، وإن كنا لا نكف عن التطلع  
إلى رحمة الله في كل لحظة . . تلك السنة التي يقول لنا عنها ربنا في كتابه العزيز :

«هو الذي أيدك بنصره ، وبالمؤمنين»<sup>(١)</sup> .

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . .»<sup>(٢)</sup>

ليلفتنا إلى أمرين مهمين : أنه لا بد من وجود مؤمنين مجاهدين ، يكونون ستاراً  
لقدر الله في الأرض . وأنه لا بد لأولئك المؤمنين أن يعدوا كل ما في طاقتهم من قوة  
لنصرة الحق . . وعندئذ يأتي نصر الله . . لا عجزاً من الله سبحانه أن ينصر دينه  
بغير أدوات بشرية على الإطلاق ، وبغير جهد بشري على الإطلاق - وهو الذي  
يقول للشيء كن فيكون - ولكن لأنه هكذا جرت سنته سبحانه :

(١) سورة الأنفال [٦٢] .

(٢) سورة الأنفال [٦٠] .



«ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليلبو بعضهم ببعض»<sup>(١)</sup>  
«إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم»<sup>(٢)</sup> .

والسنة الجارية - التي نحن مأمورون أن نتعامل معها، وإن كنا لا نكف لحظة واحدة عن التطلع إلى رحمة الله - هذه السنة تقول إنه لا بد أولاً من إقامة القاعدة المسلمة المؤمنة بالحجم المعقول، ثم نتوقع إقامة الدولة الإسلامية بعد ذلك، بعد جهاد - قد يطول - تقوم به تلك القاعدة مع الجاهلية المتربصة بها في كل مكان .  
وحيث يكون الأمر على هذه الصورة، فإن الانصراف عن إقامة القاعدة المسلمة المؤمنة المجاهدة الصابرة على الابتلاء، إلى البحث عن «الحلول العملية لمشكلاتنا المعاصرة» . . يكون عبثاً غير معقول!

إننا - أحياناً - نُستدرج بسؤال يلقيه علينا بعض الناس، بعضهم بإخلاص كامل ونية حسنة، وبعضهم بخبث شديد وكيد مقصود، يسألوننا: كيف تواجهون المشاكل المعاصرة حين نقيمون نظامكم الإسلامي؟ كيف تصنعون مثلاً في المشاكل الاقتصادية؟<sup>(٣)</sup> هل عندكم حلول عملية؟!

ويستدرجنا السؤال، الملقى علينا بحسن نية أو بسوء نية، فننصرف - دون أن نحس - عن محاولة الإجابة على السؤال الأول الذي ينبغي أن يكون ملء تفكيرنا في اللحظة الحاضرة، وهو: كيف نقيم الدولة الإسلامية؟ إلى محاولة الإجابة عن سؤال آخر، يأتي ترتيبه فيما بعد، وهو: كيف تصنع الدولة الإسلامية - حين تقوم - في مواجهة المشاكل المعاصرة!

بل قد نُستدرج أكثر، فنظن - بغير وعي - أن إجابتنا عن السؤال الأخير هي في الوقت نفسه إجابة السؤال الأول! أي أننا حين نقدم الحلول العملية للمشاكل الحاضرة، نوجد بذلك القاعدة الإسلامية التي تقيم الدولة!

وهو وهمٌ ناقشناه من قبل وبيننا زيفه . . ففي الأحوال الراهنة، حيث تحيط عداوات العالم كله تتربص بالمسلمين لتمنعهم من مزاوله إسلامهم - بإقامة الحكومة التي تحكم بما أنزل الله - فلن يكون الاقتناع العقلي بقدرة الإسلام على تقديم

(٢) سورة القتال [٧].

(١) سورة القتال [٤].

(٣) أو السياسية أو الاجتماعية . . الخ

الحلول العملية هو الأداة اللازمة لمواجهة تلك العداوات الضارية، إنما ستكون الأداة هي العقيدة، التي تقول للناس إنها قضية إيمان وكفر. . قضية جنة ونار. . ومن لم يدخل من باب العقيدة. . من باب لا إله إلا الله (على حقيقتها الربانية). . فسيظل «يتفرج» على الإسلام، وعلى الحلول الإسلامية، دون أن يدخل المعمعة. . دون أن يخوض المعركة الضارية التي تقيمها الجاهلية المعاصرة ضد الإسلام، وتفرض على المسلمين أن يخوضوها، إن لم يكن اليوم فغدا. . (١)

وهذا المتفرج من بعيد - أيا تكن درجة اقتناعه، بل أيا تكن قدرته على تقديم «الحلول العملية» - لن يكون هو الذي يقيم الحكم الإسلامي. . إنما يقيمه - حين يأذن الله - أصحاب العقيدة الصحيحة، التي يستيقن أصحابها أن إقامة الحكم الإسلامي هو المقتضى الطبيعي لقولهم لا إله إلا الله محمد رسول الله. . وأن ما يصيبهم من تقتيل وتعذيب في سبيل إقامة حكم الله في الأرض، هو أخصر طريق وأضمن طريق إلى الجنة التي وَعَدَ المتقون:

«إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن. ومن أوفى بعهده من الله. فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم» (٢).

والقيادة الجديدة، التي تسعى إلى قيادة العمل الإسلامي بتقديم الحلول العملية للمشكلات المعاصرة، ينبغي أن تكون أكثر بصراً بطباع النفوس، وأكثر واقعية في مواجهة الأحداث، من أن يصرّفاً استدراج من كان من الناس، عن محاولة الإجابة عن السؤال الأول إلى محاولة الإجابة عن السؤال الأخير!

\* \* \*

إنه لا بد من ارتياد الطريق الطويل. . المجهد الشاق. . البطيء الثمرة. . المستنفد للطاقة، طريق التربية، لإنشاء «القاعدة المسلمة» الواعية المجاهدة، التي تسند الحكم الإسلامي حين يقوم، وتظل تسنده لكي يستمر في الوجود بعد أن يقوم. . وقد رأينا في دراستنا التي ناقشنا فيها الوسائل الثلاثة التي يستخدمها

(١) المعركة اليوم مفروضة على أفغانستان بأكملها، وعلى الجياعات الإسلامية في كل مكان. وغدا يفرضونها على الأمة الإسلامية بكاملها (انظر الفصل القادم «نظرة إلى المستقبل»).

(٢) سورة التوبة [١١١].

المتعجلون - كلُّ من زاويته - أنها كلها تؤدي إلى طريق مسدود، وإن بدا في ظاهر الأمر أنها هي «الحركة» التي تخرج «بالعمل» من حالة الجمود!

فالصدام مع السلطة قبل وجود القاعدة المسلمة الواعية المجاهدة عمليات انتحارية لا طائل وراءها، إلا إعطاء الطغاة حجة لتقتيل المسلمين وتذبيحهم، والناس غافلون عن حقيقة المعركة، وعن كون هؤلاء الطغاة إنما يعملون ما يعملون عداءً للإسلام ذاته - لا رداً على عمل بعينه - وولاءً للصليبية الصهيونية التي تحارب الإسلام في كل الأرض (١).

والتسلل إلى داخل الأجهزة السياسية مع عدم وجود القاعدة المسلمة الواعية المجاهدة عملية عبثية لا طائل وراءها، إلا تميع القضية في نظر الجماهير، وتأخير النضج اللازم لإقامة القاعدة التي لا يقوم بغيرها الحكم الإسلامي.

والبحث عن الحلول العملية للمشاكل المعاصرة قبل وجود القاعدة المشار إليها أنفاً صرفاً للجهد بلا طائل، وتحويلُ للطاقة العاملة في الساحة من ميدانها الأول الأصيل إلى ميدان جانبي، يستنفد الطاقة وهو لا يؤدي - الآن - إلى شيء، ويوهم صاحبه في الوقت ذاته أنه «يعمل»، بل أنه يعمل العمل الواجب، فلا يحس بالتقصير الذي يمارسه في الميدان الأول الأصيل، إن لم ينظر إلى العاملين فيه على أنهم هم العابثون المضيعون!!

وحين نقول إنه لا بد من التربية أولاً لإنشاء القاعدة المسلمة الواعية المجاهدة تثور كثير من التساؤلات والتصورات:

ربينا بما فيه الكفاية!

إلى متى نظل نربي دون أن «نعلم»!

ما جدوى التربية وكلما ربينا جيلاً من الشباب قضى عليه الأعداء!

ما المقصود بالتربية؟!

---

(١) دخل علينا ذات صباح في «السجن الحربي» مدير السجن وجلاذه الأكبر حمزة البسيوني الذي نكّل الله به فيما بعد في حادث سيارة تناثرت فيها جثته على مساحة من الأرض، وكنا في «طابوره» التعذيب الذي يبدأ يومياً في الساعة السادسة صباحاً وينتهي في الرابعة والنصف بعد الظهر. وبعد استعراض بالجري والمشي بالخطوة السريعة قام به أمامه الجلاد الأصغر ليظهر همته في تنفيذ الأوامر قال حمزة البسيوني، وكان يركب حصانه: «بعد الذي صنعناه كله فيكم يا أولاد الـ... وما زلتم أحياء؟ ماذا نصنع فيكم أكثر من ذلك؟! كل الذي نستطيعه أن نأتي بكم كل بضع سنوات ونعطيك «علقة» مثل هذه!» أي أن هذا مخطط سلفاً. سواء وجدت الميراث أم لم توجد!!

ونريد الآن أن نلقي بعض الضوء على المقصود بالتربية . . ولكن لا بد من تصحيح بعض هذه التصورات أولاً تمهيداً لبيان الصورة الصحيحة المطلوبة، المثمرة بإذن الله . .

إن الذين يقولون: ربنا بما فيه الكفاية، يغفلون عن حقائق كثيرة واقعة في الساحة . .

ربما كان أفضل لون من التربية قام في الساحة حتى اليوم هو الذي قام به الإمام الشهيد بين «الإخوان العاملين» الذين رباهم على عينه. وأفضل جوانب هذه التربية هو الأخوة المتينة التي رباها في أتباعه، والروح الفدائية الصادقة التي طبعم بها، والجنديّة الملتزمة التي زرعها في نفوسهم، ثم تحرير لا إله إلا الله في حسهم من تواكل الصوفية وتواكل الفكر الإرجائي، وتحويلها في سلوكهم إلى حركة واقعية وعمل . .

ولكننا رأينا كم من الجوانب كان ينقص هذه التربية ذات الطابع الأصيل العميق، وكم أثر هذا النقص في خطوات العمل الإسلامي بعد مقتل الإمام الشهيد بصفة خاصة . .

ولا ندري كم من هذه الجوانب كان الإمام الشهيد قمينا بإضافته أو تصحيحه لو امتد به العمر . . ولكننا نجد على الساحة الواقعية أن الجنود قد ربوا ليكونوا جنوداً فحسب، لا ليكونوا قادة بعد ذهاب قائدهم، كما ربي رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ليكونوا جنوداً فائقين تحت قيادته صلى الله عليه وسلم، وليكونوا في الوقت ذاته «صفاً ثانياً» بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، كما كان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم في قيادة الأمة، وكما كان بقية الصحابة رضوان الله عليهم في كل ميدان انتدبوا إليه . .

نجد غياب «الصف الثاني» على المستوى المطلوب للجماعة التي تتزعم العمل الإسلامي في ظروفه الراهنة واضحا ملموسا كلما امتد الزمن بعد مقتل الإمام الشهيد، فنذكر - على الصعيد الواقعي - أنه كان هناك نقص في التربية، في هذا الجانب، ينبغي أن يستدرك ونحن نعدّ لمسيرة طويلة قد تستغرق بضعة أجيال من عمر الدعوة قبل أن يكتب لها التمكين في الأرض .

ومن قبل لاحظنا العجلة في الإعداد والعجلة في التحرك والعجلة في السباح

للجماهير بالانتماء للحركة قبل تربية العدد المناسب من الدعاة، الذين هم جنود تحت قيادة القائد، وقادة في ذات الوقت ومربون. . . وكيف كان لهذا كله آثاره في خط السير. والمفروض - ونحن نعد للمسيرة الطويلة - أن نتلا في كل هذه الجوانب من النقص التي اشتملت عليها الجولة الأولى، أي أن نغير أسلوب التربية بما يتناسب مع أهداف الحركة، وطول المسيرة، ومشقة الطريق، وكيد الأعداء. . .

فإذا نظرنا إلى الساحة الآن فقد نجد نوعيات أفضل في بعض الجوانب. . . ولكننا نجد نقصاً كبيراً في التربية في جوانب أخرى. نجد شباباً أكثر وعياً بمفهوم لا إله إلا الله، وصلتها الوثيقة بتحكيم شريعة الله. . . أي أكثر إدراكاً لقضية «الحاكمية» التي كانت قد أجملت إجمالاً من قبل جعلها تخفى على كثير من الدعاة أنفسهم. ونجد شباباً أكثر إدراكاً لطبيعة المعركة وما يلقي فيها من الأسلحة الظاهرة والخفية، ودور الأجهزة المختلفة في محاربة الدعوة عن طريق مناهج التعليم ووسائل الإعلام، وإثارة قضايا سياسية واجتماعية وفكرية معينة، تتجه بالناس وجهة بعيدة عن الإسلام، وتبعدهم باستمرار عن التلقي من المصدر الرباني. . . ولكن هؤلاء الشباب - في كثير من الأحيان - ينقصهم التجمع الصحيح، فيتجمعون في جماعات صغيرة مبعثة، يكيد بعضها لبعض، أو يتربص بعضها ببعض، أو يتجادل بعضها مع بعض بروح الخصام لا بروح المودة. ويمكن أن تنقسم الجماعة الصغيرة إلى جماعات أصغر عند أول اختلاف على تفسير نص من النصوص، أو تقويم قضية من القضايا. . . مما يقطع بأن التربية الجماعية عندهم ناقصة. وأن الروح الفردية فيهم أقوى. بينما التربية المطلوبة - لتنشئة المسلمين عموماً فضلاً عن الجيل الذي يقع عليه عبء المواجهة الأولى مع الجاهلية - ينبغي أن توازن بين الروح الفردية والروح الجماعية عند أفراد الجماعة، فلا تحيلهم أصفاراً عن طريق تنمية الروح الجماعية على حساب الروح الفردية، ولا تنمي فيهم الفردية الجانحة فيعتز كل منهم بفكره وبذاته وبتقييمه الخاص للأمور، فلا تأتلف منهم جماعة، ولا يلتئم لهم تجمع له وزن<sup>(١)</sup>.

كما أن هذا الشباب - في معظم الأحيان - تنقصه الخبرة الحركية (وهي جزء من التربية المطلوبة)، مع أنه أكثر وعياً من الجيل السابق في كثير من القضايا ذات

(١) سنتكلم عن قضية «السمع والطاعة» فيما يلي من الحديث.

الطابع الفكري . ومن أجل هذا يتعجل في الصدام مع السلطة، وفي استعراض قوته في قضايا لا تقدم ولا تؤخر، أو في قضايا ذات وزن وذات خطر ولكن لا يستطيع المسلمون في حالتهم الراهنة أن يغيروا شيئا من مجراها .

تجمع شباب الجماعات الدينية بجامعة الأسكندرية ذات مرة للحيلولة بالقوة دون إقامة حفل كانت إدارة الجامعة قد رتبته لمكايدة الجماعات الدينية خاصة والروح الإسلامي عامة . . وبالفعل نجح شباب الجماعات الدينية في منع إقامة الحفل رغم كل الترتيبات الرسمية التي رتبته له، فلم يحدث ما كان مرتبا من رقص وغناء وتمثيل مبتذل . . .

هذا نموذج لبعض «النشاط» الذي كانت تقوم به الجماعات الدينية في الجامعات . . فما تقويمه الصحيح؟

إن استعراض القوة على هذا النحو كان بالفعل يرهب «المتحررين» و«المتحركات» من الطلبة والأساتذة على السواء . . فلا تجرؤ «فتاة جامعية» على التبذل الرخيص الذي يقع من كثير من «الفتيات الجامعيات» حتى كأنهن راقصات في ملهى، أو عارضات أزياء في محل تجاري مبتذل، لا طالبات علم يتحشمن على الأقل في وقت تلقى العلم، كما تتحشم الفتاة الأوربية الملحدة الكافرة المسلحة تماما من كل دين أو أخلاق أو تقاليد، في أثناء الساعات التي تتلقى فيها العلم! ولا يجرو فتى شيوعي «متحرر» على مهاجمة الإسلام جهرة . . ولا يجرو أستاذ على السخرية بالإسلام كما يفعل الأساتذة «المتحررون»، محتمين بالكرسي الذي يجلسون عليه، و«بالنظام العام» الذي يحميهم وهم يهاجمون الدين والأخلاق والتقاليد باسم «التحرر الفكري» أو «الروح الجامعية!» .

نعم! ولكن!

قد يكون هذا سلوكا مناسبا لو أن لتلك الجماعات الدينية وجودا دائما في الجامعات، بحيث يكون لهذا الوجود ضغط مستمر يقاوم ضغط الشيوعيين والملحدين و«المتحررين» لإفساد الأخلاق، وصرف الشباب والفتيات عن القيم الدينية، وإشاعة التحلل الخلقي بينهم . .

أما إذا كان وجود تلك الجماعات عابرا - كما سنبين في السطور التالية - فهل هذه العملية المفردة ستغير شيئا حقيقيا في حياة الفاسدين والفاستات من الأساتذة أو

الطلاب؟ أم الأجدى - وقد أتاحت الفرصة لتلك الجماعات أن توجد فترة محدودة من الزمن - أن ينصرف الجهد إلى التربية الحقيقية على مبادئ الإسلام، وكل شاب فرد، وكل فتاة، وكل مدرس أو أستاذ، تنقذهم هذه الجماعات من الوحل الذي يرتعون فيه إلى النظافة والطهر، هو كسب للدعوة، وعمل مثمر خير من الدنيا وما فيها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

«لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها» أو قال: «خير لك من حمر النعم»<sup>(١)</sup>

لقد كانت «اللعبة» التي أبرزت تلك الجماعات الدينية إلى الوجود أن الحاكم يومئذ كان يواجه ضغطا شديدا من التيار الشيوعي والتيار الناصري المتحالف معه، فكان منطقيا بالنسبة إليه أن يستند - مؤقتا - إلى التيار الإسلامي، فيفسح له المجال للعمل والحركة، ليصد عنه هو شخصا الضغوط التي يواجهها، لا لينظف الجامعة من الفساد والإلحاد والكفر والتحلل الخلقي، ولا لينشئ في البلد حركة إسلامية تطهرها من تلك الأدران! وليتعرف في ذات الوقت - عن طريق أجهزته البوليسية - على القوى الكامنة في الشباب، ليضربها في الوقت المناسب - بعد أن تنتهي «اللعبة» - ضربة تشلها عن الحركة أو تقضي عليها!

فهل كان استعراض القوة في حادث الحفل الذي أشرنا إليه - أو أمثاله - هو السلوك الحركي المناسب إزاء هذه اللعبة؟! أم إنه كان قمينا بالتعجيل في إنهاء اللعبة وتوجيه الضربة؟

وحقيقة إن الضربة كانت آتية لا ريب فيها كما أشار إلى ذلك مدير السجن الحربي<sup>(٢)</sup>. فبمجرد أن يحس «المستولون» أن التيار الإسلامي قد أخذ يقوي، يتفجر الموقف بالضرورة للقضاء على الخطر المرهوب، الذي تخشاه الصليبية الصهيونية وكل من يعمل لحسابها في الأرض..

ولكن يختلف الأمر حين يكون كل «العمل» الذي تقوم به تلك الجماعات هو تربية شباب نظيف الأخلاق، متطهر من الدنس، يعرف ربه ولا يعرف رجس الشيطان.. فإن الحاكم يتردد كثيرا في ضربها، ثم يتردد أكثر في استخدام الوسائل

(١) سقت الإشارة إليه.

(٢) راجع الهامشة رقم (١) ص ٤٧٥ السابقة.

الوحشية لتعذيبها، لأنه يومئذ لا يستطيع أن يبرر عمله الوحشي أمام الجماهير. وفي وسع أجهزة الأمن بلاشك أن تفتعل قضية، وأن تنسب إلى الناس جرائم لم يرتكبوها قط ولم يفكروا مجرد تفكير في ارتكابها، وأن تحملهم - بوسائل التعذيب البربرية - على «الاعتراف» بما لم يفكروا فيه أصلاً. <sup>(١)</sup> ولكن الجماهير لم تعد اليوم غافلة كما كانت قبل ثلاثين سنة أو عشرين! وصارت اليوم تقدم سوء الظن بأجهزة الأمن على إحسان الظن! ولم يعد يسهل على حاكم أن ينقض على جماعة كل عملها هو التربية الإسلامية، فيصب عليها وحشيتها وهو آمن من الإنكار والسخط. وحقيقة إن أولئك الطغاة لا يهتمهم كثيرا غضب الجماهير. ولكن الذين يشغلونهم لحسابهم لا يحبون أن يكون عميلهم مفضوح الأمر أمام الناس، لأن هذا يفسد اللعبة في النهاية ولا يحقق المطلوب! بل إنهم في بعض الأحيان يدفعونه دفعا إلى ما يسخط الناس عليه، حين يكونون قد قرروا إنهاء دوره والإتيان بوجه جديد، كما فعلوا بالسادات من قبل، ومن بعده النميري!

ضربنا نموذجا من إنفاق الطاقة في قضايا لا تقدم ولا تؤخر، ولا تغير شيئا في الحقيقة، إذ سرعان ما أزيلت الجماعات الدينية من الجامعات، ورجع الفاسدون والفسادات أشد فسادا من ذي قبل!

ونضرب الآن نموذجا من قضايا ذات خطر حقيقي، كقضية تحكيم الشريعة الإسلامية. وهي قضية رئيسية بالنسبة لكيان الأمة كلها؛ والسعي إلى تحكيم شريعة الله فرض على كل مسلم يقول لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لأنه هو المقتضى المباشر لتلك الكلمة العظيمة التي يعلن بها شهادة الإسلام. .  
نعم! ولكن!

هل يمكن حقا أن تقوم شريعة الله في الأرض قبل أن توجد القاعدة المؤمنة الواعية المجاهدة التي تواجه النتائج المترتبة على إعلان الحكم الإسلامي، وأولها تحرش الصليبية الصهيونية على نحو ما هو حادث في أفغانستان؟

---

(١) من النكات التي أطلقت في عهد جمال عبد الناصر أن عبد الناصر تفقد قلمه فلم يجده، فأبلغ وزير داخلته، وطلب منه البحث عن أخذه. فأسرع وزير الداخلية في القيام بالمهمة المطلوبة. وبعد ساعة اتصل عبد الناصر بوزير الداخلية وطلب منه الكف عن البحث لأنه وجد القلم الضائع. فأجاب وزير الداخلية: لكن يا فندم نحن قبضنا على خمسة أشخاص، وكلهم اعترفوا!!



وهل يكفي «الضغط الشعبي» لإقامة الحكم الإسلامي إن لم يكن «الشعب» الذي يمارس الضغط مستعداً للجهاد على نحو ما فعل الشعب الأفغاني، ومستعداً لخوض معركة طويلة الأمد، يصبر فيها على الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات كما بين الله في كتابه المنزل:

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات، بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين»<sup>(١)</sup> .  
أليس الأجدى إذن إنفاق الطاقة في إقامة «القاعدة المسلمة» التي تحتل هذه التبعات الجسام، بدلا من إنفاقها - أو إنفاق قدر منها - في المطالبة الشفوية التي لا يترتب عليها شيء في الحقيقة، إنها تكون كالطلقة الطائشة، تنبه عدوك إلى مكانك دون أن تصيب شيئا في الواقع؟!!

إن القضية ليست إلهاب حماسة الجماهير لتطبيق الشريعة الإسلامية، فهذا وحده لا يكفي، ولا يغير شيئا من الواقع، طالما كانت هذه الجماهير لا تملك إلا تلك الحماسة العاطفية، التي يمكن أن تنطفئ بذات السرعة التي تلتهب بها . .  
إنما يتغير الواقع حين «تجدد» تلك الجماهير نفسها لقضية تحكيم الشريعة على أساس أن هذا التحكيم هو المقتضى المباشر لقول لا إله إلا الله، محمد رسول الله . .  
والفارق الضخم - في مجال الحركة الواقعية - بين الحماسة العاطفية التي لا تنتهي إلى شيء واقعي، وبين تجنيد الناس أنفسهم لهذه القضية، ينشأ من فارق دقيق - وخطير في الوقت ذاته - في تفهم حقيقة القضية وإدراك أبعادها . . فحين تكون القضية في حس الناس أن تحكيم الشريعة «كمالات» يكتمل بها دينهم، ولكنهم قبل ذلك مسلمون ولورضوا بشريعة غير شريعة الله، وتحاكموا إليها بغير حرج في ضمايرهم، سيكون أقصى ما يعطونه للقضية هو تلك الحماسة العاطفية التي لا تصمد للبطش الوحشي الذي يقابل به الطغاة الدعوة لتحكيم شريعة الله . أما حين يستيقن الناس أنهم لا يكونون مسلمين في ميزان الله إذا رضوا بشريعة غير شريعة الله، وأن إيمانهم لا يكون ناقصا إنما يكون غير قائم أصلا إذا تحاكموا - راضين - إلى شرائع يضعها البشر من عند أنفسهم بغير إذن من الله . . عندئذ

(١) سورة البقرة [١٥٣ - ١٥٥].

سيجند الناس أنفسهم لتلك القضية، لأنها ستكون في حسبهم قضية إيمان وكفر، لا مجرد «كمالات» يكملون بها إيماننا موجودا بالفعل، ومرضيا عند الله!  
ولن تقوم شريعة الله في واقع الأرض حتى يجند الناس لها أنفسهم، ويحتملوا التضحيات في سبيل إقامتها، أما الحماسة العاطفية فمهما أعجب الدعاة مظهرها، فليست رصيда حقيقيا في المعركة الهائلة التي يرصدها للإسلام أعداء الإسلام!

\* \* \*

تلك نماذج نضربها لصرف الطاقة في غير مجالها الحقيقي، أو للتقصير في صرفها في مجالها الذي يجب أن توجه إليه. ودلالتها أن هناك جوانب نقص في عملية التربية القائمة في ساحة العمل الإسلامي. ذلك أن معرفة العمل الصحيح والسعي إليه، ومعرفة العمل الخاطئ والانصراف عنه، هي جزء من «البصيرة» اللازمة لهذه الدعوة، وهي بدورها جزء من التربية الصحيحة اللازمة لإعداد الدعاة، وخاصة الذين يقع عليهم عبء المواجهة الأولى مع الجاهلية التي تكيد لهم، وتربص بهم دائرة السوء.

فإذا أضيف إلى ذلك ما يشكومنه كثير من الشباب العاملين في الدعوة من أن بعض «المسؤولين» عنهم ينقصهم التجرد الكافي للدعوة، الذي يجعل مصلحتها الحقيقية هي راندتهم، لا ذواتهم، ولا رغبتهم في الظهور والاستحواذ على أكبر عدد من الأنصار.

إذا وضعنا هذا كله في الميزان.. فهل يحق لقائل أن يقول: ربنا بما فيه الكفاية؟! .

\* \* \*

أما الذين يسألون: إلى متى نظل نربي دون أن «نعمل».. فلا نستطيع أن نعطيهم موعدا محددًا فنقول لهم: عشر سنوات من الآن، أو عشرين سنة من الآن! فهذا رجم بالغيب لا يعتمد على دليل واضح. إنما نستطيع أن نقول لهم: نظل نربي حتى تتكون القاعدة المطلوبة بالحجم المعقول..

وواضح أن هذه الإجابة غير محددة.. فلا هي تحدد «الزمن» المطلوب، ولا هي تحدد «الحجم» المطلوب. ولكن الحقيقة أنه لا يوجد بشر في الأرض يستطيع أن يعطى هذا التحديد، لأن فيه عنصرا بل عناصر غيبية لا يمكن للبشر تحديدها..

لقد كان الوحي هو الذي ينقل خطى الجماعة الأولى بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم . فقد أمره الله بادئ ذي بدء بإنذار عشيرته الأقربين ، فأخذ يدعو إلى الله سرا فترة من الوقت وهو يتحمل الأذى من عشيرته صابرا محتسبا حتى نزل الأمر الرباني بالجهر بالدعوة ، فصدع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر . ونزل الأذى بالمؤمنين وتحركت مشاعر بعضهم للرد على الأذى ، فنزل الوحي يقول لهم : «كفوا أيديكم» فكفوا ، وإحتملوا الأذى صابرين حتى أذن الله لهم بالقتال فقال سبحانه : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير»<sup>(١)</sup>

ثم جاء الأمر بقتال الذين يقاتلون المؤمنين من المشركين ، دون سواهم : «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»<sup>(٢)</sup> ثم جاء الأمر بقتال المشركين كافة :

«وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة . . .»<sup>(٣)</sup>

واليوم وقد انقطعت الرسالات وختمت النبوة فلن يتنزل وحي يقول للمسلمين : كفوا أيديكم إلى سنة كذا ، وقاتلوا سنة كذا ! إنما هو الاجتهاد والرأي بحسب الظروف القائمة في الأرض ، وبحسب السنن الجارية التي يجري الله بها قدره في حياة الناس .

وهذه السنن تقول إن الانحراف الضخم الذي وقعت فيه الأمة حتى أصبح الإسلام فيها غريبا كما كان غريبا أول مرة ، يحتاج إلى جهد ضخم وزمن غير قصير حتى تعود الأمة إلى الصراط السوي ، أو حتى تعود منها فئة تحتل الصراع والصدام مع القوى العالمية المعادية للإسلام ، وتصمد لها حتى يمددها الله بالنصر ، ويمكن لها في الأرض ، ويكون لها من رسوخ القدم في الإيمان ، وصدق العزيمة ، والشجاعة في الحق ، والزهد في متاع الدنيا ، والحرص على ما عند الله في الآخرة ، ما يجعلها تحمل العبء صابرة محتسبة - كما يفعل المجاهدون في أفغانستان اليوم - ويجعلها تحمل أدران بقية الأمة من المنافقين وضعاف الإيمان والمتقاعسين عن الجهاد فلا يخذلونها ، بل ترفعهم هي بالمثال الرفيع الذي تضربه للناس .

(١) سورة الحج [٣٩] .

(٢) سورة البقرة [١٩٠] .

(٣) سورة التوبة [٣٦] .

«إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم»<sup>(١)</sup>  
«من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا»<sup>(٢)</sup>

«فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم»<sup>(٣)</sup>  
«وكأبي من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين»<sup>(٤)</sup>  
«فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما»<sup>(٥)</sup>

فالزمن المطلوب للتربية هو الزمن الذي يكفل ترسيخ هذه الصفات في نفوس الفئة المختارة التي يقع عليها عبء المواجهة مع الأعداء . وهو زمن لا يستطيع بشر أن يحده على وجه الدقة لأنه غيب . ولأن فيه جملة متغيرات تتغير النتيجة في كل مرة بحسب نوعها ومقدارها .

فالمتغير الأول هو الجهد الذي ينبغي أن نبذله لبلوغ هذا الهدف الأساسي . فكلما بذلنا جهدا أكبر ، كان لنا أن نطمع في تقريب الزمن ، أما إذا تراخينا في بذل الجهد ، أو لم نوجهه الوجهة الصحيحة فسيطول الزمن ولاشك .  
والمتغير الثاني هو مدى استجابة الذين ندعوهم ونربيهم ، وهذا أمر ليس في يد البشر إطلاقا :

«إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين»<sup>(٦)</sup>  
إنما كلفنا الله سبحانه وتعالى أن نبذل الجهد ، وتكفل هو سبحانه بالنتائج ، لأنها تتم بقدر منه ، وبحسب مشيئته . وإن كنا نطمع دائما في من الله وكرمه ، أننا إذا

(١) سورة الأنفال [٢ - ٤] .

(٢) سورة الأحزاب [٢٣] .

(٣) سورة المائدة [٥٤] .

(٤) سورة آل عمران [١٤٦] .

(٥) سورة النساء [٧٤] .

(٦) سورة القصص [٥٦] .

صدقنا في بذل الجهد فإن الله يرتب النتائج في صالح الدعوة . وقد رأينا بأعيننا أن استشهاد رجل واحد صدق ما عاهد الله عليه ، يصنع لهذه الدعوة من العجائب ما لا تصنعه ألف خطبة ولا ألف درس ولا ألف كتاب ، وهذا عون الله الذي وعد به سبحانه حين يصدق عباده في التوجه إليه ، والتوكل عليه ، والإيمان به .

والتغير الثالث هو الظروف التي تحيط بالدعوة وتحيط بالأعداء ، والتي تحدد بدورها الحجم المناسب للقاعدة المطلوبة . فحين يخلق الله ظروفًا مواتية فقد تستطيع قاعدة أصغر حجمًا مما نتخيل الآن ، أن تقيم حكم الله في الأرض ، وتسانده بعد قيامه . وحين تجري مشيئة الله بغير ذلك - لحكمة يريدنا - فقد نحتاج إلى قاعدة أكبر حجمًا مما نفترض في لحظة معينة . والحكم في هذا الأمر مسألة اجتهادية ، سواء في تقدير الحجم اللازم للقاعدة ، أو في تقدير الظروف القائمة من حولها .

ومن أجل هذه المتغيرات - وغيرها كثير - لا يستطيع بشر أن يحدد زمانًا يقول فيه :  
نظل نربي إلى عام كذا ، ثم نبدأ « العمل » !

على أنه ينبغي أن نضع في حسابنا أن التربية لا يمكن أن تتوقف في أية لحظة . فهي بذاتها هدف دائم بالنسبة للأمة حتى لو قام الحكم الإسلامي . فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكف عن تربية أصحابه حين قامت الدولة ، بل استمر إلى آخر لحظة يربيههم ، وانظر مثلاً خطبته في حجة الوداع . كذلك سار من بعده من الخلفاء الراشدين على نهجه صلى الله عليه وسلم يربون الأمة بالقرآن وبالسلطان . . إنها بدأ الانحراف في الأمة حين نقصت التربية عن القدر المطلوب ، وحين تحولت عن النهج المطلوب . .

إنما كانت إجابتنا موجهة للذين يعنون بسؤالهم : إلى متى نظل نخصص الوقت كله والجهد كله لعملية التربية المطلوبة . .

\* \* \*

وأما الذين يقولون : ما جدوى التربية ، ونحن كلما ربينا جيلًا من الشباب قضى عليه الأعداء ! فقد سبق أن أجبنا على تساؤلهم من الواقع المشهود . والواقع المشهود يقول : إنه بعد كل مذبحه يقوم بها الأعداء تأتي صفوف جديدة من الشباب ، لا تملأ الفراغ الحادث فحسب ، بل تزيد القاعدة توسعا على الدوام !

ونحن لا نعلم الغيب . . ولا نعلم إن كان الشاب الذي نربيه اليوم سيموت غدا أم يموت بعد عمر مديد . ولا نعلم كذلك هل يثبت على الطريق أم يفتن في دينه . . ولكن علينا دائما أن نبذل جهدنا في تربيته على النهج الصحيح . فإن شاء الله أن يمتد به العمر فهو قوة للدعوة وامتداد لها . وإن شاء الله أن يمنحه الشهادة فهو كذلك قوة للدعوة وامتداد لها . أما إن كان في قدر الله أن يفتن في دينه فمنذا الذي يستطيع أن يرد عنه قدر الله؟ ومنذا الذي يستطيع أن يعرف سلفا ما يكون من أمره في الغداة؟!

في جميع الأحوال إذن ينبغي أن نمضي في التربية، ونحن واثقون أنها الطريق الواصل في النهاية، حتى وإن كانت هي الطريق الشاق المجهد البطيء الطويل!

\* \* \*

ولابد من كلمة تبين لنا على الأقل بعض أبعاد التربية المطلوبة . . فما يمكننا في كتاب يتحدث عن «واقعنا المعاصر» أن نغفل الحديث عن أبعاد التربية إطلاقا، وما يمكننا كذلك أن نتحدث عن كل أبعاد التربية أو عن المناهج التربوية، فتلك بحوث متخصصة ليس مجالها هذا الكتاب . .

ونكتفي بثلاثة أبعاد، ننتقيها انتقاء من بين أبعاد كثيرة ومجالات عديدة، لأنها ذات أهمية خاصة، وإن كانت كل أبعاد التربية مهمة في الحقيقة، وخاصة بالنسبة لبناء القاعدة المطلوبة . .

يقول سبحانه وتعالى:

«إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين»<sup>(١)</sup>

ولو أنك سألت أي إنسان في الطريق: من الذي يرزقك؟ لقال لك على البديهة: الله!

ولكن انظر إلى هذا الإنسان إذا ضيق عليه في الرزق، يقول: فلان يريد أن يقطع رزقي! فما دلالة هذه الكلمة؟!

دلالتها أن تلك البديهة التي نطق بها لم تكن «يقينا» قلبيا، إنما كانت بديهة ذهنية فحسب . . بديهة تستقر في وقت السلم والأمن، ولكنها تهتز إذا تعرضت للشدة، لأنها ليست عميقة الجذور . .

---

(١) سورة الذاريات [٥٨].

هل يصلح مثل هذا الإنسان لأعباء الدعوة ومشقاتها؟!  
هل يصلح لتلك الأعباء إلا شخص قد استقر في قلبه إلى درجة اليقين أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . أن الله هو المحيي والمميت . أن الله هو الضار والنافع . أن الله هو المعطي والمانع . أن الله هو المدبر . أن الله هو الذي بيده كل شيء . .  
وإذا اهتز اليقين لحظة واحدة فماذا يحدث؟!

لقد كنا نرى في المعتقل بعض الذين يهتز في قلوبهم هذا اليقين لحظة، فتهتز خطواتهم على الطريق! يتسرب إلى روعهم أن هذا الشخص أو ذاك يمكن أن ينفع، أو يمكن أن يضر . . فيتوجهون إليه يحسبون أنه يمكن أن يخرجهم مما هم فيه من الضيق . . فينزلقون . . وينتهي دورهم في الدعوة . . إلا أن يتوب الله عليهم فيتوبوا . .

ترى كم جلسة . . كم درسا . . كم موعظة . . كم توجيها . . يحتاج إليها الإنسان ليرسخ في قلبه إلى درجة اليقين أن الله هو الذي يدبر، وأن هذه المخلوقات البشرية التي يخالطها في حياته إن هي إلا أدوات لقدر الله، وأنها حين تضره فهي تضره بشيء قد قدره الله له، وحين تنفعه فإنها تنفعه بشيء قد كتبه الله له . . فلا يتوجه إلا إلى الله، في سرائه وفي ضرائه سواء، ويعلم - يقينا - أن الخلق كلهم لا يملكون له - ولا يملكون لأنفسهم - ضرا ولا نفعا؟! فإذا دخل في الشدة - وطريق الدعوة مملوء بالأشواك والدماء والدموع - طلب التثبيت من الله، ونظر إلى كل ما يصيبه على أنه قدر مكتوب له . ثم نظر إلى هذا القدر المكتوب له على أنه كله خير، مادام يسير على طريق الإيمان، لأن أمر المؤمن كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . . وليس ذلك إلا للمؤمن .  
فإذا لم يصل إلى هذا اليقين القلبي، الذي يترتب عليه سلوك عملي . . فهل يصلح لحمل أعباء الدعوة؟!

كم يحتاج الفرد الواحد حتى ترسخ هذه العقيدة في قلبه إلى درجة اليقين؟ وكم يحتاج الجمع من الناس؟ وكم يحتاج تكوين «قاعدة» صلبة من مثل هؤلاء، يقوم عليها بناء دعوة، ثم يقوم عليها - حين يأذن الله - بناء دولة؟!

إنه لمثل هذا كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما كاملة في مكة، وبعدها سنوات في المدينة . . كان يعمل، ولم يكن يقول في نفسه وهو في

مكة: إلى متى نظل نربي دون أن «نعمل»؟ فقد كان يعلم يقينا - بما علمه ربه - أن هذا هو «العمل» الأساسي الذي يسبق كل عمل . . . هذه هي «العقيدة» . . . هذه هي «لا إله إلا الله» في حقيقتها الاعتقادية . . . ليست مجرد إقرار ذهني بأن الله تعالى واحد . . . فما أيسر أن يعتدّ الذهن ذلك - وإن كان قد صعب على العرب في جاهليتهم - ولكن تبقى «شوائب» نفسية وشعورية كثيرة عالقة بهذا الاعتقاد الذهني، لا تظهر إلا في السلوك العملي، في حالي الشدة والرخاء سواء، وإن كانت الشدة هي المجهر الأقوى الذي تبرز تحته كل شوائب الاعتقاد . . .

«ومن الناس من يقول: آمنا بالله، فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . . .» (١)

«أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين» (٢)

لمثل هذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي أصحابه في دار الأرقم: يريهم ويعلمهم . . . يعلمهم العقيدة الصحيحة، ويربيهم عليها. فليست العقيدة مفهوما ذهنيا تستوعبه الأذهان ثم يستقر فيها هناك! إنها على هذا النحو لا تصنع شيئا في عالم الواقع، ولا تغير شيئا في عالم الواقع . . . كالفلسفة في الأبراج العاجية . . . لا تغير شيئا في واقع الناس! إنها هي «عقيدة» . . . ترسخ وترسخ وحتى تصبح يقينا قلبيا تنطلق على هداه مشاعر القلب، ويجري بمقتضاه السلوك العملي للإنسان . . .

وبهذه الصورة تعمل «العقيدة» في عالم الواقع . . . تغير . . . تهدم وتبنى . . . تهدم الباطل وتبنى مكانه الحق . . .

وحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه على العقيدة الصحيحة، كان ينشئ - بقدر الله - ذلك اليقين القلبي الذي ينبثق منه السلوك العملي، وكان - بهذا - ينشئ - بقدر الله - تلك النفوس العجيبة التي صنعت ما شاء الله لها أن تصنع من عجائب التاريخ . . .

(١) سورة المنكوبت [١٠].

(٢) سورة المنكوبت [٢ - ٣].



بالقرآن . . بتوجيهاته الدائمة صلى الله عليه وسلم . . بقيام الليل . . بالقدوة العملية في شخصه الكريم صلى الله عليه وسلم . . برعايته لهم في المحنة . . بالحب الفياض من قلبه العظيم لهم . . بكل تلك الوسائل مجتمعة ، تأصلت «العقيدة» في قلوب ذلك الجيل المنفرد ، فكانت تلك «الطاقة» الهائلة التي صنعت الأعاجيب . . وفي غربة الإسلام الثانية نحتاج إلى مثل ما احتاج إليه الأمر في الغربة الأولى ، إن لم يكن على ذات المستوى السامق ، فعلى أقرب مستوى إليه يطيقه البشر في جولتهم الثانية لإزالة غربة الإسلام . . كم من الزمن يستغرق هذا الأمر؟ لا أدري ! ولكني أعلم يقينا أنه مطلوب . . وأن «القاعدة» المطلوبة لا بد أن تقوم على مثل هذا «الاعتقاد» في لا إله إلا الله ، الذي يملأ القلب باليقين ، ويتمثل - من ثم - في سلوك عملي .

\* \* \*

يقول سبحانه وتعالى :

«إنها المؤمنون إخوة»<sup>(١)</sup>

والأخوة من أجل «المعاني» التي يمكن أن يتحدث عنها الإنسان ! شفيقة لطيفة كالنور! ندية محبة إلى القلوب . . ولكن ما «الأخوة» التي وردت الإشارة إليها في كتاب الله؟

يستطيع اثنان من البشر وهما يسيران في الطريق الواسع - في الأمن والسلامة - أن يتأخيا! أن يسيرا معا وقد لف كل منهما ذراعه حول أخيه من الحب . .

ولكن انظر إليهما وقد ضاق الطريق ، فلا يتسع إلا لواحد منهما يسير وراء الآخر . . فمن أقدم؟ أقدم نفسي أم أقدم أخي وأتبعه؟

ثم انظر إلى الطريق قد ضاق أكثر . . فلم يعد يتسع إلا لواحد فقط دون الآخر! إنها فرصة واحدة . . إما لي وإما لأخي . . فمن أقدم؟ أقول: هذه فرصتي ، وليبحث هو لنفسه عن فرصة؟ أم أقول لأخي : خذ هذه الفرصة أنت ، وأنا أبحث لنفسي؟!

هذا هو «المحك» . .

(١) سورة الحجرات [١٠].

إن الأخوة في الأمن والسلامة لا تكلف شيئاً! ولا تتعارض مع رغائب النفس . . بل هي ذاتها رغبة من تلك الرغائب يسعى الإنسان لتحقيقها مقابل الراحة النفسية التي يجدها في تحققها . .

أما في الشدة - أو في الطمع - فهنا تختبر الأخوة الاختبار الحق، الذي يتميز فيه الإيثار والحب للآخرين، من الأثرة وحب الذات، التي قد تحفى على صاحبها نفسه في السلام والأمن، فيظن نفسه «أخا» محققا لكل مستلزمات الأخوة! كم جلسة . . كم درسا . . كم موعظة . . كم توجيها . . يحتاج إليها الإنسان الفرد، وتحتاج إليها الجماعة، وتحتاج إليها «القاعدة» ليرسخ في حسهم جميعا هذا «المعنى» فلا يعود حقيقة ذهنية يستوعبها الذهن ثم ينتهي بها المقام هناك . . إنما تتحول إلى وجدان قلبي، يتعمق في القلب حتى يصدر عنه سلوك عملي كذلك الذي ورد ذكره في كتاب الله :

«والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»<sup>(١)</sup>

إنه لمثل هذا كان يعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يربي أصحابه رضوان الله عليهم، ثلاثة عشر عاما في مكة، وسنوات في المدينة بعد ذلك . . لم يكن يقول في نفسه وهو في مكة: إلى متى نظل نربي تلك المشاعر دون أن «نعمل»! لأنه كان يعلم يقينا - بما علمه ربه - أن هذا من العمل الأساسي المطلوب لإنشاء القاعدة المؤمنة التي وُجِّه صلى الله عليه وسلم لإنشائها . . وأن هذه الأخوة - فوق أنها ضرورية لإقامة القاعدة المؤمنة التي هي نواة «الأمة المسلمة» - فهي جزء من «التحقيق السلوكي» للإله إلا الله . . فليست لا إله إلا الله وجدانا قلبيا عميقا فحسب، بل هي التزام بما أنزل الله. ومن ثم فكل ما جاء من عند الله فالالتزام به هو من مقتضيات لا إله إلا الله. وقد أحب الله هذه الأخوة وامتدحها، وأوجبها على المؤمنين به، وأنزل فيها آيات كثيرة لعل من أبرزها:

«يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم، ولا تنابزوا بالألقاب،

(١) سورة الحشر [٩].

بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن، إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضا . أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا؟ فكرهتموه . واتقوا الله إن الله تواب رحيم»<sup>(١)</sup>

بالقرآن . . بالمصاحبة . . بالمعايشة . . بالتوجيه المستمر . . بالقدوة في شخصه الكريم صلى الله عليه وسلم . . بالحب الذي يفيض من قلبه الكبير إليهم . . بالاهتمام بكل فرد منهم كأنه هو الأثير عنده . . بالممارسة العملية للمشاعر الإيمانية داخل «الجماعة» . .

بهذه الوسائل مجتمعة رتب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الجماعة المتآخية، التي صنعت بتآخيتها الأعاجيب، وأقام ذلك البنيان المتين المترابط، الذي يشد بعضه بعضا فيقويه . .

وفي غربة الإسلام الثانية، نحتاج إلى مثل ما احتاج إليه الأمر في الغربة الأولى . . إن لم يكن على ذات المستوى السامق، فعلى أقرب المستويات إليه . . ذلك أن الضغوط الجاهلية تفتت كل ترابط، ما لم يكن وثيق الرباط إلى الحد الذي يتحمل كل الضغوط، ويبقى وثيقا رغم كل الضغوط . .

كم يستغرق هذا الأمر؟ لا أدري! ولكنني أعلم يقينا أنه مطلوب . . وأن «القاعدة» التي يقع عليها عبء مواجهة الجاهلية بكل كيدها، ينبغي أن تحقق في سلوكها العملي هذا الخلق من أخلاقيات لا إله إلا الله، لتصبح جديرة برعاية الله . . ولكي تستطيع أن تمضي في الطريق متآخية متساندة مترابطة وهي تتعرض للأهوال . .

\* \* \*

«النظام» من ضرورات الحياة البشرية . . وفي هذه الأيام خاصة يتردد القول بأنه من «التحديات الحضارية» التي تواجه هذه الأمة . .

(١) سورة الحجرات [١١ - ١٢].

والبيئة التي انتشر فيها الإسلام - بقدر من الله - تقع كلها - ماعدا النادر منها - في المنطقة الحارة والمنطقة المعتدلة الحارة. وهذه البيئة فوضوية بطبيعتها! إن الحياة - في معظمها - سهلة رخيصة . . لا أحد يموت من الجوع إلا النادر. ولا أحد يموت من البرد إلا النادر. . وأقل قدر من الطعام يمكن أن يحفظ الأود لأنه لا يوجد البرد القارس الذي يستهلك الطاقة ويحتاج إلى «الوقود» الغذائي المتجدد. كذلك لا يحتاج الإنسان أن يخترن في أعصابه تدبيراً وترتيباً للمستقبل، لأن المستقبل في حسه مثل الحاضر، والحاضر تقضي أموره بصورة من الصور ليس فيها ترتيب مسبق ولا تدبير كثير. . ومن ثم لا يحتاج الإنسان أن «يخطط» للمستقبل، ولا أن يمد بصره أو تفكيره إلى بعيد، فحين يأتي الغد بمشكلاته، نحلها بذات العفوية التي نحل بها مشاكلنا الحاضرة! ومن ثم تتسم طباع أهل المنطقة - المستمدة من تأثير البيئة - بالعفوية الشديدة و«قصر النفس»، لأن النفس الطويل لا يفترق في نتائجه العملية - في حسهم - عن النفس القصير الذي يواجه المشاكل - وقت حدوثها - وينتهي منها في لحظتها، وينصرف إلى غيرها!

وخلاصة القول أن أهل هذه البيئة - حين يتركون لتأثير البيئة وحده - قوم يكرهون النظام، ويرونه عبثاً ثقيلاً على أعصابهم لا ينبغي أن يحملوه، ولا ضرورة - في حسهم - لحملة. وقوم عفويون يكرهون التخطيط والنظر إلى بعيد، ويرونه كذلك عبثاً ثقيلاً على أعصابهم لا موجب له. وهم أخيراً قوم قصار النفس يشتعلون حماسة لفترة موقوتة، ثم تخبو حماسهم كأن لم تشتعل قط، وتنصرف إلى موضوع جديد. .

من هذه الطباع - المستمدة من تأثير البيئة - تسلمهم الإسلام فأنشأ منهم خلقاً آخر. .

أنشأ منهم بادئ ذي بدء أمة شديدة التنظيم. . لا تكره النظام ولا تمرد عليه، بل تسارع إليه وتمثل لمقتضياته. . وليس بنا - هنا - أن نستطرد كثيراً إلى الوسائل التي غير بها الإسلام طباع هذه الأمة المستمدة من البيئة، والموروثه فيها قروناً إثر قرون. . ولكني كلما قرأت في كتب السيرة: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يصفنا للصلاة كما يصفنا للقتال . . « تهتز نفسي تأثرا وعجبا لهذا المربي العظيم صلى الله عليه وسلم كيف كان يعد هذه الأمة لمهمتها . . لتكون «خير أمة أخرجت للناس»! وأعجب لهذا الدين كيف يصنع في النفوس، فيغير من الطباع ما يبدو لأول وهلة داءً مستعصيا على الحل!

كان عليه الصلاة والسلام لا يبدأ الصلاة حتى يرى الصف قد استقام . . وكان يقوم الصف بيديه الشريفتين، يلصق كتف هذا بذلك، وقدم هذا بذلك، حتى يقوم صف الصلاة كصف القتال . . كأنه بنيان مرصوص!

والإسلام كله نظام ودقة - مع سماحته التي تعطف على الضعف البشري ولا تلعبه مادام صاحبه لا يصر عليه، ومع نداوته التي تتعامل مع النفوس البشرية لا على أنها آلات وأدوات، ولكن على أنها مشاعر وعواطف، فيرفع عنها الحرج: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصرأ على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعم أجر العاملين»<sup>(١)</sup>.

«هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج»<sup>(٢)</sup>

«ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم، وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون»<sup>(٣)</sup>

ويتبدي التنظيم واضحاً في العبادات خاصة . فالصلاة مواقيت . والصوم مواقيت، والحج مواقيت . والزكاة مواقيت . فضلا عن التنظيم الدقيق في كل عبادة من هؤلاء، وخاصة في الصلاة والحج . .  
والقرآن يعلم المؤمنين النظام والدقة في الآداب التي نسميها اليوم «الآداب الاجتماعية»:

(١) سورة آل عمران [١٣٥ - ١٣٦].

(٢) سورة الحج [٧٨].

(٣) سورة المائدة [٦].

«يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها. ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون. فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم. وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا، هو أذكى لكم، والله بما تعملون عليم. ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم. والله يعلم ما تبدون وما تكتمون»<sup>(١)</sup>

«يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه. ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث. إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم. والله لا يستحيي من الحق. وإذا سألتموهن متاعا فأسألوهن من وراء حجاب. ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن...»<sup>(٢)</sup>

والترية الإسلامية التي رباها الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه جعلت منهم أمة منظمة تنظيمًا دقيقًا على أساس «إنساني» لا على أساس آلي. وتلك مزية الإسلام. فهو ينظم الحياة - في جميع جوانبها - مع المحافظة على «إنسانية الإنسان» ألا يتحول إلى آلة، فيفقد العمل دلالة النفسية التي يؤدي من أجلها، بل يظل الإنسان - مع محافظته على النظام - واعيًا لأهداف وجوده، مريدًا لتحقيقها في كل مرة، لا مدفوعًا دفعا آليًا إليها.

ومع النظام لم تعد العفوية هي صورة العمل في الأمة الإسلامية، لأنه لكل عمل ضوابطه الشرعية، وللشريعة في كل عمل «مقاصد» ينبغي تحقيقها. ومن ثم يراجع الإنسان كل عمل يعمله ليرى هل هو في دائرة الحلال المباح أم خرج عنها، ويراجع النتائج التي يمكن أن تترتب على عمله، ليرى هل هي متمشية مع مقاصد الشريعة أم مخالفة لها.

ومع النظام والانضباط والنظر في النتائج رباهم الإسلام على النفس الطويل والرؤية البعيدة. فهناك هدف بعيد لكل فرد، وهناك أهداف ممتدة لمجموع الأمة.

(١) سورة النور [٢٧ - ٢٩].

(٢) سورة الأحزاب [٥٣].

فأما الفرد فقد رباها الإسلام على أن يعمل لا ناظرا لدنياه وحدها، ولا لغده القريب وحده. . بل وضع له هدفا يتجاوز العالم المشهود كله، والحياة الدنيا كلها. . ليصل به إلى عالم الغيب وإلى اليوم الآخر. . فيعمل في دنياه الحاضرة وفي لحظة الحاضرة وهو ناظر إلى عالم بعيد بعيد يتجاوز كل مدى الحس، ولكنه حاضر في قلبه كأنه يراه أمامه، وكأنه متحقق في هذه اللحظة. ويعمل وفي حسه ذلك الهدف البعيد الذي يسعى كل لحظة إلى تحقيقه، وهو الجنة ورضوان الله. . هدف لا يمكن أن يوجد في حس البشرية كلها هدف أبعد منه. . ومع ذلك فهو متعلق به دائما، يشعر في كل لحظة أن كيانه كله مرتبط به، وأن كل خطوة يخطوها هي خطوة على الطريق إلى ذلك الهدف البعيد. .

وأما الأمة فقد رباها الإسلام على أن مهمتها لا تنحصر في تحقيق كيانها الذاتي المحدود، ولا في أن تعيش لحظةها الراهنة، وإنما لها هدف ممتد في الحياة الدنيا، ويمتد من الحياة الدنيا إلى الآخرة. . ذلك هو دعوة البشرية كلها إلى النور الرباني، والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا في كل الأرض، لتكون شاهدة على البشرية كلها في اليوم الآخر:

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا»<sup>(١)</sup>

«وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله»<sup>(٢)</sup>

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون»<sup>(٣)</sup>

ولقد ظلت الأمة تلاحق هذا الهدف ما يقرب من عشرة قرون متوالية، لا تفتقر حماسها له، ولا تتعاس عن الجهاد من أجله، جيلا بعد جيل، وهذا «أطول نفس» عاشته أمة في التاريخ. .

ولكن خط الانحراف الطويل الذي مررنا بخطوطه العريضة من قبل<sup>(٤)</sup>، وبيننا آثاره في حياة الأمة<sup>(٥)</sup>، ظل يحدث انحسارا مستمرا في حقائق الإسلام، وفي فاعليتها في نفوس الناس. . فارتدت الأمة رويدا رويدا إلى تأثير البيئة. ذلك أنه

(٢) سورة الأنفال [٣٩].

(١) سورة البقرة [١٤٣].

(٤) انظر فصل «خط الانحراف».

(٣) سورة آل عمران [١٠٤].

(٥) انظر فصل «آثار الانحراف».

في غيبة العقيدة الحية المتمكنة من النفوس تصبح البيئة هي صاحبة التأثير. . ومن ثم رجعت الأمة إلى طبيعتها الفوضوية التي تكره الانضباط، العفوية التي تكره التخطيط، القصيرة النفس التي تكره الرؤية البعيدة ولا تطيق المتابعة للأمد الطويل. .

وإذ كانت هذه هي حالة الأمة - كما هو واضح لكل من يدرس أحوالها - فمن يصلحها؟!!

هل تصلحها الأحزاب السياسية الموالية للغرب، وهي لا تضع ذلك في برامجها، ولا تقدر عليه حتى إن قصدت إليه. . وهذه هي تجربة قرن كامل من الزمان، كانت الأمة منجرفة فيه إلى تقليد الغرب والذوبان فيه، فما استطاعت الأحزاب الموالية للغرب، والداعية إلى التغريب، أن تصلح شيئا في هذا المجال، وظلت الأمة - إن لم تكن قد زادت - في فوضويتها الكارهة للنظام، وعفويتها الكارهة للانضباط، وقصر نفسها الذي يشتعل حماسة للحظات، ثم تنطفئ الحماسة وتخمد العزائم وتنصرف الجهود!

هل تصلحها الأحزاب الشيوعية، وهي لا تضع ذلك في برامجها، ولا تقدر عليه حتى إن قصدت إليه. . وهذه هي تجربة ما يزيد على ربع قرن في البلدان التي ابتليت بها من العالم الإسلامي، لم تغير شيئا من حال الناس، إن لم تكن قد زادتهم انحرافا في كل جوانب الحياة. .!

إنه لا يقدر على إصلاح آثار هذه البيئة إلا العقيدة. . ولا يقدر على إصلاحها إلا أصحاب العقيدة الصحيحة، الواعون لحقيقتها، الذين تربوا تربية إسلامية صحيحة، كتلك التي رباها الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه، فتستطيع هذه التربية - كما استطاعت أول مرة - أن تنشئ النفوس نشأة جديدة، منظمة منضبطة طويلة النفس، تزيل آثار الانحراف، وتعيد الأمة إلى ما كانت عليه وقت استقامتها على هذا الدين، لا بهدف مواجهة «التحديات الحضارية» التي يذكرها بعض الناس وهم يتكلمون عن «الإصلاح» المطلوب، بل بهدف إعادة الأمة إلى «خيريتها» التي أخرجها الله من أجلها:

«كتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» (١)

(١) سورة آل عمران [١١٠].



وهو هدف يتجاوز كل «التحديات الحضارية» إلى ما هو أعلى وأنفس . . خبير الدنيا والآخرة على السواء .

ترى كم جلسة . . كم درسا . . كم موعظة . . كم توجيها . . يحتاج إليها الإنسان الفرد، وتحتاج إليها الجماعة، وتحتاج إليها «القاعدة» ليمثل فيها أولا هذا «المعنى» ثم لتكون قادرة على إعطاء المثل لغيرها، فتستطيع بالتالي تربية الأمة كلها - أو من يستجيب منها - على هذه الصفات وهذه الأخلاقيات الضرورية لها، لتتجاوز أزمتهما الحاضرة وتأخذ في الصعود؟! \*

\* \* \*

تلك ثلاثة أبعاد للتربية من بين أبعاد كثيرة في مجالات مختلفة، ليست مثالا خيالية، ولا هي «تحديات»! إنما هي شروط ضرورية لقيام القاعدة المطلوبة، التي تستطيع أن تتحمل العبء الملقى عليها في مواجهة الجاهلية المتربصة بالكيد . . .  
وحيث نتكلم عن التربية، وعن الطريق الطويل الذي لا بد أن نسلكه، نقصد هذه الأبعاد الضرورية التي ذكرنا نماذج منها لمجرد التوضيح . . . ومن هذه النماذج - ومن غيرها الذي لم نذكره - يتضح جليا أن أماننا شوطا طويلا في مجال التربية لا غنى لنا عن المضي فيه، قبل أن يحق لنا أن نتساءل: وماذا بعد؟! \*

إن بعض مجالات التربية قد قطعنا فيه شوطا ولما نصل . . . وإن بعضها الآخر لم نبدأ فيه بعد! وكل تعجل في ميدان التربية بالذات لا يأتي بخير . . . لأنه يكون بمثابة إقامة بنيان على غير أساس . . . أو على غير أساس مكين، فكلما ارتفع كان عرضة للانهار . . .

والذين يستطيّلون الطريق، ومحسبون أن هناك طرقا أقصر وأخصر، ينبغي أن يأخذوا عبرة التجربة، سواء كانت التجربة هي مذبح حماة، أم كانت هي التجربة «السياسية» في السودان . فإذا كنا لا نعتبر بالأحداث، فذلك في ذاته دليل على نقص في تربيتنا يحتاج إلى علاج!

والآن، وقد بسطنا الحديث في القضيتين الرئيسيتين اللتين يدور حولهما الخلاف بين العاملين في الحقل الإسلامي، فقد آن لنا أن نعبّر عبورا سريعا ببعض القضايا الأخرى التي تدور في الساحة، قبل أن نختم حديثنا عن «الصحة الإسلامية» .

## السمع والطاعة

نتكلم عن هذه القضية من حيث إنها أحدثت انشاقات في الجماعات القائمة بالعمل في الساحة الإسلامية، لنشوب خلافات في وجهات النظر لم يتسع لها صدر تلك الجماعات، فخيرت أعضائها بين السمع والطاعة أو الانفصال عن الجماعة، أو هددتهم بالفصل إن هم لم يسمعوا ويطيعوا، فرضخ بعضهم للتهديد، وكنم ما في نفسه من اختلاف في وجهة النظر، وأثر بعضهم أن ينفصلوا، ليكونوا جماعات جديدة، أو ليركوا العمل الإسلامي كله، وتأكلهم دوامة الضياع!

وقضية السمع والطاعة في الحقيقة من ألصق القضايا بالتريبة، وكانت جديدة أن نتحدث عنها كبعد من أبعاد التربية المطلوبة للقاعدة الإسلامية. . لولا أننا أثرنا أن نتحدث هناك عن بعض النماذج البارزة لكي لا يطول بنا الحديث.

إن السؤال الذي ينبغي أن يُسأل في هذا المجال في الحقيقة هو: أى دولة هي التي نفكر في إنشائها - حين تتاح لها الظروف المواتمة - أ هي دولة الشورى الإسلامية التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخان من بعده، أم هي دولة استبدادية عسكرية النزعة، تأمر وتتلقى من رعاياها الطاعة، ولا تتيح لهم أن يناقشوها فيما تفعل وفيما تقول؟!!

معظم الجماعات يعتقد «المسئولون» فيها أنهم هم وحدهم الذين يحق لهم أن يناقشوا فيما بينهم، فإذا وصلوا إلى قرار فهو ملزم لجميع الأعضاء في الجماعة، وأن الآخرين كلهم - أى غير أولئك «المسئولين» - واجبهم السمع والطاعة بغير اعتراض. وتلجأ تلك الجماعات كما قلنا إلى تهديد المخالفين بالفصل من الجماعة إن لم يسمعوا ويطيعوا. .

ويجب أن نقرر حقيقة لا معدى عن تقريرها، هي أنه لا يمكن أن تقوم جماعة بالفعل إن لم يكن لقائدها حق السمع والطاعة على الأعضاء. ويجب أن نقرر حقيقة تاريخية: أن الذي هزم علياً كرم الله وجهه هو جيشه الذي لم يكن يتفق على

رأي، ولا يرضخ لتعليقات قائده حتى يتناقش ويتباحث، وقد يصل إلى قرار ثم ينقضه بعد أن يكون القائد قد أخذ في رسم خطته على أساسه . .

هذا حق . . ولكن الحق من جانب آخر أن استئثار بضعة أفراد في الجماعة بالسلطة بوصفهم «المسؤولين»، وإلزام الباقين بالسمع والطاعة بغير اعتراض، فضلا عن المخالفة الشرعية التي يحملها - وسببها عاجلا - فإنه هو الذي جعل معظم هذه الجماعات تربي «جنودا» ولا تربي «قادة»، فتعجز عن إيجاد «صف ثان» يحمل المسؤولية بعد القائد الأول .

إن المطلوب في التربية - كما أسلفنا - هو تربية جماعة تكون جنودا ملتزمين للقائد، وتكون في الوقت نفسه «قيادات» تحمل المسؤولية بعد ذهاب القائد، وكل قائد لا بد أن يذهب في يوم من الأيام؛ وذلك هو المنهج النبوي، الذي أخرج أعظم جند عرفتهم البشرية، وأعظم قيادات عرفتها البشرية كذلك، وكان منهجه صلى الله عليه وسلم أن يربي في أتباعه كلا الجانبين اللذين تشتمل عليهما النفس البشرية: الجانب الفردي والجانب الاجتماعي على سواء. فأما الضغط على الجانب الفردي من أجل تنمية الجانب الاجتماعي فإنه ينشئ جنودا طائعين، نعم، ينفذون أمر قائدهم في استسلام له، ولكنه لا يربي أفرادا صالحين لحمل المسؤولية . . والدعوة - قَبْلَ الدولة - ذات مسؤوليات ضخمة تتبين عند كل منعطف في الطريق. فإذا كان الأفراد لا يحسنون إلا الطاعة والتنفيذ، فما أيسر أن تنحرف الجماعة كلها بانحراف «المسئول»!

أما المخالفة الشرعية التي أشرنا إليها فهي أن السمع والطاعة ينبغي أن تنضبط بضابطها الشرعي: «إنها الطاعة في المعروف»<sup>(١)</sup>

فهي ليست طاعة مطلقة «للمسؤولين» . . وليست طاعة بغير نقاش وحوار ومشاورة . .

ونضرب أمثلة من واقع العمل الإسلامي تبين خطورة الأمر، وتبين مدى النقص في التربية في هذا الجانب الخطير.

فحين تقول جماعة من الجماعات إن فكرها قائم على أنه «من قال لا إله إلا الله

---

(١) أخرجه الشيخان .

فهو مؤمن ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام» - وهو قول غلاة المرجئة، الذي يحمل مخالفة صريحة للكتاب والسنة - ثم تلزم أعضائها بالسمع والطاعة لهذا القول، أو تهددهم بالفصل إن عارضوا .

وحين تقول جماعة من الجماعات إن السنة ليست ملزمة، وإن لنا أن «نجتهد» في السنة، فنرى أن الحديث الذي حكم له الأقدمون بالصحة هو حديث ضعيف، وأن الحديث الذي حكم له الأقدمون بالضعف هو حديث صحيح، وأن نرفض من الأحاديث ما نراه غير ملائم لأحوالنا ولو كان المحدثون قالوا إنه صحيح وثابت . . ثم تلزم أعضائها بالسمع والطاعة لهذا القول، أو تهددهم بالفصل إن عارضوا .

وحين تقوم جماعة من الجماعات بالتحالف مع الشيطان، متمثلا في أحزاب تنكر شريعة الله، وترفض اعتبارها ملزمة للناس في العصر الحاضر، ولا تعتبر الدين - أي الإسلام - مقوما من مقومات فكرها، وتضع بدلا منه الفكر القومي العربي الاشتراكي، ثم تلزم أعضائها بالسمع والطاعة لهذا العمل، أو تهددهم بالفصل إن عارضوا .

حين يحدث ذلك - وأمثاله - فينبغي أن نراجع جيدا مبدأ السمع والطاعة من ناحيته الشرعية والتربوية، فمن الناحية الشرعية ينبغي أن تنضبط الطاعة بضابطها الشرعي: «إنما الطاعة في المعروف» . . وينبغي أن يكون في دستور هذه الجماعات - وفي نظام تربيتها كذلك - ما يوقف «المسئولين» عند حدهم حين يقعون في تلك المخالفات الشرعية. ومن الناحية التربوية - وهي لصيقة بالناحية الشرعية - ينبغي أن يُفَقَّه الأعضاء في دين الله ليعلموا متى يطيعون ومتى يتوقفون عن الطاعة، ومتى يقفون الموقف الحازم من «المسئولين» ليردوهم إلى الحق. وينبغي كذلك أن يتربوا على تحمل المسؤولية، بجانب الالتزام بالسمع والطاعة. فإنهم مسئولون أمام الله عن كل سمع وطاعة قاموا به مخالفا للموقف الصحيح، وهم مسئولون أمام الله عن الدعوة التي يحملونها، ولا يعذرهم أمام الله أن يقولوا: «إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا»<sup>(١)</sup>

(١) سورة الأحزاب [٦٧].

وإذا بقيت الجماعات يفعل مسئولوها ما يعن لهم - حتى مع افتراض الإخلاص الكامل فيهم - ثم يلزمون الأعضاء بالسمع والطاعة، أو يهددونهم بالفصل إن عارضوا، فستظل تحدث مخالفات جسيمة كالتي حدثت من قبل أكثر من مرة، ويظل العمل الإسلامي يتعثر ويتعثر، حتى ينضب بالضوابط الشرعية الصحيحة. . وتظل الجماعات القائمة بالعمل بعيدة عن تحقيق الروح الإسلامية الحقيقية التي ربي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه. .

## القيادة المطلوبة

ذكرنا فيما سبق أن من أسباب تمزق العمل الإسلامي وتفرقه عدم وجود قيادة كبيرة ترتاح النفوس إليها وتتبعها طائعة، بدافع الإعجاب والحب والتقدير والتوقير. وفي غياب القيادة الكبيرة تقوم قيادات صغيرة متنازعة متنافرة، يعتز كل منها برأيه وموقفه، فلا يحدث الوفاق ولا يحدث اللقاء.

وقلنا إننا لا نملك وسيلة نبرز بها تلك القيادة الكبيرة المطلوبة، إنها نكل هذا الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، على أن نلتزم نحن بالإخلاص والتجرد لله، فنستحق عند الله أن يبيء لنا ما نصبو إليه. كما قلنا من جانب آخر إنه من خلال الاختبارات والابتلاءات تبرز القيادات وتتميز، تحقيقاً لقوله تعالى:

«ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب. .»<sup>(١)</sup>

ولسنا هنا نضيف جديداً في هذا الشأن، إنما نقول فقط كلمة سريعة عن نوع القيادة المطلوبة للعمل الإسلامي في الوقت الحاضر. . ذلك أن الظروف الراهنة في العمل دقيقة للغاية بسبب الملابس الداخلية والخارجية معا. ففي الداخل توجد حالة الجهالة التي وصفناها من قبل، والتي هي السبب الأول في غربة الإسلام الثانية التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي الخارج توجد العداوات الصليبية والصهيونية المتربصة الكائنة، التي لا تترك فرصة لناوأة العمل

(١) سورة آل عمران [١٧٩].

الإسلامي ومحاولة إجهاضه إلا انتهزتها إلى آخر المدى، والقوة في أيديها لتنفيذ ما ترتب من مخططات ضد الإسلام . .

وفي هذه الأحوال الدقيقة توجد «معادلة صعبة» في مجال العمل الإسلامي . .  
فحين يأخذ الشباب شحنة الإسلام الحقيقية، أى حقائق الإسلام كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكما تحققت في التطبيق الصحيح لها في حياة السلف الصالح، وحين يرى الشباب مدى بعد الواقع الموجود اليوم عن هذه الحقائق . . تملؤه الحماسة، ويدفعه إخلاصه للحق الذي عرفه إلى عدم الصبر على هذا الواقع، والرغبة في إزالته بالقوة . . وهنا يقع المحذور الأول، وهو إتاحة الفرصة لأعداء الإسلام لتصفية الحركات الإسلامية بتهمة أنها إرهابية .

وحين يقال للشباب: كفوا أيديكم . . لا تعملوا على الصدام مع السلطة لأن ذلك عمل لا طائل وراءه . . انصرفوا للتربية . . تحمد حماسهم، وينصرف كثير منهم . . ويأوي إلى عزلة بنيسة . . ثم تأكله الدوامة ويضيع!

والقيادة المطلوبة للعمل الإسلامي في ظروفه الدقيقة الراهنة، هي القيادة التي تستطيع أن تعطي الشحنة التربوية كاملة، وفي الوقت ذاته تقول للناس: كفوا أيديكم، فيطيعون . . يطيعون دون أن تحبو حماسهم للعمل الإسلامي، ودون أن يتفلتوا، ودون أن يأكلهم اليأس أو يأكلهم الضياع!

إنها مهمة صعبة، ومعادلة صعبة . . ولكنها ذات الحال التي أملت بالمسلمين في الغربية الأولى في مكة . . وهم يتلقون الشحنة التربوية الكاملة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتلقون معها الإيذاء البشع من قريش، ثم يقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - بأمر الوحي - كفوا أيديكم، فيكفون أيديهم طاعة واحتساباً، وتظل الشحنة حية في نفوسهم لا تحبو ولا تنطفئ، ولا ينصرفون عن قيادتهم، بل يزدادون تعلقاً بها، ويتطلعون إلى رحمة الله . .

ولن تكون هناك بطبيعة الحال قيادة على مستوى القيادة النبوية المتفردة في التاريخ البشري كله، ولكن «المنهج النبوي» قد جعل للأسوة، وجعل للتطبيق العملي على مستوى البشر، كما يفهم من قوله تعالى:

«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر

الله كثيراً» (١)

(١) سورة الأحزاب [٢١].

ولكن القائد - الذي يأخذ الأسوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويطبق «المنهج النبوي» على صورته الصحيحة - لا بد أن يكون إنساناً فائقاً، متصفاً بالصفات اللازمة للقيادة، مع تمكن خاص في الصفات اللازمة للظروف الراهنة الدقيقة، ليزيل الله على يديه الغربية الثانية للإسلام، كما أزال الغربية الأولى على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . وتلك مهمة الغرباء على أي حال كما حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« . . . فطوبى للغرباء، يصلحون ما أقسد الناس من سنتي»<sup>(١)</sup>

وحين توجد هذه القيادة بالمواصفات المطلوبة، وعلى المستوى المكافئ للظروف الدقيقة الراهنة، سيلتئم كثير من الشتات المتناثر على الساحة، بعد أن يعرف المنهج الصحيح . .

وحين لا تصبر الجاهلية على القائد فتقتله، كما قتلت أئمة الدعوة من قبل، فسيحادث من مقتله مولد جديد للدعوة، ولا تحبو الشعلة أبداً، مادامت تعرف المنهج الصحيح . .

## هل نتعلم في المدارس الجاهلية؟

ظاهرة خطيرة تقع من بعض الشباب المخلص المتحمس الذي نذر نفسه للدعوة إلى الله . .

يكون قد وصل إلى السنة النهائية من دراسته الجامعية، وإذا به فجأة يترك الدراسة لأنها «جاهلية» وينصرف إلى عمل تافه يرتزق منه في حدود الكفاف، ويملاً نفسه الإحساس بأنه قد تغلب على نفسه ورغائبها، واستعلى على الحياة الدنيا وزينتها، و«تجرده» لله، وللدعوة، وحقق في نفسه المثال .

ولاشك عندنا في أن مناهج الدراسة في مدارسنا ومعاهدنا ذات صبغة جاهلية صارخة، وضعها لنا أعداؤنا ليفتنونا عن إسلامنا، كما بينا من قبل في الحديث عن الغزو الفكري، واستخدام مناهج التعليم أداة من أكبر أدواته وأخطرها. ولولم

(١) رواه الترمذى.

يكن من هذه المناهج غير بثها الدائم لدعاوى الوطنية والقومية، والعلمانية والاشتراكية. (١) وإشادتها الدائمة بالذين لا يحكمون بما أنزل الله. . لكفى بذلك إثما. ولكنها في الحقيقة لا تكفي بذلك في أي مرحلة من مراحلها، إنما تنشيء ثقافة وعلما مضادا للدين، يهدف في النهاية إلى إخراج العباد من عبادة الله (٢) ولاشك عندنا من جانب آخر في إخلاص الشباب الذي يقرر الانصراف عن هذه الثقافة الجاهلية والانقطاع - فجأة - عن التعليم. ولكنه رغم ذلك يخطئ بهذا التصرف خطأ بالغاً يدل على نقص في البصيرة. . ولقد كررنا مرارا في هذا البحث أن الإخلاص وحده لا يكفي، ولا بد معه من البصيرة كما وجه الله رسوله صلى الله عليه وسلم:

«قل هذه سبيلي، أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (٣)

والأمر الذي يغفله الذين يتصرفون على هذا النحو ينطوي على عدة جوانب: الجانب الأول: أننا إذا انصرفنا كلنا عن تعاطي العلم والثقافة بحجة أنه علم جاهلي وثقافة جاهلية، فسيكون هذا من أسلحة أعدائنا التي يستخدمونها ضدنا! فسيرتبط الجهل بالدعوة في حس الناس، وسيرتبط العلم بالإعراض عن الدين والانسلاخ منه، وتلك هي الحالة التي كان الأمر قد صار إليها قبل الصحوة الإسلامية، وكانت هي ذاتها مما استغله الأعداء لتنفير الناس من الدين! ولقد كانت مزية الصحوة الإسلامية - كما أسلفنا في مبدأ الحديث عنها - أن القائمين بالدعوة الجديدة هم من «الأفندية» الذين تلقوا الثقافة «الجديدة» «التقدمية»، ولكنهم مع ذلك عادوا إلى الدين، وقاموا بالدعوة إليه. . وكانت تلك مفاجأة سيئة للأعداء، أثارَت كثيرا من الاضطراب في مخططاتهم، وأجأتهم - من شدة حنقهم - إلى توجيه الضربات الوحشية للعمل الإسلامي، فكان من نتيجة هذه الضربات - بقدر من الله - اتساع القاعدة وإقبال المزيد من الشباب على الإسلام. فلو أننا عدنا اليوم فانصرفنا عن الثقافة والعلم - بأي حجة من الحجج -

(١) انظر إن شئت كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٢) راجع الكلام عن الغزو الفكري في الفصل السابق، وفصل «العلمانية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٣) سورة يوسف [١٠٨].



فستفقد الحركة الإسلامية سببا من أهم أسباب قوتها في الصراع الوحشي الدائر ضد الإسلام، وسنعود إلى مثل الوضع الذي كان قبل الصحوه . . وسنعين الأعداء - من حيث لا ندري ولا نحتسب - على تنفير الناس من الدين!

والجانب الثاني: أن ما في المدارس والجامعات اليوم من العلم ليس كله خطأ، وليس كله ضارا، وليس كله مما يمكن أن يستغني عنه!

صحيح أنه يقدم بروح جاهلية . . فنحن نقول في كتبنا العلمية البحتة إن «الطبيعة» خلقت، والطبيعة اختصت الكائن الفلاني بكذا من الخواص بدلا من أن نقول الحقيقة «العلمية» وهي أن الله هو الذي خلق، وأن الله هو «الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»<sup>(١)</sup>. ونحن نتحدث عن حتمية «القوانين الطبيعية»<sup>(٢)</sup> بما يوحى للدارسين أن الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا لا يستطيع - إذا شاء - أن يوقف هذه القوانين أو يغيرها أو يغير نتائجها! وهذه وتلك ننقلها نقلا أعمى من كتب العلوم التي تترجمها من المراجع الأوربية ونضع عليها أسماءنا! غير آبهين ولا ملتفتين إل أن موقف الكنيسة في أوربا هو الذي جعل العلم هناك يأخذ تلك الروح المعادية للدين، ولكن هذه الروح ليست علما حقيقيا، إنما هي أهواء وشهوات مزجت ذلك العلم . . (٣)

كل هذا صحيح . . ولكنه لا يعني أننا نستطيع أن نستغني عن الطب، أو الهندسة، أو الرياضيات، أو غيرها من العلوم، ولا يعني أننا نستطيع أن نطرحها من حياتنا ثم تكون حياتنا صحيحة سليمة! فمثل هذه العلوم ضرورة للأحياء، وإن لم نتعلمها - بأي حجة من الحجج - نكون ناقصين في وجودنا، ونكون في الوقت ذاته مقصرين في أداء ما خلقنا الله من أجله من الخلافة في الأرض، التي تعني الهيمنة على الأرض، والإنشاء والتعمير فيها، والتي من أجلها علم الله آدم الأسماء كلها، وجعل لبني آدم السمع والأبصار والأفئدة:

(١) سورة طه [٥٠].

(٢) صار «العلم» اليوم هو الذي يقول إن «قوانين الطبيعة» ليست «حتمية»! وإنما هي مجرد «احتمالات» بعضها أقوى من بعض!

(٣) راجع إن شئت فصل «العلمانية» في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

«والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون»<sup>(١)</sup>

والجانب الثالث: أن مهمة هذه الأمة هي هداية البشرية إلى المنهج الحق: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا»<sup>(٢)</sup>

والحركة الإسلامية القائمة في الأرض اليوم ذات رسالة للبشرية الضالة، تهديها فيها إلى المنهج الحق. . .<sup>(٣)</sup> فهل تستطيع أن تهديها وهي جاهلة في جانب من الجوانب الهامة في الحياة عامة وفي الحياة الحاضرة بصفة خاصة؟ أم إن المفروض أن تطلع على معارف الجاهلية المعاصرة ثم تهديها لتصحيح منهجها، من منطلق العلم لا من منطلق الجهل. . . فالجهل لا يهدي إلى شيء قط!  
وأنا أتحدث عن خبرتي الشخصية:

لقد كانت دراستي لفرويد وأنا طالب بالمعهد العالي للمعلمين، هي المفتاح الذي وجهني إلى معرفة نقاط الخلل في الحياة الأوربية المعاصرة، وانحرافات الفكر الغربي، وزادني معرفة بالمنهج الإسلامي الصحيح في مجال التربية وعلم النفس وغيرهما من المجالات. . .

أقول، كما وجهنا الله أن نقول:

«الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله»<sup>(٤)</sup>

وأقول من جانب آخر: لو أنني أغلقت قلبي وفكري عن الاطلاع على «علم» الغرب، فمن أين لي - كان - أن أعرف جوانب الخلل فيه، وأن أحاول البحث عن المنهج الصحيح في التفكير؟!!

كلا! ما يستفيد من هذه النزعة إلا أعداء هذا الدين!

(١) سورة النحل [٧٨].

(٢) سورة البقرة [١٤٣].

(٣) سنشير إلى هذا المعنى في الفصل القادم «نظرة إلى المستقبل».

(٤) سورة الأعراف [٤٣].

## ماذا نتقلد من الوظائف في «المجتمع الجاهلي»؟

يجب بادئ ذي بدء أن نبين ما نقصده حين نقول «المجتمع الجاهلي» لأنها كلمة يسهل إساءة فهمها في الدوامه الفكرية التي تحيط بالناس في الغربه الثانية للإسلام.

إن هذه المجتمعات التي نعيش فيها اليوم مجتمعات جاهلية كما أسلفنا القول من قبل، لأنها لا تُحْكَم ولا تُحَكَّم بشريعة الله، إنما تُحَكَم وتُحَكَّم بمناهج جاهلية وشرائع جاهلية. وكل حكم غير حكم الله هو - كما بين الله في كتابه المنزل - حكم جاهلي:

«أ فحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون»<sup>(١)</sup>

والآية واضحة الدلالة في أن الحكم - عند الله - نوعان اثنان لا ثالث لهما: إما حكم الله، وإما حكم الجاهلية.

ولكن وصفنا هذه المجتمعات بأنها جاهلية لأنها تُحَكَم بغير ما أنزل الله، لا علاقة له ألبتة بعقائد أهل هذه المجتمعات. فقد يكونون مسلمين، وقد يكونون كفارا، وقد يكونون خليطا من المسلمين والكفار<sup>(٢)</sup>، وتظل صفة المجتمع تابعة لنوع الحكم الذي يُحَكَّم به ذلك المجتمع بصرف النظر عن عقائد من فيه. . . وذلك كوصف «الدار» بأنها دار حرب أو دار إسلام بالنظر إلى غلبة الأحكام فيها بصرف النظر عن عقائد أهلها. فقد كانت «المدينة» دار إسلام حين هاجر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام فيها حكم الله، مع أن المسلمين كانوا في مبدأ الأمر قلة بالنسبة لمجموع أهل المدينة. وكانت مصر دار إسلام حين فتحها المسلمون وأقاموا فيها شريعة الله، مع أن غالبية أهلها لم يكونوا مسلمين، وظلوا غير مسلمين فترة طويلة من الوقت. وكانت الهند دار إسلام حين فتحها المسلمون وحكّموا فيها

(١) سورة المائدة [٥٠].

(٢) كما هو واقع المجتمعات اليوم.

شريعة الله، مع أن المسلمين ظلوا طيلة الحكم الإسلامي الذي امتد ثمانية قرون أقلية بالنسبة لمجموع سكان الهند - ومايزالون! - وعلى العكس من ذلك حين أقام الصليبيون دويلات نصرانية في العالم الإسلامي استمر بعضها مائتي عام، كانت تلك الدويلات دار حرب مع أن غالبية سكانها مسلمون .

إذا عرفنا هذا، فلا بد أن نتطرق إلى القضية التي تثار دائما حين نصف هذه المجتمعات بأنها جاهلية بسبب عدم قيام شريعة الله فيها، وهي : كيف تحكم على «الناس» في هذه المجتمعات .

وقد سبق لنا بيان الرأي في هذه القضية، وهو أننا الآن في مقام التعليم لا في مقام إصدار الأحكام على الناس . ولكننا - في مقام التعليم - لا بد أن نبين للناس حكم الله في هذه القضية ليعرفوه، وليتخذوا مواقفهم بناءً على معرفة واضحة بحكم الله . .

فأما جاهلية المجتمع فمردها إلى أن هناك «مظلة جاهلية» تظلل المجتمع هي الحكم بغير ما أنزل الله . . وهي مظلة تظلل كل الناس الواقفين تحتها، بها في ذلك الدعاة إلى الله ! أما الناس الواقفون تحت المظلة فالحكم عليهم - كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم - مستمد من موقفهم هم من المظلة ! فمن رضي بها فهو منها، ومن أنكرها فله حكمه الخاص :

« . . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيثار حبة خردل» (١)

« . . فمن كره فقد بريء ، ومن أنكرك فقد سلم ، ولكن من رضي وتابع» (٢)

فإذا كان هذا هو حكم المجتمع، وحكم الله في ذلك المجتمع، فما حكم تقلد الوظائف فيه؟

الأصل في «المسلمين» - أي الذي ينكرون الحكم بغير ما أنزل الله - أن يكونوا - بقدر الإمكان - في مواقع بعيدة عن ضغط الحكم الجاهلي عليهم . ولكن هذا لا يتوفر في جميع الأحوال، فكثير من الناس تضطروهم ظروف المعيشة أن يدخلوا تحت هذا الضغط من أجل إعالة أنفسهم وإعالة ذويهم . وهي - كما ترى - ضرورة

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه مسلم .

بالنسبة لكثير من الناس . فأى الوظائف يصح لهم - تحت هذه الضرورة - أن يعملوا فيها؟

لا يوجد تحديد دقيق في الحقيقة . . . ولكننا نقول بصفة عامة إنه كلما قربت الوظيفة من «السلطان» فقد بُعد موقع المسلم منها بالضرورة!  
فالطبيب المسلم يمكن أن يعمل في وظائف الطب . . . ويمكن أن يكون بنظافة سلوكه، ونظافة ضميره، ونظافة تعامله، نموذجا يجب الناس في الإسلام . . . ويكون في الوقت نفسه محصورا في دائرة عمله الفني، بعيدا عن تدخل الجاهلية المباشر في عمله . والمهندس كذلك . . .

أما المعلم فهو خاضع - لا محالة - لقدر من ضغط الجاهلية عليه، سواء في المناهج غير الإسلامية التي تدرس، أو فيما يفرض عليه فرضا من الإشادة بالطغاة الذين لا يحكمون بما أنزل الله . . . ولكنه - مع ذلك - يملك، بسلوكه النظيف، وأخلاقه العالية، وترفعه عن الدنيا، وضربه المثل في اعتزازه بنفسه ودينه وخلقه أن يبين للتلاميذ والطلاب - في صورة عملية - كيف يتميز الإسلام عن الجاهلية . . . وغير أولئك - من «الموظفين» - يتعدون أو يقتربون من ضغوط الجاهلية بحسب نوع العمل الذي يقومون به .

ولكن في جميع الحالات لا ينبغي «للمسلم» - أي الذي ينكر حكم الجاهلية - أن يكون وزيرا . . . فإنه عندئذ يقع تحت الضغط المباشر للجاهلية، بحيث لا يستطيع الفكاك! وأبسط ذلك أن يقسم يمين الولاء للحكم الجاهلي الذي ينكره، أو للطغاة الذين يحكمون بغير ما أنزل الله! ولا أن يكون في موضع التعامل المباشر مع التشريع المخالف لما أنزل الله، فإنه لا يستطيع عندئذ أن ينجو من مخالفة أمر الله!

وكل ما يقال في تبرير ذلك لا يمكن أن يبرره في الحقيقة كما أسلفنا القول من قبل . . .

ولكن بعض الناس يطيب له أن يستشهد بيوسف عليه السلام حين قال للملك الذي لا يحكم بما أنزل الله :

«اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم»<sup>(١)</sup>  
والقياس على حالة يوسف عليه السلام قياس باطل!

(١) سورة يوسف [٥٥] .

فإن يوسف عليه السلام لم يقل للملك «اجعلني على خزائن الأرض» حتى كان الملك قد قال له: «إنك اليوم مكين أمين»<sup>(٢)</sup>. . أي أنه مكن له في الأرض، وفي الحكم، بحيث يأمر فيطاع، ولا يؤمر فيطيع! وهذا هو منفرق الطريق. .

وحين تكون هناك حكومة جاهلية لا تحكم بما أنزل الله، تقول لرجل مسلم: تعال فتول لنا وزارة من الوزارات، بحيث تكون أنت المخطط فيها والمنفذ، ولا نتدخل في عملك، بل ننفذ لك أوامرك. . فعندئذ لا حرج على الرجل المسلم أن يقبل العرض، ويختار الوزارة التي يعلم من نفسه واستعداداته أنه كفاء لها، ويكون في موقعه ركنا من أركان الدعوة، ومنتظما لشريعة الله. . فهل يحدث هذا في عالمنا؟!

وحين لا يحدث ذلك، فكل كسب وقتي تكسبه الدعوة - وهي تكسب مكاسب مؤقتة دون شك - لا يوازي الضرر الحادث من تميع قضية الحكم بما أنزل الله في حس الجماهير، وبالتالي تأخير قيام «القاعدة المسلمة» التي لا يقوم بغيرها حكم إسلامي ولا يمكن له في الأرض!

### هل نرغب الناس في الإسلام بذكر محاسن النظام الإسلامي؟

يقولون: من باب الترغيب. . من باب «تأليف القلوب». . ينبغي أن نحدث الشباب خاصة عن محاسن النظام الإسلامي، لأن الشباب عرضة - بسبب الغزو الفكري - للفتنة بالمذاهب المعاصرة - بالديمقراطية والاشتراكية خاصة - فلا بد أن نبين له أن النظام الإسلامي أفضل من تلك النظم، لنواجه تلك الفتنة التي يحدثها الغزو الفكري في غيبة من المعرفة الصحيحة بالإسلام. .

ولسنا نعترض على كاتب يكتب عن النظام الإسلامي. . ولكن هناك عدة محاذير ينبغي أن نجعل بالنسبة إليها. .

المحذور الأول هو «الدفاع» عن الإسلام!

(١) سورة يوسف [٥٤].

إن اعتبار الإسلام متهما ينبغي أن تنبرى أعلامنا للدفاع عنه هو منهج خاطئ يجب الابتعاد عنه . . لأن النظام الرباني لا يحتاج إلى دفاع البشر عنه لتبرئته من «التهم»، ولا إلى إعلان براءته مما يتهمه به الناس! ويكون نقصا في عقيدتنا إن ظننا لحظة واحدة أن دين الله «محتاج» إلى تبرئة ساحته بكلام يقوله البشر من عند أنفسهم!

إنما يحتاج الناس دائما إلى «بيان» حقائق الإسلام لهم:

«وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم، ولعلهم يتفكرون» (١)

فالمنهج الصحيح إذن هو بيان حقائق الإسلام للناس، فهم في حاجة دائمة إلى هذا البيان في كل جيل من أجيالهم، وفي الأجيال المعاصرة خاصة، التي أصبح الإسلام غريبا بينها من شدة جهلها بحقائقه . . ولا بأس - في أثناء بيان حقائق الإسلام - أن نقف عند شبهة ترد في أذهان الناس من عند أنفسهم بسبب عدم المعرفة، أو يثيرها الأعداء ليفتنوا بها المسلمين عن دينهم، فنجلي هذه الشبهة ببيان الحقيقة فيها.

أما «الدفاع» عن الإسلام فقد كان بعض الكتاب الإسلاميين قد وقعوا فيه - وما أبرئ نفسي - في وقت كانت آثار الهزيمة الداخلية ما تزال عالقة بالنفوس إزاء الهجوم المستمر العنيف الذي يثيره المستشرقون وأعداء الإسلام لفتنة الشباب «المثقف» عن دينه.

وقد كتبت في زمن مبكر كتاب «شبهات حول الإسلام» للرد على بعض تلك الشبهات التي يثيرها الأعداء. وعلى الرغم من أن الكتاب في الحقيقة لم يكن «دفاعا» بالمعنى المعروف، إنما كان هجوما شديدا على الجاهلية الأوربية المعاصرة، مما أثار مستشرفا معاصرا هو «ولفرد كانتول سميث» فأشار إلى الكتاب عدة إشارات حانقة في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث» . .

على الرغم من ذلك فقد أعلنت في مقدمة الطبعة السابعة للكتاب عن عدم موافقتي على منهج الكتاب، وبينت رأبي في المنهج الصحيح الذي ينبغي أن يتبع، وهو بيان حقائق الإسلام للناس ابتداء، لا وضع الشبهة والرد عليها، وقلت في

(١) سورة النحل [٤٤].

تلك المقدمة إنني هممت أكثر من مرة أن ألغى هذا الكتاب من قائمة كتبي ، لولا أنه يطبع ويترجم إلى لغات كثيرة دون إذني في كثير من الحالات ودون علمي ، فأثرت أن أبقيه على ما هو عليه ، مع التنبيه إلى خطأ المنهج ووجوب اتباع المنهج الصحيح بالنسبة لمثل هذه الشبهات .

والمحذور الثاني هو إدخال بعض المفاهيم غير الإسلامية في الإسلام رغبة من الكاتب في «الدفاع» عن الإسلام! وهو كذلك أثر من آثار الهزيمة النفسية إزاء هجوم الأعداء!

فحين نقول إن الإسلام يعطي المرأة جميع الحقوق التي أعطتها إياها «الحضارة الحديثة» . .

وحين نقول إن الإسلام لا يقاتل إلا للدفاع إزاء هجوم يقع على المسلمين . .  
وحين نقول إن الإسلام يعطي الدولة حق مصادرة الأموال أو تأميمها - ولو كانت من مصدر حلال - إذا ترتب على وجود الملكية ضرر . .

وحين نقول إن الإسلام لا يأبى «الانفتاح» على ثقافات البشرية ونظمها ، والاستفادة منها . . أو نقول إن الإسلام نظام ديمقراطي أو نظام اشتراكي . . .  
حين نقول هذا وأمثاله مما يرد في كتابات بعض الكتاب بحسن نية ، فإننا في الحقيقة لا نخدم الإسلام بمثل هذا «الدفاع» - فضلا عن كون «الدفاع» نفسه ليس واردا بالنسبة لدين الله - وإنما نحن نلقى الغبش على حقيقة الإسلام الناصعة ، وندخل على الإسلام - بوعي أو بغير بوعي - ما ليس فيه .

«فالحضارة» الجاهلية المعاصرة أعطت المرأة - كما أعطت الرجل - حق الفساد والتهتك والتبذل باسم «الحرية الشخصية» فهل يسمح الإسلام بذلك للمرأة أو للرجل سواء؟! وهذه الحضارة قد عملت على ترجيل المرأة وإفساد أنوثتها وهي تنفخ في كيانها باسم المساواة مع الرجل . فهل يرضى الإسلام عن ذلك؟ كما عملت تلك الحضارة على إحراج صدر المرأة من قوامة الرجل ، وجعلتها تنظر إليها على أنها عدوان على كيانها وكرامتها . . فهل يقبل الإسلام هذا المسخ الذي مسخته تلك الجاهلية لكيان المرأة ، وخرجت بها عن الحكمة التي خلق الله بها الزوجين ، وجعل العلاقة بينها سكنا ومودة ورحمة ، فانقلبت قلقا وخصاما وتمزقا وفرقة . .



«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة»<sup>(١)</sup>

إنما يعمد الخبثاء من المستشرقين إلى مهاجمة الإسلام في موضوع المرأة فيقولون ويلحون في القول: إن الإسلام يحتقر المرأة ولا يعطيها حقوقها الإنسانية، ليقوم ناس - بحسن نية - «فيدافعوا» عن الإسلام، فيقولوا: كلا! لقد أعطى الإسلام المرأة جميع الحقوق التي أعطتها إياها الحضارة الحديثة، فيكونون بذلك قد وقعوا في الفخ المنصوب لهم، وأدخلوا كل ما صارت إليه المرأة من فساد في الفطرة وفساد في الأخلاق تحت المظلة الإسلامية!.. فيقوم آخرون من عصابة المستشرقين - إمعانا في الكيد - فيقولون: إن الإسلام لا يحارب المرأة ولا يحتقرها، بل هو نظام حضاري يسمح بالتطور ويسمح بالتقدم، وليس جامدا صلدا كما ادعى الذين لم يفهموه! فسارع نحن إلى الاستشهاد بما يكتبون، ونقول: انظروا إلى «المنصفين» من المستشرقين! لقد اعترفوا بأن الإسلام نظام حضاري تقدمي!!<sup>(٢)</sup> وكذلك قضية القتال «الدفاعي»..

يظل المستشرقون يهاجمون الإسلام ويقولون إن الإسلام قد انتشر بالسيف! ليقوم ناس - بحسن نية - فيقولوا: أبدا.. إن الإسلام لا يقاتل إلا دفاعا.. ويكونون بذلك قد وقعوا في الفخ المطلوب، وهو إبعاد «الجهاد» لنشر الدعوة عن حس المسلمين، وهو أخوف ما يخافه أعداء الإسلام من الإسلام! إن الإسلام يستخدم السيف - بأمر من الله سبحانه وتعالى - ولكن لا ليفرض العقيدة على الناس، بل ليزيل الأنظمة الجاهلية التي تحجب - بوجودها - الحق عن الناس، فإذا أزيلت الأنظمة الجاهلية بقي الناس أحرارا لا تفرض عليهم العقيدة الإسلامية، كما بقي الأقباط في مصر، والنصارى في سوريا ولبنان، والمجوس في الهند، لم يكرههم أحد على اعتناق عقيدة الإسلام..

وتظل الشيوعية تهاجم الإسلام من جهة إباحته للملكية الفردية - التي تشن الشيوعية عليها كل هجومها - ليقوم ناس - بحسن نية - فيقولوا - دفاعا عن الإسلام - كلا! إن الإسلام يضع في يد الدولة حق المصادرة والتأميم لإقامة «العدل

(١) سورة الروم [٢١].

(٢) انظر إن شئت كتاب «المستشرقون والإسلام».

الاجتماعي»، فيقعوا في الفخ المنصوب! ويدخلوا «الاشتراكية» في الإسلام، وهو هدف رئيسي من أهداف الشيوعية في العالم الإسلامي. . فالخطة القائمة الآن بتوجيه روسيا هي توجيه دعاة الشيوعية ممن يحملون أسماء إسلامية إلى «تبنى» الإسلام، مع زحزحته عن حقيقته وإلباسه ثوب الاشتراكية، تسهيلا للغزو الشيوعي في بلاد المسلمين!

إنما يستخدم الإسلام أدواته الخاصة لإقامة العدل الاجتماعي، ولموازنة المجتمع إذا اختل توازنه بسبب مخالفة مقاصد الشريعة، وليس من هذه الأدوات مصادرة ما اكتسب عن طريق حلال ولا تأميمه. . (١) وليس هنا بطبيعة الحال مجال بسط هذه القضايا. . إنما نحن نشير فقط إلى سلوك خاطئ يقع فيه من يقع بحسن نية وهو يحسب أنه «يدافع» عن الإسلام. .

وكذلك قضية «انفتاح» الإسلام على الثقافات والنظم!

إنها دعوة لتميع الإسلام وإزالة أصالته النابعة من كونه نظاما ربانيا متفردا لا يختلط بغيره من النظم ولا يمتزج بها:

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» (٢)

«صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون» (٣)

«أ فحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون» (٤)

والذين يقعون في هذه الدعوة يصدرون - بوعي أو غير ووعي - عن هزيمة داخلية أمام النظم الغربية، ورغبة في «تحسين» الإسلام في نفوس الناس، بالقول بأنه يمكن أن يقتبس من هذه النظم ما يراه صالحا وغير متعارض مع أهدافه! كأنهم - في دخيلة أنفسهم - يشكون في صلاحية النظام الإسلامي بذاته. أو كأنهم يخشون - إن قالوا إن الإسلام لا يقتبس من غيره ولا يمتزج به - أن يعمن المتفلتون من الإسلام في ابتعادهم عنه، ولا يستمعوا لصوت الدعوة!

(١) جاء في كتاب الخراج لأبي يوسف: إن لولي الأمر أن يوظف (أي يفرض) في أموال الأغنياء بمقدار ما يحتاج بيت المال.

(٢) سورة البقرة [١٤٣].

(٣) سورة البقرة [١٣٨].

(٤) سورة المائدة [٥٠].

و«الترغيب» في الإسلام مطلوب . . ولكن لا بتمميع حقيقته، ولا بإدخال ما ليس منه فيه! و«تأليف القلوب» لا يكون بالمداورة والمداهنة لهذه النظم الجاهلية البعيدة عن الهدى الرباني:

«ودوا لو تدهن فيدهنون»<sup>(١)</sup>

إنما تكون بعرض الإسلام في نصابه كما أنزله الله، نظاما شاملا متكاملا، كاملا في ذاته غير محتاج إلى التزيين برقع من الأنظمة الجاهلية الشاردة عن منهج الله:

«اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام

دينا»<sup>(٢)</sup>

إنما يستفيد المسلمون من ثمار الفكر البشري فيما يصيب فيه هذا الفكر - بالموازين الربانية - دون أن يكون هناك اختلاط ولا امتزاج بين الإسلام وبين الأنظمة البشرية، لأن صنعة الله لا تختلط بصنعة البشر ولا تمتزج بها، وإن بدا - في ظاهر الأمر - أن هناك تقاربا أو اشتراكا بين الإسلام وبين الأنظمة البشرية، كما يبدو ذلك فيما بين الإسلام والديمقراطية من جهة، والإسلام والاشتراكية من جهة أخرى!

هناك حقا بعض المشابه بين هذه النظم وبين الإسلام . ولكن الأولى - حتى من الوجهة التاريخية البحتة - أن يقال إن بعض النظم البشرية تقترب من الإسلام أو تتشابه معه في بعض النقاط، لا أن يقال العكس! كأن هذه النظم هي الأصل، وهي السابقة، والإسلام محمول عليها أو أخذ منها!!

ثم إنه من الواجب أن نقول: إن هذا التشابه الظاهري بين هذه الأنظمة البشرية وبين الإسلام، لا يجوز أن ينسينا الفارق الهائل في القاعدة التي تقوم عليها هذه النظم والقاعدة التي يقوم عليها الإسلام. ففي القاعدة الإسلامية المعبود هو الله، والمشروع هو الله، وفي القاعدة الأخرى المعبود هو آلهة أخرى - مع الله أو من دونه - والمشروع هو البشر، بكل ما في البشر من خضوع للهوى والشهوات، وقصور عن العلم الشامل وعن الإحاطة. ومن ثم تتحقق إنسانية الإنسان كاملة حين

(١) سورة القلم [٩].

(٢) سورة المائدة [٣].

يكون المعبود هو الإله الحقيقي ، وينتقص من هذه الإنسانية حين يكون المعبود آلهة أخرى من دون الله اسمها الوطن أو القوم أو المذهب أو الزعيم أو . . . الدولار! وحين يكون بعض الناس - بطريق التشريع - عبيدا لبعض! ويتحقق العدل الكامل حين يكون المشرع هو الله «العليم الخبير» ولا يتحقق إلا جزئيا حين يكون المشرع هو البشر، ويظل جانب من الظلم قائما على الدوام، يحاول البشر تعديله فيعدلونه بظلم متجدد على الدوام! (١)

والمحذور الثالث - وقد أشرنا إليه من قبل - هو الدخول في تفصيلات «الحلول العملية» للمشاكل القائمة اليوم من أجل إثبات أن النظام الإسلامي ليس قادرا فقط على حل المشاكل المعاصرة، بل إنه يقدم الحل الأفضل!

والمحذور في هذا الشأن - كما بينا من قبل - أن هذه «الحلول العملية» ليست عملية في الحقيقة لأنها غير قابلة للتنفيذ! لا لأنها في ذاتها غير قابلة للتنفيذ، ولكن لأنه لا يوجد في الواقع من ينفذها، ولو كانت في حقيقتها أفضل من الموجود كله! فالغرب - الذي نفترض في دخيلة أنفسنا أننا نخطبه بهذه الحلول العملية - لن يلتفت إلينا، ولن يستمع منا لأنه غير مسلم! والحاجز الصليبي الذي يفصله عن الإسلام أعلى بكثير وأكثر من أن يجعله يسمع هتافنا له بأننا نملك حلولا عملية لمشاكله أفضل مما لديه من حلول! إنها يسلم من يسلم منهم لإحساسه بجوعه الروح، لا من أجل حلولنا العملية!

وأما الشباب المسلم - أو قل الذي يحمل أسماء إسلامية وهو نافر من الإسلام - فلن يردده للإسلام الاقتناع العقلي بأن الإسلام يملك حلولا عملية للمشاكل المعاصرة، وحلولا أفضل من الديمقراطية والشيوعية! وحتى إن اقتنع حقيقة فسيقول لك - كما أشرنا من قبل - هلموا حققوا حكومتكم الإسلامية ونظامكم الإسلامي، ويومئذ ستجدوننا مؤيدين لكم! ذلك لأنه لم يُدعَ من جانب العقيدة - التي تحركه للتنفيذ - إنها دعي من جانب التفكير العقلي، الذي لا يتحرك من مكانه، وخاصة حين يكون معنى الحركة هو التعرض للتعذيب والتشريد والتذبيح والتقتيل!

---

(١) راجع إن شئت فصل «الديمقراطية» في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

إن النظم الباطلة لها دول قائمة بالفعل ، وهي ذات قوة وسطوة وسلطان . أما النظام الإسلامي - حتى إن اقتنع أولئك الشباب أنه الأفضل - فليست له الآن دولة ذات قوة وسطوة وسلطان . لذلك فإن الذي «يتفرج» على النظم ، سيجد أمامه «بضاعة حاضرة» في «الدكان الديمقراطي» وبضاعة حاضرة في «الدكان الشيوعي» ولكنه بالنسبة للإسلام سيجد نداء على بضاعة لم توجد بعد ، وإن قال له عارضها إنها أفضل من هذه البضاعة وتلك ! فما لم يكن «مؤمنًا» فسيقول لك ببساطة : حين تجيء بضاعتك فسوف أشتري منها! أما الآن فسأشتري من البضاعة الحاضرة! لذلك نقول دائما إن باب الدعوة هو باب العقيدة . . هو باب لا إله إلا الله محمد رسول الله . وإن من لا يدخل من باب العقيدة فسيظل «يتفرج» من بعيد!

أما الذي ينبغي أن نبينه للناس حقا فهو القيم الثابتة في هذا الدين . . سواء في العقيدة ، أو في السياسة ، أو في الاقتصاد ، أو في التربية ، أو في بناء المجتمع . . . فضلا عن كونها من «البيان» الواجب تقديمه لكل جيل من أجيال المسلمين باللغة التي يفهمونها ، ومن خلال التجارب أو المشاكل التي يخوضونها ، فهي أوجب بالنسبة لهذا الجيل الذي يعيش في دوامة قد لا يكون لها مثل في التاريخ . . تشتت فكره وتخيّر وجدانه . . والعلم بهذه الأمور يزيد المؤمن رسوخا في الإيمان ، كلما عرف حقيقة من حقائق دينه ، وقد تلفت المتحيرين ، الباحثين عن الحق بإخلاص ، فترد بعضهم من التيه ، وتهديهم إلى سواء السبيل!

ولقائل أن يقول : ما الفرق بين أن نحدث الناس عن «الأصول الثابتة» في السياسة والاقتصاد . . الخ ، وبين أن نحدثهم عن التفاصيل؟ أليس الحديث عن التفاصيل أولى أن يرد الشاردين حين يقتنعون بجدوى «الحلول العملية الإسلامية»؟

والأمر في حقيقته غير ذلك!

فالباحث عن «الحلول العملية» هو في الغالب شخص «واقعي» بالمعنى السيء للواقعية! فإن لم يجد «البضاعة الحاضرة» - أو الواقع المطبق بالفعل - فسينصرف إلى محل آخر. أما الباحث عن «الأصول» والباحث عن «القيم» فهو إنسان أصيل ، يبحث عن «الحق» ، وحين يجده فقد ينعطف إليه ، ثم يؤمن به ، ثم يجاهد لتحقيقه . .

والمحذور الرابع أن يستدرجنا أعداؤنا لمتابعتهم فيما يثرون من قضايا لا يقصدون بها في الحقيقة التعرف على «الحق»، وإنما يقصدون بها تئيس المسلمين من هدفهم الذي يسعون إلى تحقيقه . .  
خذ مثلاً «النظرية السياسية» . .

يقولون لك: ليس للإسلام نظرية سياسية. أو يقولون: ليس عند المسلمين القائمين بالدعوة أي تصور واضح لنظرية سياسية، فكيف يقيمون دولة؟!  
ويتبنى بعض المخلصين هذه القضية ليثبتوا أن للإسلام نظرية سياسية. ويجتهدون في بيانها من أصولها الثابتة في الكتاب والسنة وفي التطبيق الصحيح لها في عهد النبوة والخلافة الراشدة. . . ويكون في ذلك خير إن شاء الله. . . ولكن! هل يسكت الذين أثاروا القضية أول مرة إذا رأوا أن هذا «التحدي» قد أجيب عليه إجابة «علمية» «موضوعية» مؤصلة؟!!

كلا! فما كان هدفهم منذ البدء الوصول إلى الحق!  
سيقولون (وقد قالوا بالفعل): وماذا تفعلون بالأقليات غير المسلمة في بلادكم؟! (١) وماذا تفعلون بروسيا وأمريكا؟ وماذا تفعلون بالمجتمع الدولي النافر من فكرة الدولة القائمة على عقيدة دينية؟! وماذا. . . وماذا. . . وماذا. . .  
فإذا سألتهم: ماذا إذن؟! فستجد في النهاية أنهم يريدون لك التبعية لهذه الدولة أو تلك - حسب «هويتهم» السياسية إن كانوا من عبيد روسيا أو عبيد أمريكا - وإلى هذا الهدف يدفعونك من وراء «النقاش العلمي» و«البحث الموضوعي»!  
فإذا نسينا خطنا الأصلي، وهو «البيان» لحقائق الإسلام، وتتبعنا القضايا التي يثيرونها باستمرار ولا يكفون عن إثارتها، فالمحذور هو أن يتشتت جهدنا بغير طائل، ونفقد الهدف الأصلي الذي من أجله بدأنا التفكير والبحث والكتابة إلى الناس. . . وهذا هو الذي يقصده أعداؤنا، ويصرون عليه، ويضحكون منا كلما استثارونا للعدو في متاهات الطريق!

---

(١) من أعجب القضايا التي تثار ضد الحكم الإسلامي قضية الأقليات غير المسلمة! إن هناك أقليات إسلامية كثيرة في الأرض لم تفكر - ولا يسمح لها - أن تمتع أكثرية السكان من ممارسة دينهم! فكيف يكون من حق الأقليات غير المسلمة أن يمنعوها الأكثرية المسلمة من ممارسة دينها، والحكم بها أنزل الله هو جزء لا يتجزأ من هذا الدين؟! بأي عرف سياسي أو تاريخي أو منطقي يقال ذلك؟!!

إن وجود أقليات غير مسلمة ، ووجود روسيا وأمريكا ، ووجود المجتمع الدولي ، ووجود غير ذلك من المشكلات . . كل ذلك لا يمكن أن يلغي التكليف الرباني بإقامة حكم الله في الأرض . والذين يعتقدون أن هذا التكليف قد سقط عن «المسلمين» بسبب هذه المشكلات ، هم قوم ينفون عن الله صفة العلم وصفة الحكمة . . كما ينفون عنه صفة القدرة والقوة . كأنهم يفترضون أن الله - سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - لم يكن عالما بأن ظروفنا ستجد في الأرض تمنع إقامة الحكم الإسلامي ! ويفترضون فيه سبحانه أنه يفرض على المسلمين فرضا غير قابل للتحقيق مما يتنافى مع الحكمة ! كما يفترضون فيه سبحانه أنه عاجز عن إعانة المؤمنين وتأييدهم بنصره لأن روسيا وأمريكا أكبر من قوته سبحانه !!

لقد كلفنا الله أن نؤمن به ونجاهد في سبيله . . وتكفل سبحانه بما وراء ذلك . . ونحن نرى بأعيننا في أفغانستان ما يشبه المعجزات ، من صمود قوم عزل من السلاح تقريبا أمام أكبر همجية وحشية في تاريخ الحروب ، ست سنوات متواليات لم يقدر العدو على التغلب على مقاومة المجاهدين المؤمنين . .

والدخول في جدل مستمر مع المجادلين لن يقنعهم - فهم ما ابتغوا البحث عن الحق - ولن يطفى أحقادهم ، فهم أولا وآخرنا يكرهون الإسلام ، وهم بعد ذلك قد استعبدوا هذه الكتلة أو تلك . .

«فذرهم وما يفترون» (١)

والمحذور الأخير أن تستدرجنا قضية «البحث العلمي» فتنسينا جهد التربية المطلوب لإقامة القاعدة الإسلامية - وقد أشرنا إلى هذا من قبل - ونظن ، طالما نحن مشغولون بالتفكير ، أننا نؤدي كل الواجب المطلوب منا . .

إنه لا بأس أن يتفرغ لذلك الأمر فريق من «الباحثين» ، المهيين بطبيعتهم للبحث العقلي أكثر مما هم مهياون للحركة ، أو الاتصال بالناس ، أو القيام بعملية التربية . . أما أن تتصرف إلى ذلك جماعة بأكملها ، وتظن أنها بذلك تؤدي العمل الواجب للإسلام الآن . . فهذا هو المحذور . . لأنه يقتل الحركة في النهاية ، ويضيئ القاعدة بمقدار ما يضيف من البحوث !

(١) سورة الأنعام [١١٢] .

## التطرف

بطبيعتي لا أحب التطرف! لا في أمر بعينه، ولكن في جميع الأمور!  
ولكن هناك أكثر من كلمة ينبغي أن تقال في هذا الشأن!  
الكلمة الأولى أنه قد يقع بالفعل تطرف من بعض الشباب أو بعض  
الجماعات القائمة بالعمل في الساحة الإسلامية. . ولكن حجمه أقل بكثير جداً مما  
يهول المهولون الذين يرمون الساحة كلها بالتطرف لأمر يراد!  
إن الذين يهولون في تصوير التطرف، للتفكير أو التحريض أو الإثارة، يَصْمُونَ  
بالتطرف كل شاب أطلق لحيته، أو كل فتاة تحجبت، أو كل مطالب طالب  
بتحكيم شريعة الله!

وقد يكون من بين كل ألف شاب أطلق لحيته، أو بين كل ألف فتاة تحجبت،  
أو بين كل ألف مطالب بتحكيم شريعة الله واحد متطرف أو واحدة متطرفة. .  
ولكن وصم الألف كلهم بالتطرف أمر مقصود لإيجاد حائل من النفور بين الحركات  
الإسلامية كلها وبين «الجماهير»، لعل ذلك يوقف المد الإسلامي المتدفق، ويعوق  
الحركة الإسلامية عن المسير! وكذلك لضرب الحركات الإسلامية كلها بتهمة  
التطرف، إذا عجز الطغاة عن تدبير تهمة أخرى تبرر في نظر الناس ضرب المسلمين  
الداعين إلى تحكيم شريعة الله.

فليُنظر كل كاتب إسلامي يكتب ضد التطرف إلى أين تنتهي كلماته، وكيف  
تستغل لمحاربة الحركة الإسلامية كلها، حتى أشد «المتساهلين» فيها!  
يقول الله في كتابه الحكيم:

«ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم»<sup>(١)</sup>  
فنهى سبحانه عن سب الآلهة التي تعبد من دون الله، مع أنها كلها باطل لا ذرة  
فيها من الحق، إذا كان سبها يؤدي إلى استعداد أعداء الله على مقدسات الإسلام.

(١) سورة الأنعام [١٠٨].



فكيف نعين بأقلامنا أهل الباطل - لمجرد أننا نكره التطرف، أو لننفى عن أنفسنا  
تهمة التطرف - فنعطيهم سلاحا يستخدمونه ضدنا كلنا في النهاية، كما تقول  
الحكمة القديمة: أكلت يوم أكل الثور الأبيض! (١)

والكلمة الثانية أن الذين يجاربون ما يسمونه تطرفا بحجة أنه تطرف! وأنه ينبغي  
الرجوع إلى القصد والاعتدال! لا يجاربونه في الحقيقة لهذا السبب! ولا يقصدون  
رده إلى الاعتدال الحقيقي بميزان الله الحق! إنما يجاربونه لأنه يشجع الشباب على  
الإصرار في مطالبة الحكام بتحكيم شريعة الله، وعدم قبول أي حل إلا بتحكيم  
شريعة الله! وهذا هو الذي لا يريدونه ولا يقبلونه! فالمحارب في الحقيقة هو  
الإسلام ذاته وليس هو التطرف! والممنوع في الحقيقة هو المطالبة بتحويل الإسلام  
إلى واقع في حياة الناس، لأن المطلوب هو إبقاؤه هكذا! إسلاما بلا إسلام!  
ومهما تخفى الذين يجاربون الإسلام وراء ستار محاربة التطرف، فستظل الحقيقة  
واضحة من وراء كل ستار: أن الذي يحارب حقيقةً هو الإسلام، وأن الذين يراد  
إبادتهم أو نفيهم من الأرض هم المسلمون:

«وما كان جواب قومه إلا أن قالوا: أخرجوهم من قريتهم، إنهم أناس  
يتطهرون» (٢)

والكلمة الأخيرة أن الذي أوجد التطرف في الحقيقة، والذي مازال يغذيه، هو  
الحكومات التي لا تحكم بما أنزل الله، ثم تقوم بتذبيح المسلمين وتقتيلهم حين  
يطالبون بتحكيم شريعة الله .  
وإلا . . فلو أن هذه الحكومات حكمت بما أنزل الله كما أوجب الله عليها، فمن  
أين كان ينشأ التطرف؟

ولو كانت هذه الحكومات - على أقل تقدير - وهي لا تحكم بما أنزل الله - تعامل  
المطالبين بتحكيم شريعة الله - وهو واجب على كل من قال لا إله إلا الله محمد

---

(١) تقول القصة إن جماعة من الثيران الحمر كان بينها ثور أبيض . وكانت تنفر منه ولا تحبه لأن لونه مغاير للونها .  
فجاء الأسد فطلب من جماعة الثيران أن تقدم له واحدا منها ليأكله . فقدموا له الثور الأبيض ليتخلصوا منه . ولكن  
الأسد عاد بعد فترة يطلب ثورا جديدا ليأكله . وهجم على أحد الثيران الحمر ليلتهمه . فقال الثور وهو بين فكي  
الأسد: أكلت يوم أكل الثور الأبيض!!  
(٢) سورة الأعراف [٨٢].

رسول الله - كما تعامل «المجرمين» العاديين، ففتيح لهم فرصة الدفاع عن أنفسهم، ولا تستخدم الوسائل الإجرامية في إكراههم على «الاعتراف» بما فعلوا وما لم يفعلوا، وحكمت عليهم بمقتضى القوانين العادية رغم جورها وعدم شرعيتها .  
لوفعلت ذلك - على أقل تقدير - فمن أين كان ينشأ التطرف؟!

يجب أن يستقر في أذهاننا بوضوح أن المتسبب الأول والمتسبب الأكبر في نشر التطرف وتغذيته هو الحكومات التي لا تحكم بما أنزل الله، وتقوم بتعذيب المطالبين بتحكيم شريعة الله تعذيباً وحشياً لا مثيل له في التاريخ . وأن هذه الحكومات ترتكب ثلاث جرائم في وقت واحد: الإعراض عن أمر الله القاضي بتحكيم شريعته دون سواها . والقيام بجرائم القتل والتعذيب الجماعي التي لا تقرها حتى شريعة الغاب . وتغذية روح التطرف بين الشباب كرد فعل للجريمتين الأوليين .  
كما يجب أن يستقر في أذهاننا بوضوح كذلك أنه لا يمكن القضاء على التطرف إلا بإزالة أسبابه الحقيقية الدافعة إليه . أي باستجابة الحكام لأمر الله لهم أن يحكموا بما أنزل الله، أو- في أقل القليل - الكف عن المعاملة الوحشية التي يعاملون بها الذين يطالبون بتحكيم شريعة الله . . وأن كل مذبحه تقام للمسلمين في الأرض هي وقود جديد للتطرف، يمتد إلى ما شاء الله .  
فلينظر الذين يَشْكُون حقيقة من التطرف، ويرغبون حقيقة في علاجه، أي طريق يسلكون!

\* \* \*

استعرضنا فيما مضى بعض القضايا التي تدور في ساحة العمل الإسلامي ؛ ويجدر بنا في ختام هذا الفصل المتعلق بالصحة الإسلامية أن نلخص المهمة الملقاة على عاتق الدعوة في هذه المرحلة من تاريخها . .  
إن الدعوة مكلفة بواجب تبليغي وواجب تربوي، مقتدية في ذلك بالمنهج النبوي في فترة الدعوة الأولى بمكة .

فأما الواجب التبليغي - حين تسنح الفرص بلقاء الدعوة مع الجماهير - فهو تعليمهم ما جهلوه من حقيقة لا إله إلا الله، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله . والتأكيد لهم بأن ما أصاب المسلمين في حاضرهم من الذل والهوان والضعف والتخلف وغلبة الأعداء عليهم إنما كان سببه تفرغ لا إله إلا الله من مضمونها

الحقيقي، وجعلها كلمة تنطق باللسان فحسب. . وأن هذا ليس هو الإسلام الذي أنزله الله. . إنها الإسلام الذي يرضى الله عنه في الدنيا والآخرة هو نطق لا إله إلا الله محمد رسول الله، والعمل بمقتضاها، وتأدية الفرائض. . وأن المسلمين لن يعودوا إلى التمكن في الأرض بأي مذهب من المذاهب ولا أي منهج من المناهج المستوردة من الشرق أو الغرب، إنها بالرجوع الحق إلى الله، أي عبادته وحده بلا شريك، سواء فيما يختص بالعقيدة، أو ما يختص بالشعائر التعبدية، أو ما يختص بتحكيم شريعة الله في كل أمر من الأمور. وأن استيراد المذاهب من الشرق والغرب خلال قرن كامل من الزمان لم يزد لهم إلا ضعفا وهوانا وذلة وضياعا، وبعدا عن التمكن والاستقرار.

وأما الواجب التربوي فهو أخطر ما تقوم به الدعوة في الحقيقة، لأنه هو طريق الخلاص. . وهو عمل دائم مستمر لا يتوقف مهما كانت الأحوال. في الشدة وفي الرخاء سواء. في السعة وفي الضيق سواء.

والتربية المطلوبة - لإقامة القاعدة الإسلامية - تهدف إلى إخراج نماذج فذة لا إلى مجرد إخراج مسلمين عاديين. نماذج تكون كالأعمدة الراسية في البناء، لتحمل ثقل البناء فيما بعد. .

وهذا يحتاج أولا إلى عقيدة صافية لا غبش فيها ولا بدع ولا انحرافات. عقيدة كعقيدة السلف الأول، خالية من كل ما علق بها خلال الأجيال من إضافات وانحرافات خرجت بها عن عقيدة التوحيد الخالصة الصافية وكادت تردها وثنية جاهلية. .

ويحتاج ثانيا إلى إدراك واعٍ لمقتضيات هذه العقيدة. ومقتضياتها هي كل التكاليف وكل التوجيهات التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله. . ومن عظمة هذه التكاليف والتوجيهات، ومن شموها لكل جوانب النفس وكل جوانب الحياة كانت عظمة هذا الدين، وعظمة الأمة التي حملت هذا الدين وأنشأت به ذلك الواقع الضخم الذي شهده التاريخ. .

ويحتاج ثالثا إلى تربية تحول هذه العقيدة إلى حقيقة سلوكية قائمة في عالم الواقع. وهذه التربية تحتاج إلى ترسيخ معاني الألوهية وتعميقها حتى تصبح يقينا قلبيا يبنى عليه سلوك واقعي. . يقينا لا يزلزله الابتلاء والشدة، ولا يزلزله الرخاء والسعة. .

وتحتاج إلى ترسيخ أخلاقيات لا إله إلا الله ، حتى تصبح حقيقة سلوكية ، تنبثق انبثاقاً ذاتياً من داخل النفس . وأخلاقيات لا إله إلا الله من السعة والشمول بحيث تشمل كل سلوك يقوم به الإنسان . فالأخوة من أخلاقيات لا إله إلا الله . والتكافل من أخلاقيات لا إله إلا الله . والجلد والصبر من أخلاقيات لا إله إلا الله . والشجاعة في الحق من أخلاقيات لا إله إلا الله . والنظام والانضباط من أخلاقيات لا إله إلا الله . ومعرفة الحق واتباعه من أخلاقيات لا إله إلا الله . .

وتحتاج إلى الوعي السياسي بأحوال العالم المعاصرة . وأحوال المسلمين في ظروفهم الراهنة . ومكايد الأعداء ومؤامراتهم الدائمة ضد الإسلام . وتدسسهم إلى حياة المسلمين بالغزو الفكري وغيره من وسائل الحرب .

وتحتاج إلى الوعي الحركي الذي لا يتعجل الخطى قبل أوانها ، وفي الوقت نفسه لا يدع الفرص تفلت منه دون أن يستفيد منها .

وتحتاج إلى موازنة في داخل الفرد وفي داخل الجماعة بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية ، بحيث لا يكون الفرد مستبداً ولا ناشزاً ، ولا يكون في الوقت ذاته إمعة يساير المجموع إن أخطأ أو أصاب . ولا تكون الجماعة مستبدة طاغية تسحق شخصية الفرد ، ولا مفككة لا رابط لها ولا اتحاد . .

وتحتاج إلى وعي فقهي يعرف به الفرد ماذا يأتي وماذا يدع ، ومتى يسمع ويطيع ، ومتى يفضي به السمع والطاعة إلى الهلاك .

\* \* \*

ومن أجل متطلبات هذه التربية ، وهي كثيرة وشاقة ، وخاصة في أمة كادت تنسلخ من كل مقومات الإسلام ، فلا ينبغي التعجل في خطواتها ، ولا ينبغي التعجل في إدخال الجماهير في الدعوة على النطاق الواسع قبل أن يتيسر العدد الكافي من الدعاة والمربين ، الذين تربوا هم أنفسهم على المنهج الصحيح ، والذين يستطيعون بدورهم أن يربوا على المنهج الصحيح . فهذا التعجل لا يخدم الدعوة في شيء ، إنما يعوقها في الحقيقة عن المسير . .

\* \* \*

ويجب أن يكون واضحاً في أذهاننا أن «القاعدة الإسلامية» غير موجودة في الحقيقة ، برغم كل عواطف الجماهير ، وكل حماسهم التي بيدونها حين يذكر

الإسلام . فهي حماسة عاطفية لا تقيم بناء حقيقيا ولا حركة حقيقية . . إنها تحتاج القاعدة إلى الإنشاء من جديد . . فردا فردا حتى يكتمل منها بناء متماسك كبناء الجماعة الأولى على يد الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلا يكن في الدرجة فعلى نفس المنهج ، الذي هو مجال الأسوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الجماعة التي رباها ليقوم عليها البناء .

\* \* \*

ويجب أن يكون واضحا في أذهاننا كذلك أن المعركة بين الإسلام وأعدائه ليست معركة سريعة خاطفة ، ولكنها معركة طويلة شاقة قد تستغرق عدة أجيال . فينبغي للقاعدة التي تنشأ للقيام بهذا العبء الضخم أن تربي لتكون طويلة النفس ، شديدة الصبر ، عميقة الإيمان بالله ، عميقة التوكل عليه ، مستعدة لما يتطلبه أمرها من المعاناة ، قادرة على أن تبذل من نفسها : من جهدها ومالها ودمها وفكرها ، ما يحتاج إليه إزالة الغربة التي أملت بالإسلام اليوم ، واستنقاذ «الغناء» من دوامة السيل ، واستنباته مرة أخرى راسيا في الأرض عميق الجذور . .

وحين تقوم القاعدة بالمواصفات المطلوبة ، بالحجم المناسب ، سيغير الله للناس ، لأنهم يكونون قد غيروا ما بأنفسهم ، ويمكن لهم مرة أخرى في الأرض ، لأنهم يكونون قد وفوا بالشرط :

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوني لا يشركون بي شيئا»<sup>(١)</sup>

وفي الفصل القادم نحاول أن نلقى نظرة على المستقبل ، تمد بصرنا وراء الحاضر الذي نعيشه الآن . .

---

(١) سورة النور [٥٥] .

## نظرة إلى المستقبل

يمر العالم الإسلامي بفترة سيئة في الوقت الحاضر، نتيجة كل الظروف التي شرحناها من قبل في أثناء الحديث عن آثار الانحراف . . من الضعف والذل والهوان والضياع وغلبة الأعداء، مع كل ما يعانيه العالم الإسلامي من أزمات اقتصادية وأزمات سياسية وأزمات اجتماعية وأزمات فكرية وروحية . . والذي يراد بالعالم الإسلامي في المستقبل القريب أسوأ من ذلك كله . فإن الأعداء لم يكفهم كل ما أحدثوه من تخريب من قبل، بل يريدون تخريبا أكبر، وتمزيقا أشد . .

إنهم في الحقيقة سائرون في ذات الطريق الذي بدأه منذ أربعة قرون أو أكثر . . منذ طرد المسلمون من الأندلس، ثم بدأت الحروب الصليبية الجديدة لمطاردة المسلمين في بقية الأرض، وإخضاعهم لسيطرة الصليبية الحاقدة، وإذلالهم انتقاما من الهزيمة الساحقة التي تلقاها الصليبيون في الحروب الصليبية الأولى، بعد كل ما بذلوا من الدماء والأموال، ولم يعودوا مدحورين فقط، بل قامت دولة إسلامية في أوروبا ذاتها، ظلت تزحف زحفا مستمرا قرابة ثلاثة قرون، وتستولى على بلاد نصرانية تخضعها لسلطانها، بل يدخل من سكانها في العقيدة الإسلامية عشرات الملايين!

ولكن العالم الإسلامي كان قد ظن في بداية القرن العشرين الميلادي وفي أثنائه أنه قد تخلص من الاستعمار، واسترد كيانه، وحسّن أوضاعه، وبدأ يخطو إلى الأمام، نحو القوة والحضارة والتقدم والرفي . .

فهل كان الظن حقا؟

لقد انتشر التعليم بعد أن كانت الجهالة هي السمة العامة لشعوب العالم الإسلامي . وتحسنت الأوضاع الصحية بعد أن كان المرض هو المسيطر . ووجدت

مصانع صغيرة أو كبيرة تصنع بعض الخامات المحلية، وتنتج بعض ما يلزم الناس في حياتهم، بعد أن كان كل شيء يستورد من الخارج ويعجز الناس عن صناعته مهما كانت تفاهته. وصارت هناك جيوش تستخدم أسلحة حديثة بعد أن كان سلاحها متخلفا إلى أقصى حد. ودخلت الآلات الحديثة في الصناعة والزراعة والعمارة. وملأت السيارات شوارع المدن. وملأت أجهزة التليفزيون البيوت!

وإلى جانب ذلك انسحبت جيوش الاستعمار من معظم بلاد العالم الإسلامي، واكتفت دول الاستعمار بنفوذها السياسي والاقتصادي بعد أن كانت تحتل الأرض وترهب الناس بعساكرها. وسمحت للبلاد الإسلامية أن يكون لها تمثيل «دبلوماسي»، وأن تحتل مقاعد في هيئة الأمم وفي مجلس الأمن..

ولكن هذه الظواهر لم تكن كلها صادقة كما كان يبدو لأول وهلة، فقد كان بعضها حقيقيا وبعضها خادعا. ولكنها كانت في جملتها - على أي حال - خيرا مما آلت إليه الأحوال بعد الحرب العالمية الثانية، بحيث يعتبر الواقع المعاصر نكسة شاملة بعد التقدم الظاهري الذي كان في النصف الأول من القرن..

كيف حدث ذلك؟! لماذا انتكست الأحوال وصارت تزداد سوءا يوما بعد يوم؟ العوامل داخلية بحتة؟ أم لعوامل خارجية بحتة؟ أم لمزيج من هذه وتلك؟! فلننظر أولا في حالة التحسن الظاهري الذي كان في مبدأ الأمر..

لقد حدث ولاشك قدر من التقدم المادي برضا الاستعمار أو بغير رضاه.. ونستطيع أن نتصور أن روح الثورة على الاستعمار قد شحذت عزائم الناس، فأصروا على أن يتعلموا، وأصروا على أن ينتجوا، وأصروا على أن يصلحوا بعض ما رأوه فاسدا في حياتهم..

ولكن هناك أمرا خطيرا لم تلتفت إليه تلك الشعوب وهي «تزحف» نحو التقدم والتحضر والرفي..

لم تلتفت إلى المؤامرة الكبرى التي صاغتها دول الاستعمار جميعا ضد كيائها الأصيل.. ضد الإسلام.. ولم تلتفت إلى عملية «التسميم» التي قامت بها دول الاستعمار في الأرض الإسلامية قبل أن تنسحب منها..

إنها لم تنسحب حتى كانت قد أبرزت «القيادات العلمانية» التي تقود مرافق الحياة كلها في العالم الإسلامي، وتقوم «بتحضيره»، نعم، ولكن على أسس غير إسلامية!

ولم تنسحب حتى كانت قد «حررت» المرأة المسلمة! حررتها من دينها وأخلاقها وتقاليدها، وأخرجتها إلى الشارع فتنة لنفسها وللرجل على السواء!

ولم تنسحب حتى كانت قد بذرت في الأرض الإسلامية كل البذور السامة الموجودة في المجتمع الغربي، ولكن بدون عوامل القوة الإيجابية التي تؤخر الدمار هناك<sup>(١)</sup>. بذرت الفوضى الجنسية والتحلل الخلقي والتمزق الأسري والضياع الروحي والتمزق النفسي والقلق والانتحار والأمراض العصبية والخمر والجريمة والفردية الجانحة والاستهتار بالقيم والبحث عن المتاع المادي والاستغراق فيه .

هل كان يتوقع لتلك الشعوب وقد بذرت فيها كل تلك البذور السامة أن تتقدم حقيقة، وتنهض حقيقة، وتسير حقيقة على خط القوة والصعود؟ أم كان يتوقع لها الانتكاس الدائم والضعف المستمر، رغم كل مظاهر التقدم المادي التي تطفو على السطح؟!

لقد رأى «العقلاء» بوادر ذلك كله، وأنذروا شعوبهم، فلم تستفق هذه الشعوب لصوت النذير - إلا من رحم ربك - وظلت تلهث كالمجنون، تستزيد من بذور السم، وكلما أخذت جرعة تطلب المزيد!

وما بنا من حاجة لإعادة ما قلناه من قبل عن الغزو الفكري وأدواته والقائمين به، ما بين عميل مستغفل وعميل مأجور، وأثر ذلك كله في عملية التدمير الدائمة في كيان تلك الشعوب .

ومع ذلك كله . . وعلى الرغم من فتور عزائم «الثوار» بعد أن خيل إليهم أنهم انتصروا على الاستعمار وطردوه، وأصبحوا أحرارا في بلادهم - وما كانوا أحرارا في الحقيقة وقد تشربت نفوسهم العبودية للغرب - وعلى الرغم من أثر ذلك الفتور في زيادة تأثير السموم التي خلفها الاستعمار قبل انسحابه . .

على الرغم من هذا كله، فقد كانت شعوب المنطقة الإسلامية تهاوى بخطى حثيثة، ولكنها أبطأ بكثير مما صارت إليه بعد التغيرات الحاسمة التي حدثت على الساحة العالمية، والتي أبرزت في الساحة قوى جديدة أشد ضراوة وأكثر شرا من تلك التي كانت قائمة من قبل!

\* \* \*

---

(١) سنتكلم عن هذا الأمر فيما يلي من الفصل .



أحدثت الحرب العالمية الثانية تغيرات جذرية في «التركيبة السياسية» القائمة في الأرض.

لقد كانت الدولتان «العظيميان» أي اللتان لهما السيطرة الغاشمة في الأرض هما بريطانيا وفرنسا، ومن دونها قوى ثانوية تستظل في الحقيقة بظلها «الاستعماري» وإن حدثت منافسات جزئية بينها وبين الدولتين الكبيرتين في شتى المجالات. وكانت الدولتان ذاتهما تتنافسان فيما بينهما منافسة عنيفة حتى عقدت اتفاقية سايكس - بيكو، فهدأ بينهما الصراع حين اتفقتا على تقسيم مناطق النفوذ بينهما. . ولكن كان هناك عنصر مشترك بين المتنافسين جميعا، ينسون عنده صراعاتهم ومنافساتهم، ويقفون صفا واحدا متساندا متعاضدا - ذلك حين يواجهون الإسلام.

ولقد يفيدنا أن نذكر - على سبيل المثال - أن بريطانيا احتلت مصر عام ١٨٨٢م، وطردت النفوذ السياسي الفرنسي الذي كان قائما في مصر من أيام محمد علي إلى أيام الخديو إسماعيل، ولكنها لم تتعرض قط للمؤسسات التبشيرية الفرنسية، ولا للمؤسسات «الثقافية»، ولا لمعهد الآثار الفرعونية الذي تركه نابليون في مصر، لأنه هنا ينسى الإنجليز عداوتهم وخصومتهم لفرنسا، ويتذكرون أن كلا منهما يعمل للقضاء على العدو المشترك. . فيتساندان!

وربما كان أبلغ من ذلك في الدلالة أن الذي حمى الدكتور طه حسين، الفرنسي النزعة، الفرنسي الثقافة، حين غضب عليه الأزهر بسبب كتابه «في الشعر الجاهلي» الذي هاجم فيه القرآن والإسلام وجميع المقدسات، وطالب بسحب شهادة العالمية منه وتقديمه للمحاكمة. . الذي حماه من هذا كله هو المندوب السامي البريطاني، الذي ذهب إلى رئيس الوزراء في مكتبه، وقال له: إلى متى يستمر هذا العبث؟! وفي الحال أقفل التحقيق الذي كان قد بدئ مع طه حسين، وأسكت الأزهر، وهدأت الزوبعة. . وبقي «الدكتور»!

هكذا كانت تسير الأمور في الأرض قبل الحرب العالمية الثانية. . قوتان رئيسيتان مسيطرتان، وقوى ثانوية تنافسهما، ولكن الجميع - بالنسبة للعالم الإسلامي - متعاونون على الهدف المشترك، وهو حرب الإسلام! ووسائلهم الكبرى هي الغزو الفكري، وتحرير المرأة، وإفساد المجتمع، وإبراز الزعامات

العلمانية في جميع المجالات . . في ظل السيطرة السياسية والاقتصادية التي يارسها الاستعمار الصليبي .

ولكن الحرب قضت على الدولتين «العظميين» وأبرزت بدلا منها وحشين جديدين من نوع آخر . . هما روسيا وأمريكا . . وأهم من ذلك أنها أبرزت النفوذ اليهودي سافرا على السطح .

لقد كان النفوذ اليهودي قائما في العالم الغربي منذ الثورة الصناعية التي وقعت تلقائيا في أيدي المرابين اليهود كما بينا في غير هذا الكتاب<sup>(١)</sup> . ولكنه لم يتغلغل قط، ولم يبرز قط، كما تغلغل بعد الحرب العالمية الثانية، وسيطر على كلا المعسكرين في الشرق والغرب، وصارت السياسة العالمية في يد اليهود، ينفذونها عن طريق الدولتين المتوحشتين الجديديتين، أصرح بكثير، وأوضح بكثير مما كانوا ينفذونها من قبل من خلال بريطانيا وفرنسا فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .

لقد وصل اليهود إلى قلب المنطقة الإسلامية وأقاموا دولتهم في فلسطين، وسخروا لذلك كلا من الدولتين المتسلطتين، فكانت أمريكا أول دولة اعترفت بالدولة اليهودية، وبعدها بعشر دقائق اعترفت روسيا بالدولة القائمة صراحة على أساس ديني، بينما المذهب الشيوعي كله يرفض ذلك رفضا باتا ويندد به! وحدث في أثناء قيام الدولة اليهودية ذلك الحدث التاريخي الذي وقع بقدر من الله، وهو صدام الفدائيين المسلمين مع اليهود، وتبينت الصهيونية والصليبية كلتاهما، أن الدولة التي تأمرنا معاً لإيجادها في قلب العالم الإسلامي<sup>(٢)</sup>، مهددة بالخطر إذا بقيت الحركة الإسلامية، فضلا عن تعذر توسعها فيما بعد إذا بقيت تلك الحركة على ما هي عليه .

عندئذ تلاقى العداوات كلها - ولكن على درجة أعنف مما مضى في التاريخ كله - على ضرورة القضاء البات على الحركة الإسلامية، وعلى أن تتعاون القوى الثلاث: أمريكا وروسيا واليهودية العالمية على الفتك بالإسلام والمسلمين . ومن هنا بدأت مرحلة جديدة من «التحطيم» أعنف مما سبق من قبل، متمثلة

(١) انظر إن شئت فصل «دور اليهود في إفساد أوروبا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .

(٢) راجع تقرير لورد كامبل المشار إليه من قبل .

في خطين رئيسيين: التذبيح الوحشي للمسلمين، والتفتيت المستمر للدول القائمة في العالم الإسلامي، والعالم العربي بصفة خاصة.

حقيقة إن بدء التذبيح الوحشي قد قامت به بريطانيا لحساب اليهود عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩، حين بدأ اعتقال الإخوان المسلمين وقُتِل الإمام الشهيد، وإنه كان يمكن أن يتكرر على يد بريطانيا وفرنسا في أكثر من مكان في العالم الإسلامي. . . ولكن الجولة الجديدة استخدمت أداة أشد فتكا، وأقدر على ارتكاب جرائم القتل الجماعي، وهي الانقلابات العسكرية التي يختار لها «الصالحون» للمهمة، من مجنوني العظمة وقساة القلوب، الذين لا يتورعون عن شيء يطلب منهم مقابل التمتع «بالعظمة» والسلطان.

وهكذا توالى المذابح الوحشية، وتصدت معها في الوقت ذاته عملية إفساد الأخلاق في جميع المجالات.

لقد كانت عملية إفساد المجتمع من طريق ما سمي «تحرير المرأة» قميئة أن تتسع من تلقاء ذاتها، وتعطي ثمارها الخبيثة على مدى الأيام، ولكنها - على يد العساكر - نشطت عن عمد، وأسرعت خطاها لأمر يراد!

خطب جمال عبد الناصر ذات مرة خطبة ملتتهبة - بالعامية! <sup>(١)</sup> - وقال فيها عبارة عجب الناس منها ليلتذد، ولكنهم تبيينوا مغزاها واضحا فيما بعد! قال - وكان متضايقا من أحد مواقف إسرائيل المحرجة له <sup>(٢)</sup> -: «هي إسرائيل عايزة متنا إيه. . . إحنا حررنا المرأة!»

كذلك كانت عملية تحطيم القيم في المجتمع قميئة أن تتسع من تلقاء نفسها على يد الاستعمار الأول، وفي فترة «الاستقلال»، نتيجة السموم الكثيرة التي بثت في المجتمع، ونتيجة تنحية الدين عن الحياة. ولكنها اتسعت اتساعا بشعا على يد العساكر، نتيجة الحرب الوحشية على الإسلام، وإبعاد كل نظيف ونزيه عن مقاليد الأمور، وتقريب المتملقين والإمعات الذين يدورون مع الفلك حيث دار. . . حتى

(١) كان إبراز مجموعة من «القادة العظام!» لا يستطيعون الكلام بالفصحى في المنطقة العربية أمرا على هوى

أعداء الإسلام، بقصد منهم أو بغير قصد.

(٢) من المعلوم أن اليهود لا يحرضون على عواطف خدامهم - مهما خدموهم - بقدر حرصهم على مصلحتهم

الخاصة. ويذكر القراء أنهم أخرجوا رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من مرة مع أنه يقدم لهم خدمات تفوق التصورا!

أصبحت الرشوة أصلا في المجتمع، وأصبح الغش أصلا في التعامل، وأصبحت الانتهازية عملة متعارفا عليها لا يستتر منها أهلها. . أو باختصار: أصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. . وكان هذا كله جزءا من «السياسة العامة» المطلوبة من قبل الأعداء. . لتفتيت كيان «الشعوب» المحيطة بإسرائيل، فلا يبقى فيها شيء متماسك، يمكن أن يقوم بنوع من المقاومة لأطماع اليهود.

أما بالنسبة «للدول» فيكفي هذا المقال الذي نشر في صحيفة «كيفونيم» اليهودية بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٨٢، واقتبس فقرات منه «روجيه جارودي» في كتابه «ملف إسرائيل: دراسة للصهيونية العالمية»<sup>(١)</sup>، لبيان السياسة المطلوب اتباعها في المنطقة المحيطة بإسرائيل، والتي بدأ تنفيذها بالفعل في لبنان. . والبقية تأتي!

«استعادة سيناء بثروتها هدف ذو أولوية. ولكن اتفاقات كامب دافيد تحول الآن بيننا وبين ذلك. . لقد حررنا من البترول وعائداته، واضطررنا للتضحية بأموال كثيرة في هذا المجال. ويتحتم علينا الآن استرجاع الوضع الذي كان سائدا في سيناء قبل زيارة السادات المشثومة، وقبل الاتفاقية التي وقعت معه في ١٩٧٩.

«والوضع الاقتصادي في مصر، وطبيعة النظام الموجود بها، وسياستها العربية، كل هذا سيؤدي إلى مجموعة ظروف تدفع بإسرائيل إلى التدخل. . . فمصر، بسبب نزاعاتها الداخلية لم تعد تشكل بالنسبة إلينا مشكلة استراتيجية. ومن السهل أن نجعلها تعود خلال ٢٤ ساعة إلى الوضع الذي كانت عليه بعد حرب يونيو ١٩٦٧. لقد ماتت أسطورة مصر «زعيمة العالم العربي» وفقدت مصر ٥٠٪ من قدرتها. . . وكبناء موحد، أصبحت مصر جثة هامدة، وبخاصة إذا أخذنا في الاعتبار المجابهة المتزايدة والمتصاعدة بين المسلمين والمسيحيين بها. ويجب أن يكون هدفنا هو تقسيمها إلى أقاليم جغرافية متباينة في الشمانينيات.

«فإذا ما تمت تجزئة مصر، وإذا فقدت سلطتها المركزية، فلن تلبث بلدان مثل ليبيا والسودان، وبلدان أخرى أبعد من ذلك أن يصيها التحلل. وتشكيل حكومة قبطية في مصر العليا، وإقامة كيانات صغيرة إقليمية، هو مفتاح تطور تاريخي، يؤخره حاليا اتفاق السلام، ولكنه تطور آت لا محالة على الأجل الطويل.

(١) ترجمة د. مصطفى كامل فودة، إصدار دار الشروق بالقاهرة، مقتطفات من ص ١٦١ - ١٦٤، الطبعة

الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

«ومشكلات الجبهة الشرقية أكثر وأشد تعقيدا من مشكلات الجبهة الغربية . وهذا على عكس ما يبدو في الظاهر . وتقسيم لبنان إلى خمسة أقاليم . . يوضح ما يجب أن ينفذ في البلدان العربية . وتفتيت العراق وسوريا إلى مناطق تحدد على أساس عنصري أو ديني ، يجب أن يكون هدفا ذا أولوية بالنسبة إلينا ، على الأجل الطويل . وأول خطوة لتحقيق ذلك هو تدمير القوة العسكرية لتلك الدول .

«والتشكيل السكاني لسوريا يعرضها لتمزق قد يؤدي إلى إنشاء دولة شيعية على الساحل ، ودولة سنية في منطقة حلب ، وأخرى في دمشق ، وإنشاء كيان درزي قد يرغب في أن يتحول إلى دولة على أرض الجولان التابعة لنا تضم حوران وشمال المملكة الأردنية . . ومثل هذه الدولة ستكون على المدى الطويل ضمانا لأمن وسلام المنطقة . وهذا هدف في متناولنا فعلا تحقيقه .

«وأما العراق فهي غنية بالبترو ، وفريسة لصراعات داخلية ، وسيكون تفككها أهم بالنسبة لنا من تحلل سوريا ، لأن العراق يمثل على الأجل القصير أخطر تهديد لإسرائيل . وقيام حرب سورية عراقية سيساعد على تحطيم العراق داخليا قبل أن يصبح قادرا على الانطلاق في نزاع كبير ضدنا . وكل نزاع داخلي عربي سيكون في صالحنا ، وسيساعد على تفكك العرب . . وربما ساعدت الحرب العراقية الإيرانية على ذلك الانحلال والضعف في صفوف العرب .

«والأردن هدف استراتيجي في التو واللحظة . ولن يشكل أي خطر لنا على الأمد الطويل بعد تفككه ونهاية حكم الملك حسين ، وانتقال السلطة إلى أيدي الأغلبية الفلسطينية . وذلك أمر يجب أن يسترعى انتباه السياسة الإسرائيلية . فمعنى هذا التغير هو حل مشكلة الضفة الغربية ذات الكثافة السكانية العربية الكبيرة . فهجرة هؤلاء العرب شرقا - إما بالسلم أو بالحرب - وتجميد نموهم الاقتصادي والسكاني هي الضمانات الأكيدة للتحويلات المقبلة . وعلينا أن نبذل قصارى جهدنا للإسراع بتلك العملية .

«وينبغي رفض خطة الحكم الذاتي ، وأية خطوة أخرى تتضمن حلا وسطا أو تعايشا ، وتصبح بالتالي عقبة في سبيل فصل الأمتين .

«ويجب أن يفهم العرب الإسرائيليون (أي الفلسطينيين) أنه لا يمكن أن يكون لهم وطن إلا في الأردن . . ولن يعرفوا الأمن إلا بالاعتراف بالسيادة اليهودية على

كل ما يقع بين البحر ونهر الأردن . . ولم يعد ممكنا - ونحن على مشارف العهد النووي - أن نرضى بوجود ثلاثة أرباع السكان اليهود مركزين في ساحل مزدهم بالسكان ازدحاما كبيرا . وتوزيع هؤلاء السكان هو أول واجباتنا في سياستنا الداخلية . فيهودا والسامرة والجليل هي الضمانات الوحيدة لبقائنا على قيد الحياة كأمة . وإذا لم تصبح لنا الأغلبية في المناطق الجبلية ، فسيكون مصيرنا كمصير الصليبيين الذي فقدوا هذه البلاد .

«وينبغي أن نعمل على إعادة التوازن إلى المنطقة في المستويات السكانية والاستراتيجية والاقتصادية ، وأن يكون ذلك على رأس ما نصبو إليه . ويتضمن هذا الأمر الإشراف على الموارد المائية بالمنطقة من بير سبع إلى الجليل الأعلى ، وهي منطقة خالية من اليهود تماما اليوم» .

\* \* \*

على هذا النحو من سوء تجري الأمور في العالم الإسلامي ، ويراد لها أن تسير من سيء إلى أسوأ خلال السنوات القليلة القادمة ، من أجل أن تعيش الدولة اليهودية وتتوسع ، بالتأييد الظاهر المكشوف من جانب أمريكا ، والتأييد الصامت المستتر من جانب روسيا ، التي تكتفي بصيحات الإنكار على إسرائيل كلما وقع عدوان يهودي ، وصيحات العطف على «العرب» ، دون أن تصنع شيئا حقيقيا يوقف العدوان ويوقف التوسع العدواني منذ ١٩٤٨م حتى هذه اللحظة! وأنت حين تقف إلى جوار رجل يمسك سكيننا ليذبح به رجلا آخر، ثم تكتفي بأن تقول له : عيب يا رجل! حرام عليك! فإنك في الحقيقة تعينه على أن يتم جريمته وهو آمن من كل تعويق . . لأن الصباح يتبدد في الهواء بعد لحظات ، بينما يظل المجرم ماضيا في جريمته!

وهكذا تقف الدولتان «العظيميان!» موقفهما الحقيقي من الإسلام والمسلمين! وتستعين أمريكا - كما بينا من قبل - بعدوتها روسيا ، وبالشيوعية ، لمحاربة الإسلام في منطقة النفوذ الأمريكية ، وتنسى الدولتان خصومتها وعداوتها ، وتقفان صفاً واحداً متسانداً متعاضداً ضد الإسلام ، كما كانت الدولتان «العظيميان» السابقتان ، بريطانيا وفرنسا ، ولكن بضراوة أعنف ، وشراسة أشد . ويصل الأمر في التساند والتعاضد أن تغطي روسيا العميل الأمريكي الذي يقوم بتذبيح

المسلمين، كما تغطي أمريكا العميل الشيوعي القائم بنفس الأمر، وتعمل كلتاها لحساب اليهودية العالمية، في ذات الوقت الذي تشفى كل منها غليلها الشخصي من الإسلام!

\* \* \*

أما العمل على الساحة الإسلامية فقد تبين لنا من العرض السابق وجود مشكلات غير قليلة وغير هينة فيه، أبرزها تفرق الجماعات العاملة في الساحة وتمزقها، وقيام بعضها بحرب بعض، وغياب القيادة الكبيرة التي كان يمكن أن تجمع العمل الإسلامي وتوحد طريقه، ثم النقص الكبير في جوانب مهمة من جوانب التربية: العقيدية والحركية والفكرية والسياسية.. الخ.

وعند هذه الصورة - بالإضافة إلى ما يراد بالمسلمين من سوء - يقف بعض الناس فيرون كأن الطريق مسدود، وكأن الصحة كلها توشك أن تنهار، ويعود الظلام من جديد.

وهذا غير صحيح..

وأعداء الإسلام أنفسهم - الذين يقومون بهذا الكيد كله للقضاء على الصحة الإسلامية - يعلمون أنه غير صحيح! وأنه على الرغم من كل الجهد الذي يقومون به فهم لم يقضوا عليها، بل هم يحشون امتدادها بعد كل ما فعلوه.

وإذا نحن قلنا إن الصحة باقية بإذن الله، وممتدة ومتوسعة، وإن المستقبل بإذن الله للإسلام، فنحن لا نقول هذا رجما بالغيب، إنما نتبع للواقع المشهود، وللسنن الربانية التي يجريها الله في هذا الوجود.

ولنحاول أولاً أن نتبع قدر الله بهذه الأمة في الفترة الأخيرة المشحونة بالأحداث..

لو كان في قدر الله أن تموت هذه الأمة وتنتهي، وتخرج من التاريخ، فربما كان أنسب حدث لهذا الأمر هو إزالة الخلافة على يد أتاتورك. فقد ساد الظلام واليأس ربوع العالم الإسلامي يومئذ، وأحس المسلمون كالأيتام الذين فقدوا راعيهم، وكانت الصدمة في حسهم ثقيلة تبعث على القنوط..

ولكن قدر الله اختار هذا الحدث ذاته ليكون بداية ليقظة جديدة وبعث جديد..

ولو كان في قدر الله أن يتغلب الأعداء على هذه اليقظة فيقضوا عليها ويخمدوا  
أنفاسها، فربما كانت أعمال أتاتورك الثاني - جمال عبد الناصر - ووحشيته في محاربة  
الحركة الإسلامية، أنسب ظرف للقضاء عليها ومحوها من التاريخ .

ولكن الذي نراه من قدر الله حتى هذه اللحظة أن كل مذبحة تقع، تأتي بمدد  
جديد من الشباب ينضم للحركة الإسلامية، بل نرى أن الاتجاه للإسلام، والرغبة  
في تحقيقه كاملاً شاملاً كما أنزله الله، قد أصبح تياراً ذاتياً عند الشباب، لا يتعلق  
بجماعة معينة، بل يمثل تطلعا عاما عند الشباب، سواء التحقوا بهذه الجماعة أو  
تلك . . أو لم يلتحقوا بجماعة على الإطلاق<sup>(١)</sup>

ولقد قلنا في فصل «الصحوة الإسلامية» إن رجوع الأمة للإسلام لم يكن عجباً،  
«إنما العجب - كان - أن يشرودوا عنه ويتجهوا إلى غيره! والعجب الأكبر - كان - أن  
يشتوا على هذا الشرود، ولا يرجعوا إلى نبض قلوبهم الطبيعي!»

ولقد كان من أكبر أسباب هذا الشرود - كما بينا من قبل - الفتنة بالحضارة  
الغربية. حين قال «المثقفون» لأنفسهم: ها هي ذي أوربا كافرة جاحدة، ومع  
ذلك فهي قوية متحضرة ممكّنة في الأرض، وهي رغم عدم تدينها ذات أخلاق!  
بيننا نحن أصحاب دين، ولكننا ضعاف متخلفون، وفضلاً عن ذلك فنحن أمة  
بلا أخلاق! فلترك هذا الدين إذن، ولنفعّل كما فعلت أوربا حين انسلخت من  
دينها لتتقدم وتتحضر! ثم جر «المثقفون» بقية الأمة وراءهم، في الظروف التي أشرنا  
إليها من قبل في فصل «آثار الانحراف».

واليوم يبدو الخطأ في طرفي المعادلة واضحاً بما لم يكن واضحاً يوم بدأت الفتنة . .  
فأوربا جاحدة كافرة، نعم، وهي تجمع في أيديها كل أسباب القوة . . ولكن  
كفرها وجحودها ليس عديم الأثر في حياتها كما توهم «المثقفون» أول مرة. إنما له  
تأثيران عميقان في كيانها كله، أحدهما قريب صاحِب هذه «الحضارة» منذ مولدها،  
ويزداد معها على الدوام، والآخر ينتظرها في نهاية المطاف. فأما الأول فهو «القلق»  
النفسي والعصبي والفكري، لأن الله - الذي فتح عليهم أبواب كل شيء لما نسوا  
ما ذكروا به، إجراءً لسنة من سننه تعالى - قد أندر البشرية من قديم، أنها إن عتت

---

(١) لا يصلح العمل للإسلام دون جماعة متحابّة متألّفة تعيش الإسلام واقعا ثم تدعو إليه . ولكننا نسجل واقعا

قائماً بالفعل .



عن أمر ربه فقد يفرقها في المتاع الأرضي إلى حين - استدراجاً لها - ولكنه لا يمنحها البركة ولا طمأنينة القلب، فهما من حصيلة الإيمان، لا يمنحها الله إلا للمتوجهين إليه، الذاكرين له، المقرين بألوهية، القائمين بعبادته :

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض»<sup>(١)</sup>

«الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب»<sup>(٢)</sup>

و«القلق» هو السمة الغالبة على هذه الحضارة منذ يومها الأول، ولكن حصيلته تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم، وتقول إحصائياتهم - دائماً - إنه أخذ في الازدياد، سواء في صورة أمراض نفسية وعصبية، أو جنون وانتحار، أو إدمان على الخمر والمخدرات، أو جنوح إلى الجريمة، أو تمزق في علاقات الأسرة وعلاقات المجتمع . . أو . الخ .

وأما التأثير الآخر الذي ينتظر هذه الحضارة في نهاية المطاف فهو الانهيار، الذي تنبأ به كثير من «عقلاء» تلك الحضارة أنفسهم، وإن كانوا لم يملكوا لأنفسهم الفكاك، لأنهم يندرون غيرهم بالخطر وهم أنفسهم في داخل الكيان المنهار! وحقيقة إن الحضارة الغربية المسيطرة اليوم على البشرية لن تنهار بالسرعة التي يتخيلها بعض الناس حين نتكلم عن الانهيار، لأنها تحمل من أسباب القوة والإيجابية ما يؤخر الانهيار المحتوم . .

تحمل قوة العلم . وقوة الصبر والجلد على العمل . وعبقورية التنظيم . والروح العملية في دراسة المشاكل والبحث لها عن حلول . وتحمل تيسيرات نافعة في كثير من جوانب الحياة، تحاول أن ترفع «الجهد» عن كاهل الإنسان وتحمله للآلة . . وكل هذه قوى تمسك بالكيان المتساقط، وتمنعه من السقوط السريع، رغم كل «الأوزار» التي تدفع به إلى الانهيار . .

نعم . . ولكنها - كلها - لا تستطيع أن تحول دون النهاية المحتومة . . لأنها من سنة الله .

أما قضية «الأخلاق» فقد تكشف عن كونها أخلاقاً «نفعية» لا أخلاقاً حقيقية . . جميلة المظهر، نعم، ولكنها عديمة الجذور، لأنها منبثة الصلة بالمعنى

(١) سورة الأعراف [٩٦].

(٢) سورة الرعد [٢٨].

الحقيقي للأخلاق - وهو الدين - ولذلك أخذت تزدوى، وخرج بعد الحرب العالمية الثانية جيل ينسلخ تدريجيا من تلك الأخلاق، وينزلق إما إلى الجريمة، وإما إلى الفوضوية وانعدام المبالاة . . والنسبة آخذة في الازدياد!

ومن الجهة الأخرى تبين أن الذي حل بالمسلمين لم يكن نتيجة أنهم مسلمون . . إنما كان بسبب الخواء التدريجي الذي حل بكل مفاهيم الإسلام الرئيسية نتيجة خط الانحراف الطويل، الذي فرغ لا إله إلا الله من مدلولها الحقيقي، وحول الإسلام كله إلى تقاليد خاوية من الروح . .

ووضوح هذه الحقيقة بالنسبة للحضارة الغربية من جهة، وبالنسبة لواقع المسلمين في القرون الأخيرة من جهة أخرى، له تأثيره ولا شك في الصحة الإسلامية، فهو رافد يمدّها على الدوام بمدد جديد من الأجيال الناشئة يتزايد باستمرار، كلما بدا عوار الجاهلية المعاصرة واضحا للأعين، وكلما أدرك الناس حقيقة الإسلام كما هي في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكما كانت مطبقة في حياة السلف الصالح رضوان الله عليهم، وأدركوا إلى جانب ذلك مدى بعد الأمة في وقتها الحاضر عن حقيقة الدين .

وهذا الوعي بهذه الحقيقة - من طرفيها - أمر لا يمكن وقفه!  
فلا أوروبا تملك أن تتوقف عن الانهيار الذي هي صائرة إليه بحسب السنن الربانية، مادامت مصرّة على معاندة كل ما يأتي من عند الله . ولا المعرفة بحقيقة لا إله إلا الله، وحقيقة الدين المنزل من عند الله، يمكن وقفها اليوم، وقد صارت عند الشباب بديهيّات ومسلّمات!

\* \* \*

رافد آخر من روافد الصحة الإسلامية يتمثل في فشل النظم المستوردة في حل مشاكل الناس، وفشل الزعماء العلمانيين في تحقيق ما كانت الأمة تعلقه عليهم من الآمال .

فهذا هو الواقع المشهود بعد قرن كامل من استيراد النظم من غرب أوروبا أو شرقها على السواء .

ضعف متزايد من جانب «المسلمين»، وقوة متزايدة وعدوان مستمر من جانب الأعداء . .

تمزقت الدولة الإسلامية الكبيرة، وتفتت العالم الإسلامي إلى أجزاء، ثم تفتت الأجزاء إلى أجزاء . . . واليوم يطحن الفتات مرة أخرى لمزيد من السحق ومزيد من التفتت . . .

زاد الفقر، وتراكمت الديون الربوية المتفاقمة، مع بروز طبقة جديدة مستغلة - في ظل «الاشتراكية»! - تجمع في أيديها ثروات خيالية، مقتطعة كلها ومسرقة من قوت تلك الشعوب . . .

انهارت الأخلاق وتدهورت القيم، وفقدت الشعوب ترابطها وتماسكها، وتمزقت إلى أفراد أنانيين، أو جماعات متناحرة، وفقدت البلاد طمأنينتها، وصارت في قلق دائم لا تعرف منه طريق الخلاص . . .

اقتطعت من قلب العالم الإسلامي أرض من أقدس الأرض لتنشأ فيها دولة لليهود، ويجري التحضير لإقامة دول أخرى غير إسلامية في بلاد المسلمين . . .

ويجري العدوان المستمر على المسلمين في كل الأرض: في الهند. في الحبشة. في أريتريا. في الصومال. في أوغندا. في الفلبين. فضلا عن الحرب الضارية على المسلمين في أفغانستان. والسحق المستمر للمسلمين في العالم الشيوعي . . .

ماذا فعلت النظم المستوردة، وماذا فعل الزعماء العلمانيون، وقد جرت كل هذه المصائب من خلال وجودهم، أو جرت على أيديهم، وكانوا هم طرفا من أطرافها، وسببا من أسبابها . . .؟

وحين ييأس الناس من هذه النظم ومن هذه الزعامات . . . فإلى أين يتجهون؟! إنه رافد للصحة الإسلامية لا يمكن وقفه!

فهذه النظم المستوردة تصاحبها دائما عبودية خفية أو ظاهرة لواحد من المعسكرين. والعبودية لا تحدث نهضة ولا تحل مشكلة. أو إن حلت بعض المشاكل فهي تحلها على حساب المصير النهائي للأمة، كالذي يخرج من حفرة ليقع في أكبر منها . . . حتى يقع في الحفرة التي ليس منها خلاص!

والزعماء المزيّفون لا يملكون الخلاص الحقيقي لشعوبهم، لأن ذلك يضر بمصالح الذين يضعونهم في أماكنهم، ويملون عليهم سياستهم! وهم ما وضعوهم في موضعهم هذا إلا ليحققوا مصالح السادة لا مصالح العبيد! فلا السادة يسمحون بالنجاح الحقيقي لأولئك الزعماء لأن هذا ضد مصالحهم، ولا هم

بأنفسهم قادرون على النجاح رغم أنف السادة، لأن السادة هم الذين يمنحونهم السلطان، ويوم يخرجون عن طوعهم فما أسهل أن يزالوا من الطريق!

ولقد حاول السادة أن يملأوا تلك المعادلة الصعبة بإقامة «زعيم خالد» في كل بلد إسلامي، يحقق مصالح السادة تحت ستار من البطولات الزائفة التي تبهر أعين الشعوب، وتوهمها أنه يعمل لصالحها! ولكن اللعبة تنكشف في النهاية، ويتبين للناس أن زعيمهم الخالد قد أغرقهم في العار والذل، والفقر والفضى، في أثناء انبهارهم بما يلعب على المسرح من البطولات! وأنهم قد تأخروا في كل سنة من حكمه بما يوازي عدة أضعاف من السنين . .

وفي نهاية الشوط، حين تملّ الشعوب من اللعبة واللاعبين، تتجه إلى الإسلام بأعداد متزايدة تطلب الخلاص!

\* \* \*

والوجود اليهودي في الأرض الإسلامية رافد من روافد الصحة الإسلامية! لقد أنشئت الدولة اليهودية في مؤامرة صليبية صهيونية مشتركة كما تبين لنا من تقرير لورد كامبل، لتكون «بمثابة الشوكة تخز العملاق كلما أراد النهوض» . .

ولقد قامت بدورها بالفعل، وما تزال قائمة . .

ولكن . . إلى أين يتجه الناس حين يتضجرون ذات يوم من الوجود اليهودي، وسيطرته السياسية والحربية والاقتصادية والفكرية والثقافية . . وكل مجال من المجالات الحيوية؟!

إن اليهود - برغم كل ذكائهم الشرير - يعملون ضد صالحهم، ولكنهم لا يملكون التوقف عن العمل ضد صالحهم، بسبب الحقد الأسود الذي يملأ قلوبهم ضد الإسلام والمسلمين!

«لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا» (١)

إنهم يستذلون البلاد العربية ولا يقفون في إذلالها عند حد، لأنهم يريدون السيطرة ويريدون التوسع، فينشئون بذلك رد فعل دائم يتزايد باستمرار . .

وقد مر بنا مخططهم الذي يريدون تنفيذه في الثمانينيات من هذا القرن

(١) سورة المائدة [٨٢]

العشرين . فهل يملكون أن يتوقفوا ويقولوا لأنفسهم : فلنكف عن ذلك ، ونقف عند الحد «المعقول» لكي لا يحدث رد الفعل المحذور!  
كلا! فإنهم - من حقدهم - لا يكفون . ويسؤل لهم الشيطان أن يمضوا في العدوان فلا يرجعون .

وحين يحدث رد الفعل - كما لا بد أن يحدث ذات يوم - فلمن يتجه الناس؟! أتراهم يتجهون إلى الأحزاب الموالية للغرب ، والغرب - وعلى رأسه أمريكا - هو الذي يمد لإسرائيل في الغي ، ويشجعها على العدوان؟  
أم تراهم يتجهون إلى الأحزاب الشيوعية ، التي تصيح في وجه القاتل : عيب يا رجل! حرام عليك! ثم تركه يجهز على فريسته وهو آمن من كل تعويق؟!  
إنه لا متجه لهم إلا الإسلام!  
واليهود يعرفون ذلك! ويصرحون به أحيانا ، ويحذرون منه! ولكن الحقد الأسود في قلوبهم ، والرغبة الجنونية في السيطرة والتوسع تمنعهم من التوقف ، وتدفعهم إلى مزيد من الشر ، ومزيد من الطغيان .

\* \* \*

هنالك قدر علوي يدفع الأحداث . . ويدفعها في اتجاه معين . . في اتجاه الصحة الإسلامية . .

إن بواعث الصحة كلها موجودة ، سواء منها ما هو قائم في هذه اللحظة أو ما هو قادم في الطريق .

ولا يملك الأعداء - كما بينا - شيئا من أمر هذه البواعث . لا يملكون وقف الحضارة الغربية عن الانهيار . ولا يملكون أي يجعلوا عملاءهم في المنطقة ناجحين من وجهة نظر شعوبهم . ولا يملكون إلغاء الوجود اليهودي ولا منعه من العدوان المستمر ، والطغيان المستمر . .

إنهم يملكون - بقدر الله - أمرا واحدا ، هو التقتيل والتذبيح والتشريد والتعذيب والاضطهاد . . وهذا لا يقضي على الحركة الإسلامية! إنها يصقلها ويمحصها ويجعلها أقدر على المواجهة!  
والله هو الذي يدبر الأمور . .

ويقدر من الله تعمل الظروف العالمية كلها لتمكين الصحة الإسلامية وتأصيلها ، وجعلها هي الخط البارز في مستقبل البشرية . .

ويقدر من الله يُسَخَّرُ أعداء الله كلهم للقيام بهذه المهمة، مهمة تمكين الصحوة الإسلامية وتأصيلها، من خلال أعمالهم «الطبيعية» التي يقومون بها، وبدافع من الحقد الأسود الذي يملأ صدورهم تجاه الإسلام.

ولن يكون شيء من هذا نزهة جميلة ينتزه فيها المسلمون، أو طريقاً مفروشاً بالورود. . . إنما هو العرق والدموع، والدماء والعذاب، والجهد الناصب، والطريق الوعر المحفوف بالمخاوف، وبالوحوشِ الوالغة في الدماء. . . يسقط فيه شهيد تلو شهيد. . . بينما يسير الركب في الحر اللافح وفي الرمهرير. . . لا يتوقف عن المسير. . .

«ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله. وتلك الأيام نداؤها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء. والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، ويعلم الصابرين»<sup>(١)</sup>

وفي النهاية ينصر الله جنوده ويمكن لهم في الأرض حسب وعده الدائم لهم: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً»<sup>(٢)</sup>

ولا نعلم بطبيعة الحال كيف يكون التمكين. . . فذلك غيب. . . ولكننا نستشف من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الملامح لهذا التمكين.

فاليهود اليوم هم المسيطرون في الأرض، وهم الذين يرسمون سياسة العالم، وهم الذين يخططون ضد الإسلام والمسلمين<sup>(٣)</sup>، وبصفة خاصة في المنطقة المحيطة بإسرائيل.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يخشبى اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله»<sup>(٤)</sup>

(١) سورة آل عمران [١٣٩ - ١٤٢].

(٢) سورة النور [٥٥].

(٤) أخرجه مسلم.

(٣) بالتعاون الوثيق مع الصليبية بطبيعة الحال.

واليهود يعرفون هذا الحديث ويؤمنون به . فقد ورد في آخره «إلا الغرقد فهو من شجر اليهود» وهم يفرسون اليوم شجر الغرقد حول بيوتهم في فلسطين إيماناً منهم بصحة الحديث .

فنستطيع أن نستشف من ذلك قيام معركة حاسمة بين المسلمين واليهود، يستظل المسلمون فيها براية لا إله إلا الله، لا بالعروبة، ولا بالقومية، ولا بالتراب الوطني . . وينتصر المسلمون فيها نصراً حاسماً بتقدير الله، ويكون هذا من أحداث التاريخ التي تغيّر التاريخ . .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو يستعرض التاريخ المقبل للأمة الإسلامية من لدن نبوته صلى الله عليه وسلم كما علمه الوحي : «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون . ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها . ثم تكوه خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إن شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فتكون ما شاء الله أن تكون . ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها . ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها . ثم تكون خلافة على منهاج النبوة . ثم سكت»<sup>(١)</sup>

فنستشف من ذلك أن هناك فترة مقبلة في حياة المسلمين، يستظلون فيها بخلافة راشدة على منهاج النبوة، تزول فيها الغربة التي يعانيتها الإسلام اليوم، وتعود فيها الأمة إلى التمكين . .

ونعود إلى الصحوة الإسلامية القائمة اليوم في العالم الإسلامي كله . . هل هي الطريق إلى ذلك التمكين الموعود؟!!

ذلك غيب لا يستطيع بشر أن يتكهن به . إنما نقول فقط إنها بشائر على الطريق . . فإن علم الله في قلوب هذه الصحوة إخلاصها له وتجردها وصدق إيمانها وصلابة عودها، فسيقوم لها طريقها ويعينها على أداء مهمتها . . وإلا فسيبدّلها :

«وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم»<sup>(٢)</sup>

وفي جميع الأحوال ينفذ الله قدره :

«إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدراً»<sup>(٣)</sup>

\* \* \*

(١) رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان .

(٢) سورة الطلاق [٣] .

(٣) سورة القتال [٣٨] .

وحين يمكن الله للأمة المسلمة في الأرض يحدث تغيير جذري في حياة البشرية . .

إن من تكريم الله لهذه الأمة التي جعلها أمة وسطا لتكون شاهدة على الناس ويكون الرسول شهيدا عليها، أن جعل أحوال البشرية كلها مرتبطة بحال هذه الأمة . فإن رشدت ومُكِّن لها في الأرض، يعمها الخير، ويمتد منها إلى ربوع الأرض، كما كانت أوربا تستمد منها في بداية نهضتها بعد أن خرجت من قرونها الوسطى المظلمة نتيجة احتكاكها بالمسلمين في المشرق والمغرب . وإن شردت عن دينها ونسيت ربهما شقيت وشقيت معها البشرية . فإن أوربا الجاهلية التي تحكم البشرية اليوم ما انتفشت وصار لها هذا الوجود الطاغوي في الأرض إلا نتيجة انحسار الأمة الإسلامية عن رسالتها، وكل انتفاش انتفشته أوربا فقد كان على حساب الأمة الإسلامية في صورة استعمار وعدوان وطغيان . .

ومن الثغرات التي وجدت في حياة الجاهلية الأوروبية نفذ اليهود وسيطروا على البشرية كلها كما بينا في غير هذا المكان<sup>(١)</sup>، وازداد شقاء البشرية كلها بهذه السيطرة الخافدة المجنونة التي تعتبر البشر كلهم حميرا خلقهم الله ليركبهم شعب الشيطان .

وحين تعود الأمة الإسلامية إلى إسلامها الحق، ويمكن الله لها في الأرض حسب صادق وعده، تتغير ملامح كثيرة في الأرض . .

لقد جاء الإسلام أول مرة والبشرية على حافة الهاوية، كما عبر «ج . هـ دينيسون» في كتابه «العواطف كأساس للحضارة

«E motions as the Basis of Civilization

«ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى . لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ القبائل تتحارب وتتناحر، لا

(١) في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .



قانون ولا نظام . أما النظم التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحّد العالم جميعه»<sup>(١)</sup>

واليوم تشرف البشرية على التحلل والانهيار مرة أخرى بقيادة الجاهلية المعاصرة . . كما يشهد «عقلاؤها» في صحبات متوالية يطلقونها بين الحين والحين ، ولكنها تضيع في الدوامة المجنونة التي تلفّ البشرية . . ولن ينقذها من الدمار إلا الإسلام . .

تماما كما حدث أول مرة . . مع فارق واحد : أن العداوة المرصودة في طريق الإسلام اليوم أشد مما كانت أول مرة ، والجاهلية القائمة اليوم أخطر مما كانت أول مرة . .

ومع ذلك فإن الضياع الذي تعيشه البشرية في أزمتها الحاضرة يدفع ألوفا من البشر كل عام ممن يبحثون عن طريق الخلاص أن يدخلوا في الإسلام في أوروبا وأمريكا وأستراليا وآسيا<sup>(٢)</sup> وأفريقيا . .

ولو كان الإسلام حاضرا في هذه اللحظة ، ممثلا في مجتمع إسلامي حقيقي ، لكانت هذه الألوفا قد أصبحت ملايين ! فالإسلام هو الحل الحقيقي لكل مشكلات البشرية . .

إن المشكلة الأولى للبشرية اليوم - في ظل الحضارة الغربية - أنها تستكبر على الهدى الرباني ، لأن «الدين» مُثَّل لها على يد الكنيسة الأوروبية غولا بشعا يأكل أموال الناس وأرواحهم وعقولهم ، ويمنعهم من ارتياد العلم ، ويمنعهم من تعمير الأرض ، ويصرف همهم إلى الآخرة بنبذ الحياة الدنيا<sup>(٣)</sup> ومن هذه النقطة الرئيسية المبدئية جاء الشقاء كله ، حين تحكمت «عقول»

(١) عن كتاب «الإسلام والنظام العالمي الجديد» تأليف مولاي محمد علي . وترجمة أحمد جودة السحار .

(٢) في اليابان وكوريا اليوم جماعات كبيرة دخلت في الإسلام .

(٣) راجع فصل «العلمانية» في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .

البشر، أو بالأحرى أهواؤهم وشهواتهم في رسم منهج الحياة، فوقع الذل والظلم سواء في الرأسمالية أو الشيوعية. سواء في الفردية أو الجماعية. سواء في الأخلاقية النفعية أو اللا أخلاقية. وتردت البشرية فيما تردت فيه من فوضى الجنس والتحلل الخلقي والسعار المادي والصراع الوحشي في غياب الشريعة الربانية والمنهج الرباني..

والذي يحل هذه المشكلة الرئيسية المبدئية هو الإسلام..

لأنه الدين الذي يعطى الألوهية قدرها الحق، ويكرّم البشرية في ذات الوقت بتكريم الله:

«ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً»<sup>(١)</sup>.

الدين الذي يربط قلب الكائن البشري بالله بالحب العميق إلى جانب التوقير والخشية، ولا يجعل العبادة قهراً للعباد بل تكريماً لهم ورفعاً ونوراً وشفافية..

الدين الذي يصفى النفس من كدرها الحيواني، وفي الوقت ذاته لا يكبت دوافع النفس التي خلقها الله لكي تعمل لا لكي تكبت. ولكن تعمل في أفقها العالي الجدير «بالإنسان».

الدين الذي لا يفصل بين النزعة الفطرية للعبادة، والنزعة الفطرية للعلم، ولا يقيم بينها الخصومة والعداوة وهما توأمان أصيلان في بنية الفطرة، يعملان معاً، فيتوازن كيان الإنسان..

وهو الدين الذي يحوي المنهج الرباني لتوجيه الحياة البشرية في كل اتجاهاتها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية والخلقية والفنية.. المنهج الذي أنزله اللطيف الخبير. العليم الحكيم. الذي خلق النفس البشرية وهو أعلم بما يصلحها وما يصلح لها. وأعلم بأدواتها وبطريقة شفافها.

والذي يصد البشرية عن هذا الدين عوامل كثيرة في آن واحد..

---

(١) سورة الإسراء [٧٠].

الروح الصليبية التي نشرتها الكنيسة الأوروبية تجاه الإسلام عامل من هذه العوامل .

والعداوة اليهودية للإسلام عامل من هذه العوامل .  
وإفساد مفهوم «الدين» على يد الكنيسة عامل من العوامل .  
والهبوط الذي أحدثته الجاهلية المعاصرة في نفوس البشرية عامل من العوامل .  
والجهل بحقيقة الإسلام عامل من العوامل . .  
ولكن واقع المسلمين اليوم، وبعدهم الشديد عن حقيقة الإسلام سواء في التصور أو السلوك، هو من أشد العوامل التي تصد الناس عن الإسلام . .  
وكما كان سلوك المسلمين الأوائل، الملتزمين بالإسلام، عاملا من عوامل نشر الإسلام في ربوع فسيحة من الأرض، فكذلك نجد سلوك من ينتسبون إلى الإسلام اليوم من أكبر عوامل الصد عن الإسلام، بكل ما يحملون من التخلف في جميع الميادين، وسوء الأخلاق في جميع المعاملات .

وليس المطلوب من المسلمين أن يسبقوا أوروبا في المخترعات والعلوم لكي تقبل أوروبا على الإسلام! فليس الذي ينقص الغرب هو العلوم والمخترعات!  
إنما الذي ينقصهم هو «المنهج» الصحيح للحياة . . المنهج الذي يأخذ الإنسان كله - في شموله وتكامله - لا جانبا واحدا من جوانبه، ويطلق الطاقات البشرية تعمل، ولكن في توازن واتساق . .

ينقصهم أن يزيحوا من حياتهم كل الألهة المزعومة التي أهوها في جاهليتهم المعاصرة: إله القومية والوطنية. إله العلم. إله العقل. إله الإنتاج المادي. إله الجنس. إله الهوى. إله الشهوات . . ويعبدوا الله وحده بلا شريك، ومن ثم يطبقوا منهجه وحده بلا شريك. وعندئذ يصبح كل ما يملكون من الطاقات الإيجابية قوة بانية لأنها مهتدية بالهدى الرباني، ولا تكون فتنة مردية كما هي اليوم، تبعدهم عن طريق الله كلما حققوا قدرا من التمكين في الأرض، فتزيدهم طغيانا، وتزيدهم - من ثم - قربا من الدمار . .

وهذا «المنهج» القائم على عبادة الله وحده، والمستمد من عبادة الله وحده . . هو هو الذي يقدمه الإسلام. وهو الذي يملك المسلمون أن يهدوه للبشرية ويهدوها إليه . . حين يستقيمون هم على الطريق .

والمأمول في الصحوة الإسلامية أن تصل إلى تحقيق هذه الاستقامة التي تنير للبشرية الطريق .

ولن يكون هذا جهدا هينا كما قلنا من قبل، بالنظر إلى العداوات الضخمة المرصودة للإسلام، والحرب الضارية المعلنة عليه، وجهل الأمة بحقيقة دينها، وبعدها عن حقيقته، سواء في التصور أو السلوك . .

ولكن المبشرات كما قلنا أثقل بكثير من المعوقات . .

إن المعوقات تمثل الحاضر القائم في هذه اللحظة، كما تمثل المستقبل القريب الذي يحاك للمسلمين على يد الصليبية الصهيونية الحاقدة . .

ولكن المبشرات تمثل المستقبل الكبير الذي ينتظر الأمة الإسلامية وينتظر البشرية كذلك .

والمبشرات أثقل من المعوقات لأنها هي المتمشية مع الدلالة التاريخية . . دلالة بروز الصحوة الإسلامية في الوقت الذي تؤذن فيه الحضارة الغربية بالانهيار . .

والمعوقات قائمة اليوم، وفي المستقبل القريب، لأنه لا الحضارة الغربية قد انهارت انهارها الكامل، ولا الصحوة الإسلامية قد استكملت كيانها الكامل؛ وحين يقع الصراع بين قوتين على هذه الصورة تكون الغلبة في الجولات الأولى للكيان الذي يملك أسباب القوة المادية وإن كان آيلا للسقوط، لأن الكيان الذي يملك الحق يكون مايزال بعد في مرحلة الاستضعاف والابتلاء . .

ثم تجري السنن الربانية مجراها، ويخرج المؤمنون من الاستضعاف إلى القوة ممثلة في قاعدة مؤمنة صلبة مجاهدة صابرة محتسبة، تلتقي مع الجاهلية وجها لوجه، فيؤيد الله بنصره الفئة المؤمنة المجاهدة، وينصرها على أضعافها من المشركين :

«لقد كان لكم آية في فتين التقتا، فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين»<sup>(١)</sup>، والله يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار»<sup>(٢)</sup>

والحرب الأفغانية القائمة اليوم نموذج لما يمكن أن يجري عليه الحال في المستقبل . .

---

(١) كانوا ثلاثة أضعافهم في الحقيقة .

(٢) سورة آل عمران [١٣] .

والعالم كله - شرقه وغربه - يتكالب ليمنع انتصار المجاهدين الأفغان على الروس، لأنهم يعلمون أن هذا الحدث لو تم يمكن أن يغيّر مجرى التاريخ . .  
ولسنا ندرى الآن ما يكون من أمر هذه الحرب غدا، وإن كنا نرجوها التمكين والنصر. ولكننا نقول إنه حتى لو نجحت الصليبية المتعاونة مع معسكر الإلحاد والكفر في منع المجاهدين من النصر، حفظا لماء الوجه كما يقولون، وخوفا من النتائج التاريخية الضخمة المترتبة على هذا الحدث في الحقيقة، فستظل دلالاته التاريخية قائمة، وسيظل نموذجا لما يمكن أن تكون عليه المواجهة في المستقبل، حين يستكمل المسلمون بناء قاعدتهم الصلبة المؤمنة المجاهدة . . وحين تلتقي الجاهلية «بالأمة الإسلامية» مجتمعة، لا بشعب واحد من شعوبها تتكالب عليه بثقلها كله كما هو حادث في أفغانستان اليوم، ولا بجماعات متفرقة منعزلة في أرجاء العالم الإسلامي . .

والصليبية الصهيونية تتوجس من هذا الأمر، وتحاول أن تحطم القاعدة قبل أن تستكمل بناءها، لتظل هي محافظة على سيطرتها التي تفرضها اليوم على كل البشرية . .

ولكن الدلالة التاريخية ليست في الاتجاه الذي يرغبون . .

فقد انتهى دور الرجل الأبيض كما قال برتراندرسل قبل سنوات . . لا لأنه لم يعد يملك القوة العسكرية ولا القوة المادية ولا القوة العلمية . . ولكن لأنه أصبح عاجزا عن أن يصنع من ذلك كله «زادا» صالحا للحياة . .  
إنما الذي يملك الزاد هو الإسلام . .

وحين تتجه البشرية إلى الإسلام، فعندئذ فقط يصبح التقدم العلمي والتكنولوجي دافعا إلى الأمام، ومعينا على الخلافة الراشدة، بدلا من وضعه الحالي الذي يدفع البشرية إلى الانحلال النفسي والخلقي، كما يدفعها إلى الدمار . .  
والدلالة التاريخية التي أبرزت الصحة الإسلامية إلى الوجود اليوم، في الوقت الذي تميل فيه الحضارة المادية الغربية إلى الهبوط، هي قدر الله الغالب، الذي يشير إلى المستقبل . .

المستقبل للإسلام . .

تلك دلالة التاريخ . .

والتاريخ في حقيقته هو مجرى السنن الربانية في واقع الأرض . .  
وحين تقف الجاهلية كلها تحارب قدر الله ، فمن يكون الغالب ، ومن يكون  
المغلوب؟

«كتب الله لأغلبن أنا ورسلي . إن الله قوي عزيز» (١)  
«والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (٢)

---

(١) سورة المجادلة [٢١] .

(٢) سورة يوسف [٢١] .

# الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
نظرة إلى الجيل الفريد	١٥
صدق الإيمان، وجدية الأخذ من الكتاب والسنة، وصدق الجهاد في سبيل الله	٣٣
تحقيق معنى الأمة في صورته الحقيقية	٥٠
تحقيق العدل الرباني في واقع الأرض	٦٣
أخلاقيات لا إله إلا الله	٧٣
الوفاء بالمواثيق	٨١
الحركة العلمية الإسلامية	٨٥
الحركة الحضارية الإسلامية	١٠٠
خط الانحراف	١١٣
آثار الانحراف	١٦٥
١) التخلف العقيدي	١٦٥
٢) التخلف العلمي والحضاري والاقتصادي والحربي والفكري والثقافي	١٧٣
٣) الغزو الصليبي	١٨٦
٤) الغزو الفكري	١٩٥
دور الحملة الفرنسية	١٩٨

الموضوع ..... الصفحة

- ٢٠٥ ..... دور محمد علي
- ٢١٥ ..... دور الاحتلال البريطاني وأدواته في الإفساد
- ٢١٧ ..... «أ» مناهج التعليم
- ٢٣٥ ..... «ب» وسائل الإعلام
- ٢٥٠ ..... «ج» قضية تحرير المرأة
- ٢٩٥ ..... «د» مجال الفكر والأدب
- ٣٠٤ ..... «هـ» مجال السياسة
- ٣٢٤ ..... (٥) بروز الزعامات العلمانية وخلو الساحة من القيادة الدينية
- ٣٤١ ..... (٦) استيراد النظم والمبادئ من أوروبا
- ٣٥٢ ..... (٧) الانقلابات العسكرية واستخدام الاشتراكية لحرب الإسلام
- ٣٦٤ ..... الصحوة الإسلامية
- ٤٣٩ ..... قضية الحكم على الناس
- ٤٥٤ ..... منهج الحركة
- ٤٩٨ ..... السمع والطاعة
- ٥٠١ ..... القيادة المطلوبة
- ٥٠٣ ..... هل نتعلم في المدارس الجاهلية ؟
- ٥٠٧ ..... ماذا نتقلد من الوظائف في «المجتمع الجاهلي»
- ٥١٠ ..... هل نرغب الناس في الإسلام بذكر محاسن النظام الإسلامي ؟
- ٥٢٠ ..... التطرف
- ٥٢٦ ..... نظرة إلى المستقبل